غوستاف فلوبير

ترجمة الدكتور محمد مندور

مدام بوفاري



دار الآداب

غوستاف فلوبير

مدام بوفاري

ترجمة:

د. محمّد مندور



دار الآداب ـ بيروت

مدام بوفاري

غوستاف فلوبير/ روائي فرنسي

طبعة عام 2009

ترجمة د. محمد مندور

ISBN: 978-9953-89-116-3

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 11 - 4123

بيروت - لبنان

هاتف: 861632 (03) - 861633 (01)

فاكس: 009611861633

e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

website: www.adabmag.com

facebook: dar al adab

اهداء المؤلف

الى

ماري انتوان جول سينار

عضو نقابة المحامين بباريس ، والرئيس السابق
للجمعية الوطنية ، والوزير السابق للداخلية

ايها الصديق العزيز النابه :

اسمح لي بأن أسجل اسمك في صدر هذا الكتاب ، وأن أتوج بـه الاهداء ، إذ أنني مدين لك – قبل أي انسان آخر – بنشره . فبفضل دفاعك المجيد ، اكتسب كتابي هذا في نظري الخاص من الأهمية فوق ما كنت أرجو وأتوقع ..

فتقبل هنا تحية اعترافي بالجميل .. تحية لن تبلغ قط – مهما تكن – مستوى بلاغتك واخلاصك .

جوستاف فلوبير

باريس في ١٢ ابريل سنة ١٨٥٧

القسم الأول

الفصل الأول

كنا في حجرة الدراسة ، عندما دخل النـاظر يتبعه تلميذ جديد لا يرتدي الزي المدرسي ، وفراش يحمل قمطراً كبيراً ، فاستيقظ من كان نائماً ، وانتصب كل منا واقفاً ، وكأنه فوجيء على حين غرة برقيب على عمله !

وأشار الينا الناظر بالعودة الى الجلوس ، ثم التفت الى المدرس قائلاً في صوت خفيض : « مسيو روجيه .. هذا تلميذ أوصيك به . لقد التحق بالسنة الخامسة ، ولكن اذا بدا عمله وسلوكه مرضيين فسوف ينقل الى الفرق العليا التي تناسب سنه » .

وفي الزاوية الواقعة خلف الباب ، حيث لا يكاد يرى ، لاح التلميذ الجديد . كان عملاقاً ريفيـاً في نحو الخامسة عشرة من عمره ، أطول قامة منا جميعاً . وكان شعره منسقاً ومستوياً فوق جبهته ، كمغني القرية ، وقد ظهر عليه التحفظ والارتباك . وبالرغم من انـه لم يكن عريض المنكبين ، فـان سترته الخضراء ذات الأزرار السوداء كانت تضايق حركاته ، وقد انحسر كماها عن معصميه اللذين ألفا العري .. كما كانت قدماه — اللتان يكسوهما جوربان أزرقان — تبرزان من بنطلون أصفر ، تشده الحمالة شداً قوياً .. وفي طرفيها حذاءان سيئا التلميع ،

تنتشر فيها المسامير بكثرة ملحوظة .

وبدأ اختبار التلاميذ فيما لديهم من دروس ، فـأخذ التلميذ الجديد ينصت اليهم بكل جوارحه ، وكأنــه يصغي إلى موعظة في الكنيسة ، دون ان يجسر حتى على ان يضع ساقاً على ساق ، او ان يتكيء بمرفقيه على القمطر !.. وعندما دق الجرس في الساعة الثانية ، اضطر المدرس الى ان ينبهه كي يتخذ مكانه في الصف !

وكان من عادتنا ، إذا ما دخلنا حجرة الدرس ، ان نلقي بقلنسواتنا أرضاً ، كي تتحرر ايدينا لأداء الصلاة .. فكنا نقذف بها تحت المقاعد بمجرد بلوغنا عتبة الباب ، وبقوة تجعلها تصطدم بالحائط فتثير كثيراً من الغبار .. وكانت هذه الحركة من «الاصول المرعية» التي نتباهى بها!

غير ان التلميذ الجديد لم يلاحظ هذه الحركة ، او لعلــه لاحظها ولكنه لم يجرؤ على اتيانها .. فانتهت الصلاة وقلنسوته ما تزال على ركبتيه . وكانت قلنسوة من طراز معقد ، تجمع بين « الطاقية » ذات الوبر ، و « اللبدة » ، والقبعة المستديرة ، وقلنسوة الفراء ، والطاقية القطنية !.. وبالجملة ، كانت من تلك الأشياء المزرية التي يحمل قبحها الصامت من التعبيرات العميقة ما يحمله وجه الأبله !.. كانت بيضاوية، يرفع جوانبها هيكل مضلع في داخلهــا يكسبها الشكل المنتفخ ، وتبدأ بثلاث كريات صغيرة ، تتلوها قطع من المخمل ومن فراء الأرنب على شكل « المعين » الهندسي ، يفصل بينها شريط أحمر .. ويعقب ذلك شيء يشبه الكيس ، ينتهي بقطعة من الورق المقوى متعددة الأضلاع ، تكسوها رقعة مطرزة بأشرطة معقدة الأشكال ، ويتدلى منها حبل طويل جد رفيع ، في نهايته صليب صغير من خيوط مذهبة يشبه « الشرابة » !

.. كانت قلنسوة جديدة ذات حافة براقة !

وقال الأستاذ للفتى : « قف ! » فوقــف . وسقطت القلنسوة ، فانفجر التلاميذ جميعاً ضاحكين ، بينما انحنى هو فالتقطها ، ولكن جاره

أسقطها مرة أخرى بضربة من مرفقه ، فعــاد الفتى الى التقاطها من جديد . وكان المدرس حاضر النكتة ، فقال له : « تخلص يا أخي من خوذتك ! » .

وانطلق التلاميذ في ثورة مــن الضحك المجلجل ، أربكت الفتى المسكين ، حتى لم يعد يدري أيحتفظ بقلنسوته في يده ، أم يلقيها على الأرض ، أم يضعها على رأسه .. وأخيراً ، جلس ووضعها على ركبتيه .

وعاد الأستاذ يقول له : « قف .. ما اسمك ؟ » .. وتمتم التلميذ الجديد بــاسم غير مفهوم ، فهتف الأستاذ : « أعد ! » .. وكرّر التلميذ المقاطع ذاتها ، في تمتمة طغت عليها قهقهة زملائه جميعاً .. فصاح الأستاذ : « ارفع صوتك !.. ارفع صوتك ! » .

واستجمع التلميذ الجديد كل عزيمته ، وفغر فاهاً متّرامي الأبعاد ، وعبأ رئتيه ثم قذف باسم « شار بوفاري » وكأنه ينادي شخصاً !

وانفجر التلاميذ في ضجيج صاخب ، حاد ، مضطرد .. فأخذوا يصيحون ، وينبحون ، ويدقــون الأرض بأقدامهم مرددين : « شار بوفاري .. شار بوفاري ! » ، في نغمات مسترسلة ، لم تكن تهدأ — بعد مشقة بالغة — الا لتعود في ناحية من حجرة الدراسة ، او في صف بأكمله من صفوف التلاميذ ، تتخللها — هنا وهناك — ضحكة مكتومة، كصاروخ لم يخمد بعد تماماً ..

وأخيراً ، عــاد الهدوء الى حجرة الدراسة رويداً ، بعد وابل من العقاب ، وتمكن الاستاذ من التقاط اسم « شارل بوفاري » ، بعد ان طلب الى صاحبه ان يوضحه كتابة ، وهجاء ، وتلاوة !.. ثم أمر المسكين بــأن يذهب فيجلس على « مقعد الكسالى » تحت حافة المنصة مباشرة ، فشرع صاحبنا يتحرك . بيد أنه تردد قبل ان يبرح مكانه ، فسأله الأستاذ : « عم تبحث ؟ » .

وأجــاب التلميذ الجديد وهــو يتلفت حوله بنظرات قلقـة :

« قلنسو .. » !.. ولم يتم كلمته ، اذ انفجرت العاصفة من جديد ، فصاح الأستاذ في غضب هادر : « على كل منكم ان ينسخ خمسمائة بيت من الشعر » . وكانت صرخته أشبه بصيحة « نبتون » – اله البحار – التي أطلقها متوعداً الرياح إذ ثارت دون أمر منه ، على مـا جاء في الأساطير !.. وما لبث ان أضاف وهو يجفف جبينه بمنديل أخرجه من بين ثنايا ردائه المهلهل : « كفى !.. الزموا السكون ! » .. ثم التفت الى التلميذ الجديد قائلاً : « امـا انت ، فعليك ان تنسخ لي عبارة « انا مضحك » عشرين مـرة .. ثم أردف في صوت اكثر رقة : « لسوف تجد قلنسوتك ، فان أحداً لم يسرقها » !

وعاد كل شيء الى هدوئه ، وانحنت رؤوس التلاميذ فوق الأدراج ، بينما ظل التلميذ الجديد ساعتين في جلسة مثالية ، وان أخذت تنطلق – بين وقت وآخر – كرة من الورق الملوث بالمداد لتلطخ وجهـه . وكان يمسح المداد بيده ، ويستأنف جلسته بغير حراك ، وهو منكس البصر !

وفي حجرة الاستذكار – في المساء – أخرج من درجـه الكمين الأسودين اللذين يلبسان لصيانة كمي السترة وقت العمل ، ورتب أدواته البسيطة ، وأنجز في عناية كتابة العبارة التي فرضها عليه الأستاذ كعقاب ، ثم عكف على عمله في اخلاص ، باحثاً في القاموس عن جميع الكلمات ، غير مدخر جهداً . ولا شك ان هذه الارادة الطيبة هي التي حالت دون نقله الى فرقة دراسية أدنى من التي ألحق بهـا !.. ومع انه كان ملماً بقواعد اللغة الى حد ما ، الا انه لم يؤت رشاقة التعبير ، فقد كان قس قريته هو الذي بـدأ تلقينه اللاتينية ، اذ أرجأ أهله ارساله الى المدرسة أطول فترة ممكنة ، اقتصاداً للنفقات !

* * *

كان أبوه « شارل دني بارتلومي بوفاري » مساعد جراح سابق في الجيش ، تـورط في بعض المسائل المتصلة بالتجنيد في سنة ١٨١٢ ، واضطر الى ترك الخدمة . بيد انه كان قد وفق في استغلال مواهبه الشخصية، فظفر بصداق — «دوطة» — قدره ستون ألفاً من الفرنكات، حملته اليه ابنةِ صاحب مصنع للقبعات عشقت هيئته !.. فقد كان فارع القوام ، يحسن التهريج والشنشنة بمهازيه ، وقـد أرسل لحية متصلة بشاربيه ، واعتاد ان يزين أصابعه دائماً بالخواتم ، وان يتخير للملابسه الألوان الصارخة !.. وكان له مظهر الرجل الشجاع ، مع خفة المندوب الكثير الأسفار . وقد ظل يعيش — بعد الزواج — عامين او ثلاثة على ثروة زوجته ، ينعم بالغذاء الطيب ، ويستيقظ متأخراً ، ويدخن في غلايين كبيرة من الخزف ، ويتردد على المقاهي ، ولا يعود الى منزله في كل مساء الا بعد ان تغلق المقاهي أبوابها . حتى اذا مـات والد زوجته ، أحنقه ان الرجل لم يخلف ثروة تذكر ، فحاول ان يدير المصنع من بعده ، لكنه خسر بعض المال ، فآثر الانسحاب الى الريف حيث حاول ان يعملَ في الانتاج الزراعي .. غير أنـه لم يكن اكثر دراية بالزراعة منه بالصناعة .. وكان يمتطي الخيل بدلاً من ان يرسلها للحرث، ويشرب النبيذ بالزجاجة بدلاً من ان يبيعه بالبرميل ، ويأكل خير مافي حظيرته من دواجن ، ويؤشر حذاءي الصيد بشحم خنازيره ، فلم يلبث ان تبين ان من الخير له ان يتخلى عن استثمار ما بقي له من مال .

واستطاع ان يجد في احدى القرى المتاخمة لمقاطعتي (كو) و (بيكاردي)، مسكناً — يشبه دورِ الفلاحين بقدر ما يشبه دور السادة — مقابل مائتي فرنك في العام ، فاحتبس فيه نفسه مذ كان في الخامسة والاربعين من عمره ، وقد استبد به الغم ، وأخذ الندم ينهشه ، وراح يسب القدر ، ويحسد الناس ، ويعلن انه قد سئم البشر أجمعين .. وقرر ان يعيش في هدوء !

وكانت زوجته في البداية مدلهة في هواه ، فأبدت لـــه من مظاهر الاستكانة والخضوع ما زاده منها نفوراً !.. وكانت في فجر شبابها مرحة ، منطلقة ، تفيض نفسها حبـــاً ، فأمست بمضي الأعوام عصبية المزاج ، كثيرة الصياح ، ثائرة .. وكأنها النبيذ الذي تخلخل غطاء دنه فاستحال الى خل !

كانت قد تحملت أشد الآلام في بادىء الأمر ، دون ان تشكو من جريه وراء عاهرات القرية ، ليعود اليهـــا في المساء – بعد ان تلفظه عشرات المواخير – وريح الخمر تهب منـه !.. فلما ثارت كبرياؤها ، لم تملك سوى ان تكتم الغضب في صدرها ، ولاذت بنوع من الصمت الفلسفي لازمها حتى الموت !.. وكانت دائمة الحركة ، تذهب الى موثقي العقود ، وتسعى الى العمدة ، وترقب مواعيد استحقاق الصكوك فتسعى لارجاء دفعها واستمهال الدائنين .. أما في البيت ، فكانت تنهمك في الكي والحياكة والغسيل ، وتراقب العمال ، وتنقدهم أجورهم .. في حين لم يكن السيد يعبأ بشيء ، بل كان يستغرق في اغفاء عابس واجم ، لا يفيق منه الا ليوجه اليها عبارات جارحة ، ثم ينصرف الى التدخين بجوار المدفأة ، باصقاً بين الفينة والفينة على رمادها !

وعندما أنجبت طفلاً ، اضطرت الى ان تعهد به الى مرضعة .. حتى اذا عاد « المحروس » الى ابويه ، أسرفا في تدليله كما لو كان أميراً ، فكانت الأم تغذيه بالحلوى والمربى .. وكان الأب يتركه يرتع حافي القدمين ، ويتعلل – متفلسفاً ! – بأن طفله قادر على ان يظل عارياً كصغار الحيوانات !.. وكان الأب – على العكس من اتجاهات الأم – يتخيل في ذهنه صورة لما ينبغي ان تكون عليه رجولة الطفل ، فحاول – لتحقيقها – ان ينشىء ابنه نشأة خشنة على غرار الطريقة «الاسبرطية».. فكان يرسل الطفل الى الفراش دون ما نار تدفىء حجرته ، ليقوي بنيته! وكان يعوده على تناول جرعات كبيرة من « الروم » ، ويلقنه السخرية

من الطقوس الدينية !.. بيد ان الطفل كان هادئاً بفطرته ، فلم يستجب لهذه التوجيهات .

وكانت امه تجره خلفها دائماً ، وتصنع له من الورق المقوى لعباً ، وتروي له القصص ، وتؤثره بأحاديث لا نهاية لها ، يمتزج فيها المرح بالكآبة والمناجاة والتدليل . وفي تلك العزلة التي كانت تعيش فيها ، صبت في مخيلة الطفل كل مـا كان يخالج نفسها من طموح مشتت ، كانت تطمع في ان ترضي به كبرياءها المحطمة .. كانت تحلم له بأرفع المناصب ، وتتصوره وقـد كبر ، وغدا جميلاً ، حاضر البديهة ، متربعاً في احدى مناصب مصلحة الطرق والجسور ، او في احد مراكز القضاء . ومن ثم تولت تعليمه القراءة ، ولقنته اغنيتين او ثلاثاً ، كانت تعزف له الحانها على معزف قديم تملكه .

على ان مسيو « بوفاري » . لم يكن يحفل كثيراً بالثقافة ، فلم ير في كل هذه الجهود شيئاً ذا قيمة .. كان كل ما يعنيه هو التفكير فيما اذا كان سيقدر لهما يوماً ان يجدا ما يكفل لهما تعليم الطفل في مدارس الحكومة ، او ما يمكنهما من ان يبتاعا له مكتباً او متجراً . وكان – فوق ذلك – يعتقد ان الانسان يستطيع ان ينجح في الحياة .. بالصفاقة !.. أمـا مدام « بوفاري » فكانت تعض شفتيها حنقاً ، وهي ترى ابنها يتسكع في القرية .. اذ كان يحلو للطفل ان يتبع المزارعين في حرثهم وان يطارد الغربان بالطوب ، وان يقتطف التوت من فوق الاشجار ، ويرعى الديكة الرومية بقصبة طويلة ، ويتولى في اوقات الحصاد ، تقليب الحزم لتجف ، ويرتع في الغابة ، ويلعب « الحجلة » في فناء الكنيسة في الايام المطيرة !.. وكان يتوسل الى خادم الكنيسة ليتركه يدق الاجراس في الاعياد الكبيرة ، فيتعلق كل جسمه بالحبل الضخم ، وينعم بالاحساس بنفسه محمولاً على الهواء والحبل يتأرجح به !

وهكذا نشأ الصبي نشأة طبيعية ، كشجرة البلوط .. فأوتي بـدين

قويتين ، ولوناً بديعاً !

واذ بلغ الثانية عشرة من عمره ، ألحت امه في ان يبدأ دراسته ، فتعهده قس القرية ، غير ان الدروس كانت من القصر وعدم الانتظام بحيث لم يكن يرجى منها نفع كبير .. فقد كان القس يلقنه هذه الدروس في مخزن الكنيسة ، كلما سنحت له فرصة عابرة بين صلاة تعميد وصلاة جناز !.. وكان الطفل يتلقاها وهو واقف على قدميه .. بل ان القس كان يرسل في استدعاء تلميذه – في بعض الأيام – عقب فراغه من صلاة الغروب ، اذا لم يكن لديه ما يدعوه للخروج .. فكانا يصعدان الى حجرة القس ، ويجلسان للدرس على ضوء مصباح يحوم حوله الذباب وفراشات الليل .. وكان الجو الحار يغري الصبي بالنوم ، كما يغفو القس ويداه فوق بطنه ، فلا يلبث ان ينبعث الغطيط من فمه المفتوح !.. كذلك كان القس أثناء عودته من تقديم البركة لأحد المرضى في قرية مجاورة يلتقي أحياناً بشارل وهـو يتسكع في الحقول ، فيدعوه اليه ، ويقضي ربع الساعة في وعظة تحت شجرة ، ثم ينتهز الفرصة ليحمله على تصريف الفعل الذي كلفه باستذكاره .. وكثيراً ما كان يقطع عليهما الدرس سقوط المطر ، أو مرور أحد المعارف . وكان القس – بعد ذلك – يبدي رضاءه عن الصبي .. بل انه كان يقول ان له ذاكرة قوية !

ولم يكن لشارل ان يكتفي بهذا القدر من الدراسة ، اذ كانت امه قوية في اصرارها عـلى تعليمه .. ولم يشأ الوالد ان يقاوم ، اذ غلبه الخزي ، او – بالأحرى – التعب . ولكنهما تريثا عاماً آخر ، ريثما يتاح للصبي ان يتناول « القربان المقدس » الأول في حياته . وما ان انقضت ستة أشهر على ذلك ، حتى تقرر نهائياً ارساله الى مدرسة (روان) ، وصحبه ابوه بنفسه في اواخر شهر اكتوبر ،ابان موسم « القديس رومان ».

• • •

يستحيل على أحد منا ان يتذكر الآن شيئاً عن « شارل بوفاري »..
على انه كان عادي المزاج والطباع ،يلعب في فترات الفراغ ، ويستذكر في الحجرة المخصصة لذلك ، ويصغي بانتباه في حجرة الدرس ، ويأكل في المطعم ، وينام في « العنبر » .. شأن أي تلميذ آخر !.. وكان ولي أمره في (روان) تاجراً يبيع الحديد والخردة بالجملة ، في شارع (جانتيري) . وقد اعتاد ان يسمح له بالخروج من المدرسة في يوم واحـــد من أيام الآحـــاد في كل شهر . فكان يفد — بعد ان يغلق متجره — ليصحبه الى النزهة ومشاهدة السفن في الميناء ، ثم يعود به الى المدرسة في الساعة السابعة ، قبيل موعـــد العشاء . وفي مساء كل يوم خميس ، كان الصبي يكتب لأمه خطاباً طويلاً بالمداد الأحمر ، يغلفه جيداً ، ثم يستذكر دروس التاريخ ، أو يقرأ في كتاب قديم — عن رحلة « أنا كارسيس » — يعثر به مهملاً في غرفة الدرس . كما كان يحلو له — أثناء « الفسحة » ان يتحدث الى الخادم الذي كان من ابناء الريف مثله !

واستطاع بفضل اجتهاده ان يحتفظ دائماً بترتيب متوسط بين تلاميذ الفرقة . بل انه وفق مرة الى الحصول على جائزة في التاريخ الطبيعي . بيد ان والديه ما لبثا ان سحباه من المدرسة ، وهو لم يزل بعد في الفرقة الثالثة ، ليحملاه على دراسة الطب فقط ، اذ كانا يؤمنان بقدرته على ان يستكمل دراسته دون ما معونة !

واختارت له امه حجرة في الطابق الرابع من منزل يطل على ترعة (روبيك) ، عند رجل من معارفها يشتغل بالصباغة . وبعد ان دبرت أمر اقامته ، حصلت له على بعض أثاث تمثل في منضدة ومقعدين ، كما أحضرت من دارها سريراً قديماً من خشب الكريز . وابتاعت قرص مدفأة من الحديد الزهر ، وكمية من الأخشاب لتدفئة صغيرها المسكين !.. ثم رحلت في نهاية الاسبوع ، بعد ان أزجت اليه مئات الوصايا بأن يحسن

السلوك ، بعد ان غدا طليقاً بغير رقيب .

على ان « شارل » كاد يصعق ، حين رأى برنامج الدراسة في لوحة الاعلان .. كانت هناك دروس في التشريح ، ودروس في علم الأمراض (الباثالوجيا)، ودروس في علم وظائف الاعضاء(الفسيولوجيا)، ودروس في الصيدلة (الفارماكوبيا) ، ودروس في الكيمياء .. وفي النبات .. وفي التشخيص، والعلاج .. عدا علم الصحة، وعلم الطب ... أسماء كان يجهل اشتقاقاتها ومعانيها جميعاً ، فبدت له كأبواب هياكل تكتنفها الظلمات !

ولم يفهم من هذه الدروس شيئاً !.. بل انه لم يستطع — رغم اصغائه في انتباه تام — ان يدرك لها مغزى ! . وكانت لديه كراسات مجلدة واظب على تدوين دروسه فيها باجتهاد ، ولم يتخلف يوماً عن الطواف بأسرة المرضى في المستشفى .. كما كان يؤدي واجباته اليومية على نحو ما يفعل حصان الطاحونة ، اذ يدور في مكانه وهو معصوب العينين ، لا يعرف عن نوع الحبوب التي يسخر لطحنها شيئاً !

وكانت أمه ترسل اليه في كل اسبوع قطعة من اللحم المشوي ، فكان يتناول منها غداءه — اذا ما عاد من المستشفى — وهو جالس ينقر الحائط بحذائه .. ثم لا يلبث ان يعود الى الدروس في قاعة الجراحات أو « عنابر » المستشفى . حتى اذا أفل النهار ، عاد الى داره سالكاً الطريق الطويل عبر البلدة ، فيتناول ما يقدمه له صاحب المنزل من عشاء هزيل ، ثم يصعد الى حجرته ليعكف على الاستذكار أمام المدفأة ، والبخار يتصاعد من ملابسه المبللة ..

وفي أمسيات الصيف الجميلة ، حين تقفر الطرقات الحارة من المارة، وتلهو الخادمات بكرات من الفلين أمام الدور ، كان « شارل » يفتح نافذته ، ويتكىء بمرفقيه على حافتها ، ليطل على الترعة ، التي تجعل من هذا الحي من أحياء (روان) ما يشبه مدينة (بندقية) صغيرة ،

متواضعة . وكانت الترعة تنساب تحت بصره بين القناطر والأسوار ، تنعكس على صفحتها الألوان الصفراء ، والبنفسجية ، والزرقاء .. وقد جثا العمال على حافتها يغسلون أذرعهم بمائها ..

وعلى أسطح المنازل المقابلة ، كان يرى ضفائر غزل القطن وقد علقت الى عصي طويلة لتجف . وخلف تلك الأسطح ، كانت السماء الصافية تمتد ، والشمس تجرر أذيالها نحو الغروب .. لكم كان الجو يبدو له جميلاً ، والهواء منعشاً ، في ظلال الأشجار ... فكان يفتح طاقتي انفه بشدة ، ليجتذب على البعد روائح الريف التي لم تكن ترامى اليه !

وأخذ جسمه ينحف ، وقده يستطيل .. واكتسى وجهه وجوماً ساجياً اضفى عليه شيئاً من الجاذبية !.. وبدأ حماسه للدرس يفتر ، فكان من الطبيعي ان يتحلل من العهود التي قطعها على نفسه .. وكان ان تقاعس يوماً عن المرور لتفقد المرضى بالمستشفى .. وفي اليوم التالي تخلف عن احدى المحاضرات .. وشيئاً فشيئاً ، استساغ الكسل حتى انتهى به الأمر الى الانقطاع عن الدروس تماماً !.. وادمن ارتياد المقاهي ، وشغف بلعب « الدومينو » .. وخيل له ان في احتباس نفسه هكذا ، كل مساء ، في حانة قذرة ، حيث يقرع رخام المناضد بقطع « الدومينو » المصنوعة من عظام الخراف وقد حفرت فيها نقط سوداء .. خيل اليه ان في هذا العمل مظهراً للحرية يرفع من تقديره لنفسه !.. كان هذا – في نظره – مقدمة للحياة الدنيا ، وسبيلاً الى اللذات المحظورة !.. فكان يشعر عندما يضع يده على مقبض الباب – بعد عودته الى غرفته في المساء – بنشوة تكاد تشبه اللذة الحسية .

وتفتحت نفسه عن اشياء كثيرة كانت مكبوتة ، فحفظ عن ظهر قلب بعض الأغنيات التي كان يستقبل بها الزائرات ، وتحمس لبيرانجيه، مؤلف الاشعار الغنائية .. وتعلم كيف يمزج انواع الكحول .. واخيراً، عرف الحب !

وبفضل هذه الأعمال التحضيرية ، كان رسوبه في الامتحان شنيعاً ، بينما كان والداه يرتقبانه في دارهما ليحتفلا بنجاحه !

• • •

وعاد « شارل » سائراً على قدميه ، حتى اذا بلغ مدخل القرية ، توقف وارسل في طلب امه ، وقص عليها ما اصابه . فالتمست لـه الاعذار ، وعزت رسوبه الى ظلم الممتحنين ، وأولته بعض التشجيع ، آخذة على عاتقها تدبير الامور !.. ولم يعلم مسيو « بوفاري » بالحقيقة الا بعد خمس سنوات .. وكانت قد فقدت جدتها ، فتقبلها في تسليم ، وان لم يتصور ان من الممكن ان يكون في سلالته ابن خائب !

على ان « شارل » تحول الى الجد مرة اخرى ، فاقبل يراجع دروسه بغير توان ، واستظهر جميع المواد ، ففاز في الامتحان النهائي بدرجة لا بأس بها .. وما كان أسعد امه يوم نجاحه !.. فلقد أولمت يومذاك وليمة كبيرة !

والآن .. ترى اين يباشر مهنته ؟.. أفي (توست) ؟.. لقد كان هناك طبيب طاعن في السن تتوقع مدام « بوفاري » موته منذ امـد طويل ، فلم يتريث « شارل » حتى يودع الشيخ الحياة ، بل استقر في مواجهته كخليفة له !

ولكن الأمر لم ينته بتربية الابن ، وتعليمه الطب ، واتخاذ (توست) مقراً يزاول فيه مهنته .. اذ كان لا بد له من امرأة !.. ووجدت له امه الزوجة المنشودة .. ارملة احد محضري (دييب) .. لها من العمر خمس واربعون سنة ، ومن الدخل الف ومئتا فرنك !

ومع ان مدام « دوبيك » هذه كانت دميمة ، عجفاء كالوتد ، تملأ البثور وجهها كما تنتشر البراعم في الاشجار في فصل الربيع ، الا

ان فرص اختيار الزوج كانت واسعة امامها ، مما حدا بالأم « بوفاري» الى ان تجاهد كي تتغلب على الساعين للفوز بيدها !.. وبالفعل، استطاعت ان تحبط ألاعيب قصّاب كان رجال الدين يؤازرونه !

وكان « شارل » يخال ان الزواج سيمكنه من تحسين حاله ، فيغدو اكثر حرية وقدرة على التصرف في شؤونه الشخصية والمالية . بيد ان زوجته لم تلبث ان غدت صاحبة الأمر والسلطان ، حتى لقد كانت تملي عليه ما ينبغي ان يقول امام الناس وما يجب ان يمتنع عن قوله !.. وفرضت عليه ان يصوم ايام الجمعة ، وان يرتدي من الثياب ما تحب هي .. وان يلح في مطالبة العملاء الذين لا يدفعون اتعاباً !.. بل انها كانت تفتح خطاباته ، وتراقب حركاته ، وتسترق السمع خلال ثقوب الباب ، اذا ما حضرت الى العيادة بعض السيدات لاستشارته !

وفضلاً عن هذا ، كانت في حاجة الى كوب من « الكاكاو » كل صباح ، والى انواع من الرعاية لا حصر لها .. وكانت دائمة الكوى من اعصابها ، وصدرها ، ومفاصلها !.. يؤذيها وقع الأقدام .. وتثقل عليها الوحدة اذا غادرها .. فاذا سعى احد الى جوارها ، ظنت انه لم يأت الا ليشهد احتضارها !.. وكانت اذا ما عاد « شارل » في المساء ، تخرج من تحت اغطية الفراش ذراعيها العجفاوين لتطوق رقبته.. وما ان يجلس على حافة الفراش ، حتى تنطلق تبث همومها : فهو ينساها ، ويحب غيرها !.. ولقد تنبأوا لها بأنها ستشقى !.. ثم تنتهي من فيض الهموم والهواجس الى ان تسأله زجاجة من دواء يقوي صحتها.. وقدراً اكبر من الحب !!

الفصل الثاني

حوالي الساعة الحادية عشرة من احدى الليالي ، استيقظ « شارل » وزوجته وخادمها على وقع حوافر جواد مسرع . لم يلبث ان وقف امام باب دارهم . وفتحت الخادم نافذة المخزن ، وتبادلت حديثاً قصيراً مع رجل كان تحت النافذة .. واذ انبأها بأنه حضر لاستدعاء الطبيب ، وانه يحمل رسالة اليه ، هبطت درجات السلم وهي ترتجف من البرد ، وفتحت الأقفال ثم رفعت المزاليج تباعاً .

وترك الرجل جواده ، وسار خلف الخادم مقتحماً المخدع دون انتظار ، ثم اخرج من قلنسوته الصوفية ذات « الشرابات » الرمادية ، رسالة ملفوفة في اطواء قطعة خلقة من القماش ، وقدمها بأدب الى « شارل » الذي اتكأ بمرفقيه على الوسادة ليقرأها ، بينما وقفت «نستازي» ــ الخادم ــ الى جوار السرير تحمل الضوء .. ودفع الحياء زوجة الطبيب الى ان تظل مولية وجهها نحو الحائط ، وظهرها اليهم ..

وتضمن الخطاب ــ الذي كان مغلقاً بخاتم صغير من الشمع الأزرق ــ رجاء ضارعاً الى السيد « بوفاري » كي يبادر فوراً الى مزرعة (برتو) ليجبر ساقاً مكسورة .. وكانت المسافة بين (توست) و (برتو) تزيد على ستة فراسخ ، في طريق زراعي تمر بكل من (لونجفيل)

و (سانتا فيكتور) . وكان الليل حالكاً ، والسيدة الزوجة تخشى ان يحل بزوجها اي مكروه . لذلك استقر الرأي على ان يرحل الرسول . ثم يتبعه « شارل » بعد ثلاث ساعات - حين يشرق القمر - على ان يوفد الرجل غلاماً للقائه فيرشده الى المزرعة ، ويرفع ما قد يكون في طريقه من حواجز .

وفي نحو الساعة الرابعة صباحاً ، بدأ « شارل » رحلته الى (برتو) ، متدثراً بمعطفه . ولم يكن قد تخلص تماماً من سلطان الكرى ودفء السرير ، فترك دابته تحمله في خطوات هادئة تؤرجحه .. حتى اذا وقفت من تلقاء نفسها عند الحفر المحاطة بالاشواك - التي كان الفلاحون يحفرونها على حدود المزارع - استيقظ من اغفائه منتفضاً ، وتذكر صاحب الساق المكسورة ، فأخذ في استعراض كافة انواع الكسور التي عرفها .

وما لبث المطر ان كفّ عن السقوط ، واخذ النهار يدنو .. وعلى غصون اشجار التفاح العارية ، وقفت العصافير جامدة ، وقد نفشت ريشها لريح الصباح الباردة . وكان الريف يمتد على مرمى البصر ، ومجموعات الاشجار المحيطة بالمزارع تبدو كبقع بنفسجية داكنة على الفضاء الرمادي الشاسع الذي كان يختلط عند الافق بظلمة السماء ..

وكان « شارل » يفتح عينيه بين الفينة والفينة ، فلا يلبث النعاس ان يغلبه ، ويستسلم لسنة حالمة تختلط فيها حاضره بذكرياته .. حتى لقد خال لنفسه شخصيتين في وقت واحد : فهو طالب ، وزوج معاً .. وهو نائم على فراشه كما كان منذ هنيهة ، ثم هو يجوس في قاعة الجراحات كما كان يفعل ايام الدراسة .. واختلطت في رأسه رائحة العقاقير بأريج الخضرة الندية ، وبحفيف حلقات الستائر وهي تنزلق على قضبان السرير . وزوجته تغط في نومها !

واذ بلغ (فاسونفيل) لمح فتى صغيراً يجلس على العشب ، عند حافة حفرة ..

وهتف الغلام اذ رآه : « أأنت الطبيب ؟ »

واذ أجابه « شارل » ، خلع الغلام نعليه وامسك بهما بين يديه . وانطلق يعدو امامه ليرشده الى الطريق .

وادرك الطبيب من دايله اثناء سيرهمـا ، ان ساق مسيو « روو » – الذي كان ولا بد من اثرياء المزارعين – قـد كسرت مساء اليوم السابق ، وهو عائد من حفل لدى احد جيرانه ، وان زوجة هذا السيد قد توفيت منذ عامين ، وليس له الا ابنة تساعده في شئون المنزل .

وتخللت الطريق آثار عجلات اخذت تزداد عمقاً اذ اقتربا من (برتو). وما لبث الغلام ان اختفى خلال فرجة في سياج المزرعة ، ليعود بعد هنيهة الى الظهور عند نهايـة السياج ، فيفتح الباب .. وسار الحصان وحوافزه تنزلق على العشب المبتل .. واحنى « شارل » رأسه ليتجنب الأغصان .. واذ دخـل الضيعة ، اخذت كلاب الحراسة تنبح وتشد السلاسل التي تربطها الى مآويها ، فأجفل الجواد في فزع شديد ..

كانت ضيعة بديعة .. ومن خلال الابواب المفتوحة ، كانت ثمـة خيول ضخمة للحرث تأكل مطمئنة في مذاود جديدة .. بينما تكدست على طول الجدران اكوام السماد التي تتصاعد منها الأبخرة .. وبين الدجاج والديكة الرومية ، بدت خمسة طواويس او ستة تلتقط الحبوب ، وينم مظهرها على انها حقيقة مفخرة حظائر مقاطعة (كو) .

اما حظيرة الاغنام فكانت طويلة ، والمخزن عالياً مصقول الجدران.. وتحت المظلة ، كانت ثمـة عربتان كبيرتان ، واربعة محاريث كاملة بأسواطها ، واطواقها ، وسروجها التي اتسخ كساؤها الصوفي الازرق ، لفرط مـا كان يتساقط عليها من غبار المخازن .. وكان الفناء يرتفع تدريجياً ، وقد تخللته اشجار غرست على ابعاد منتظمة .. ومن ناحية

البحيرة ، انبعثت اصوات الأوز .

ولاحت لدى عتبة باب المنزل سيدة شابة في ثوب من الصوف محلى بثلاثة افواف (كرانيش) ، فاستقبلت السيد « بوفاري » وقادته الى المطبخ ، حيث كانت ثمة نار كبيرة يغلي فوقها طعام الفطور ، في قدور من جميع الاحجام .. والى احد جانبي المدفأة ، كانت ثمة ملابس مبتلة نشرت لتجف على الوهج .. وبدت المجرفة وقابضة الجمر والمنفاخ ضخمة الحجم ، تلمع كالصلب المصقول ، بينما رصت على طول الجدار ادوات للطهو كثيرة العدد ، انعكس عليها لهب الموقد ، تخالطه طلائع اشعة الشمس التي اخذت تنساب خلال زجاج النوافذ .

وما لبث « شارل » ان صعد الى الطابق الاول من الدار ، ليرى المريض ، فألفاه في فراشه ينضح بالعرق تحت الغطاء ، وقد ألقى طاقيته القطنية جانباً ..

كان رجلاً بديناً ، قصيراً ، في الخمسين من عمره ، ابيض البشرة ، ازرق العينين ، اصلع مقدم الرأس ، ويزين أذنيه بقرطين !.. وعلى مقعد قريب منه كانت ثمة قنينة خمر اخذ يرفعها الى فـــه بين الفينة والفينة ، ليشد من عزمه ، ويرفع من روحه المعنوية !

ولم يكد الرجل يرى الطبيب حتى خفف من هياجه .. وبدلاً من ان يمضي في سيل الشتائم التي كان يطلقها بسخاء منذ اثنتى عشرة ساعة ، تحول يئن انيناً خافتاً ..

وكان الكسر بسيطاً ، لم تصحبه اية مضاعفات .. بل ان « شارل » لم يكن يطمع في كسر اسهل منه !.. وتذكر لفوره مسلك اساتذته بجوار اسرة الجرحى ، فأخذ يشجع المريض بكل ما يعرفه من الكلمات الطيبة.. وبما تعلمه عن الجراحين من مواساة لطيفة تشبه الزيت الذي يدهنون به مباضعهم (مشارطهم) !

واخذ اهل المريض يبحثون في المخزن حتى جمعوا حزمة من السدابات

الخشبية ليتخذوا منها جبائر ، فتناول شارل واحدة منها شقها الى قطع عكف على صقلها بلوح مكسور من زجاج النوافذ ، بينما كانت الخادم تمزق بعض الملاءات ليتخذوا منها اربطة .. والآنسة « اما » — ابنة الرجل — تحيك وسادات صغيرة .. وكانت قد اضاعت وقتاً طويلاً في البحث عن صندوق ادوات الحياكة ، فلما استحثها والدها لم تجبه ببنت شفة ، وانما اقبلت على الحياكة .. وكانت كلما شكت الابرة اصابعها ، ترفع هذه الاصابع الى فمها وتمصها !.. واعجب « شارل » ببياض اظافرها اللامعة ، الدقيقة الاطراف .. كانت اكثر نصوعاً من عاج (دييب) ، وقد قصت على شكل اللوز !.. على ان يدها لم تكن — رغم ذلك — جميلة ، ولعل بشرتها كانت اقل صفاء مما ينبغي ، كما كانت بادية الجفاف عند مفاصل الاصابع .. كانت يداً مسرفة في الطول ، يعوزها شيء من ليونة التثني !.. ولكن جمال الفتاة كان يتركز في عينيها العسليتين اللتين كانت اهدابهما تضفي عليهما صبغة السواد .. واللتين كانت تنبعث منهما نظرات توحي للمرء بالصراحة المشوبة بالسذاجة الجريئة !

واذ انتهت عملية التجبير ، دعا مسيو « روو » الطبيب الى بعض الطعام قبل رحيله ، فهبط « شارل » الى بهو الطابق الارضي ، حيث ألفى المائدة معدة لشخصين ، الى جوار سرير كبير ذي غطاء من قماش محلى برسوم تمثل اشخاصاً من الاتراك . وكان المكان يتضوع بشذى زهر السوسن . وقد بدت بعض الملاءات النظيفة في صوان من خشب البلوط في مواجهة النافذة .. وفي الاركان ، رصت جوالات الحنطة التي ضاقت بها جنبات المخزن المجاور المتصل بالبهو بثلاث درجات حجرية ..

وكان يزين البهو رأس لمنيرفا [1] رسم بالقلم الاسود . واحيط باطار

---

[1] الهة الحكمة عند القدماء .

مذهب كتب تحته بالحروف القوطية : « الى أبي العزيز » .. وقد علقت الصورة الى مسمار في وسط الحائط الذي تساقط طلاؤه الاخضر بفعل الرطوبة .

* * *

وجلسَت الفتاة الى المائدة مع « شارل » .. وجرى الحديث : عن المريض – اولاً – ثم عن الجو وموجات البرد القارس ، والذئاب التي تعدو خلال الحقول في الليل . وكانت الآنسة « روو » لا تستطيب الاقامة في الريف ، لا سيما بعد ان غدت تضطلع وحدها – تقريباً – برعاية شئون المزرعة .. وكانت ترتجف اثنـــاء تناول الطعام ، لفرط رطوبة الصالة ، مما كشف قليلاً عن شفتيها المكتنزتين اللتين اعتادت ان تعضهما في اوقات الصمت ..

كانت رقبتها تظهر خلال يـــاقة مزدوجة ، وضفيرتاها السوداوان الناعمتان تبدوان – لفرط نعومتهما – قطعة واحدة ، تنشق الى شعبتين – عند منتصف الرأس – بخط مستقيم يتبع استدارة الرأس ، ثم تعود الشعبتان الى الالتقاء خلف الرأس في كعكة سميكة تنحدر منها خصلتان نحو الصدغ ، لا تكاد اذنا الفتاة تبينان خلالها .. وكانت هذه اول مرة يرى الطبيب الشاب فيها شعراً منسقاً بهذا الشكل !.. امـــا وجنتا الفتاة فكانت متوردتين .. وكانت ثمة عوينة في اطار من الصدف تتدلى من زرين في صدارها ، على نحو ما يفعل الرجال !

وصعد « شارل » ليودع الأب – « روو » – ثم هبط الى البهو ثانية ، فاذا الفتاة واقفة الى النافذة ، وقد اسندت اليها جبهتها ، واخذت تتأمل الحديقة ، حيث اطاحت الريح بالعصي الخشبية الصغيرة التي كانت تسند شجيرات الفاصوليا ..

وحين شعرت به ، التفتت اليه متسائلة : « أتبحث عن شيء ؟ » ..
فأجاب : « سوطي ، من فضلكِ ! » .

وراح يبحث فوق السرير ، وخلف الأبواب ، وتحت المقـاعد ..
غير ان السوط كان قد سقط على الارض بين الجدار والجوالات . وما
لبثت « ايما » ان لمحته ، فانحنت فوق جوالات القمح لتلتقطه .. ودفعت
الشهامة « شارل » الى ان يسرع فيمد ذراعه ليلتقطه قبلها ، فاذا به
يحس بصدره يمس ظهر الفتاة المنحنية أمامه .. وبادرت هي الى الاعتدال
وقد تضرج وجهها ، ثم التفتت اليه من فوق كتفها وهي تناوله سوطه
المصنوع من عصب الثور ..

وبدلاً من ان يعود « شارل » الى (برتو) بعد ثلاثة ايام كما
وعد ، جاء في اليوم التالي مباشرة ، ثم اخذ يتردد على الضيعة مرتين
في الاسبوع بانتظام ، عدا الزيارات غير المتوقعة التي كان يقوم بها من
آن الى آخر ، وكأنها محض مصادفات !

وسارت الامور على ما يرام ، وتم شفاء المريض .. وعندما رؤي
الأب « روو » — بعد ستة واربعين يوماً — يحاول السير وحده في بيته
العتيق ، اعتبر الناس مسيو « بوفاري » نطاسياً بارعاً ، لا سيما حين
اخذ الأب « روو » يردد انه ما كان من الممكن ان يحظى بعلاج من
اكبر أطباء (ايفتو) — او (روان) — يفوق العلاج الذي حظي به
على يد مسيو « بوفاري » !

ولم يفكر « شارل » في ان يسائل نفسه عن سر المتعة التي يستشعرها
في التردد على (برتو) .. ولو انه حاول التساؤل لما كان ثمة شك في
ان يعزو هذا الاسراف الى خطورة حال المريض ، او الى الكسب الذي
كان يرتقبه . ولكن ، احقاً كان هذا هو السبب في ان زياراته لتلك
الضيعة كانت تبدو — خلال شواغل حياته — كأحداث غير عادية ذات
جاذبية وفتنة ؟

• • •

كان في أيام تلك الزيارات يستيقظ مبكراً ، ويرحل في عجلة ، مستحثاً دابته .. حتى اذا ترجل أمام الدار ، مسح نعليه بالحشائش ، ولبس قفازيه الأسودين قبل ان يلج .. وكان يحس بالنشوة ، اذا ما بلغ الفناء ، وشعر بباب السياج يدور بجوار كتفه ليسمح له بأن يدخل ، وحين يسمع صياح الديكة فوق الجدار ، ويرى الأولاد مقبلين لاستقباله !.. واحب الأب « روو » الذي كان يربت يده ويدعوه بمنقذه !.. كما احب وقع حذاءي « ايما » على ارض المطبخ النظيفة .. كان كعباها العاليان يضيفان طولاً الى طولها .. وكان النعل الخشبي يرتفع – اذا ما سارت امامه – ليصطك بجلد الحذاءين في صوت مكتوم ..

وكانت الفتاة ترافقه دائماً عند انصرافه حتى بداية السلم الخارجي ، ثم تظل واقفة ريثما يحضر جواده .. وكانا يظلان صامتين – اذ يكونان عادة قد تبادلا تحية الوداع من قبل – والهواء الطلق يهب حولهما فيبعث ببعض خصلات الشعر الحائرة على عنق الفتاة ، ويهز طرفي حزام مرولتها على ردفيها فيرفرفان كما ترفرف الاعلام ..

وحدث في احدى المرات ان ذاب الجليد – وهي تقف عند مدخل الدار – فبلل الماء المنساب جذوع الاشجار ، وأخذ يتساقط من اسطح مباني الضيعة ، فتحولت « ايما » الى الداخل واحضرت مظلتها ففتحتها.. وكانت المظلة من الحرير المموج المتعدد الألوان ، المعروف باسم « رقبة الحمامة » ، فلما نفذت خلاله اشعة الشمس ، عكست على بشرة الفتاة الناصعة اطيافاً متأرجحة من الضوء .. وانبسطت أسارير وجهها وهي تستمرىء الدفء الذي بعثته الشمس في جسمها ، بينما كانت قطرات الماء تتساقط على حرير المظلة المشدود ، محدثة طرقات متتابعة ..

وكانت زوجة « شارل » لا تغفل – في الفترات الاولى لتردده على (برتو) – السؤال عن المريض .. بل انها افردت لمسيو « روو » صفحة بيضاء ، بديعة ، في مفكرة الحسابات التي كانت تحتفظ بها .

بيد انهـــا لم تكد تعرف ان له ابنة حتى اخذت تتحرى ، فعلمت ان الآنسة « ايما » ، التي نشأت في رعاية راهبات « الأورسلين » ، قد حظيت بما يسمونه « تربية راقية » ، ومن ثم فهي على دراية بالرقص والجغرافيا والرسم ، كما تحذق التطريز والعزف على « البيانو » .. وتلك كانت الطامة !

واخذت الزوجة تردد لنفسها : « هذا اذن مبعث كل هذا الاشراق الذي يتجلى على وجهه كلما ذهب لزيارتها !.. وهو السبب في حرصه على ارتداء صداره الجديد ، مجازفاً بتعريضه للمطر الذي قد يتلفه !.. آه .. هذه المرأة !.. هذه المرأة !.. » .. وكرهتها بالغريزة !

وقد كانت في بدايـــة الأمر تسري عن نفسها بتلميحات لم يفهمها « شارل » ، ثم باشارات عارضة كان يتجاهلها خشية العاصفة ، ثم – أخيراً – باستجوابات مباغتة لم يكن يدري كيف يجيب عليها .. « لماذا يتردد على (برتو) ما دام مسيو « روو » قد شفي ، ومـــا دام القوم لم ينقدوه بعد اتعاباً ؟.. آه !.. لا بد ان ذلك يرجع الى وجود شخص هناك .. شخص يحسن الحديث ويحذق تنميقه .. شخص لبق حاضر البديهة .. وهذا هو ما يجتذبه .. انه يتوق الى فتيات المدن !»

وتمضي في مساجلتها قائلة : « وهل ابنة الاب « روو » من فتيات المدن ؟.. هذا غير معقول ! لقد كان جدهم راعي غنم .. ولهم ابن عم اوشك ان يقدم الى المحاكمة لاشتراكه في نزاع مشين .. ففيم اذن التعالي ، وفيم اذن ارتداء الحرير للذهاب الى الكنيسة في ايام الآحاد ، وكأنها كونتة ؟.. لولا محصول اللفت لعجز ابوهـــا المسكين عن سداد ديونه في العام الماضي ! » .

وسئم « شارل » هذه النغمة البغيضة ، فكف عـــن التردد على (برتو) ، لا سيما بعد ان حملته « هلويز » – زوجته – على ان يقسم بالكتاب المقدس على ان لا يعود الى تلك الزيارات ، وبعد ان غمرته

بفيض من النحيب والقبلات في ثورة عاتية من الحب !.. بيد ان الرغبة القوية لم تلبث ان تمردت على استكانته وخنوعه . وفي نوع من الرياء الساذج ، اخذ يؤول قسمه .. فحظر رؤيته الفتاة لا يجرده من الحق في ان يحبها .. لاسيما وان زوجته عجفاء ، كبيرة الاسنان ، لا تتخلى قط — وفي جميع فصول السنة — عن الشال الاسود الصغير ، الذي كانت اطرافه تتدلى بين لوحي كتفيها .. وكان قدهـــا محشوراً دائماً في ثوبها وكأنه مغيب في غمد !.. ثم ان اثوابها كانت قصيرة ، تكشف عن ساقين معروقتين ، غاب قدماهما في جوربين رماديين عقدت فوقهما سيور حذاءيهما ..

وكانت ام « شارل » تفد لزيارتهما بين آن وآخـــر ، ولكنها لم تلبث ان احست — بعد زمن — ان زوجة ابنها اخذت تستثيرها ضده، اذ اصبحت المرأتان كسكينين تنحرانه بملاحظاتهما وتأنيباتهما .. فهـــو مخطيء اذ يلتهم كل هذا الطعام !.. ثم لماذا يقدم الشراب لكل وافد !.. ولماذا يركب راسه ويرفض باصرار ارتداء الفانلات » ؟!

* * *

وحدث في مستهل الربيع ، ان هرب احـــد وكلاء الاعمال من (انجوفيل) ، حاملاً معه كل ما كان مودعاً في مكتبه من اموال ، ومن بينها جل ثروة الارملة « دوبيك » . على ان « هلويز » وان ظلت تمتلك دارها الخاصة في شارع (سان فرانسوا) ، فضلاً عن حصة في احدى السفن تقدر بستة آلاف فرنك ، الا ان هذه الثروة المزعومة — التي كان لها دوي عال — لم يبد من آثارهـــا في بيت الزوجية سوى بعض الأثاث والملابس الخاصة ..

ولم يكن بد من مناقشة هـــذا الامر واستجلائه ، بعد هرب وكيل الاعمال .. فاذا بالمنزل قد استغرقه الرهن ، واذا مصير ما كان مودعاً

لدى وكيل الاعمال قد بات لا يعلمه الا الله وحده ، واذا نصيبها في السفينة لا يعدو – في الحقيقة – الف فرنك ! . اذن فقد كذبت السيدة الفاضلة !.. وفي سورة الغضب ، هشم مسيو « بوفاري » الأب مقعداً على البلاط ، واتهم زوجته بانها كانت السبب في شقاء ابنهما ، اذ ربطته الى تلك الفرس العجفاء التي لا يفضل سرجها جلدها !.. وكان الأبوان قد وفدا على (توست) لبحث هذا الموضوع ، فدارت معارك ارتمت «هلويز» خلالها على صدر زوجها وهي منهمرة الدمع ، تناشده ان يحميها من أبويه .. فلما اراد « شارل » ان يدافع عنها ، غضب والداه ورحلا ..

غير ان الصدمة كانت قد احدثت اثرها .. فبينما كانت « هلويز » تنشر الغسيل في صحن الدار – بعد ثمانية ايام – اصابتها نوبة جعلتها تبصق دماً .. وفيما كان « شارل » منهمكاً في اسدال الستار على النافذة – في اليوم التالي – وظهره نحوها ، هتفت : « آه يا الهي ! » ، وأرسلت زفرة غابت بعدها عن الوعي .. وماتت !.. ويا للعجب !

واذ انتهت كل مراسم الدفن ، عاد « شارل » الى المنزل .. ولم يجد أحداً بالطابق الارضي ، فصعد الى الطابق الاول ، وولج غرفة النوم ، حيث رأى ثوب زوجته الراحلة معلقاً بجانب الفراش . واسند رأسه الى مكتبه مستغرقاً في حلم حزين حتى المساء .. فلقد كانت تحبه على اية حال !!

الفَصْلُ الثَالِث

اقبل الأب « روو » ذات صباح يحمل الى « شارل » أجـــر علاج ساقه : خمسة وسبعين فرنكاً من القطع فئة الأربعين سنتاً ، وديكاً رومياً !.. وكان قد علم بمصابه فراح يواسيه ما وسعه ، قائلاً وهو يربت كتفه : « اني أدرك مـــدى مصابك ، فقد مرت بي نفس التجربة .. لقد كنت أنطلق في الحقول – بعد ان فقدت زوجتي المسكينة – لأخلو الى نفسي ، فأجثو عند ساق احدى الأشجار أبكي وأنادي الله ، وأهرف له بأقوال سخيفة !.. وكم وددت لو انني اصبحت مثل آكل الحشرات المعروف باسم « الخلد » ، الذي أراه على الأغصان والديدان تتلوى في بطنه !.. بل لقـــد ذهبت الى حد ان تمنيت لو انني نفقت كالدابة !.. وكنت اذا ما ذكرت ان سواي من الأزواج يضمون بين أذرعهم – في تلك اللحظة – زوجات لطيفات صالحات ، أدق الأرض بعصاي في عنف !.. كنت شبه مجنون ، حتى لقد أمسكت عن الطعام . وكان مجرد التفكير في الذهـــاب الى المقهى يثير اشمئزازي !.. لعلك لا تصدق !.. على ان الايام تتابعت ، يطرد كل منها الآخر في رفق .. واقبل ربيع في اعقاب شتاء ، وخريف في ذيل صيف .. وما لبث كل شيء ان تسرب رويداً وزايلني قطرة اثر قطرة .. او بالأحرى ، رسب

في أعماقي ، اذ لا بد من ان يبقى شيء في أغوار النفس ، او لا بد – كما يقولون – من ان يبقى فوق الصدر ثقل جاثم !.. على اننا يجب ان لا نسلم انفسنا لليأس ، او نطلب الموت ، اذا ما مات احد من أحبابنا ، ما دام هذا مصيرنا جميعاً !.. فانفض الحزن عن نفسك يا مسيو « بوفاري » تجده يفارقك !.. وتعالى لزيارتنا !.. أتعلم ان ان ابنتي تفكر فيك بين وقت وآخر ، وتتساءل : «أهكذا نسيني ؟».. هاهو ذا الربيع مقبل عما قريب ، وسنشركك معنا في اصطياد الأرانب لتسرى عن نفسك قليلاً ! »

وأخذ « شارل » بالنصيحة ، فذهب لزيارة (برتو) ، حيث ألفى كل شيء على ما كان عليه قبل خمسة أشهر .. وكانت أشجار الكمثرى قد أزهرت ، واستطاع الأب « روو » ان يسير على قدميه ، فكان يغدو ويروح باعثاً الحياة في المزرعة .. ورأى الرجل ان من واجبه ان يبالغ في اكرام الطبيب الى اقصى حد ، نظراً لنكبته المحزنة ، فطلب اليه الا يرفع قبعته ، وأخذ يتكلم اليه بصوت خفيض – وكأنه يتحدث الى مريض – بل انه أظهر غضبه لأنهم لم يعدوا للزائر شيئاً أخف من المعتاد ، كقدور القشدة والكمثرى المطبوخة . واخذ يروي له النوادر . فاذا بشارل ينسى نفسه ويضحك .. ثم لا يلبث ان يذكر زوجته فيعود الى وجومه . وعندما قدمت لهما القهوة ، لم يعد يفكر فيها !

واخذ تفكيره فيها يتضاءل كلما ازداد اعتياده على الحياة بمفرده . بل ان لذة الحرية التي عادت اليه حديثاً ، جعلته اكثر احتمالاً لحياة الوحدة ، فقد اصبح في وسعه ان يغير مواعيد طعامه ، وان يخرج ويدخل دون ان يضطر الى تقديم حساب عن حركاته ، وان يمد اطرافه على طول السرير وعرضه اذا ما شعر بالتعب . وهكذا اخذ يعنى بنفسه ويدللها ، ويستمرىء ما كان يوجه اليه من عبارات التعزية !

ولقد عاد عليه موت زوجته – فوق كل هذا – بنفع في مهنته

ليس بالقليل ، اذ ظل الناس شهراً بعد وفاتها يرددون : « يا للشاب المسكين !.. ويا لنكبته ! » .. وذاع اسمه ، فازداد عملاؤه .. كما اصبح يذهب الى (برتو) كلما شاء .. كان لديه امل بغير ما هدف واضح .. وفي نفسه سعادة غامضة !.. وأخذ يلاحظ ، كلما سوى لحيته بالفرجون امام المرآة ، ان وجهه يزداد سماحة !

• • •

وفي ذات يوم وصل الى (برتو) حوالي الساعة الثالثة ، والقوم في الحقول ، فدلف الى المطبخ .. ولم يفطن في البداية الى ان « ايما » كانت هناك ، اذ كانت النوافذ مغلقة . ومن خلال المصاريع ، كانت الشمس تلقي على الارض خيطاً من اشعتها طويلاً ، دقيقاً ، يتكسر على زوايا قطع الاثاث ، ويتذبذب على السقف .. وكان الذباب يتسلق جدران الاكواب الزجاجية التي كانت موضوعة على المائدة ، ويرسل طنيناً وهو يغرق في بقايا التفاح المتخلفة فيها .. وكان الضوء المنساب من المدخنة يضفي على بقايا الفحم – المتخلفة على قرص المدفأة المعدني – لمعة مخملية ، ويخلع على الرماد البارد غلالة زرقاء .

وكانت « ايما » تجلس بين النافذة والمدفأة ، وهي منهمكة في الحياكة .. ولم تكن ترتدي وشاحها ، فلاحظ « شارل » ان قطرات دقيقة من العرق تنتشر على كتفيها العاريتين .

وعرضت عليه – كعادة اهل الريف – ان تأتيه بشيء من الشراب ، فتمنع .. وألحت ، ثم دعته اخيراً – ضاحكة – الى ان يتناول معها كأساً من الخمر . وأحضرت من الصوان زجاجة بها شراب خفيف ، وكأسين صغيرتين ، ملأت احداهما حتى الحافة ، بينما لم تكد تسكب في الأخرى شيئاً ، وقدمت اليه الأولى ، وبعد ان قرعتها بالثانية ، رفعت

هذه الى شفتيها .

واذ كانت الكأس شبه فارغة ، فقد اضطرت الى ان تطوح رأسها الى الوراء ، لترشف ما بها من قطرات .. واخذت تضحك – وهي على هذا الوضع ، وشفتاها ممدودتان الى الامام ، ورقبتها مشدودة – اذ لم تكد تشعر بشيء من الشراب في فمها ، بينما امتد لسانها من بين اسنانها الدقيقة ليلعق ما في القاع !

وعادت الى الجلوس ، مستأنفة عملها في رفو جورب ابيض من القطن ، وقد نكست رأسها ، وكفت عن الكلام . وظل « شارل » صامتاً هو الآخر .. وكان الهواء ينساب من اسفل الباب ، حاملاً بعض الغبار ، فأخذ يرقب تموجاته ، وهو لا يسمع سوى وجيب النبض في رأسه يختلط بنقنقة دجاجة تضع بيضة في مكان ما بأقصى الفناء . وكانت « اما » ترطب وجنتيها – بين آن وآخر – بكفيها اللتين كانت تبردهما على حديد المدفأة الخامدة .

وكانت منذ اوائل الموسم تعاني دواراً ، فسألت « شارل » عما اذا كان الاستحمام في البحر يفيدها .. ثم تطرقت الى الحديث عن الدير الذي تعلمت فيه ، فتحدث « شارل » بدوره عن مدرسته .. وهكذا اتصل الحديث بينهما . وما لبثا ان صعدا الى غرفتها ، حيث اطلعته على كراساتها الموسيقية ، والكتيبات التي نالتها كجوائز . والتيجان المجدولة من اوراق البلوط التي كانت تحتفظ بها في قاع صوان .. كما حدثته عن امها ، وعن المقبرة .. بل لقد ارشدته – في الحديقة – الى الحوض الذي كانت تجمع منه الزهور في يوم الجمعة الاول من كل شهر ، لتضعها على قبر امها .. بيد ان البستاني الذي يعنى بالحديقة ، لم يكن ليفهم عن الازهار شيئاً .. كذلك كان الخدم جميعاً .. اغبياء ، لا تجني من ورائهم الا المتاعب !

وكانت تتمنى ان تعيش في المدينة ، ولو خلال الشتاء – على الأقل –

وان كان نهار الصيف الطويل قد يجعل الريف اكثر مللاً في هذا الفصل منه في الشتاء .. وكان صوتها يتغير تبعاً لما تقول : فهو تارة صاف ، واخرى حاد .. وقد يسري فيه فجأة خمول ينتهي به الى ما يشبه الهمس حين تخاطب نفسها .. ثم اذا به بعد لحظة قد انقلب مرحاً .. وعيناها !.. كانتا تحدقان في براءة ، ثم اذا بهما في نصف اغماضة ، اذ يشرد فكر صاحبتها او تغرق في السآمة !

وأخذ « شارل » — اثناء عودته في المساء — يستعيد عباراتها واحدة اثر واحدة ، يحاول ان يتذكرها ، وان يربط بعضها ببعض ، ليستكمل صورة واضحة للحياة التي كانت تحياها قبل ان يعرفها . غير انه لم يستطع قط ان يتمثلها في صورة تغاير تلك التي رآها عليها في اللقاء الأول .. او تلك التي تركها عليها في الوداع القريب .. وساءل نفسه عما قد تصير اليه اذا ما تزوجت .. ثم ، بمن تتزوج ؟.. واأسفاه !.. ان الأب « روو » واسع الثراء . وهي !.. كم هي جميلة !

وكان وجه « اما » لا يلبث ان يعود في اصرار ليستقر امام عينيه .. واخذ يتردد في اذنيه صوت رتيب ، في طنين مستمر لحوح : « هب انك تزوجت !.. نعم ، ماذا لو تزوجت ! »

* * *

ولم يجد الى النوم سبيلاً في تلك الليلة .. كان يحس بضيق وظمأ .. وما لبث ان نهض ليشرب من الابريق ، وفتح النافذة ، وراح يتطلع الى السماء المليئة بالنجوم .. كان النسيم دافئاً .. وتناهى اليه من بعد نباح الكلاب .. ثم ادار رأسه في اتجاه (برتو) .

وخطر له انه لن يخسر شيئاً على اية حال . فمنى نفسه بالتقدم لطلب يدها عندما تسنح الفرصة .. غير ان تهيبه وحيرته في اختيار العبـــارة

المناسبة ، كانا يعقدان لسانه كلما واتته الفرصة .

ولم يكن ليضير الأب « روو » ان يتخلص من ابنته التي لم تكن ذات نفع كبير في بيته .. وكان يلتمس لها – في قرارة نفسه – العذر ، اذ يدرك انها اذكى من ان تشتغل بالزراعة .. تلك الحرفة التي لعنتها السماء ، حتى ان احداً لم يصبح – باشتغاله بها – من اصحاب الملايين ! لقد كان يخسر كل سنة ، بدلاً من ان يجني من ورائها ثراء .. فبالرغم من تفوقه في المساومة ، والمامه بأساليب التجارة الماكرة ، كانت الزراعة بمعناها الكامل – وبما تنطوي عليه من فنون ادارة المزارع – اقل ملاءمة له منها لبقية الناس . فما كان ليخرج يديه من جيوبه ويشمر عن ساعديه طواعية واختياراً .. وكان في انفاقه بعيداً عن الاقتصاد ، حريصاً على الغذاء الطيب ، والمسكن الدافىء ، والفراش الوثير .. كان يحب نبيذ التفاح ، والافخاذ المحمرة ، والشاي الممزوج بالخمر مزجاً جيداً . وكان يتناول وجباته في المطبخ وحيداً ، امام المدفأة ، على منضدة صغيرة تعد مقدماً ثم تحمل اليه ، كما يحدث على المسرح !

واذ لاحظ ان وجنتي « شارل » كانتا تتوردان كلما اقترب من ابنته ، توقع ان يطلب منه يدها يوماً ما ، فأخذ يتدبر الأمر بأكمله مقدماً .. كان يراه وضيعاً بعض الشيء ، لا يتمثل فيه الصهر الذي كان يتمناه .. غير انه كان يعرف عنه حسن السلوك ، والاقتصاد .. وكان متعلماً .. ويلوح انه لن يساوم كثيراً فيما يتعلق بالصداق الذي سيقدمه الأب لابنته !.. واذ كان مضطراً الى ان يبيع اثنين وعشرين فداناً من ارضه ، ليتخفف من دين كبير عليه للبناء والنجار ، ولاصلاح دولاب المعصرة ، فقد اسر لنفسه قائلاً : « لسوف اعطيه « اياها » اذا طلبها » !

* * *

وذهب « شارل » الى (برتو) ليقضي ثلاثة ايام ، في عيد القديس

ميخائيل . وانقضى اليوم الاخير كسابقيه : في تردد وارجاء .. فلما تأهب للرحيل ، رافقه الأب بعض المسافة .. وسلكا طريقاً كثير الحفر ، حتى اذا اوشكا على الافتراق ، دار بخلد « شارل » ان الساعة قد حانت : اذ كان قد حدد لنفسه مهلة تنتهي عند السياج الخارجي للضيعة .. ولم يكد يجاوره ، حتى تمتم قائلاً : « مسيو روو .. اريد ان افاتحك في امر » .. ووقف السيد ، ولكن « شارل » اخلد الى الصمت !

وقال الأب ضاحكاً في رفق : « حدثني بأمرك . او تظن انني لم ادرك كل شيء ؟ »

فتمتم « شارل » قائلاً : « ايها الأب روو .. ايها الأب روو !.. »

وواصل المزارع حديثه قائلاً : « انني شخصياً لا اتمنى افضل منك .. ولكن للبنية رأيها ، ولا بد من سؤالها .. فابطىء في مشيتك ريثما اعود الى البيت .. وليس من الضروري ان ترجع – اذا ما اجابت بالقبول – حتى لا يفطن الناس الى شيء ، وحتى لا يشتد بالفتاة الانفعال .. ولكن ، لا تقس على اعصابك .. سأدفع مصراعي النافذة الى الجدار ، وافتحهما على وسعهما ، اشارة بذلك .. وتستطيع ان تتبين هذه الاشارة من الخلف اذا ما انحنيت على السياج »

وابتعد الأب .

وربط « شارل » جـواده الى شجرة ، وهرع الى الطريق الخلفي الضيق ، وأخذ ينتظر .. وانقضى نصف ساعة .. واحصى بعده تسع عشرة دقيقة .. وفجأة ، سمع صوت ارتطام بالجدار .. فقد فتح مصراعا النافذة .. وظلا يهتزان اثر اصطدامهما بالحائط !

ولم تحن الساعة التاسعة من الصباح التالي ، حتى كان في المزرعة ! وتضرج وجه « ايما » حين دخل الدار ، وان حاولت ان تضحك قليلاً لتبدو متمالكة لنفسها . وقبل « شارل » صهر المستقبل .. ثم اخذوا يتحدثون في المسائل المالية ، وان كانت امامهم فسحة من الزمن ، اذ لم يروا

ان يتم الزواج قبل ان ينتهي حداد « شارل » ، اي حوالي ربيع العام التالي .

* * *

وانقضى الشتاء في ترقب .. وشغلت الآنسة « روو » بجهازها الذي أرسل في طلب بعضه من (روان) . وحاكت لنفسها اقمصة وقلنسوات للنوم على نماذج استعارتها ، وكانوا ـ خلال زيارات « شارل » للمزرعة ـ يتحدثون عن تدابير العرس ، ويتساءلون عن القاعة التي ستقام فيها وليمة الزفاف ، ويحلمون بأصناف الطعام التي ستقدم . ويتناقشون في الصنف الذي ستفتتح به المائدة !

وكانت « ايما » تفضل ان يتم الزفاف في منتصف الليل ، على ضوء المشاعل . بيد ان الأب « روو » لم يستسغ هذه الفكرة .

وهكذا اقيمت وليمة العرس اخيراً ، فحضرها ثلاثة وأربعون شخصاً ، ظلوا حول المائدة ست عشرة ساعة ، ثم استأنفوا الوليمة في اليوم التالي ، والأيام التي اعقبته .. الى حد ما !

الفصل الرابع

أخذ المدعوون يتوافدون منذ ساعة مبكرة ، في عربات متباينة ، منها ذات المقعد الواحد والجواد الواحد ، ومنها ذات العجلات الأربع والمقاعد المتقابلة ، ومنها عربات عتيقة الطراز بغير مظلات ، وعربات مقفلة بستائر من الجلد . ومن القرى المجاورة إقبل شبان في عربات نقل مكشوفة ، اصطفوا عليها مستندين بأيديهم الي حوافها الخارجية كي لا يسقطوا منها وهي تخب بهم مهتزة في عنف . وجاء مدعوون من قرى تبعد عشرة فراسخ عن المزرعة ، مثل (جودرفيل) و (نورمانفيل) و (دوكاني) .. اذ كان اهل العروسين قد دعوا جميع اقارب الاسرتين، ووصلوا ما انقطع بينهم وبين بعض الاصدقاء ، وكتبوا الى معارف لم يكونوا قد رأوهم منذ زمن طويل !

وكانت فرقعة السياط تسمع من وقت الى آخر خلف السياج ، فيفتح الباب ، لتنفذ منه عربة تسير حتى الدرجة الاولى من سلم المدخل ، حيث تقف فجأة ، ويخرج ركابها من كل جانب يدلكون ركبهم ، ويمطون أذرعهم ، وقد توجت السيدات رؤوسهن بالقبعات الصغيرة ، وارتدين ازياء المدن ، وتحلين بسلاسل تنتهي بساعات ذهبية ، واتشحن بحرامل تتقاطع اطرافها عند الخصور ، او بشيلان صغيرة ملونة تثبت

اطرافها الى الظهور بدبابيس . وكـان الاطفال في ثيـاب شبيهة بثياب الرجال ، وقد لاح عليهم انهم كانوا يضيقون بملابسهم الجديدة .. بل كان الكثيرون منهم يخطرون في اول زوج من الاحذية الجلدية حصلوا عليه في حياتهم !.. وسارت الى جوارهم فتيات تتراوح اعمارهن بين الرابعة عشرة والسادسة عشرة ، لا شك في انهن اخواتهم او بنـــات اعمامهم واخوالهم ، وقد ارتدين ملابس حفلة « التناول » الأول ، بعد ان اطيلت اطرافها لتصلح للمناسبة الراهنة !.. وكن يسرن صامتات ، متوردات الخدود ، مبهورات .. ولاحت شعورهن لزجة لما عولجت به من دهان معطر بالورد .. كما بدا عليهن الحرص على ان لا يعرضن قفازاتهن للاتساخ ..

ولما لم يكن عدد السياس كافياً ، فقد شمر الرجال عن سواعدهم ، وباشروا بأنفسهم حل الخيل من العربات ، رغم ثيابهم التي تباينت تبعاً لمراكزهم الاجتماعية – بين « ردنجوت » ، وملابس سهرة ، وبزات فاخرة او عادية .. وكلها من الملابس التي تعنى بها الأسرات فلا تخرجها من الخزانات الا في المناسبات !.. وكانت بينها « الردنجوت » ذات الذيول الضافية تداعبها الريح ، او ذات الياقة الاسطوانية والجيوب الواسعة كأنها الحقائب .. وبينها بزات من الصوف السميك ، يرتدي اصحابها قلنسوات احيطت حوافها باطارات من نحاس .. ومعاطف قصيرة ثبت في خاصرتها من خلف زران متقاربان كأنهما عينان .. وقد بدت ذيولها وكأنما سوتها بلطة نجار !.. وكان الرجـــال الذين سيجلسون في ذيل المائدة يرتدون « اقمصة المناسبات » ذات الياقة المسدلة على الكتفين ، والثنيات الرفيعة في الظهر ، وقد شدت تحت الخصر بحزام مثبت في ثناياها .. كما شدت فوق الصدور – بفعل النشاء والكي – فبدت كأنها دروع !

وظهر واضحاً ان الجميع قصوا شعورهم حديثاً ، اذ كانت الآذان

بارزة على جوانب الرؤوس .. كما كانت الذقون حليقة ناعمة . وكان بعضهم قد اضطر الى ان يبدأ رحلته في مطلع الفجر ، فلم تكن ثمة اضاءة كافية وهم يحلقون ذقونهم ، مما ترك خدوشاً ممتدة تحت الانف ، او جراحاً متسعة بحجم العملة فئة الفرنكات الثلاثة ، وقد ألهبها نسيم الصباح البارد اثناء الطريق ، فاذا الوجوه البيضاء المشرقة ، تتناثر فيها بقع وردية !

* * *

وكانت دار العمدة تقع على مسافة نصف فرسخ من المزرعة ، فذهبوا اليها على الاقدام .. وعادوا بالطريقة عينها بعد ان تم الاحتفال في الكنيسة . وكان الموكب متماسكاً في بادىء الأمر ، فبدا كأنه شال موشى بالألوان ، يتموج على طول الطريق الضيق المتعرج بين الحقول الخضراء .. ثم لم يلبث ان استطال ، وتجزأ الى مجموعات ألهاها الحديث عن اللحاق بغيرها ..

اما العازف فكان يسبق الموكب بقيثارته التي حليت بالاشرطة ، يتبعه العروسان ، ثم الاهل ، فالاصدقاء ، دون ما ترتيب .. وفي المؤخرة، سار الاطفال يلهون بقطف زهور الشوفان ، او يلعبون فيما بينهم دون ان يفطن اليهم أحد .

وكان ثوب « ايما » مسرف الطول ، فكان ذيله يتجرر خلفها ، فتقف بين وقت وآخر لترفعه ، ولتنتزع عنه – باصابعها الدقيقة المكسوة بالقفاز – ما علق به من اعشاب خشنة واشواك ، بينما يقف « شارل » ساكناً في انتظارها ! .. وكان الأب « روو » يرتدي قبعته الحريرية الجديدة ، ومعطفه الاسود الذي بلغ كماه اظافر يديه ، وقد تأبط ذراع السيدة « بوفاري » الأم .. اما السيد « بوفاري » الأب – الذي

كان يحتقر في قرارة نفسه كـــل هؤلاء الناس ، والذي لم يرتد سوى « ردنجوت » ذات صف واحد من الازرار ، على نمط الملابس العسكرية — فقد اخذ يغازل ريفية شقراء آثرها بمداعبات ماجنة كانت وجنتاهـــا تتضرجان لها ، دون ان تدري بماذا تجيب !.. في حين انصرف بقية الحضور الى الحديث في شؤونهم ، او الى التغامز خفية — بعضهم على بعض — او الى استثارة المرح في انفسهم تأهباً للحفل المرتقب ..

وكانت انغام العازف — الذي واصل العزف خلال الحقول — تعاو اذا ما جنحوا الى الصمت .. فاذا ما أحس بـأنه سبق الموكب بمسافة طويلة ، وقف ليسترد انفاسه ، وليعالج قوس قيثارته بـ « القلفونية » ليشد اوتارها .. ثم يستأنف سيره رافعاً مقبض القيثارة تارة ، وخافضه اخرى .. والضجة المنبعثة تحمل الطيور الصغيرة على مبارحة مكانها ..

ومدت المائدة تحت مظلة العربات ، وعليها اربع قطع من « بيت الكلاوي » ، وستة اطباق من « صلصة » الدجاج ، و « كباب الحلة » المصنوع من لحم العجول ، وثلاث فخذات مشوية !.. وتربع في وسط المائدة خنزير صغير السن ، بديع المنظر ، جيد الشواء ، تحيط به اربعة حبال من « سجق » الخنزير المطبوخ !.. وفي اركان المائدة ، استقرت قوارير الخمر ، بينما كانت زجاجات نبيذ التفاح الفائر تبعث زبداً كثيفاً حول سداداتها . واترعت الاقداح مقدماً بالنبيذ الى حوافها ، وكانت القشدة الصفراء ترجرج في اطباقها الكبيرة لأقل حركة تصيب المائدة ، وقد نقشت عليها الحروف الأولى من أسمي العروسين في زخرفة عربية جميلـــة .

وكانوا قد عهدوا باعداد الحلوى والفطائر الى صانع من (ايفتو) استقر بالبلدة حديثاً ، فبذل عناية فائقة ، حتى لقد احضر بنفسه كتلة مزينة بالزخارف ، انتزعت صيحات الاعجاب من الحـــاضرين .. اذ كانت لها قاعدة من الورق المقوى تمثل معبداً ذا أروقة واعمدة تحف بها

التماثيل .. وتناثرت في الفجوات نجـــوم صنعت من الورق المذهب .. وفي الطابق الثاني منها ، صنع الرجل برجاً من فطير « سافوا » ، تحيط به تحصينات صغيرة من الحلوى واللوز والزبيب وفصوص البرتقال .. وفوق سطح هذا الطابق ، صنع من الحلوى ما يمثل حقلاً اخضر به صخور غارقة في بحيرات من المربى ، تعلو سطحها زوارق من قشر البندق .. وفي الحقل ارجوحة من الشكولاتة تعلق بها تمثال صغير للحب ، وقد توج عاموداً الارجوحة ببرعمين من الورد الطبيعي !!

وظل القوم يأكلون حتى المساء .. وكلما امضهم طول الجلـــوس ، نهضوا يتمشون في الافنية ، او يمارسون بعض الالعاب في المخزن .. ثم لا يلبثون ان يعودوا الى المائدة !.. وغلب النوم بعضهم قبيل الختام، فتصاعد غطيطهم ، بيد ان النشاط لم يلبث ان سرى فيهم من جديد حين تناولوا القهوة ، فراحوا يرددون الاغاني ، ويتبارون في ألعاب القوى وحمل الاثقال والحيل التي تعتمد على المهارة اليدوية .. وتبارى بعضهم في رفع العربات فوق اكتافهم .. وفي تبادل النكات ، وتقبيل السيدات !!

وفي المساء ، تأهبوا للرحيل . ولكن شد الخيول الى العربات – بعد ان اتخمت بالشوفان – كان من اصعب العمليات ، اذ راحت تركل، وتتمرد ، وتكسر الأعنة ، واصحابها يسبون او يضحكون .. وكنت ترى طوال الليل – وفي ضوء القمر – عربات انطلقت على طول الطريق، تعدو خيولها الجامحة ، فتهبط بها في الحفر حيناً ، وتقفز بها فوق اكوام الاحجار حيناً آخر .. ثم اذا بها تتسلق المنحدرات ، وقد اطلت من جنباتها النساء يتشبثن بالأعنة !

اما من بقي في (برتو) من ضيوف العرس ، فقد قضوا الليل يشربون في المطبخ ، بينما نام الاطفال تحت المقاعد .

* * *

وكانت العروس قد سألت أباها ان يجنبها المداعبات التي يتعرض لها العرسان في ليلة الزفاف .. بيد ان سماكاً من ابناء عمومتها راح ينفث الماء من ثقب باب مخدع العروسين ، رغم انه لم يحمل اليهما هدية ما .. سوى زوج من سمك « موسى » !!.. على ان الاب « روو » اقبل في لحظة مناسبة ليصده عن المضي في نفث الماء ، مبيناً له ان دقة الموقف لا تسمح بمثل هذه الدعابة المستهجنة .. ومع ان ابن العم انصرف عن دعابته ، الا انه لم يقتنع تماماً بمنطق الاب « روو » ، واتهمه في قرارة نفسه بالصلف والكبرياء . وما لبث ان انضم — في احد الاركان — الى اربعة او خمسة من المدعوين كانت المصادفات قد ساقت اليهم أرداً قطعة من اللحم حملتها المائدة ، فخيل اليهم ان ثمة تعمداً لاساءة اكرامهم ، وراحوا يتهامسون مغتابين مضيفهم ، متمنين له — في ألفاظ غير صريحة — كل شر !

اما السيدة « بوفاري » — الأم — فقد ظلت طيلة اليوم صامتة ، اذ لم يحفل احد باستشارتها بصدد ثوب العروس ، او اعداد الوليمة . وما لبثت ان أوت الى فراشها في وقت مبكر .. وبدلاً من ان يتبعها زوجها ، ارسل في طلب عدد من السيجار من (سان فيكتور) ، وبقي حتى الصباح يدخن ، ويحتسي مزيجاً من الخمور — « كوكتيل» — لم يكن مألوفاً لدى اهل الريف ، مما رفع من شأنه في اعينهم !

وما كان « شارل » يوماً حاضر النكتة والفكاهة ، ومن ثم لم يتألق في حفل عرسه ، بل انه كان يرد في غباء ، على ما وجهه المدعوون اليه من غمزات وفكاهات ومجاملات ومداعبات منذ جمعتهم الوليمة ..

على انه لاح في اليوم التالي رجلاً آخر يناقض ذاك الذي كانه في الليلة السالفة ، وكأنما كان ليلتذاك عذراء يلجمها الخفر !

اما العروس ، فلم يظهر عليها ما ينم عما كان يجول في نفسها ، حتى ان اكثر الحاضرين فراسة لم يستطع ان يتكهن بشيء عن حالتها

النفسية ، واكتفوا بأن راحوا يمعنون في التحديق في وجهها كلما مرت على مقربة منهم !.. على ان « شارل » لم يعمد الى شيء من التكلف، بل اخذ يدعوها بزوجته ، ويخاطبها في غير كلفة ، ويسأل عنها كل انسان ، ويبحث عنها في كل مكان – دون ما حرج – كلما افتقدها !.. وكثيراً ما كان يقتادها الى الافنية ودروب الحديقة .. وكان يشاهد عن كثب وقد طوق خصرها بذراعه ، او وهو يسير الى جوارها ، وقد مال نحوها ورأسه يفسد استواء صدارها المكوي !

* * *

ورحل العروسان بعد الزفاف بيومين ، اذ لم يكن « شارل » ليملك ان يغيب عن مرضاه أمداً أطول مما غاب ..

وصحبهما الاب « روو » في عربة حتى (فاسونفيل) ، حيث قبل ابنته مودعاً ، ثم عاد ادراجه .. ولم يكد يخطو مائة خطوة تقريباً حتى توقف ، ثم التفت الى العربة ، فلما رآها تبتعد وقد اخذت عجلاتها تثير الغبار ، ارسل زفرة طويلة ، وذكر عرسه ، والأيام الخوالي .. وارتدت الى ذهنه ذكرى اول حمل لزوجته .. وتصور ما كان عليه من سعادة وغبطة يوم جاء بزوجته من منزل ابيها الى منزله ، اذ اردفها خلفه على جواده وانطلق على الجليد .. فقد تم عقد القران في رأس السنة ، والحقول مكسوة جميعها بالجليد الناصع .. وكانت تتشبث به باحدى ذراعيها ، بينما امسكت باليد الاخرى سلتها .. والريح تداعب اشرطة شعرها – المنسق على طريقة اهل (كو) – فتدفع اطرافها لتلمس فمه .. ومن آن لآخر ، كان يلتفت اليها ، فيلمح فوق كتفه وجهها الوردي الصغير ، الذي اشرق بابتسامة صامتة ، تحت قرص ذهبي ازدانت به قبعتها .. وكانت تدس اصابعها في صدره بين الفينة والفينة، التماساً للدفء !

آه !.. لقد تلاشى كل ذلك في ادراج الزمـــان !.. لو ان طفلها الاول عاش ، لكان اليوم في الثلاثين من عمره !

والتفت خلفه فلم ير شيئاً في الطريق .. وغشيته كآبة موحشة ، وقد خيل اليه ان نفسه غدت كالبيت الخاوي المهجور !.. وامتزجت الذكريات العذبة بالذكريات الاليمة ، في رأسه الذي اثقلـــه الشراب .. واحس برغبة في ان يعرج على الكنيسة. بيد انه خشي ان تزداد شجونه ، فيمم صوب داره رأساً ..

ووصل السيد « شارل » وزوجته الى (توست) في نحو الساعة السادسة، فاذا الجيران في النوافذ يرتقبون الزوجة الجديدة لطبيبهم ..

وتقدمت الخادم العجوز فحيتها ، واعتذرت لان العشاء لم يعد بعد، ثم سألت السيدة ان تتفقد منزلها ، ريثما تعد المائدة .

الفصل الخامس

كان المنزل مشيداً من الطوب ، وواجهته نحو الطريـق .. وخلف الباب ، كان ثمة معطف ذو ياقة صغيرة ، معلقاً مع عنـان جواد ، وقلنسوة من الجلد الاسود .. وعلى الارض ، قبع في احد الاركان زوج من أحذية الركوب ذات الرقاب الطويلة ، يعلوه بعض الطين الجاف .. والى اليمين ، امتدت الردهة الوحيدة التي كانوا يأكلون فيها ويجلسون .. وقد علقت الى احد الجدران الرديئة الطلاء ، ورقة صفراء اللون ، وفي طرفها الاعلى باقة من الزهر الباهت اللون . وكانت الستـائر القطنية البيضاء – المحلاة بشرائط حمراء – تتقاطع على النوافذ ، بينما كان يلمع على حافة المدفأة الضيقة ، بندول ساعة يعلوه رأس « ابقراط »[1] ، وقد قام الى جانبه شمعدانان من الفضة ، تحت مظلتين بيضاويتي الشكل ..

وفي الناحية الاخرى من المدخل ، كان مكتب « شارل » .. حجرة صغيرة عرضها ست خطوات تقريباً ، تضم منضدة وثلاثة مقـاعد ، فضلاً عن مقعد خاص للمكتب .. واحتل الأرفف الستة في مكتبة من خشب القرو ، قاموس العلوم الطبيعية بـأجزائه التي لم تفض صفحاتها

---

١ – ابقراط هو ابو الطب عند الاغريق .

بعد ، رغم ما لحق بغلافاتها من تلف ، بسبب عمليات بيعها المتتالية !
وكان عبير الطعام ينساب من المطبخ متسرباً خلال جـدران غرفة المكتب اثناء فحص المرضى .. كما كان سعال المرضى المنبعث داخل غرفة المكتب يسمع في المطبخ ، فضلاً عن قصصهم بحذافيرها !
وكانت تلي غرفة المكتب مباشرة ، حجرة كبيرة ، مهدمة ، تطل على الفناء الذي يضم الحظيرة . وكانت تحوي فرناً ، غير انها كانت تستخدم كمخزن للحطب ، والأغذية ، والمهملات ، وقد امتلأت بقطع الحديد القديمة ، والبراميل الفارغة ، وآلات الزراعة المهملة ، واكداس من اشياء اخرى مغبرة ، كان من المستحيل التكهن مما تستخدم فيه .
اما الحديقة فكانت مستطيلة ، يحدها جدران من الطين – حفت بها اشجار المشمش – وتنتهي بسياج من الاشواك يفصل بينها وبين الحقول . وكانت تتوسطها « مزولة » – ساعة شمسية – من الاردواز ، اقيمت على قاعدة حجرية .. واربعة احواض من نبات « النسرين » تحيط – في انتظام – بحوض خامس زرعت فيه نباتات اكثر نفعاً .. وتحت شجيرات السرو ، في الطرف الأقصى للحديقة ، قام تمثال من الجص يمثل قساً يقرأ في كتاب الصلوات !

وصعدت « ايما » الى الطابق العلوي ، فاذا بأولى حجراته تكاد تكون خالية من الاثاث تقريباً ! .. اما الحجرة الثانية – وهي مخدع العروسين – فكانت تضم سريراً من خشب « الأكاجو » داخل فجوة في الجدار احاطت بها ستائر حمراء ! وكان يزين خزانة الثياب صندوق من الصدف .. والى جوار النافذة مكتب عليه آنية بهـا باقة من زهور البرتقال الجافة ضمتها اشرطة من « الستان » الابيض .. وكانت باقة عروس .. العروس الاولى !!
ولاحظ « شارل » اتجاه نظرات « ايما » الى الزهور ، فتناولهـا وذهب بها الى المخزن .. وجلست « ايما » في مقعد مريح اثناء ترتيب

حاجياتها ، وقد سرح خاطرها الى باقة عرسها التي وضعت في صندوق من الورق المقوى .. وساءلت نفسها – وهي مسترسلة مع احلامها – عما يمكن ان يحل بتلك الباقة .. لو انها ماتت بدورها !

• • •

انفقت « ايما » الايام الاولى في تدبير التعديلات التي شاءت ان تجريها في البيت ، فنزعت المظلات – « الاباجورات » – عن المشاعل والصقت بها كساء جديداً من الورق ، وأعادت طلاء السلم ، ووضعت حول المزولة – في الحديقة – بعض المقاعد .. بل انها راحت تفكر في الحصول على نافورة وحوض تسبح فيه الإسماك !

واذ كان زوجها يعلم انها تحب النزهة في العربات ، فقد وفق الى عربة مستعملة ، زودها بمصابيح جديدة ، و « رفارف » من الجلد .

وأصبح « شارل » هانيء البال ، لا يحمل هماً .. حياته وجبات يتناولها مع « ايما » .. ونزهات مسائية برفقتها في الطريق العام . وكان يستشعر متعة في العبث بضفائرها ، وفي رؤية قبعتها الخصوصية معلقة الى مزلاج النافذة .. وفي كثير من الامور الشبيهة ، التي لم يخطر له يوماً ببال انها يمكن ان تكون مبعث سرور !

وكان ، اذا ما استيقظ في الصباح وظل مستلقياً الى جوارها على السرير ، يتأمل ضوء الشمس وهو يتخلل زغب وجنتيها البضتين اللتين كان جناحا قلنسوة النوم ينسدلان الى منتصفيهما .. وكان اذا حدّق في عينيها عن قرب ، خالهما اكثر اتساعاً .. لا سيما وهي تفتح جفنيها وتطبقهما مرات متتابعة ، ريثما تألفان الضوء عند اليقظة !.. وكانتا تبدوان سوداوين في الظلال ، وزرقاوين قاتمتين في ضوء النهار .. بل لقد يخالهما تتألفان من طبقات متباينة من ألوان تبدو كثيفة في اغوار الحدقة ، ثم تشف شيئاً فشيئاً كلما اقتربت من السطح !

وكانت نظراته تضل في اعماق هاتين العينين .. عينيها !.. وكان يرى صورته – حتى الكتفين – تنعكس مصغرة على حدقتيها ، وقد لف منديلاً حريرياً حول رأسه ، وترك صدر قميصه مفتوحاً .

• • •

فاذا ما نهض وتهيأ للخروج ، وقفت « ايما » عند النافذة تودعه ، ثم تظل مستندة الى حافتها بين آنيتين من زهور « الجيرانيوم » : وهي في ثوب فضفاض .. وبينما ينهمك « شارل » – وهو في الفناء – في تثبيت مهمازيه ، رافعاً قدميه تباعاً الى حافة السور ، كانت تأخذ في الحديث اليه من أعلى ، وهي تلتقط بفمها نتفاً من الزهر او من العشب الاخضر ، ثم تنفثها نحوه ، فتتطاير في الهواء مرفرفة في حركة نصف دائرية كالعصفور ، حتى تعلق بالشعر الاشعث المنتثر فوق عنق الفرس العجوز البيضاء التي تقف لدى الباب بلا حراك .. وما ان يعتلي « شارل » صهوة الجواد ، حتى يرسل اليها قبلة في الهواء ، فترد بايماءة ، ثم تغلق النافذة ، بينما يشرع هو في رحلته ، فينطلق في محاذاة الجسر الذي ينبسط امامه كشريط من غبار لا نهاية له ، ويمضي في دروب بين الاشجار الوارفة ، وأزقة ضيقة يرتفع القمح على جوانبها الى الركبة .. والشمس تستلقي على منكبيه ، وهواء الصباح يملأ خياشيمه .. وقد افعم فؤاده بما ناله في ليله من لذات .. وسرت الطمأنينة الى نفسه ، والراحة الى جسده !

وكان يواصل السير وهو يجتر سعادته في تذوق من يتلمظ بعد الغداء بما خلفه « عش الغراب » في فمه من طعم !.. متى كانت الحياة رفيقة به كما هي الآن ؟.. افي ايام الدراسة ، حين كان محبوساً بين جدران المدرسة ، وحيداً وسط زملاء يفوقونه ثروة واستيعاباً للدرس ، ويسخرون من لهجته الريفية ومن ملابسه ، ويعيرونه بأن احداً لا يزوره كما كانت

امهاتهم يفدن لرؤيتهم – في حجرة الاستقبال بالمدرسة – وقد حملن لهم الفطائر ؟! . ام في فترة دراسة الطب ، عندما لم تكن حافظته تضم من النقود ما يمكنه من صحبة تلك العاملة الصغيرة التي كان من الممكن ان تغدو عشيقته ؟!.. ام في الشهور الاربعة عشر التي عاشها زوجاً لتلك الارملة التي كانت قدماها تستحيلان – في السرير – الى قطعتين من الثلج ؟!

ما ابعد كل هذا عن حاضره : وقد اصبح يمتلك – ما عاش – هذه المرأة الجميلة التي يعبدها !.. لقد اصبح العالم في نظره لا يتجاوز محيط « جونلتها » الحريرية !

وكان يلوم نفسه اذ يخيل اليه انه لا يحبها كما يجب !.. وما كان ليطيق عنها بعداً ، فيتعجل العودة ، ويصعد سلم الدار بقلب خافق ، ثم يتسلل الى حجرتها في هدوء ليفاجئها وهي تتزين ، فيطبع على ظهرها قبلة قبل ان تحس بوجوده .. فتصرخ جزعة !

ولم يكن يقوى على كبح يديه عن ان تتحسسا دوما مشطها وخواتمها وشالها .. وكان يطبع على وجنتيها احياناً قبلات كبيرة ، بملء فمه ، او يغطي ذراعيها بقبلات خفيفة من اطراف اصابعها حتى كتفيها ، وهي تدفعه في مزيج من الضيق والابتسام ، كما نفعل بالطفل اذ يتشبث بنا !

والواقع ان « ايما » كانت تعتقد قبل الزواج انها قد وقعت في الحب . فلما لم تحصل على ما كانت تخاله مترتباً على هذا الحب من سعادة ، توهمت انها كانت على خطأ ، وأخذت تسائل نفسها عما تعنيه عبارات النشوة والعاطفة والهيام التي كانت تقرأها في الكتب فتبهرها !

الفصل السادس

كانت قد قرأت قصة « بول وفرجيني » ، فحلمت بالبيت الصغير المقام على اعواد الغاب ، وبالعبد « دومينجو » والكلب « امين » .. كما احست – بوجه خاص – بتلك الصداقة الرقيقة التي نلمسها في أخ صغير يسعى ليجتلب لنا فاكهة وردية من اشجار ضخمة يفوق ارتفاعها ابراج الكنائس .. او يعدو على الرمال حافياً وقد حمل الينا عش عصفور !

ولما بلغت الثالثة عشرة من عمرها . اصطحبها ابوها الى المدينة ليلحقها بالدير ، فنزلا في فندق بحي (سان جرفيه) ، حيث قدم لها العشاء في صحاف موشاة برسوم تمثل حياة « مدموازيل دي لافاليير » .. وكانت التفصيلات الخرافية – التي تناهت الى اذنيها خلال صليل السكاكين عن حياة تلك الآنسة – تنطوي على تمجيد البلاط الملكي ، واظهاره في اطار من التدين ، ورقة المشاعر ، وابهة المنظر !

ولم تستشعر سأماً من حياتها بالدير – في الايام الاولى – بل انها استطابت صحبة الراهبات الطيبات ، اللاتي كن يعملن على التسرية عنها باصطحابها الى الكنيسة المتصلة بغرفة الطعام باروقة طويلة ...ولم تكن تلعب في اوقات الفراغ الا نادراً ، اذ كانت تحرص على استذكار اصول الدين عن ظهر قلب ، حتى غدت تنفرد دائماً بالاجابة على الاسئلة الصعبة

الدقيقة التي كان القس يوجهها الى الفتيات !

وهكذا عاشت في جو حجرات الدراسة الدافىء لا تجاوزه ، وبين اولئك السيدات الناصعات البياض ، ذوات المسابح التي تتدلى منها الصلبان النحاسية .. وفي رفق ولين ، اخذت تستسلم لذلك الاسترخاء التصوفي الذي ينبعث من عطور المذبح ، واحواض مياه التبرك ، واضواء الشموع !.. وكانت تشغل عن تتبع القداس بتأمل الصور الدينية المحوطة باطار سماوي اللون ، في كتاب الدين .. فأحبت (الحمل المريض) ، و (القلب المقدس) الذي تخترقه السهام ، والمسيح المسكين الذي يسقط ، وهو سائر ، تحت الصليب . وكانت تحاول ان تصوم عن الطعام يوماً بأكمله لتروض روحها .. وتجهد رأسها في ابتداع ألوان من النذر لتعمل على تحقيقها !

وكانت حين تذهب الى « كرسي الاعتراف » تبتكر خطايا صغيرة تزعمها لكي تطيل في فترة ركوعها في الظلال ، فتصغي الى همس القس ، ويداها مضمومتان ، ووجهها امام السياج المحيط بالكرسي !! وكانت الاوصاف المجازية التي تتناول « الخطيب » ، و « الزوج » ، و « العاشق الالهي » ، و « الزواج الابدي » ، والتي كانت تتردد في المواعظ ، تثير في اعماقها نشوة غريبة !

وفي المساء ، كانت الفتيات يقرأن في قاعة الاستذكار – قبل الصلاة – نصوصاً دينية ، كن يخترنها في ايام الاسبوع من بعض ملخصات التاريخ المقدس ، او من محاضرات الراعي « فرايا سينوس » .. اما في ايام الآحاد ، فكن يقرأن فقرات من « عبقرية المسيحية » على سبيل الترويح .. وكم كانت تنصت في البداية للمراثي الربانية المفعمة بالكآبة والشجن العاطفي ، والتي كانت اصداؤها تتردد بين الارض والابدية !!

ولو انها عاشت طفولتها في جوف حانوت بحي تجاري ، لتفتحت نفسها لنغمات الطبيعة الخلابة ، التي لا تسري الينا عادة الا اذا ترجمها لنا الكتاب .. ولكنها عاشت تلك الطفولة في الريف ، فعرفت ثغاء القطعان ،

والالبان ، والمحاريث !.. ولما كانت قد ألفت المناظر الهادئة ، فقد اخذت تتجه الى نقيضها .. الى المناظر المثيرة ! . ومن ثم لم تعد تحب في البحر الا انواءه ، ولا تعجب بالخضرة الا منتثرة وسط الخرائب.. كان لا بد لها من الحصول على منفعة شخصيّة من الاشياء ، فلم تكن ترى نفعاً لما لا تجد فيه غذاء مباشراً لقلبها ، اذ كان مزاجها حسياً عاطفياً ، أكثر منه فنياً.. وبعبارة واحدة : كانت تبحث عن العاطفة أكثر ممّا تبحث عن المنظر !!

* * *

وكانت تفد على الدير عانس تقضي اسبوعاً من كل شهر ، تعنى خلاله بكل ما يتعلّق بالملابس والاغطية . ولما كان المطران يرعاها لانتمائها الى اسرة عريقة من اسرات النبلاء التي حطمتها الثورة ، لذلك كانت تتناول الطعام في القاعة المخصّصة لذلك مع الراهبات .. ثم تجاذبهن الحديث قبل أن تصعد إلى عملها . وكثيراً ما كانت التلميذات يتسللن من قاعة الاستذكار الى حيث تعمل ، اذ كانت تردد في همس – وهي تحرك ابرتها في القماش – بعض اغنيات غرامية من القرن الماضي ، تحفظها عن ظهر قلب!.. وكانت تقص النوادر ، وتروي الانباء ، وتقضي الحاجات من المدينة ، وتعير التلميذات الكبيرات – سراً – روايات كانت تحتفظ بها دائماً في جيب مرولتها .. ولا تكف عن « التهام » فصول طويلة منها ، بين فترات عملها !.. وما كان امثال الروايات ليدور الا عن الحب والمحبين ، ونساء معذبات يُغمى عليهن في خلوات منعزلة ، وسياس يقتلون في كل رحلة ، وخيل تنفق في كل صفحة ، وغابات مظلمة ، وشجون تفعم القلوب ، وعهود ، وزفرات ، ودموع ، وقبلات ، وزوارق في ضوء القمر ، وبلابل في الخمائل ، وسادة في شجاعة الاسود ووداعة الحملان ، اوتوا

من الشهامة قدراً لا مثيل له .. محتفظين باناقتهم دائماً .. ويبكون ، فتسيل دموعهم كالسيل المتون !

وهكذا ظلت « ايما » خلال اشهر ستة من عامها السادس عشر ، تنفض باصابعها الغبار عن تلك الروايات العتيقة . ثم ارشدها « والتر سكوت » — بعد ذلك — الى التاريخ ، فراحت تحلم بالاثاث والرياش ، وقاعات الحرس ، والشعراء الذين يغنون اشعارهم على القيثارة . وكانت تتمنى لو انها عاشت في احد تلك القصور القديمة التي كانت تقرأ عنها ، كأولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل ، اللاتي كن يقضين ايامهن تحت الاقواس ذات الطراز القوطي ، وقد اعتمدن بمرافقهن على الاحجار ، واسندن ذقونهن الى راحات ايديهن ، وسرحن البصر يرقبن مقدم فارس ذي ريشة بيضاء يركض بين الحقول على صهوة جواد اسود ! . وانزلت « ايما » الملكة الانجليزية « ماري ستيوارت » من نفسها منزلة القداسة ، واكبرت — في حماس — النساء الشهيرات ، المنكوبات : فكانت « جان دارك » ، و « هلويز » ، و « آنييس سوريل » ، و « فيرونيير » الفاتنة ، و « كليمانس هيزور » . كل اولئك كن — في نظرها — كواكب في ظلمات التاريخ اللانهائية !.. وكانت تبرز لها من جوف الظلمات صور اخرى غامضة ، مبهمة ، لا رابط بينها ، تمثل « سان لويس » وبلوطته التي كان يجلس تحتها ، واحتضار « بايار » ، وفظائع لويس الحادي عشر ولمحات من « سان بارتلمي » ، وغطرسة « كونت بيارين » .. ثم — ودائماً — ذكرى الصحاف التي نقشت عليها صور تمجد لويس الرابع عشر !

ولم يكن في الاغنيات — التي كانت تغنيها اثناء دروس الموسيقى — سوى ملائكة صغار ، بأجنحة ذهبية ، وعذارى مقدسات ، وقنوات يسبح فيها الجندول .. اغان ساذجة كانت تلمح — خلال اسلوبها الركيك وموسيقاها الضعيفة — صوراً متلاحقة للحقائق الحسية . وكانت بعض الزميلات يحملن الى الدير ما يهدى اليهن في عيد رأس السنة من كتب

انيقة ، كان اخفاؤها مشكلة عويصة !

وكن يقرأنها في « عنبر » النوم ، فكانت « ايما » تقلب بين يديها – في رفق – تلك الكتب المغلفة بالحرير ، ثم تقف ببصرها عند اسماء المؤلفين المجهولين الذين كان يسبق توقيعاتهم – في نهايات القصص – لقلب « كونت » او « فيكونت » .. وكانت تعتريها رجفة حين تنفخ في رفق لترفع الورق الشفاف عن الصور ، فلا يلبث ان يتثنى ثم ينزلق مستوياً على الصفحات !

كان بين الصور منظر يمثل سور شرفة وقف خلفه شاب في معطف قصير ، يضم بين ذراعيه فتاة في ثوب ابيض ، ثبتت الى حزامها كيس الصدقات .. كما كانت هناك صور بعض الانجليزيات المجهولات ، ذوات الشعور الشقراء ، اللاتي يرمقنك من تحت قبعات الحوص المستديرة ، بأعين واسعة صافية .. وقد اضطجع بعضهن في عربات تنساب وسط الحدائق ، يقود خيولها سياس في سراويل بيضاء ، وتجري امامها كلاب الصيد الرشيقة .. بينما استلقت أخريات على الارائك مستغرقات في الاحلام ، والى جوارهن رسائل غرام مفتوحة ، وقد سرحت ابصارهن نحو القمر الذي يطل خلال نافذة اخفت نصفها ستارة سوداء !.. كما كانت بعض الصور تمثل فتيات ساذجات يطعمن اليمام خلال قضبان اقفاص من الطراز القوطي ، وقد سال الدمع على وجناتهن .. واخريات يبتسمن وقد ملن برؤوسهن على اكتافهن ، واخذن ينثرن اوراق زهر المرجريت بأصابعهن المدببة التي تشبه مناقير الصقور !!

هذا ، فضلاً عن صور تبين سلاطين يدخنون الغلايين الطويلة ، وقد استلقوا تحت الخمائل مخدورين بين احضان الراقصات.. ثم السيوف والرماح التركية ، والقلنسوات اليونانية .. واخيراً تلك المناظر الباهتة التي تمثل بلاداً يسودها جو شاعري .. فتريك في وقت واحد النخيل واشجار الصنوبر ، ونمراً الى اليمين ، واسداً الى اليسار ، ومآذن التتر عند

حافة الافق ، وخرائب الرومان في المقدمة ، وابل « انيحت » بين هذه وتلك ، وقد احاطت بالجميع غابة عذراء ، اجهد الرسام نفسه في ابدائها نظيفة !.. وقد سقط شعاع عمودي من الشمس ، واخذ يترجرج على صفحة الماء التي صبغت بلون رمادي كلون الفولاذ ، وقد غشيتها خدوش بيضاء على مسافات متباعدة ، تمثل البجع العائم !

وكان المصباح المعلق الى الحائط فوق رأس « ايما » يضيء كل هذه اللوحات التي تمثل مناظر الدنيا ، فتتتابع امام بصرها ، و « عنبر » النوم غارق في صمت ، يعكره في بعض الاحيان ضجيج يتناهى من بعيد ، منبعثاً من عربة تذرع الطريق ، بعد ان تقدم الليل !

وقد بكت « ايما » كثيراً في الايام الاولى لوفاة امها ، واوصت بصنع لوحة حزينة مطرزة بخصلة من شعر « الفقيدة » . وارسلت خطاباً الى (برتو) مليئاً بأفكار قاتمة عن الحياة ، طلبت فيه ان تدفن - اذا ما حان اجلها - في المقبرة التي ضمت امها . وجزع ابوها اذ ظنها مريضة فبادر بزيارتها .. واحست « ايما » في اعماقها بالرضى ، اذ رأت نفسها تقفز فجأة الى ذلك اللون الباهت من الحياة المثالية النادرة ، التي لا تتطلع اليها النفوس التافهة !

وهكذا ، ألفت نفسها تنزلق الى ألوان الخيال « اللامارتينية » - اي التي كانت تسود مؤلفات « لامارتين » - فتنصت الى القيثارات على البحيرات ، واناشيد البجع المحتضر ، والى صوت سقوط الاوراق الذابلة ، ورفرفة العذارى الطاهرات الصاعدات الى السماء والى صوت الله يتردد في الوديان !!

وما لبثت ان ملت كل هذا ، ولكنها لم تشأ في البداية ان تعترف بالملل ، بل استمرت في هذه الخيالات - بحكم العادة ، في اول الأمر ، ثم بدافع من الزهو بعد ذلك ! - ولكنها وجدت السكينة تغمرها في النهاية ، فلا حزن في الفؤاد ، ولا تجاعيد في الجبين !

وكانت دهشة الراهبات - اللائي احسن الظن باستعدادها - بالغة ، اذ

لاحظن ان الآنسة « روو » قد اخذت تفلت من رعايتهن .. والواقع انهن كن قد سخون عليها بالطقوس والخلوات والمواعظ ، واسرفن في تلقينها التبجيل الواجب نحو القديسين والشهداء ، وفي ازجاء النصائح التي تستهدف اخضاع الجسد وخلاص الروح ، حتى اصبحت الفتاة كالفرس التي تسحب بالعنان .. ثم قدر لها ان تقف وان يخرج العنان من بين اسنانها !

ذلك لأن تلك الروح الايجابية التي نمت في جوانحها وسط هذا النشاط الديني .. تلك الروح التي احبت الكنيسة من اجل زهورها ، والاغاني بسبب كلماتها العاطفية ، والادب من اجل مثيراته الحسية .. هذه الروح لم تلبث ان تمردت على اسرار الايمان ، كما تمردت على ذلك النظام الذي كان يتعارض مع مزاجها .. حتى ان احداً لم يأسف لرحيلها حين سحبها ابوها من الدير .. بل ان الرئيسة شكت من انها غدت في الايام الاخيرة قليلة الإحترام لراهبات الدير !

ووجدت « ايما » – في الفترة الاولى التي تلت عودتها الى البيت – لذة في ان تصدر الاوامر الى الخدم . بيد انها لم تلبث ان ابغضت الريف ، وحنت الى الدير مرة اخرى !

وعندما وفد « شارل » الى (برتو) لأول مرة ، احست بخيبة امل ، اذ لم يسفر ظهوره عن جديد تتعلمه او تحس به !.. بيد ان شوقهـا الملهوف الى شيء جديد ، والقلق الذي ساورها لتغير ظروفها – او لعله الاضطراب الذي بعثه ظهور هذا الرجل – كانا كافيين لكي يحملاها على ان توقن بأنها قد اصابت اخيراً تلك العاطفة الخارقة ، التي كانت تتراءى لها – حتى ذاك الحين – كعصفور كبير ذي ريش وردي ، يحلق ببهاء في سماوات الشعر .. عاطفة الحب !.. وما استطاعت حينذاك ان تتصور ان تلك السكينة الناعمة التي كانت تعيش فيها ، هي .. السعادة التي كانت تحلم بها !

الفصل السابع

على انها كانت تخال احياناً ، ان الايام المقبلة هي اجمل ايام حياتها .. ايام شهر العسل ، كما يسمونه !.. بيد انها كانت ترى لزاماً – لكي تتذوق حلاوة ذلك « العسل » كاملة – ان ترحل الى البلاد ذات الأسماء الرنانة ، التي تتسم فيها فترة ما بعد الزواج بلذة الدعة والاسترخاء.. والتي يصعد المرء فيها – على مهل – طرقاً وعرة ، في عربات ذات ستائر زرقاء ، وهو ينصت الى انشودة السائس ترددها قمم الجبال ، ويختلط بها رنين الأجراس الملتفة حول اعناق الماعز ، وخرير الماء المتساقط .. ومع غروب الشمس ، يتنسم المرء – عند حواف الخلجان – عبير اشجار الليمون ، حتى اذا ارخى الليل سدوله ، خلا العروسان الى نفسيهما في الشرفة يحدقان في النجوم وقد اشتبكت اصابعهما ، واخذا يرسمان الخطط للمستقبل !!

بل لقد خيل اليها ان في الدنيا بقاعاً تنبت السعادة ، كما لو كانت السعادة شجرة لا تنبت الا في تربة معينة لا نمو لها في غيرها !

ولطالما ساءلت نفسها : لماذا لم يقدر لها ان تتكىء على حافة شرفة

منزل خشبي على جبال سويسرا ، أو ان تحبس شجونها في كوخ باسكتلندا ، مع زوج يرتدي حلة من المخمل الأسود ذات ذيل سابغ ، وحذاءين طريين ، وقبعة مدببة ، واكماماً مشاة ؟! .. لكم تمنت لو تفضي لأحد بهذه الخواطر جميعاً .. ولكن ، كيف السبيل الى الافصاح عن ذلك الضيق الذي يتعذر التعبير عنه ، والذي تتبدل صوره كالسحاب ، ويعصف بنفسها كالرياح ؟ .. وهكذا ، كانت تعوزها الالفاظ ، كما اعوزتها الفرصة والجرأة !

ومع ذلك .. آه ، لو اراد « شارل » .. لو خطر بباله .. لو التقت نظراته مرة بخواطرها .. اذن ، لتفتح قلبها – فيما تحسب – عن فيض مفاجيء ، كما تتساقط الثمار الناضجة عن الاشجار بمجرد ان تمسها الأيدي !.. بيد ان الأمر كان يجري على النقيض من ذلك .. فكلما ازدادت الالفة بينهما ، ازداد شعورها بانطواء روحي ، واتسعت الهوة التي تفصلها عنه !

كان حديث « شارل » سطحياً .. كسطح افريز الطريق ، تمر عليه آراء الناس في لباسها العادي ، فلا تثير فيه انفعالاً ، او ضحكاً ، او خيالاً !.. فهو لم يحس بحب الاستطلاع – كما كان يقول – يدفعه لأن يذهب الى المسرح لمشاهدة الممثلين الباريسيين ، ايام كان يقيم في (روان) .. ولا كان يعرف السباحة ، ولا استخدام السلاح ، ولا اطلاق الرصاص .. وعجز مرة عن ان يفسر لها عبارة من مصطلحات الفروسية ، صادفتها في احدى الروايات !

ألم يكن من الواجب ان يسير الأمر على العكس من ذلك ، فيعرف الرجل كل شيء .. ان يكون مبرزاً في كثير من نواحي النشاط ليدرب زوجته عليها .. ان يبصر المرأة بخبايا العواطف ومتع الحياة .. وبكل الأسرار ؟! .. لقد كان « شارل » على العكس من هذا كله ، فلا

هو بصرها بشيء ، ولا كان يعرف شيئاً .. بل انه لم يكن يطمح الى شيء !!

كان يظنها سعيدة ، وهي في الواقع تنقم عليه هذا السكوت الخامل ، وذلك الركود المطمئن .. بل تنقم عليه أن حظى بتلك السعادة التي أتاحتها له !

وكان يحلو لها احياناً ان ترسم ، فكان « شارل » يجد تسلية ممتعة في ان يقف جامداً يتأملها وهي عاكفة على لوحتها ، او وهي تنعم النظر الى الرسم وقد ضاقت حدقتاها امعاناً في الدقة ، او هي تعبث بقطعة من لباب الخبز تكورها بين اصابعها .. اما اذا عزفت على «البيانو» ، فكان اعجابه يزداد كلما ازدادت حركات أناملها سرعة ! .. كانت توقع النغمات في ثقة ، وتجري اصابعها على المفاتيح من اعلى الى اسفل دون توقف ، فتهز اوتار الآلة القديمة ، حتى ليصل صوتها الى أقصى القرية اذا كانت النافذة مفتوحة .. وكثيراً ما يحدث ان يكون محضر القرية ماراً في الطريق ، فيتوقف عن السير ، ويأخذ في الاصغاء وهو عاري الرأس ، وأوراقه في يده !

* * *

وكانت « اما » – من ناحية اخرى – تحسن تدبير المنزل ، وتكتب للمرضى رسائل لبقة تذكرهم فيها بأنعاب الاستشارات الطبية ، دون ان يشتموا منها رائحة المطالبة !.. وعندما يصادف وجود ضيف من الجيران على مائدة الغداء – في أيام الآحاد – كانت تنتهز الفرصة لتعرض بعض آيات الأناقة في تقديم اصناف الطعام .. كأن ترص اهرامات من البرقوق على ورق العنب ، او تصوغ الحلوى في قوالب تصبها على الأطباق ..

بل انها اخذت تعرب عن رغبتها في شراء « سلاطين » تملأ بالماء ، لتغمس فيها الأصابع بعد تناول الحلوى !.. وكان كل هذا مدعاة الى رفع شأن اسرة « بوفاري » في انظار الناس !

وانتهى الأمر بشارل الى ان ازداد تقديره لنفسه اذ وفق الى مثل هذه الزوجة !.. وكان يطلع زائريه مزهواً على لوحتين صغيرتين رسمتهما « ايما » بالفحم ، وصنع لهما اطارين عريضين . وعلقهما الى الحائط بشريطين اخضرين .. وكثيراً ما اصبح يرى واقفاً امام باب منزله - بعد مبارحة الكنيسة - وفي قدميه خفّان بديعا التطريز يختال بهما فخوراً !

وكان في بعض الأحيان يعود الى المنزل متأخراً - في الساعة العاشرة، وربما في منتصف الليل - فيطلب الطعام ، بينما تكون الخادم قد أوت الى فراشها ، وعند ذاك كانت « ايما » تتولى اعداد المائدة له ، فيخلع سترته لكي يتناول عشاءه في ارتياح ، وينطلق في سرد اسماء جميع من قابل من الناس ، وما زار من قرى ، وما وصف لمرضاه من ادوية.. ثم يأتي - وهو راض عن نفسه - على ما تبقى امامه من « يخني » ، ويعقب بقطعة من الجبن ، ثم يأخذ في قضم تفاحة ، وفي افراغ ابريق النبيذ في جوفه .. ولا يلبث ان يذهب الى السرير فينطرح عليه، ويمضي في الغطيط !

وكان قد عدل عن « الطاقية » القطنية التي اعتاد لبسها في السرير ، وألف ان يلف حول رأسه وشاحاً لا يكاد يستقر على اذنيه ، فيصحو في الصباح وشعره متهدل ، مبعثر على وجهه ، وقد علق به بعض حشو الوسادة التي تكون اشرطتها قد انحلت اثناء الليل ..

كذلك كان يرتدي في النهار حذاءين كبيرين ، لكل منهما رقبة عالية، تعلو سطحها ثنيتان سميكتان تنحرفان نحو كعب القدم .. اما وجه الحذاء فكان دائماً مستوياً في خط مستقيم ، وكأنه مشدود على خشب . وكان

يردد دائماً : « هذا هو النوع المناسب للريف » !

وكانت امه تؤيده في هذا الاقتصاد ، اذا ما جاءت لزيارته — كلما اشتبكت في خلاف مع زوجها — كما كانت تفعل ايام الزوجة الأولى !.. وكانت تبدو برمة بالزوجة الجديدة ايضاً ، اذ كانت ترى اساليبها مدعاة لاسراف يفوق مستوى ثرائهم .. فالخشب والسكر والشموع تستهلك بكميات تعادل ما يستهلك في البيوت الكبيرة .. وكميـة الجمر التي كانت تحرق في المطبخ تكفي لطهو عشرين صنفاً من الطعام !.. وكانت تعمد الى ترتيب « بياضات » زوجة ابنها في الصوان ، وتعلمها كيف تحاسب الجزار اذا ما أحضر اللحم ، فكانت « ايما » تتقبل بصبر ما تجود به الأم من دروس !.. وكانت كلمتا « ابنتي » و « امي » تتبادلان طوال النهار ، مصحوبتين برعشة في الشفاه ، اذ كانت السيدتان تلفظان اعذب كلمتين ، بلهجة تهتز بالغضب !!

كانت الأم العجوز تشعر في عهد مدام « دوبيك » بأنها ما زالت الأثيرة المفضلة لدى ابنها .. أما الآن ، فقد بدا لها حب « شارل » لايما بمثابة فرار من حنانها ، او عدوان على ما كان لها .. فأخذت ترقب سعادة ابنها في صمت كئيب ، كانسان أفلس فراح ينظر خلال زجاج النوافذ الى أغراب احتلوا داره القديمة .. وكـانت تروي له مشقاتها وتضحياتها — على سبيل الذكرى — وتقارنها باهمال « ايما » عسى ان يستنتج ان ليس من الحكمة ان « يعبد » السيدة الشابة ، على هذا النحو الذي يملك عليه كل عواطفه !

ولم يكن « شارل » يدري كيف يتصرف .. فهو يحترم امه ، كما يحب زوجته حباً لا حدّ له .. وكان يعتبر امه معصومة من الخطأ ، ولكنه — مع ذلك — لم يكن يرى في مسلك زوجته مدعـاة للوم !.. وكان يستجمع جرأته — بعد ان ترحل مدام بوفـاري — فيردد في استحياء — وبنفس ألفاظ أمه — بعضاً من أهون المآخذ التي يكون قد

سمعها منها .. ولكن « اِما » كانت – بكلمة واحدة – تقنعه بأنه على خطأ ، وترسله الى مرضاه !.. ومع ذلك فقد ظلت تحـاول ان تقنع نفسها بأنها تحبه وفقاً للنظريات التي كانت تؤمن بها !.. كانت تردد على مسمعه – في الحديقة ، وفي ضوء القمر – ما كـانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب ، وتغني له – وهي تتنهد – بعض الألحان المشجية .. بيد انها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما ان « شارل » لم يكن يبدو اكثر حباً ولا انفعالاً مما كان قبل الشعر والغناء !

وهكذا لم تلبث – بعد ان قدحت زناد قلبها فلم تنبعث منه شرارة – أن انساقت الى اقناع نفسها بأن حب « شارل » خال من الحرارة !.. فقد اصبَحت اوقات انطلاقه وتحلله منتظمة .. وهو يقبلها في « مواعيد» معينة ، وكأنه يمارس « عادة » من العادات !.. او كأنه يتناول حلوى مرتقبة بعد عشاء ممل !!

* * *

وحدث ان عالج الطبيب احد الحراس من التهاب رئوي ، فأهدى الحارس زوجته كلبة ايطالية صغيرة اخذت تصحبها في نزهاتهـا ، اذ كانت تخرج احيانـاً كي تخلو الى نفسها ، وحتّى تريح بصرها بعض الشيء من النظر الى تلك الحديقة العتيقة ، والطريق المتربة !.. كانت تمضي حتّى غابة الزان عند (بنفيل) ، على مقربة البناء المهجور الذي تؤلف جدرانه زاوية عند منعطف الطريق المفضية الى الحقول .. وهناك، وسط الأعشاب النامية في الخندق ، واعواد البوص ذات الأوراق الحادة، كانت تتأمل ما حولها لتتبين ما اذا كان قد ألم بالمكان اي تغير عما كان

عليه في آخر مرة جاءته .. فكانت ترى زهور « الريجتيالا » والقرنفل في نفس منابتها ، والنباتات الشوكية تحيط بالاحجار الكبيرة ، والطحالب على طول النوافذ الثلاث — في المبنى المهجور — التي كانت مصاريعها مقفلة باستمرار ، يتسرب خلالها التراب ليتراكم على قضبانها الحديدية التي علاها الصدأ .

وكانت افكارها لا تلبث ان تهيم بلا غاية ، مثل كلبتها التي كانت تجري في حلقات خلال الحقول ، وترسل نباحها خلف الفراشات الصفراء ، وتطارد الجرذان او تعضعض الخشخاش النامي على حافة حقل القمح . ثم تأخذ افكارها في التركز شيئاً فشيئاً ، فتردد لنفسها وهي تفترش الحشائش التي كانت تعبث بها بطرف مظلتها : « يا إلهي !.. لماذا تزوجت ؟! »

وكانت تسائل نفسها : « أو لم تجد المصادفات طريقاً آخر تدفعها خلاله لتلتقي برجل آخر ؟ .. » ثم تمضي في تخيـــل الأحداث التي كانت تترتب على ذلك .. الأحداث التى لم تقع ، والحياة التي تغـــاير حياتها الحالية ، والزوج الذي لم تعرفه .. فلا مراء في ان الأزواج ليسوا جميعاً مثل زوجها !.. كان من الممكن ان يكون زوجها جميلاً ، مرحاً ، انيقاً ، جذاباً ، مثل اولئك الأزواج الذين ولا بد قد حظيت بهم زميلاتها في الدير !.. ترى ماذا تفعل اولئك الزميلات الآن في المدينة ، وسط ضجيج الشوارع ، واضواء المسارح ، وصخب المراقص ؟.. انهن ولا ريب يحظين بحياة يتفتح بها القلب ، وتنتعش الحواس .. اما هي ، فان حياتها باردة كالمخزن الذي أوتي نافذة شمالية !

والملل ؟!.. ذلك العنكبوت الصامت الذي كان يغزل نسيجه في الظلال ، في كل ركن من اركان قلبها !

وتذكرت ايام توزيع الجوائز — اثناء الدراسة — حين كانت تصعد الى المنصة لتتسلم نصيبها من التيجان الصغيرة ، وقد بدت بديعة بشعرها

المجدول ، وثوبها الأسود ، وحذاءيها الصوفيين الخفيفين .. وكــان السادة ينحنون ليسمعوها عبارات التهنئة ، اذا ما عادت الى مكانها .. ويطلون من نوافذ العربات التي تملأ صحن الدير ليودعوها عند انصرافها !.. كما كان مدرس الموسيقى يحييها اذ يمر بها حاملاً قيثارته .. أواه !.. لكم اصبح كل هذا بعيداً .. آه ، شد ما بعد !

* * *

وكانت تنادي كلبتها « جالي » فتضعها علي ركبتيها ، وتمر بأصابعها فوق رأسها الصغير ، وتهمس لها : « هيا .. قبلي سيدتك !.. قبليها يا من لا تثقل الهموم قلبها ! »

وتأخذ في تأمل وجه هذا الحيوان الرشيق ، الواجم ، الذي يتثاءب في بطء ، فيلين قلبها ، وتروح تقارن بين نفسها وهذا الحيــوان ، وتحدثه بصوت مسموع ، وكأنها تعزي شخصاً منكوداً !

وكانت الريح تهب احياناً قوية ، تأتي من ناحيــة البحر فتكتسح هضبة (كو) بأسرها ، وتحمل الى الحقول المترامية رطوبة ملحة .. فيصدر من البوص صفير خافت ، وهو يميــل على سطح الارض .. وبين اغصان الزان تسري رعشة سريعة ، بينما ينبعث علي قممها همس عميق ، فتشد « ايما » شالها حول كتفيها وتنهض منصرفة ..

وكان ضوء النهار ينبعث خلال اوراق الشجر ، مستعيراً لونها الأخضر ، فينعكس على العشب القصير الذي يئن في رفق تحت قدميها .. ولا تلبث الشمس ان تجنح للمغيب ، فتحمر السماء اذ تلوح بين الغصون ، وتبدو جذوع الاشجار النامية بانتظام في خط مستقيم ، كأنها أعمدة قائمــة على صفحة من الذهب .. وتسري الرهبـة الى نفس « ايما » فتنادي كلبتها « جالي » ، وتسرع الى (توست) .. ثم تستلقي على مقعد

مريح ، وتظل صامتة بقية الايل !

* * *

واعترض حياتها – في اواخر سبتمبر – حادث غير عـادي . فقد دعيت الى (فوبيسار) لزيارة مركيز « اندرفيليه » !.. ولما كـان المركيز قد تولى الوزارة من قبل – عند عودة الملكيـة – فانه اخذ يتطلع للعودة الى الحياة السياسية ، وبكر بالتمهيد لترشيح نفسه لمجلس النواب .. فكان في الشتاء يوزع الحطب ، وكان في مجلس المقاطعـة يطـالب متحمساً باصلاح الطرق في دائرته .. فلما جاء الصيف بحرّه اللافح ، اصيب بدمل في فمه ، استطاع « شارل » ان يريحه منه – بما يشبه المعجزة – بحركة من مبضعه على وجهه في الوقت المناسب !

وعندما عـاد المندوب الذي ارسله المركيز الى (توست) ليدفع أتعاب الطبيب ، ذكـر لسيده ان في حديقة الطبيب نوعاً ممتازاً من « الكريز » الذي كان نمو بذوره متعذراً في حدائق (فوبيسار) .. فطلب المركيز بعض « العقل » .. وعني بأن يذهب بنفسه الى الطبيب ليشكره .. وهناك وقع بصره على « ايما » ، فلاحظ قوامها الأهيف واسترعى انتباهه انهـا لا تنحني بالتحية كالفلاحات .. ولم يرَ اي مغالاة في التواضع او أيّ خرق للتقاليد ، في دعوة الزوجين الشابين الى قصره !

وفي الساعة الثالثة من احد ايام الاربعاء ، رحل السيد والسيدة «بوفاري» الى (فوبيسار) في عربة شدت الى سطحها حقيبة كبيرة .. ووضع امام مقعدها صندوق للقبعات ، فضلاً عن ان « شارل » حمل على فخذيه صندوقاً من الورق المقوى .

ووصلا عند هبوط الليل ، عندما كانت مصابيح الحدائق تضـاء ، لتنير الطريق للعربات .

الفصل الثامن

كان القصر مبنياً على الطراز الايطالي الحديث ، يمتد منه جناحان ، وله ثلاثة مداخل تفضي الى شرفات ذات درجات .. وكان يقوم في نهاية مرج واسع ترعى فيه بعض الأبقار ، بين مجموعات متباعدة من الاشجار الضخمة ، التي بسطت اوراقها المتفاوتة الخضرة على احواض الورد ، واحواض الزهر المسمى بكـراث الجليد ، والتي انتثرت على طول الطريق الرملي المتعرج .. وكان هناك جدول يجري تحت قنطرة .. ومن خلال الضباب كانت تلوح مبان مفروشة بالقش ، تنتثر في المروج التي حفت بها هضبتان تنحدران انحداراً هيناً ، وتكسوهما الغابات .. وعلى البعد ، بدا وسط الاحراش صفان متوازيان من المخازن والحظائر ، هما كل ما تبقى من القصر القديم المتهدم ..

ووقفت غربة « شارل » امام السلم الاوسط ، فظهر الخدم .. وتقدم المركيز فأعار زوجة الطبيب ذراعه وقادها الى البهو ، الذي رصفت ارضه ببلاط من الرخام ، وارتفع سقفه الى علو شاهق ، فكان يتردد لوقع الأقدام والاصوات فيه صدى كالذي يتردد في الكنائس . وفي اقصى البهو كان يوجد سلم مستقيم .. والى اليسار كانت ثمة شرفة تطل

على الحديقة ، وتؤدي الى قاعة « البلياردو » التي كانت اصوات ارتطام الكرات العاجية تنبعث خلال بابها .

وبينما كانت « ايما » في طريقها الى قاعة الاستقبال ، وقع بصرها على رجال تبدو عليهم سيماء الوقار والعظمة ، وقد استقرت ذقونهم فوق اربطة رقابهم العالية .. وكانوا جميعاً يحملون الاوسمة ، ويبتسمون في صمت وهم مكبّون على مائدة « البلياردو » .. وفوق الخشب الداكن الذي يكسو الجدران ، كانت ثمة اطارات مذهبة ، نقشت على حوافها السفلى اسماء بحروف سوداء ، فرأت « ايما » منها « جان انتوان دواند فيلبيه دي ايفربونفيل ، كونت دي فوبيسار ، وبارون دي فريناي ، الذي قتل في موقعة (كوترا) في ٢٠ اكتوبر سنة ١٥٨٧ » . وقرأت تحت اطار آخر : جان انتوان هنري جي دي اندفيلبيه دي فوبيسار ، اميرال فرنسا ، و حامل وسام فروسية القديس ميشيل ، الذي جرح في موقعة (هوج سا ساست) في ٢٩ مايو سنة ١٦٩٢ ، ومات في (فوبيسار) في ٢٣ يناير سنة ١٦٩٣ » .. اما بقية الاسماء ، فلم يسهل على « ايما » تبينها ، اذ كانت اضواء المصابيح المنعكسة من مائدة « البلياردو » الخضراء تلقي ظلالاً قاتمة حول القاعة ، وعلى اللوحات الافقية ، فتظهر التشققات التي كانت تتخلل سطحها كخطوط دقيقة .. ومن خلال هذه المربعات الكبيرة السوداء ، المحاطة باطارات من ذهب ، كانت تبدو هنا وهناك اجزاء اكثر وضوحاً في اللوحة : جبهة شاحبة ، او عينان حادتان ، او شعر مستعار يتهدل على الاكتاف فوق ملابس حمراء ، او عقدة ربطة الساق فوق الربلة ..

وفتح المركيز باب الصالون ، فنهضت احدى السيدات — وهي المركيزة نفسها — واستقبلت « ايما » وأجلستها في مقعد الى جوارها ، ثم أخذت تؤثرها بحديث ودي ، كما لو كانت تعرفها منذ زمن بعيد !.. كانت سيدة في نحو الاربعين ، أوتيت كتفين بديعتين ، وانفاً حاداً ،

وصوتاً ليناً .. وكانت تطرح فوق شعرها الكستنائي – في ذلك المساء – شالاً من « الدانتيلا » ، ينسدل على ظهرها في شكل مثلث .. والى جوارها ، كانت تجلس شابة ، في مقعد عالي الظهر ، ورجال حليت عرى ستراتهم بورود صغيرة ، وقد اشتبكوا في الحديث مع السيدات حول المدفأة .

* *

وأعد الطعام في الساعة السابعة ، فجلس الرجال – وكانوا اكثر عدداً من السيدات – حول المائدة الاولى في قاعة الطعام ، بينما جلست السيدات حول المائدة الثانية التي كان يرأسها المركيز والمركيزة .

وأحست « ايما » عند دخولها القاعة بجو دافيء : مزيج من أريج الزهور ، والملابس الجميلة ، وأبخرة اللحم ، ورائحة « عش الغراب » وشموع المشاعل التي انعكست ألسنة لهيبها الطويلة على الأواني الفضية والأكواب البلورية المضلعة التي احاطتها الأبخرة بغلالة خفيفة ينبعث خلالها بريق باهت . وتناثرت الزهور على طول المائدة ، واستقرت المناشف – التي طويت على شكل قلنسوات رجال الدين – على الأطباق ذات الحواف العريضة ، وبرزت خلال ثناياها ارغفة بيضاوية صغيرة .. ورصت الفاكهة الكبيرة الحجم بعضها فوق بعض طبقات ، على فراش من العشب الأخضر داخل سلال مفتوحة الجوانب .. والابخرة تتصاعد، ورئيس خدم المائدة (السفرجية) – في جوربيه الحريريين ، وسرواله القصير ، ورباط رقبته الأبيض ، وقميصه الذي وشي صدره بالدانتيلا – يمر بالطبق بين اكتاف المدعوين في وقار القضاة ، وبغمزة واحدة من ملعقة بين اجزاء الصنف الذي يحمله – وقد قسمت من قبل – تقفز اليك القطعة التي تختارها !.. وفوق المدفأة الخزفية ذات القضبان النحاسية، كان ثمة تمثال لامرأة مدثرة حتى الذقن ، تنظر في صمت من القاعة

التي حفلت بالناس !

.. ولاحظت « ايما » ان كثيراً من السيدات لم يضعن قفازاتهن في اكوابهن [1] !

* * *

وجلس في اقصى المائدة – وحيداً بين السيدات – شيخ انحنى على طبقه المليء وقد ربط منشفته الى صدره كالطفل ، واخذت قطرات « الصلصة » تتساقط من فمه وهو يأكل .. وكانت عيناه محتقنتين بلون الدم .. ذلك كان والد زوجة المركيز : « دوق فرديير » المسن ، الذي كان ذا حظوة لدى « كونت دارتوا » فيما مضى ، ايام نزهات الصيد في (فودري) عند المركيز « دي كونفيان » .. والذي قيل انه كان عشيقاً للملكة « ماري انتوانيت » الى جانب عشيقيها الآخرين « دي كويني » و « دي لوزون » !

وكان الدوق قد عاش حياة عربدية صاخبة ، حفلت بالمبارزات والمراهنات ، وبالنساء اللواتي كان يغويهن .. وقد بدد ثروته ، وازعج اسرته كلها !

وكان يقف خلف مقعده خادم يهتف في اذنه بأسماء الأطباق التي يشير اليها باصبعه مغمغماً في تهتهة .. واخذت عينا « ايما » ترتدان باستمرار – وبحركة تلقائية – الى هذا الشيخ ذي الشفة المتدلية ، لتحدقا فيه ، وكأنه شخص فذّ جليل !.. كيف لا وقد عاش في البلاط الملكي ، ونام في فراش الملكات !!

وكانت الكؤوس تترع بالشمبانيا المثلجة ، التي كانت ترسل في جسد

---

١ – كانت هذه هي عادة سيدات المجتمع في فرنسا في القرن الماضي .

« ايما » كله رعدة ، كلما مست شفتيها !! لم تكن قد رأت الرمان في حياتها من قبل ، ولا أكلت الأناناس !.. بل ان مسحوق السكر الناعم بدا لها انصع بياضاً واكثر نعومة منه في أي مكان آخر !

وما لبثت السيدات ان صعدن الى حجراتهن ليتخذن اهبتهن للحفلة الراقصة .. فعنيت « ايما » بزينتها في دقة الممثلة التي تستعد لليلة ظهورها الأول ونسقت شعرها وفقاً لنصائح الحلاق ، وأخذت ترتدي ثوبهـــا الصوفي الخفيف الذي كان مبسوطاً على السرير ، بينما كان « شارل » يشد بنطلونه الى وسطه ..

وقطع « شارل » الصمت قائلاً : « لسوف يضايقني السير الجلدي — الذي يشد الحذاءين الى البنطلون — اثناء الرقص » .

فهتفت في استنكار : « الرقص ؟! »

واذ أجاب : « نعم » ، قالت : « هل طاش عقلك ؟ .. لسوف يسخرون منك ! .. إلزم مقعدك ! » .. ثم أردفت : « ان هـــذا أليق بمكانتك كطبيب » !!

ولزم « شارل » الصمت ، وراح يذرع الغرفة ريثما تفرغ « ايما » من ارتداء ثيابها .. كان يراها من الخلف — على صفحة المرآة — بين مشعلين ، وقد لاحت عيناها اشد سواداً مما عهدهما .. وخصلات شعرها المتسدلة في تموج على اذنيها تلمع ببريق أزرق ، وقد ثبتت في لفافة شعرها المكور في مؤخرة رأسها وردة صناعية على ساق متأرجحة ، وقد تناثرت على اوراقها قطرات من الماء ! . اما ثوبها ، فكـــان ذا لون اصفر شاحب ، تحليه ثلاث باقات من ورد صناعي احيط بالخضرة ..

وتقدم « شارل » فطبع على كتفها قبلة . واذ ذاك هتفت : « ابتعد عني لئلا تتلف اتساق ملابسي ! »

* * *

وسمعت « ايما » انغاماً من قيثارة ، ودوي بوق ، فهبطت السلم وهي تمسك نفسها بعناء عن الجري .. وكانت حلقات الرقص الرباعي قد بدأت ، وأخذ المدعوون يتدافعون ، فجلست في مقعد مستطيل الى جوار الباب .. حتى اذا انتهت الرقصة ، خلت الحلبة الا من رجال أخذوا يتحدثون وهم وقوف ، والخدم يروحون ويغدون في زيهم الرسمي وقد حملوا الصحاف الكبيرة .. وعلى طول الصف الذي ضم النساء ، كانت المراوح تهتز ، وباقات الورد تحجب جانباً من الوجوه الباسمة ، وقنينات العطر ذات الأغطية الذهبية تدار في الأيدي التي شفت قفازاتها البيضاء عن أناملها ، وضغطت على معاصمها . وكان وشي « الدانتيلا» والمشابك الماسية ، والاساور ذات الزوائد المدلاة ، يتأرجح فوق الأثواب ، ويلمع فوق الصدور وحول الأذرع العارية !.. وكان الشعر المصفف بعناية فوق الجباه ، والمعقود في مؤخرات الرؤوس ، يحمل زهور الفل او الياسمين او الرمان او البازلاء ، او السنابل التي عقدت على شكل تيجان او عناقيد او اغصان .. وكانت الامهات يجلسن ساكنات بوجوه عابسة ، تتوج رؤوسهن عمائم حمراء !

وخفق قلب « ايما » قليلاً عندما تقدمت تتخير لنفسها مكاناً في الصف ، انتظاراً لحركة قوس عازف القيثار ، ايذاناً ببدء الرقص ، وقد امسك زميلها بأطراف اناملها .. وما ان انسابت الانغام حتى زايلها الانفعال ، فتحركت الى الامام على ايقاع الموسيقى وهي تهز رقبتها هزاً خفيفاً .. واخذت ترتسم على شفتيها ابتسامة ، تزداد اتساعاً كلما ابدع عازف القيثار ، حين ينفرد بالعزف احياناً وتكف الآلات الاخرى عن مشاركته !.. كانت نغماته رقيقة ، هادئة ، حتى ليمكن معها سماع رنين الجنيهات الذهبية على الجوخ الاخضر ، فوق موائد الميسر في الغرفة المجاورة .. ثم لا تلبث الفرقة الموسيقية ان تعود الى العزف المشترك فجأة ، ويرسل البوق انغامه الرنانة ، فتدق الاقدام في ايقاع ،

وترفرف اطراف « الجونلات » وتتلامس ، بيـنما تتشابك الأيدي ثم تفترق .. والعيون التي تغض عنك لا تلبث ان تعود الى التحديق في عينيك !

وكان ثمة نحو خمسة عشر رجلاً ، تتراوح اعمارهم بين الخـامسة والعشرين والاربعين ، ينتشرون بين الراقصين ، او يتبادلون الأحاديث عند الابواب ، وقد امتازوا عن الباقين – على تباين اعمارهم وزيناتهم واشكال وجوههم – بسيماء عراقة الأصل !.. وكانت ثيابهم البديعـة الصنع تبدو أرق نسيجاً من سواها ، وشعورهم تنسدل على الاصداغ في تموجات ، وهي تلمع بأطيب الدهون !.. وكانت لهم بشرة المترفين .. بشرة بيضاء ، يزيدها رواء ما ينعكس عليها من جو الحجرة وما فيها من خزف شاحب ، وحرير يتموج ، وأثاث جميـل لامع !.. بشرة يضفي عليها رونق الصحة نظام دقيق في التغذية ! .. وكانت رقابهم تتحرك في يسر فوق اربطة منخفضة . وكانوا يمسحون شفاههم بمناديل طرزت عليها حروف اسمائهم ، وتتضوع بشذى مختلف العطـور !.. وبينما كانت امارات الشباب تبدو على من ناهز منهم الشيخوخة ، كانت وجوه الشبان منهم تتسم بمسحة من نضوج .. اما نظراتهم غير المكترثة، فكانت تنطق بهدوء حدة الشهوات التي تجد كل يوم رياً واشباعاً !.. ومن خلال حركاتهم الرشيقة ، كان ينبثق ذلك الاعتـداد الذي يولده اعتياد السيطرة على ما في اليد من اشياء ، كما هو الحال في رياضة الخيل الأصيلة .. ومصاحبة الغواني !

وعلى بعد ثلاث خطوات من « ايما » ، أخذ أحد فرسان حلبـة الرقص – وكان في ثياب زرقـاء – يتحدث عن ايطاليا ، الى شابة شاحبة اللون تتحلى باللآلىء .. وراحا يعبران عن اعجابهما بضخامة اعمدة كنيسة القديس بطرس ، والتريفولي ، وبركان فيزوف ، والكاستلاماري ، والكاسين ، وورود جنوا ، والكوليزيوم في ضوء القمر !

وبالاذن الثانية ، اخذت « ايما » تنصت الى حديث زاخر بألفاظ لم تكن تفقهها .. اذ أحاطت جماعة بشاب غض كان جواده قد فاز في سباق الاسبوع الماضي ، وكسب ألفي جنيه في مباراة للقفز فوق حفرة في انجلترا . وكان بعض افراد الشلة يشكون من ازدياد اوزان بعض خيولهم ، بينما كان فريق آخر يشكو من اخطاء مطبعية حرفت اسماء جيادهم في الصحف !

* * *

ونقل جو المرقص ، واخذت اضواء المصابيح تخفت ، والجمع ينصرف الى قاعة « البلياردو » .. وصعد خادم فوق مقعد فكسر لوحين من الزجاج .. واذ أدارت مدام « بوفاري » رأسها على الصوت ، لمحت خلال النافذة وجوه الفلاحين في الحديقة تتطلع الى ما يجري بداخل القصر ، فتذكرت (برتو) ، وعادت الى مخيلتها صور المزرعة ، والبحيرة ، وأبيها تحت اشجار التفاح مرتدياً قميصه !.. بل انها رأت نفسها – كما كانت في الماضي – تنتزع القشدة بأصابعها من قدور اللبن !.. غير ان حياتها الماضية – التي كانت واضحة المعالم حتى تلك اللحظة – سرعان ما تلاشت عن آخرها في بريق ساعتها الراهنة ، حتى كادت ترتاب في انها عاشتها يوماً !.. ولم تعد تعيش الا في حلبة الرقص ، بينما كانت الظلال تلف ما عداها .. وأخذت تتناول المثلجات في كأس مطعمة بالذهب امسكتها بيسراها ، وراحت تسبل جفنيها وهي ترفع الملعقة الى فمها !

وكانت الى جوارها سيدة تركت مروحتها تسقط ، ثم قالت لأحد الراقصين وهو يمر بها : « هل لك يا سيدي ان تتفضل بالتقاط مروحتي التي سقطت وراء هذه الأريكة » .. وانحنى السيد .. وفيما

كان يلتقط المروحة ، لمحت « ايما » السيدة تلقي في قبعتـــه بشيء ابيض مطوي على شكل مثلث . وما لبث السيد ان قدم المروحة باحترام الى السيدة ، فشكرته بهزة من رأسها ، وتحولت تنشق عبير باقة من الزهور كانت تحملها !

وبعد وجبة العشاء – التي حوت الكثير من نبيذ اسبانيـــا ، ونبيذ الراين ، وحساء السمك ، وحساء اللوز ، وعصيدة جبل طارق ، وشتى انواع اللحم البارد المحوط بالجيلاتين – اخذت العربات ترحل تباعاً ، واضواء مصابيحها تبدو – من خلف الستائر الحريرية – مترنحة في جوف الظلام . وبدأت المقاعد تخلو .. غير ان بعض المقامرين تخلفوا .. وراح الموسيقيون يعلقون اطراف اصابعهم ليربطوها .. واستسلم « شارل » الى شبه اغفاءة وقد أسند ظهره الى أحد الأبواب ..

وفي الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ، بدأ رقص « الكوتيون » . ولم تكن « ايما » على دراية برقصة « الفالس » ، بينما راحت بقية الحاضرات – حتى مدموازيل دي اندفيلييه والمركيزة نفسها – يرقصنها .. ولم يكن قد بقي غير اثني عشر شخصاً تقريباً هم نزلاء القصر . على ان احد راقصي « الفالس » – وكان شاباً يرتدي صداراً واسع الفتحة يلتصق بصدره كالقالب ، ويدعوه القوم بلقب « الفيكونت » – تقدم من مدام « بوفاري » يدعوها لمراقصته ، مؤكداً لها انه سيرشدها فلا تلبث ان تتقن الرقصة !

* * *

وشرعا يرقصان في بطء ، ثم ازدادت السرعة . واخـذا يدوران فيدور معهما كل ما حولها من مصابيح ، واثاث ، وجدران ، وارض !.. وعندما مرا على مقربة من الباب ، التف ذيل ثوبها حول بنطلونه ،

فتداخلت أرجلها . وحفض بصره نحوها . ورفعت هي بصرها نحوه . وعلى الفور أحست بدبيب مخدر يسري في اعصابها !.. وتوقفا عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه .. واذا « الفيكونت » يقود « ايما » بحركة رشيقة الى نهاية البهو ، حيث اختفى معها . وكانت قد اوشكت ان تسقط لاهثة الانفاس ، فاسندت رأسها هنيهة الى صدره .. ثم عاودا الدوران في حركة أهدأ من ذي قبل ، حتى عاد « الفيكونت » بها الى مكانها الأول ، فتهالكت على مقعد بجوار الحائط ، وغطت عينيها براحتيها !

وعندما فتحت عينيها من جديد ، رأت سيدة تجلس على مقعد في منتصف الصالون ، وقد انحنى امامها ثلاثة من الراقصين يتنافسون على الفوز بها زميلة في الرقص . ولم تلبث السيدة ان اختارت « الفيكونت » وعادت القيثارة الى العزف .. واتجهت الانظار الى الراقصين اللذين أخذا يروحان ويجيئان ، وجسم السيدة ثابت في استقامته ، وذقنها منكسة الى اسفل . كذلك كان الفيكونت مشدود القامة ، مقوس الذراع ، وقد رفع رأسه .. ولم يكن ثمة شك في ان السيدة تجيد « الفالس » .. وقد استمرا في الرقص وقتاً طويلاً حتى انهكا بقية الراقصين !

* * *

وانتهى الرقص .. ودار الحديث لبضع دقائق ، ثم تبادل القوم تحيات الوداع ، او بالاحرى – تحيات الصباح ، ثم انصرف نزلاء القصر الى مخادعهم ..

وصعد « شارل » السلم وهو يجر نفسه جراً ، وقد كادت ساقاه تعجزان عن حمله ، بعد ان ظل واقفاً خمس ساعات متوالية يشاهد لعب الورق دون ان يفقه منه شيئاً !.. وتنفس الصعداء حين حرر قدميه من حذاءيها !

اما « ايما » ، فقد لفت كتفيهـــا بالشال ، وفتحت النافذة على حافتها ..

كان الليل دامساً ، والمطر يتساقط رذاذاً .. واخذت «ايما» تستنشق — في نهم — الهواء الرطب الذي ارسل في كيانها انتعـــاشاً .. وكانت موسيقى الرقص مـــا تزال تطن في اذنيها .. وجهدت لتظل ساهرة ، كي تمكن خيالها من ان ينعم، اطول وقت ممكن ، بالحياة المترفة التي لم يكن بد من تركها عما قليل !

وبزغ الفجر ، فرمقت نوافذ القصر بنظرات طويلة ، محـاولة ان تتصور ما كان يجري في مخادع اولئك الذين لفتوا نظرها في الليلـــة السالفة ، وكأنها تود لو عرفت حياتهم ، وتسللت اليها !.. ثم فطنت الى انها كانت ترتعش من البرد ، فخلعت ثيابهـــا ، واندست تحت الاغطية الى جوار « شارل » .. الذي كان قد استغرق في النوم !

وفي اليوم التالي ، حضر الغداء عدد كبير ، ولكـــن جلوسهم الى المائدة لم يتجاوز عشر دقائق .. وادهش الطبيب ان لم تقـدم خلال الوجبة أية خمور .. وما لبثت مدموازيل « دي اندفيلييه » ان جمعت قطعاً من الخبز في سلة لتحملها الى البجع في بركة الماء .. بينما انصرف القوم للنزهة في البيوت الزجاجية التي اعدت لانماء نباتات المناطق الحارة!.. وكانت ثمة نباتات غريبة ملبدة بالزغب ، صفت على شكل اهرامات ، تحت اصص معلقة تشبه اوكار الأفـاعي ، تدلت من حوافهـا اشرطة طويلة من الورق الأخضر المتشابك .. وكان بستان البرتقال القائم في طرف الحظائر يمتد في طريق مسقوف حتى مرافق القصر ..

وقاد المركيز زوجة الطبيب الشابة الى حظائر الخيـل ، على سبيل التسلية وقتل الوقت .. وكانت ثمة لافتات من الخزف ، فوق المذاود الشبيهة بالسلال ، تحمل اسماء الخيول بحروف سوداء .. وكانت كل دابة تتحرك في مأواها ، وتقعقع بلسانها ، عندما يمر احد على مقربة

منها .. وبدت اخشاب ارض الحظائر لامعة كأنها ارضية صالون .. وكانت اطقم العربات مصفوفة في الوسط فوق عامودين ملتفين ، بينما رتبت الأعنة والسياط والسلاسل في خط مستقيم على طول الحائط ..

وفي تلك الاثناء ، ذهب « شارل » يرجو خادماً ان يعد عربته التي كانت قد اقتيدت الى المدخل .. حتى اذا حملت اليها الحقائب ، قدم الزوجان « بوفاري » تحياتهما الى المركيز والمركيزة ، ثم استقلا العربة عائدين الى (توست) .

* * *

راحت « ايما » ترقب في صمت العجلات وهي تدور ، بينما كان « شارل » يقود العربة وقد جلس على حافة المقعد منفرج الذراعين ، والجواد الصغير يخب بين ذراعي العربة الخشبيتين ، والعنان المرتخي يضرب عجز الحصان فيبتل بالزبد ، بينما كان الصندوق الذي ربط خلف العربة يرتطم بجدارها في ضربات منتظمة ..

وعندما وصلا الى مرتفعات (تيبورفيل) ، مر امامهما فجأة عدد من الفرسان يتضاحكون ولفافات السيجار في افواههم .. وخيل لايما انها تعرفت بينهم على « الفيكونت » فالتفتت ، غير انها لم تر في الافق سوى رؤوس تتحرك في ارتفاع وانخفاض ، مع حركات الخيل في عدوها وخببها ..

وما ان قطعا نصف الفرسخ حتى اضطرا الى الوقوف ، كي يصلا بالحبال ما انقطع من « السير » الذي يربط الجواد الى العربة .. وفيما كان « شارل » يلقي نظرة اخيرة على الطاقم بعد ان اصلحه ، لمح بين اقدام الجواد — على الارض — حافظة سيجار من الحرير الأخضر المطرز ، يتوسطها شعار ينم عن انها لشخص من ذوي الألقاب .. فقال : « ان بها سيجارين ، سأدخنهما بعد العشاء الليلة » .

فتساءلت « ايما » : « اذن فأنت تدخن ؟ » .

قال : « احياناً .. عندما تسنح فرصة لذلك » .

ووضع « غنيمته » في جيبه ، ثم هوى بسوطه على ظهر الجواد الذي اندفع بالعربة ..

ولم يجدا العشاء معداً حين بلغا دارهما ، فاحتدت « ايما » ولما اجابتها الخادم « نستازي » في قحة .. صاحت بها :

— اخرجي من هنا !.. هذه وقاحة مشينة !.. انت مطرودة من هنا !

وتحولت تعد العشاء بنفسها .. وكان يتكون من حساء بالبصل ، وقطعة من لحم العجول .. وجلس شارل امام « ايما » يفرك يديه ويقول في غبطة : « ما امتع المرء ان يعود الى داره ! »

وتناهى اليهما صوت « نستازي » وهي تبكي .. وكان « شارل » ينزل الفتاة المسكينة من نفسه منزلة طيبة ، اذ شاطرته الأمسيات الطويلة التي مرت به ايام حزنه ، كما كانت اول من عرفه من اهل المنطقة ، حين بدأ يمارس مهنته فيها .. فلم يلبث ان سأل زوجته : « أحقاً طردتها ؟ » .

وردت « ايما » ، في حنق : « اجل .. من يمنعني من ذلك ؟!»

وبعد العشاء ، التمسا الدفء في المطبخ ، حيث اخذ شارل يدخن وهو يمط شفتيه ويبصق في كل لحظة ، ويضطجع في استمراء عند كل نفثة دخان !.. فما لبثت « ايما » ان قالت له في استهجان : «لسوف تؤذي نفسك » !.. ومن ثم وضع السيجار جانباً ، ثم جرى الى المضخة ـ « الطلمبة » ـ ينشد كوباً من الماء البارد .. واذ ذاك تناولت « ايما » حافظة السيجار فقذفت بها في قاع الصوان ..

* * *

ولاح لها اليوم التالي طويلاً ، فأخذت تتمشى في حديقتها الصغيرة

جيئة وذهاباً ، متوقفة من آن الى آخر امام الأحواض او عرائش الكروم او تمثال القش المصنوع من الجص ، تتأمل في دهشة هذه الاشياء القديمة التي ألفتها وعرفتها من قبل .. لكم لاحت لها ليلة الرقص بعيدة !.. ترى منذا الذي أقام هذا الحاجز الكبير بين صباح امسها ومساء يومها ؟! .. لقد تركت رحلتها الى (فوبيسار) ثغرة في حياتها كتلك الثغرات الواسعة التي تخلفها العاصفة في الجبال احياناً ، في ليلة واحدة !

على انها تقبلت الواقع في استسلام ، وطوت في وجوم ثيابها الجميلة داخل الصوان ، وبينها حذاءاها الحريريان ، وقد اصفر نعلاهما من اثر الشمع الذي كانت تنزلق عليه فوق ارض حلبة الرقص ! . تماماً كما انطبع في قلبها – بعد احتكاكه بالثراء – أثر لا يزول !

وهكذا غدت ذكرى تلك الليلة الراقصة شغلها الشاغل ، فكانت – حين تستيقظ في صباح الاربعاء من كل اسبوع – تهمس لنفسها : « آه !.. لقد انقضى عليها اسبوع .. مضى اسبوعان .. مرت ثلاثة اسابيع .. مذ كنت هناك ! » .. وشيئاً فشيئاً ، اخذت معالم الحفلة تختلط وتتداخل في ذاكرتها ، فنسيت الحان الرقص ، ولم تعد تذكر الملابس والحجرات في وضوح .. فقد ذهبت بعض التفصيلات .. وبقيت لها الحسرة !

الفصل التاسع

كثيراً ما كانت « ايما » تسعى الى الصوان – اذا ما غادر « شارل » المنزل – فتخرج حافظة السيجار الحريرية الخضراء من ثنايا الثياب التي دستها بينها ، وتروح تتأملها ، وتفتحها .. بل انها كانت تتنسم رائحة بطانتها التي جمعت بين العطر والتبغ !.. ترى لمن كانت تلك الحافظة ؟.. أتراها كانت للفيكونت ؟!.. لعلها هدية من عشيقته نسجتها وطرزتها على اطار من خشب الورد ، لتكون تحفة صغيرة يحتفظ بها بعيداً عن اعين الفضوليين جميعاً !.. ولعل الحائكة الحالمة شغلت بصنعها ساعات طوالاً ، كانت خصل من شعرها تتهدل خلالها على النسيج .. ولا بد ان نسمة من الحب سرت بين خيوط الرقعـــة ، والفتاة تثبت مع كل غرزة من ابرتها املاً او ذكرى ! . كأن الخيوط الحريرية في امتدادها وتقاطعها ، انعكاس لما كان في فؤادها من هيام صامت !.. حتى اذا فرغت منها في النهاية ، حملها « الفيكونت » !.. ترى فيم كان يدور الحديث حين كان يضع هذه الحافظة فوق المدفأة ذات الاطار العريض ، بين أصص الزهور وساعات « بمبادور » البندولية !

وكانت « ايما » ترتد من هذا الحلم الى التفكير في نفسها .. ها هي ذي في (توست) و « الفيكونت » في باريس .. بعيداً .. ترى كيف تكون باريس ؟.. يا للاسم الضخم !.. وراحت تردده لنفسها هامسة ،

وهي تستشعر متعة في تكراره !.. كان يرن في اذنيهـــا رنين ناقوس الكنيسة .. بل بدا كما لو كان يبعث شعاعاً يترامى حتى يصل الى البطاقات الصغيرة الملصقة على علب الدهان والمساحيق !

وكان صيادو السمك يمرون في الليل تحت نوافذ الدار ، وهم يرددون اناشيدهم ، فكانت تستيقظ من نومها ، وتصغي الى قرقعة العجلات الحديدية حتى يتلاشى ضجيجها في النهاية ، بعد ان تبارح العربات البلدة .. وعندئذ تحدث نفسها قائلة : « لسوف يصلون اليها غداً ! » .. وكانت تتابعهم بخيالها ، وهم يصعدون الربى ، ويهبطون الوهاد ، ويجتازون القرى ، وينسابون في الطريق العريض الممتـــد تحت اضواء النجوم .. ولا تلبث ، بعد مسافة لا تدري مداها ، ان تجد نفسها في مكان غامض ينتهي عنده حلمها !

وابتاعت خريطة لباريس ، فكانت تتابع معالمها بأصبعها وتقوم بجولات وهمية في احيائها : تسير في الشوارع الكبيرة ، وتقف عند الاماكن التي تتقاطع عندها خطوط الشوارع امام المربعات البيضاء التي تمثل المنازل .. حتى اذا كانت عيناها ، اطبقت جفنيها .. واذ ذاك ، كانت ترى على صفحة الظلام صور المشاعل والرياح تعبث بألسنتها ، وابواب العربات تفتح في صخب امام ابهاء المسارح !

واشتركت في صحيفة « لاكوربي » — النسوية — ومجلة « سيلف » (اي « حوريات الصالونات ») — الاجتماعية — وأخذت تلتهم ما كان ينشر فيها ، دون ان تغفل كلمة من انباء حفلات العرض الأول للمسرحيات، وحفلات السباق والسهرات .. وكانت تهتم بظهور مغنية جديدة ، او بافتتاح متجر !.. واخذت تتعرف على الأزياء الحديثة ، وتحفظ عناوين امهر الحائكين والحائكات ، والأيام التي اعتاد المجتمع الباريسي ان يخرج فيها للنزهة في الغابة ، او للسهر في الاوبرا .. وراحت تدرس في « اوجين سويه » اوصاف الأثاث .. وقرأت لبلزاك وجورج صاند وهي تنشد اشباعاً

وهمياً لمطامعها الشخصية !.. وبلغ من شغفها هذا ، ان كانت تحمل كتابها معها الى المائدة وتقلب صفحاته ، بينما يكون « شارل » منهمكاً في الأكل والحديث .. وكانت ذكري « الفيكونت » لا تفتأ تعاودها اثناء قراءاتها ، فتقارن بينها وبين الشخصيات التي تصادفها في الروايات . على ان الدائرة التي كانت تحيط بشخصيته راحت تتسع شيئاً فشيئاً .. وأخذت هالة الرواء ، التي احاطته بها ، تفارقه رويداً لتمتد الى مسافات ابعد ، حيث تضيء احلاماً اخرى !

وهكذا باتت « ايما » ترى باريس اكثر اتساعاً من المحيط ، وقد راحت تتألق امام اعينها في جو قرمزي !

• • •

على ان ألوان الحياة المصطخبة في هذا الخضم ، كانت – عند « ايما » – مقسمة الى اجزاء ، ومرتبة في لوحات متباينة ... ولم تكن « ايما » تتبين من العوالم التي تضمها باريس سوى اثنين او ثلاثة تطغى على ما عداها ، كما لو كانت الانسانية برمتها تتمثل فيها وحدها : دنيا السفراء ، يخطرون فيها فوق ارض لامعة ، في صالونات كسيت جدرانها بالمرايا ، ويجلسون حول موائد بيضاوية مغطاة بمفارش من المخمل المزركش بالقصب !.. وفي هذا العالم اثواب ذات ذيول جرارة ، واسرار خطيرة ، ومآس تختفي وراء الابتسامات !.. ويلي ذلك ، عالم الدوقات .. حيث تكتسي الوجوه شحوباً ، ويستيقظ الرجال في الساعة الرابعة !.. وترتدي النساء – اولئك الملائكة المساكين – « جونلات » وشيت ذيولها بالنقوش المطرزة .. بينما يمتطي الرجال – اولئك الذين اوتوا كفايات مجحودة تتوارى خلف مظاهر تافهة – جيادهم ، ويندفعون بها ، حتى الموت ، في سبيل التسلية ، ويذهبون الى مصيف (باد) لقضاء فصل الصيف .. ثم يتزوجون في النهاية – اذا ما بلغوا الأربعين – من النساء الوارثات !

وفي قاعات المطاعم التي تقدم العشاء بعد منتصف الليل ، يضحك – في ضوء الشموع – جمهور مختلط الألوان من رجال الأدب والممثلات .. قوم مسرفون كالملوك ، تمتلىء نفوسهم بأنواع الطموح المثالي ، والهذيان الخارق !.. وتختلف حياتهم عن حياة الآخرين ، فهي معلقة بين الأرض والسماء ، في غمرة العواصف .. حياة فيها شيء من السمو !

اما ما عدا هذه من عوالم ، فقد كان في نظر « ايما » مضيعاً ، تائهاً ، لا مكان له ولا وجود !

وكانت « ايما » من اولئك اللاتي يزهدن في اقرب الاشياء اليهن .. فكلما قربت الاشياء منها ، ازدادت نفسها عنها ازوراراً .. فكل ما يحيط بها مباشرة : من ريف ممل ، وبورجوازية ضئيلة حمقاء ، وحياة زرية ... كل هذه كانت تلوح لها اشياء شاذة ، ومصادفات خاصة « تورطت » فيها .. بينما كان يمتد خلفها جميعاً – والى ما لا نهاية – عالم اللذات والانفعالات !

واختلطت في احاسيسها لذات البذخ المادية بمسرات القلب ، ورقي العادات برقة المشاعر .. افلا يحتاج الحب – كما تحتاج نباتات الهند – الى تربة معينة ودرجة حرارة خاصة ؟.. فالزفرات في ضوء القمر ، والعناق الطويل ، والدموع التي تنهمر على الأيدي المستسلمة ، وحمى الجسد ، ورقة الحنان ... كل هذه امور لا انفصال لها عن شرفات القصور الكبيرة المليئة بأوقات الفراغ ، ولا عن المخادع ذات الستائر الحريرية ، والطنافس السميكة ، واحواض الزهور ، والاسرة المقامة على منصات مرتفعة عن سطح الأرض ، وبريق الاحجار الكريمة ، وأشرطة ازياء الخدم !!

• • •

وكان السائس يفد كل صباح ليعنى بالفرس ، فيعبر المدخل في حذاءيه الخشبيين الكبيرين – اللذين يضمان قدميه العاريتين – وسترته التي تتخللها

الثقوب ، وسرواله القصير الذي لم تكن ثمة حياة سوى الاكتفاء به !..
فاذا انتهى من عمله ، انصرف الى حيث لا رجعة له بقية النهار ، اذ
ان « شارل » كان يتولى بنفسه — عند عودته — ايواء الفرس في الحظيرة ،
ورفع سرجها عنها ، بينما تحمل اليها الخادم حزمة من القش ترميها في
المذود كيفما اتفق !

وكانت « نستازي » قد غــادرت (توست) اخيراً ، وهي تذرف
الدمع مدراراً ، فاستعاضت « ايما » عنها بفتاة في الرابعة عشرة ، يتيمة ،
مليحة القسمات . وحظرت عليها لبس « الطاقية » القطنية ، وعلمتها كيف
تخاطبها في احترام ، ودربتها على ان تحمل كوب الماء في طبق ، وان
تطرق الباب قبل الدخول ، وان تكوي الثياب وتكسبها بالنشاء استواء ،
وان تساعدها على ارتداء ثيابها .. كل ذلك لانها ارادت ان تجعل منها
وصيفة لها !

واعتادت الخادم الجديدة ان تطيع في غير تذمر حتى لا تطرد !..
واذ كانت السيدة قد ألفت ان تترك المفتاح في « البوفيه » ، فان
« فيليسيتيه » — الخادم — كانت في كل مساء تأخذ قطعة صغيرة من
السكر لتأكلها ، حين تخلو الى نفسها في فراشها ، بعد ان تؤدي الصلاة !..
اما في الفترات التي كانت السيدة تلتزم فيها مخدعها في الطابق العلوي
— بعد ظهر كل يوم — فكانت الفتاة تسعى احياناً الى السياس الموجودين
في المبنى المواجه للمنزل فتجاذبهم الحديث !

وكانت « ايما » في تلك الفترات ترتدي « روب دي شامبر » مفتوحاً ،
تكشف قلاباته صدره العريضة عن صدار ذي ثنيات وثلاثة ازرار ذهبية ،
يضم اطرافه حول الخصر حزام كالحبل المجدول ، ينتهي بكرات كبيرة
ذات « شرابات » .. اما قدماها ، فكانت تغيبها في خفين — « بانتوفلي » —
في لون الرمان ، تنتشر على سطحيها اشرطة عريضة .

وابتاعت اوراقاً للكتابة ، وأوراق نشاف ، وريشة ، ومظاريف وورقاً

للرسائل ، وان لم يكن ثمة من تكتب اليه !.. وكانت تنفض الغبار عن الرف ، وتتطلع في المرآة ، ثم تتناول كتاباً فلا تلبث ان تراودها الأحلام بين سطوره فتنشغل عنه ويسقط بين ركبتيها !.. وأخذت تتوق الى القيام برحلات ، او الى العودة للدير كي تعيش فيه !.. كانت تتمنى المتناقضات في آن واحد .. ان تموت .. وان تعيش في باريس !

اما « شارل » ، فكان ينطلق على جواده خلال الطرق الفرعية — المفضية الى المزارع والقرى — تحت المطر والجليد ، يأكل « العجة » على موائد الريف ، ويدس يديه في الاسرة الرطبة التي يرقد فيها المرضى ، ويتلقى على وجهه رشاش الدم الدافىء المنبثق من الفصاد ، ويسمع الحشرجات ، ويفحص البطون، ويرفع الثياب القذرة عن اجساد المعلولين !.. لكنه كان يجد في كل مساء ناراً مستعرة ، ومائدة معدة ، واثاثاً مريحاً ، وزوجة في ابدع زينة ، تتضوع بأريج عطر كان يحار في التكهن بمكانه : اهو قميصها ، ام بشرتها ؟!

وكانت تفتنه بمبتكراتها ، التي كانت تتمثل حيناً في مظلات جديدة من الورق تصنعها لتضعها فوق الشمعدانات ، وتتمثل حيناً آخر في ثنية تغير موضعها في ثوبها ، او في اسم مبتكر للون بسيط من الطعام اخفقت الخادم في صنعه ، فلا يصد اخفاقها « شارل » عن التهام الصنف حتى يأتي عليه !

ورأت « ايما » في (روان) سيدات يحطن ساعاتهن بعقود من الحلى الزائفة ، فابتاعت حلياً زائفة !.. ورأت ان تزين رف مدفأتها بآنيتي زهور كبيرتين من الزجاج الأزرق ، لم تلبث ان ضمت اليها صندوقاً من العاج لأدوات الحياكة ، و « كستباناً » من العقيق !.. وكان « شارل » كلما ازداد عجزاً عن فهم كنه اسباب تلك الأناقة ، ازداد انصياعاً لسحرها ، اذ كانت تضفي على حواسه لذة ، وعلى داره رواء .. وكأنها غبار ذهبي ينتثر على طول طريق حياته الضيق !

وغدت صحته طيبة ، ووجهه مشرقاً ، وشهرته مستقرة منيعة !..
كان الريفيون يحبونه لأنه لم يكن متغطرساً ، بل كان يداعب اطفالهم !..
ولم يكن يغشى الحانات .. وكان في خلقــه – فوق ذلك – ما يوحي
بالثقة والطمأنينة .. وقد نجح – بوجه خاص – في علاج نزلات البرد
والأمراض الصدرية !.. والواقع ان « شارل » كان يخشى دائماً ان يقتل
مرضاه ، ولذلك لم يكن يوصي لهم الا بالأدوية المهدئة للألم !!.. وكان
يوصي – بين آن وآخر – بشراب مقيىء ، وبحمام القدم ، وباستخدام
العلق (الدود) الذي يمتص الدم الفاسد ، وكان يسرف في فصدهم
بالعلق في سخاء ، وكأنهم جياد !.. اما في اقتلاع الاضراس ، فقد
كانت له قبضة حديدية !

* * *

وحتى يظل على دراية بما يستحدث في الطب ، اشترك في مجلة « الحلية
الطبية » بعد ان تسلم اعلاناً عنها . وكان يقرأ فيها بعض الوقت عقب
العشاء ، ولكن دفء الغرفة ، والاسترخاء الذي يدب في الجسم اثناء
عملية الهضم ، كانا لا يلبثان ان يسلماه الى النوم بعد خمس دقائق .. فيظل
مسترخياً ، وذقنه معتمدة على يديه ، وشعره متهدل – كالعرف –
حتى اسفل المصباح ، و « ايما » ترقبه ، ثم تهز كتفيها !.. لماذا لم تحظ
بزوج ولو من اولئك الذين يقضون الليل بين الكتب ، ويحملون في النهاية
– اذا ما بلغوا الستين ، سن « الروماتيزم » – وساماً على شكل الصليب ،
فوق بزاتهم السوداء ؟.. لكم كانت تشتهي ان يغدو اسم « بوفاري »
ذائعاً ، وان تراه معروضاً عند باعة الكتب ، تردده الصحافة ، وتعرفه
فرنسا بأسرها !

بيد ان « شارل » لم يكن يعرف الطموح ابداً !

ولقد حدث ان اهانه يوماً طبيب من (ايف تو) – اجتمع معه

للتشاور – امام فراش مريض ، وعلى مسمع من اقاربه المحيطين بهما ، فلما روى الحادث لايما في المساء ، ثارت في حنق على ذلك الزميل الى درجة جعلت « شارل » يتأثر بالفعل ، ويقبلها في جبينها وهو دامع العينين .. ولكنها كانت تغلي لفرط احساسها بالخزي لما ناله ، حتى لقد ودت لو تضربه !.. ولكنها لم تملك الا ان تسير الى الردهة فتفتح النافذة لتعب الهواء العليل حتى تهدأ سورتها .. وأخذت تعض شفتها وتردد في صوت خفيض : « يا له من رجل مسكين !.. يا له من رجل مسكين ! »

والواقع ان ثورتها كانت ضد زوجها بالذات .. فقد اخذت حركاته وتصرفاته تغلظ بتقدم السن .. كان يلهو – عند تناول الحلوى – بتقطيع سدادات الزجاجات الفارغة .. وكان بعد الاكل يلعق أسنانه بلسانه .. كما كان يرشف الحساء بصوت منكر .. ولما كانت البدانة قد اصابته ، فان وجنتيه المنتفختين دفعتا بعينيه الصغيرتين الى أعلى نحو الصدغين !

وكانت «ايما» تسوي له أطراف صداره الحمراء في بعض الاحيان ، وتصلح من وضع رباط عنقه ، او تطوح جانباً بقفازين قذرين يهم باستعمالها .. والواقع انها لم تكن تفعل ذلك من اجله – كما كان يخال – وانما كانت تفعله من اجل نفسها ، وبدافع من اثرتها وتوتر من اعصابها !.. وكانت تحدثه احياناً عن شيء مما تقرأ ، كفقرة من رواية او مشهد من مسرحية جديدة او حادث من انباء الطبقة الراقية المنشورة في الصحف .. فقد كانت ترى انه – على اية حال – انسان ، له اذن تسمع باستمرار .. وله استعداد للموافقة دائماً على ما يسمع !.. بل انها كانت تبوح بأسرارها لكلبها .. ولحطب المدفأة ، وبندول الساعة !

وكانت في هذه الاثناء كلها لا تني تنتظر في اعماق نفسها حدثاً ما !.. كانت ، كالملاح المكروب ، تسرح بصرها القانط في وحشة حياتها ، بحثاً عن شراع ابيض في ضباب الأفق البعيد !.. وما كانت تدري كنه ذلك الحدث ، ولا اي ريح ستسوقه اليها ، ولا الى اي شاطىء سيدفعها ..

وهل هو زورق ، او سفينة ذات ثلاثة طوابق .. وهل يكون مفعماً بالأسى ، او طافحاً بالهناءة !.. ولكنها كانت اذا استيقظت في كل صباح تمنت لو يواتيها في يومها . كانت تنصت لكل صوت ، وتقفز ناهضة تستجليه ، ثم تشعر بصدمة لأن شيئاً لم يحدث !.. فاذا جنحت شمس اليوم للمغيب ، اشتد بها الأسى ، وراحت تتمنى لو تعجل الغد وأقبل !

ووفد الربيع مرة اخرى ، فغشيتها انقباضات من موجات الحر الأولى التي تهب حين تزهر اشجار الكمثرى .. حتى اذا بدا شهر يوليو ، اخذت تعد الاسابيع على اصابعها في ارتقـــاب شهر اكتوبر ، راجيا ان يقيم « المركيز دي اندفيلييه » حفلاً راقصاً آخر في (فوبيسار) !.. بيد ان شهر سبتمبر انصرم عن آخره دون ما خطابات او زيارات !

* * *

واحست مرة اخرى – بعد انقضاء المرارة التي خلفتها خيبة الرجاء – بفراغ في فؤادها .. وبدأت من جديد سلسلة الأيام المتشابهة الرهيبة ، التي لا تتغير ، ولا تأتي بجديد !.. لقد كان يصادف حياة سواها – مهما تكن هذه الحياة خاوية مملة – حدث من الأحداث يتيح لها فرصة الخروج عن المألوف .. ولقد تؤدي مغامرة واحدة – احياناً – الى سلسلة لا تنتهي من الأحداث التي تغير اطار الحياة .. اما هي ، فلم يكن يصادفها شيء .. كما لو كانت تلك هي ارادة الله !.. كان المستقبل يمتد امامها كسرداب مظلم ينتهي بباب محكم الاغلاق !

واهملت الموسيقى .. فلماذا تعزف ، ومنذا الذي يسمعها ؟!.. لم يكن ثمة ما يدعو الى بذل الجهد في المران ، ما دامت لن تستشعر همس النشوة يتصاعد حولها كالنسيم وهي تمس بأناملها الرقيقة مفاتيح « البيانو » العاجية في حفل عام ، وقد ارتدت ثوباً من المخمل قصير الكمين !.. كذلك ابقت لوحات الرسم وقطع التطريز في الصوان .. اذ ما جدواها ؟.. وأي

نفع منها ؟.. اما الحياكة ، فقد اصبحت تثير أعصابها !.. حتى القراءة ؛ انصرفت عنها قائلة لنفسها : « لقد قرأت كل شيء ! »

واخذت تضع الملاقط في النار لتحركها فتسهو عنها حتى تحمر .. وترقب المطر وهو يتساقط بنظرات جوفاء !.. ولشد ما كان يجتاحها الأسى اذا ما دق الناقوس لصلاة المساء في يوم الأحد !.. كانت تصغى بذهن شارد الى دقات الجرس المشروخ وهي تتتابع. بينما يخطر على سطح المبنى القائم في مواجهتها قط احنى ظهره لأشعة الشمس الشاحبة .. والريح تثير غيوماً فوق الطريق الرئيسية .. وقد ينبعث من بعد نباح احد الكلاب والناقوس مسترسل في دقاته المملة ، يرسلها في ايقاع رتيب ، فلا تلبث ان تتلاشى فوق الحقول .

ثم يخرج الناس من الكنيسة : النساء في احذية لامعة ، والرجال في اقمصة جديدة ، يتقدمهم الاطفال يقفزون ورؤوسهم عارية .. ويأوى الجميع الى منازلهم فيما عدا خمسة رجال او ستة ، كانوا دائماً يظلون – حتى يهبط الليل – امام الحانة يمارسون فيها لعبة الفلين !

* * *

ثم اقبل الشتاء قارساً ، وأخذ الجليد يكسو زجاج النوافذ في كل صباح ، فيبدو – اذ يخترقه الضوء – كالزجاج « المصنفر » . وفي ذلك الجو المتجهم ، كان لا بد من اضاءة المصباح منذ الساعة الرابعة بعد الظهر .

وكانت « ايما » تهبط الى الحديقة في الايام الرائقة ، فاذا الندى قد خلف فوق الكرنب وشياً من الفضة ، تتخلله خيوط طويلة شفافة تمتد من كرنبة الى اخرى .. ولم تكن شقشقة العصافير تتردد ، بل كان كل شيء يبدو مخلداً الى النوم ، والعزائش مكسوة بالقش ، والكروم تمتد – كثعبان كبير مريض – تحت اقبية الجدران ، حيث يري الانسان – اذا ما اقترب – الخنافس وهي تزحف !.. والى جوار السياج من ناحية

غابة الصنوبر كان تمثال القس ذي القلنسوة ماضياً في قراءة كتاب الصلوات ، وقد فقد قدمه اليمنى ، بينما عبث الصقيع بطلائه فخلف على وجهه قرحاً بيضاء !

ولا تلبث « ايما » ان تصعد الى مخدعها فتغلق الباب ، وتبسط الوقود ، حتى ترسل المدفأة حرارة تخدرها ، وتبعث في نفسها مللاً تخاله ثقلاً فادحاً يجثم على صدرها ، فتود لو هبطت لتأنس بالحديث مع الخادم ، لولا ان يمنعها الحياء !

وفي ساعة معينة من كل يوم ، كان ناظر المدرسة ذو الطاقية الحريرية السوداء يفتح نوافذ منزله .. ويمر حارس الحقول حاملاً سيفه فوق قميصه .. وكانت خيل البريد تعبر الشارع – في الصباح والمساء – ثلاثة ، ثلاثة ، تسعى الى البركة لترتوي .. ومن وقت الى آخر ، يصلصل باب احدى الحانات .. فاذا هبت الريح ، انبعث صرير من اللافتات النحاسية المعلقة على جانبي حانوت الحلاق ، الذي كانت كل زينته تتمثل في صورة الصقت على لوح من زجاج النافذة ، وتمثال نصفي من الشمع لامرأة ذات شعر زاه . وكان صاحب هذا الحانوت يندب – هو الآخر – موهبته التي تعطلت ، ومستقبله الذي ضاع .. ويحلم بحانوت في بلد كبير مثل (روان) ، يقوم الى جوار المسرح ، مطلاً على الميناء !.. وكان يقضي نهاره يتمشى جيئة وذهاباً بين دار البلدية والكنيسة ، يرتقب العملاء في اكتئاب .. فكلما اطلت مدام « بوفاري » ألفته في سيرة هذا كديدبان في نوبته ، وقد ارتدى سترة العمل التي لا يغيرها ، وقلنسوة يونانية !

وكان يبرز – في اويقات العصر احياناً – رأس رجل وراء زجاج البهو .. رأس لفحته الشمس ويزينه شاربان اسودان ، وقد اخذت اساريره تنفرج في تؤدة عن ابتسامة عريضة عذبة تكشف عن اسنان بيضاء .. ثم تبدأ رقصة – على نغمات « الفالس » المنبعثة من ارغن يديره

الرجل – في صالون دقيق صغير ، لا يتجاوز كل راقص فيه حجم الاصبع !.. راقصون بينهم نساء بعمائم وردية ، ورجال من ابناء « التيرول » في معاطفهم التقليدية ، وقردة في ملابس سوداء ، ورجال في سراويل قصيرة .. يدورون ويدورون بين المقاعد الوثيرة والارائك والموائد ، وتنعكس حركاتهم مراراً في مرايا التصق بعضها الى بعض بشريط من ورق مذهب . وكان عازف الأرغن يدير يد الآلة وهو يجيل بصره يمنة ويسرة ، ثم يتطلع الى النوافذ . وكان يرفع آلته – من وقت الى آخر – بركبته ، بعد ان تعيي كتفه حمالتها الغليظة ، وهو يرسل قذائف طويلة من بصاق بني اللون على احجـــار الطريق .. والموسيقى الحزينة المتباطئة – تارة – والمرحة السريعة – تارة اخرى – تنبعث من صندوقه خلال ستارة من « التافتاه » وردية اللون ، علقت بمشجب نحاسي ذي زخرف عربي .. وكانت هذه الموسيقى بالذات تعزف فوق المسارح ، او في الصالونات حيث يدور الرقص على وقعها في السهرات ، وتحت الثريات المتلألئة .. فكانت بمثابة اصداء تصل الى « ايما » من المجتمعات الراقية التي تهفو اليها !.. وفي مخيلتها ، كانت تتتابع مواكب راقصة لا تكاد تنتهي !.. وكان تفكيرها يقفز مع النغمات – كالراقص فوق بساط من زهور – متنقلاً من حلم الى حلم .. ومن شجن الى شجن !

وكان الرجل – بعد ان يتلقى في قلنسوته ما يجود به اهل الشارع من صدقات – يطرح فوق الارغن غطاء قديماً من الصوف الازرق ، ثم يحمله على ظهره وينصرف في خطى ثقيلة .. و « ايما » ترقبه وهو يبتعد !

وكان جلدها يغدو اقرب ما يكون الى النفاد والانهيار في اوقات الوجبات ، في تلك القاعة الصغيرة بالطابق الأرضي ، حيث الموقد الذي لا ينفك عن ارسال الدخان ، والباب الذي يبعث صريراً ، والجدران المنداة ، والارضية الرطبة .. كان يخيل لها اذ ذاك ان مرارة الحياة بأسرها

تخالط طعامها !.. ومع بخار الحساء ، كانت تتصاعد من اعماق روحها نفثات من الاعياء والضيق !.. ولما كان « شارل » بطيئاً في الأكل ، فقد كانت تنفق الوقت في قرض بندقة ، او تعتمد بمرفقيها على المائدة وتتسلى برسم خطوط بسن سكينها على المفرش !

واصبحت تهمل كل شيء في دارها .. فلما اقبلت مدام « بوفاري » الأم الى (توست) لتقضي بضعة ايام اثناء الصوم ، راعها هذا التغير ، فان « اما » ، التي كانت فيما مضى شديدة العناية بنفسها ، حريصة على اناقتها ، اصبحت تمكث اياماً بطولها دون ان ترتدي ملابس زينتها ، وهي تروح وتغدو في جوربين رماديين من القطن .. كما اصبحت تقتصر على استخدام الشموع في اضاءة البيت ، مرددة ان لا بد من الاقتصاد لانهم ليسوا من اهل الثراء !.. وكانت تضيف الى هذا انها سعيدة كل السعادة ، راضية كل الرضى ، وان (توست) تروق لها .. وامثال هذه العبارات الجديدة التي كانت تغلق فم حماتها عن اللوم !

على ان « اما » اضحت – الى جانب ذلك – تبدي عدم استعداد لتقبل ارشادات حماتها !.. وقد حدث مرة ان بدا لمدام « بوفاري » الأم ان تشير الى ان من واجب المخدومين ان يعنوا بمراقبة احترام الخدم لشعائر الدين ، فاجابتها « اما » بنظرة تتقد غضباً ، وابتسامة تفيض بروداً ، مما حدا بالسيدة الى ان تكف بعد ذلك عن كل احتكاك بها !

واصبحت « اما » حادة المزاج ، كثيرة النزوات ، غريبة الاطوار .. فهي تطلب ألواناً معينة من الطعام ثم لا تقربها .. وقد تصر يوماً على ان لا تتناول سوى اللبن الصافي ، ثم تقبل في اليوم التالي على شرب عشرات من اقداح الشاي !.. وكانت تقرر احياناً عدم الخروج فتضيق انفاسها وتفتح النوافذ ثم ترتدي ثوباً خفيفاً !.. وكانت تعنف مع الخادم ، ثم لا تلبث ان تسترضيها بالهدايا ، او ترسلها للنزهة لدى الجيران !.. كذلك كانت احياناً تقذف للفقراء بجميع ما في كيسها من

نقود فضية ، رغم انها لم تكن يوماً رقيقة القلب ولا سهلة التأثر بانفعالات الآخرين !

• • •

وحوالي نهاية شهر فبراير ، حمل الأب « روو » - بنفسه - الى صهره ديكاً رومياً بديعاً ، رمزاً لذكرى شفائه ، واقام في (توست) ثلاثة ايام ، واذ كان « شارل » في تلك الاثناء مشغولاً بمرضاه ، فقد بات على « ايما » وحدها عبء مصاحبته ، فأمضها منه انه كان يدخن في الغرفة ، ويبصق في المدفأة ، ويتحدث عن الزراعة والعجول والابقار والدجاج والمجلس البلدي .. حتى لقد عجبت من نفسها اذ احست بشعور من الارتياح يداخلها حين اغلقت الباب خلفه عقب رحيله !.. والواقع انها لم تعد تتحرج من ان تبدي احتقارها لشيء او ازدراءها لأحد .. وكانت تصدر عنها احياناً آراء غريبة ، فتنتقد ما يرضاه الناس ، وتحبذ اموراً لا تستقيم مع الاخلاق ، الأمر الذي كان يترك زوجها مذهولاً !

وكانت لا تفتأ تسائل نفسها : ايلازمها هذا البؤس ابد السنين ؟!.. او ليس هناك من مخرج ؟!.. انها لا تقل عن اولئك اللاتي يعشن في سعادة .. بل لقد رأت في (فوبيسار) دوقات اسوأ منها قواماً ، وأقل رقة وتهذيباً !.. وأخذت تسخط على ظلم الاقدار .. وتسند رأسها الى الجدران لتبكي !.. كانت تحسد اولئك الذين يحظون بحياة صاخبة ، ويقضون الليالي في حفلات تنكرية ، وينعمون بتلك اللذات العنيفة التي يثير سماعها في نفسها مشاعر لا تدرك كنهها !

ومال لونها الى الشحوب ، واضطربت دقات قلبها ، فاعطاها « شارل » دواء يهدىء اعصابها ، ووصف لها حمامات الكافور .. ولكن محاولاته لم تزدها الا هياجاً !.. وكانت في بعض الايام تثرثر في فيض محموم ، ثم لا يلبث ان يعقب هذا الانطلاق ركود مفاجىء ، لا تنطق خلاله بلفظ ،

ولا تأتي بحركة .. ولم يكن ينعشها اذ ذاك سوى زجاجة من ماء « الكولونيا » تسكبها على ذراعيها !

واذ اخذت تشكو من (توست) بلا انقطاع ، فقد حدس « شارل » أن مرضها ناشىء عن سبب محلي ، ورسخ في نفسه هذا الرأي ، حتى انه اخذ يفكر جدياً في ان يبحث عن بلد آخر يقيمان فيه .

ثم عمدت الى شرب الخــل لتزداد نحافة ، فأصيبت بسعال بسيط جاف ، وفقدت شهيتها الى الطعام تماماً !.. وكان يعز على « شارل » ان يرحل عن (توست) بعد ان اقام بها اربع سنوات توطد خلالها مركزه .. ولكنه مع ذلك لم يلبث ان خضع لاحكام الضرورة ، عندما صحبها الى استاذه القديم في (روان) ، فتبين – بعد ان فحصها – انها تعاني من مرض عصبي ، لا بد لعلاجه من ان تبدل الجو الذى تعيش فيه !

واخذ « شارل » يتحرى هنا وهناك ، حتى علم ان في مقاطعــة (نيوشاتل) قرية كبيرة تسمى (ابونفيل – الدير) غادرها طبيبها – وكان من البولانديين اللاجئين – منذ اسبوع ، فكتب الى صيدلي القرية يسأله عن عدد سكانها ، وعن المسافة التي تفصلها عن اقرب قرية بها طبيب ، وعن الدخل الذي كان يصيبه سلفه في العام .. الخ . ووجد في الرد – حين جاءه – ما ارضاه ، فقرر ان ينتقل الى تلك القرية في الربيع التالي ، اذا ظلت صحة « ايما » دون ما تحسن !

وفيما كانت « ايما » تستعد للسفر ، اصيب احد اصابعها بوخزة من سلك باقة زواجها ، وهي ترتب احد الادراج ذات يوم . كانت براعم البرتقال – في الباقة – قد اصفرت لفرط تراكم الغبار عليها ، واخذت الاشرطة الحريرية ذات الحواف الفضية تنسل .. ولم تحجم « ايما » عن القاء البــاقة في نار المدفأة ، فاذا بها تشتعل بأسرع مما يشتعل القش الجاف .. وما لبثت النيران ان التهمتها ، فراحت تتقلص ببطء وقد

تفجرت حبيبات الورق المقوى ، والتوت الاسلاك ، وانصهرت الاشرطة المعدنية ، وتيبست اوراق الزهر الصناعي .. ثم اخذت اشلاؤها تتراقص فوق اللهب كالفراش الاسود .. وما لبثت ان تطايرت خلال المدفأة !

وعندما غادر الزوجان (توست) في شهر مارس ، كانت مدام « بوفاري » حاملاً !

القسم الثاني

الفصل الأول

اخذت قرية (ايونفيل – الدير) هذا الاسم عن دير قديم للرهبان الكابوشيين ، لم يتبق منه حتى الاطلال .. وتبعد تلك القرية ثمانية فراسخ عن (روان) ، وتقع بين طريق (آبفيل) وطريق (بوفيه) ، عند نهاية واد يرويه نهر (الريبول) .. وهو فرع صغير يصب في نهر (الانديل) بعد ان يدير ثلاث طواحين قامت بالقرب من مصبه . وبه بعض السمك من نوع « البلطي » يصيده الغلمان بالشص في أيام الآحاد ..

فاذا ترك المرء الطريق الرئيسية عند (بواسيير) ، مضى في طريق مستوية حتى يصل الى اعلى هضبة (لو) ، حيث يشرف على الوادي .. ويشق هذا الوادي نهر يشطره الى قسمين مختلفي المعالم .. فالشطر الممتد على الضفة اليسرى كله مراع ، في حين ان الشطر المترامي على الضفة اليمنى كله حقول .. وتمتد المراعي تحت سياج من التلال المنخفضة حتى تتصل في أقصاها بمراعي مقاطعة (بريد) ، بينما يصعد السهل في رفق

من الناحية الشرقية ، ثم يأخذ في الاتساع . وتمتـد على مرامي البصر حقول القمح الشقراء ، والماء يجري في خط ابيض يفصل بين المروج من ناحية ، والأرض المزروعة من ناحية اخرى .. وكان المنظر — في مجموعه — عباءة كبيرة بسطت امامك ياقتها التي صنعت من مخمـل أخضر حف بشريط من فضة .

وعند نهاية الأفق ، تبدو للرائي اشجار البلوط في غابة (ارجي) ، ومرتفعات هضبة (سان جان) ، تتخللها — في خطوط تمتد من اعلى الى اسفل — مسارب طويلة حمراء غير متساوية من آثار المطر .. اما اللون الأحمر الذي يميز هذه الخطوط الدقيقة خلال لون الجبل الرمادي، فناشيء عن توفر مادة الحديد ، التي تفيض بها العيون العديدة المتناثرة في المنطقة المحيطة ..

هناك تقع الحدود الفاصلة بين (نورمانديا) و (بيكارديا) و (ليل دي فرانس) .. مقاطعة تضم سكاناً من عناصر شتى ، ولا تمتاز لغتها بلهجة خاصة ، كما لا تمتاز مناظرها بطابع خاص !.. وهناك ايضـاً تصنع اردأ انواع الجبن الذي يصنع في مقاطعة (نيوشاتل) بأسرها .. فضلاً عن ان الزراعة في هذه المنطقـة تتطلب نفقات باهظة ، لأنها تحتـاج الى كثير من الأسمدة لتخصب تلك التربة الهشة المليئة بالرمل والحصى ..

ولم يكن في هذه المنطقة — حتى سنة ١٨٣٥ — طريق ممهد يفضي الى (ايونفيل) . بيد ان طريقاً ريفياً فرعياً انشيء في ذلك العـام ، فوصل بين طريقي (أبفيل) و (أميان) ، واصبحت تجري عليه احياناً عربات النقل الذاهبة من (روان) الى (الفلاندر) ..

* * *

على ان (ايونفيل — الدير) ظلت على حالها ، بالرغم من الاصلاحات

الجديدة . فبدلاً من ان ينشط اهلها لتحسين الزراعة بها ، ظلوا متشبثين بالمراعي على انخفاض دخلها وقيمتها . وأخذت القرية الكسول تنفصل بالطبيعة عن السهل ، وتتبع في اتساعها مجرى النهر ، حتى ان الرائي يلمحها عن بعد راقدة على طول النهر ، كقطيع من البقر يقبل على حافة الماء !

وفي نهاية جسر مقام على النهر — في اسفل الهضبة — يمتد طريق تحف بجانبيه اشجار الحور الصغيرة ، يفضي بك مباشرة الى طليعة منازل القرية .. وهي بيوت تحيط بها اسوار ، وقد أقيمت وسط ساحات تناثرت فيها المعاصر ومخازن العربات ومعامل التقطير ، تحت الاشجار المتشابكة التي تستند اليها سلالم متنقلة ، او تعلق بأغصانها (الخطاطيف) والمناجل ..

وكانت الاسقف المصنوعة من القش تشبه طاقيات الفراء المنزلقة على عيون لابسيها ، اذ كانت تكاد تخفي ثلث النوافذ المنخفضة ، التي كان زجاجها السميك المحدودب يتجمع عند وسطه في عقدة كقاع الزجاجة .. وعلى الجدران المشيدة من الجص ، والتي تمتد بين زواياها المتقابلة اعمدة خشبية سوداء ، كنت ترى احياناً شجرة من شجرات الكمثرى الهزيلة .. وعند الباب الخارجي لكل دار ، كان ثمة حاجز به باب منخفض ليصد الدجاج الذي يتسلل الى عتبة البيت لالتقاط فتات الخبز المنقوع في نبيذ التفاح .. وكلما تقدمت في السير نحو القرية ، صغرت أفنية الدور ، وتقاربت المباني واختفت الحواجز بينها .. وقد ترى هنا حزمة من نبات « السرخس » تهتز في نهاية عصا مكنسة تحت احدى النوافذ .. وهناك حانوت بيطار ، او محل نجار سدت الطريق أمامه عربتان او ثلاث عربات جديدة .. وعبر مسافة من الفضاء يلوح بيت ابيض تمتد امامه رقعة معشوشبة يزينها تمثال « كيوبيد » واحدى اصابعه على شفتيه .. والى جانبي قمة الدرجات الأمامية آنيتان من النحاس ..

وعلى الباب تلمع لافتتان تنمان عن ان هذا بيت موثق العقود .. اجمل بيوت البلدة !

وعلى الجانب الآخر من الشارع ، وعلى بعد عشرين خطوة ، تقوم الكنيسة عند مدخل الميدان ، تحيط بها مقبرة صغيرة ، يحتضنها سياج في ارتفاع صدر الانسان ، وقد اكتظ بالقبور حتى اصبحت الاحجار القديمة في مستوى الأرض ، تؤلف فيما بينها رصيفاً طويلاً ، امتدت الحشائش خلاله تقسمه الى مربعات .. وكان مبنى الكنيسة قد جدد في عهد شارل العاشر ، فأخذ سقفها الخشبي يبلى عند قمته .. وفي المكان المخصص للأرغن – فوق الباب – اقيمت شرفة للرجال ، تؤدي اليها سلم حلزونية تهتز تحت وقع الأقدام في نعالها الخشبية !

وكان الضوء الذي ينفذ خلال الزجاج غير الملون يسقط في انكسارات على المقاعد المصفوفة بطول الجدران التي زينت – هنا وهناك – بحصائر من القش كتب عليها بحروف ضخمة « مقعد السيد فلان » . وعلى مسافة قليلة ، يضيق دهليز الكنيسة ، ثم يقوم كرسي الاعتراف الى أحد الجانبين ، والى الجانب الآخر تمثال للعذراء في ثوب من الحرير ، وعلى رأسها نقاب من التل مرصع بنجوم فضية ، وقد طليت وجنتاها باللون الاحمر كما لو كانت وثناً من اوثان جزر « سندويتش » !! .. واخيراً ، تطل على المذبح المرتفع صورة « الاسرة المقدسة – مهداة من وزير الداخلية » ، بين اربعة شمعدانات . اما مقاعد المرتلين المصنوعة من خشب الصنوبر ، فقد ظلت بلا طلاء .

* * *

وكانت السوق – او بالاحرى السقف المصنوع من الآجر والمقام على عشرين عاموداً تقريباً – تشغل حوالي نصف الميدان العام في

« ايونفيل » .. اما دار البلدية – التي شيدت وفقاً لرسم اعده مهندس من باريس – فكانت تشبه معبداً اغريقياً ، وترسم مع حانوت الصيدلي شكل زاوية . وكانت في الطابق الارضي ثلاثة اعمدة يونانية .. وفي الطابق الأول بهو نصف دائري تعلوه قبة يشغلها تمثال « ديك الغال» ، وقد اعتمد على ساق استقرت على وثيقة الدستور ، بينما أمسك بقدمه الأخرى ميزان العدالة !

على ان اكثر ما كان يسترعي الانتباه ، هو صيدلية السيد « هوميه» التي تقع في مواجهة فندق « الاسد الذهبي » .. لا سيما في المساء حين يضاء المصباح فيرسل اشعته خلال القوارير الكبيرة الحمراء والخضراء ، ثم يبعث عبر الشارع جدولين من الضوء الملون .. وخلال هذا الضوء كان طيف الصيدلي وهو متكيء الى مكتبه يبدو كما لو كان غارقاً في اضواء الصواريخ !.. وكانت داره مكسوة باعلانات كتبت بخط اليد او بالحروف الكبيرة بحروف الطباعة : « مياه فيشي وسلتزر ، وباريج.. ومنقيات الدم .. وعقار راسبيل .. والمزيج العربي .. و « باستيليا » دارسيه .. وبلسم رينيو .. وأربطة .. وكمادات .. وشيكولاتــه » .. الخ . وفي مؤخرة الحانوت ، وخلف النضد الذي حمل الميزان الكبير كانت كلمة « المعمل » تبدو على باب زجاجي تكرر على وسطه اسم « هوميه » بحروف ذهبية ، فوق رقعة سوداء .

ولم يكن ثمه ما يشاهد في « ايونفيل » عدا ذلك ، فــان الشارع الاوحد – الذي لم يكن طوله يتجاوز مرمى المقذوف الناري والذي تقوم الحوانيت على جانبيه – كــان لا يلبث ان ينتهي عند منعطف الطريق الزراعي .. فاذا خلفه المرء وانحرف الى اليمين في محاذاة منحدر هضبة (سان جان) ، وصل الى المقابر .. وكان القوم ، عندمــا تفشت « الكوليرا » ، قد هدموا جانباً من جدارها ، وضموا اليها بضعة افدنة لتوسيعها ، بيد ان القطعة الجديــدة بقيت شبه خالية ، وظلت

القبور تتكدس على مقربة من الباب ، كما كانت الحال من قبل . وقد استغل الحارس – الذي كان في الوقت ذاته شماساً ، مما مكنه من مضاعفة الافادة من موتى الابروشية – بقاء هذه الارض على حالها ، فـراح يستنبت البطاطس فيها . بيد ان حقله الصغير اخذ يضيق سنة بعد اخرى، الى ان تفشي الوباء ، فلم يعد يدري : أيبتهج لكـثرة المرضى ، ام يحزن لامتداد المقابر ؟!.. ولقد قال له القس يوماً : « انك تعيش على الموتى يا لستيبودوا » ، فحملته هذه الملاحظة الكئيبـة على التفكير ، وصدته زمناً عن حقله .. ولكنه ما زال حتى اليوم – (اي حتى كتابة هذه القصة) – يواصل زراعة بطاطسه ، بل ويزعم في صفاقة انها تنمو من تلقاء ذاتها !

ولم يتغير شيء في « ايونفيل » منذ الأحداث التي سنرويهـا .. فما زال العلم ذو الألوان الثلاثة ، والمصنوع من الصفيح ، يدور فوق الكنيسة .. وما زالت ترفرف على متجر الاقمشة رايتان من البفتـة .. والأجنة التي يحتفظ بها الكيمائي محنطة كحزم الصوفان الابيض آخذة في التحلل يوماً بعد يوم في كحولها المعكر ! .. ومـا زال تمثال الاسد الذهبي الحـائل اللون يجثم على الباب الامامي للفندق ، يطالع المارة بلبده الشبيه بفـروة الكلب !

* * *

وفي المساء الذي كان مقدراً ان يصل فيه « بوفاري » وزوجته الى « ايونفيل » ، كانت الارملة « لوفرانسوا » – صاحبـة الفندق – كثيرة المشاغل الى حد ان العرق اخذ ينضح منها في قطرات كبيرة وهي تروح وتغدو بآنية المطبخ !.. كان اليوم التالي هو يوم السوق ، ولا بد من ان تقطع اللحم مقدماً ، وتنظف الدجاج ، وتعد الحساء والقهوة .

كما كان عليها — فوق ذلك — ان تجهز للنزلاء غداءهم ، وان تعد للطبيب وزوجته وخادمها العشاء .. وكانت تتردد في قاعة « البلياردو» ضحكات صاخبة . وفي غرفة الجلوس ، كان ثمة ثلاثة من الطحانين يصيحون في طلب الخمر !.. وكانت النار تتأجج في خشب الموقد ، والآنية النحاسية تئز فوقها بعد ان بدأت محتوياتها في الغليـــان . وعلى مائدة المطبخ الطويلة ، وبين قطع اللحم الكبيرة النيئة ، تكدست اكوام من الأطباق كانت تهتز باهتزاز اللوحة التي كانت « السبـــانخ » تقطع فوقها .. ومن فناء المبنى كانت تنبعث صيحات الدجـــاج الذي كانت الخادم تطارده لتمسك به وتدق أعناقه !

ووقف بجوار المدفأة — يدفيء ظهره — رجل على وجهه بقايا طفيفة من آثار الجدري ، وقد ارتدى خفين اخضرين وقلنسوة من المخمـــل ذات « شرابات » ذهبية .. ولم يكن وجهه ينم عن شيء اللهـــم الا الرضى عن نفسه ، وقد بدا انه يطمئن الي الحياة طمأنينة طائر الشرشر الصداح حين يدس رأسه بين قضبان قفصه .. كان ذلك الرجل هو : الصيدلي !

وعلى حين غرة ، صاحت السيدة صاحبة الفندق : « ارتميز .. شقي بعض الخشب ، واملأي الدوارق ، واحضري بعض الخمر ، وايقظي حواسك .. آه ، لشد ما انا حائرة في اختيار حلوى أقدمها بعد العشاء للضيوف الذين ترتقبهم يا مسيو هوميه !.. يا للسماء الرحيمة !.. ها هم الحمالون يستأنفون ضوضاءهم في غرفة « البلياردو » بعد ان تركـــوا عربتهم امام الباب !.. ان « العصفورة » — (اسم عربـة) — قد تصطدم بها اذا ما جاءت ، فادعوا بوليت لتقودها الى الحظيرة .. تصور يا مسيو هوميه انهم لعبوا نحو خمسة عشر دوراً منذ الصباح ، وشربوا ثماني قنينات من نبيذ التفاح ! .. انهم يوشكون ان يمزقوا كساء منضدة البلياردو » !

واخذت تتأملهم عن كثب ، بينما اجاب السيد هوميه : « لن يكون الضرر كبيراً ، فانك مسوقة حتماً الى شراء غيرها » !

فهتفت الارملة مأخوذة : « منضدة اخرى للبلياردو ؟ »

— اجل ، اذ ان هذه اوشكت ان تتداعى يا مدام « لوفرانسوا » .. انني اكرر ما قلت من قبل ، فانك تؤذين نفسك ابلغ ايذاء ! .. ثم ان اللاعبين يطلبون الآن جيوباً ضيقة وعصياً ثقيلة للبلياردو ، لأن الهواة لم يعودوا يقبلون على البلياردو الفرنسي الآن . لقد تغير كل شيء ! يجب ان يجاري المرء الزمن !.. الا انظري الى تلبيه ! »

واحمر وجه صاحبة النزل استياء ، بينما استطرد الصيدلي : لك ان تقولي فيه ما شئت ، ولكن « بليارده » خير من « بلياردك » ، ولو ان احداً فكر في ان ينظم مباراة من اجل اغـــاثة بولندا ، او ضحايا الفيضان في ليون !. »

فقطعت عليه صاحبة النزل حديثه قائلة ، وهي تهز كتفيها السمينتين: « ان الصعاليك امثاله لا يزعجونني .. على رسلك يا مسيو هوميه !.. لسوف يفد الناس على فندق « الاسد الذهبي » طالمـــا ظل على قيد الوجود .. ليس لدينا ما يدعو الى القلق ، في حين انك لن تلبث ان ترى فندق « المقهى الفرنسي يوماً مغلقـــاً ، وقد سمرت ابوابه » !.. واستأنفت وكأنها تحدث نفسها : « أغيّر « بلياردي » !.. المائدة التي اعتمد عليها في طي الغسيل ، والتي هيأت فوقها فراشاً لستة نزلاء في موسم الصيد !.. ولكن ذلك المتسكع « هيفير » لم يصل بعد .. »

— او ترجئين العشاء لنزلائك حتى وصوله ؟

— وهل املك هذا ؟.. ماذا يفعل السيد بينيه ؟.. ما ان تشرع الساعة في اعلان السادسة حتى تراه مقبلاً ، فليس له مثيل تحت الشمس في دقة المواعيد !.. ولا بد من ان يكون مقعده معداً في قاعة الجلوس الصغيرة ، فانه يؤثر الموت على ان يتناول العشاء في اي مكان آخر ..

وهو حريص على الدقة ، شديد العناية باختيار شرابه ! فهو ليس مثل السيد ليون الذي يفد احياناً في السابعة ، بل وفي السابعة والنصف ، ولا يكاد يأبه لما يقدم اليه من طعام .. ما أظرفه ! .. انه ما تلفظ مطلقاً بكلمة نابية ! »

– لا اشك في انك تدركين ان ثمة فارقاً شاسعاً بين الرجل المثقف وبين جندي متقاعد اصبح يعمل محصلاً !

* * *

ودقت الساعة مؤذنة بالسادسة ، فدخل « بينيه » .. كان يرتدي « ردنجوت » ازرق يستوي على جسده الناحل في استقامة ، وقلنسوة جلدية ثبتت الى رأسه برباط ، وقد بدا تحت حافتها المرفوعة جبين عريض ، خلفت كثرة ارتداء الخوذات اثراً عليه !.. وكان يرتدي كذلك صداراً اسود وياقة من الفرو وسروالاً رمادياً .. ثم حذاءين بالغي النظافة ، يتنقل بهما طوال العام ، وقد برز في جانبيهما نتوءان يشيان بموقعي اصبعي قدميه الكبيرتين !.. ولم تكن ثمة شعرة واحدة في سوالفه تشذ عن النظام !.. وقد كانت هذه السوالف تستطيل الى فكيه على نمط العشب الذي يحيط بالحديقة ، محتضنة وجهه الجامد الطويل ، ذي العينين الصغيرتين والأنف المعقوف .. وكان بارعا في جميع الألعاب، ماهراً في الصيد ، ذا خط جميل ، كما كان يملك مخرطة يصنع عليها حلقات مشاجب المناشف التي كان يحتفظ بها في غيرة الفنان وانانية الثري ، الحديث الثراء ، حتى ملأ بها بيته !

ويمم شطر قاعة الجلوس الصغيرة ، ولكن .. كان لا بد من اخراج الطحانين الثلاثة منها اولاً !.. وظل بينيه صامتاً في مقعده القريب من المدفأة طيلة الوقت الذي استغرقه اعداد المائدة ، حتى اذا تم ذلك ،

اغلق الباب وخلع قلنسوته جرياً على عادته !

وما ان خلا الصيدلي الى صاحبة النزل ثانية ، حتّى بادر قائلاً : « ما كان القاء التحية لينقص شيئاً من لسانه ! »

فأجابته : « انه لا يتكلم قط اكثر مما تدعو اليه الضرورة . لقد كان لدينا في الاسبوع الماضي نزيلان من تجار الاقمشة .. وكانا مرحين، ظلا يرويان لنا في المساء من الفكاهات ما جعلني ابكي من كثرة الضحك.. بينما كان هو قابعاً كالسمكة ، فلم ينبس قط ببنت شفة » !

قال الصيدلي : « اجل .. لا خيال ، ولا فكاهة ، ولا شيء مما يكوّن رجل المجتمع » .

فقالت محتجة : « ومع ذلك ، فانهم يقولون ان له اصدقاءومجالس» !

– مجالس ! .. مجالس ! . من المحتمل ان تكون على شاكلته !

وما لبث ان استطرد قائلاً : « انني ادرك ان التاجر ذا الصلات الواسعة ، والقنصل ، والطبيب والصيدلي ، يجدون من اعمالهم ما يشغلهم ويلهيهم ، حتّى ليبدو الواحد منهم غريب الاطوار ، او جافاً .. ان التاريخ حافل بقصص هؤلاء . ولكن المهم ان عذرهم في هذا راجع الى ان لديهم ما يشغل تفكيرهم .. فأنا مثلا كثيراً ما ابحث عن قلمي على المكتب لأدون تذكرة ، فلا ألبث ان اتبين في النهاية انني وضعته خلف أذني ! .. »

وفي تلك اللحظة ، سارت مدام « لوفرانسوا » الى الباب لترى اذا كانت العربة المرتقبة – « العصفورة » مقبلة .. ولكنها اجفلت اذ ولج المطبخ فجأة رجل في ثياب سوداء .. وكان في وسع المرء ان يتبين على ضوء آخر فلول الغسق ، ان له وجهاً متورداً ، وجسماً رياضياً ..

وسألته ربة النزل وهي تتناول من فوق المدفأة احد الشمعدانات النحاسية التي كانت مصفوفة وقد ثبتت فيها الشموع : « أية خدمة أملك ان اؤديها لك يا سيدي القس .. هل لك في تناول شراب ما ؟.. جرعة

من نبيذ « كاسي » الأسود ؟.. او زجاجة من النبيذ الأحمر ؟! »

وهز رجل الدين رأسه في أدب بالغ ، وقال انه جاء من اجل مظلته التي نسيها منذ ايام في دير « ايزنمو » . وبعد ان سأل مدام « لوفرانسوا » ان تعمل على ارسالها اليه في دار « الخوري » في المساء، انصرف الى الكنيسة التي كان ناقوسها يدق مؤذناً بصلاة المساء ..

وما ان اطمأن الصيدلي الى انه لم يعد يسمع وقع قدمي القس في الميدان ، حتى ابدى رأيه في مسلكه فوصفه بأنه نـاب !.. فقد بدا رفضه – في رأي الصيدلي – أبغض ألوان الرياء ، اذ ان كل القساوسة يحتسون الخمر في الخفاء ، ويحاولون ان يستعيدوا الأيـام التي كانت الكنيسة تتقاضى فيها الضرائب من رعاياها !

وانبرت صاحبة النزل تدافع عن القس قائلة : « انـه رغم قولك يستطيع ان يطوي اربعة من امثالك على ركبتيه !.. لقد ساعد رجالنـا على تخزين العشب الجاف في العام الماضي ، فبلغ من قوته انه كـان يحمل ستاً من الحزم في آن واحد » !.. فهتف الصيدلي : « مرحى !.. ارسلوا بناتكم اذن ليعترفن امام رجال من هذا الصنف !.. لو انني كنت في مركز الحكم لأمرت بأن يفصد دم القساوسة مرة في كل شهر .. أجل يا مدام لوفرانسوا .. في كل شهر .. وفصداً جيداً ، في سبيل مصلحة البوليس والأخلاق » !!

– كفّ عن هذا يا مسيو هوميه ، فأنت كافر ، لا دين لك !

فأجاب الصيدلي : « بل لي دين .. ديني الخاص .. وان لدي من التقوى ما يفوق ما لدى هؤلاء الآخرين جميعاً ، رغم نفاقهم ودجلهم.. انني على العكس اعبد الله .. اؤمن بالكائن الأعلى .. اؤمـن بوجود خالق ، كيفما يكن كنهه .. ومهما يكن هذا الخالق الذي اوجدنا هنـا لنؤدي واجباتنا كمواطنين وأرباب اسرات .. ولكني في غير حاجـة لأن اذهب الى الكنيسة لأقبل اطباقاً فضية ، ولأسمن من مالي رجالاً

لا يصلحون لشيء ولا نفع منهم ، ويحظون بمعيشة أنعم مما نحظى !.. ان المرء ليستطيع ان يهتدي الى الله في غابة ، او في حقل ، او حتى بمجرد تأمل قبة الأثير ، كما كان القدماء يفعلون !.. ان الهي هو إلـٰه سقراط وفرنكلين وفولتير وبيرانجيه !.. انني من انصـــار الايمان الذي دعا اليه « قس سافوا » [1] .. ومن المؤمنين بمبادىء ثورة سنة ١٧٨٩ الخالدة !.. ولا استطيع ان أعبد إلهاً مزعوماً ، يسير في حديقته وعصاه في يده ، ويودع اصدقاءه اجواف الحيتان ، ويموت صارخاً ، ثم يبعث بعد ثلاثة ايام !.. هذه جميعاً – في حد ذاتها – سخـافات ، تناقض تماماً كل قوانين الطبيعة .. وفي هذا ما يوضح لنا – ضمناً – كيف ان القسس ظلوا دائمـــاً متشبثين بجهل صلد لا يلين ، يحاولون ان يدفنوا البشر معهم في جوفه » !!

وأمسك عن الكلام ، وأجال بصره فيما حوله وكأنه يتأمل جمهوراً يحيط به .. فقد ظن الصيدلي في انفعاله انه في قاعة المجلس البلدي!.. على ان ربة النزل لم تكن تنصت اليه ، بل أصاخت بسمعها تحاول ان تستبين صوتاً انبعث عن بعد ، اختلطت فيه ضوضاء العجلات بسنابك حديدية تضرب الأرض .. وما لبثت (العصفورة) ان وقفت امام الباب اخيراً !

* * *

كانت (العصفورة) تتكون من صندوق اصفر يقوم على عجلتين كبيرتين يصل محيطاهما الى مستوى سقفه ، فيحولان بين المسافرين ورؤية

---

١ – يشير الى فصل في كتاب « اميل » لجان جاك روسو ، وفيه يقود القس تلميذه اليافع الى اعلى جبال « سفوا » ايحدثه عن الله والايمان ، في غمرة من جلال الطبيعة .

الطريق ، ويلطخان اكتافهم بالقاذورات !.. وكان زجاج نوافذها الضيقة يهتز في اطاراته اذا ما اغلقت ابوابها .. فضلاً عن انها كانت ملطخة – هنا وهناك – ببقع من الوحل استقرت على طبقة من غبار قديم لم تستطع امطار العواصف ان تزيلها تماماً .. وكان يجرها ثلاثة جياد ، ربط أولها امام زميليه .. وعند انحدارها من المرتفعات ، كان قاعها يمس الأرض فيرتج ارتجاجاً شديداً !

وأقبل على الميدان عدد من اهالي (ايونفيل) ، اخذوا يتكلمون معاً في آن واحد : يتساءلون عن الأخبار ، ويستفسرون عن سلال الهدايا . ولم يكن (هيفير) – السائق – يدري أيهم يجيب اولاً ، فقد كان هو المنوط بقضاء حوائج القرية من (روان) ، وكان يطوف بالحوانيت يجلب لفات الجلد لصانع الاحذية ، والحديد للبيطار ، وبرميل (الرنجة) لمخدومته – ربة النزل – والقبعات من صانعها ، والشعور المستعارة من الحلاق .. وكان يوزع الحزم على طول الطريق وهو عائد ، فيقف على مقعده ويقذف بها من فوق الاسوار صائحاً بملء فيه ، والخيل ماضية !

وكان تأخره في العودة راجعاً الى حادث بسيط ، فقد هربت كلبة مدام (بوفاري) في الحقول ، فقضوا ربع الساعة يصفرون لها .. بل ان (هيفير) رجع مسافة نصف الفرسخ أملاً في العثور عليها ، متوهماً في كل لحظة انه قد لمحها !.. وبكت (اما) ، وسخطت ، واتهمت (شارل) بأنه كان السبب . وقد حاول السيد (لبريه) – تاجر الاقمشة الذي كان يرافقهما في العربة – ان يواسيها ، فضرب لها امثلة بكلاب ضاعت ثم (اهتدت) الى اصحابها بعد سنوات طويلة ! .. بل لقد روى لها ما سمعه عن كلب عاد الى باريس من القسطنطينية ! .. وعن كلب آخر قطع خمسين ميلاً في

خط مستقيم ، وعبر اربعـــة انهار سباحة ! .. وتمادى فذكر لهـا ان أباه كـــان يملك كلباً فقده اثني عشر عاماً ، ثم فوجىء بـه يقفـزعلى ظهـره ذات مساء ، وهو في طريقـه لتنـــاول العشاء في المدينة !

الفَصْلُ الثَاني

كانت « ايما » اول من هبط من العربة ، وتبعتها « فيليسيتيه » ، فالسيد « ليريه » ، فرضعة .. واضطروا الى ان يوقظوا « شارل » الذي كان قد استسلم في ركنه لنوم عميق ، مذ ارخى الليل سدوله !

وقدم « هوميه » نفسه ، مزجياً احترّاماته للسيدة ، وتحياته للسيد ، معرباً عن شدة اغتباطه اذ اتيح له ان يؤدي لها بعض الخدمات .. واضاف في لهجـــة الصديق انه قد تجرأ فدعا نفسه لتناول العشاء معهما ، اذ ان زوجته غائبة عن البلدة !

وعندما دلفت مدام « بوفاري » الى المطبخ ، اقتّربت من الموقد ، وامسكت بثوبها عند الركبتين بأطراف اناملها فرفعته حتّى حاذى ذيله عرقوبيها ، ثم مدت قدميها بحذاءيهما الأسودين نحو اللهب ، فوق « الفخذة » التي كانت تئز ، فاذا اللهب يضيء كل كيانها ، ويتغلغل نوره في نسيج ثوبها ، ومسام جلدها البض الإملس ، بل وفي جفون عينيها اللتين اخذت تغمضهما من وقت لآخر !.. ودفعت الريح المتسللة من الباب المنفرج وهجاً دافئاً هب عليها .. وكان ثمة شاب اشقر يرقبها في صمت من الجانب الآخر للمدفأة ..

كان السيد « ليون ديبوي » – الشاب الاشقر – ثاني النزلاء الدائمين

في « الأسد الذهبي » ، وقد اعتاد ان يؤخر تناول عشائه في كل مساء على امل ان ينزل بالفندق مسافر يستطيع ان يجاذبه الحديث ، اذ اشتد به السأم في « ايونفيل » حيث كان يعمل كاتباً لدى الاستاذ « جويومان » موثق العقود .. غير انه لم يكن يملك – اذا ما فرغ من عمله – سوى ان يعود الى الفندق ، ومن ثم يضطر الى مصاحبة « بينيه » طوال العشاء ، لهذا رحب مغتبطاً في تلك الليلة باقتراح ربة الفندق ان يتناول عشاءه في صحبة القادمين في القاعة الكبرى ، حيث افتنت مدام « لوفرنسوا » في اعداد المائدة لاربعة اشخاص !

وابدى « هوميه » رجاءه في ان يسمحوا له بان يظل مرتدياً طاقيته الافريقية خشية « الانفلونزا » ، ثم التفت الى جارته قائلاً : « لا ريب في ان السيدة متعبة فان « عصفورتنا » ترج المرء رجاً »

واجابت « ايما » : « هذا حق ، بيد ان السفر يلذ لي ، فانا احب التنقل من مكان لآخر » !

وتنهد كاتب الموثق قائلاً : « من ابشع ما يسقم النفس ان يظل المرء مرتبطاً بمكان واحد » !.. فسأله « شارل » : « وماذا كنت تفعل لو انك كنت مثلي مضطراً الى امتطاء جوادك دائماً ؟ » .. فأجاب ليون وهو يتجه بحديثه الى مدام « بوفاري » : « ولكني لا ارى شيئاً امتع من هذا ، لو كان في امكان المرء .. »

وهنا قال الصيدلي : « على ان ممارسة الطب ليست بالغة المشقة في هذا الجزء من العالم ، اذ ان طرقنا تسمح باستخدام العربات.. ولما كان المزارعون في حالة من اليسر ، فانهم يدفعون بسخاء عادة !.. ومن الناحية الطبية لدينا – فضلاً عن الحالات العادية كالتهاب الاعصاب والنزلات الشعبية والامراض الناشئة عن الصفراء ... الخ – بعض الحميات المتقطعة التي تظهر من وقت الى آخر في موسم الحصاد . وبالاجمال ليس لدينا من الحالات الخطرة سوى القليل ، وليس ثمة احوال خاصة تستدعى

الانتباه الى كثرة الامراض الناشئة عن غدد الرقبة . وهي كثرة مرجعها بلا شك الى سوء الحالة الصحية في منازل الفلاحين .. آه ، لسوف تضطر يا سيد « بوفاري » الى مكافحة كثير من المعتقدات الفاسدة والعادات المتأصلة التي تصطدم بها مجهوداتك العلمية في كل يوم .. فهم ما زالوا يلجأون الى الرقى والتمائم ، والى القس ، بدلاً من ان يسلكوا الطريق الصحيحة فيأتوا الى الطبيب او الصيدلي !.. على ان الطقس ليس رديئاً عندنا في الحق ، حتى انك لتجد في المقاطعة افراداً في الحلقة التاسعة من اعمارهم !.. وقد خرجت من ملاحظاتي بأن درجة الحرارة تهبط في الشتاء الى الرابعة المئوية . اما في موسم الحر فترتفع الى خمس وعشرين او ثلاثين درجة مئوية على الاكثر .. اي ما لا يتجاوز اربعاً وعشرين درجة بميزان « ريومير » ، او — بعبارة اخرى — ٥٤ درجة بميزان « فهرنهيت » الانجليزي !.. والواقع اننا في مأمن من رياح الشمال — من ناحية — بفضل غابة (ارجى) ، ومن الرياح الغربية — من الناحيـــة الاخرى — بفضل هضبة (سان جان) .. وفضلاً عن هذا ، هناك الحرارة الناشئة من ابخرة الماء المتصاعدة من النهر ، ومن الماشية الكثيرة التي تنطلق في المراعي وترسل — كما تعلم — الكثير من النوشادر — (الأمونيا) — او بالاحرى النيتروجين والهيدروجين والاوكسيجين .. لا ، بل النيتروجين والهيدروجين فقط ، ومن ثم تمتص رطوبة الارض ، وتخلط جميـع هذه العناصر الغازية معاً ، وتوحدها في حزمة — اذا صح هذا القول — ثم تتحد مع الكهرباء المنتشرة في الفضاء اذا ما وجدت ، فلا تلبث بعض الزمن ان تولد ابخرة عفنة ، كما يحدث في البلاد الحارة !.. هذه الحرارة المتولدة كما ذكرت تجد تلطيفاً تاماً من حيث تنبعث ، او بالاحرى من حيث ينبغي ان تنبعث — في اي مكان من النـــاحية الجنوبية — بفضل الرياح الجنوبية الشرقية التي تصل الينا باردة — بعد ان ترطب نفسها بالمرور فوق (السين) — وكأنها نسمات من روسيا ! »

وفي ذلك الوقت كانت « ايما » تواصل حديثها مع الشاب قائلة :
« .. على انك ولا بد تجد مجالاً للنزهة .. في البقاع المجاورة على الاقل »
وأجاب الشاب : « انها جد قليلة .. فهناك مكان يسمونه (لاباتير)
- اي المراعي - علي قمة التل عند حافة الغابة .. واليه اسعى احياناً ،
في ايام الآحاد ، فأمكث في صحبة كتاب حتى اشهد مغيب الشمس »
قالت معقبة : « ما احسب ان هناك ما هو ابدع من غروب الشمس ،
وخاصة عند شاطىء البحر »

فهتف مسيو ليون : « آه .. انني اعبد البحر ! »

- ثم ، الا ترى ان الذهن يكون اكثر تحـــرراً في الفضاء الذي
لا حد له ، والذي يسمو تأمله بالنفس ، ويوحي بأفكار عن اللانهاية ..
والخيال المثالي ؟

- كذلك حال المناظر الجبلية .. فان لي ابن عم سافر الى سويسرا
في العام الماضي ، وحين عاد قال لي ان المرء لا يستطيع ان يتصور ما
في البحيرات من شاعرية ، وما في مساقط المياه من سحر ، ولا للانهار
من اثر هائل في النفس .. فالمرء يرى هناك اشجار الصنوبر التي لا يتصور
العقل حجمها ، عبر الممرات التي حفرتها السيول .. والاكواخ معلقة
على حواف الوهاد .. وتحت قدمي المرء بألف قدم ، تبدو - اذا ما
انقشعت السحب - وديان فسيحة .. مثل هذه المناظر ولا ريب تحرك
المشاعر ، وتبعث الشوق في النفس الى العبادة والتأملات السامية .. ومن
ثم لم اعد اعجب من ذلك الموسيقي المبرز الذي اعتاد ان يوقظ الهامه
بأن يجلس لوضع موسيقاه امام منظر رائع يسيطر على المشاعر !

فسألته : « هل تعزف شيئاً من الموسيقى ؟ »

- لا ، ولكني جد مشغوف بها .

وقطع « موميه » الحديث اذ قال وهو ينحني على طبقه : « آه !..
لا تلقي اليه سمعاً يا مدام « بوفاري » .. هذا مجرد تواضع .. كيف

يا عزيزي وقد كنت منذ ايام تغني «الملاك الحارس» في ابداع علك الحواس ؟.. لقد سمعتك من المعمل ، فاذا بك تؤديها كما لو كنت مغنياً محترفاً ! »

وبالفعل كان ليون يسكن حجرة صغيرة في الطابق الثاني من منزل الصيدلي تطل على الميدان .. وتضرج وجهه لثناء صاحب البيت ، الذي كان قد تحول الى الطبيب وأخذ يحصي له اهم سكان « ايونفيل » ، واحداً واحداً ، ويروي له تفصيلات ، ونوادر .. فمثلاً لم يكن ثمة من يعرف على وجه التحديد ثروة موثق العقود ، كما كان « آل توفاش » يظهرون في افخم مظهر !

وعادت « ايما » تقول : « وأي موسيقى تؤثر ؟ »

– آه ، الموسيقى الألمانية .. تلك التي تسلمك الى الأحلام !!

– وهل ذهبت الى الاوبرا ؟

– لم اذهب بعد ، ولكني سأفعل في العام التالي ، حين اسافر الى باريس لأتم دراسة القانون ...

وقطع الصيدلي الحديث مرة اخرى قائلاً : « انكما ستجدان – بفضل فرار ذلك المسكين « يانودا » وبفضل حماقاته – ان بوسعكما ، كما تشرفت بشرح الأمر للسيد زوجك ، ان تستمتعا ببيت من افضل بيوت «ايونفيل».. وابدع ميزاته بالنسبة لطبيب هي ان له باباً يفضي الى الحارة ، يستطيع المرء ان يلج وان يخرج عن طريقه دون ان يراه احد ، كما انه مستوف لكافة الاحتياجات المنزلية : من حجرة للغسيل ، ومطبخ ألحقت به غرفة للتحضير ، وقاعة للجلوس ، وبستان للفواكه .. الخ ، فلقد كان صاحبه فتى مسرفاً ، لا يقيم وزناً للمال ، وقد اقام في نهاية الحديقة ، بجوار الماء ، خميلة ليحتسي فيها « البيرة » في ليالي الصيف .. واذا كانت السيدة تهوى فلاحة البساتين ، ففي وسعها .. »

واذ ذاك قال « شارل » : « ان زوجتي لا تحفل بهذه الاعمال ..

ومع انه اشير عليها بالرياضة والحركة ، الا انها تؤثر ان تقضي الوقت في غرفتها تقرأ ! »

فقال « ليون » : « انها مثلي .. فأي شيء اجمل في الواقع من ان يقضي المرء المساء مع كتـــاب الى جوار المدفأة ، والريح تلفح زجاج النافذة ، والمصباح يشتعل ؟ »

قالت « ايما » وهي تحدق فيه بعينيها السوداوين الواسعتين . « أليس كذلك ؟ »

ومضى يقول : « ان المرء لا يفكر في شيء اذ ذاك .. والساعات تمر متلاحقة ونحن ننتقل – دون ان نتحرك من مكاننا – بين بلدان نخال اننا نراها .. وافكارك تختلط بالخيال لترسم الدقائق ، ولتوضح لك معالم المغامرات .. انها تندمج في الشخصيات حتى لتخال ان قلبك هو الذي ينبض تحت ثيابها ! »

قالت : « هذا حق !.. هذا حق ! »

واستأنف « ليون » الحديث قائلاً : « أو لم يحدث لك قط ان عثرت في كتاب على فكرة مبهمة كانت قد راودتك .. او على صورة معتمة تعود اليك من آفاق بعيدة وكأنها تعبر عن ادق احاسيسك ؟ » .. فأجابت : « لقد شعرت بهذا فعلاً »

قال : « هذا هو السر في انني احب الشعراء ، فانني اجد الشعر اكثر رقة من النثر .. انه يشجي المرء بسهولة حتى يبكيه ! »

قالت « ايما » : « على ان الشعر لا يلبث مع طول الوقت ان يثير السأم .. انني الآن اهيم – على العكس – بالقصص التي تبهر الأنفاس ، وتثير الخوف .. وأكره الابطال العاديين ، والمشاعر المعتدلة ، على نحو ما نرى في الطبيعة » !!

قال الكاتب : « الواقع انني ارى ان هذه الكتب – التي لا تمس القلب – تنحرف عن الغـــاية الحقيقية للفن . ما اعذب ان ينتقل المرء

بفكره من مضايقات الحياة ليجول بفكره مع شخصيات نبيلة ، وعواطف خالصة ، وصور للسعادة ، انني – اذ اقيم هنا بمنأى عن الدنيا – اجد في هذا ملهاتي الوحيدة .. بيد ان (ايونفيل) لا تتيح للمرء سوى موارد قليلة من هذا القبيل » !

فردت « اما » قائلة : « انها ولا بد مثـــل (توست) ، ومن ثم اشتركت في مكتبة تعير الكتب »

وسمع الصيدلي كلماتها الأخيرة فقال : « هل للسيدة ان تشرفني بالافادة من مكتبتي الخاصة .. ان لدي – تحت تصرفها – مكتبة تضم خيرة المؤلفـــين ، مثل : فولتير ، وروسو ، ودوليل ، وولتر سكوت ، وصحيفة « صدى الأدب » ... الخ . كما انني اتلقى صحفاً كثيرة ، بينها « منار روان » اليومية ، اذ انني مراسلها في مناطق بوشي ، وفورج ، ونيوشاتل ، وايونفيل وما حولها .

* * *

وانقضت عليهم حول المائدة ساعتان ونصف الساعة ، اذ كانت الخادم « ارتميز » تحضر طبقاً بعد آخر في بطء ، وهي تجر خفيها في كسل فوق البلاط . وقد غفلت عن كل شيء ، واخذت في كل مرة تنسى اغلاق باب حجرة البلياردو ، فيرتطم بالجدار .

وكان « ليون » قد وضع قدمه على احد قضبان مقعد مدام « بوفاري » – اثناء الحديث – دون ان يشعر !.. وكانت « اما » تلف حول عنقهـــا وشاحاً حريرياً ازرق صغيراً ، يشد ياقة « مكشكشة » مجعدة من « الباتيستة » . وكان الجزء الأسفل من وجهها يقوص برفق في ذلك الوشاح او يرتفع عنه ، تبعاً لحركات رأسها !.. وبينما كان « شارل » والصيدلي يثرثران ، اندمج الشابان – اللذان تجاور مقعداهما – في احد تلك الاحاديث المبهمة التي تقودك العبارات خلالها دائماً الى مركز ثابت تلتقي عنده الميول والمشاعر ..

فتحدثا عن مسارح باريس ، وعناوين القصص ، وانواع الرقص الحديثة ، والمجتمع الذي لم يكونا يعرفانه ، و (توست) التي كانت « ايما » تقيم فيها ، و (ايونفيل) حيث كانا اذ ذاك .. وتناقشا حتى نهاية العشاء في كل موضوع خطر لهما !

وبعد ان قدمت القهوة ، ذهبت « فيليسيتيه » لتعد المخدع في المنزل الجديد ، وما لبث الضيوف ان نهضوا بعد قليل ، فاذا مدام « لوفرنسوا » قد اغفت على مقربة من النار المحتضرة ، بينما كان السائس في انتظار السيد « بوفاري » وزوجته ، وهو يحمل مصباحاً ليرشدهما الى منزلها ، وقد علقت بشعره بعض اعـــواد القش وأخذ يعرج بقدمه اليسرى !.. وشرعوا في الانصراف عندما حمل بيده الاخرى مظلة القس .

كانت البلدة قد نامت ، وأعمدة السوق تلقي ظلالاً كبيرة على الأرض الرمادية ، كما كانت تبدو في ليالي الصيف .. واذ كان بيت الطبيب لا يبعد عن الفندق بأكثر من خمسين خطوة ، فان القوم سرعان ما تبادلوا تحية الوداع ، ثم انفضوا .

وما ان ولجت « ايما » الردهة حتى احست برطوبة الجص تهبط على كتفيها كقطعة مبتلة من قماش .. وكانت الجدران جديدة ، وللدرجات الخشبية صرير .. وفي المخدع – بالطابق الأول – كان ثمة ضوء يميل الى البياض ، ينفذ خلال النوافذ التي لم تحجبها ستائر .. ولاحت لهـــا رؤوس الأشجار ومن خلفها الحقول تكاد تتوارى في احضان الضباب الذي انتشر في ضوء القمر على طول مجرى النهر .. وفي وسط الحجرة ، تناثرت في غير نظام ادراج الدواليب ، والزجاجات ، وقضبان الستائر ، وعصي من المعدن المطلي .. وعلى المقاعد كانت ثمة حشايا ، وعلى الارض اوان وأوعية .. فقد ترك الرجلان اللذان حملا الأثاث كل شيء في غير ترتيب .

تلك كانت المرة الرابعة التي تنام « ايما » فيها في مكان لم تألفه .. كانت المرة الأولى يوم التحقت بالدير ، والثانية يوم انتقلت الى (توست) ،

والثالثـة في (فوبيسار) .. وها هي ذي الرابعة !.. وكانت كل مرة بداية لمرحلة جديدة .. ولم تكن تعتقد ان الامور تجري على وتيرة واحدة في كل مكان .. واذ كان الشطر الذي عاشته من حياتها سيئاً ، فقد وقر في نفسها ان الشطر الباقي سيفضله !

الفصل الثالث

عندما استيقظت (ايما) في اليوم التالي ، لمحت كاتب الموثق يسير في الميدان .. وكانت في ثوب المنزل (الروب دي شامبر) . ورفع الشاب رأسه اليها محيياً ، فردت بايماءة سريعة ، واغلقت النافذة !.. وقضى (ليون) نهاره كله في ارتقاب الساعة السادسة .. ولكنه حين ولج الفندق لم يجد سوى السيد (بينيه) يجلس الى المائدة !

كان عشاء الليلة السالفة مناسبة هامة في نظره ، اذ لم يقدر له قبل ذلك ابداً ان يقضي ساعتين متتاليتين في الحديث مع (سيدة) ، فكيف اذن وسعه ان يكلمها بمثل تلك اللغة ، وعن كل تلك الأمور التي لم يكن – من قبل – يجيد التعبير عنها على هذا النحو ، وهو الذي كان في العادة خجولاً ، يلتزم ذلك التحفظ الذي يجمع بين الحياء والتكتم في آن واحد !؟ لقد كان اهل (ايوفيل) يعتبرونه (حسن التربية) ، اذ كان ينصت للكبار حين يتكلمون ، ولم يكن يبدو مصاباً بالهوس السياسي ، وهذه خلة هامة بالنسبة لأي شاب !.. فضلاً عن إنه كان موهوباً ، يرسم بالألوان المائية ، وعلى إلمام بمبادىء الموسيقى ، ويستطيب الحديث في الأدب بعد العشاء ، اذا لم يلعب الورق . وكان السيد (هوميه) يحترمه لثقافته ، ومدام (هوميه) تحبه

لطيبته ، اذ كثيراً ما كان يصحب ابناءهما الى الحديقة ! .. وكـانوا اطفالاً ملطخين دائمـاً بالقذارة ، مدللين الى درجة افسدتهم كثيراً ، ميالين للكسل والتراخي مثل امهم !.. وكان يعنى بهم – الى جانب الخادم – (جوستان) الشاب ، مساعد الصيدلي ، الذي كان من ابناء عمومة مسيو (هوميه) فآواه هذا في البيت على سبيل الاحسان ، وكان يستغله – في الوقت ذاته – كخادم !

واثبت الصيدلي انه خير جار ، اذ كان يرشد مدام (بوفاري) الى الباعة ، ويستقدم لها تاجر شراب التفاح ، ويذوق بنفسه الشراب ثم يستوثق من ان القنينات وضعت كما ينبغي في قبو البيت !.. كما كان يرشدها الى طرق الحصول على كميات من الزبد بثمن زهيد ، ويتفق مع (ليستيبودوا) الذي كان – الى جانب مهامه الكنسية والجنازية – يتعهد حدائق الدور الكبرى في (ايونفيل) مقابل أجر يحسب بالساعة او بالعام ، وفقاً لرغبة العميل !

ولم تكن الرغبة في مساعدة الغير هي الحافز الوحيد الذي دفع الصيدلي الى كل هذا التودد والمروءة ، بل انه كان يخفي قصداً آخـر .. اذ كان قد خرق المادة الاولى من قانون ١٩ (فنتوز) من العام الحادي عشر للثورة – وهي المادة التي تحظر على كل من لا يحمل شهادة ان يزاول مهنة الطب – حتى انه استدعي الى (روان) بناء على بلاغات قدمت ضده من مجهولين ، فمثل امام وكيل النيابة في مكتبه الخاص .. وقد استقبله النائب بوشاحه واقفاً ، وعلى كتفه شريط القضاء ، وعلى رأسه قلنسوته . وكان ذلك في الصباح ، قبل ان تفتح المحكمة ابوابها .. وكان يسمع وقع احذية الشرطة الثقيلة في الردهة ، وصوتاً ينبعث عن بعد لأقفال ضخمة تفتح وتغلق .. وأحس الصيدلي بطنين في أذنيه كذاك الذي يسبق نزلة الشلل .. ورأى بعين الخيال اعماق الزنزانات ، وأسرته في دموعها ، والصيدلية وقد بيعت وتناثرت زجاجاتها .. حتى لقد اضطر

الى ان يلجأ الى مقهى تناول فيه كأساً من (الروم) الممزوج بمـاء (سلزر) ليتمالك جأشه !

بيد ان ذكرى هذا الانذار ما لبثت ان اخذت في الاضمحلال ، وعاد الى ما كان يمارسه من قبل من تقديم المشورات الطبية لمن يطلبها في الغرفة الخلفية بالصيدلية . غير ان العمدة كان يحقد عليه ، وزملاؤه يغارون منه ، فكان لا بد له من ان يحسب حساباً لكـل شيء ، ومن ثم رأى ان السيد (بوفاري) سيقدر ولا ريب ما يغمره به من مجاملات، وسيحمله الاعتراف بالجميل على ان يمسك لسانه اذا ما لمح شيئاً !.. ومن ثم اعتاد ان يحمل اليه الصحيفة في كل صباح ، وان يبرح الصيدلية بعد الظهر ليقضي فترة في الحديث مع الطبيب !

وكان (شارل) مكتئباً لأن العملاء لم يقبلوا عليه .. وكان يجلس ساعات طويلة دون ان ينبس ببنت شفة ، او يلجأ الى مكتبه لينام ، او يتأمل زوجته وهي مستغرقة في الحياكة . ثم اخذ يعمـل في البيت كالأجير ليتلهى عن افكـاره .. بل انه حاول ان يطلي جدران مخزن القمح ببقية من دهان تركه النقاشون .. بيد ان الشؤون المالية كانت تشغل باله ، فقد انفق الكثير في الاصلاحات التي ادخلها على داره في (توست) ، وفي توفير ادوات الزينة لزوجته ، وفي نقل الأثاث ، حتى ان البائنة – التي نالها عند زواجه – تسربت كلها خلال عامين ، وكانت تتجاوز ثلاثة آلاف دينـار .. وكم من اشياء تلفت او ضاعت اثناء نقلها من (توست) الى (ايونفيل) .. ناهيك بتمثال القس الذي هوى من العربة اثر عثرة عنيفة ، فتحطم على طريق (كونيكامبوا) الى ألف قطعة !

* * *

ثم اقبلت مهمة سارة تشغله عن افكاره .. تلك هي : حمل زوجته!..

وكان كلما اقترب موعد الوضع ازداد حدباً عليها .. فهذه رابطة اخرى — من لحم — تعزز صلتهما وتوجد فيهما احساساً مستمراً بالرباط المشترك .
وكان اذا رآها عن بعد تمشي متثاقلة ، وقوامها يلتف في طراوة فوق زدفيها ، بعد ان تجرر من الحزام الذي كان يشده ، أطال النظر اليها.. فاذا جلسا متقابلين ، راح يتأملها في تمعن وهي تتململ متقلبـــة بين الاوضاع في مقعدها ، فتفيض به السعادة ، فينهض فيقبلها ، ويمسح وجهها بيده ، ويناديها بالأم الصغيرة ، ويسعى لحملها على الرقص ، ويروي لها — بين الضحك والبكاء — كافة النكات اللطيفة التي تتبـادر الى ذهنه !.. كانت تطربه فكرة انجاب طفل .. ومن ثم لم يعد يعوزه شيء آخر ، فقد اصبح يعرف الحياة البشرية من بدايتها الى نهايتها ، فكان يتدبرها في خاطره مطمئناً ساكن النفس !

وكانت (ايما) في دهشة بالغة — في البداية — ثم اصبحت تتوق الى ان تضع حملها لتعرف كيف تكون الأمومة !.. ولما لم تكن تملك ان تنفق عن سعة لتعد للطفل مهداً متأرجحاً — على شكل زورق — ذا ستائر من الحرير الوردي ، وطاقيات مطرزة ، فقد عدلت — والمرارة تمضها — عن كل هذا ، وعهدت الى امرأة تشتغل بالتطريز في احدى القرى باعداد ما يلزم ، دون ان تختار بنفسها شيئاً ! وهكذا لم تستمتع بهذه الاستعدادات التي تذكي الحنان في الامهات ، حتى لقــد بدا ان حبها للصغير قد فتر — بعض الشيء — عنه في البداية !.. على انها لم تلبث ان اخذت تفكر فيه باسترسال متواصل ، اذ كـان (شارل) لا يفتأ يتحدث عنه اثناء كل وجبة !

وتمنت ان ترزق بولد ، قوي ، اسمر ، تسميه (جورج) ! .. وكانت ترمق الفكرة كما لو كان انجاب الذكر انتقاماً مأمولاً من كل ما اصابها في الماضي من قصور واستضعاف . فالرجل حر .. يستطيع على الأقل ان يجتاز كافة الانفعالات ، وان يجوب الاقطار ، وان يتخطى

العقبات ، وان يتذوق ابعد الملذات مثالاً !.. في حين ان المرأة تتعثر دائماً في المثبطات .. فاذا نشطت وتذرعت بالمرونة ، لا تلبث ان تجد ضعف جسدها والحياة التي فرضتها عليها الشرائع لتكون عالة على سواها، عوامل تقعد بها .. وما اشبه عزيمتها بنقاب قبعتها المعلق بخيط ، وهو يرفرف في الهواء !

* * *

وواتاها المخاض في نحو الساعة السادسة من صباح يوم من ايـام الآحاد ، والشمس تشرق .. وما لبث (شارل) ان قال : (انها بنت !) .. فأشاحت برأسها ، وراحت في اغماء !

واقبلت مدام (هوميه) ومدام (لوفرانسوا) — صاحبة نزل الأسد الذهبي — مسرعتين لتقبلاها ، فور سماعهما النبأ .. اما الصيدلي ، فقد اكتفى — كرجل مهذب ، حيي ! — بأن ازجى اليها بعض التهـاني خلال الباب المنفرج ، ثم رغب في رؤية الوليدة ، واعرب عن ارتياحه الى حسن تكوينها !

وشغلت (ايما) كثيراً — خلال فترة النقاهة — باختيار اسم لابنتها.. فاتجهت في اول الأمر الى الأسماء التي تنتهي بمقاطع معينة ، على الطريقة الايطالية ، مثل كلارا ، ولويزا ، واماندا ، واتالا .. ومالت كثيراً الى اسم (جالسويند) .. وكانت اكثر ميـلاً الى (ايزولته) او (ليوكادي) . ورغب (شارل) في ان تحمل الطفلة اسم امه ، ولكن (ايما) عارضته .. ثم راحا يستعرضان كل ما ضمه التقويم من اسماء القديسات ، وأخذا يستشيران الأغراب . فقال الصيدلي : كنت اتحدث منذ أيام مع السيد ليون ، فأبدى عجبه لأنكم لا تختارون اسم (مادلين) الذي يقبل الجميع عليه في هذه الأيام !)

ولكن مدام (بوفاري) الكبيرة ، عارضت بصوت مرتفـع هذا الاسم الذي كانت تحمله احدى الخاطئات !.. اما السيد (هوميه) ، فكان يفضل الاسماء التي تبعث الى الذهن ذكرى عظيم ، او واقعـة بهيجة ، او فكرة كريمة .. وعلى هذا النحو سمى أبناءه الأربعة ، فكان (نابوليون) يمثل المجد ، و (فرانكلين) رمزاً للحرية ، وربما كان اسم (إرما) مظهراً لتأثره بالخيال القصصي العاطفي .. اما اسم (اتالي) فكان تحية لأعظم تحفة شهدتها المسارح الفرنسية !.. اذ ان عقـائده الفلسفية لم تكن تتعارض مـع ميوله الفنية .. ولم تكن شخصية رجل الفكر تخنقها في نفسه شخصية رجل العاطفة ، بل كان يعرف لكـل حدودها ، وكان يفرق بين الخيال والتـطرف المتعصب .. ففي مأساة (اتاليا) المسرحية – مثلاً – كـان ينتقد الآراء ، ولكنه يعجب بالاسلوب .. يكره الموضوع ، ولكنه يصفق للتفصيلات جميعاً .. يزدري الشخصيات ، ولكنه يزداد تحمساً لحوارها !.. وكان يسرح مع الخيال اذا ما قرأ فقرات بديعة ، ولكنه كان يغتم اذا ما تذكر ان اهل المجون والمهرجين قد يستغلونها في ألاعيبهم على الغـير !.. وفي خضم هذه المشاعر المتضاربة التي كانت تجتـاحه ، كان يود ان يتوج لفوره (راسين) – مؤلف المسرحية – بكلتا يديه ، وان يقضي ربع ساعة في نقاش معه !

وتذكرت (ايما) اخيراً انها سمعت المركيزة في قصر (فوبيسار) تنادي شابة باسم (بيرت) .. ومنذ تلك اللحظة وقع الاختيار على هذا الاسم !.. ولما لم يستطع السيد (روو) الحضور ، فقد سُئل السيد (هوميه) ان يكون اشبيناً للطفلة .. وكانت كل هداياه من المنتجات التي تحويها صيدليته : ست علب من ثمار العناب المحفوظة ، وقنينـة مملوءة باكسير مقو ، وثلاث انابيب من معجـون الشيح ، فضلاً عن ست اصابع من سكر النبات عثر عليها في احد الصوانات . وفي امسية

الاحتفال ، أقيمت مأدبة عشاء كبيرة حضرها القس ، وتخللهـا هرج ومرج .. وعندما جان موعد الشراب ، أخذ السيد (هوميه) ينشد : (الله رب العالمين) ، وغنى السيد (ليون) احدى اغاني الجندول ، وألقت مدام (بوفاري) الكبيرة – وكانت اشبينة الطفلـة – احدى اغاني العصر الامبراطوري العاطفيـة ! .. واخيراً ، أصر مسـيو (بوفاري) – الكبير – على احضار الوليدة ، وشرع يعمدها بأن سكب على رأسها كوباً من الشمبانيا .. وأثارت هذه السخرية من أقدس الشعائر الدينية غضب الأب (بورنيزيان) ، فرد عليه (بوفـاري) الشيخ بفقرة من كتاب : (حرب الآلهـة) !.. وهمّ القس بالخروج ، فتضرعت اليه النسوة ، وتدخل السيد (هوميه) ، حتى افلحـوا في حمل القس على الجلوس ، ومن ثم عاد يستأنف احتساء مـا بقي في قدح القهوة ، في هدوء !

ومكث مسيو (بوفاري) الكبير شهراً في (ايونفيل) بهر خلاله اهلها بخوذة فخمة من خوذات الشرطة ، يتدلى منها زر فضي ، كان يرتديها في الصباح وهو يدخن غليونه في الميدان !.. واذ كان من عادته الافراط في الشراب ، فكثيراً ما كان يوفد الخادم الى (الاسد الذهبي) لتوافيه بزجاجة على حساب ابنه . واستنفد – ليعطر مناديله – كل ما كان لدى زوجة من ابنه ماء (الكولونيا) . بيد ان هذه لم تكن تضيق بصحبته اطلاقاً ، اذ كان قد جاب الأقطار ، فكان يحدثها عن برلين وفيينا وستراسبورج ، وعن ايام الجندية ، وعن العشيقات اللاتي احببنه، والولائم الحافلة التي أقامها !.. ثم انه كان لطيفاً .. بل لقد كان في بعض الأحيان يطوق خصرها بذراعه – على السلم او في الحديقـة – ويصيح : (شارل .. احترس لنفسك !)

اذ ذاك خشيت السيدة (بوفاري) – الأم – على سعـادة ابنها ، وخافت ان ينتهي زوجها مع مرور الوقت الى ان يترك اثراً غير خلقي

في ما للمرأة من آراء وافكار ، فعملت على التعجيل بالرحيل .. ولعلها كانت تكتّم اسباباً اخطر من ذلك لقلقها ، اذ ان السيد (بوفاري) لم يكن بالرجل الذي يحترم شيئاً !!

وأحست (ايما) يوماً برغبة مفاجئة في ان ترى ابنتها – التي كانت قد اسلمت لزوجة النجار لتعنى بها وترضعها – وبدون ان ترجع للتقويم لتتبين ما اذا كانت اسابيع العذراء الستة قد انقضت ، انطلقت الى بيت (روليه) – النجار – في الطرف الاقصى من القرية ، بين الطريق الرئيسية والحقول .. وكان الوقت ظهراً ، وقد اوصدت ابواب الدور ونوافذها ، وتألقت السقوف الاردوازية تحت ضوء السماء الباهر حتى كادت تقدح شرراً من ابراجها !.. وكانت الريح تهب بشدة ، وما لبثت (ايما) ان شعرت خلال سيرها بوهن ، وأخذت احجار الارصفة تؤلم قدميها .. وترددت بين ان تعود الى البيت ثانية ، او تلوذ بأي مكان .. وفي هذه اللحظة ، برز السيد (ليون) من منزل مجاور ، وقد تأبط حزمة من الورق ، فخف لتحيتها ، ووقف تحت المظلة الرمادية الممتدة امام حانوت (روليه) .

وقالت مدام « بوفاري » انها في طريقها لرؤية ابنتها ، بيد ان التعب أخذ يشتد بها ، فقال ليون : « هل لك ... » ثم أمسك لا يجرؤ على ان يتم عبارته ، فسألته : « هل لديك اي عمل يشغلك الآن ؟ » .. واذ اجابها بالنفي ، رجته ان يصحبها .. فلم يحن المساء حتى كانت « ايونفيل » بأسرها قد عرفت النبأ .. وصرحت مدام « توفاش » – زوجة العمدة – امام خادمتها بأن « مدام بوفاري قد ورطت نفسها !»

* * *

كان لا بد « لايما » ، كي تصل الى بيت المرضعة ، من ان تعرج

الى اليسار بعد نهاية الشارع وكأنها تسعى الى المقابر ، ثم تسلك – بين الدور والافنية – طريقاً ضيقة محفوفة بأشجار اللبخ والفيرونكا والنسرين وبنات النار المزدهرة ، وبالعوسج المنبعث من الاحراش . وخلال ثغرات في الأسيجة ، كانت الأبقار تلوح في الخرائب وهي تحك قرونها في جذوع الاشجار .. وسارا في هوادة ، جنباً الى جنب ، وقد استندت السيدة الى زميلها الذي كان يضيق من خطاه كي تلائم خطاها !.. وكان يحوم امامهما سرب من الذباب يطن في الهواء الدافىء ..

وتعرفا على المنزل بفضل شجرة بندق قديمة كانت تظله . وكان بيتاً منخفضاً ، مغطى بقرميد بني اللون ، تتدلى من كوة مخزن الغلال فيه حزمة من البصل .. وخلف الحاجز الشوكي ، قامت عدة اغصان جافة تحيط بحوض زرع خساً ، وبعض عقل من « اللاونـــدة » ، وفروع من البـــازلاء المزدهرة استندت الى عصي صغيرة ، والماء القذر ينساب على العشب حيث تناثرت عدة اشياء بالية غير واضحة المعالم : جوارب من نسج اليد ، وصدار من الحرير الهندي الاحمر ، وملاءة من القماش السميك منشورة على طول السياج ..

وعلى صوت صرير باب السياج خرجت المرضعة تحمل على ذراعها طفلاً يرضع ، وتسحب باليد الاخرى طفلاً هزيـــلاً مسكيناً كست وجهه البثور ، وكان ابن صانع قبعات في (روان) ، تركه أبواه في الريف لفرط انصرافهما الى تجارتهما . وقالت المرضعة : « تفضلي .. ان طفلتك نائمة هناك !..

وكانت الغرفة التي بالطابق الأرضي ، هي الغرفة الوحيدة بالمسكن ، وقد أقيم لصق الجدار – في اقصاها – سرير واسع بدون ستائر ، بينما شغل حوض العجين الجدار الذي تخللته النافذة ، وقد ألصق في مكـــان الزجاج المكسور في هذه ، ورق ازرق .. وفي الركن القـــائم خلف الباب رصت احذية ذات مسامير لامعة ، تحت حافة المغسل ، بجوار

زجاجة دست في فوهتها ريشة . وعلى رف المدفأة المغبر كانت ثمة نسخة من تقويم « ماتيولانزبرج » وسط قطع من الصوان واعقـاب الشموع والصوفـان . واخيراً ، كانت آخر مظاهر الترف في المسكن ، لوحة تمثل « الشهرة » تنفخ في بوق ، يدل مظهرها على انهـا قصت من اعلان للعطـور ، وثبتت الى الجدار بستة من مسامير الاحذية الخشبية (القباقيب) !

وكانت طفلة « ايما » ترقد في سرير من الغاب ، فحملتهـا في الغطاء الذي كان يلفها واخذت تغني لها برفق وهي تهزها .. ومضى « ليون » يذرع الغرفة ، وقد بدا له من الغريب ان يرى سيدة جميلة في ثوب انيق وسط كل هذا البؤس والفاقة .. وتضرجت وجنتا مدام « بوفاري » ، فأشاح ببصره اذ خطر له ان نظرة فضولية بدت في عينيه .. وما لبثت الأم ان ردت الطفلة الى مهدها بعد ان تقيأت على صدر مرولتها ، فاقبلت المرضعة لمسح القيء فوراً ، مؤكدة انه لن يخلف اثراً .. وقالت : « كم من افعال لها تشغلني ، فانني احرص على تنظيفها باستمرار ، ولو انك تفضلت فأمرت « كاميس » البدال بأن يعطيني بعض الصابون ، لكان هذا أدعى لراحتك ، لأنني لن اضطر لازعاجك » !

فقالت « ايما » : «حسناً .. ليكن !.. طاب يومك يا سيدة روليه»

وخرجت وهي تمسح نعليها عند العتبة .. وتبعتها المرضعة حتى نهاية الحديقة ، وهي تحدثها طيلة الوقت عن العناء الذي تلاقيه طيلة الليل ، قائلة : « ان الضنى يبلغ بي احياناً ان استغرق في النعاس وانا جالسة في مقعدي ، واعتقد انه يخلق بك ان تمنحيني رطلاً على الأقـل من البن المجروش ، يكفيني شهراً ، لأتناول منه قدحاً مع اللبن في كل صباح » .

وانصرفت مدام « بوفاري » بعد ان استمعت مكرهة لعبارات الشكر.

على انها لم تكد تبتعد بضع خطوات حتّى انتبهت الى وقـع حذاءين خشبيين .. واذا بالمرضعة ، فسألتها : « ماذا هناك ؟ » .. واذ ذاك انتحت بها الفلاحة جانباً خلف احدى اشجار الدردار ، وراحت تحدثها عن زوجها الذي اوتي حرفة ، لا تدر عليه غير النـذر الضئيل .. وقاطعتها « ايما » قائلة : « اسرعي ! » ، فاستأنفت وهي تتنهد بين كل كلمة واخرى : « آه .. أخشى ان يغتم اذا رآني اتناول القهوة وحدي .. فانت تعرفين الرجال ... »

قالت « ايما » : لسوف تحصلين على البن .. سأعطيك ايـاه ... انك تضايقينني ! » .

– اواه يا سيدتي العزيزة المسكينة !.. انه يعاني – بسبب جراحة – من انقباضات مزعجة في الصدر .. ويقول ان شراب التفاح يضعفه !

– عجلي ايتها الام روليه !

فاستطردت المرضعة وهي تنحني احترامـاً : « اذن ، فاذا لم اكن قد تماديت .. » ، وانحنت مرة اخرى .. « فلو تكرمت » .. وبدت في عينيها ضراعة ، ثم افضت بغايتها اخيراً : « .. بقنينة براندي ! ولسوف أدلك منها قدمي طفلتك ، فهما رقيقتان كاللسان » !

* * *

ما ان تخلصت « ايما » من المرضعة ، حتّى امسكت بذراع «ليون» ، وسارت مسرعة بعض الوقت ، ثم تباطأت .. وفيما كـانت تتطلع الى الامام ، وقع بصرها على كتف الشاب الذي كـانت لسترته ياقة من المخمل الاسود ، يتدلى فوقها شعره الكستنائي الذي نسق في عناية ، ولاحظت ان اظافره كانت أطول مما اعتاد الناس في « ايونفيل » ان يتركوا عليه اظافرهم ! .. وكانت العناية بها من المهام الرئيسيـة التي تشغله .. ومن ثم كان يحتفظ في درج مكتبه بمطواة خاصة لذلك !

وعادا الى « ايونفيل » سائرين بمحاذاة مجرى الماء .. كانت الضفة تتسع في الموسم الحار عنها في الاوقات الاخرى ، فتكشف عن اساس جدران الحدائق ، حيث تنحدر الى مجرى النهر بضع درجات .. وكان الماء يجري سريعاً ، هادئاً ، تكاد العين تلمس برودته ! .. والاعشاب الطويلة النحيلة تتشابك وتتجمع ، والتيار يدفعها ، ثم تبسط نفسها على سطح الماء النمير كالشعر المسترسل .. وكانت تبدو على قمم البوص او على احدى اوراق زنابق الماء — في بعض الاحيان — حشرة دقيقة الاطراف تزحف او تقبع مستريحة .. وكانت الشمس تخترق باشعتها الفقاقيع الزرقاء الصغيرة التي تخلفها الامواج ، والتي كانت تتتابع متكسرة .. واشجار الصفصاف العتيقة العارية الأغصان ، تعكس على الماء صور جذوعها المغبرة .. وفي المؤخرة، بدت المراعي محيطة بالمنظر، ممتدة على مدى البصر ، خالية من كل شيء .. كانت ساعة العشاء قد حانت في المزارع ، فلم تسمع الشابة وزميلها اي صوت وهما يسيران ، اللهم الا وقع خطواتهما على ارض الطريق ، والكلمات التي كانا ينطقان بها ، وحفيف ثوب « ايما » ..

وكانت اسوار الحدائق — التي بدت من فوقها قطع الزجاج — ساخنة كزجاج نوافذ بيوت تربية النباتات الحارة ، وقد نبتت الزهور البرية بين احجارها ، فكانت مدام « بوفاري » تمس بعض هذه الزهور الجافة بحافة مظلتها المفتوحة ، وهي تمر بها ، فتتساقط تراباً أصفر .. كما كان يشتبك بحافة المظلة احياناً غصن من اللبلاب المتدلي ، ويتأرجح فوق حريرها لحظة ..

وكانا يتحدثان عن فرقة من الراقصين الاسبانيين مرتقبة الوصول الى مسرح (روان) ، فسألته : « هل ستذهب لرؤيتها ؟ » .. فأجاب : « اذا استطعت » ! ..

أو لم يكن لديهما ما يقال غير هذا ؟!.. كانت عيونهما مفعمة

بحديث اكثر جدية .. وكانا ، اذ يجهدان نفسيهما في البحث عن عبارات تافهة ، يحسان بنوع واحد من الخدر يسري فيهما .. ذاك كان همس الروح .. همس عميق ، مستمر ، يطغى على صوتيهما ! .. وأخذهما العجب لهذه العذوبة الطارئة ، فلم يخطر ببالهما ان يتكلما عن هذا الاحساس او ان يبحثا عن سببه .. فان المسرات في اقبالها تلقي – كالشواطىء الاستوائية – على الفضاء الشاسع رخاوتها الفطرية ، وتبعث في الجو نسيماً متضوعاً .. فاذا هذه النشوة تسلمنا الى اغفاء عذب يصرفنا عن التفكير في الأفق الذي نجهله !

وكانت الارض قد مادت في احدى البقاع تحت اقدام الماشية ، فكان لا بد لهما من ان يقفزا على احجار كبيرة خضراء تناثرت في الوحل .. وكثيراً ما كانت « ايما » تتريث لتستبين موقع قدمها ، وهي تتأرجح على حجر مهتز ، وقد بسطت ذراعيها في الهواء ، وانحنت قامتها في حيرة ، وراحت تضحك وهي تخشى ان تهوى في برك الماء !

وعندما بلغا حديقة دارها ، دفعت مدام « بوفاري » الباب ، وطوت السلالم عدواً ، واختفت .. فعاد « ليون » الى مكتبه – وكان رئيسه غائباً – فألقى على الملفات نظرة ، وشحذ لنفسه قلماً ، ثم تناول قبعته اخيراً وانصرف متجهاً الى المرج بأعلى هضبة (ارجي) – عند مدخل الغابة – حيث استلقى على الارض تحت اشجار الصنوبر ، واخذ يتطلع الى السماء من خلال اصابعه ، محدثاً نفسه : « ما اشد ضجري ! »

كان يحس انه خليق بالرثاء لاقامته في هذه القرية ، حيث لا صديق سوى « هوميه » .. ومع السيد « جويومان » رئيسه !.. وكان الأخير ، بمنظاره ذي الاطار الذهبي ولحيته الحمراء وربطة عنقه البيضاء ، يكتب على عمله ، ولا يفقه شيئاً من المتع الفكرية ، وان اتخذ لنفسه مظهراً انجليزياً صارماً بهر الكاتب في الايام الاولى !

اما زوجة الصيدلي ، فكانت خير زوجة في (نورمانديا) .. وديعة

كالحمل ، تحب اولادها واباها وامها وبني عمومتها ، وتبكي لأحزان الآخرين ، مهملة في الوقت نفسه كل شؤون دارها !.. وكانت تكره المشدات (الكورسيهات) ، غير انها كانت بطيئة الحركة ، مملةالحديث ، مبتذلة المظهر ، ضيقة الأفق ، حتى ما كان احد ليتصور انها تصلح زوجة لغير الصيدلي ، او انها اوتيت شيئاً من خصائص جنسها فيما عدا الثوب !.. وكانت هي في الثلاثين بينما كان هو — « اي ليون » — في العشرين ، وكان مخدعه ملاصقاً لمخدعها ، ومن ثم كان يخاطبها يومياً!

ثم .. ماذا كان هناك غير ذلك !.. « بينيه » ، وبعض اصحاب الحوانيت ، واثنان او ثلاثة من اصحاب الحانات ، والقس ، واخيراً مسيو « توفاش » ، العمدة ، واولاده : وكلهم ثراة ، متغطرسون ، اغبياء ، يزرعون الارض بأنفسهم ، ويستأثرون بالولائم فيما بينهم ، متزمتون ، لا تطاق صحبتهم !

ولكن .. ماذا عن « ايما » ؟.. لقد كانت تقف بمعزل عن كل الاطار العام الذي يضم هذه الوجوه البشرية .. وبعيداً عنه هو الآخر ، اذ كان يرى بينه وبينها هوة غامضة !.. كان قد زارها مع الصيدلي عدة مرات في البداية ، فلم يبد « شارل » ميلاً واضحاً الى ان يراه مرة اخرى ، فلم يدر « ليون » ماذا يفعل ، اذ حار بين الخوف من ان يبدو متطفلاً ، والرغبة في إلفة جميلة تكاد تلوح مستحيلة !

الفصل الرابع

نقلت « ايما » – عندما بدأت أيام الشتاء – مخدعها الى حجرة الجلوس .. وكانت قاعة طويلة ، منخفضة السقف ، استقرت على رف مدفأتها – امام المرآة – حزمة كثيفة من المرجان . وكانت تجلس في مقعدها الوثير بجوار النافذة ، حيث تشهد اهل القرية وهم يمرون على الافريز .

وكان « ليون » يسعى بين مكتبه وفندق « الاسد الذهبي » مرتين في اليوم ، فكانت « ايما » اذا سمعته عن بعد انحنت لتصيخ السمع ، بينما يمر الشاب دون ان يلتفت ، فتراه من خلف الستائر في نفس المظهر والملبس دائماً .. ولكنها عندما كانت تترك قطعة القماش التي تطرزها على ركبتيها ، وتستند بذقنها الى يدها اليسرى – عند الغروب – كانت تسري في جسدها رجفة لظهور هذا الشبح ومروره بالبيت !.. وكانت لا تلبث ان تنهض ، وتأمر باعداد المائدة .

وكان السيد « هوميه » يصل اثناء العشاء ، وطاقيته الافريقية في يده ، فيدخل بخطى مكتومة الوقع كي لا يزعج احداً ، وهو يردد نفس العبارة دائماً : « مساء الخير ايها الزملاء ! » .. فاذا اتخذ مجلسه الى مائدة الزوجين ، سأل الطبيب عن انباء المرضى ، فيستشيره هذا فيما يقدر من

اتعاب ، ثم يخوضان في الحديث عما جاء بالصحيفة التي يكون « هوميه » قد استظهر كل ما فيها تقريباً !.. فكان يرويه ، مع التعليقات ، كما كان يروي جميع النكبات الفردية التي وقعت في فرنسا او في الخارج . ولم يكن يتوانى – اذا ما نضب موضوع الحديث – عن ان يلقي بعض الملاحظات عن اصناف الطعام التي يراها !.. بل انه كان ينهض احياناً عن مقعده ليرشد السيدة الى اطرى قطع اللحم ، او يتحول الى الخادم يوجه اليها ارشادات في معالجة اللحوم ، والقواعد الصحية لاستخدام التوابل .. ويتكلم عن البهار ، والمغات ، وانواع العصير والهلام (الجيلاتين) .. على نحو مدهش !.. ولما كان رأس « هوميه » يحفل بتركيبات تفوق في الكثرة ما تزخر به صيدليته من قنينات ، فأنه كان يحذق صنع جميع انواع المربى ، والخل ، والمشروبات الروحية الخفيفة ، كما كان ملماً بكافة المخترعات الحديثة المتعلقة بأدوات الطهو الاقتصادية ، فضلاً عن اصول صيانة الجبن ، وعلاج النبيذ الفاسد !

وكان « جوستان » يأتي في الساعة الثامنة يستدعيه لاغلاق الصيدلية ، فيرمقه السيد « هوميه » بنظرة خبيثة ، لا سيما اذا كانت « فيليسيتيه » واقفة ، اذ كان قد فطن الى ان مساعده يميل الى التردد على بيت الطبيب !.. وكان يقول : « ان هذا « الفحل » بدأ يفكر .. وليأخذني الشيطان اذا كنت مخطئاً في ظني انه يحب خادمتكما ! »

بيد ان اخطر عيب كان يؤاخذ « جوستان » عليه ، هو انه كان ينصت دوماً الى الحديث ، فلم يكن من السهل ابعاده عن « الصالون » في يوم الأحد مثلاً ، عندما تناديه مدام « هوميه » لينقل الاطفال الذين ناموا في مقاعدهم ، وأخذوا يسحبون بظهورهم مفارشها عنها !.. ولم يكن يحضر سهرات الصيدلي اناس كثيرون ، اذ نجح ميله للخوض في الفضائح والآراء السياسية في تنفير مختلف الاشخاص المحترمين منه . على ان الكاتب لم يتخلف قط عن سهراته ، وكان اذا سمع جرس الباب

بادر مسرعاً الى استقبال مدام « بوفاري » فيأخذ عنها شالها ، ويضع تحت نضد الصيدلي الخفين السميكين المزدانين بالشرائط ، اللذين كانت ترتديهما فوق حذاءيها اذا كان الجليد يملأ الشوارع .

وكانوا يلعبون ادواراً من لعبة الورق المعروفة برقم ٣١ ، ثم ينفرد السيد (هوميه) باللعب مع (ايما) ، و (ليون) من خلفها يقدم لها النصائح ، وقد وقف معتمداً بيديه على ظهر مقعدها ، محدقاً في اسنان المشط التي تعض عقصة شعرها . وكان الجانب الايمن من ثوبها يرتفع مع كل حركة تقوم بها لالقاء الورق ، وينبعث من شعرها لون اسود ينساب على ظهرها ، ويأخذ في الشحوب تدريجياً ، حتى يتلاشى في الظلال .. ثم يتهدل ثوبها على جانبي المقعد ، منتفخاً ، مليئاً بالثنايا ، وينساب حتى يبلغ الارض .. فاذا احس (ليون) بأن نعله وقع على طرف منه ، ارتد مجفلاً وكأنما داس شخصاً !

وعندما كان ينتهي لعب الورق ، كان الصيدلي والطبيب يلعبان (الدومينو) ، فتنتقل (ايما) الى مقعد آخر لتتكىء على المائدة وتقلب صفحات مجلة (الالستراسيون) .. كما كانت تحضر معها مجلتها النسوية ، فيجلس (ليون) يتأمل الصور الى جانبها ، ويتريث احدهما عند نهاية كل صفحة ريثما يفرغ منها الآخر . وكثيراً ما كانت ترجوه ان ينشدها شعراً ، فكان (ليون) يفعل بصوت متراخ كان يعني بخفضه عند العبارات الغرامية ، لتطغى عليه جلبة (الدومينو) !.. وكان السيد (هوميه) بارعاً في هذه اللعبة ، الى حد انه كان يفوز على (شارل) بدورين ، حتى اذا فرغا من الدور الثالث ، اضطجعا معاً امام المدفأة ، فلا يلبثان ان يغفوا !.. وتموت النار .. ويخلو ابريق الشاي .. و (ليون) ماض في القراءة ، و « ايما » تنصت اليه ، وهي تعبث بمظلة المصباح في حركة آلية ، وتحدق في الرسوم المنقوشة عليها : من عصافير في عربات ، الى راقصين على الحبال ممسكين بالعصي التي يحفظون بها توازنهم .. وكان

« ليون » لا يلبث ان يمسك عن القراءة ليشير بإيماءة الى النائمين .. واذ ذاك يشرعان في الحديث بخفوت ، فكان هذا الحديث يبدو لهما اعذب من اي حديث ، لأن احداً لم يكن يسمعه !

وهكذا توثقت بينهما رابطة من نوع خاص ، وأخذا يتبادلان الكتب والروايات . ولم يكن السيد (بوفاري) ليشغل باله بهذا .. فقد كان قليل الانسياق للغيرة !

وتلقى (شارل) في عيد ميلاده صورة لرأس رسم باللون الازرق ، لبيان الجهاز العصبي ، وقد انتشرت عليه الارقام والبيانات حتّى القفص الصدري !.. تلك كانت هدية من الكاتب الذي اخذ يقدم الكثير غيرها من الهدايا والخدمات ، حتّى لقد كان يقضي للطبيب حوائجه في (روان) . وكان احد الروائيين قد اورد في كتاب له فصلاً عن نبات (الصبار) جعله بدعة لقيت رواجاً ، فابتاع (ليون) بعض نبتات منه لمدام بوفاري ، وقد ادمى بعض اشواكها اصابعـــه ، اذ حملها في (العصفورة) على ركبتيه !.. وأقامت السيدة خارج نافذتها قاعدة من الخشب وضعت عليها الأصص . ولما كانت للكاتب حديقة صغيرة معلقة ، فقد اخذ كل منهما يشاهد الآخر وهو يعنى بأزهاره عند النافذة !

ومن بين نوافذ القرية ، كانت ثمة نافذة ينبعث منها اكبر قدر من النشاط .. فطيلة ايام الآحاد – نهارها ومساؤها – وبعد ظهر كل يوم ، حين يصحو الجو ، كان المرء يرى خلال كوة مخزن الغلال منظراً جانبياً لوجه (بينيه) وقد انحنى على مخرطته فانبعث طنينها الرتيب حتّى صار يسمع في فندق (الاسد الذهبي) .

وولج (ليون) غرفته ذات يوم ، فألفى فيها سجادة من المخمل والصوف ، نقشت عليها افنان على قاعدة شاحبة ، فاستدعى مدام (هوميه) والسيد (هوميه) و (جوستان) والاطفال والطباخة ليشهدوها !.. وتحدث الى رئيسه عنها .. ورغب الجميع في ان يروا هذه السجادة ، وهم يسائلون

انفسهم : ترى لماذا تقدم زوجة الطبيب للكاتب هدايا ؟.. انه لأمر جد عجيب !.. ووقر في نفوسهم انها لا بد حبيبته ، لا سيما وقد كان في مسلكه ما يبرر هذا الظن ، اذ كان دائم الحديث عن سحرها وذكائها ، حتى لقد رد عليه (بينيه) مرة في عنف قاس : « وماذا يعنيني من امرها وانا لست من اصدقائها ؟!. »

وأخذ « ليون » يعتصر ذهنه بحثاً عن وسيلة يعلن حبه لها .. فقد كان يتردد بين الخوف من ان يثير استياءها وبين الخجل من جبنه !.. كان يبكي من الرغبة وعدم الجرأة ، ثم لا يلبث ان يستجمع عزيمتـه ويعمد الى كتابة خطابات يمزقها بعد ان ينتهي منها ، ويرجىء الأمر الى اوقات اخرى ، ثم يعود فيرجئه من جديد !.. وكثيراً ما كان يهم بمواجهة الأمر في عزم ، فلا تكاد تحضر « ايما » حتى يتبدد هذا العزم !.. وكان اذا دعاه « شارل » الى مرافقته في عربته لعيادة مريض في قرية مجاورة لبى الدعوة لفوره ، فيحيي السيدة وينصرف .. ولم لا ، أليس زوجها جزءاً منها ؟

اما « ايما » ، فلم تسائل نفسها قط عما اذا كانت تحبه ، فهي تعتقد ان الحب يفد فجأة مصحوباً برعد وبرق ، كما لو كان عاصفة تنقض من السماء على الأرض ، فتقلب كيانها ، وتنتزع الارادات انتزاعهـا لأوراق الشجر ، وتجرف القلب !.. ولم تفطن الى ان المطر يحيل الشرفات بحيرات اذا كانت الميازيب مغلقة .. وهكذا ظلت مطمئنة ، حتى اكتشفت فجأة صدعاً في الجدار .. جدار قلبها !!

الفصل الخامس

كان ذلك في اصيل يوم احد من شهر فبراير ، والجليد يتساقط .. وهم جميعاً – السيد بوفاري وزوجته ، وهوميه ، والسيد ليون – على بعد نصف فرسخ من (ايونفيل) ، وقد خرجوا في رحلة لمشاهدة مصنع لغزل الكتان كان العمل جارياً في اقامته في الوادي .. وكان الصيدلي قد اصطحب معه « نابوليون » و « امالي » للرياضة ، كما رافقهم « جوستان » حاملاً المظلات على كتفه .

بيد انهم لم يجدوا فيما ذهبوا لرؤيته شيئاً يثير الفضول .. مساحة ارض واسعة ، خالية ، تناثرت في ارجائها بين اكداس الرمل والحصى الملقاة في غير انتظام ، بضع عجلات ذات تروس يعلوها الصدأ . ووسط هذه الارض قام مبنى مستطيل ، يتخلل جدرانه عدد من النوافذ الصغيرة .. ولم يكن البناء قد اكتمل ، فكانت السماء ترى خلال هيكل السقف الذي علقت بأحدى كتله الخشبية حزمة من سنابل القمح والقش راحت ترفرف في الهواء بألوانها الثلاثة .. وانطلق « هوميه » يشرح للجماعة ما سوف يكون لهـذه المؤسسة من اهمية ، وما ستكون عليه ارضها الخشبية من متانة ، وجدرانها من سمك .. وأبدى اسفه اذ لم يملك عصا للقياس كتلك التي كان السيد « بينيه » يقتنيها لأغراضه الخاصة !

وكان يتأبط ذراع « ايما » التي راحت تميل معتمدة على كتفه بعض الشيء ، لتتطلع الى الشمس التي كان قرصها يرسل من بعد — خلال الضباب — ضوءاً اخذ يسطع في شحوب .. وحانت منها التفاتة ، فرأت « شارل » قد كبس قلنسوته حتى حاجبيه ، وراحت شفتاه الغليظتان ترتجفان ، مما اضفى على وجهه مزيداً من الغباء !.. حتى ظهره .. ظهره الساكن .. كان يثير الاشمئزاز ، وكأنما انتشرت على « ردنجوته » مظاهر تفاهة شخصيته !!

وفيما كانت تتأمله ، مستشعرة في اشمئزازها لوناً من المتعة الشاذة ، اقترب « ليون » خطوة ، وقد لاح ان البرد الذي اصابه بالشحوب قد اسبغ على وجهه استرخاء زاده بهاء .. وكانت ياقة القميص واسعة بعض الشيء ، تكشف — بين الرقبة ورباطها — عن بشرته .. وبرز طرف اذنه من خلال خصلة من الشعر .. وخيل لايما ان عينيه الواسعتين الزرقاوين — اللتين تتطلعان الى السحب — اكثر صفاء وجمالاً من البحيرات الجبلية التي ينعكس لون السماء على مياهها !

وهتف الصيدلي فجأة : « يا للشقي ! » .. ثم عدا نحو ابنه الذي قفز الى كومة من الجير ليطلي حذاءيه بلون أبيض .. وراح « نابوليون » يصرخ اذ انهـــال عليه توبيخ ابيه ، بينما اسرع « جوستان » ينظف له حذاءيه بحزمة من القش . بيد انه احتاج الى سكين ، فقدم اليه « شارل » واحدة .. واذ ذاك حدثت « ايما » نفسها قائلة : « آه !.. انه يحمـــل سكيناً في جيبه كالفلاحين ! »

وتساقط الصقيع ، فعادوا الى « ايونفيل » .. ولم تذهب مدام « بوفاري » لزيارة جيرانها في ذلك المساء .. واذ غادرها « شارل » وخلت الى نفسها ، عادت لليها المفارقة بوضوح الاحساس المباشر الذي يكاد يكون واقعاً ، وبالعمق الذي تخلعه الذاكرة على الاشياء !.. وتمثل لعينيها — وهي تتأمل من سريرها النار وهي تستعر صافية في المدفأة — المنظر الذي رأته هناك ،

وكأنه لا يزال امامها : « ليون » وقد وقف يثني عصاه باحدى يديه ، ويمسك « اتالي » باليد الاخرى ، وهي تستحلب في هدوء قطعة من الثلج .. وبدا لها فاتناً !.. ولما لم تستطع ان تنتزع نفسها عنه ، اخذت تستعيد مواقف اخرى له في ايام غير ذاك اليوم ، وكلمات صدرت عنه ، وجرس صوته ، وكل كيانه .. ومضت تردد وهي تمط شفتيها كأنها تقبل احداً : « اجل .. فاتن .. فاتن !.. الا تراه قد أحب ؟.. ومن عساه احب ؟.. انا ؟! »

وأخذت الادلة تنبعث امامها ، فقفز قلبها .. وألقى وهج النار على السقف ضوءاً راح يتراقص في مرح ، وانقلبت على ظهرها باسطة ذراعيها .. واذ ذاك بدا الرثاء الأبدي : « اواه .. ليت السماء دفعته الى حبي .. ولم لا ؟.. ما الذي يحول دون ذلك ؟! »

ولاحت - حين عاد « شلرك » في منتصف الليل - وكأنها استيقظت لتوها .. وشكت من صداع اذ اخذ يخلع ثيابه في جلبة ، ثم سألته عرضاً عما حدث في السهرة فقال : « لقد غادرنا السيد ليون مبكراً وآوى الى غرفته » !

ولم تتمالك ان ابتسمت ، ونامت ونفسها مفعمة بلون من الغبطة جديد عليها !

* * *

وعند غروب شمس اليوم التالي ، زارها السيد « لوريه » تاجر الاقمشة . وكان بائعاً ماهراً ، ولد في (جسكونيا) ولكنه نشأ في (نورمانديا) كأحد ابنائها ، فجمع بين لباقة اهل الجنوب وبين دهاء اهل (كو) . وكان وجهه السمين ، المتهدل ، الحليق ، يبدو وكأنه طلي بنقيع باهت من « العرقسوس » ، وقد زاد شعره الأبيض نظرات عينيه السوداوين الصغيرتين حدة ودهاء !.. ولم يكن ثمة من يدري ماضيه ، فهناك من

يقول انه كان بائعاً متجولاً ، بينما يقول آخرون انه كان صرّافاً في (روتو) .. على ان المحقق انه كان قديراً على ان يجري في ذهنه عمليات حسابية معقدة يدهش لها « بينيه » نفسه . وكان يغالي في التأدب نفاقاً ، فيقف محدودب الظهر كمن ينحني للتحية او الدعوة !

وبعد ان ترك لدى الباب قبعته المحلاة بالديباج ، ووضع على المائدة صندوقاً اخضر من الورق المقوى ، شرع يشكو للسيدة – في ادب جم – من انه لم يحظ بعد بثقتها ، قائلاً ان من الصحيح ان حانوته الفقير لم يكن اهلاً لأن يجتذب « سيدة انيقة » – وضغط على هاتين الكلمتين – مثلها ، ومع ذلك فليس لها سوى ان تأمر وهو قمين بأن يوافيها بأي شيء تبغيه من الخردوات او الثياب الداخلية او القبعات او الكماليات ، لأنه يتردد على المدينة بانتظام اربع مرات في الشهر ، ويتعامل مع خير متاجرها .. وتستطيع ان تسأل عنه في « الترو وا فرير » – (الاخوة الثلاثة) – و « البارب دور » – (اللحية الذهبية) – و « الجران سوفاج » – (المتوحش الكبير) – فان اصحاب هذه المتاجر جميعاً يعرفونه معرفتهم لما في جيوبهم ! ومن ثم فهو قد جاء اليوم يعرض على السيدة – اذ مر بدارها – بضع سلع قدر له ان يحصل عليها بمحض المصادفة النادرة . ثم اخرج من الصندوق ست ياقات مطرزة ، فحصتها مدام بوفاري ثم قالت : « لست في حاجة الى شيء ! » .. واذ ذاك عرض في رفق ثلاثة من شيلان الجزائر ، وعدة مجموعات من الابر الانجليزية ، وزوجاً من النعال القش ، واخيراً ، اربع كؤوس للبيض صنعت من لحاء جوز الهند وقد زانها نزلاء السجون بنقوش محفورة ، مفرغة . ثم اعتمد على المائدة بيديه واشرأب بعنقه ، وراح يرقب « اما » – التي كانت تجول بين سلعه مترددة – وقد انحنى الى الامام وفغرفاه .. ومن وقت لآخر ، كان يمس باظفره الشيلان الحريرية المبسوطة على سعتها – وكأنه ينفض عنها غباراً – فكانت تهتز في حفيف ضئيل ، وتبرق الخيوط المذهبة التي

تتخلل نسيجها كنجوم صغيرة تومض في ضوء الغسق الضارب الى الخضرة ..
وسألته اخيراً : « ما ثمنها ؟ » .. فأجاب : « لا شيء في الواقع ..
ثمن ضئيل لا يذكر .. ولا داعي للعجلة ، بل ادفعي حين يحلو لك ..
فلسنا يهوداً ! »

وفكرت لبضع لحظات ، ثم انتهت الى رفض ما عرض المسيو « لوربه »
من جديد ، فاجاب غير آبه لرفضها : « حسناً .. سيفهم كل منا الآخر
شيئاً فشيئاً .. لقد اعتذت دائماً ان اوفق الى ارضاء السيدات ، وان لم
افلح في ارضاء زوجتي ! »

وابتسمت « ايما » ، بينما استطرد قائلاً في طيبة قلب ، بعد النكتة :
« انما احببت ان انبئك بان النقود ليست بالشيء الذي يقلقني ، بل انني
على استعداد لأن اقدم لك منها ما قد تكونين بحاجة اليه ! »

وبدرت منها حركة تنم عن دهشة ، فبادر قائلاً بصوت خفيض :
« آه ، لن اضطر الى ان اذهب بعيـــداً للحصول على ما تريدين ،
فاركني اليّ ! »

وتحول يسأل عن الأب « تيلييه » ــ صاحب « المقهى الفرنسي » ــ
الذي كان السيد « بوفاري » يعالجه : « ما بال الأب تيلييه ؟.. انه
ليسعل حتى يهز بيته باسره ، واخشى ان لا يمضي طويل وقت حتى
يكون اكثر حاجة الى كفن منه الى صدار من « الفانيلا » !.. لقد كان
في شبابه مسرفاً في العربدة !.. هؤلاء الناس يا سيدتي لا يعرفون الاعتدال ،
لقد احرق نفسه بكحول الخمر .. على انه من المحزن ــ مهما يكن الأمر ــ
ان يرى المرء احد معارفه يفنى ! »

ومضى يتحدث عن مرضى الطبيب ، وهو يربط صندوقه ، ثم اردف
وهو يتأمل الارض عابساً : « ان الجو ولا ريب هو سبب هذه الامراض .
فانا الآخر اشعر بتوعك ، وما اراني الا مضطراً لأن استشير الطبيب
يوماً ما بشأن ألم بظهري . حسناً يا مدام « بوفاري » .. استودعك الله ..

اني خادمك الخاضع في خدمتك ! » .. وأغلق الباب في رفق .

وطلبت « ايما » ان يحمل اليها العشاء على صفحة لتتناوله الى جوار المدفأة في مخدعها .. وقضت وقتاً طويلاً في الأكل ، اذ كانت راضية عن كل شيء .. وقالت لنفسها وهي تفكر في الشيلان : « ما كان احكم تصرفي ! »

وسمعت خطى على السلم ، فادركت ان القادم « ليون » ، ونهضت فتناولت من الصوان اول صف من المنافض التي لم تثن اطرافها بعد .. فلما وصل ، بدت جد منهمكة في العمل . ودار الحديث بينهما متراخياً ، اذ كانت مدام « بوفاري » تنصرف عنه ، بينما بدا الشاب نفسه مرتبكاً .. وأخذ يقلب علبة « الكستبان » العاجية بين اصابعه ، وهو جالس على مقعد منخفض الى جوار المدفأة ، وهي ماضية في التطريز ، تطوي ــ من آن لآخر ــ طرف القماش بظفرها ، دون ان تتكلم . ومن ثم لزم هو الآخر الصمت ، وقد اسره سكوتها ، كما كان من الممكن ان يأسره حديثها !.. وقالت تحدث نفسها : « يا للشاب المسكين ! »

على ان « ليون » لم يلبث ان قال انه مضطر لأن يذهب الى (روان) يوماً في بعض مهام عمله ، وأردف : « لقد انتهى اشتراكك في الموسيقى ، فهل اجدده لك ؟ » .. فاجابت : « لا » .. وسألها « لماذا ؟ » .. فقالت : « لأن .. »

ثم زمت شفتيها وأخذت تشد الخيط الرمادي في غرزة طويلة .. وكان عملها هذا يضايق « ليون » ، اذ بدا انه يؤدي الى تخشين اناملها !.. وخطرت له عبارة رقيقة ، ولكنه لم يجرؤ على النطق بها .. بل قال : « اذن فسوف تستغنين عنها ؟ » .. فقالت : « ماذا ؟ » .. ثم اردفت بسرعة : « الموسيقى ؟.. آه !.. اجل !.. أليس لدي بيتي ارعاه ، وزوجي أعنى به ، وألف شيء .. وكثير من الواجبات التي يجب ان اؤديها اولاً ؟ »

ونظرت الى الساعة ، فاذا « شارل » قد تأخر ، واذ ذاك تظاهرت بالقلق .. بل لقد رددت مرتين او ثلاثا : « لكم هو طيب ! » .. وكان الكاتب يحب السيد « بوفاري » ، ولكن حنان زوجته نحوه ادهشه وساءه . ومع ذلك فقد اخذ يمدحه ويقول ان كل امرىء ـ لا سيما الصيدلي ـ يثني عليه .. فعادت « ايما » تردد : « آه .. انه طيب ! » .. وأجاب الكاتب : « حقاً ! » .. وشرع يتحدث عن مدام « هوميه » التي كان اسرافها في اهمال مظهرها يثير ضحكهما ، فقاطعته « ايما » قائلة : « وما قيمة ذلك ؟.. ان ربة البيت الصالحة لا تحفل بمظهرها » .. ثم اخلدت الى الصمت !

وتكررت الحال في الايام التالية .. حديثها ، ومسلكها ، وكل شيء فيها قد تغير . وأخذت تبدي اهتماماً بشئون منزلها ، وتذهب الى الكنيسة بانتظام ، وتحاسب خادمتها في مزيد من الشدة . واستردت طفلتها « برت » من المرضعة . وكانت « فيليستيه » تحملها ـ اذا وفد الضيوف ـ فتخلع مدام « بوفاري » عنها ثيابها لتعرض اطرافها ، وتردد انها تعبد الاطفال وتجد فيهم عزاءها وفرحها وهيامها .. وتقرن مداعباتها للطفلة بانطلاقات شعرية كانت كفيلة بأن تذكر اي فرد ـ عدا سكان (ايونفيل) ـ بساشيت في رواية « نوتردام دي باري » [١]

واصبح « شارل » يجد خفيه ـ حين يعود الى الدار ـ وقد وضعا الى جوار المدفأة ليكتسبا دفئاً !.. ولم يعد صداره يفتقد البطانة ، ولا اقمصته تعوزها الازرار .. وكان يسره ان يرى الطاقيات في الصوان وقد انتظمت في صفوف متساوية الارتفاع . ولم تعد « ايما » تتذمر من المساهمة في الحديقة كما كانت تفعل من قبل . وغدت تنفذ ما يقترح ، وان لم تفهم الرغبات التي كانت تنصاع لها دون تململ . وكان « ليون » حين يرى الزوج الى جوار النار بعد العشاء ، ويداه على بطنه ؛ وقدماه على

---

١ كانت ساشيت راهبة تحدث عنها « فيكتور هيجو » في روايته الخالدة : « احدب نوتردام » .

حافة المدفأة ، وخداه متضرجان من التغذية ، وعيناه نديتان لفرط هناءته ، والطفلة تزحف على البساط ، وهذه المرأة ذات الخصر النحيل تسعى من خلف مقعده الوثير لتطبع على جبينه قبلة .. كان « ليون » حين يرى هذا ، يقول لنفسه : « يا له من جنون !.. وكيف السبيل اليها ؟! »

كانت بأعمالها هذه تلوح له جد فاضلة وموفورة الحصانة ، حتى لقد فقد كل امل ، ولكنه – بهذا التحول – انزلها مكاناً غير عادي ، اذ اصبحت في نظره مجردة من مفاتنها البدنية التي لم ينل منها شيئاً ، ومن ثم اخذت تسمو في قلبه ، وتبعد عن متناوله كروح آلهية تحلق عالياً !.. وداخله شعور من تلك المشاعر الطاهرة التي لا تمت الى الحياة الدنيوية ، والتي يتعهدها المرء في نفسه لأنها نادرة ، ويخلف فقدها من الحزن اكثر مما يضفيه من اللذات !

وأخذت « ايما » تزداد نحولاً ، وخداها يزدادان شحوباً ، ووجهها يستطيل . ألم تصبح بشعرها الاسود ، وعينيها الواسعتين . وأنفها الاقنى ، ومشيتها التي تشبه حجل الطير ، والسكون الذي اصبحت تخلد اليه .. او لم تكن تبدو – بهذا كله – وكأنها تجتاز الحياة ولا تكاد تمسها ، وتحمل على جبينها ميسم مصير قدسي ؟!.. كانت جد حزينة وهادئة ، وقد غدت فجأة جد رقيقة ومتحفظة ، حتى ليشعر المرء الى جوارهـا بأن فتنة جليدية استولت عليه .. كما يحدث لنا في الكنائس حين يبعث اريج الزهور في امتزاجه ببرودة الرخام قشعريرة في ابداننا !.. بل ان الآخرين لم يفلتوا من هذه الفتنة ، حتى لقد قال الصيدلي : « ايما » امرأة عظيمة المواهب .. ما كان ينبغي ان تعيش في بلدة صغيرة ! »

وكانت ربات البيوت يعجبن باقتصادها ، والمرضى يعجبون بأدبها ، والفقراء ببرها .. ولكنها كانت تحترق بالشهوات ، والغيظ ، والبغضاء !.. كان هذا الثوب المستقيم الثنايا ، يخفي قلباً حائراً ، لا تنفرج تلكما الشفتان

العفيفتان عن شيء من عذابه .. كانت تهوى « ليون » وتنشد العزلة لتسعد بطيفه في طمأنينة !.. وكانت رؤية شخصه تعكر عليها متعة نجواها !.. كانت تهتز طرباً لوقع خطواته ، ثم يخمد الانفعال في حضوره ، ولا يتبقى لها بعد ذلك سوى دهشة عارمة تنتهي الى اسى طاغ !

* * *

ولم يكن « ليون » يعلم انها كانت — اذا غادرها قانطاً — تنهض بعد انصرافه لترقبه في الطريق .. وانها كانت تشغل بتتبع روحاته وغدواته ، بل انها لفقت قصة محبوكة لتجد عذراً يبرر لها زيارة غرفته .. وبدت لها زوجة الصيدلي سعيدة لأنها تنام تحت السقف الذي يأويه !.. وأخذت افكارها تحوم دائماً حول ذلك البيت ، كحمائم فندق « الأسد الذهبي » التي كانت تأتي لتغمس ارجلها الوردية وأجنحتها البيضاء في مياه ميازيبه . على ان « اما » كانت تزداد كبتاً لحبها كلما ازدادت ادراكاً له ، حتى لا يتجلى واضحاً ، وحتى تستطيع ان تضعفه !.. كانت تود ان يحدسه « ليون » من تلقاء نفسه ، وتتصور ما يمكن ان ييسر ذلك من مصادفات وكوارث . وما كان مانعها من الاتيان بالخطوة الاولى سوى الكسل ، والخوف .. وشعور بالحياء ايضاً !.. وخيل اليها انها قد تمادت في صده حتى فوتت الفرصة وضيعت كل شيء .. واذ ذاك ، كانت تجد في الكبرياء ، وفي البهجة التي تراودها اذ تملك ان تقول لنفسها : « انا امرأة فاضلة » ، وان تتأمل نفسها في المرآة متخذة اوضاع الاذعان والاستكانة .. كانت تجد في كل هذا عزاء بعض العزاء عن التضحية التي اعتقدت انها كانت تقوم بها !

ثم اخذت شهوات الجسد ، وجشع المال ، وأشجان العاطفة ، تختلط جميعاً في نوع واحد من العذاب ، كانت تزداد استكانة اليه — بدلاً من ان تنتزع نفسها منه — مستحثة نفسها على الشعور بالألم ، باحثة في

كل مكان عن فرصة لذلك . فكانت تنفعل إذا اسيء تقديم صنف من الطعام ، او اذا رأت باباً منفرجاً ، وتندب ما لا تملكه من مخمل ، وما ينقصها من سعادة ، وما يبعد عن متناولها من احلام ، وما كان عليه بيتها من ضيق !!

واغاظها ان « شارل » لم يبد اي انتباه الى عذابها .. وبدا لها اعتقاده بأنه حقق لها كل سعادة اهانة وقحة ، واطمئنانه الى هذا الاعتقـاد جحوداً .. فن اجل من اذن كانت عفتها وفضيلتها ؟!..او لم تكن من اجله هو ؟!. هو الذي كان حجر العثرة في سبيل كل سعادة ، والسبب في كل تعاسة .. والذي كان كالمحبس المدبب يحكم اغلاق ذلك الطوق المعقد اللعين الذي يطبق عليها من كافة النواحي !.. لذلك صبت عليه وحده كل تلك الاحقاد العديدة التي تجمعت من ضيقها ، وكان كل مجهود للتخفيف من هذه الاحقاد انما يضاعفها ، اذ كان المجهود الضائع يضيف سبباً جديداً لخيبـة الأمل ، ويزيد الهوة بينها عمقاً !.. وكان تلطفها مع نفسها يزيدها تمرداً على زوجها ، وضعة حياتها المنزلية تدفعها الى احلام ملؤها البذخ ، كما كانت الملاطفات الزوجية تسلمها الى شهوات داعرة !.. ولكم ودت لو ان « شارل » ضربهـا حتى تجد مبرراً لأن تكرهه وتعمل على الانتقام لنفسها منه !.. وكانت تذهل احياناً للخيالات الفظيعة التي كانت تراود خاطرها . ومع ذلك لم يكن هناك بد من ان تستمر في الابتسام ، وان تسمع الادعاء بأنها سعيدة يردد على مسمعها في كل الاوقات، وان تتظاهر بالسعادة ، وتدع سواها يعتقدانها سعيدة !

على انها كانت تشعر باشمئزاز من هذا النفاق . وتملكها اغراء راح يزين لها الفرار الى مكان ما ، مع « ليون » ، لتبدأ حياة جديدة .. ولكن هوة غامضة مفعمة بالظلام ، كانت لا تلبث ان تنشق في اعماقها ، فتذهب تردد لنفسها : « ثم انه – الى جانب هذا – لم يعد يحبني ، فماذا يصيبني ؟.. اي عون يرجى .. اي عزاء .. اية تسرية ؟ » ..

وتخرج من هذا كله محطمة ، لاهثة ، عاجزة ، فتنتحب في صوت خفيض ، ثم تنساب دموعها مدرارة !

وكانت الخادم تسألها اذا اقبلت عليها خلال هذه الازمات : « لم لا تخبرين السيد بهذا ؟ » .. فتجيبها « ايما » : « انها الاعصاب !.. لا تخبريه ، حتى لا تتولاه الهموم »

وتقول « فيليسيتيه » : « آه ، حسن !.. انك مثل « لاجيرين » ابنه الأب « جيران » صياد السمك في (بوليه) — التي كنت اعرفها في (دييب) قبل ان آتي اليكما .. كانت جد حزينة ، مفرطة الحزن ، حتى ليخالها المرء — حين يراها على عتبة دارها — كفناً مبسوطاً امام الباب !.. وكان مرضها على ما يبدو نوعاً من الضباب ينتشر في رأسها . ولم يستطع الاطباء ، ولا القس ، ان يفعلوا شيئاً .. وكانت اذا اشتدت بها نوبات المرض تذهب وحيدة الى شاطىء البحر ، فكان ضابط الجمرك يراها كثيراً — اثناء طوافه — منكفئة على الحصى تبكي . ثم قيل انها شفيت بعد الزواج » !

وتعقب « ايما » قائلة : « اما انا ، فقد بدأ مرضي بعد الزواج » !!

الفصل السادس

بينما كانت « ايما » جالسة الى جوار النافذة المفتوحة ، في احدى الأمسيات ، رأت « ليستيبودوا » — الشماس — يشذب اغصان حديقة القس . ولم تلبث ان سمعت الناقوس يدق معلناً صلاة المساء ..

وكان ذلك في اوائل ابريل ، حين تتفتح البراعم ، وتهب ريح دافئة على احواض الزهور التي تم حرثها منذ عهد قريب .. والحدائق تبدو كالنساء تتزين لأعياد الصيف . ومن بين اعمدة العرائش ، وحولها من كل النواحي ، كان النهر يرى في الحقول ، هائماً بين العشب في انحناءات مرتجلة .. وابخرة المساء تتصاعد بين اشجار الحور المجردة من اوراقها ، فتضفي على اطارها لوناً بنفسجياً ، أشد شحوباً وشفافية من شاش رفيع يعلق بين اغصانها .. وكانت الماشيــة تبدو عن بعد وهي تتحرك دون ان يسمع لها خطو ولا خوار .. والناقوس ماض في رنينه، ناشراً في الهواء شجاه وحزنه الوديع !

وعلى رنين دقاته المتواترة ، هام فكر السيدة الشابة في ذكرياتهــا القديمة ، ايام الشباب والدراسة في الدير . فتذكرت الشمعدانات الضخمة التي كانت تبدو من وراء الأواني المليئة بالازهار فوق المذبح ، والهيكل المقدس ذا الأعمدة الصغيرة .. وتمنت لو انها ظلت كما كانت اذ ذاك ،

تائهة وسط صف الأوشحة البيضاء الذي كانت تتخلله — هنا وهناك — بقع سوداء متناثرة تمثل محارم الراهبات المنحنيات فوق المراكع .. ثم قداسات ايام الأحد ، حين كانت ترفع رأسها اثناء الصلاة فتلمح وجه العذراء العذب ، وسط غلالات الدخان المائلة الى الزرقة ، التي كانت تتصاعد من المباخر !.. اذ ذاك جاشت عواطفها ، فأحست بأنها ضعيفة، مهجورة ، كريشة في مهب العاصفة .. وسعت — دون وعي منها — الى الكنيسة ، توّاقة الى أية فرائض تتاح لها ، كي تذيب روحها فيها .. فيتلاشى الوجود !

والتقت في الميدان المؤدي الى الكنيسة بليستيبودوا عائداً .. فقد كان يؤثر ان يوقف عمله ثم يستأنفه ، بدلاً من ان يتحيف ساعات العمل اليومية .. حتى لقد كان يدق الناقوس لصلاة المساء كما يلائمه .. فضلاً عن ان دقه مبكراً عن موعده كان ينبه الصبية الى موعد درس الدين!

وكان بعض الصبية قد وصلوا فعلاً ، وراحوا يلعبون « البلى » على بلاط المقابر ، ويهزون أرجلهم فيحصدون بأحذيتهم زهور « بنات النار » التي نمت بين السور والمقابر المتاخمة له .. هذا هو المكان الوحيد الذي تشيع فيه الخضرة . اما ما عداه ، فلم يكن سوى احجار يكسوها دوماً غبار ناعم ، رغم مكنسة الشماس ! .. وكان الصبية يعدون في أرجاء المكان بأحذيتهم ذات الأعناق الطويلة ، وكأنه ساحة أعدت لهم، واصواتهم تعلو خلال رنين الناقوس الذي اخذ يخفت رويداً تبعاً لاهتزازات الحبل الطويل الذي كان يتدلى من البرج ، فيتجرر طرفه على الارض.. وأخذت بعض الطيور تحوم ، مرسلة صرخات رفيعة ، وتشق الهواء بحواف اجنحتها ، ثم ترتد في رشاقة الى اعشاشها الصفراء ، تحت قرميد حافة البناء البارزة .. وفي اقصى الكنيسة كان ثمة مصباح يتقد ، او بالأحرى فتيلة في زجاجة معلقة يلوح ضوؤها من بعيد كهالة بيضاء تهتز فوق الزيت .. بينما امتد شعاع طويل من الشمس عبر صحن الكنيسة

كله ، فزاد من ظهور ظلام جانبيها واركانها ..

وسألت مدام « بوفاري » صبياً كان يلهو بهز مزلاج الباب في عروته الواسعة : « اين القس ؟ » .. فأجاب الصبي : « ها هو ذا قـادم » .

وبالفعل ، انبعث صرير من باب مسكن القس . وما لبث الأب « بورنيزيان » أن ظهر ، فهرع الأطفال الى الكنيسة في هرج .. وتمتم القس : « يا لهؤلاء الأوغاد ! .. انهم دائماً على هذه الحال ! » .. ثم التقط نسخة مهلهلة من كتاب الصلوات تعثرت فيها قدمه ، وقال : « انهم لا يحترمون شيئاً ! »

على انه لم يكد يلمح مدام « بوفاري » حتى هتف : « معذرة !.. لم أتبينك ! » .. ودس كتاب الصلوات في جيبه ، ووقف وهو يعبث بمفتاح الهيكل الثقيل يحاول ان يوازنه بين اصبعيه .. وفي ضياء غروب الشمس المنصب على وجهه ، بدا مسوحه الصوفي حائل اللون ، لامعاً عند المرفقين ، بالياً عند الذيل .. وكانت بقع الدسم والتبغ تتناثر على صدره العريض موازية لصف الأزرار الصغيرة ، ثم تتكاثر عند فتحة العنق التي ارتكزت عليها ثنايا من جلد ذقنه الأحمر ، المتهدل ، الذي تناثرت فيه بقع صفراء توارت تحت شعر لحية خشنة وخطها المشيب .. وكان قد فرغ لتوه من تناول العشاء ، فراح يتنفس بصوت مسموع .. وعاد يقول : « كيف حالك ؟ » .

فأجابت « ايما » : « ليست طيبة .. انني مريضة ! » .. ورد القس قائلاً : « وانا كذلك .. ان ايام الحر الأولى هذه تضعف المرء بدرجة عجيبة .. أليست كذلك !.. لكننا على كل حال خلقنا لنتعذب ، كما يقول بولس الرسول . ولكن ، ما رأي السيد بوفاري في مرضك؟»

فبدرت منها حركة ازدراء ، وقالت : « هو ؟! » .. فقال الرجل الطيب وقد اخذته الدهشة : « ماذا ؟ .. أو لم يصف لك دواء ؟ »

فقالت « ايما » : « آه .. ليس الذي احتاج اليه بعلاج دنيوي ! »

ولكن القس كان ينظر من آن الى آخر نحو الكنيسة ، حيث ركع الأطفال واخذوا يتدافعون بالمناكب ، ويتهاوون كرقع من الورق ..

ومضت « ايما » تقول : « اريد ان اعترف ... »

وهنا صاح القس في صوت غاضب : « حذار يا ريبوديه .. لسوف ألهب أذنيك ايها الشيطان ! » .. ثم قال اذ تحـول نحو « ايما » : « انه ابن بوديه النجار .. والداه في يسر ، ولذلك يتركانه يفعـل ما بدا له .. على ان بوسعه ان يتعـلم بسرعة لو انه اراد ، فهو شديد الذكاء .. وكيف حال السيد بوفاري ؟ »

ولاح انها لم تكن تسمعه ، فاستطرد قـائلاً : « لا ريب انه جم المشاغل دائماً .. فهو وانا اكثر الناس عملاً في الأبرشية .. هو طبيب الأجسام » .. ثم أردف وهو يطلق ضحكـة أجشة : « وانـا طبيب الأرواح ! »

وحدّجته « ايما » بعينين ضارعتين وهي تقول : « اجل انك تخفف الأحزان ! »

ــ آه يا مدام بوفاري.. لا تحدثيني عن ذلك ، فقد اضطررت في هذا الصباح الى الذهاب الى (باديوفيل) من اجل بقرة كانت مريضة ، فظنوا انها كانت تحت تأثير الشيطان .. كل ابقارهم هكذا ، وان لم أدرِ لهذا مبرراً ! ولكن ، معذرة .. ثم التفت نحو الصبية وصاح : « لونجمار وبوديه .. هلا كففتما عن هذا ؟ » .. وقفز مسرعاً الى داخل الكنيسة.

وكان الصبية قد تجمعوا حول القمطر الكبير ، وتسلقوا مقعد المنشد، وفتحوا كتاب القداس ، بينما اخذ بعضهم يتسلل خلسة حتى كاد يبلغ جوف « مقصورة الاعتراف » .. ولكن القس انهـال عليهم فجأة بوابل من الصفعات ، ممسكاً بتلابيب ستراتهم ، وأخذ يرفعهم عن الارض

ثم يهبط بهم على ركبهم فوق بلاط ساحة المذبح بشدة ، كما لو كان يريد ان يغرسهم فيها !

وقال حين عاد الى « ايما » وهو ينشر منديله القطني ، ويمسك بأحد اطرافه بين اسنانه : « اجل .. ما أجدر المزارعين بالرثاء ! »..

قالت : وغيرهم ايضاً ! »

– بالتأكيد .. هناك عمال المدن مثلاً .

– لست أقصدهم ...

– عفواً ! .. لقد عرفت بينهم امهات بائسات يعلـن أسرات .. ونساء فاضلات – بل اؤكد لك انهن قديسات فعلاً – لا يجدن الخبز !

فقالت « ايما » وقد اخذ جانبا فمها يختلجان وهي تتكلم : « ولكن اولئك .. اولئك اللاتي يجدن الخبز يا سيدي القس ، لا يجدن ...»

قال : « النار في الشتاء » ؟!

– أواه .. ما قيمة هذا ؟

– ماذا ؟ .. ما قيمته ؟.. يخيل الي انه اذا ما وجد المرء الدفء والغذاء .. اذ .. على كل حال ..

فتنهدت قائلة : « يا إلهي ! يا إلهي ! »

– انك تعانين من عسر هضم ولا ريب .. يجب ان تعـودي الى دارك يا مدام « بوفاري » فتشربي قليلاً من الشاي ، فانه يقويك .. او تناولي كوباً من الماء البـارد الممزوج بمحلول السكر المركز (السكر المعقـود) .

وتساءلت « ايما » وقد بدت كمن يفيق من حلم : « لماذا ؟ »..
فقال : « ذلك لأنك كنت تضعين يدك على جبينك فخيـل إلي انك تشعرين بدوار » .. ثم استدرك قائلاً : « ولكنك كنت تسأليني عن شيء .. فما هو ؟ .. انني لا أذكره »

فرددت « ايما » : « انا ؟ .. لا شيء ! لا شيء ! » . ووقع

بصرها — اذ أجالته ببطء فيما حولها — على مسوح القس .. ثم عاد كل منهما يحدق في الآخر صامتين . وما لبث ان قال في النهاية ، « والآن، معذرة يا مدام بوفاري ، فان الواجب قبل كل شيء ، كما تعلمين ، ولا بد من ان اتولى علاج تلاميذي هؤلاء الذين لا يصلحون لشيء ، فان حفلة « التناول » الاولى قادمة عما قريب ، وأخشى ان تدهمنا ولما نستكمل استعدادنا .. ولذلك استبقيهم ساعة بالاضافة الى الفترة المحددة للدرس في يوم الاربعاء من كل اسبوع ، منذ عيد الصعود ، في مواظبة قاسية .. يا للمساكين ! .. ان المرء لا يملك ان يرشدهم بسرعة كبيرة الى طريق الرب ، كما أوصانا هو بذاته على لسان ابنه القدوس .. لك تمنياتي يا سيدتي بالصحة الجيدة ، ولزوجك احتراماتي ! »

ودلف الى الكنيسة وهو يثني ركبته احتراماً عند البـــاب .. ورأته « ايما » يغيب بين صفي المقاعد ، وهو يسير بخطى ثقيلـــة ، ورأسه مائل على كتفه قليلاً ، ويداه مبسوطتان ، وقد اخرجهما من المسوح .. وما لبثت ان دارت على كعبيها بكل جسمها — قطعة واحدة — كتمثال على قاعدة تدور ، ويممت شطر بيتها . غير ان صوت القس المرتفع ، واصوات الاطفال الصافية ، ظلت تصل الى اذنيها وتلاحقها .. « هل انت مسيحي ؟ » .. « نعم ، انا مسيحي » .. « ومن هو المسيحي ؟ » .. « هو ذلك الذي عمّد .. عمد .. عمد » !

وصعدت درجات السلم متشبثة بالحـــاجز (الدرابزين) ، حتى اذا بلغت حجرتها القت بنفسها في مقعد مريح .. وكان الضوء الشاحب المنساب خلال زجاج النافذة يهبط في تموجات خفيفة .. ولاحت قطع الأثاث في اماكنها اكثر جموداً مما هي عادة ، واشد توارياً في الظلال وكأنهـــا تغوص في بحر من الظلمات .. والمدفأة مطفأة ، والساعة سادرة في دقاتها. وساور « ايما » عجب غامض لهذا الهدوء الذي يسود كل الأشياء ، بينما يفعم جوفها باضطراب صاخب ! .. وفطنت الى ان « برت » الصغيرة

كانت هناك – بين النافذة ومنضدة الحياكة – تتأرجح على حذاءيهـا المنسوجين باليد (تريكو) ، وتحاول ان تسعى الى امها لتمسك بأطراف أشرطة مرولتها .. فقالت وهي تنحيها بيدها : « دعيني وشأني ! »

على ان الصغيرة لم تلبث ان اقتربت من ركبتي امهـا ، فاستندت اليها بذراعيها ، وتطلعت بعينيها الزرقاوين الواسعتين ، وقد انساب من بين شفتيها خيط صغير من اللعاب اخذ يتساقط على مرولتها الحريرية.. فكررت الشابـة في ضيق : « دعيني وحدي ! » .. وأفزع وجهها الطفلة ، فأخذت تصرخ .. ولكزتها الأم بمرفقها قائلة : « هلا تركتني وحيدة ؟ » .. وسقطت « برت » عند قاعدة الصوان ، فشق مقبض الدرج النحاسي خدها ، الذي شرع ينزف دماً . ووثبت مدام «بوفاري» لترفعها ، وقطعت حبل الجرس، فنادت الخادم بأعلى صوتها .. وعندما همت بأن تلعن نفسها ، ظهر « شارل » ، اذ كانت ساعة العشاء قد حانت ، فعاد الى البيت ..

وقالت « ايمـا » في صوت هادىء : « انظر يا عزيزي ! لقد وقعت الصغيرة وهي تلعب ، فجرحت نفسها » .. فطمأنها « شارل » الى ان الامر ليس خطيراً ، وذهب ليحضر بعض الضمادات اللاصقة . (البلاستر) .

ولم تهبط مدام « بوفاري » الى قاعة الطعام ، اذ رغبت في ان تخلو للعناية بالطفلة . واذ اخذت ترقبها وقد نامت ، زايلها رويداً ما أحست به من قلق ، وبدا لها انها كانت غبية وساذجة اذ داخلهـا كل ذلك الانزعاج لأمر بسيط كهذا . فالواقع ان « برت » لم تعد تشهق بنهنهة البكاء ، بل ان انفاسها اخذت ترفع في رفق الغطاء القطني الذي اسبغته عليها امها .. وعلقت قطرات كبيرة من الدموع بأركان اجفانها نصف المغمضة التي كان المرء يلمح بين اهدابها حدقتين شاحبتين ، غائرتين.. والضمادة اللاصقة بخدها تشد جلدها في خط منحرف . وعبر خاطر ببال

« ايما » ، فقالت لنفسها : « يا عجباً ! .. ما أقبح هذه الطفلة ! »

وعندما عاد « شارل » في الساعة الحادية عشرة من الصيدليـــة ـ حيث كان قد ذهب بعد العشاء ليرد ما تبقى من الضمادة اللاصقة ـ وجد زوجته وهي تقف الى جوار المهد ، فقال وهو يقبل جبينها : « قلت لك انها اصابة تافهة ، فلا تنزعجي يا حبيبتي المسكينة ، والا اسلمت نفسك للمرض » .. وكان قد مكث طويـــلاً في بيت الصيدلي ، اذ جهد « هوميه » في التسرية عنه وتقوية روحه المعنوية ، رغم انه لم يبد كثيراً من القلق والتأثر .. ثم أخذوا يتحدثون عن الأخطار العديدة التي يتعرض لها الأطفال ، وعن اهمال الخدم . وكانت مدام « هوميه » على دراية بشيء من هذا ، اذ كان صدرها لا يزال يحتفظ بآثار وعاء مليء بالحساء الساخن ، اسقطته طاهية على صدر مرولتها فيما مضى ، فتجشم ابواها من اجلها متاعب لمـــا تكد تنتهي ! ومن ثم اصبحت السكاكين ـ في منزل الصيدلي ـ لا تشحذ قط ، والارض لا تدهن بالشمع ، وأقيمت قضبان على النوافذ ، وقضبان اخرى متينة من الحديد امام المدفأة .. وكذلك اصبح ابناء « هوميه » لا يكـــادون ـ رغم حريتهم ـ يتحركون دون رقيب يرعاهم . وكان ابوهم « يحشوهم » بأدوية الصدر عند أتفه اصابة بالبرد .. كما كانوا ـ حتى سن الرابعة ـ يقسرون في غير اشفاق على ارتداء طاقيات من الوبر .. وكان هذا تطرفاً من مدام « هوميه » في الواقع ، مما كان يبعث في نفس زوجها قلقاً ، اذ كان يخشى آثار مثل هذا الضغط على اجهزة الرأس ، حتى لقد كان يقول لها احياناً : (اتريدين ان تجعلي منهم فرقة من الهنود الحمر او من قبائل حوض البحر الكاريبي ؟!)

وحاول « شارل » ان يقطع الحديث اكثر من مرة ، فهمس في اذن الكاتب : « اود ان اتحدث اليك في امر » .. فتقدمـــه الكاتب صاعداً السلم وهو يسائل نفسه : (أتراه قد حدس شيئاً ؟) .. واخذ

قلبه يخفق ، وراح يرهق ذهنه بالافتراضات .. واخيراً ، رجاه «شارل» — بعد ان اغلق الباب — ان يسأل بنفسه في (روان) عن ثمن صورة فوتوغرافية بديعة ، اذ كان يود ان يعد لزوجته مفاجأة عاطفية .. لفتة رقيقة تتمثل في صورة له وهو يرتدي الحلة السوداء . ولكنه اراد اولاً ان يعرف كم تتكلف .. وما كان السؤال ليضايق السيد « ليون » في شيء ، اذ كان يذهب الى المدينة في كل اسبوع تقريباً .

ولكن .. لماذا « ليون » بالذات ؟! .. حدس السيد « هوميه » ان وراء المسافة مغامرة من مغامرات الشباب .. او مؤامرة ! .. ولكنه كان مخطئاً ، اذ ان السيد « ليون » لم يكن يسعى الى غرام .. بل انه كان اكثر اكتئاباً منه في أي وقت مضى ، كما لمست ذلك مدام «لوفرانسوا» من كمية الطعام التي اصبح يتركها في طبقه . وقد سألت محصل الضرائب علّه يزيدها علماً وايضاحاً ، ولكن « بينيه » اجابها في جفاء بأنه «لا يعمل في البوليس » !

ومع ذلك ، فقد لاح له زميله في حال جد غريبة ، اذ كثيراً ما كان « ليون » ينطرح في مقعده ، ويمد ذراعيه ، ويشكو من الحياة في اسلوب غامض ! .. وقد قال له المحصل : « انما يرجع ذلك الى انك لا تحصل على نصيب كاف من الراحة والتسلية » ..

— أية تسلية ؟

— لو كنت في مكانك لهويت العمل بالمخرطة ..

قال الكاتب : « ولكني لا اعرف كيف أديرها » .. فرد الآخر وهو يحك ذقنه في مزيج من الترفع والرضى : « آه .. هذا صحيح ! »

* * *

كان « ليون » قد برم بالحب الذي لا غاية له ، ثم بدأ يشعر بذلك الضيق الذي يسببه مضي الحياة على وتيرة واحدة متكررة ، دون

ما هدف يوجهها ، او امل يعززها . واشتد به الملل من « ايونفيل » وأهلها ، حتى اصبحت رؤيته بعض الأشخـاص والبيوت ، تثيره الى درجة لم يعد يحتملها ! .. وقد كان الصيدلي رجـلاً طيباً ، الا انه اصبح لا يطيقه البتة .. ومع ذلك فان التفكير في نوع جديد من الحياة كان يفزعه بقدر ما كان يستهويه ! .. وتحـولت هذه الهواجس بعد قليل الى نفاد صبر ، واذ ذاك اخذت باريس تناديه – على البعد – بضجيج حفلاتها الراقصة الصاخبة ، وضحكات عاملاتها اللعوبات ! .. واذ كان لا بد من ان يتم دراسته القانونية هناك ، فلماذا لا يرحل اليها لتوه ؟ .. وما الذي يمنعه ؟ .. وشرع يعد متاعه ، ودبر اعماله مقدماً، واثث في خياله مسكناً يعيش فيه حياة فنان .. فيتلقى دروسه في العزف على « الجيتار » ، ويقتني « روب دي شامبر » ، وقلنسوة على غرار قلنسوات اهل (الباسك) ، وخفين من المخمل الأزرق ! .. بل انه بدأ يتصور في اعجاب سيفين متقاطعين فوق مدفأة مسكنه وفوقهما «جيتار» تعلوها جمجمة !

وكانت العقبة تنحصر في الفوز بموافقة امه .. على انه لم ير ما هو احكم من هذا التدبير .. بل ان رئيسه نفسه نصحه بأن يلتحق بمكتب آخر يستطيع فيه ان يحرز تقدماً سريعاً في مرانه ودراسته . واذ ذاك ، انتهج « ليون » طريقاً وسطاً ، فأخذ يبحث عن مكتب في (روان) يقبله ككاتب ثان ، فلما لم يجد ، كتب الى امه في النهاية خطاباً طويلاً مسهباً شرح فيه اسباب مبادرته للرحيل الى باريس والاقـامة فيها .. فوافقت ! .. على انه لم يتعجل .. وظل « هيفير » شهراً بأكمله يحمل معه كل يوم من (ايونفيـل) الى (روان) ، ومن (روان) الى (ايونفيل) صناديق ، وحقائب ، وحزماً .. حتى اذا أعد « ليون » ثيابه ، وجدد حشو مقاعده المريحة الثلاثة ، واشترى عدداً من ربطات العنق ، وقام – بالاختصار ! – باستعدادات تفوق ما يلزم لرحلة حول

العالم ، أخذ يرجىء سفره من اسبوع الى آخر ، حتى تلقى من امه خطاباً ثانياً تستحثه فيه على الرحيل ما دام قد اعتزم ان يتقدم للامتحان قبل موسم العطلات .

وعندما حانت ساعة الوداع ، بكت مدام « هوميه » ، وانتحب « جوستان » ، واخفى « هوميه » تأثره – كرجل قوي الأعصاب ! – ورغب في ان يحمل بنفسه معطف صديقه حتى باب مكتب الموثق الذي كان سيقل « ليون » في عربته الى (روان) . ولم يتبق لليون سوى لحظات يودع فيها السيد « بوفاري » . فلما بلغ قمة السلم ، توقف وقد تتابعت انفاسه لاهثة .. واذ دلف الى المكان ، نهضت مدام « بوفاري» في عجلة ، فقال ليون : « ها انذا مرة اخرى » .. فقالت : « كنت متأكدة من هذا » .. وعضت شفتيها ، واندفع فيض من الدماء خلال بشرتها فاصطبغت – من منابت شعرها حتى طوق ثوبها – بالحمرة . وظلت واقفة ، مستندة بكتفها الى الخشب الذي كان يكسو الجدار .. بينما مضى متسائلاً : « هل الطبيب هنا ؟ » .. فأجابت : « انه في الخارج.. في الخارج ! » .. ثم سادهما صمت .. واخذ كل منهما يرمق الآخر ، وقد رزحت افكارهما تحت ألم واحد ، متعانقة كصدرين ينبضان .. ثم قال « ليون » : « اود ان اقبل برت » .. فهبطت « ايما » بضع درجات ونادت « فيليسيتيه » .. وألقى نظرة طويلة على ما حوله من جدران ، وزخارف ، ومدفأة ، وكأنه ينفذ خلال كل شيء ! .. وعادت الخادم تحمل « برت » وهي تهز طاحونة هواء صغيرة مقلوبة رأساً على عقب ومعلقة في خيط . وطبع « ليون » عدة قبلات على عنقها وغمغم : « في رعاية الله ايتها الطفلة المسكينة ! .. استودعك الله ايتها الصغيرة الحبيبة ! .. وداعاً ! » .. ثم ردها الى امها ، فقالت للخادم: « اخرجي بها » .. وبقيا وحيدين ، وقد أولته مدام « بوفاري » ظهرها ، وألصقت وجهها بزجاج النافذة .. بينما أمسك « ليون » بقلنسوته

يضرب بها فخذه برفق ..

وقالت « ايما » : « السماء ستمطر ! » .. فأجاب : « لدي معطف » .. قالت : « آه » .. ثم استدارت ، وقد خفضت ذقنها، فبرز جبينها ، وسقط عليه الضوء – كما يسقط على قطعة من مرمر – فانحدر حتى حاجبيها ، دون ان يملك المرء ان يحدس ما كانت « ايما » تراه عند الأفق ، ولا ما كان يجول في سريرتها .. وما لبث « ليون » ان تنهد قائلاً : « والآن .. وداعاً ! » .. فرفعت « ايما » رأسها بحركة سريعة وقالت : « اجل ، وداعاً .. اذهب ! » .. وتقدم كل منهما نحو الآخر ، ومد يده ، ولكنها ترددت .. ثم قالت وهي تسلمه يدها ، وتغتصب ضحكة : « فليكن على الطريقة الانجليزية اذن ! » .. وتحسس « ليون » راحتها بين اصابعه ، ولاح له ان روح كيانه كله قد انسابت الى يدها الرطبة .. ثم فتح يده ، وتلاقت أعينهما مرة أخرى .. ثم اختفى ! .. حتى اذا بلغ السوق ، انحرف متوارياً خلف عامود ، وتزود بنظرة اخيرة من البيت الأبيض ذي النوافذ الخضراء .. وخيل اليه انه رأى طيفاً خلف نافذة حجرة « ايما » ، ولكن الستارة انسابت على مشجبها ، وكأن شخصاً أخذ يزحزحها ، فراحت تنسدل رويداً ناشرة ثنياتها الطويلة المائلة ، ثم انبسطت كلها امام النافذة، وظلت مسدلة في استقامة ودون ما حراك ، كجدار من الجص !

وانطلق « ليون » يعدو .. ورأى عن بعد عربة رئيسه على الطريق، والى جوارها رجل في مرولة سميكة ، يمسك بالجواد .. وكان « هوميه » والسيد « جويومان » يتحدثان .. ربما يصل ! .. وقال له الصيدلي والدموع ترقرق في عينيه : « قبلني ! .. هاك معطفك يا صديقي العزيز .. خذ حذرك من البرد ، واحترس لنفسك .. اعتن بنفسك ! » . وقال موثق العقود : « هيا يا ليون .. اصعد ! » .. وانحنى «هوميه» على « رفرف » العربة ، ونطق بهاتين الكلمتين الحزينتين بصوت يقطعه

النشيج : « رحلة سارة ! » .. فأجابه السيد « جويومان » : « عم مساء ! » .

وتحركت العربة .. وقفل « هوميه » عائداً .

* * *

كانت مدام « بوفاري » قد فتحت النافذة المطلة على الحديقة واخذت ترقب السحب ، فاذا هي تتجمع حول الشمس الغاربة في اتجاه (روان) ، ثم تطوي بسرعة ذيولها السوداء ، فتندفع من ورائهـا خيوط الشمس الطويلة كأنها سهام من ذهب في درع معلقة ، بينما كـانت بقية السماء خالية ، بيضاء كالخزف .. على ان الريح لم تلبث ان هبت فأحنت هامات شجر الحور ، ثم سقط المطر فجأة ، وأخذت قطراتـه ترتطم بالورق الأخضر في صوت مسموع .. ثم عادت الشمس الى البزوغ ، فانبعث صوت الدجاج ، وأخذت الطيور تنفض اجنحتها وسط الاعشاب الكثيفة المخضلة ، وحملت المياه معهـا وهي تنحدر على الحصباء زهور اللبخ الوردية ..

وحدثت « ايما » نفسها قائلة : « آه !.. ما أبعد المسافة التي يكون ولا بد قد قطعها الآن ! »

وجاء السيد « هوميه » في منتصف السابعة ، أثناء تناول العشاء – كعادته – وقال : « لقد ودعنا صديقنا الشاب ! » .. فقال الطبيب: « علمت بذلك » .. ثم دار في مقعده وقـال : « هل من انباء عن الاسرة ؟ » .

– لا شيء يستحق الذكر ، اللهم الا ان زوجتي كانت متأثرة بعد ظهر اليوم .. انت تعرف النساء .. يتأثرن لأتفه الأمـور ، ولا سيما زوجتي .. ونخطىء لو اننا عارضنا ذلك ، اذ ان جهازهن العصبي أرق من جهازنا !

وقال شارل : « مسكين ليون !.. ترى كيف سيعيش في باريس ؟.. وهل يألفها ؟ » .. فتنهدت مدام « بوفـاري » .. وطقطق الصيدلي بلسانه قائلاً : « يألفها ! .. حفلات العشاء في المطاعم ، والمراقص التنكرية والشمبانيا .. اؤكد لك ان كل هذا سيحلو له ! » .. فاعترض « بوفاري » قائلاً : « ما اظنه سينـزلق الى الفساد » .. فأسرع السيد « هوميه » قائلاً : « ولا انا .. وان كـان سيضطر الى ان يجاري الآخرين خشية ان يظنوه من « الجيزويت » ! .. وما اراك تعرف أية حياة يمارسها اولئك « الكلاب » من شباب الحي اللاتيني مع الممثلات.. ثم ان الطلبة يحظون بنظرة طيبة في باريس ، ويكفي ان يظهروا بعض المواهب حتى يقبلهم القوم في خير المجتمعات .. بـل ان من سيدات الحي «سان جيرمان» من يتدلهن في هواهم ، فيتحن لهم الفرص لزيجات طيبة جداً » !

قال الطبيب : « ولكني أخشى عليه .. هناك .. » ، فقاطعه الصيدلي قائلاً : « اصبت .. هذا هو الجانب الآخر للموضوع . فالمرء هنـاك مضطر الى ان يبقي يده فوق جيبه .. انك قد تكون في حديقة عامة مثلاً – فيتقدم اليك شخص حسن الهندام – وربما كان يحلي صدره بوسام حتى ليحسبه المرء من رجال السلك الديبلوماسي – ويستدرجك ، ويتلطف معك ، ويقدم اليك قبضة من سعوط ، او يلتقط قبعتك اذا وقعت ، ثم يزداد وداً فيصحبك الى مقهى ، ويدعوك الى منزله الريفي.. وبين كأسين من النبيذ يقدمك الى كافة انواع النـاس . وفي ثلاث ارباع الحالات لا يكون ذلك الا لينشل ساعتك ، او ليورطك في مأزق خبيث ! » .. فقال « شارل » : هذا صحيح ! .. على انني كنت افكر بوجه خاص في الامراض .. حمى التيفوئيد مثلاً ، التي تصيب الطلبة الوافدين من الريف » !

وارتعدت « ايما » .. بينما قال الصيدلي : « هذا راجع الى تغيير

نظام الأكل ، وما يترتب عليه من اضطراب في الجهاز كله .. ثم ، هناك ماء باريس ، ألم تسمع عنه ؟ .. وكل تلك الاطعمة التي تقدم في المطاعم .. كل تلك الأغذية الكثيرة التوابل ، التي تنتهي الى اشاعة الحرارة في الدم ، وهي لا تعادل — مهما قال الناس عنها — حساء طيباً ! .. لقد اعتدت — شخصياً — ان افضل الطعام البسيط دائماً ، فهو اكثر فائدة من سواه . لذلك اقمت — حين كنت أدرس الصيدلة في (روان) — في نزل خاص « بنسيون » ، وكنت اتناول طعامي مع الاساتذة »

وهكذا استمر بعرض آراءه ، وميوله الشخصية ، حتى اقبل « جوستان » يدعوه .. فصاح : « اما من لحظة راحة ؟ .. دائماً أراني مشدوداً الى الصيدلية والعمل !.. أو استطيع ان اخرج دقيقة ؟.. هل اظل أكد وأكدح كالحصان المشدود الى المحراث ؟ .. يا لها من عبودية ! » .. حتى اذا بلغ الباب ، التفت قائلاً : « بهذه المناسبة ، هل عرفتما النبأ ؟ »

— أي نبأ ؟

أجاب « هوميه » رافعاً حاجبيه ، متخذاً اكثر مظاهره جدية : من المحتمل جداً ان الاجتماع الزراعي — الذي كان يعقد عادة في مقاطعة السين السفلى — سيعقد هذا العام في (ايونفيل) .. هذه هي الشائعة المنتشرة . وقد اشارت اليها الصحيفة في هذا الصباح . وسيكون هذا امراً بالغ الأهمية لمنطقتنا . على اننا سنتحدث عن هذا فيما بعد .. شكراً ، اني ارى طريقي ، فان « جوستان » يحمل المصباح » .

الفصل السابع

كان اليوم التالي حزيناً بالنسبة لايما ، اذ لاح لها كل شيء ملتفاً في جو اسود يطفو في اضطراب حائر على اسطح الاشياء ومظاهرها .. واخذ الأسى .يغوص في اعماق نفسها في عواء واهن كالذي تبعثه رياح الشتاء في القلاع الخربة !.. كان ذلك صدى لمثل ذلك التفكير الحالم الحزين الذي نخلعه على الاشياء التي لا رجعة لها ، او الكلل الذي يعتريك بعد الجهد المبذول ، او الألم الذي يسببه جمود حركة معتادة سادرة ؛ او التوقف الفجائي لأي اهتزاز طال به الأمد !

وكما حدث عند العودة من (فوبيسار) – حين كانت الرقصات تدور في رأسها – اعترتها كآبة قاتمة ، وقنوط خدر نفسها .. وعاودها طيف « ليون » اطول قامة ، وأكثر ملاحة ، وفتنة ، وغموضاً .. فهو لم يفارقها ، وان كان قد انفصل عنها .. كان هناك ، وكأن جدران البيت ما زالت تحتفظ بشبحه !.. ولم تكن تملك ان تحول بصرها عن البساط الذي سار عليه ، ولا عن تلك المقاعد الخاوية التي كان يجلس عليها .. ولقد ظل النهر ينساب ، ويدفع في بطء موجاته الصغيرة على طول الضفاف الزلقة .. كم من مرة سارا هناك على الحصباء المكسوة بالطحالب ، يرافقهما خرير الأمواج ؟!.. ما كان اشد تألق الشمس اذ ذاك !.. اية اصائل

هانئة شهداها وحدهما في الظل عند نهاية الحديقة !.. كان يقرأ لها بصوت مرتفع ، وهو عاري الرأس ، وقد جلس فوق مقعد من الأغصان الجافة ، وريح المروج الرقيقة تهز صفحات الكتاب وأزهار الخميلة .. اواه !.. لقد ذهب !.. فتنة حياتها ، والأمل الوحيد في السعادة المحتملة !.. لِمَ لم تقتنص تلك السعادة حين واتتها ؟.. لم لم تتشبث بها بكلتا يديها ، وكلتا ركبتيها ، حين همت بأن تفر منها ؟!.. وأخذت تلعن نفسها لأنها لم تحب « ليون » .. لشد ما كانت ظامئة الى شفتيه !.. واستولت عليها الرغبة في ان تفر وراءه وتلحق به ، فتلقي بنفسها بين ذراعيه وتقول له : « ها انذى !.. انني لك ! » .. ولكنها ما لبثت ان تقاعست إزاء صعوبات المغامرة ، ولم تزدد شهواتها — التي ضاعفها الندم — إلا ضراوة !

* * *

ومنذ ذلك الحين غدت ذكرى « ليون » محوراً لسأمها .. كانت تشتعل هناك ، في ازيز يفوق ازيز نار خلفها المسافرون فوق الجليد ، في سهول المراعي الروسية !.. وكانت تقفز نحوه ، وتلتصق به ، وتحرك في عناء النار المحتضرة وتبحث في كل ما حولها عن شيء يذكيها !.. وجمعت ابعد الذكريات ، وأقرب المناسبات ، وما خبرته ، وما تخيلته ، وشهواتها العربيدة التي لم تحظ بالاشباع ، ومشروعات السعادة التي تكسرت في الرياح كما تتكسر الأغصان الذاوية ، وفضيلتها العقيم ، وآمالها المبددة ، والألفة المنزلية .. كل هذا جمعته — دون ان تفعل شيئاً — ثم اتخذته وقوداً لشجونها !

على ان اللهب لم يلبث ان خمد ، اما لأن الوقود قد نفد ، او لأنه تراكم اكثر مما ينبغي ، وشيئاً فشيئاً ، اخذ الحب يخمد بسبب الفراق ، والندم يختنق بحكم الاعتياد ، ووهج الحريق الذي اشاع في سمائها الشاحبة

لوناً قرمزياً يخبو رويداً !.. وفي غفلة ضميرها ، ظنت ان اشمئزازها من زوجها ان هو الا تلهف لحبيبها !.. بيد ان العاصفة ظات هوجاء .. حتّى اذا احترقت الشهوة فصارت رماداً ، دون ان تلتقي عوناً ، ودون ان تشرق شمس ، اطبق الليل على المسكينة من كل جانب ، وضلت في البرد الفظيع الذي كان يخترقها .. ثم عاودتها ذكرى ايام (توست) البغيضة .. وأصبحت ترى نفسها اكثر تعاسة ، اذ كانت قد خبرت الحزن ، فأيقنت انه لن ينتهي !

وان امرأة تفرض على نفسها مثل هذه التضحيات ، لخليقة بأن تسمح لنفسها ببعض النزوات !.. وبالفعل ، ابتاعت « ايما » مقعداً قوطياً للصلاة ، وانفقت خلال شهر واحد اربعة عشر فرنكاً في شراء ليمون لتنظيف اظافرها ، وكتبت الى (روان) في طلب ثوب من الكشمير الازرق ، واختارت شالاً من ابدع شيلان « لوريه » ، واعتادت ان تعقده حول خصرها على الثوب الكشمير ، ثم تغلق النوافذ ، وتستلقي في هذا الزي على اريكة ، وفي يدها كتاب !.. وكثيراً ما اخذت تبدل طريقة تصفيف شعرها ، فأحياناً تصففه على الطريقة الصينية ، او ترسله في خصلات رخوة تجدلها في ضفائر ، او تفرقه على جانب الرأس مقصوصاً من اسفل كما يفعل الرجال !

وارادت ان تتعلم الايطالية فابتاعت معاجم وكتاباً في النحو ، وكمية من الورق الأبيض .. وجربت القراءة الجدية في التاريخ والفلسفة .. وكان « شارل » يستيقظ مجفلاً اثناء الليل احياناً ، ظاناً ان احداً يناديه لاسعاف مريض ، فيغمغم : « ها انذا قادم ! » ، ثم يفطن الى ان ما سمع لم يكن سوى صوت عود من ثقاب اشعلته « ايما » لتوقد المصباح !.. ولكن قراءاتها لم تكن اسعد حظاً من تطريزها .. كلها لم تحظ بأكثر من الخيوط الأولى ، ثم كانت تلقي بها في الصوان ، وتشرع في تطريز غيرها ، لتلقي بها بدورها .. وهكذا لم تكن تشرع في قراءة كتاب حتى تطرحه

جانباً وتتناول سواه !

وكانت تتولاها نوبات من السهل ان تنساق خلالها الى ارتكاب اية حماقة .. فقد تحدث زوجها يوماً بأنها تستطيع ان تشرب كأساً كبيرة من « البراندي » . واذ كان « شارل » من الحمق بحيث قبل هذا التحدي ، فقد ازدردت ما كان في الكأس حتى آخر قطرة !.. وبالرغم من تصرفاتها النزقة – كما كانت ربات البيوت في (ايونفيل) يصفنها – فان « ايما » لم تكن قط مرحة ، بل كان يحف بجانبي فمها عادة ذلك التقلص الجامد الذي ينتـــاب وجوه العوانس ، والرجال ذوي الطموح الخائب !.. واشتد بها الشحوب حتى غدت كالثوب الابيض ، وأصبح جلد انفها مشدوداً عند الفتحتين ، وغدت عيناها ترنوان اليك بنظرات مبهمة ، وراحت تكثر من الحديث عن شيخوختها ، بعد ان اكتشفت ثلاث شعرات بيضاء في مفرقها !

وكثيراً ما كانت تصاب بالاغماء ، حتى بصقت دماً ذات يوم . وعندما اخذ « شارل » يروح ويجيء حولها في اهتمام ينم عن قلق ، قالت له : « آه !.. وما اهمية هذا ؟ » .. فاسرع « شارل » الى مكتبه وانخرط في البكاء ، وقد اتكأ بمرفقيه على مكتبه وهو جالس في مقعده تحت صورة الجهاز العصبي .. ثم كتب لأمه يسألها ان تحضر ، وراحا يعقدان معاً الأحاديث الطويلة ، ويتبادلان الرأي بشأن « ايما » .. ما الذي ينبغي ان يتخذاه ؟.. ما الذي ينبغي فعله ما دامت ترفض كل علاج طبي ؟.. وقالت مدام « بوفاري » الأم : « افتعرف ما الذي يلزم لزوجتك ؟.. انها تحتاج الى ان تنهمك في عمل يدوي يشغلها .. ولو انها كانت مضطرة – ككثيرات غيرها – الى كسب عيشها ، لما راودتها هذه الأوهام التي تواتيها من كثير من الأفكار التي تحشد بها رأسها ، ومن البطالة التي تعيش فيها » .. فقال « شارل » : « ولكنها دائماً مشغولة » ..

– آه ، حقاً .. مشغولة بماذا ؟.. قراءة الروايات، والكتب الرديئة ،

والمؤلفات الموضوعة ضد الدين ، والتي يسخر مؤلفوها من القسس بأقوال مقتبسة عن « فولتير » ؟.. كل هذا يشتت العقل يا بني المسكين !.. اي انسان بلا دين لا بد ان ينتهي اسوأ نهاية !

ومن ثم استقر الرأي على منع « ايما » من قراءة الروايات .. ولم يكن الأمر هيناً ، ولكن السيدة تعهدت بالأمر ، فرؤي ان تذهب بنفسها الى متعهد الكتب — عند مرورها بروان — فتخبره بأن « ايما » اوقفت اشتراكها .. ترى ، أليس لها الحق في ان يلجأ الى البوليس اذا اصر صاحب المكتبة — رغم ذلك — على المضي في تجارته التي تسمم العقول ؟!

وكان الوداع بين الحماة وزوجة ابنها فاتراً .. لم تكونا خلال الأسابيع الثلاثة التي قضتاها معاً قد تبادلتا ست كلمات ، فوق الأسئلة والعبارات التي كانتا تتبادلانها على المائدة ، وقبل اللجوء الى الفراش بالليل .. ثم رحلت مدام « بوفاري » الكبيرة في احد ايام الاربعاء ، التي تعقد فيها سوق (ايونفيل) .. وكان الميدان منذ الصباح قد اكتظ بصف من العربات التي امتدت بمحاذاة المنازل من الكنيسة الى الفندق ، وقد ارتكزت على مؤخراتها ، وارتفعت اذرعها في الهواء .. وعلى الجانب الآخر ، كانت ثمة خيام تباع فيها الاقمشة القطنية والأغطية ، وجوارب الصوف مع سروج الخيل ، ولفائف الأشرطة الزرقاء التي تتطاير اطرافها مع الريح .. وكانت قطع الحديد الخردة منتشرة بين البيض المنسق على شكل اهرامات ، وأقراص الجبن التي يبرز منها قش لزج .. والى جوار آلات درس القمح ، كان الدجاج ينقنق في اقفصة منخفضة وهو يمد رقابه خلال القضبان .. والجمهور متجمع في مكان واحد ، لا يبغى عنه انتقالاً ، حتى لقد كان يوشك احياناً ان يهشم واجهة الصيدلية التي كانت لا تخلو ابداً في ايام الاربعاء من الذين كانوا يقبلون طلباً للمشورة الطبية اكثر منهم لشراء ادوية ، نظراً لما كان للسيد « هوميه » من صيت ذائع في القرى المجاورة ، حيث فتن الريفيون بقوة اعتداده بنفسه ، فكانوا

يعتبرونه اعظم الأطباء طرا !

وكانت « ايما » تتكىء على حافة النافذة ، على نحو ما كانت تفعل في كثير من الأحيان .. فالنافذة تحل في الريف محل المسرح والنزهة .. وفيما هي تتسلى بمشاهدة حشد من الاجلاف ، رأت سيداً في « ردنجوت » من المخمل الأخضر ، وفي يديه قفازان اصفران ، وقد غطى حذاءيه بزوج من « جيتر » سميك .. وكان يسعى نحو منزل الطبيب ، يتبعــه فلاح يسير مطاطىء الرأس ، بادي الاستغراق في التفكير .. وقال الرجل يسأل « جوستان » — الذي كان يتحدث الى « فيليسيتيه » عند درجات المدخل — وقد ظنه خادماً في المنزل : « هل استطيع ان اقابل الطبيب ؟.. قل له ان السيد « رودولف بولانجيه » من (لاهوشيت) هنا » .. وما قرن اسمه بـ « لاهوشيت » من قبيل النعرة الاقليمية ، وانما زيادة التعريف بنفسه .. والواقع ان (لاهوشيت) كانت ضيعة على مقربة من (ايونفيل) ، ابتاع السيد « رودولف » قصرها ، ومزرعتين منها يستطيع ان يزرعهما بنفسه ، ولكن دون ان يجشم نفسه كثير عناء . وكان يعيش اعزب .. وقيل ان دخله بلغ « خمسة عشر الفاً من الفرنكات في العام ، على الأقل » !

واقبل « شارل » على الغرفة ، فقدم اليه السيد « بولانجيه » رفيقه الذي كان يريد ان يفصد لأنه كان يحس « بتنميــل يسري في كل جسمه » !.. وقال الرجل يعارض كل حجة : « لسوف يطهرني هذا ».. ومن ثم امر « بوفاري » بضمادة ووعاء سأل « جوستان » ان يمسكه له ، ثم قال للفلاح الذي شحب لونه : « لا تخف يا بني ! » .. فقال الآخر : « لا .. لا ، يا سيدي .. هيا » .. وفي تظاهر بالجرأة ، مد ذراعــه الضخمة .. وبوخزة من المبضع ، انبثق الدم ماطخــاً المرآة ، فهتف شارل : « قرب الوعاء » .. بينما قال الفلاح : « يا الهي !.. ان المرء ليحسبها نافورة صغيرة .. ما اشد حمرة دمي !.. انها دلالة طيبة .. أليست كذلك ؟! »

فقال الطبيب : « ان المرء لا يشعر بشيء في البداية — احياناً — ثم يواتيه الاغماء فيما بعد ، لا سيما ذوي البنية القوية كهذا الرجل ! » .. وعند هذه الكلمات ، افلت الفلاح الكيس الذي كان يعبث به بين اصابعه .. وطقطق ظهر المقعد اذ سرت في كتفيه رعدة .. وسقطت قبعته ، فقال « بوفاري » وهو يضغط الوريد باصبعه : « لقد توقعت هذا » .. وأخذ الوعاء يهتز بين يدي « جوستان » ، وارتجفت ركبتاه ، وشحب لونه ، فنادى شارل : « اما !.. اما ! » ، وهبطت السلم في وثبة واحدة ، فصاح : « بعض الخل .. يا الهي !.. اثنان في وقت واحد » .. وتعذر عليه — لفرط انفعاله — ان يضع الكمادة !

وقال السيد « بولانجيه » في هدوء وهو يمسك بذراع « جوستان » ويجلسه على المائدة وظهره الى الحائط : « ما هذا بشيء ! » .. وراحت مدام « بوفاري » تخلـــع عنه رباط رقبته .. وانعقد الشريط الذي يضم فتحة قيصه ، فظلت دقائق تحرك اصابعها الرقيقة حول عنق الفتى ، ثم سكبت بعض الخل على منديلها « البانيسته » ، ورطبت صدغيه بلمسات خفيفة وراحت تنفخ فيهما برفق .. وما لبث الفلاح ان أفاق ، ولكن اغماء « جوستان » طال ، واختفت حدقتاه في بياض عينيه كما تغيب الزهور الزرقاء في اللبن .. فقال شارل : « يجب ان نخفي هذا عنه » ، فتناولت مدام « بوفاري » الوعاء لتضعه تحت المائدة .. واذ تحركت منحنية ، انتشر حولها — على بلاط الغرفـــة — ثوبها . وكان ثوباً صيفياً اصفر ، ذا اربعة « كرانيش » وخصر طويل وذيل واسع .. وترنحت « اما » قليلاً وهي منحنية فبسطت ذراعيها ، فالتف القماش حول صدرها ، مبيناً قسماته .. ثم ذهبت لتحضر ابريق ماء ، وفيما كانت تذيب بعض قطع السكر فيه ، وصل الصيدلي ، وكانت الخادم قد ذهبت في غمرة الارتباك لإستدعائه ، وما ان رأى عيني تلميذه تحملقان ، حتى تنفس الصعداء ، ثم ذهب اليه فحدق فيه من رأسه الى قدمه وقال : « مغفل !.. مغفل كبير !..

مغفل بالثلث !.. كأني بالحجامة عملية خطيرة ، أليس كذلك ؟!.. افهكذا يتحول الصنديد الذي لا يخشى شيئاً الى سنجاب من النوع الذي يتسلق الى ارتفاعات شاهقة ليسقط بعض البندق !.. اي نعم ، تكلم واطنب مزهواً في مدح نفسك !.. يا لها من استعدادات طيبة لممارسة الصيدلة فيما بعد !.. انك قد تستدعى في ظروف خطيره الى المحاكم لتنير اذهـــان القضاة ، واذ ذاك يتحتم عليك ان تحتفظ برباطة جأشك وقوة حجتك ، وان تظهر بمظهر الرجل .. والا كنت ابله ! »

ولم يجب « جوستان » ، فاستطرد الصيدلي : « من سألك ان تحضر ؟ انك لتثقل دائماً على السيد والسيدة ، فضلاً عن انني لا استغني عنك في ايام الاربعاء ، ففي الحانوت الآن عشرون شخصاً ، وقد تركت كل شيء وحضرت نظراً لاهتمامي بأمرك ، فهيـــا ، انهض .. اسرع !.. عجل !.. انتظرني هناك ، وانتبه للقوارير » .. وما ان انصرف « جوستان » – بعد ان سوى ثيابه – حتى اخذوا يتحدثون بعض الوقت عن نوبات الاغماء ، فزعمت مدام « بوفاري » انها لم تفقد قط وعيها .. فقال السيد « بولانجيه » : « هذا عجيب بالنسبة لسيدة !.. على ان بعض الناس شديد الحساسية ، فقد رأيت – في احدى المبارزات – شاهداً يفقد وعيه بمجرد سماعه صوت حشو المسدسات ! »

وقال الصيدلي : « ان مرأى دماء الغير لا تؤثر في – شخصياً – على الاطلاق ، ولكن مجرد التفكير في ان دمي يسيل كاف لأن يفقدني الوعي .. لو تماديت في التفكير ! » .. وعندئذ سرح السيد « بولانجيه » خادمه « موصياً اياه بأن يهدىء من جأشه بعد ان تخلص من وهمه . » ثم اضاف : « انه قد اتاح لي فرصة التعرف بكم » .. ونظر نحو « ايما » اذ قال ذلك ، ثم وضع ثلاثة فرنكات على ركن من المائدة ، وانحنى في غير اكتراث ، وانصرف . وسرعان ما كان منطلقاً على الضفة الأخرى للنهر ، في طريقه الى (لاهاشيت) .. ورأته « ايما » يسير في المرعى

تحت اشجار الحور ، وهو يتمهل بين آن وآخر كما لو كان يفكر ..

كان يحدث نفسه بهذه الخواطر : « انها لطيفة جداً .. لطيفة جداً .. زوجة الطبيب هذه !.. اسنان بديعة ، وعينان سوداوان ، وقدم صغيرة ، وقوام كقوام الباريسيات .. من اين جاءت بحق الشيطان .. من اين التقطها هذا الرجل البدين ؟ »

وكان « رودولف بولانجيه » في الرابعة والثلاثين من عمره ، ذا مزاج عنيف ، وذكاء نافذ ، وقد خالط كثيراً من النساء حتى غدا خبيراً بهن ، ومن ثم لاحت له هذه المرأة جميلة ، فراح يفكر فيهـا وفي زوجها .. ويقول لنفسه : « اعتقد انه مغفل ، وانها قد سئمته ولا ريب ، فان اظافره قذرة ، ولحيته لم تحلق منذ ثلاثة ايام . وبينما ينطلق لعيادة مرضاه ، تعكف هي على رتق الجوارب ، فلا تلبث ان تسأم !.. ولا بد انها تتوق لسكنى المدينة ، ورقص « البولكا » كل مساء .. يا للمرأة المسكينة !.. كأني بها تتعطش للحب كما تتعطش السمكة للماء فوق مائدة المطبخ !.. وان ثلاثة من كلمات الغزل لكافية لأن تجعلهـا تعبد المرء ، انني واثق من ذلك !.. ولسوف تكون رقيقة ، فاتنة .. اجل ، ولكن كيف السبيل الى التخلص منه بعد ذلك ؟ »

غير ان متاعب اللذة التي تراءت له جعلته ينقلب الى التفكير في عشيقته على سبيل المقارنة .. كانت ممثلة في (روان) ، وقد استخلصها لنفسه وأخذ يعولها . وما ان اخذ يتأمل صورتها – على صفحة ذاكرته – حتى احس بجذوة رغبته تخمد .. فقال لنفسه : « آه !.. ان مدام بوفاري اجمل ، واكثر نضرة بوجه خاص .. فلقد بدأت فرجينيا تميل للبدانة بالتأكيد .. وهي امرأة من العسير ارضاء رغباتها .. ثم انها ذات ولع جنوني ببراغيث البحر (الجمبري) !! »

ولما كانت الحقول خالية من الناس ، لم يكن رودولف يسمع حوله سوى خشخشة الاعشاب اذ تحتك بحذاءيه مع خطواته المنتظمة .. وصرخة

جرادة تختفي بين الشوفان بعيداً .. وعاد يتمثل صورة « ايما » في الحجرة ، وفي الثوب الذي رآها فيه .. ثم شرع يخلع عنها ثيابها في خياله ! وصاح وهو يفتت قطعة متماسكة من الطين بضربة من عصاه : « آه .. لسوف انالها ! » .. وشرع لفوره يدرس الاسلوب « السياسي » للمغامرة ، فساءل نفسه : « اين نلتقي ؟.. وبأي الوسائل ؟.. لسوف تضايقنا دائماً الطفلة ، والخادم ، والجيران ، والزوج ، وكل هذه الهموم . أف !.. ان المرء معرض لأن يضيع كثيراً من الوقت في كل ذلك » .. ثم عاد يقول : « ان لها في الحق عينين تخترقان قلب المرء كالبريمة .. ويا لشحوب بشرتها !.. انني اعبد الشاحبات ! »

وعندما بلغ قمة تلال (ارجى) ، كان ذهنه قد استقر على امر ، فقال : « لم يبق الا تصيد الفرص . حسناً ، وسأطلب « حجامة » لنفسي لو استدعى الأمر .. ولن نلبث ان نغدو اصدقاء ، فأدعوهم الى منزلي ».. ثم اضاف : « مرحى !.. ان المعرض الزراعي عما قريب ، ولسوف تزوره فأراها هناك .. ولنبدأ في جرأة ، فهذه اضمن الطرق ! »

الفصل الثامن

حان اخيراً موعد المعرض الزراعي الذي ذاع ذكره .. وفي صباح يوم الافتتاح ، وقف جميع اهل (ايونفيل) على ابوابهم يتحدثون عن الاستعدادات .. كانت واجهة مبنى البلدية قد زينت بفروع اللبلاب ، وأقيم سرادق في أحد المروج للمأدبة .. وأمـام الكنيسة – في وسط الميدان – نصب مدفع من النوع الذي يحدث فرقعة ، لاعلان وصول مدير المقاطعة ، وتحية اسماء المزارعين الفائزين بجوائز . ووفد الحرس الوطني من (بوشي) – اذ لم يكن في (ايونفيل) حرس – لينضم الى فريق رجال الاطفاء الذين كان « بينيه » يرأسهم .. وقد ارتدى في ذلك اليوم ياقة أعلى من ياقته العادية ، وشدت الأزرار سترته حول جسمه الى درجة أحالت جذعه الى كتلة متيبسة لا تتحرك ، فبدا كما لو كان الجزء الحي من جسمه كله قد هبط الى ساقيه اللتين كانتا ترتفعان في خطوات رتيبة على ايقاع واحد .. ولما كانت ثمة منافسة بين محصل الضرائب وضابط الحرس الوطني . فقد اخذ كل منهما يقوم بمناورات مع رجاله – على حدة – ليظهر مواهبه .. فكان المرء يرى الاشرطة الحمراء والشارات السوداء تروح وتغدو بالتناوب ، دون ان يكون لهذا العرض من نهاية ! .. أبداً لم ير في قرية (ايونفيل) عرض للأبهة والعظمة مثل هذا !

وكان عدد كبير من المواطنين قد غسلوا واجهات دورهم في المساء السابق ، وتدلت الاعلام الثلاثية الألوان من النوافذ المنفرجة المصاريع .. وازدحمت الحانات جميعاً .. وفي الجو – الذي كان صحواً – بدت الباقات المنشاة ، والصلبان المذهبة ، والاوشحة الملونة ، انصع بياضاً من الثلج في ضياء الشمس ، فكانت تخفف بتباينها وتناثرها من اطراد حلكة «الردنجوت» والملابس الشعبية الزرقاء .. وكانت زوجات المزارعين القادمات من المزارع المجاورة ينتزعن – اذا ما ترجلن عن جيادهن – الدبابيس الكبيرة التي كانت تثبت ذيول ثيابهن حول اجسامهن ، اذ كن قد رفعنها خشية الوحل .. في حين كان الازواج ، من ناحيتهم ، ينشرون حول قبعاتهم – حماية لها – مناديل امسكوا اطرافها بين اسنانهم .

وأخذت الجماهير تتوافد من مختلف انحاء القرية على الشارع الكبير ، متدفقة من الأزقة والدروب والبيوت . ومن وقت لآخر ، كان المرء يسمع ارتطام الابواب وهي تغلق وراء النسوة اللاتي يخرجن من دورهن – وقد ارتدين قفازاتهن – يسعين الى مشاهدة الاحتفال .. وكان اشد ما حاز الاعجاب ، حاملان طويلان زخرا بالمصابيح ، وقد حفّا بمنصة أعدت لجلوس ذوي النفوذ . والى جانب ذلك ، اقيمت حول اعمدة دار البلدية اربع قوائم تحمل كل منها علماً صغيراً من قماش يميل لونه الى الخضرة ، نقشت عليه كلمات بحروف ذهبية .. وقد كتب على العلم الأول : « الى التجارة » ، وعلى الثاني : « الى الزراعة » ، وعلى الثالث : « الى الصناعة » ، وعلى الرابع : « الى الفنون الجميلة » .

وكان الحبور الذي اشرقت به الوجوه جميعاً قد انقلب تجهماً على وجه مدام « لوفرانسوا » ، صاحبة الفندق . اذ راحت تتمتم لنفسها ، وهي واقفة على درجات مطبخها : « يا للحماقة ! .. يا للسخف !.. هذا السرادق من القماش السميك الخشن (المشمع) ! .. او يظنون ان مدير الاقليم سيغتبط بتناول العشاء تحت هذه الخيمة كمهرج السيرك ؟!..

او يسمون هذا العمل المستهجن خدمة لصالح البلدة ؟ .. اذن ، ففيم كان استدعائي « المرمطون » من (نيوشاتل) !.. ولمن ؟ .. لرعاة البقر ! .. للحفاة ! » .. ومر بها الصيدلي اذ ذاك ، وكان يرتدي سترة سوداء ، وبنطلوناً من المخمل القطني ، وحذاءين من نسيج الفراء.. ومن العجيب انه كان يلبس فوق هذا قبعة ذات قبة منخفضة !

وقال « هوميه » لصاحبة الفندق : « ايذني لي !.. معذرة ، فاني على عجل ! » .. واذ سألته الارملة البدينة الى اين هو ذاهب ،اجاب : « ان الامر يبدو لك غريباً .. أليس كذلك ؟ .. انا الذي اظل حبيساً في معملي اكثر من فأر الرجل في جبنه ! » .. فسألته : « اي جبن؟ » .. فتابع حديثه قائلاً : « آه ، لا شيء ! لا شيء !.. انما اردت ان انبئك يا مدام لوفرانسوا بأنني اعيش في بيتي عادة كالناسك . اما اليوم، فمن الضروري ، بحكم الظروف .. » ، فقاطعته في ازدراء : « آه .. انت ذاهب الى هناك ! » ، فأجاب الصيدلي في دهشة : « اجل ، انا ذاهب .. أو لست عضواً في اللجنة الاستشارية ؟ » ..

وحدقت فيه الأم « لوفرانسوا » بضع لحظات ، ثم قالت في النهاية وهي تبتسم : هذا وضع آخر ! ولكن ، فيم تهمك الزراعة ؟ اتفهم فيها شيئاً ؟ »

– بالتأكيد .. انني افهمها ما دمت صيدلياً .. اي كيمائياً . فان غاية الكيمياء يا مدام لوفرانسوا هي معرفة التفاعل الجزئي والتأثير المتبادل بين كافة الاجسام الطبيعية ، ومن ثم فان الزراعة تدخل في نطاقها . والواقع ان تركيب السماد ، وتخمر السوائل ، وتحليل الغازات ، وتأثير التعفن.. انني لأسألك ما هذا كله ؟ .. أليس هو الكيمياء في انقى وأبسط مظاهرها ؟ !

ولم تجب صاحبة الفندق ، فاستطرد « هوميه » قائلاً : « هل تظنين انه لا بد للمرء من ان يحرث الارض او يربي الدواجن ويسمنها

بنفسه لكي يكون من رجال الزراعة ؟ .. ان الأكثر ضرورة هو ان يعرف تركيب المواد التي تتعلق بالزراعة .. الخواص الجيولوجية ،والعوامل الجوية ، ونوع التربة ، والمعادن ، والمياه ، وكثافة الاجسام المختلفة ، وخاصية الجاذبية الشعرية – التي يتوقف عليها سريان العصارات المغذية للنبات – وما الى هذا .. كذلك يجب ان يكون المرء على إلمام تام بمبادىء الصحة كي يتولى التوجيه ونقد العيوب في انشاء المباني ، وتغذية الحيوان، وتغذية الخدم . وفوق ذلك يا مدام « لوفرانسوا » ، يجب ان يكون المرء على دراية بعلم النبات ، وان يستطيع ان يميز بين النباتات كما تعلمين .. فيعرف ايها الصحي المفيد ، وايها الضار ! .. ايها لا ينتج، وأيها ذا القيمة الغذائية .. وهل من المفيد ان نقتلعها من هنا ونعيد زرعها هناك ، وان نستكثر بعض الانواع ، ونقضي على البعض الآخر .. وبالايجاز ، يجب ان يظل المرء متتبعاً للعلم عن طريق النشرات والصحف العامة ، وان يكون يقظاً ليتعرف التحسينات .. »

ولم تحول صاحبة الفندق عينيها عن « المقهى الفرنسي » ، بينما مضى الصيدلي قائلاً : اني لأدعو الله ان يكون كل المشتغلين بالزراعة عندنا كيميائيين ، او ان يولوا مجالس العلم اهتماماً ، على الأقل .. فأنا مثلاً قد ألفت اخيراً كتيباً لا بأس به .. مذكرة في اكثر من اثنتين وسبعين صفحة ، بعنوان : « شراب التفاح (السيدر) ، صنعه وتأثيره .. مع بعض الافكار الجديدة في الموضوع » .. وأرسلتها الى الجمعية الزراعية في (روان) ، فكانت سبباً في « ان حظيت بشرف الانضمام الى عضويتها .. في قسم الزراعة ، وفي الفرع الخاص بزراعة الفواكه . ولو ان مؤلفي هذا أتيح للجمهور ... »

على ان الصيدلي امسك هنا عن الكلام ، اذ بدا ان مدام «لوفرانسوا» كانت في شغل عنه .. ثم قالت اخيراً : « الا انظر اليهم ! .. شيء غير مفهوم ! .. هذه الحانة الحقيرة ! » .. وهزت كتفيها في حركة

أزاحت عن جسمها الصدار الصوفي (التريكو) ، واشارت بكلتا يديها الى حانة منافسها ، التي كانت تنبعث منها اصوات تغني .. ثم اضافت قائلة : « لن يدوم هذا امداً طويلاً ، على أية حـال ، وسينتهي كل شيء قبل اسبوع » .. فتراجع « هوميه » مذهولاً ، بينما هبطت ثلاث درجات لتهمس في أذنه : « مـاذا ! .. او لا تعلم هذا ؟ .. هناك حجز سيوقع في الاسبوع المقبل ، و « لوريه » هو الذي سيتسبب في بيع الحانة ، اذ قضي عليه بدفع قيمة الصكوك (الكمبيالات) .. » ، فصاح الصيدلي الذي كان يجد دائماً من التعبيرات مـا يتمشى مع كل مناسبة يمكن تصورها : « يا لها من نكبة مفزعة ! »

اذ ذاك شرعت ربة الفندق تروي له القصة التي كانت قد سمعتها من « تيودور » — خادم السيد « جويومان » — ومع انها كانت تبغض « تيلييه » ، الا انها راحت تنحي باللوم على « لوريه » واصفة اياه بأنه غشاش دنيء !.. وقالت : « ها هو ذا ! .. انظر اليه ، انه في السوق ، ينحني لمدام « بوفاري » التي ترتدي قبعة خضراء . عجباً ، انها تأخذ بذراع السيد بولانجيه » .. فهتف هوميه : « مدام بوفاري !.. يجب ان اذهب فوراً فأقدم لها احتراماتي .. لعلها ستسر جداً بأن تحصل على مقعد في الحلبة ، تحت الرواق » .. ولم يلق الصيدلي بالاً الى الام « لوفرانسوا » التي اخذت تناديه لكي تسهب له في القصص ، بل ابتعد في خطوة سريعة ، وعلى شفتيه ابتسامة ، وقد شد عرقوبـه ، وراح يسخو في الانحناء يمنه ويسرة موزعاً التحيـات ، وذيل سترته السوداء يطير مع الريح من خلفه ، شاغلاً فراغاً كبيراً .. لكن « رودولف » لمحه من بعيد ، فراح يغذ السير وهو يجذب مرافقته معه ، ولكن انفاس مدام « بوفاري » تقطعت ، فاضطر الى ان يتباطأ ، وقال في لهجـة جافة وهو يبتسم : « ما هذا الا لكي نفر من هذا الرجـل البدين .. الصيدلي ، كما تعلمين ! » .. فضغطت مرفقه .. فسألها وهو يرمقها

من طرف عينه : « ما معنى هذا ؟ » .. وكانت صفحة وجهها هادئة، لا تنم عن شيء ، وقد برزت من اطار قلنسوتها البيضـاوية الشكل ، التي كانت مزدانة بأشرطة باهتة تشبه اوراق البوص . وكانت عيناها ـ بأهدابهما الطويلة المقوسة ـ تنظران الى الامـام في خط مستقيم . ومع انهما كانتا مفتوحتين على وسعهما ، الا انهما لاحتا متواريتين بعض الشيء، كما لو كانت وجنتاها تدفعانهما ، وقد زاح الدم يسري برفق تحت بشرتها الرقيقة .. وعلى طول الحاجز الذي كان يتوسط فتحتي انفهـا ، امتد خط وردي . وكان رأسها يميل على احدى كتفيها ، كما كانت الاطراف اللؤلؤية لاسنانها البيضاء ترى من بين شفتيها !

وساءل « رودولف » نفسه : « أتراها تسخر مني ؟ » .. غير ان الحركة التي بدرت من « ايما » لم تكن ترمي الا الى تنبيهه . فقد كان السيد « لوريه » يرافقهما ، وكان يتكلم بين آن وآخر ، وكأنه يود ان يندمج معهما في الحديث .. وما لبث ان قال : « يا له من يوم رائع !.. لقد غادر الجميع دورهم !.. ان الرياح تهب من الشرق !».. ولم ترد عليه مدام بوفاري ولا رودولف بشيء ، بينما كان هو يقترب منهما عند أية حركة تبدر منهما ويقول : « معذرة ! » ، ويرفـع قبعته ! .. حتى اذا بلغوا منزل البيطـار ، لم يمضوا في الطريق العامة حتى الحـاجز ، بل انحرف رودولف فجأة الى طريق ضيقة ، ساحباً معه مدام بوفاري ، وهو يهتف : « عم مساء يا مسيو لوريه !.. الى اللقـاء ! » .

وقالت « ايما » ضاحكة : « مـا ابرع ما تخلصت منه ! » .. فعقب قائلاً : «ولماذا يترك المرء نفسه عرضة لأن يثقل عليه الآخرون!.. ولما كنت اليوم سعيداً بأن اكون معك ... »

وتضرج وجه « ايما » .. ولم يتم رودولف عبـارته ، بل تحول يتحدث عن جمال الجو ، ولذة السير على العشب .. وكـانت بعض

زهرات « المرجريت » قد استوت على سيقانها فقال : « ها هي ذي بعض زهور المرجريت البديعة تبشر بعيد الفصح .. وها هوذا عدد منها يكفي لتقديم النبوءات لكافة العذارى العاشقات في المنطقـــة ! » .. ثم أضاف : « هل اقتطف بعضها ؟ .. ما رأيك ؟ » .. فسعلت قائلة: « وهل انت عاشق ؟ » .. فأجاب رودولف : « ا .. ا .. من يدري : ! » وكان المرج يمتلىء ، وربات البيوت يزاحمنك بمظلاتهن الكبيرة ، وسلالهن، واطفالهن .. وكثيراً ما كان المرء يضطر الى افساح الطريق لصف طويل من الريفيات او الخادمات ممن يلبسن جوارب زرقاء ، واحذية مسطحة النعال ، وخواتم من الفضة .. وتفوح منهن – اذا ما مر المرء بالقرب منهن – رائحة اللبن ! .. وقد سرن متشابكات الأيدي ، شاغـــلات عرض الميدان .. من اشجار الحور الى سرادق الاحتفال !.. وكان موعد فحص المعروضات قد حان ، فأخذ الفلاحون يدخلون – واحد بعد آخر – الى ما يشبه حلبة للسباق ، يحدها حبل طويل شد الى عصى ..

وكانت الماشية تربض هناك وأنوفها موجهة نحو الحبل ، وقد اصطفت في مجموعات غير متساوية ولا منتظمة . وخياطم الخنازير المتثاقلة مدسوسة في الارض ، والعجول تخور ، والنعاج تثغو والأبقار تمد بطونهـــا على النجيل وقد ثنت سيقانها تحتها ، وهي تجتر في بطء ، وجفونها الثقيلة تختلج من الذباب الذي كان يحوم حولها في طنين . والحوذية قد شمروا عن سواعدهم يشدون أعنة الجياد الجامحة التي راحت تصهل – منتفخة الخياشيم – وهي تنظر نحو أناثها التي وقفت هادئة ، تمد اعناقها ، واعرافها متدلية ، بينما كانت صغارها مستكينة في ظلالها ، تقبل على الرضـــاع منها بين آن وآخر !.. وفوق هذا الخضم الزاخر من الاجسام المكدسة، كانت ترتفع في الهواء اوراق بيضاء كأنها الموجـــات . او تبرز قرون حادة ، او رؤوس رجال يجرون حولها .. وخارج الحلبة وقف – على بعد نحو مائة خطوة – ثور اسود ضخم ، مكمم في انفه بحلقـــة من

حديد .. وهو لا يتحرك ، كأنه صيغ من البرونز ، بينما امسكه بحبل اطفال في اسمال مهلهلة ..

وسار بين الصفين اعضاء اللجنة بخطى ثقيلة ، يفحصون كل حيوان، ثم يستشير كل منهم الآخر في صوت خفيض ، وقد اخذ واحد منهم- كان يبدو أهم من الآخرين مكانة - في تدوين بعض الملاحظات من وقت الى آخر .. ذاك كان السيد « ديروزيراي دي لابانفيل » ، رئيس المحكمين .. وما ان رأى رودولف حتى اسرع متقدماً منه ، وابتسم في ود قائلاً « ما هذا يا سيد بولانجيه .. أتتخلى عنا ؟ » .. فاعتذر رودولف بأنه قد وصل لتوه ، ولكن ، ما ان انصرف الرئيس حتى قال لايما : «لعمري !.. لن اذهب، فان صحبتك خير من صحبته !» .. وكان يبرز بطاقته الزرقاء لرجال الشرطة - ليمر في يسر - وهو يسخر من المعرض .. وكان يقف احياناً امـــام حيوان بديع ، لا يروق لمدام بوفاري على الاطلاق . واذ فطن الى ذلك ، تحول يرسل النكات الساخرة عن سيدات (ايونفيل) وازيائهن ، ثم انقلب يعتذر عما في زيه من اهمال ، اذ كان خليطاً من المبتذل والأنيق معاً ، يرى فيه عامة الناس دليلاً على غرابة في الطباع ، واضطراب في الاحساس ، ومغالاة في الفن ، و - دائماً - نوعاً من الاستخفاف بالعادات الاجتماعية المألوفة. مما يفتنهم او يغيظهم ! .. من ذلك ان قيصه كان من « الباتيسته » ، تكثر الثنيات عند معصمي كميه .. وقد كان ينتفخ بفعل الهواء الذي كان يتسلل من فتحة صدار من التيل الرمادي .. وكـــان ساقا سرواله ذي الخطوط العريضة يكشفـــان عند الكعبين عن حذاءين من « الشمواه » الذي تتخلله اجزاء من الجلد كانت تلمع حتى لتنعكس عليهـــا صور العشب .. وكان يطأ بهذين الحذاءين روث الخيل وقد دس احدى يديه في جيب من سترته ، وأمال قبعته المصنوعة من القش جانباً ..

وعاد يتابع الكلام قائلاً : « ثم ان المرء حين يكون مقيماً في الريف..» ،

فقالت اما : « انها مضيعة للوقت » ، فأجاب : «هذا حق .. تصوري ان احداً من هؤلاء الناس لا يستطيع ان يفهم ، حتى طراز سترته !» .. ثم دار الحديث عن الريف الكئيب ، وما يضيع فيه من أعمار ، وينهار من آمال .. فقال رودولف « لهذا السبب تغمرني الكآبة » .. فعقبت مذهولة : « انت !؟ .. ظننتك شديد المرح ! »

— آه .. أجل . هكذا أبدو ، لأنني أعرف كيف أخفي وجهي وراء قناع ساخر ، وسط المجتمع .. ومع ذلك ، فكم ساءلت نفسي حين كنت أرى مقبرة في ضوء القمر : أليس من الخير ان اشارك اهلها في سباتهم !

فهتفت : « أواه ! .. واصدقاؤك ؟ .. ألست تفكر فيهم ؟ » .. فقال : « اصدقائي ! .. اي أصدقاء ؟ .. هل لي أصدقاء ؟ .. من يحفل بي ؟ » .. وأردف بصفير خافت من بين شفتيه .. وما لبثا ان اضطرا الى الانفصال ، كل عن الآخر ، بسبب حمل كبير من المقاعد كان احد الرجال يرفعه خلفهما .. وكان من الكثرة بحيث لم يكن في وسع الرجل ان يرى مقدم حذاءيه الخشبيين ، او نهاية ذراعيه المبسوطتين. وكان هذا الرجل هو « ليستيبودوا » ، حفار القبور ، وقد حمل مقاعد الكنيسة ، واخذ يجوس بين الناس ، اذ كان نشيط الذهن في كل ما يعود عليه بالنفع ، وقد فطن الى هذه الطريقة للافادة من المعرض ، وصادفت فكرته نجاحاً ، اذ تكاثرت عليه الطلبات حتى لم يعد يدري أيها يجيب ، والواقع ان القرويين الذين برح بهم التعب ، أخذوا يتشاجرون من اجل هذه المقاعد التي كان عبير البخور يفوح من قشها ، ويضطجعون على مساندها السميكة — المتسخة بدهن الشموع — في زهو وخيلاء !

وعادت مدام بوفاري فأمسكت بذراع رودولف الذي كان ماضياً في الحديث ، وكأنه يكلم نفسه : « اجل ، كم أضعت من اشياء .. فأنا

وحيد على الدوام ! .. آه ، لو كان لي هدف في الحياة ! .. لو انني لقيت شيئاً من الحب .. لو انني التقيت بشخص يعطف علي !.. ما كان احراني اذ ذاك ان ابدل كل ما اوتيت من طاقة ، وان اذلل كل شيء ! » .. وان اتغلب على كل شيء ! » .. فقالت : « ومع ذلك ، انك لا تبدو في حال تدعو للرثاء ! » .. قال : « آه .. او هذا ظنك بي ؟ » .. فاستطردت قائلة : « لأنك قبل كل شيء ، حر ... » ، وترددت ، ثم أردفت : وغني ! » .. فأجاب : « لا تسخري مني » .. وبينما كانت تؤكد انها لا تسخر ، دوت طلقة مدفع ، فاذا الجميع ينطلقون متدافعين في هرج نحو القرية .. ولكن التنبيه كان كاذباً ، فان مدير الاقليم لم يكن قد حضر ، وشعر اعضاء لجنة التحكيم بالحيرة ، اذ كانوا لا يدرون أيبدأون الحفل ، أم ينتظرون أمداً آخر ..

واخيراً ، ظهرت في اقصى الميدان عربة كبيرة مستأجرة — من الطراز المغلق الجوانب — يجرها جوادان هزيلان ، يسوطهما بكل قوته حوذي بقبعة بيضاء .. واسرع « بينيه » صائحاً : قرقول سلاح ! » ، فحذا الضابط حذوه ، وهرول الجنود نحو السرادق ، لقد نسي بعضهم ان يرتدوا ياقاتهم .. ولكن ركب المدير كان قد توقع الزحام مقدماً ، فخفف الجوادان من سرعتهما ، ووصلا على رنين أعنتهما الى منصة البلدية ، في اللحظة التي تم فيها تجمع الحرس الوطني وفريق الاطفاء ، ومن ثم اخذوا يدقون الطبول ، وينظمون خطواتهم .. وصاح «بينيه» : « خطوة تنظيم ! » .. فصاح الضابط : « قف !.. الى اليسار در ! » .. وبعد ان ارتفعت البنادق للتحية ، وانطلقت الموسيقى كرنين وعاء نحاسي ينحدر على سلم ، خفضت البنادق من جديد . واذ ذاك ، غادر العربة سيد في حلة ذات سترة قصيرة موشاة بخيوط فضية .. وكان أصلع في مقدمة رأسه ، ويضع شعراً مستعاراً في مؤخرتها ، وقد بدا كالح اللون ، تلوح عليه امارات الطيبة . وكان يعلو عينيه الجاحظتين جفنان سميكان ،

نصف مطبقين عليهما ، اذ راح ينعم النظر في الجماهير ، رافعاً — في الوقت ذاته — انفه الحاد ، راسماً على فمه الفاغر ابتسامة . وعرف الرجل العمدة من وشاحه ، فاوضح له ان مدير الاقليم لم يتمكن من الحضور ، وانه هو مستشار الاقليم . ثم اردف مردداً بعض الاعذار ، فرد السيد « توفاش » — العمدة — ببعض المجاملات .. وبدا على الآخر الارتباك!.. وظلا واقفين وجهاً لوجه ، تكاد جبهتاهما ان تتلامسا ، وحولهما اعضاء لجنة التحكيم والمجلس البلدي ، والاعيان ، والحرس الوطني ، والجمهور . وكرر المستشار انحناءاته بالتحية ، وهو يضم الى صدره قبعته الصغيرة السوداء الثلاثية الجوانب ، بينما انحنى « توفاش » كالقوس ، وابتسم هو الآخر ، وتلعثم اذ حاول ان يقول شيئاً ، ثم أكد ولاءه للملكية ، وأعرب عن الشرف الذي أتيح لايونفيل باقامة هذا المعرض !

وأخذ « هيبوليت » — سائس الفندق — عناني الجوادين من الحوذي ، وقادهما وهو يعرج بقدمه الشوهاء الى باب « الأسد الذهبي » ، حيث تجمع عدد من الفلاحين يتأملون العربة .. ودقت الطبول ، ودوى المدفع ، وتقاطر السادة صاعدين المنصة ليتبوءوا المقاعد الحمراء التي اعارتها مدام « توفاش » للمحتفلين .. وكان هؤلاء السادة جميعاً متشابهين .. فوجوههم السمينة الشقراء التي لوحتها الشمس قليلاً تبدو في لون شراب التفاح ، وشعور لحاهم تنتفش على جانبي وجوههم متهدلة على ياقـات كبيرة متيبسة ، تحيط بها اربطة عنق بيضاء ، لها عقدة عريضة .. وصداراتهم جميعاً من القطيفة ، وكافة الساعات تحمل — في نهاية اشرطة طويلة — ما يشبه خاتماً بيضاويـاً من العقيق .. والأيدي مرتكزة على الأفخاذ ، تسوي في عناية ثنيـات السراويل التي كان قماشها الجديد يفوق الأحذية لمعـاناً .

ووقفت زوجات السادة خلفهم ، بين الأعمدة ، بينما احتشد الجمهور في الناحية المقابلة ، بين وقوف وجلوس على المقاعد ، اذ كان «ليستيبودوا»

قد نقل جميع المقاعد من المرج الى هناك ، وراح يجري طيلة الوقت ليحضر من الكنيسة غيرها .. وسبب بنشاطه التجاري هذا ارتباكاً جعل بلوغ سلم المنصة أمراً عسيراً ! .. وقال « اوريه » للصيدلي اذ مر به ذاهباً الى المكان المخصص له : «من رأيي انه كان من الواجب عليهم ان يقيموا صاريين على طراز البندقية، يحملان بعض الزينة القيمة، حتى يصبح المنظر متعة للعين» .. فأجاب هوميه : «هذا حق .. ولكن، ماذا كنت تتوقع وقد استأثر العمدة بالاشراف على كل شيء .. لكم هو محدود الذوق هذا التوفاش المسكين ! .. بل انه محروم مما يسمى عبقرية الفن ! » .

• • •

وفي تلك الاثناء ، كان رودولف قد صعد مع مدام بوفاري الى قاعة الاجتماعات بالطابق الأول من مبنى البلدية .. واذ كانت القاعة خالية، فقد قال ان في وسعهما ان يستمتعا بالفرجة منها وهما مستريحان . وحمل ثلاثة مقاعد من حول المائدة البيضاوية ومن اسفل التمثال النصفي للملك، ووضعها على مقربة من احدى النوافذ ، ثم جلسا متجاورين .. وكانت ثمة جلبة فوق المنصة ، وهمسات طويلة ، ومفاوضات .. واخيراً وقف السيد المستشار ، فعرف الجمهور اذ ذاك انه يدعى « ليفان » ، وسرى الاسم بين الجمع ، من شخص الى آخر .. وبعد ان أخرج بضعة اوراق، وانحنى عليها ليراها بوضوح ، شرع يقول : « سادتي : اسمحوا لي اولاً وقبل ان احدثكم عن الغرض من اجتماع اليوم ان اقر بالفضل — وانا واثق من انكم تشاطرونني هذا الشعور — للحكومة .. للملك . للملكنا ايها السادة .. هذا الملك المحبوب الذي لا تغيب عن اهتمامه ناحية من نواحي الرخاء العام او الخاص ، والذي يقود بيد تجمع بين الحزم والحكمة سفينة الدولة ، بين الأخطار المتلاحقة في بحر عاصف ، وهو يعرف —

فوق هذا – كيف يجعل للسلام من الاحترام مثل ما للحرب والصناعة والتجارة والزراعة والفنون الجميلة ! »

وهنا قال رودولف : « يجب ان ارتدّ قليلاً الى الوراء » .. فقالت اما : « لماذا ؟ » .. وفي تلك اللحظة ، ارتفـع صوت المستشار فوق المألوف وهو يقول : « لقد مضى ايها السادة ذلك الزمن الذي كـان الشقاق بين المواطنين فيه يلطخ الميادين العامة بالدماء ، والذي كان فيه المالك ، وصاحب الاعمال ، والعامل نفسه ، يأوون الى مضاجعهم لينعموا بالنوم ، وهم يرتجفون خشية ان يستيقظوا فجأة على ضجيج عربات الحريق .. والذي كانت فيه اعنف المبادىء الهدامة تدك في جرأة كافة الأسس » ..

وعاد رودولف يتابع الكلام : « قد يلمحني أحد ، فاضطر عندئذ الى ان أظل اسبوعين انتحل الاعذار .. فضلاً عن ان سمعتي سيئة !» .. فقالت اما : « انك تظلم نفسك ! » .. قال : « لا .. انها سيئة .. اؤكد لك ! » .. ومضى المستشار يقول : « على انني حين انحي عن الذاكرة هذه الصور الحالكة – ايها السادة – انتقل ببصري الى الاحوال الراهنة في وطننا العزيز .. فماذا أرى ؟ .. في كل مكان تزدهر التجارة والفنون ، وفي كل مكان طرق جديدة للمواصلات ، كأنهـا شرايين حديثة في جسد الدولة ، تقيم في ارجائها علاقات جديدة .. وقد استأنفت مراكزنا الصناعية الكبرى نشاطها .. والدين – الذي ازداد وحدة وتوطداً – يبتسم في كل قلب .. وموانئنا مليئة ، والثقة قد نبتت من جديـد .. وفرنسا قد عادت تتنفس ! »

واستأنف رودولف الحديث : « الواقع انهم ربما كانوا – من وجهة نظر المجتمع – على حق ! » .. فقالت ايما : كيف ذلك ؟ » .. قال : « الأمر بسيط .. او لا تعلمين ان هناك نفوساً مضناة تعيش في عذاب دائم ، وان لا بد لها من ان تتقلب بالتناوب بين الحلم والعمل ..

بين العواطف السامية النبل ، وبين الشهوات المتطرفة العنف !.. ومن ثم تلقي بأنفسها في كافة ألوان الاهواء والحماقات ؟! » .. فنظرت اليه كما ينظر المرء الى رحالة ارتاد بلاداً غريبة ، وقالت : « نحن النساء البائسات لا نملك حتى هذه التسلية ! » .. فقال ؟ « وانها لتسلية محزنة ، اذ ان المرء لا يجد فيها السعادة ! » .. فتساءلت : « وهل من سبيل الى العثور على السعادة يوماً ؟ » .. فأجاب : « اجل .. انها لا تلبث ان تجيء يوماً ! » .. هذا بينما كان المستشار ماض في خطابه: « .. وهذا هو ما فهمتموه انتم ، معشر الزراع وعمال الريف .. ايها الرواد المسالمون ، في ميدان الحضارة الفسيح ! .. انتم يا رجال التقدم والاخلاق قد فهمتم ان العواصف السياسية اشد خطراً — في الحقيقة — من اضطرابات الطبيعة .. »

وتابع رودولف حديثه : « ان المرء لا يلبث ان يلقى السعادة فجأة.. يوماً ما ، بعد ان يكون قد يئس منها .. فاذ ذاك، ينفرج الأفق ..» وكان صوتاً يصيح ؟ « ها هي ذي ! » .. وتحسين بالحاجة الى ان تفضي بكل اسرار حياتك ، وبأن تهبي كل شيء ، وتضحي بكل شيء ، من اجل ذلك الكائن ! .. ولا داعي عندئذ للكلام ، فان كلا منهما يفهم الآخر ، اذ يكون كلٌ قد رأى الآخر في احلامه ! » .. ورمقها بنظرة وهو يستطرد : « وبالاجمال ، ترين امامك اخيراً الكنز الذي طالما بحثت عنه .. انه يتلألأ ، ويبرق .. ومع ذلك فان المرء يظل في ريب ، فلا يصدق .. يظل مبهوراً ، وكأنه خرج من الظلمة الى النور !» .. وما ان انتهى الشاب من هذا القول ، حتى قرنه بالاشارة ، فمسح وجهه بيده كرجل أحس بدوار ، ثم تركها تسقط على يد ايما .. فسحبت هذه يدها !

هذا والمستشار ماض في خطابه : « .. اي وجه للعجب في ذلك !.. لا ينكر روح اهل الزراعة الا من اصيب بالعمى ، وغرق — ولا اخشى

من ان اقولها بهذه الصراحة – في اوهام عصر مضى وانقضى ! .. وفي الحق ، اين نجد وطنية تفوق ما نجد في الريف ، واخلاصاً للصالح العام فوق اخلاصهم ؟ .. وفي كلمة واحدة ، اين نجد ذكاء اعظم مما نجد في الريف .. ولست أعني ، ايها السادة ، هذا الذكاء السطحي الذي تتحلى به النفوس المتسكعة ، وانما اعني ذلك الذكاء المتزن ، الذي ينصب على السعي الى الأهداف النافعة قبل كل شيء ، وبذلك يساهم في رخاء كل فرد ، والارتفاع بالمستوى العام ، وتدعيم الدول ، نتيجة لاحترام القوانين والنهوض بالواجبات » !

وعقب رودولف قائلاً : « آه .. هل عدنا ثانية .. الواجبات ، دائماً ! .. لقد سئمت هذه الكلمة .. ان هؤلاء الذين يطنون في آذاننا باستمرار قائلين : « الواجب ! الواجب ! » ليسوا سوى ثلة من ذوى الفكر الجامد الملتفين في صداري من «الفانيلا» ، ومن العجائز المتعبدات !.. آه ، لعمري ! .. ما الواجب الا ان نحس بما هو عظيم ، وان نحب ما هو جميل ، لا ان نقبل كل معتقدات المجتمع بما تفرضه علينا من ربقة واذلال ! » .. فاعترضت مدام بوفاري قائلة : « ومع ذلك .. مع ذلك .. »

– لا ، لا ! .. لماذا يصرخون ضد الرغبات العاطفية ؟ .. أليست هي الشيء الجميل الوحيد على الأرض ؟ .. أليست منبع البطولة والحماسة والشعر والموسيقى والفنون .. او بايجاز : كل شيء ؟

فقالت ايما : « ولكن على المرء ان ينحني الى حد ما لرأي المجتمع ، وان يتقبل قانون الاخلاق » .. فأجاب : « أجل ، ولكن هناك قانونين : قانون صغير ، ويمثل ما تعارف عليه الناس ووضعوه ، وهو يتغير باستمرار ، ويصرخ في صخب ، ويثير مثل هذه الجلبة التي نراها تحتنا .. انه أرضي من تراب . كهذا الحشد من الأغبياء الذين ترينهم هناك ، تحتنا ! .. اما القانون الآخر ، فهو الخالد ، وهو يشملنا ويعلونا ،

كالطبيعة التي تحيط بنا ، والسماء الزرقاء التي تمنحنا النور ! »

وكان السيد « ليفان » قد مسح فمه بمنديل ، واستطرد في خطابه :
« وماذا عليّ ان افعل ايها السادة ، لأظهركم على فائدة الزراعة ؟.. من الذي يمدنا بحاجاتنا ؟.. من الذي يقدم لنا اقواتنا ؟.. أليس هو الزارع ؟.. ايها السادة هو الذي يبزر بيده النشيطة في خطوط الحقل الخصيبة ، فينبت القمح الذي يجرش ويطحن بأجهزة معقدة يخرج منها تحت اسم الدقيق.. ثم ينقل الى المدن ، فينتهي الى الخباز الذي يصنع منه غذاء للفقير والغني على السواء !.. أليس هو الفلاح الذي يربي هذه القطعان الوفيرة ليوفر لنا الكساء ؟.. أنى لنا الكساء والغذاء بدون الفلاح ؟.. هل انا بحاجة ايها السادة الى ان اذهب بعيداً لأبحث عن امثلة ؟.. منذا الذي لم يفكر كثيراً في تلك الأشياء العظيمة التي نحصل عليها من هذا الحيوان الضئيل ، زينة حظائر الدواجن عندنا ، والذي يوفر لنا وسائد لينة لمضاجعنا ، ولحماً طرياً لموائدنا ، وبيضاً ؟.. على اني لن انتهي اذا مضيت في تعداد المنتجات المختلفة التي تجود بها الأرض – اذا نحن احسنا زراعتها – كالأم السخية على ابنائها !.. فها هنا شجر الكروم للنبيذ ، وفي مكان آخر شجر التفاح لشراب « السيدر » .. وهناك اللفت ، وبعد انواع الجبن ، والتيل الذي تقدم انتاجه بخطى واسعة جداً في السنوات الأخيرة ، والذي اود ان ألفت اليه انتباهكم بوجه خاص »

ولم تكن ثمة حاجة به الى ان يلفت انتباههم ، اذ كانت افواه الحشد كله فاغرة ، وكأنهم يعبون من كلامه.. وكان « توفاش » الى جواره ، ينصت وهو يحملق فيه .. والسيد « ديروزيراي » يغمض عينيه في رفق بين آن وآخر .. وعلى مسافة منه ، وضع الصيدلي يده خلف اذنه حتى لا يفوته مقطع من كلمة ، وابنه « نابوليون » على ركبتيه .. وكانت ذقون اعضاء لجنة التحكيم الآخرين تهتز في بطء على صداراتهم ، دليل الاستحسان .. اما رجال الاطفاء ، فاستندوا – اسفل المنصة – على

حرابهم ، ووقف « بينيه » جامداً في مكانه ، وقد ثنى ذراعيه ، وذؤابة سيفه في الهواء .. ولعله كان يسمع ، ولكنه بلا شك لم يكن يرى شيئاً ، بسبب حافة قلنسوته التي كانت تهبط فوق انفه !.. وكان مساعده – الابن الأصغر للسيد « توفاش » – يلبس قلنسوة اكبر من تلك ، اذ كانت واسعة ، فترجرج فوق رأسه ، وقد برز منها طرف منديله القطني .. وكان يبتسم تحتها في وداعة الطفل ، وقطرات العرق تتساقط من وجهه الصغير الشاحب ، وقد لاحت عليه امارات الانشراح والنوم !

* * *

وكان الميدان مزدحماً بالناس حتى مواقع المنازل ، فكان المرء يرى قوماً متكئين بمرافقهم على جميع النوافذ ، وآخرين يقفون امام الأبواب ، وبدا « جوستان » امام الصيدليـة وقد سمر في مكانه لفرط ما استهواه المنظر .. وكان صوت السيد « ليفان » يضيع في الهواء رغم الصمت الشامل ، فلا تصل الى سمعك سوى نتف من العبارات ، يقطعها صرير المقاعد المنبعث هنا وهناك .. ثم لا تلبث ان تسمع خوار ثور ، او ثغاء الحملان ، يجاوب بعضه بعضاً عند اركان الشارع .. اذ كان رعاة البقر والغنم قد ساقوا ماشيتهم حتى هناك ، فكانت تخور من آن الى آخر وهي تنتزع بألسنتها نتفاً من اوراق الشجر المتدلية امام افواهها .

وكان رودولف قد ازداد من ايما اقتراباً ، وقال لها بصوت خفيض ولهجة سريعة : « اولاً يثيرك تآمر المجتمع على هذا النحو ؟.. وهل هناك احساس واحد لا يستنكره ؟.. ان انبل الغرائز وأسمى الميول تضطهد ويشهر بها .. واذا حدث ان التقت روحان بائستان ، فان كل العوامل تنتظم لتحول دون امتزاجهما .. ومع ذلك فانهما ستحاولان ، وترفرفان بأجنحتهما ، وتسعى كل منهما الى الأخرى .. أواه !.. لا بأس ، فانهما لن تلبثا ان تجتمعا وتتحابا ، طال الزمن او قصر .. في ستة اشهر او

في عشر سنوات .. فان القدر قد كتب هذا لهما ، اذ خلقت كل منهما للأخرى »

وكان جالساً وقد تقاطعت ذراعاه فوق ركبتيه .. وتطلع الى ايما وهو جد قريب منها ، وثبت بصره عليها ، فلمحت في عينيه خطوطاً ذهبية صغيرة تومض من اعماق حدقتيه السوداوين .. بل انها راحت تشم عطر الدخان الذي صمخ به شعره .. وما لبثت ان غشيتهـا نوبة من شرود ، فذكرت الفيكونت الذي رقصت « الفالس » معه في (فوبيسار) ، اذ كانت تنبعث من لحيته رائحة الليمون والفانيليا التي تفوح من هذا الشعر .. وأسبلت جفنيها ـ بحركة آلية ـ في نصف اغماضة ، وهي تنشق في شعره هذا العطر ، ولكنها حين اضطجعت في المقعد لمحت على البعد ـ عند حافة الأفق ـ عربة الركاب القديمة .. « العصفورة » تنحدر في بطء هابطة تل (ليو) ، وهي تجر ذيلاً طويلاً من الغبار !.. هذه العربة الصفراء التي كثيراً ما عاد اليها فيها « ليون » ، وفي ذلك الطريق رحل عنها الى غير رجعة .. وخيل اليها انها تراه واقفاً عند نافذته .. ثم اختلطت الرؤى ، وأكفهرت السحب ، وخيل اليها انها عادت تدور في رقصة « الفالس » ـ تحت اضواء الثريات ـ بين ذراعي « الفيكونت » ، وان « ليون » ليس بعيداً عنها ، وانه قادم .. ومع ذلك ، كانت طيلة الوقت تشم عبير رأس رودولف الى جانبها ، وتغلغل هذا الاحساس العذب في رغباتها القديمة ، التي اخذت تتحرك جيئة وذهاباً ، في نفحات هذا العطر الذي ران على روحها ، كما تتحرك ذرات الرمل في مهب الريح .. ففتحت طاقتي انفها عدة مرات لتعب من عبق اللبلاب الملتف حول رؤوس الأعمدة . ونزعت قفازيها ، فسحت يديها ، ثم حركت منديلها امام وجهها كالمروحة ، بينما كان صوت المستشار يصل اليهـا ـ خلال نبض صدغيها ـ مرددة عباراته ، وكأنه يترنم بها : « واصلوا ، وثابروا ، ولا تنصتوا الى ما يوصي به الروتين ، او ما تدعو اليه النصائح

المرتجلة المبنية على تجارب طائشة !.. واتجهوا بجهودكم – بنوع خاص – الى تحسين التربة ، والسماد الجيد .. والاكثار من سلالات الخيل والبقر والخنازير والاغنام الجيدة .. ولتكن هذه المعارض – بالنسبة لكم – اشبه بالساحات السلمية ، يمد المنتصر فيها يده – اذ يغادرها – الى المنهزم ، ويؤاخيه ، املاً في فوز افضل .. وانتم ايها العمال الشيوخ ، والخدم المتواضعون ، الذين لم ترمقهم حكومة حتى اليوم بعين الاعتبار .. تعالوا لتتسلموا جزاء فضائلكم الصامتة ، وثقوا من ان الدولة ترمقكم ، وتشجعكم ، وتحميكم .. وستستجيب لمطالبكم العادلة ، وتخفف بقدر ما تستطيع من عبء تضحياتكم ! »

وجلس السيد « ليفان » اذ ذاك ، فنهض السيد « ديروزيراي » ، وشرع يلقي خطاباً آخر .. ولعله لم يكن خطاباً منمقاً كخطاب المستشار ، ولكنه امتاز عنه بأسلوب اكثر ايجابية ، او بالأحرى ، بمعلومات ادق ، واعتبارات اسمى .. فلم يشغل مدح الحكومة – مثلاً – سوى حيز صغير منه . اما الدين والزراعة ، ففازا بقسط اوفر ، اذ القى الضوء على العلاقة بينهما ، وعلى دورهما المشترك في خدمة الحضارة ، والجاذبية المغناطيسية . كان الخطيب يتكلم عن نشأة المجتمع ، متدرجاً من العصور الأولى التي كان الانسان يتغذى فيها بثمار البلوط في اعماق الغاب ، الى تلك العهود التي تحول فيها الناس عن جلود الماشية الى الاقمشة المنسوجة ، وراحوا يحرثون الارض ويزرعون الكروم .. أفكان هذا التحول خيراً ؟.. او لم يكن في هذه الاكتشافات من الضرر فوق ما فيها من نفع ؟.. وتولى السيد « ديروزيراي » علاج السؤال .. بينما كان رودولف قد تطرق متنقلاً من المغناطيسية الى الميول والعلاقات .. وأخذ رئيس اللجنة يذكر «سنسناتوس» ومحراثه ، و « ديوكلسيان » اذ زرع الكرنب ، واباطرة الصين حتى كانوا يفتتحون العام ببذر البذور .. في حين كان الشاب – رودولف – ماضياً يشرح للشابة ان الميول والانجذابات ترجع في سبيلها الى نوع سابق

من الوجود .. او حياة سابقة !

ومضى يقول : « ومن ثم ، لماذا قدر لكل منا ان يعرف الآخر ؟.. اية ارادة شاءت هذا ؟.. لقد تم ذلك بسبب انجذاب كل منا الى الآخر – كجدولين يجريان لكي يلتقيا ويتحدا – وهكذا دفعت اتجاهاتنا الفكرية الخاصة بكل منا الى صاحبه ! »

وامسك بيدها ، فلم تسحبها منه .. وفي تلك اللحظة ، كان الخطيب يصيح : « جائزة الزراعة الجيدة .. » . ورودولف ماض في حديث : « فمثلاً عندما أتيت الى بيتكم .. »

وهكذا اخذت عبارات رودولف والخطيب تتتابع في تناوب واختلاط :

كان الخطيب يقول : « الى السيد بيريه من كونكانبوا »

ورودولف يقول : هل كنت اعلم ان قد قدر لي ان اصحبك ؟

الخطيب : سبعون فرنكاً .

رودولف : بل لقد حاولت مائة مرة ان ارحل .. ولكنني تبعتك .. وبقيت !

الخطيب : جائزة الاسمدة .

رودولف : وسوف ابقى الليلة ، وغداً ، وكل الايام المقبلة ، وحياتي كلها !

الخطيب : الى السيد « كارون » من (ارجي) .. ميدالية ذهبية

رودولف : فاني لم ألتق بمثل هذه الفتنة الشاملة في صحبة اي شخص آخر .

الخطيب : الى السيد « بان » من جيفري سان مارتان .

رودولف : وسوف احمل معي ذكراك ...

الخطيب ، جائزة عن كبش اسباني من نوع « مارينو »

رودولف : ولكنك سوف تنسينني .. سأتلاشى كالطيف !

الخطيب : الى السيد « بيلو » من نوتردام ...

رودولف : آه ، لا !.. بل سأبقى في فكرك ، وحياتك .. أليس كذلك ؟

الخطيب : سلالة الخنازير .. الجائزة مناصفة بين السيدين « لهيريسيه ، و « كيلمبور » .. وقدرها ستون فرنكاً .

وضغط رودولف يد ايما ، فاحس بها دافئة ، تنتفض ، كاليمامة الحبيسة التي تبغي انطلاقاً .. وسواء كانت تحاول ان تنتزع يدها ، او كانت تستجيب لضغطه ، فانها حركت اصابعها ، فهتف : « آه ، شكراً لك .. فانت لا تصدينني !.. ما اطيبك !.. انك تدركين انني ملك يديك !.. الا دعيني انظر اليك !.. دعيني اتأملك ! »

وهبت من النافذة ريح ثنت اطراف غطاء المائدة ، واطاحت بقبعات الفلاحات الكبيرة — في الميدان — فطارت كاجنحة فراشات بيضاء ترفرف !.. وكان رئيس لجنة التحكيم ماضياً في قوله : « جائزة استخدام كسب البذور الزيتية .. السماد الفلمنكي .. زراعة التيل .. الصرف .. الايجارات الطويلة .. الخدمات الاهلية » ... اما رودولف فلم يعد يتكلم ، اذ راح يرمق « ايما » .. وهي ترمقه ، وشفاهها ترتجف بتأثير رغبة جامحة !.. وفي استرخاء ، ودون ما جهد ، تعانقت اصابعهما .. ورئيس لجنة التحكيم ماض في سرد الجوائز !

— كاترين نيكيز اليزابيث ليرو من (ساستولاجيريير) .. من اجل بقائهـــا خمساً وخمسين سنة تخدم مزرعة واحدة .. ميدالية فضية ومكافأة قدرها خمسة وعشرون فرنكاً !

وردد المستشار النداء قائلاً : « اين هي كاترين ليرو ؟ » .. لكنها لم تتقدم .. وسمعت اصوات تتهامس : « استمر ! » .. « لا » .. « الى اليسار » .. « لا تخافي ! » .. « آه ، يا لها من غبية ! » .. وصاح « توفاش » : « وبعد ، اموجودة هي ؟ » .. « نعم .. ها هي ذي ! » .. « فلتتقدم اذن ! » .. ورؤيت اذ ذاك امرأة عجوز ، ضئيلة الجسم ،

تتقدم واجفة نحو المنصة ، وهي تكاد تتوارى في ثيابها التعسة ، وفي قدميها حذاءان ضخمان من الخشب ، بينما انسدلت على ردفيهـــا مرولة كبيرة زرقاء .. وكان وجهها الضامر ، المحاط بطاقية لا حافة لها ، اكثر تجعيداً من تفاحة صغيرة ذابلة .. ومن كمي سترتها الحمراء ، برزت يدان بدت مفاصلها كالعقد ، وقد غطتها البقع والبثور والبشرة الخشنة من اثر غبار الأجران ، و « البوتاس » الذي تستخدمه في ازالة بقع الشحم عن الملابس الصوفية ، حتى انهما كانتا تبدوان قذرتين رغم غسلهما بالماء الصافي .. وقد مكثتا متفرجتين لطول ما خدمتا ، وكأنهما تقدمان دليلاً متواضعاً على ما تكبدتا من مشاق مضنية !.. واكسب وجهها جلالاً شيء من جمود الرهينة ، ولم يكن يخفف من حدة نظراتها شيء من الحزن او من الحنان .. وكانت لكثرة معاشرتها للحيوانات قد اخذت عنها الصمت والسكوت .. وكانت هذه اول مرة ترى فيها نفسها وسط مثل هذا الجمع الغفير ، فداخلهـــا ذعر من الأعلام والابواق ، واولئك السادة الذين كانوا في ثياب سوداء ، وذلك الوسام الذي كان يزين صدر المستشار .. فظلت مسمرة في مكانها ، لا تدري أتتقدم ، ام تلوذ بالفرار .. ولا تفهم لماذا راحوا يدفعونها الى الأمام ، ولا لماذا كان الحكام يبتسمون لها ؟!.. وهكذا وقفت امام المواطنـــين السعداء ، تمثالاً حياً لنصف قرن من العبودية !.. وكان المستشار قد اخذ قائمة الفائزين بالجوائز من يد رئيس الحكام ، فقال لها : « اقتربـي ايها المبجلة كاترين نيكيز اليزابيث لبرو ».. واخذ ينقل بصره بين قائمة الفائزين والسيدة العجوز ، مكرراً في لهجة ابوية : « اقتربـي ! اقتربـي ! »

وقال « توفاش » وهو يتململ في مقعده : « اصماء انت ؟ » .. ثم راح يصيح في اذنها : « اربع وخمسون سنة في الخدمة !.. ميدالية فضية .. وخمسة وعشرون فرنكاً .. لك ! » .. وتأملت « الميدالية » اذ تناولتها ، وما لبث وجهها ان اشرق بابتسامة راضية ، ثم تمتمت وهي تنصرف :

« سأعطيها لقس قريتنا كي يقيم لي قداساً ! » .. قال الصيدلي نحو موثق العقود قائلاً : « يا للتعصب ! »

* * *

وانتهى الحفل ، فأخذ الجمهور يتفرق .. وعاد كل امرىء الى مكانه ، وكل شيء الى مجراه .. وأخذ السادة ينهرون الخدم ، وهؤلاء يضربون الماشية .. تلك الماشية الفائزة ، التي علق بقرونها تاج اخضر ، وهي تعود الى حظائرها !.. هذا بينما صعد جنود الحرس الوطني الى الطابق الأول من مبنى البلدية ، وقد رشقوا الفطائر الجافة في حرابهم ، وحمل قارع الطبل سلة مليئة بالزجاجات .. وأخذت مدام بوفاري بذراع رودولف الذي رافقها حتى دارها ، ثم افترقا لدى الباب ، وسار هو يتنزه وحيداً في المرج ، في انتظار موعد الوليمة .

وكانت المأدبة طويلة ، صاخبة ، سيئة النظام ، ازدحمت الى درجة لم يكن معهـــا في وسع المرء ان يحرك مرفقه ، وحتى اوشكت الألواح الضيقة – التي استخدمت كمقاعد – ان تتحطم تحت ثقل الجالسين .. وأكل القوم في اسراف ، اذ عني كل واحد بان يملأ بطنه ، حتى تفصد العرق على كل جبهة ، وانبعث بخار يميل الى البياض – كذلك الذي يتصاعد من جدول في صباح يوم من ايام الخريف – واخذ يخيم فوق المائدة بين المصابيح المدلاة .. واستند رودولف الى قماش السرادق ، وقد استغرقه التفكير في اما ، حتى انه لم يسمع شيئاً مما كان يدور حوله . وكان الخدم من ورائه يجمعون الأواني المتسخة ، وجيرانه يوجهون اليه الحديث فلا يظفرون منه بجواب .. ومن ثم ملأوا له كأسه !.. وران على فكره سكون رغم الضجيج المحيط به .. كان يحلم بما قالت ، وبشكل شفتيها .. وكان وجهها يتمثل له منعكساً على خوذات الجنود ، وكأنه يراه في مرآة سحرية .. وثنايا ثوبها تنتشر بين الجدران .. وأخذت ايام

الهوى تتتابع امام عينيه في افق المستقبل ، وهي لا تكاد تنتهي !

ورآها ثانية في المساء ، اثناء الاحتفال باطـلاق الصواريخ . بيد انها كانت مع زوجها ومدام « هوميه » ، والصيدلي الذي كان شديد القلق بسبب خوفه من الصواريخ الشاردة ، حتّى انه كان يترك الجماعة في كل لحظة ، ليذهب الى « بينيه » ويقدم له النصائح .. وكانت الصواريخ – التي وردت باسم السيد « توفاش » – قد اختزنت في قبو منزله ، زيادة في الحيطة ، ومن ثم لحقت الرطوبة بالبارود فلم يشتعل .. وفسدت تماماً القطعة الرئيسية ، وكانت صاروخاً يمثل تنيناً يعض ذيله !.. ومن وقت لآخر ، كانت تنفجر شعلة رومانية هزيلة ، فتنبعث من الجمهور الفاغر الأفواه ضجة تختلط بها صيحات النساء اللواتي كان الرجال يدغدغون خصورهن في الظلام ، وقد التصقت ايما – في رفق – بكتف شارل ، وراحت تتتبع انبثاق الضوء من الصواريخ في السماء المعتمة ، وهي رافعة الذقن ، ورودولف يتأملها في ضوء المصابيح المشتعلة !

وخمدت الصواريخ شيئاً فشيئاً ، واضاءت النجوم ، وسقطت بعض قطرات من المطر ، فعقدت ايما حرملتها فوق رأسها العارية .. وفي هذه اللحظة ، اقبلت عربة المستشار من الفندق ، وقد أخذت الحوذي المخمور غفوة طارئة ، فكان جسمه الضخم يرى على مقعده بين مصباحي العربة وهو يهتز يمنة ويسرة مع ارتجاجات العربة .. فقال الصيدلي : « الحق ان من الواجب تشديد العقوبة على من يفرط في تناول الخمر .. وبودي لو سجلت اسبوعيـاً على لوحة خاصة – على باب البلدية – اسماء الذين يثملون خلال الأسبوع من المشروبات الكحولية !.. فضلاً عن اننا سنحصل بذلك – من الناحية الاحصائية – على قوائم سنوية رسمية ، نطلع عليها عند الحاجة ، ولكن .. اسمحوا لي ! » .. وعدا ثانية نحو القائد !.. وكان هذا الاخير عائداً الى منزله ليتفقد مخرطته .. فقال له هوميه : « انك لن ترتكب خطـأ لو انك اوفدت احد رجالك .. او تذهب

بنفسك .. » ، فأجاب محصل الضرائب : « دعني وشأني !.. اطمئن ! »

وبعد ان عاد الصيدلي الى اصدقائه قال : « اطمئنوا !.. لقد أكد لي السيد بينيه ان التدابير اتخذت ، ولم تسقط اية شرارة ، كما ان المضخات مليئة .. فهيا بنا نستريح ! » .. فقالت مدام « هوميه » وهي تتثاءب بقوة : « الواقع انني بحاجة الى النوم ، ولكن .. لا بأس ، فقد قضينا يوماً جميلاً كأنه العيد ! » .. فردد رودولف بصوت خفيض ، ونظرة ناعمة : « آه ، اجل !.. كان جميلاً جداً » .. وانحنى كل منهم لسواه ، ثم انصرفوا .

وبعد ذلك بيومين ، نشرت صحيفة « فنال دي زوان » مقالاً طويلاً عن المعرض ، كان هوميه قد كتبه بأسلوبه المتحمس في اليوم التالي للاحتفال ، وقال فيه : « لم هذه الولائم ، وهذه الأزهار ، وهذه الباقات ؟.. والى اين يعدو هذا الجمهور وكأنه امواج بحر ثائر ، تحت سيل من اشعة الشمس الحامية التي تنشر حرارتها فوق حقولنا ؟! » .. وتكلم عن حال الفلاحين ، فقال ان الحكومة قد فعلت الكثير ولا شك من اجلهم ، ولكن هذا لم يكن كافياً ، ومن ثم اهاب بها : « الى الامام ، فهناك ألف مشروع لازمة ، وعلينا ان ننجزها » . ثم تحدث عن وصول المستشار ، فلم ينس « المظهر العسكري الرائع لجنودنا » ، ولا « فلاحاتنا الموفورات النشاط » ، ولا « الشيوخ ذوي الرؤوس الصلعاء كأنهم البطارقة .. وقد احس من بقي منهم من رجال كتائبنا القدامى ، بقلوبهم لا تزال تخفق على دق الطبول القوي » .. وذكر نفسه بين اوائل الاعضاء المكونين لهيئة التحكيم ، مشيراً – بطريقة تستلفت الانتباه – الى ان السيد هوميه ، الصيدلي ، قد ارسل مذكرة عن شجر التفاح الى الجمعية الزراعية !.. واذ تطرق الى الحديث عن توزيع الجوائز ، صور فرح الفائزين باسلوب خيالي مبالغ فيه : « فالأب يقبل ابنه ، والأخ

اخاه ، والزوج زوجته ، وكم من واحد منهم كان يزهو باظهار « ميداليته » المتواضعة ، التي لن يلبث ، اذا ما عاد الى زوجته الصالحة – ان يعلقها بجوار فراشه والدمع ينهمر من عينيه .. وحوالي الساعة السادسة ، اقيمت مأدبة في بستان السيد « ليجار » ضمت الشخصيات الرئيسية التي حضرت الاحتفال ، وسادتها روح المودة الخالصة .. وشربت عدة انخاب ، فشرب السيد « لبيفان » نخب الملك ، والسيد « توفاش » نخب المدير ، والسيد « ديروزيراي » نخب الزراعة ، والسيد « هوميه » نخب الصناعة والفنون الجميلة – التوأمين – والسيد « ليبليشيه » نخب الاصلاحات . وفي المساء انطلقت في السماء صواريخ لامعة اضاءتها فجأة ، حتى لقد كان خيل للمرء انها منظار سحري ، او منظر مسرحي حقيقي .. وكأني بالقرية الصغيرة قد انتقلت – للحظة من الزمن – الى حلم من احلام ألف ليلة وليلة ! »

ثم اضاف قائلاً : « ولنسجل انه لم يكدر صفو هذا الاجتماع العائلي اي حادث يدعو للأسف .. وكانت الملاحظة الوحيدة هي تخلف رجال الدين ، ولعل الكهنوت يفهم التقدم على نحو آخر !.. كما تشاؤون يا رسل ليولا ! »

الفصل التاسع

ومضت ستة اسابيع لم يعد خلالها رودولف ثم ظهر اخيراً ذات مراء .

لقد حدث نفسه في اليوم التالي للمهرجان قائلا : « لا يجوز أن أسرع بالعودة والا كان هذا خطأ » .

وفي نهاية أسبوع كان قد سافر للصيد ، وبعد الصيد ظن أنه قد تأخر أكثر مما يجب ، ولكنه فكر على النحو الآتي : « ولكنها اذا كانت قد أحبتني من اليوم الاول فإن تلهفها على رؤيتي مرة اخرى لا بد أن يزيدها حباً ! فلنواصل اذن ! » .

ولقد فهم ان تقديره كان على حق ، وذلك عندما رأى (ايما) يصيبها الشحوب بمجرد أن دخل الى الصالة .

كانت وحدها ، والنهار آخذ في الغروب ، وستائر الموسلين الصغيرة الموضوعة على ألواح الزجاج تزيد الشفق كثافة، واطار البارومتر المذهب ينعكس عليه شعاع من الشمس ، فينشر الوهج في المرآة بين فراغات المرجان .

وظل رودولف واقفاً ! وفي مشقة استطاعت ايما أن ترد على عبارات التحية الاولى .

وقال : « لقد كانت لدي مشاغل ! لقد كنت مريضاً ! » .

فصاحت هي : « مرضاً خطيراً ؟ » .

وقال رودولف وهو يجلس على مقعد الى جوارها :

« في الواقع لا ! ... وانما لم أشأ أن أعود » .

— لماذا ؟

— او ما تستطيعين ان تحدسي ؟

ونظر اليها مرة أخرى ، ولكن على نحو بلغ من العنف ان خفضت بصرها واحمرّ وجهها . واستأنف قائلا :

— انما ...

فقالت وهي تتنحى قليلا : « سيدي ! »

واجاب في صوت حزين : « آه ! أوما ترين أنني كنت على حق عندما لم أشأ أن أعود ، ذلك لان هذا الاسم — الاسم الذي يملأ روحي والذي انطلق مني — هذا الاسم تحظرينه علي ! مدام بوفاري !... آه : ان جميع الناس ينادونك هكذا ! ... وهذا ليس في الواقع اسمك وانما هو اسم شخص آخر !

وكرّر : شخص آخر !

وأخفت وجهها بين يديها !

نعم انني افكر فيك باستمرار ! ... وذكراك تصيبني باليأس ! آه ! معذرة ! . . . انني اتركك ... وداعاً ! ... ساذهب بعيداً ... بعيداً جداً ... حتى لا تعودي تسمعين عني ! ... ومع ذلك ... اليوم... لا أدري أية قوة تلك التي دفعتني نحوك ! وذلك لان الانسان لا يجاهد ضد القدر ولا يقاوم ابتسامة الملائكة ! وانما يترك الانسان نفسه لينساق نحو ما هو جميل ساحر . جدير بالعبادة !

وكانت هذه أول مرة تسمع فيها اشياء كهذه توجه اليها وأخذت كبرياؤها تسترخي استرخاء كاملا بحرارة هذه اللغة ، على نحو ما يسترخي الانسان في حمام دافىء !

واستمر يقول : لكنني اذا كنت لم أحضر واذا كنت لم أستطع أن أراك ، فانني على الاقل كنت اتملى كل ما يحيط بك — ففي جنح الظلام كنت أستيقظ كل ليلة وأصل الى هنا ، لاشاهد منزلك ، والسقف الذي يلمع تحت القمر ، وأشجار الحديقة التي تتأرجح أمام نافذتك ، ومصباحاً صغيراً — وميضه يلمع من خلال الزجاج في الظلام . آه ! انك لم تكوني تعلمين أن هناك ، قريباً جداً وبعيداً جداً بائس مسكين ... ! »

فالتفتت نحوه وهي تنشج قائلة « آه ! كم أنت طيب ! »

— « — اني أحبك ، وهذا كل ما في الامر ! انك لا تشكين في ذلك ؟! قولي لي ... كلمة !.. كلمة واحدة ! »

وبطريقة غير محسوسة أخذ رودولف ينزلق من المقعد حتى الارض، ولكنه سمع وقع حذاء في المطبخ ، كما ادرك ان باب الصالة لم يكن مغلقاً .

وواصل قائلاً وهو ينهض : « هل لك ان تجودي باشباع امل يراودني » ؟

وكان هذا الأمل هو ان تزور بيته ، فقد كان يود ان يعرفها عن قرب . ولم تر مدام بوفاري بأساً في ذلك ، ونهض الاثنان عندما دخل شارل .

فقال له رودولف : «عم صباحاً يا دكتور» !

وطرب الطبيب لهذا اللقب غير المنتظر ، فاندفع في التحيات ، بينما انتهز الآخر الفرصة لكي يسترد جأشه بعض الشيء !

وقال عندئذ : « لقد كانت السيدة تحدثني عن صحتها ...»

وقاطعه شارل؛ فقد كان لديه في الواقع عدة اسباب للقلق، وكانت أزمات ضيق التنفس قد أخذت تعاود زوجته . وعندئذ سأل رودولف عما اذا كانت رياضة الخيل تنفعها .

فقال شارل : « بلا شك ! بالضبط تماماً – فكرة طيبة يجب ان تنفذها ! »

وعندما اعترضت بأنها ليس عندها حصان ، عرض رودولف واحداً، ورفضت عرضه . فلم يلح . ولكي يبرر زيارته روى كيف ان سائق عربته – وهوَ الرجل الذي سبق ان حضر لعملية فصد الدم – لا يزال يشعر بدوارٍ .

فقال بوفاري : « سأمر بكم » .

– لا – لا . سأرسله اليك – سنحضر ، فهذا اكثر راحة بالنسبة اليــك ..

– آه . حسن جداً – انني اشكرك .

وبمجرد ان أصبحا وحيدين قال لها زوجها « لماذا لم تقبلي عروض السيد بولانجية البالغة الرقة ؟ » .

فقطبت جبينها ، واخذت تبحث عن مئات الاعذار . وفي النهــاية قالت : ان هذا قد يبدو غريباً » .

فدار شارل على عقبيه ثم قال : انني أسخر من كل هذا ! فالصحة قبل كل شيء ! انك مخطئة ! »

وكيف تريد ان اركب حصاناً وليس لدي سروال للركوب .

فأجاب : يجب ان توصي بصنع واحد .

وبفضل السروال عقدت عزمها !

وعندما ُأعدّ اللباس كتب شارل الى السيد بولانجية يخبره ان زوجته تحت تصرفه ، وانه يعلق الأمل على لطفه !

وفي اليوم التالي وصل رودولف عند الظهر امــام باب شارل ومعه حصانان أصيلان، تحلي اذني أحدهما حلية من القماش ، ويحمل فوق ظهره سرجاً نسائياً من جلد الغزال .

وكان رودولف قد ارتدى حذاء طويلاً رخواً معتقــداً انها لم ترَ

مثله قط ، وبالفعل اخذت بهيئته عندما ظهر على الدرج في سترته الطويلة المصنوعة من المخمل ، وسرواله التريكو الابيض . وكانت مستعدة في انتظـــاره .

وانفلت جوستان من الصيدلية لكي يراها كما تحرك الصيدلي ايضاً ، وأخذ يقدم الى السيد بولانجية النصائح . « ان الحوادث سريعاً ما تقع ! خذ حذرك ! فقد تكون خيلك جموحة . »

وسمعت ضوضاء فوق رأسها « كانت فيليستيه تدق على الزجاج لكي تسلي الطفلة برت . وأرسلت الطفلة قبلة غن بعد ، فردت عليها امهـــا باشارة من مقبض سوطها .

وصاح السيد هوميه : « نزهة طيبة ! ولكن الحذر ! الحذر !» وهز جريدته – وهو ينظر اليهما يبتعدان .

وبمجرد أن أحس حصان اما بالأرض أخذ يعدو ، ورودولف يعدو الى جوارها . وكانا يتبادلان الحديث احياناً ، وقد خفضت وجهها قليلاً ، ورفعت يدها الى اعلى ، ومدت ذراعها الايمن ، وتركت نفسها تهتز على ايقاع الحركة التي أخذت ترنحها فوق السرج ..

وعند اسفل الهضبة أرخى رودولف العنـــان فانطلقا معاً في خطوة موحدة ، ثم وقفت الخيل فجأة عندما وصلا الى القمة فانسدل وشاحها الازرق الكبير .

كنا في الايام الاولى من اكتوبر ، وكان ضباب فوق الحقول ، وقد امتدت الابخرة في الافق بين سفوح التلال وتمزقت أبخرة اخرى وصعدت وتلاشت ، واحياناً كانت السحب تنفرج تحت شعاع من الشمس فتلوح عن بعد سقوف ايونفيل ، والحدائق على حافة المياه ، والاجران والجدران وبرج الكنيسة ، وكانت اما تضم جفنيها لكي تتعرف على منزلها . ولم تلح لها هذه القرية المسكينة التي تسكنها في مثل هذا الصغر قبل اليوم او من الارتفاع الذي كانا فيه لاح الوادي كبحيرة كبيرة شاحبة تتبخر

في الهواء ، وكتل الاشجار تبرز هنا وهناك كأنهـا صخور سوداء ، وصفوف اشجار الجوز العالية التي ترتفع فوق الضباب قد لاحت كالرجال التي تحركها الرياح ..

وفوق المرج الى جوارها كان ضوء داكن يسري في الجـو الدافىء بين اشجار الصنوبر . والارض الضاربة الى الحمرة كمسحوق التبغ ، تخمير ضوضاء الخطوات والحصانان يدفعان امامهما بحدواتهما الحديدية وهما يسيران ثمار الصنوبر المتساقطة على الارض .

وهكذا واصل رودولف وايما السير على جافة الغابة وكانت تلتفت من وقت الى آخر لكي تتجنب نظرته . وعندئذ لم تكن ترى غير جذوع الصنوبر المتراصة ، وقد سبب لها تتابعها شيئاً من الدوار ، والحصانان يلهثان ، وجلد السروج يقرقع .

وفي اللحظة التي دخلا فيها الغابة ظهرت الشمس ..

فقال رودولف : ان عناية الله ترعانا .

فقال : الى الامام ! الى الامام !

وقرقع بلسانه فعد الحصانان .

وكانت اغصان السيسبان الطويلة النامية على حافة الطريق تعلق بركاب ايما وكان رودولف ينحني وهو يواصل السير لكي ينتزعها اولاً بأول . وفي بعض الاحيان كان يمر الى جوارها لكي ينحي الاغصان ، وكانت ايما تحس بركبته تمس ساقها . وكانت السماء قد اصبحت زرقاء ولم تعد الاوراق تتحرك ، ومساحات شاسعة قد امتلأت بالاعشاب المزهـرة ، وبقع من زهر البنفسج تتتابع مع ورق الشجر الذي كان رماديـاً او مصفراً او مذهباً ، تبعاً لاختلاف الورق . وكثيراً ما كان يسمع تحت الاعشاب انسياب خفقة جناح او صيحة مبحوحة عذبة تطلقها الغربان التي تتطاير بين اشجار البلوط .

وترجلا وربط رودولف الحصانين ، وسارت ايما أمامه فوق الحشائش

بين دروب الطريق .

لكن الثوب الطويل أخذ يضايقها بالرغم من انها حملته مرفوعاً من الذيل وأخذ رودولف يتأمل وهو يسير خلفها يتأمل ، ورقة جوربهـا بين سواد الرداء وسواد الحـذاء ـ وقد لاح له كأنه جزء من جسمها العـاري .

وتوقفت قائلة : لقد تعبت .

فقال : هيا فلنحاول مرة اخرى . تشجعي !

وبعد ذلك بمائة خطوة وقفت ثانية . ومن خلال وشاحها الذي تدلى الى ردفيها ، من القبعة الرجالي التي كانت تلبسها ، لاح وجههـا في شفافية ضاربة الى الزرقة ، وكأنها قد سبحت تحت امواج لازوردية ..

الى أين نذهب ؟

فلم يجب بشيء . وكانت تتنفس تنفساً متقطعـاً . ودار رودولف ببصره من حوله وعض شاربه .

ووصلا الى مكان فسيح كانت قد قطعت اشجاره . وجلسا فوق جذع شجرة مطروح على الارض ، واخذ رودولف يتحدث اليها عن حبه ..

وفي اول الأمر لم يخفها قط بعبارات غزله ، فقد كان هادئاً جاداً مبتئساً ..

وكانت ايما تنصت اليه خافضة الرأس ، وهي تحرك بطرف قدمها قطعاً من الاغصان المتساقطة على الارض .

أجابت على قوله :

ـ أليس مصيرانا الآن قد اتحدا ؟ »

بقولها : آه . لا ! وهذا انت تعرف جيداً ، هذا مستحيل ! »

ونهضت لكي ترحل ، فأمسك بمعصمها . فتوقفت ثم أخذت تتأمله بضع دقائق بعين ولها ندية ثم قالت في حيويـة : آه . فلنمسك عن الحديث ... أين الخيل ؟ فلنعد . »

وبدرت منه حركة غضب وضجر فكررت قولها : « اين الخيل ؟ أين الخيل ؟ »

وعندئذ ابتسم ابتسامة غريبة وقد جمدت حدقة عينه وضغط على اسنانه ، وتقدم نحوها فاتحاً ذراعيه فارتدت الى الخلف واجفة وهي تتمتم: آه . انك تخيفني – انك تؤلمني ! فلنرحل ! .

فقال وقد تغير وجهه : اذا لم يكن بد !

واصبح بعد ذلك مباشرة حفياً مداعباً حيياً . واعطته ذراعها وقفلا راجعين ثم قال : ما بك إذن ؟ لماذا ؟ انني لم افهم : انك بلا ريب مخطئة . فأنت في قلبي كتمثال العذراء فوق قاعدته ، في مكان مرتفع متين نقي ! وانا في حاجة اليك لكي احتمل الحياة ! انني في حاجة الى عينيك – الى صوتك – الى تفكيرك . فلتكوني صديقتي – اختي – ملاكي !!

ومدّ ذراعه وطوق خصرها ، وحاولت في رخاوة ان تتخلص . وظل يسندها هكذا وهما سائران .

لكنهما سمعا الحصانين يرعيان العشب .

فقال رودولف : « ليس بعد » فلننتظر . فلتبق !

وقادها بعيداً حول مستنقع كان العشب المائي يكسو أمواجه خضرة، والنيلوفر الذابل قائماً في سكون بين البوح ، وعندما أحست الضفادع بوقع اقدامها فوق العشب أخذت تقفز لكي تختبىء ..

وقالت : «اني مخطئة – نعم مخطئة، بل ومجنونة اذ استمعت اليك ».

– لماذا ؟ ... اءما : اءما !

وفي بطء قالت السيدة الشابة وهي تميل على كتفه «آه ! رودولف !..»

وتعلق قماش ثوبها بمحمل سترته وطرحت الى الخلف رقبتها البيضاء التي انتفخت تنهيدة ثم انهارت باكية واعترتها رعشة طويلة واخفت وجهها واستسلمت !

وهبطت ظـلال المساء . وتسللت اشعة الشمس بين الاغصان ، فأعشت عينيها ، وانتثرت حولها هنا وهناك بين الاوراق او على الارض بقع من الضوء اخذت تهتز ، وكأن طائراً كالحباب قد نثر ريشه وهو يطير . وكان الصمت منتشراً في كل مكان ، وكأن شيئاً عذباً ينبعث عن الاشجار وأحست بقلبها يستأنف خفقانه ، والدم يجري في جسدها كأنه نهر من اللبن . وعندئذ سمعت عن بعد خلف الغابة وفوق التلال الاخرى صيحة غامضة ممتدة ... صوتاً متراخياً . استمعت اليه في صمت وقد امتزج كالموسيقى بآخر اهتزازات اعصابها الثـائرة ، وقد وضع رودولف سيجارة بين اسنانه وأخذ يصلح بمطواته أحد العنانين المكسورين.

وعادا الى يونفيل بنفس الطريق ورأيا على الوحل آثار حصانيهما جنباً الى جنب ، كما رأيا نفس الأشجار ونفس الاحجار في العشب فلم يتغير شيء مما حولها، ومع ذلك فقد حدث بالنسبة اليها شيء اكثر خطورة من انتقال الجبال من مكانها،ومن وقت الى آخر كان رودولف ينحني ويأخذ يدها ليقبلها .

وكانت ساحرة فوق الحصان ! وقد انتصبت بخصرها الضامر وركبتها المثنية فوق معرفة الدابة ، وقد تلوث وجهها قليلاً في الهواء الطلق وفي حمرة المساء .

ودخلا ايونفيل . واخذت تتمشى على الطريق المرصوف والناس ينظرون اليها من النوافذ .

وكان زوجها يتناول العشاء وقد وجدها مشرقة الطلعة ، ولكن كان يلوح انها لا تسمعه عندما كان يسألها عن نزهتها . وقد ظلت متكئـة بمرفقها بجوار طبقها بين الشمعتين المضيئتين .

فقال : اما !

ـ ماذا ؟

ـ لقد أمضيت بعد ظهر اليوم عند السيد الكسندر ، ووجدت عنده

مهرة ، لكنها لا تزال جميلة ، وان تكن ركبتاها متسلختين . واني لمتأكد من انه يمكن الحصول عليها بمائة دينار . »

وأضاف : « ولما كنت اظن ان هذا قد يروقك فقد حجزتها ..لقد اشتريتها .. فهل أحسنت صنعاً ؟ أجيبيني إذن ! »

فهزت رأسها كدليل على الموافقة . وبعد ذلك بربع ساعة سألته : هل ستخرج هذا المساء ؟ .

– نعم . لماذا ؟

– آه ! لا شيء ، لا شيء يا عزيزي .

وبمجرد ان تخلّصت من شارل صعدت وحبست نفسها في غرفتها .

وكانت أول الامر في شبه دوار ، فكانت ترى الاشجار والطرق والحفرات ورودولف . وكانت لا تزال تحس بضمة ذراعيه ، بينما تهتز الأعشاب وينبعث الصفير من الغاب .

ولكنها عندما رأت نفسها في المرآة دهشت لمنظر وجهها ، فهي لم تر قط عينيها في مثل هذا الاتساع وهذا السواد وهذا العمق ، وقدانساب على شخصها شيء غامض غيّرها تغييراً تاماً .

وكانت تكرر : « ان لي عشيقاً ! عشيقاً » . وهي تتلذذ بهذه الفكرة ، وكأنها فورة مراهقة قد عادت اليها ، فهي سوف تمتلك اذن لذات الحب وحمى السعادة التي كانت قد يئست منها . ودخلت في جو عجيب انقلب فيه كل شيء الى انفعال وهيام وهذيان ، وهي تسبح في محيط مترام ضارب الى الزرقة . وقمم الاحساس تبرق امام خاطرها . اما الحياة العادية فلم تعد تلوح امامها الا عن بعد ... وفي اسفل ... في الظلال بين هذه القمم .

وعندئذ تذكرت بطلات الكتب التي قرأتها وأخذت تلك الكتيبة الشعرية من النساء الزانيات يغنين في ذاكرتها بأصوات اخوات سحرتها . فقد اصبحت هي نفسها جزءاً حقيقياً من تلك الخيالات ، وقد حققت حلم

شبابها الطويل وهي تتأمل نفسها في ذلك النوع من العاشقات الذي طالما تلهفت اليه ! وفوق ذلك أحست إيما بنوع من الرضا للانتقام . فهي قد قاست الكثير ، لكنها قد انتصرت الآن والحب الذي كبتته طويلاً قد اخذ يتفجر بعنفوانه الكامل كفقاقيع مرحة ، وأخذت تتذوقه من غير ندم ولا قلق ولا اضطراب.

ومر اليوم التالي في عذوبة جديدة ، فتبادلا العهود وقصت عليه احزانها . وكان رودولف يقاطعها بقبلاته وكانت تطلب اليه وهي تتأمله بعينيها المغمضتين نصف اغماضة بأن يدعوها ثانية بأسمها ، وأن يكرر انه يحبها . وكانا في الغابة كاليوم السابق تحت خصاص للفلاحين كانت جدرانه من القش وسقفه منخفضاً بحيث يقف فيه الانسان متمنياً وقد جلسا احدهما الى جوار الآخر على فراش من الاوراق الجافة .

ومنذ ذلك اليوم اخذا يتراسلان بانتظام كل مساء . وكانت ايما تحمل خطابها الى طرف الحديقة بجوار النهر وتضعه في شق من السياج ، حيث كان رودولف يأتي ليأخذه ويضع مكانه خطاباً آخر ، وكانت ايما تشكو دائماً من ايجازه .

وذات صباح – وكان شارل قد خرج قبل الفجر – أخذتها نزوة في ان ترى رودولف فوراً . وكان من الممكن ان تصل الى لاهوشيت سريعاً وأن تبقى هناك ساعة ثم تعود الى ايونفيل بينما لا يزال جميع الناس نائمين . فأسالت هذه الفكرة لعابها ، واذا بها وسط المراعي تسير بخطى سريعة دون ان تنظر خلفها .

وكان النهار قد اخذ يبزغ فعرفت ايما عن بعد منزل عشيقها حيث كانت دوارتا الريح المنصوبتان فوقه والمصنوعتان على شكل ذيل السنونو قد اخذتا تتحددان سوداوين فوق الغسق الشاحب .

وبعد جرن المزرعة كان يقوم بناء لا بد أنه القصر ، فدخلته ، وكأن الجدران قد انشقت من تلقاء نفسها لمقدمها . وقادها سلم كبير

الى الدهليز ، وأدارت مزلاج باب ، فاذا بها تلمح فجأة في نهاية الغرفة رجلاً نائماً . لقد كان رودولف وأطلقت صيحة .

فقال : « ها انت ذي ! ها انت ذي ! كيف حضرت ؟ آه ! لقد تبلل ثوبك ! »

فأجابت وهي تطوق رقبته بذراعيها : « انني احبك ! »

ولما كانت هذه الفعلة الجريئة الأولى قد نجحت ، ففي كل مرة يخرج فيها شارل مبكراً كانت اىما ترتدي ملابسها مسرعة وتنزل في خطوة الذئب – الدرج الذي يؤدي الى شاطىء الماء .

لكنها عندما كانت تجد معبر البقر الخشبي مرفوعاً ، كانت تضطر الى ان تسير في محاذاة الجدران الممتدة على طول النهر .

ولما كان الشاطىء زلقاً ، فانها كانت تمسك بيديها شجيرات القرطم الذابلة لكي لا تسقط . ثم كانتخت تصر الطريق بالسير في الحقول المحروثة حيث كانت تغور وتتعثر ويغوص حذاؤها الرفيع . وكان خمارها المعقود فوق رأسها يهتز في الريح وسط الأعشاب ، وكانت تخاف من البقر فتأخذ في العدو ، وتصل لاهثة وردية الخدين وقد انبعث من وجودها كله عند عطر نضر من الخضرة والهواء الطلق ، ويكون رودولف لا يزال نائماً فكانت كصباح يوم ربيع يدخل في غرفته !

وكانت الستائر الصفراء على طول النوافذ ترسل في رفق شعاعاً ذهبياً ثقيلاً ينفذ الى الغرفة ، وكانت اىما تتحسس ما امامها ، وعيناها تختلجان ، بينما قطرات الندى المعلقة بخصلات شعرها تلوح كهالة من الزبرجد حول وجهها ، ورودولف يجذبها نحوه وهو يضحك ، ويضمها الى قلبه .

وبعد ذلك كانت تفحص البيت وتفتح أدراج الأثاث وتمشط شعرها بمشطة وتنظر في مرآته ، وكثيراً ما كانت تضع بين اسنانها مبسم غليون ضخم تجده على منضدة السرير ، وسط الليمون وقطع السكر الى جوار دورق ماء .

(ولم يكن يكفيها ربع ساعة للوداع) وعندئذ كانت ايما تبكي وتود ان لا تفارق رودولف قط لقد . كانت مدفوعة نحوه بشيء اقوي . إنه قطب وجهه يوماً متضايقاً عندما رآها تفاجئه بالمجيء .

فقالت . « ما بك اذن ؟ هل انت مريض ؟ قل لي ! » .

وأخيراً اعلن في نفحة جادة ان هذه الزيارات أصبحت مجازفة وأنها تورط نفسها !

* * *

شيئاً فشيئاً اخذت مخاوف رودولف تتغلب عليها . ففي اول الأمر كان الحب قد أثملها فلم تكن تفكر في شيء سواه . اما الآن وقد اصبح شيئاً ضرورياً لحياتها فانها صارت تخشى ان تفقد منه شيئاً ، او ان يعكر صفوه معكر . وأثناء عودتها من عنده كانت تلقي على كل ما حولها نظرات قلقة فترقب كل شبح يمر بالأفق ، وكل كوة بالقرية يمكن ان يراها منها احد ، وكانت تنصت لوقع الأقدام وللصيحات ، ولضوضاء المحاريث ، وكانت تقف احياناً شاحبة مرتعدة اكثر من اوراق الحور التي تهتز فوق رأسها .

وبينما كانت عائدة على هذا النحو ذات صباح ، اذا بها تتبين فجأة ماسورة بندقية كبيرة لاح أنها موجهة الى خدها ، وكانت هذه الماسورة تبرز بميل فوق حافة برميل صغير ، غاص نصفه بين الأعشاب ، على حافة حفرة . وبالرغم من ان ايما كانت على وشك الاغماء من الخوف ، فانها تقدمت ، وخرج رجل من البرميل ، كتلك العفاريت ذات اللوالب التي تقفز من قاع الصناديق ، وكان يرتدي حذاء طويلاً ذا اقفال يصعد حتى ركبتيه ، وقلنسوة مكبوسة حتى عينيه ، شفتاه ترتعدان وأنفه احمر ... لقد كان القائد بينيه متربصاً للبط البري !!

وصاح قائلاً : « كان يجب ان تتكلمي عن بعد . وعندما يرى

الانسان بندقيته يجب دائماً ان ينبه ! »

وكان المحصل يحاول بهذا ان يخفي الخوف الذي استشعره ، وذلك لأن قراراً من المديرية كان يحظر صيد البط الا في القارب . وبالرغم من احترام السيد بينيه للقوانين ، الا انه كان متلبساً بمخالفتها . ولذلك كان يظن في كل لحظة انه يسمع الخفير قادماً . لكن هذا القلق كان يثير لذته ، وكان يزهو وحيداً في البرميل بسعادته ودهائه !!

وعندما رأى ايما لاح انه يتنفس الصعداء فأخذ لفوره يتجاذب معها الحديث :

– ان الجو ليس دافئاً – انه قارس !

ولم ترد ايما بشيء فاستمر يقول :

– وها انت قد خرجت مبكرة ؟

فقالت متمتمة : نعم . انني قادمة من عند مرضعة طفلي !

– آه . حسن جداً ! حسن جداً ! وأما أنا فمنذ مطلع الفجر تريني هنا في هذه الهيئة والجو من الرداءة بحيث اذا لم يأخذ الانسان أهبته كاملة ...

فقاطعته ايما وهي توليه ظهرها قائلة : « مرحبـــاً يا سيد بينيه ! » فأجاب بنفحة جافة : « خادمك المطيع يا سيدتي ! »

ثم انسحب الى برميله .

وندمت ايما لأنها غادرت المحصل فجأة على هذا النحو . فهو بلا ريب سوف يفترض فروضاً غير سارة ، وكانت حكاية المرضعة اردأ اعتذار ، ذلك لأن جميع الناس في ايونفيل كانوا يعلمون جيداً ان الطفلة بوفاري كانت قد عادت الى اهلها منذ عام . وذلك فضلاً عن ان احداً لم يكن يسكن في تلك الناحية . وهذا الطريق لم يكن يؤدي الا الى لاهوشيت . واذن فلا بد ان بينيه قد حدس من اين كانت قادمة . وهو لن يسكت بل سوف يثرثر بكل تأكيد . وظلت تعصر ذهنها حتى

المساء في كافة مشروعات الكذب التي يمكن تصورها ، وقد ظل ماثلاً امام عينيها باستمرار ذلك المغفل ذو المخلاة !

ولما رآها شارل بعد العشاء مهمومة اراد ان يسليها بأن يأخذها عند الصيدلي . وكان اول شخص لمحته في الصيدلية هو المحصل ثانية ، كان واقفاً امام البنك وقد انصب عليه الضوء من خلال الأناء الاحمر وهو يقول :

– اعطني من فضلك نصف أوقية من ماء النار .

فصاح الصيدلي : « يا جوستان اعطنا حامض الكبريتيك » .

ثم قال لايمـا التي كانت تريد ان تصعد الى جناح مدام هوميه : « لا . أبقي لا تتعبي نفسك فانها ستنزل . أدفئي نفسك على المدفأة الى ان تنزل ... معذرة . مرحبـاً يا دكتور » وكان الصيدلي يحلو له كثيراً ان يفوه بلفظة الدكتور ، وكأنه عندما يوجهها الى غيره يتوقع ان ينعكس على شخصه شيء مما يراه فيها من فخامة !! « ولكن احذر من ان تقلب الهاون ! ومن الأفضل ان تذهب الى الصالة الصغيرة لتحضر المقاعد ، فأنت تعلم جيداً اننا لا نمس فوتيات الصالون !! » .

اسرع هوميه خارج البنك لكي يضع الفول في مكانه وعندما طلب منه بينيه نصف اوقية من حامض السكر ، قال الصيدلي في ترفع : حامض السكر ؟ انني لا اعرف شيئاً كهذا – لا علم لي به ! ربما تريد ان تقول حامض الاوكزاليك ؟ أليست اوكزاليك هي الكلمة التي تقصدها ؟ »

وأوضح بينيه أنه في حاجة الى مادة كاوية لكي يركب بنفسه محلولاً من ماء النحاس يزيل به الصدأ عن عدد من ادوات الصيد . (فانتفضت ايما ، وقال الصيدلي : حقاً ان الجو غير ملائم بسبب الرطوبة !)

فقال المحصل بخبث : « ومع ذلك فانه يلائم بعض الاشخاص ! » فاختنقت !

وقال بينيه : « اعطني ايضاً ... »

فقالت لنفسها : « الظاهر انه لن يرحل ابداً ! »

– نصف اوقية من الغراء والتربانتينة واربع اوقيات من الشمع الاصفر، وثلاثة ارباع اوقية من فحم الحيوان ، من فضلك لتنظيف الجلد المصقول في أدواتي . »

وابتدأ الصيدلي في تقطيع الشمع عندما ظهرت مدام هوميه ، وارما في ذراعيها ونابليون الى جوارها وأتالي من خلفها ، واتجهت لتجلس على اريكة المخمل الى جوار النافذة . وقبع الطفل في مقعد ، بينما اخذت اخته الكبيرة تحوم حول صندوق « الربسوس » الى جوار والدها العزيز، الذي كان يسكب السوائل في اقماع ، ويسد الزجاجات ويلصق البطاقات ويلف اللفافات ! وكان الصمت مخيماً حوله فلم يكن شيء يسمع غير وقع الصنج في الميزان من وقت لآخر ، وبعض عبارات يهمس بها الصيدلي الى تلميذه كارشادات .

وفجأة سألت مدام هوميه : « وكيف حال طفلتكم الصغيرة ؟

فصاح زوجها الذي كان يكتب ارقاماً في دفتر المسودات : هس !

فاستأنفت بصوت خافت : « لماذا لم تحضروها ؟ » فقالت ايما وهي تشير باصبعها الى الصيدلي : هس ! هس ! »

ولكن بينيه الذي كان منهمكاً بمراجعة الحساب لم يسمع شيئاً فيما يبدو . ثم خرج اخيراً . فتخلصت ايما وتنفست الصعداء !

وقالت مدام هوميه : انك تتنفسين تنفساً عميقاً ! » .

فأجابت : آه . ذلك لأن الجو حار .

وحرصت ايما ورودولف في اليوم التالي على تنظيم مقابلاتهما . وأرادت ايما ان ترشو خادمتها بهدية . وان كانت تفضل لوعثرا في ايونفيل على بيت منزو . ووعد رودولف بالبحث عنه .

وخلال الشتاء كان يأتي الى الحديقة في ظلام الليل ثلاث أو اربع مرات كل اسبوع . وقد عمدت ايما الى ان تنزع من باب السياج

المفتاح الذي ظن شارل انه قد فقد » .

ولكي يعلنها بوصوله كان رودولف يقذف خشب النافذة بحفنة من الرمل فتنهض قافزة . وان كان يضطر أحياناً الى الانتظار . وذلك لأن شارل كان مولعاً بالثرثرة الى جوار النار ، ولم تكن ثرثرته تنتهي .

وكانت اللهفة تفتك بها ، ولو أن عيناها استطاعتا لقذفتا به من النافذة . وأخيراً كانت تلبس ملابس النوم ثم تأخذ كتاباً وتستمر في القراءة في هدوء ، كأنها مسرورة بهذه القراءة . ولكن شارل الراقد في السرير كان يدعوها لكي تنام قائلا : « ايما ، تعالي لقد حان الوقت ! » .

فتجيب : نعم ، « اني قادمة ! »

ومع ذلك فلما كانت الشموع تعشى بصره فانه كان يستدير نحو الحائط ويغلبه النعاس ، فتفلت حابسة أنفاسها، مبتسمة ، نابضة عارية!

وكان لرودولف معطف كبير يلفها فيه بأكملها ويطوق خصرها بذراعه ثم يقودها في صمت حتى نهاية الحديقة .

كان يأخذها تحت العريشة على نفس المقعد المصنوع من الأعواد المتعفنة حيث كان ليون ينظر اليها في الماضي بعين ولهانة خلال أمسيات الصيف ... لكنها لم تعد تفكر فيه الان قط !

وكانت النجوم تبرق من خلال أغصان الياسمين العارية عن الورق ، وكانا يسمعان من خلفهما خرير مياه النهر . ومن وقت الى آخر قرقعة البوحي الجاف على الشاطىء . وهنا وهناك كانت تنتفخ كتل من الظلال وسط الظلام ، وتهتز كلها احياناً بحركة واحدة ، وتنهض ثم تنحني كأمواج صخمة سوداء ، تتقدم لكي تغطيهما . وكان برد الليل يحملها على تشديد العناق ، وتنهدات شفتيهما تلوح لهما اكثر قوة ، وعيناهما اللتان لا تكادان يتبينانها تلوحان اكثر اتساعاً . وفي وسط الصمت كانا يتهامسان

بعبارات تسقط على روحيهما كرنين البلور ، وتتردد عنها ذبذبات عديدة متكاثرة .

وفي الليالي المطيرة كانا يلجآن الى غرفة الفحص بين المخزن والحظيرة . وكانت توقد احد مشاعل المطبخ وقد خبأته خلف الكتب . وكـــان رودولف يتربع هناك كأنه في بيته ، ومنظر المكتبة والمكتب ، والمكان كله يثير مرحه . ولم يكن يستطيع ان يمسك عن ان يطلق على شارل عدة نكات تحرج ايما التي كانت تود أن لو رأته اكثر جداً ، بل واكثر انفعالاً عندما تستدعي المناسبة ، كما حدث عندما خيل اليها انها تسمع وقع اقدام تقترب .

فقالت : ان احداً قادم .

فاطفأ النور .

– هل لديك مسدسك ؟

– لماذا ؟

فأجابت ايما : لماذا ... لكي تحمي نفسك .

– أحميها من زوجك ؟ آه ! هذا المسكين !!

وأنهى رودولف عبارته بحركة تفيد انه « يستطيع ان يسحقه بنفضة ظفـــر » .

فأذهلتها شجاعته ، وان تكن قد احست بنوع من الغلظة والسماجة الساذجة التي استهجنتها .

وفكر رودولف كثيراً في حكاية المسدس ، وظن انها كانت جادة في هذه الحكاية . فهي اذن مضحكة الى اقصى حد ، بل شنيعة ! وذلك لأنه لم يكن لديه أي سبب يبغض من أجله هذا الرجل الطيب شارل والا كان معنى هذا انه يلتهب ضده غيرة . وكانت ايما قد حدثته في هذا الصدد حديثاً طويلاً لم يرَ فيه ذوقاً سليماً .

ثم انها اصبحت عاطفية . وكانا قد تبادلا صوراً مصغرة خصلات

من الشعر كتذكار ، لكنها أخذت تطلب الآن خاتماً - خاتم زواج حقيقي شعاراً للارتباط الأبدي وكثيراً ما كانت تحدثه عن اجراس المساء، او عن اصوات الطبيعة ، ثم تحدثه عن امها وعن امه التي كان رودولف قد فقدها منذ عشرين عاماً . ومع ذلك فقد كانت انما تعزيه عنها في عبارات تافهة ، كتلك التي توجه الى طفل محروم ، بل وكانت تقول له احياناً وهي تنظر الى القمر : « انني واثقة من انهما تباركان في عليائهما حبنا !! »

لكنها كانت رائعة الجمال . ولم يكن قد عثر الا على القليل من هذا الصفاء . فهذا الحب الخالي من التهتك كان بالنسبة اليه شيئاً جديداً أخرجه من استهتاره المألوف ، وأخذ يداعب كبرياءه ولذته الحسية على السواء. «واندفاع» انما ذلك الاندفاع الذي كان يحتقره بحسه البرجوازي أخذ يبدو له ساهماً في اعماق قلبه ما دام موجهاً الى شخصه . ومنذ ان استوثق من حبها فتر اهتمامه وأخذت معاملته تتغير في تدرج غير محسوس .

– فلم تعد تصدر عنه – كما كان يفعل من قبل – مثل تلك الكلمات العذبة التي تسيل دموعها ولا مثل تلك القبلات الحارة التي تحس بها جنوناً حتى خيل اليها ان حبها العظيم الذي غاصت فيه قد أخذ يغيض من تحتها ، كمياه النهر التي تغيض في مجراه حتى تكشف لها الوحل ! ولم ترد ان تصدق ، فضاعفت من حنانها ، لكن رودولف اخذ يتحلل شيئاً فشيئا من اخفاء عدم مبالاته، يقلل شيئاً فشيئاً من حرصه على اخفاء فتوره .

ولم تدر هل تندم لاستسلامها له ، ام على العكس تأمل في ان تزيده حباً ، وهل ينقلب الصغار الذي أحسته – لضعفها – الى حقد لا تطفىء ناره اللذات ؟ ولم يكن الأمر تعلقاً بل غواية مستمرة ، فقد سيطر عليها، وأصبحت تحس نحوه بما يشبه الخوف .

ومع ذلك فقد كانت المظاهر اكثر هدوءاً من أي وقت مضى . وقد

استطاع رودولف ان يقود الآثمة وفق هواه . وبعد ستة اشهر عندما جاء الربيع ، كان احدهما كزوج وزوجة ازاء الآخر يتعهدان في هدوء لهب الاسرة !

وكـان هذا هو الموعد الذي يرسل فيه الأب رود الديك الرومي ، تذكاراً لساقه التي جبرت . وكانت الهدية تصل مصحوبة بخطـاب ، فقطعت ايما الحبل الذي يعلقه بالسلة ، وقرأت الأسطر الآتية :

« أبنائي الاعزاء

« انني لأرجو ان يجدكم خطابي هذا في صحة جيدة ، وان يكون هذا الديك في جـودة سابقيه ، وذلك لانه يلوح لي اكثر ضراوة ، واجرؤ ان اقول اكبر حجماً . ولكنني في المرة القادمة سأعطيكم — للتغيير — ديكاً من الدجاج وذلك ما لم تكونوا تفضلون السمك . وأرجو ان تعيدوا السلة مع السلتين السابقتين ! ولقد حدثت حادثة عندي لمظلة العربات ، اذ طارت ريح عاتية بسقفها وسط الاشجار ، كما ان المحصول لم يكن مفرط الجودة ! واخيراً لست ادري متى سأحضر لرؤيتكم فمن الصعب علي ان اترك الآن المنزل ، منذ ان اصبحت وحيداً يا بنيتي العزيزة» .

وكانت في هذا الموضع فجوة بين السطور وكأن الرجف قد ترك القلم يسقط من يده لكي يسبح في احلامه بعض الوقت .

« واما عن نفسي فانني بخير ، فيما عدا الزكام الذي اصبت به منذ ايام في سوق ايفيتو ، حيث ذهبت لكي استحضر راعياً للغنم ، بعد ان طردت الراعي الذي كان عندي بسبب شراهته . ويا ويلنـا من هؤلاء اللصوص امثال ذلك الراعي .

« ولقد علمت من تاجر متجول مر ببلدتكم هذا الشتـاء ، واقتلع ضرساً ، ان بوفاري يجهد دائماً نفسه في العمل . وليس في هذا ما يدهشني . ولقد اراني ضرسه وتناولنا القهوة سوياً .. وقد سألته عما اذا كان قد رآك فأجاب بالنفي لكنه اخبرني انه قد رأى حصانين في الحظيرة

فاستنتجت ان العمل يسير سيراً مرضياً وفي هذا ما تطيب له نفسي يا ابنائي الاعزاء ، وليضف الله عليكما كل سعادة يمكن تصورها .

« وانه لما يحزنني أن لا اعرف حتى الآن حفيدتي العزيزة برت بوفاري . ولقد غرست في الحديقة وتحت النافذة من اجلها شجرة برقوق، ولا اريد ان يمسها احد اللهم الا لكي يظهر لها فيما بعد كومبوت واحفظه لها في الصوان عندما تحضر !

« وداعاً ابنائي الاعزاء ، واقبلك يا ابنتي كما أقبل صهري والطفلة على الوجنتين .

« وانني مع تحياتي .

ابوكم الحنون

تيودور رود »

وظلت بضع دقائق ممسكة بين اصابعها بهذه الورقة السميكة . وكانت أخطاء الاملاء آخذة بعضها برقاب بعض . وكانت ايما تتابع تلك الروح العذبة التي تنقنق خلالها ، كالزجاجة المتوارية تحت كومة من الشوك ! كانوا قد جففوا الكتابة برماد النار فتساقط بعض الغبار الرمادي من الخطاب فوق ثوبها . وكادت تتصور اباها منحنياً فوق المدفأة لكي يتناول الملقط. وأخذت تفكر في الزمن الطويل الذي لم تعد تجلس فيه الى جواره فوق المقعد المنخفض حول المدفأة وهي تشعل طرف عصا في لهب البوص البحري الذي يئز وتذكرت أمسيات الصيف المشمسة والمهر تصهل عندما يمر احد ، وتعدو ثم تعدو — وكانت هناك تحت نافذتها خلية عسل ، وكان النحل يحوم احياناً في الضوء ويصطف بألواح الزجاج ككرات ذهبية تتفاخر ... أية سعادة كانت في تلك الأيام ! وأية حرية ! وأي أمل ! واي فيض من الاحلام ! كل هذا لم يبق منه شيء الآن ! لقد انفقته في مغامرات روحها خلال مراحل حياتها المتتابعة : ايام عذريتها وايام الزواج ، وايام الحب ، وهي تفقدها باستمرار على طول

حياتها ، كالمسافر الذي يترك شيئاً من ثروته في كل فندق من فنادق الطريق !

ولكن ، من الذي تسبب لها في كل هذه التعاسة ؟ وأية كارثة خارقة تلك التي قلبت حياتها ؟ ... ثم رفعت رأسها ، وأخذت تنظر حولها ، وكأنها تبحث عن السبب الذي نتج عنه هذا الشقاء .

وكان شعاع من شمس ابريل يداعب الاواني الصدئة فوق الرف ، والنار تتقد . وأحست رقة السجاد تحت خفها . وكان اليوم مشرقاً ، والجو فاتراً ، وسمعت طفلتها ترسل الضحكات .

لقد كانت الطفلة تتدحرج فوق العشب وسط الحشائش التي كانوا يجففونها . وكانت مستلقية على بطنها فوق حجر طاحون ، وخادمتها تمسكها من ثوبها . وكان ليسيتيبودوا يعزق الارض الى جوارها . وكلما اقترب انحنت ، وهي تضرب الهواء بكلتا ذراعيها .

وقالت الأم وهي تهرول لتقبلها ؟ « احضريها إلي ! » كم احبك ايتها الطفلة المسكينة ! ... كم أحبك ! »

ثم لمحت ان طرف أذنها به بعض الوسخ . فدقت الجرس بسرعة لكي يحضروا لها الماء الساخن ونظفتها ، وغيرت ملابسها وجوربها وحذاءها، وألقت آلاف الاسئلة عن صحتها ، وكأنها عائدة من رحلة . واخيراً قبلتها ثانية ، وبكت قليلاً ، ثم ردتها بين ايدي الخادمة التي ظلت مندهشة من ذلك الحنان المفرط !

وفي المساء وجدها رودولف جادة اكثر من المعتاد .

فقدر انها نزوة سوف تمر .

وتغيب عن ثلاثة مواعيد متتالية . وعندما عاد تظاهرت بالبرود، بل وبالاحتقار .

– آه ! انك تضيعين وقتك يا صغيرتي ... »

ولاح انه لا يلاحظ تنهداتها الحزينة ، ولا المنديل الذي كانت تشده ....

وعندئذ استشعرت ايما الزم !

بل وتساءلت لماذا اذن تبغض شارل؟ ألم يكن من الأفضل ان تستطيع حبه . لكنها لم تستجب لسلطان هذا الاحساس ، بل ظلت بالغة الحيرة ازاء هذا الدافع الضعيف نحو التضحية ، حتى أتى الصيدلي في الوقت المناسب لكي يتيح لها فرصته .

• • •

كان قد اطلع اخيراً على تقريظ لطريقة جديدة لعلاج الاقدام الشوهاء. ولما كان من انصار التقدم ، فقد خطرت له تلك الفكرة الوطنية التي ترتفع بايونفيل الى المستوى اللائق بها ، وهي ان تجري فيها عمليات اصلاح جراحة العظام !!

وقال لايما : «وأي خطر في ذلك ؟ .. لنفحص الامر !» ثم اخذ يعدد على اصابعه مزايا هذا المشروع : « نجاح مؤكد تقريباً، تخفيف عن المرضى وتجميلهم ، وشهرة سريعة للجراح !... ولماذا لا يريد زوجك مثلاً ان يخلص هذا المسكين هيبوليت خادم « الأسد الذهبي » ؟ ولتلاحظي انه لن يحجم عن ان يقص قصة شفائه على جميع النزلاء ! » ثم خفض هومين من صوته ونظر حوله وقال : « ثم ما الذي يمنعني اذن من ان أرسل الى الجريدة نبذة صغيرة في هذا الصدد ؟ ! . »

وسينتشر المقال ويتحدث عنه الناس ، حتى ينتهي الامر بالتضخم ككرة الجليد . ومن يدري ؟ ! .. من يدري ؟ »

والواقع انه كان من الممكن لبوفاري ان ينجح . ولم يكن هناك شيء يثبت لايما انه غير ماهر . واي رضى عن نفسها ستصيبه اذا دفعته نحو هذا المشروع الذي سيزيد من شهرته وثروته . ولم تكن تبغي الا ان

تستند الى شيء اكثر صلابة من الحب .

وألحت هي والصيدلي على شارل فاقتنع . واستحضر من روان مجلد الدكتور ديفال . وفي كل مساء كان يأخذ رأسه بين يديه ثم يغوص في هذه القراءة .

وبينما كان يدرس اعوجاج القدم من اسفل ومن الداخل ومن الخارج أي ما يسمى بـ : ستريفوكا توبول يا وستريفندوبوديا وستريفكسوبوديا، مع العمليات المسماة ستريفيبوديا اي الاعوجاج الى اسفل ، والتصحيح الى اعلى ، كان السيد هوميه يحث خادم الفندق بكافة الحجج لكي يطلب اجراء العملية الجراحية ، قائلاً : انك لن تكاد تحس شيئاً — ربما ألماً خفيفاً ... وخزة بسيطة كعملية فصد صغيرة ، وأهون من انتزاع « كاللو » !

وكان هيبوليت يدور بعينين البلهاوين وهو يفكر .

ويضيف الصيدلي : « وعلى أية حال فان هذا لا يعنيني ، وانما هو في مصلحتك ، وبدافع انساني خالص ، وانما أريد ان أراك يا بني وقد تخلصت من هذا العرج القبيح ، واهتزاز حقويك مما لا بد — مهما قلت ان يسيء اليك اثناء تأدية عملك ! »

ثم صور له هوميه كيف انه سوف يحس بعد العملية بأنه اكثر قوة ونشاطاً ، بل ولمح له بأنه سيصبح في حالة أدعى الى الاستحواذ على اعجاب النساء ! فأخذ الخادم يبتسم ابتسامة ثقيلة ، ثم اخذ هوميه يتملق غروره فقال : أو لست رجلاً ؟ وماذا كنت فاعلاً لو انك جندت لتجارب في ظل العلم ؟ ... آه ! هيبوليت ! » ...

ثم أخذ هوميه يبتعد وهو يصرح بأنه لا يفهم هذا العناد وهذا التعامي عن افضال العلم !

واستسلم المسكين ! وذلك لأن الأمر كان كمؤامرة . فبينيه الذي لم يكن قط يتدخل في امور الآخرين ، ومدام فرانسوا ، وأرتميس ، بل

والعمدة ، والسيد يتفاسق وجميع الناس اخذوا يدفعونه ويلحـون عليه ويخجلونه ، وكان في مجانية العملية ما انتهى به الى اتخاذ قرار بل وتعهد بوفاري بأن يقدم الآلة اللازمة للعمليـة . وقد كانت ايما صاحبة فكرة هذا السخاء ، الذي وافق عليه شارل ، وهو يردد في اعماق نفسه ان زوجته ملاك !

وبعد محاولات ثلاث ومع ارشادات الصيدلي استطاع النجار بمساعدة الحداد ان يصنع شيئاً يشبه الصندوق وزنه ثمانية ارطال تقريباً لم ينقصه شيء من الحديد والخشب والقماش والجلد والمسامير اللولبية .

ومع ذلك فلكي يعرف اي عضل سيقطعه لهيبوليت ، كان لا بد من ان يعرف اولاً اي نوع من العرج كان في قدمه .

لقد كان قدمه يكون مع ساقه خطاً مستقيماً تقريباً ، وان لم يمنعه ذلك من ان يكون ملتوياً في الداخل ، بمعنى انه كان مصاباً باعوجاج من اسفل ممزوجاً بشيء من الاعوجاج الداخلي ، او كان مصاباً بقليل من الاعوجاج الداخلي مع اصابة شديدة باعوجاج سفلي . لكنه مع هذا الاعوجاج السفلي الكبير الذي يشبه قدم حصان بجلد سميك ، وعضلات جافة واصابع سميكة ، واظافر سوداء تشبه مسامير الحديـد فان هذا الاعرج كان يجري منذ الصباح حتى المساء ويعدو كالوعل .

فكنت تراه دائماً في الميدان يقفز حول العربات ملقياً الى الامام بثقله غير المتوازن بل كان يلوح انه اقوى بهذه الساق منه بالساق الاخرى ولكثرة ما اشتغلت كان يلوح بأنها قد اكتسبت صفات اخلاقية من الصبر والنشاط . وعندما كان يكلف بعمل ضخم كان يفضل ان يرتكز فوقها .

ولما كان مصاباً بأعوجـاج سفلي فقد كان من الواجب قطع عضلة « اضيل » ، على ان يقطع فيما بعد عضل داخلي في الساق لكي يتخلص من الاعوجاج الداخلي ، وذلك لأن الطبيب لم يكن يجرؤ ان يجـازف

بعمليتين في نفس الوقت ، بل وكان يرتعد خوفاً من ان يمس موضعاً هاماً لا يعرفه .

ان امبرواز باريه الذي اجرى لاول مرة بعد جلز وبعد مضي خمسة عشر قرناً عملية ربط الشريان ربطاً مباشراً ، وديبويترين الذي فتح دملاً في طبقة كثيفة من المخ وجوزري عندما قام بأول عملية لاستئصال الفك الاعلى – كل هؤلاء لم يخفق قلبهم ولم ترتعد يدهم ولم يتوتر عقلهم كما حدث للسيد بوفاري ، عندما اقترب من هيبوليت ممسكاً بمبضع العضلات بين اصابعه ! وكما يحدث في المستشفيات كنت ترى هناك على مائدة جانبية كومة من نسالة قماش وخيطاً مشمعاً وكثيراً من الضمادات ... هرماً من الضمادات .. كل ما كان عند الصيدلي من ضمادات !! وكان السيد هوميه هو الذي نظم منذ الصباح كل هذه المعدات (وذلك لكي يبهر الجمهور ، ثم لكي يرضي غروره) وشق شارل الجلد فسمعت قرقعة جافة ، وقطع العضل وانتهت العملية ، ولم تنته دهشة هيبوليت ، الذي انحنى على يد بوفاري وأخذ يغطيها بالقبلات .

وقال الصيدلي : « هيا .. الزم الهدوء وسوف تعترف فيما بعد بالفضل لمن احسن اليك » .

ونزل لكي يقص النتيجة على خمسة او ستة من الفضوليين الذين كانوا يرابطون في صحن الدار ، والذين كانوا يتصورون ان هيبوليت سيظهر ماشياً مشية مستقيمة . وبعد ان وضع شارل ساق مريضه في المحرك الميكانيكي عاد الى منزله حيث كانت ايما تنتظره على الباب في لهفة ، فقفزت الى عنقه ، وجلسا على المائدة ، وأكل كثيراً ، بل وأراد ان يتناول مع الحلوى فنجاناً من القهوة ، وهذا نوع من البذخ لم يكن يسمح لنفسه به الا في يوم الأحد عندما يكون لديه ضيوف .

وكانت الامسية ساحرة مليئة بالاحاديث والاحلام المشتركة . فقد تحدثا عن ثروتهما المقبلة وعن التحسينات التي سيدخلانها في منزلها وأخذ هو

يرى صيته يذيع ورخاءه يزداد ، وزوجته تحبه دائماً وأخذت هي تحس بنفسها سعيدة وبحياتها تنتعش باحساس جديد اكثر سلامة وخيراً كما اخذت تستشعر شيئاً من الحنان نحو هذا الرجل المسكين الذي يحبها . ومرت بخاطرها لحظة صورة رودولف ، ولكن عينيها انصرفتا الى شارل . بل ولاحظت في دهشة ان اسنانه لم تكن قبيحة .

وكانا في السرير عندما دخل السيد هوميه فجأة الى الغرفة ، بالرغم من الطباخة وفي يده ورقة لم يجف مدادها بعد ، هي اعلان اعده لجريدة فانال دي روان ، وقد حمله اليهما ليقرآه .

وقال بوفاري : اقرأه انت .

فقرأ « بالرغم من الآراء الرجعية التي لا تزال تغطي جزءاً من سطح اوروبا كالشبكة ، فان الضوء قد اخذ مع ذلك يتغلغل في ريفنا . ففي يوم الثلاثاء كانت مدينتنا الصغيرة ايونفيل مسرحاً لتجربة جراحية تعتبر في نفس الوقت من اعمال البر ، وذلك ان السيد بوفاري احد جراحينا البارزين ... »

وقال شارل وقد خنقه الانفعال : « آه . هذا كثير . » ابداً .. ابداً .. كيف هـذا ؟.. « قد اجرى عملية في قدم اعرج .. » انني لم اضع الاصطلاح العلمي وذلك لأنه في جريدة سيارة كما تعلم .. وقد لا يفهمه الجميع ، ومن الواجب ان الجماهير ... »

وقال بوفاري ، « هذا حق . استمر »

وقال الصيدلي : ها انا اواصل .. « السيد بوفاري احد جراحينا الممتازين قد اجرى عملية في ساق اعرج ، للمدعو هيبوليت توتان الذي يعمل منذ خمس وعشرين عاماً خادم اسطبل في فندق الاسد الذهبي الذي تديره الأرمل مدام لي فرانسوا في ميدان السلاح . وقد كان في جدة هذه المحاولة وفي الاهمية المعلقة على هذا الموضوع ما استحوذ على مشاعر السكان ، فتجمعوا في زحام شديد عند مدخل المبنى . وقد تمت العملية

فيما يشبه السحر ، ولم يسل من الدم غير بضعة نقط على الجلد ، وكأنما سالت لكي تنبيء بأن العضلة الجموح قد انتهت بالاستسلام لمجهودات الفن . ومن المدهش ان المريض (كما تحققنا بأعيننا) لم يستشعر اي ألم ، وحالته الآن لا تترك مجالاً لمستزيد . وقد تضافرت الدلائل على ان دور النقاهة سيكون قصيراً ومن يدري فلعلنا نشاهد في عيدنا الريفي المقبل فتانا هيبوليت الشجاع ، وهو يرقص في اعياد باخوس وسط جوقة من الفتية المرحين وبذلك يثبت لجميع الأعين بمرحه وخفته شفاءه الكامل ؟ الا فلنحي علماءنا الاخيار ، تلك الارواح التي لا تمل والتي تكرس لياليها لتحسين جنسها ، او للتخفيف من آلامه .. فلنحييها ولنحييها اكثر من مرة ، او لسنا في موقف يصح ان نصيح معه ان العميان سيبصرون ، والصم سيسمعون والعرجى سيمشون وما كان التعصب الديني يعد به المؤمنين قد اصبح العلم الآن يقدمه لجميع البشر . ولسوف نوافي القراء بالمراحل المتابعة لهذا العلاج الفذ . »

ولكن كل هذا لم يمنع الأم لي فرنسوا من ان تأتي بعد ذلك بخمسة ايام ملتاعة وهي تصيح :

– الغوث .. انه يحتضر ... انني اكاد افقد صوابي ..

وهرول شارل الى الأسد الذهبي .. ولمحه الصيدلي وهو يمر في الميدان بغير قبعة فترك الصيدلية وقد لاح هو نفسه لاهثاً محمراً قلقاً وأخذ يسأل كل اولئك الذين كانوا يصعدون السلم .

– ما الذي اصاب اعرجنا العزيز ؟

لقد كان الاعرج يتلوى في تقلصات بشعة ، حتى ان المحرك الميكانيكي الذي كان قد وضع فيه ساقه كان يصدم الحائط وكأنه سيهدمه .

وفي كثير من الاحتياط لكي لا يتغير وضع الساق سحبوا الصندوق واذا بهم امام منظر بشع . فمعالم القدم قد اختفت في ورم بلغ من الضخامة ان الجلد كله لاح على وشك الانفجار ، وقد تغطى بكدمات سببتها

تلك الآلة الشهيرة التي كان هيبوليت قد شكا من تألمه منها ، ولكن احداً لم يلتفت اليه وقد اصبح من الواجب الآن ان يعترف بأنه لم يكن مخطئاً كل الخطأ ولذلك تركوه حراً بضع ساعات ، ولكن لم يكد يختفي الورم قليلاً حتى رأى العالمان الفاضلان انه من الانسب اعادة ساقه الى الجهاز مع زيادة احكامه لكي يسرعوا في الامر . واخيراً لم يستطع هيبوليت الاحتمال بعد ثلاثة ايام ، فسحبوا الآلة مرة ثانية ولاحظوا لشدة دهشتهم النتيجة : وهي ظهور خراج متقيح يمتد على الساق مع بثور هنا وهناك يسيل منها سائل اسود . واتخذت المسألة وضعاً جدياً . فهيبوليت قد اخذ يتضجر ، والام لي فرانسوا قد وضعته في الصالة الصغيرة الى جوار المطبخ وذلك لكي يجد بعض التسلية على الاقل .

ولكن المحصل الذي كان يتناول عشاءه كل يوم هناك اخذ يشكو في مرارة من مثل هذا الجوار ، فنقل هيبوليت عندئذ الى صالة البليار .

لقد كان هناك يئن تحت غطائه السميك ، شاحباً ، مرسل اللحية غائر العينين . ومن وقت الى آخر كان يقلب رأسه الغارق في العرق فوق الوسادة القذرة التي يتساقط عليها الذباب ، وكانت مدام بوفاري تأتي لتعوده وتحمل اليه قطعاً من القماش لعمل اللزقات وكانت تواسيه وتشجعه . وهو فوق ذلك لم يكن يعدم الصحبة ، وبخاصة ايام السوق عندما كان الفلاحون يدفعون من حوله كرات البليار ، ويتبارزون بالمضارب ويدخنون ويشربون ويغنون ويتصايحون .

وكانوا يقولون له وهم يضربون على كتفه : « كيف حالك ؟ آه . انك لست فخوراً فيما يبدو ولكنها غلطتك . يجب ان تفعل هذا وان تفعل ذاك ..

وكانوا يقصون عليه قصص اناس شفوا جميعاً بعلاج آخر غير علاجه . ثم يضيفون على سبيل المواساة : « انك تستسلم الى نفسك كثيراً . انهض اذن . انك تدلل نفسك كأنك ملك . آه وعلى اية حال فان رائحتك

ليست طيبة ايها العفريت » .

والواقع ان الغرغرينا كانت تتزايد شيئاً فشيئاً ، وكان بوفاري يكاد يفقد بسببها صوابه ، فهو يأتي في كل ساعة ، وهيبوليت ينظر اليه في كل لحظة بعينين مليئتين بالفزع ويتمتم وهو ينشج من البكاء .

– « متى سأشفى ؟.. آه .. انقذني .. يا لي من بائس .. يا لي من بائس » .

وكان الطبيب ينصرف دائماً وهو يوصيه دائماً بالامتناع عن الطعام .

وكانت الأم لي فرانسوا تعقب عليه بقولها : « لا تستمع اليه يا بني . كفى ما انزلوا باك من عذاب . انك ستزداد ضعفاً . خذ . ابتلع » .

وكانت تقدم اليه بعضاً من الحساء الجيد ، وقطعة من الفخذة ، وقطعة من الدهن ، واحياناً كؤوساً صغيرة من الخمر التي لم يكن يجد الشجاعة ليرفعها الى شفتيه .

وعلم القس بورنيسيان انه يزداد سوءاً ، فطلب ان يراه ، وابتدأ بالرثاء لألمه مع الاشارة الى ان عليه ان يبتهج ما دامت تلك ارادة الرب ، وان ينتهز في سرعة هذه الفرصة لكي يتصافى مع السماء .

وقال رجل الكنيسة بنغمة ابوية : « ذلك انك كنت تهمل بعض الشيء واجباتك وقلما كنت ترى في الصلاة . وكم من السنين لم تقترب فيها من المائدة المقدسة .

وانا افهم ان تصرفك مشاغلك ودوامة الحياة عن العناية بخلاصك ، ولكن الآن هو الوقت المناسب لكي تفكر في ذلك .. ومع ذلك فلا تيأس ، فقد عرفت مذنبين كباراً عندما احسوا بدنو ساعات مثولهم امام الله – واؤكد لك ان هذه ليست حالتك – اخذوا يتوسلون الى رحمته ، ومن المؤكد انهم ماتوا في خير حالة . واننا لنرجو ان تقدم الينا مثلهم خير الامثلة . وما الذي يمنعك من ان تردد صباحاً ومساء من باب الاحتياط « اني احييك يا مريم يا منبع الرحمة » و « أبانا الذي في

السموات » . نعم افعل هذا افعله من اجلي لكي ترضيني وماذا يكلفك هذا ؟.. اتعدني بذلك ؟. »

ووعد المسكين . وعاد القسيس في الايام التالية وكان يتحدث مع صاحبة الفندق بل ويقص حكايات ممزوجة بالنكات والاحاجي التي لم يفهمها هيبوليت . وبمجرد ان تسنح الفرصة كان يعود الى مسائل الدين وقد اتخذ وجهه مظهراً ملائماً .

والظاهر ان حماسته قد اثمرت ، وذلك لأن الاعرج لم يلبث ان ابدى رغبته في الذهـاب الى الحج في بون سكور اذا شفي ، وأجاب السيد بورنيسيان على ذلك بأنه لا يرى ضيراً في هذه الرغبة ، وان مضاعفة الحيطة خير ، وليس في الأمر اية مخاطرة .

ولكن الصيدلي امتعض مما سماه مناورات القسيس التي تسيء — في رأيه — الى نقاهة هيبوليت . وأخذ يردد على مسامع مدام لي فرانسوا : « اتركيه .. اتركيه انك تنزلين بروحه الاضطراب بهذه الغيبيات » .

ولكن السيدة لم تعد تقبل الاستماع اليه لأنه كان السبب في كل شيء . بل ودفعتهـا روح العناد الى ان تعلق في فراش المريض قنينة من الماء المقدس وغصناً من شجر البقس .

ومع ذلك فلا الدين ولا الجراحة استطاعت ان تسعفه وأخذ التعفن العاتي يتصاعد باستمرار من الاطراف الى البطن ، وعبثا كانوا يستبدلون العقاقير والضمادات — فعضلاته تزداد تفككاً يوماً بعد يوم . وأخيراً اجاب شارل بحركة موافقة من رأسه عندما سألته الأم لي فرانسوا عما اذا كان من الممكن كملاذ اخير ان تستقدم من نيوشاتل السيد كانيفيه الذائع الصيت .

وكان دكتوراً في الطب في الخمسين من عمره يشغل مركزاً طبياً ، وكان واثقاً من نفسه ، ولذلك لم يتحرج كزميل من ان يضحك في ترفع ، عندما اكتشف تلك الساق التي ضربت فيها الغرغرينا حتى الركبة .

وبعد ان صرح في حزم بأنه لا بد من بترها انصرف الى محل الصيدلي حيث اخذ يثرثر ضد اولئك الحيوانات ، الذين انتهوا بهذا الرجل المسكين الى مثل هذه الحالة . وأخذ يهز السيد هوميه من زرار ردنجوته ويصيح في الصيدلية قائلاً : هذه هي اختراعات باريز . وهذه هي آراء السادة الباريسيين (وذلك مثل الاسترابزم (حول العينين) والكلوروفورم والليتوريتيا (عملية تفتيت حصوة المثانة) وأمثال هذه البشاعات التي يجب على الحكومة ان تحظرها ولكنهم يريدون اظهار المهارة ، فيحشونك ادوية دون ان يلقوا بالاً الى النتائج . واما نحن فلسنا في مثل قوتهم لاننا لسنا علماء ولا وجهاء ولا متأنفين وانما نحن مطببون ومعالجون ولا يخطر لنا بخيال ان نجري عملية جراحية لشخص سليم الصحة ولا ان نصلح اقداماً عرجاء .. وهل من الممكن تسديد اقدام عرجاء ؟ ان هذا يشبه مثلاً محاولة تسديد ظهر احدب .

وكان هوميه ينفخ وهو يستمع الى هذا الحديث . وان اخفى ضيقه بابتسامة مصطنعة لانه كان في حاجة الى ان لا يغضب السيد كاليفيه الذي كانت تذاكر ادويته تصل احياناً حتى ايونفيل ، ولذلك لم يقم بالدفاع عن بوفاري ، بل ولم يبد اية ملاحظة ، وتخلى عن مبادئه وضحى بكرامته في سبيل المصالح الجدية لتجارته .

وكان بتر الفخذ بواسطة الدكتور كاليفيه حدثاً جليلاً في القرية . فاستيقظ جميع السكان في ذلك اليوم في ساعة مبكرة . وبالرغم من ان الشارع الرئيسي كان مليئاً بالناس الا انه كان يلوح حزيناً كئيباً وكأنهم بازاء تنفيذ حكم بالاعدام فكانوا يتناقشون عند البقال حول مرض هيبوليت والمحلات لا تبيع شيئاً ومدام ديفاش زوجة العمدة لم تتحرك من النافذة بسبب حالة اللهفة التي كانت فيها في انتظار قدوم الجراح .

ووصل الجراح في عربته التي كان يقودها بنفسه ، ولكن لما كان اللولب الايمن قد انتهى به الامر الى الهبوط تحت ثقل ضخامته ، فان

العربة كانت تميل قليلاً اثناء سيرها وعلى المقعد الآخر كان يرى صندوق كبير مغطى بجلد الحور واقفاله النحاسية الثلاثة تلمع في فخامة .

وبعد ان دخل الطبيب كالأعصار تحت باب « الاسد الذهبي » صاح بأعلى صوته آمراً ان يحل حصانه . ثم ذهب الى الحظيرة ليتأكد من انه يأكل الشوفان جيداً . فقد كان يهتم عند وصوله لدى مرضاه بمهرته وعربته قبل اي شيء آخر ، حتى لقد كان يقال بهذا الصدد « آه . السيد كانيفيه . انه رجل فريد . وكان تقدير الناس له يزداد بسبب هذه الجرأة العاتية ، وكان العالم يستطيع ان يفنى عن آخره دون ان يتخلى عن اتفه عاداته .

وتقدم اليه هوميه .

فقال الدكتور : « اني معتمد عليك . هل نحن مستعدون ؟ الى العمل . »

ولكن الصيدلي اعترف — وقد احمر وجهه خجلاً — بانه من الحساسية بحيث لا يستطيع ان يحضر مثل هذه العملية .

وأردف قائلاً : « عندما يكون الانسان مجرد مشاهد فان الخيال يصدمك كما تعرف .. ثم ان جهازي العصبي من .... »

فقاطعه كانيفيه قائلاً : « آه .. كلام فارغ . انك تلوح على العكس عرضة لداء السكتة . ولو ان هذا لا يدهشني لأنكم ايها السادة الصيادلة تحبسون انفسكم باستمرار في مطبخكم مما ينتهي بتغيير مزاجكم . ولكن انظر اليّ مثلاً تراني استيقظ كل يوم في الساعة الرابعة واحلق ذقني بالمـــاء البارد . ولا احس قط بالبرد ، ولا ألبس فانلة ولا اصاب قط بالزكام فالهيكل متين .. وانا اعيش طوراً على نحو وطوراً على نحو آخر كالفيلسوف وفقاً لمصادفات الطعام . ولذلك لا تراني حساساً مثلكم . ويستوى عندي ان اقطع مسيحياً او ان اقطع اية دجاجة تصادفني . ولقد تقول بعد ذلك انها العادة .. العادة .. »

ثم دخل هذان السيدان في مناقشة ، قارن فيها الصيدلي هدوء الجراح بهدوء قائد الجيش ، وذلك دون اية مراعاة لهيبوليت الذي كان يتصبب

عرقاً في دثاره من شدة الفزع . وان تكن المقارنة قد راقت لكانيفيه . الذي استرسل في الحديث عن مقتضيات فنه الذي يعتبره رسالة مقدسة (وان يكن قد دنسها موظفو الصحة) واخيراً عاد الى المريض ففحص الضمادات التي احضرها هوميه ، وهي نفسها التي كانت قد ظهرت عند عملية اصلاح الساق الاعرج ، وطلب شخصاً لكي يمسك له الساق ، فأرسلوا لاحضار ليتيبودوا . وبعد ان شمر السيد كانيفيـــه عن ساعديه دخل صالة البليار بينما بقي الصيدلي مع ارتميز وصاحبة الفندق اللذين كانا اشد شحوباً من مريليتهما واذناهما مرهفتان نحو الباب .

وفي تلك الاثناء لم يجرؤ بوفاري على ان يتحرك من منزله ، حيث ظل في الصالة بالدور الارضي جالساً الى جوار المدفأة الخالية من النار، وذقنه فوق صدره، وقد ربع يديه وجمدت حدقتاه وهو يفكر: « يا له من حظ سيء. يا لها من خيبة امل » ومع ذلك، فانه كان قد اتخذ كافة الاحتياطات التي يمكن تصورها . ولكن القدر تدخل في الامر. ولكن اذا حدث ان مات هيبوليت بعد ذلك، فانه سيُعتبر القـــاتل . ثم اي تفسير سيقدمه اثناء عيادته لمرضاه عندما يسأل عن هذا الحادث ؟ ومع ذلك فلعله اخطأ في شيء ما ؟ وأخذ يبحث ، ولكنه لم يهتـــد الى شيء. ولكن او ما يخطيء اشهر الجراحين ؟ هذا ما لا يريد احد ان يعتقده. بل انهم على العكس سوف يضحكون وينبحون وسيذيع الخبر حتى فورج. وحتى نيوشاتل . حتى روان . وفي كل مكان .. ومن يدري ان الزملاء لن يكتبوا ضده ، ويثور حول ذلك جدل ، ويتطلب الامر الرد في الصحف بل قد يرفع هيبوليت ضده دعوى . وأخذ يتصور نفسه وقد أهين شرفه ونزل به الخراب وضاع . وتواثبت على خياله جملـــة من الافتراضات اخذ يسبح بينها كالبرميل الخالي الذي يحمله البحر ويتقلب بين الامواج .

وكانت ايما تنظر اليه وهي في مواجهته وان لم تشاطره مذلته (اذ

كانت لها مذلة اخرى هي انها قد تصورت ان مثل هذا الرجل يمكن ان يساوي شيئاً . وكأنها لم تكن قد تبينت من قبل – في وضوح – اكثر من مرة تفاهته وخيبته .)

واخذ شارل يروح ويجيء في الغرفة وحذاؤه يقرقع فوق خشبها .

فقالت : اجلس ، فانك تثير اعصابي .

فعاد الى الجلوس .

كيف حدث ان عادت فأخطأت الحكم رغم شدة ذكائها ؟ ثم اي جنون محزن ذلك الذي جعلها تتلف حياتها على هذا النحو في تضحيات مستمرة ؟ وتذكرت جميع غرائز البذخ الكامنة في نفسها ، وكل ما في روحها من احساسات بالحرمان وما في الزواج ومنزل الزوجية من حقارة ، ثم احلامها التي سقطت في الوحل كالسنونو الجريح ، وكل ما رغبت فيه وحرمت نفسها منه ، وكل ما كانت تستطيع ان تناله . ثم لماذا – لماذا ؟

ووسط الصمت الذي كان مخيماً على القرية ارتفعت صرخة حادة اخترقت الهواء فشحب لون بوفاري الى حد الاغماء ، وقطبت ايما حاجبيها بحركة عصبية ثم واصلت خواطرها : فمن اجله .. من اجل هذا الكائن .. هذا الرجل الذي لا يفهم شيئاً ولا يحس بشيء ، فها هو محتفظ بهدوئه لا يخطر بباله ان العار الذي سيلطخ اسمه سوف يلطخها هي الاخرى كما يلطخه . ولقد بذلت مجهودات لكي تحبه ثم ندمت . لانها استسلمت لشخص آخر .

وفجأة صاح بوفاري اذ كان يفكر : « لعلها كانت سوسة ؟ »

وعند مفاجأة هذه العبارة التي سقطت في نفسها ككرة من الرصاص في طبق من الفضة انتفضت ايما ورفعت رأسها لكي تحدس ما اراد ان يقوله . واخذ احدهما ينظر الى الآخر في صمت وكأنه مذهول عن نفسه وذلك لشدة البعد الذي كان بين ضميريهما . فشارل ينظر اليها نظرة مضطربة كالمخمور ، وهو ينصت جامداً لآخر صيحات الاعرج الذي تبتر ساقه ،

وهي تتتابع في موجات متراخية تقطعها تشنجات حادة كالخوار البعيد المنبعث عن دابة تذبح ، واخذت اما تعض شفتيهـا الشاحبتين ، وتدير بين اصابعها غصناً صغيراً من اللبلاب الذي كسرته ، وقد ثبتت فوق شارل سنان حدقتيها الحادتين وكأنهما سهمان من نار على أهبة الانطلاق ، وقد اخذ كل شيء فيه يثيرها الآن : وجهه وحلته .. وما لم يقله .. وشخصه كله .. واخيراً وجوده ذاته .. كما اخذت تحاسب نفسها على عفتهـا الماضية وكأنها جريمة وقد انهار ما تبقى من تلك العفة تحت سوط كبريائها المحتدمة واخذت تتلذذ بمساخر الزنا المنتصر ، وعادت اليها ذكرى عشيقها مصحوبة بلذات مثملة . وألقت بروحها الى تلك الذكرى . محمولة اليها بحماسة جديدة وقد لاح لها شارل منفصلاً عن حياتها ومختفياً الى الأبد ومستحيلاً ومنعدم الوجود كأنه صائر الى الموت وانه يحتضر تحت ناظريها .

وسمع وقع اقدام على الرصيف فنظر شارل . ومن خـلال خشب النافذة المسدل رأى الى جـانب السوق تحت وهج الشمس الدكتـور كانيفيه وهو يجفف جبهته بملفعته وهوميه من خلفه حاملاً صندوقاً كبيراً أحمر ثم اتجه الاثنان ناحية الصيدلية .

وعندئذ التفت شارل نحو زوجته في انهيار وحنان مفاجىء وقال «قبليني يا عزيزتي » .

فقالت وقد احمر وجهها من الغضب : « اليك عني » .

فأخذ يردد مندهشاً : « ماذا بك .. ماذا بك ؟ اهدئي . استردي جأشك ... انك تعلمين جيداً اني احبك .. تعالي .. »

فصاحت في نبرة مخيفة : « كفى » .

ثم هربت من الصالة واغلقت الباب في عنف . حتى لقد قفز البارومتر من الحائط وتكسر على الارض .

وتهاوى شارل في مقعده وقد اختل مزاجه واخذ يبحث عما يمكن ان يكون قد اصابها فتصور مرضاً عصبياً ،واستسلم للبكاء كمن رأى في غموض شيئاً

مشؤوماً غير مفهوم يحوم حوله .

وعندما وصل رودولف الى الحديقة في المساء ، وجد عشيقته تنتظره عند اسفل السلم على اول درجة فتعانقا ، وذاب حقدهما كالجليد تحت حرارة هذا العناق .

* * *

وبدأ غرامها من جديد ، بل وكثيراً مـــا كانت تكتب اليه فجأة وسط النهار ثم تشير من خلال الزجاج الى جوستان ، الذي كان يحل مريلته في سرعة ويطير الى هوشيت ويصل رودولف لكي تشكو اليه السأم وتقول ان زوجها كريه وان الحياة بغيضة .

وصاح بها يوماً وقد نفد صبره : وهل لي في ذلك حيلة ؟

فقالت وهي جالسة على الارض بين ركبتيه محلولة الضفائر زائغـــة البصر : نعم لو أردت ..

فقال رودولف : ماذا ؟

فتنهدت قائلة : ان نذهب لنعيش بعيداً عن هنا .. في مكان آخر...

فقال ضاحكاً : أمجنونة أنت .. أهذا ممكن ؟

وعادت الى هذا الموضوع . فتظـــاهر بأنه لا يفهم وغيّر مجرى الحديث .

والذي لم يكن يفهمه هو كل هذا الاضطراب في شيء بسيط كالحب ولا بد انه كان لديها باعث وسبب آخر يضاف الى هذا التعلق .

والواقع ان هذا الحب كان يزداد نمواً كل يوم مع زيادة نفورها من زوجها وكلما استسلمت لأحد الرجلين ازدادت بغضاً للآخر . ولم يلح لها شارل قط في مثل هذا القبح : اصابعه في مثل هذا الغلظة . وروحه في مثل هذا الثقل . وعاداته في مثل هذا الابتذال . كما كان يبدو بعد مقابلاتها لرودولف ثم اجتماعها بزوجها فانها رغم تمثيلها عندئذ

دور الزوجة والمرأة الفاضلة كانت تلهبها صورة ذلك الرأس الذي يلتف شعرها الاسود في خصلة نحو الجبهة الملوحة وصورة ذلك القد الذي يجمع بين القوة والرشاقة ، وبالجملة صورة ذلك الرجل الذي يمتلك حنكة العقل مع جموح الرغبة . من اجله كانت تسوي اظافرها في عناية المثال ومن اجله لم تكن .. تقنع بأية كمية من المساحيق لوجهها ، او من العطور لمناديلها . وقد اثقلت نفسها بالاساور والخواتم والعقود، وعندما كان يحين موعد قدومه كانت تملأ بالورد زهريتيها الكبيرتين المصنوعتين من الزجاج الازرق ، وكانت ترتب بيتها وتهندم شخصها كغانية تنتظر اميراً . وكان لا بد للخادمة من ان تعمل طول النهار في غسل البيضات كما ان فيليستيه لم تكن تتحرك هي الاخرى طوال النهار من المطبخ حيث كان جوستان الصغير يصاحبها ويراقبها وهي تعمل .

كان جوستان يتكيء بمرفقه فوق اللوح الخشبي الطويل الذي تكوي فوقه الملابس ثم يتأمل في نهم كل تلك الملابس النسائية المنثورة حوله .. الجونيلات .. والحرملات والياقات والسراويل الواسعة عند الردف والتي تضيق من اسفل .

ويتساءل الفتى وهو يمر بيده فوق جونله كالمظلة ، او فوق بعض العرى والمشابك : فيم يستخدم هذا ؟

فتجيبه فيليستيه ضاحكة : او لم تر شيئاً في حياتك ؟ كأن سيدتك مدام هوميه لا تلبس شيئاً كهذا .

فقال : آه . نعم مدام هوميه ..

ثم أضاف في لهجة المفكر : وهل هي سيدة كهذه ؟

ولكن فيليستيه نفد صبرها من رؤيته وهو يدور حولها علي هذا النحو وكانت تكبره بست سنوات، وكان تيودور خادم السيد جيومان قد اخذ يخطب ودهـــا .

فقالت وهي تحرك اناء العصيدة : « دعني . فمن الافضل لك ان

تذهب لكي تقشر اللوز بدلاً من ان تظل تتمسح بالنساء ، ولتنتظر ايها المفعوص الصغير الى ان ينبت الشعر في ذقنك ، قبل ان تتدخل في مثل هذه الامور .

فقال الصبي : لا تغضبي سأنظف لك حذاءها .

واخذ فوراً حذاء ايما من جوار المدفأة وكان مغطى بالوحل ـ وحل مواعيد اللقاء الذي اخذ يتساقط تراباً تحت اصابعه ثم يراه يتصاعد برفق في شعاع الشمس .

فقالت الطاهية : « كم انت خائف من ان تتلفه ! » . وذلك لانها لم تكن تحاذر كـل هذا الحذر عندما كانت تنظفه بنفسها ، حيث ان سيدتها كانت لا تلبث ان تتخلى لها عن اي حذاء بمجرد ان يفقد شيئاً من نضرته .

وكانت ايما تمتلك في صوانها كمية من الاحذية تبذر فيها تباعاً ، دون ان يسمح شارل لنفسه قط بأن يبدي في ذلك أية ملاحظة .

وبنفس هذا التسامح دفع شارل للثمانئة فرنك ثمناً لساق من الخشب رأت زوجته فيها هدية مناسبة لهيبوليت . وكان تجويف الساق الصناعيـة مغلفاً بالفلين ولها مفاصل لولبية وصناعتها معقدة ومن فوقها سروال اسود، كما تنتهي بحذاء من الجلد اللامع المصقول. ولما كان هيبوليت لا يجرؤ على ان يلبس في كافة الايام مثل هذه الساق الجميلة فانه تضرع الى مدام بوفاري لكي تحصل له على ساق اخرى اكثر سهولة في استخدامهـا ، وبالطبع تكفل الطبيب بثمن هذه الساق الاخرى .

وعلى هذا النحو اخذ صبي الحظيرة يستأنف عمله شيئاً فشيئاً فكان يُرى وهو يجوب البلدة كما كان يفعل من قبل . وعندما كان شارل يسمع عن بعد صوت عصاه الجاف فوق الرصيف كان يسرع باتخاذ طريق آخر .

وكان السيد لبريه التاجر هو الذي عهد اليه بشراء الساقين فأتاح له

ذلك فرصة التردد على ايما ، حيث اخذ يتحدث معهـــا عن واردات باريس الحديثة ، وآلاف المبتكـــرات النسائية . وكان يظهر لها مجاملة شديدة فلا يطلب نقوداً قط ، واستسلمت ايما الى تلك السهولة التي وجدتها في اشباع كافة نزواتها. فمثلاً ارادت ان تقدم الى رودولف سوطاً جميلاً كان موجوداً بروان في دكان مظلات ، فاذا بالسيد ليريه يضعه بعد اسبوع امامها على المنضدة .

ولكنه تقدم اليها في اليوم التالي بفاتورة بمائتين وسبعين فرنكاً فضلاً عن السنتيمات فأحرجت ايما احراجاً شديداً ، اذ كانت جميع ادراج مكتبها خالية ، وكانوا مدينين للستيبودوا بما يزيد على خمسة عشر يوماً، وللخادمة بستة اشهر ، فضلاً عن مجموعة من الديون الاخرى ، وكان السيد بوفاري ينتظر بصبر نافد الدفعة التي اعتاد السيد ديروزيريـــه ان يدفعها له كل عام حوالى عيد القديس بطرس .

وقد نجحت اول الامر في ان تتخلص من ليريه ، ولكن صبره نفد، فهو مطارد، وقد اختفى رأسماله، واذا لم يسترد بعضه فانه سيضطر الى استرداد كافة البضائع التي لديها .

فقالت ايما : لا بأس .. فليستردها .

ولكنه اجاب : اوه .. انني افرح وان كنت غير آسف الا على السوط الذي افكر في ان اطلب الى السيد بوفاري رده .

فقالت : لا .. لا ...

ففكر ليريه في نفسه قائلا : « آه .. ها قد امسكت بك . »

ثم خرج بعد ان اطمأن الى اكتشافه ، وهو يردد في صوت منخفض وفي صريره المعتاد : فليكن . فلننتظر .. فلننتظر .

وبينما كانت تحلم في مخرج من هذا المأزق اذ بالطاهية تدخل وتضع فوق المدفأة لفافة صغيرة من الورق الازرق مرسلة من السيد ديروزيريه فوثبت عليها ايما وفتحتها واذا بها خمسة عشر جنيهـــاً من الذهب وهي

الدفعة المنتظرة ، وسمعت شارل صاعداً على السلم فألقت بالذهب في قاع الدرج وأخذت المفتاح .

وبعد ذلك بثلاثة ايام ظهر ليريه .

وقال : ان لدي تسوية اقترحها .. وبـدلاً من المبلغ المتفق عليه . هل تريدين ان تأخذي ...

فقــالت وهي تضع في يده اربعة عشر جنيهاً من الذهب : ها هو.

فذهل التاجر ، ولكي يخفي خيبة امله ، اندفع في سيل من الاعتذارات ومن عرض خدماته التي رفضتها ايما كلهــا ثم ظلت تتحسس في جيب مريلتها قطعتي الفرنك اللتين ردهما اليها وعاهدت نفسها بأن تقتصد لكي ترد في المستقبل ..

ثم استطرد تفكيرها : ولكن لا ، انه لن يفكر في ذلك بعد الآن .

وفضلاً عن السوط ذي المقبض العقيقي ، كــان رودولف قد استلم منها خاتماً كتبت عليه عبارة « حبيب القلب » ثم شالاً استخدمه ككوفية، واخيراً مبسم سجائر شديد الشبه بمبسم الفيكونت الذي كان شارل قد التقطه قديماً من الطريق وكانت ايما قد احتفظت به . ومع ذلك فان هذه الهدايا قد مست كبرياءه فرفض الكثير منها ، ولكنهــا اصرت فانتهى رودولف بالرضوخ ، وان كان قد احس بسيطرتهـا بل واقحام نفسها عليــه .

وكانت تقول له : فكّر فيّ عندما يحين منتصف الليل .

واذا اعترف لها بأنه لم يتذكر ، وجهت اليه فيضاً من العتاب كان ينتهي دائماً بتلك الكلمة الخالدة : هل تحبني ؟

فيجيب : نعم .. احبك بلا شك .

– كثيراً ؟

– قطعاً

– او لم تحب غيري قط ؟

فيتساءل ضاحكاً : وهل تعتقدين انك قد اخذتني بكراً ؟

فتبكي ايما ، ويحاول ان يهدئها ، وهو يحلي عباراته ببعض النكات.

فتقول : آه . ذلك اني احبك – احبك حتى انني لا استطيع ان احيا بدونك .. هل تعلم ذلك .. وتثور بي احياناً رغبة في ان اعود الى رؤيتك عندما تمزقني انفعالات الحب فأتساءل : اين هو ؟ ربما كان يتحدث الى نساء أخريات ؟ فيضحكن ويقترب ... ولكن . لا . أليس كذلك ؟ ان اية واحدة منهن لا تروقك .. هناك من هن اكثر جمالاً ولكنني اعرف جيداً كيف احب .. انني خادمتك وعشيقتك . وانت ملكي ومعبودي . انك طيب . انك جميل . انك ذكي . انك قوي .

وكان كثيراً ما سمع هذه الاشياء،فلم يعد فيها شيء جديد بالنسبة اليه . لقد كانت ايما تشبه جميع العشيقات . وكان سحر الجدة قد اخذ يسقط شيئاً فشيئاً كالرداء لكي يظهر عارياً ذلك الملل الابدي من الحب ، الذي يتخذ دائماً نفس الصور ونفس اللغة . ولم يميز هذا الرجل المثقل بالخبرة تفاوت المشاعر خلف تشابه العبارات . ولما كانت شفاه اباحية او داعرة قد وسوست اليه بعبارات مماثلة ، فانه لم يعتقد غير اعتقاد ضعيف في اخلاص عبارات ايما ، وفكر في ضرورة الحط من هذه العبارات ، وذلك لأن المبالغات اللفظية تخفي مشاعر ضعيفة وكأن مضمون النفس المترعة لا يفيض احياناً نتيجة للتشبيهات الخاوية ، وذلك بحكم ان اي انسان لا يستطيع قط ان يقدر حاجاته القدر الدقيق وكذلك الامر في ارائه وآلامه ، والحديث البشري كالاناء المشروخ الذي ندق فيه انغاماً ترقص الدب ، عندما نريد ان نستعطف النجوم .

ولكن رودولف بفضل ذلك التفوق الذي تملكه كل نفس ناقدة . وبحكم وقوفها عن بعد خلف اية معركة ناشبة – اخذ يلمح في هذا الحب لذات اخرى يمكن ان يستغلها . وكان يرى ان كل حياء امر غير عملي ، فأخذ يعاملها في غير احتفال وجعل منها شيئاً مرناً منحلاً ، فكان حبها

نوعاً من التألق الابله المليء بالاعجاب نحوه وباللذة بالنسبة اليها ... كان استرخاء سعيداً يخدرها ، وقد انغمست روحها في هذا الثمل وغرقت مثل دوق كلارانس في برميل نبيذه الاغريقي .

ولمجرد اعتيادها الغراميات غيرت مدام بوفاري من طبائعها ، فنظرتها اصبحت اكثر جرأة وأحاديثها اكثر تحرراً . بل وتجرأت ذات مرة فخرجت للنزهة مع رودولف وبفمها سيجارة وكأنها ارادت ان تتحدى الناس . واخيراً فان اولئك الذين كانوا لا يزالون يخامرهم شيء من الشك لم يلبث شكهم ان زال عندما رأوها تنزل في احد الايام من « العصفورة » وقد شدّ خصرها في صدار على هيئة الرجال . ومدام بوفاري الأم التي كانت قد لجأت الى منزل ابنها على اثر عراك عنيف مع زوجها ، لم تكن اقل سيدات الطبقة البرجوازية اشمئزازاً ؛ فاشياء كثيرة لم ترقها .. منها انه لم يستمع الى نصائحها فيحرم كتب الروايات ، ثم ان طابع المنزل نفسه لم يكن يروقها ، فسمحت لنفسها بابداء ملاحظات بل وثارت الخصومة بنوع خاص ذات مرة بمناسبة فيليسيتيه . فمدام بوفاري الأم لاحظت في المساء وهي تعبر الممشاة ان فيليسيتيه كانت في صحبة رجل في حوالي الاربعين من عمره يحيط بعنقه وشاح بني ، وعندما سمع هذا الرجل دفع اقدامها اسرع الى التسلل من المطبخ . وعندئذ اخذت ايما تضحك . ولكن السيدة الوقور ثار بها الغضب وأعلنت انه من الواجب ان يلاحظ الانسان سلوك الخدم ما لم يكن مستهتراً بالاخلاق .

وقالت زوجة الابن : من اي عالم انت ؟ قالتها مع نظرة بلغت من الوقاحة حداً دفع السيدة بوفاري الأم الى ان تسأل زوجة ابنها عما اذا كانت لا تدافع عن حالتها الخاصة .

فقالت السيدة الشابة : وقد نهضت واثبة : اخرجي .

وصاح شارل لكي يصلح بينهما : ايما .. ماما ..

ولكنهما كلتيهما كانتا قد غرقتا في الغضب . فأخذت ايما تتقزز وهي

تردد : آه يا لها من تربية . هذه الفلاحة الجلفة .

وجرى نحو امه التي كانت قد خرجت عن طوقها وأخذت تتمتم : يا لها من وقحة طائشة . بل ربما كانت اسوأ من ذلك .

وأرادت ان ترحل فوراً ما لم تأت ايما لتقدم اليها الاعتذارات فعاد شارل الى زوجته وأخذ يضرع اليها لكي تتنازل ، وركع على ركبتيه فانتهت بان قالت : فليكن سأذهب اليها .

وبالفعل مدت يدها الى ام زوجها في ترفع المركيزة . وقالت لها : معذرة يا — سيدتي .

ثم صعدت ايما الى مخدعها حيث انبطحت على السرير وأخذت تبكي كالطفل وقد دفنت رأسها في الوسادة .

وكانت قد اتفقت مع رودولف على انه اذا جد امر خطير يطلق بمصراع النافذة قصاصة من الورق الابيض ، حتى اذا كان موجوداً بالصدفة في ايونفيل اسرع الى الممر الممتد خلف البيت . وبالفعل علقت ايما الشارة ، وبعد ان انتظرت ثلاثة ارباع الساعة لمحت فجأة رودولف عند ركن السوق فودت لو فتحت النافذة ونادته ، ولكنه قد اختفى فانهارت يائسة .

ومع ذلك فلم تلبث ان خيل اليها ان احداً يمشي فوق الرصيف فحدثتها نفسها بانه هو بلا ريب فنزلت السلم وعبرت الفناء واذا بها في الخارج تلقي بنفسها بين ذراعيه .

فقال : احذري اذن .

فقالت : آه .. لو تعلم .

ثم اخذت تقص كل شيء في عجلة وبغير انتظـام وهي تبالغ في الوقائع وتخترع الكثير منها وتسرف في الجمل الاعتراضية ، حتى انه لم يفهم شيئاً ، ولكنه قال : هيا يا ملاكي المسكين . تشجعي . عودي نفسك الصبر .

فقالت : ها قد مضت اربع سنوات وأنا اصبر وأتألم .. ان حباً كحبنا يجب ان يسفر في ضوء النهار . انهم يعذبونني ولم اعد استطيع الاحتمال . انقذني ..

وأخذت تلتصق به وقد امتلأت عيناها بالدموع وبريقهما ينبعث كاللهب تحت الموج وأخذ صدرها يلهث في ضربات سريعة ولم يشعر نحوها بحب مثلما شعر في هذه اللحظة حتى فقد صوابه وقال لها : « وما الذي يجب ان نفعل ؟ ماذا تريدين ؟ » .

فصاحت : « خذني .. اختطفني .. اوه انني اضرع اليك . »

وانهالت على فمه وكأنها تريد ان تقتنص منه موافقته غير المتوقعة وهي تنبعث في قبلة .

فقال رودولف : ولكن ...

— ماذا ؟

— وابنتك ؟

ففكرت بضع دقائق ثم قالت : سنأخذها وأمرنا لله .

فقال وهو ينظر اليها وهي تبتعد : يا لها من امرأة .

وذلك لانها كانت قد دلفت الى الحديقة اذ كانوا ينادونها .

وفي الايام التالية دهشت الأم بوفاري دهشة بالغة من التغير الذي طرأ على زوجة ابنها . وبالفعل اصبحت اىما اكثر طواعية ، بل وبلغت من التوقير ان طلبت اليها نصيحة عن طريق تخليل الخيار .

هل كان ذلك امعاناً في خداعها لهما معاً — الزوج والأم — ام هي لذة الاستشهاد التي تدفعها الى ان تستشعر في عمق — مرارة الاشياء التي ستتخلص منها ؟ ولكنها لم تكن تحذر شيئاً . وعلى العكس من ذلك اخذت تعيش — كالضالة — في اللذة التي تتعجلها من سعادتها القريبة المقبلة . وكان هذا هو الموضوع الخالد لحديثها مع رودولف . فهي تتكيء على كتفه وتتمتم : آه عندما تصبح في عربة سفرك .. هل تتصور ؟ هل هذا

ممكن ؟ يخيل اليّ انني عندما اشعر بالعربة تنطلق نحس اننا نصعد في بالون ، وكأننا نصعد الى السحاب هل تعلم انني اعد الايام ؟.. وانت ؟

ولم تكن مدام بوفاري قط جميلة كما كانت في هذه الفترة . فقد كان لها ذلك الجمال الذي لا يمكن وصفه ، والذي ينبعث عن الغبطة والحماسة والانتصار ، والذي هو انسجام بين المزاج والظروف . فاطماعها واحزانها ومزاولة اللذة واحلامها الدائمة الشباب ، قد فعلت فيها ما يفعله السماد والمطر والرياح والشمس في الازهار فنمت بالتدريج ثم ازدهرت في النهاية واكتملت طبيعتها فلاحت جفونها وكأنها قد نحتت لكي تلائم نظراتها الطويلة الولهانة وتضل فيها حدقتها بينما كانت انفاسها القوية تفتح شفرة انفها الرقيق كما ترفع ركن شفتيها المليئتين اللتين يظللها في الضوء قليل من الزغب الاسود . وكأن فناناً ماهراً في الغواية قد رتب شعرها فوق عنقها من الخلف وقد التف هذا الشعر في كتلة ثقيلة في اهمال ، ووفقا لمصادفات اللقاءات الآثمة التي كانت تعبث بذلك الشعر كل يوم . واتخذ الآن صوتها نبرات اكثر استرخاء وكذلك قدها بل واخذ شيء نافذ ينبعث من قماش ثوبها نفسه ومن انحناءة قدمها فيخترقك ، وقد اخذ شارل يراها كما كانت في ايام زواجه الاولى مغرية لا تقاوم .

وعندما كان يعود في منتصف الليل لم يكن يجرؤ على ايقاظها . وكان مصباح الليل الصغير يعكس على السقف دائرة من الضوء المهتز . والستائر المغلقة فوق المهد الصغير تكون ما يشبه كوخاً ابيض ينتفخ في الظل عند حافة السرير وشارل ينظر اليها فيخيل اليه انه يسمع الانفاس الرقيقة المنبعثة من طفلته التي اخذت تكبر الآن . وكل موسم يؤدي سريعاً الى تقدم حتى لكأنه يراها عائدة من المدرسة عند غروب الشمس ، مشرقة الوجه وقد لطخت مريلتها بالمداد ، وعلقت السلة في ذراعها . ثم انه لا بد من الحاقها بالقسم الداخلي وهذا امر باهظ التكاليف . فما العمل ؟ وعندئذ اخذ يفكر وخطر له ان يستأجر مزرعة صغيرة في الناحية يشرف

عليها بنفسه كل صباح عند ذهابه لعيادة مرضاه ، وذلك لكي يدخر دخلها ويضعه في صندوق الادخار ، ثم يشتري اسهماً من أية جهة حسبما اتفق كما ان الزبائن سوف يزداد عددهم . وقد عول على ذلك لانه كان يريد ان يربي برت تربية طيبة ، وان ينمي عندها المواهب فتتعلم البيانو .. آه كم ستكون جميلة فيما بعد – في الخامسة عشرة من عمرها عندما تشبه امها ، فتلبس مثلها في الصيف قبعات كبيرة من الخوص ، فيحسبهما النـــاس عن بعد اختين . وتصورها وهي تعمل في المساء الى جوارهما تحت ضوء المصباح . حيث تطرز له خفاً ، وتعنى بامر المنزل وتملأه كله بظرفها ومرحها . وأخيراً سيفكران في استقرارها ، فيعثران لها على فتى صالح ذي مركز متين فيسعدها وتدوم تلك السعادة .

ولم تكن ايما نائمة عند ذلك ولكنها كانت تتظاهر بالنوم . وعندما كان يغفو الى جوارها كانت تستيقظ في احلام اخرى .

فها هي اربعة جياد تحملها منذ ثمانية ايام نحو بلاد جديدة لا تعود منها قط . فهما يسيران ويسيران مشتبكي الذراعين دون ان يتحدثا ، وكثيراً ما يلمحان فجـــأة – من فوق جبل – مدينة رائعة ذات قباب وجسور وسفن وغابات من الليمون ، وكنائس من الرخام الابيض تحمل ابراجها اوكار اللقلق . والناس يسيرون بخطى منتظمة بسبب قطع البلاط الكبيرة ، وعلى الارض باقات من الازهار تقدمها سيدات مرتديات صدارات حمر والنواقيس تدق والبغال تصهل والجيتار يهمس والنافورات تخر والابخرة تتصاعد منها فترطب اكداساً من الفاكهة صففت في شكل اهرامات عند ساق تماثيل شاحبة تبتسم تحت شآبيب الماء ثم يصلان ذات مساء الى قرية من قرى الصيادين حيث نشرت الشباك لتجف في الريـــح على طول الهضبة والاكواخ . وهنا يتوقفان ليعيشا فيسكنان بيتاً منخفضاً مسطح السقف يظلله النخيل عند نهاية خليج على شاطىء البحر وسيتنزهان في جندول ويتأرجحان في فراش معلق بين الاغصان وسوف تكون حياتهما

سهلة صافية كملابسها الحريرية ودافئة مرصعة بالنجوم كالليالي العذبة التي سيتأملانها . ومع ذلك فان هذا المستقبل الغير متناهي الذي استحضره الخيال لم ينبعث عنه شيء نادر متميز . فالايام تتشابه رائعة كالموج . واخذ كل هذا يتأرجح في الافق اللانهائي المنسجم الضارب الى الزرقة والمغطى بالشمس . ولكن الطفلة اخذت تسعل في مهدها وبوفاري يزداد شخيره وايما لم تنم الا عند الصباح عندما ألقى الفجر ضوءه الابيض على الزجاج واخذ جوستان الصغير يفتح في الميدان مصاريع الصيدلية .

وكانت قد استدعت السيد لبريه وقالت له : « انني سأحتاج الى معطف – معطف كبير مبطن ذي ياقة طويلة . »

فسألها قائلاً : هل ستسافرين في رحلة .

فقالت : لا .. ولكن .. لا عليك – انني اعتمد عليك – أليس كذلك وبهمة ؟ » .

فانحنى ..

واستأنفت قائلة : « وسأحتاج ايضاً الى حقيبة كبيرة .. ليست مفرطة الثقل .. عملية .

قال : نعم . نعم . لقد فهمت .. اثنان وتسعون سنتيمتراً . تقريباً في خمسين على نحو ما يصنعون في هذه الايام » .

واضافت : « ومعها حقيبة لليل » .

ففكر لبريه في نفسه قائلاً : « قطعاً ان في الامر سراً » .

وقالت مدام بوفاري وهي تنزع ساعتها من حزامها : ثم خذ هذه لكي تقتطع منها الثمن » .

ولكن التاجر صاح بانها مخطئة ، فهو يعرفها ولا يمكن ان يشك فيها فما هذا الصغار ؟ ولكنها مع ذلك ألحت لكي يأخذ على الاقل السلسلة . وكان لبريه قد وضعها في جيبه واخذ ينصرف عندما نادته لتقول له : انك ستحتفظ عندك بكل شيء .

ثم فكرت قليـــلاً . واضافت : واما عن المعطف فانك لن تحضره ايضاً الى هنا ولكنك ستعطيني عنوان العامل وتنبهه الى ان يحتفظ به تحت تصرفي .

وكان من المقدر ان يهربا في الشهر المقبل . فيسافرا من ايونفيـــل وكأنهما ذاهبان لقضاء بعض الحاجات في روان . ويكون رودولف قد حجز اماكن واعد جوازات السفر بل وكتب الى باريس لكي يستأجر العربة كلها الى مرسيليا ، حيث يستأجران عربة خفيفة يتابعـــان السير بواسطتها دون توقف على الطريق المؤدي الى جنوة . وكانت قد رتبت الامر بحيث ترسل حقائبها الى ليريه حيث تحملها « العصفورة » رأساً وحيث لا يخامر الشك اي انسان . وفي كل هذا لم يعرض قط مصير الطفلة . وكان رودولف يتجنب الحديث عنها لأن اما لا تفكر فيها .

وكان يود ان يحتفظ بمهلة اسبوعين لكي ينتهي من بعض الاجراءات . ولم تمض ثمانية ايام حتى طلب خمسة عشر يوماً اخرى ثم ادعى انه مريض وبعد ذلك سافر في رحلته ومر شهر اغسطس ، وبعد كل هذه التأجيلات قررا نهائياً ان رحيلهما سيكون في يوم الاثنين ٤ سبتمبر .

واخيراً حل يوم السبت السابق ليوم الرحيل .

وجاء رودولف في المساء مبكراً عن عادته فسألته قائلة : هل كل شيء معد ؟

— نعم .

ثم دارا حول حوض من الزهور ، وذهبا ليجلسا الى جوار الشرفة على حافة الحائط .

قالت اما : « انت حزين » .

— لا .. لماذا ؟

ومع ذلك اخذ ينظر اليها نظرة غريبة في حنان .

فاستأنفت قائلة : هل ذلك لانك سترحل وتترك مواضع حبك وحياتك ؟..

آه .. اني اقدر .. ولكنني انا ليس لي شيء في العالم .. انت كل شيء بالنسبة الي .. ولذلك سأكون كل شيء بالنسبة اليك .. سأكون لك اسرة ووطناً وسأعنى بأمرك وسأحبك .

فقال وهو يضمها بين ذراعيه : يا لك من ساحرة .

فقالت وهي تضحك في نشوة : أهذا حق ؟ هـل تحبني ؟ أقسم بذلك اذن .

— هل احبك ؟ هل احبك ؟ بل اني اعبدك يا حبيبتي .

وأخذ القمر يرتفع مستديراً قرمزي اللون عند سطح الارض في اقصى المرج ثم لم يلبث ان صعد سريعاً بين اغصان الحور التي تخفيـه من موضع الى آخر كالستارة السوداء المثقوبة ثم ظهر ساطع البياض في السماء الصافية التي اضاءها ، ثم اخذ يتباطأ وهو يلقي على النهر ، ببقعـة كبيرة تكون عدداً لا نهاية له من النجوم وجعل هذا الألق الفضي يتلوى حتى القاع كثعبان بلا رأس مغطى بمحار مضيء او كشمعدان عمـلاق تتساقط منه على طول المدى نقط من الماس الذائب . وامتد الليل العذب من حولها ورقاع من الظلال تلف اوراق الشجر واسبلت ايمـا جفنيها واخذت تنشق — في تنهـدات كبيرة — النسيم الرطب الذي يهب . لم يتحادثا ، اذ كانا غارقين في فيض من الاحلام . وعادت الى قلبها عذوبة الايام الماضية ، فياضة صامتة كالنهر المنساب مع كل تلك الرخاوة التي يثيرها عطر الازهار فعكست في ذكرياتها ظلالاً اكثر اسى وعتواً من ظلال اشجار الصفصاف الساكنـة الممتدة فوق الحشائش . وكثيراً ما كانت احدى دواب الليل كالقنفذ او ام عرس تأخذ في الطرد فتحرك الاوراق ويسمع من وقت الى آخر صوت خوخـة ناضجة تسقط من الخميلـة .

وقال رودولف : آه .. يا له من ليل جميل .

فقالت ايما : ستكون لنا ليال اخرى .

وأضافت وكأنها تحدث نفسها : «نعم ، ما أجمل الأسفار ومع ذلك فما هو هذا الحزن الذي في قلبي .. أهو الخوف من المجهــول ؟ .. وأثر العادات التي نتخلى عنها .. أم ان ... ؟
لا .. انه فرط السعادة .. يا لي من ضعيفة .. أليس كذلك ؟ .. أعذرني .

فصاح «ان الامر لا يزال بأيدينا . فكري.. فلربما ندمت .»

فقالت في عنف « ابداً » .

ثم اضافت وهي تقترب منه : «أية كارثة يمكن ان تحل بـي ؟ . ليست هناك صحراء ولا هاوية ، ولا محيط لا اعبره معك . وما دمنا سنعيش سوياً فلن تكون الحياة بالنسبة لنا سوى عناقاً يزداد مع الايام قوة وكمالاً . ولن يقلقنا شيء. فلا هموم ولا عقبات وسوف نخلو لنفسينا وحدنا الى الأبد .. تكلم اذن ، اجبني .»

وكان يجيب على فترات منتظمة : « نعم .. نعم .. » وكانت قد مرت باصابعها في شعره واخذت تردد بصوت صبياني بالرغم من الدموع الغزيرة التي تتساقط : «رودولف . رودولف . آه رودولف . حبيبي .. رودولف . »

ودقت الساعة نصف الليل .

فقالت : « نصف الليل .. هيا . انه الغد ، يوم آخر . »

ونهض لكي يرحل وكأن هذه الحركة كانت بدء هربها فبدت ايما فجأة في مظهر الفرح وقالت :

— لديك الجوازات ؟

— نعم

— لم تنس شيئاً ؟

— لا

— متأكد ؟

– بلا شك .
– ستنتظرني في فندق بروفانس . أليس كذلك ؟ انك ستنتظرني . عند الظهر ؟

فأجاب بايماءة من رأسه .

وقالت ايما وهي تقبله القبلة الاخيرة : الى غد إذن .

ونظرت اليه وهو يبتعد .

ولم يلتفت الى الخلف فجرت في اعقابه وانحنت على حافة الماء بين الاعشاب وصاحت : الى الغد ..

وكان قد عبر الى الضفة الاخرى من النهر واخذ يسير مسرعاً وسط المروج .

وبعد بضعة دقائق وقف رودولف . وعندما رآها في ردائها الابيض وهي تختفي في الظل شيئاً فشيئاً أحس في قلبه من الخفقان، مما دعاه الى ان يستند الى شجرة لكي لا يسقط . وقال – وهو يقسم اغلظ الايمان : يا لي من مغفل ! ولكن لا بأس فقد كانت عشيقة جميلة .

وفوراً عادت اليه صورة جمال ايما وكافة لذات ذلك الحب ، فاستشعر الحنان اول الامر ، ثم ثار ضدها وهو يقول ويشير بيديه : في النهاية لا استطيع ان اهجر موطني واتحمل عبء طفلة .

وكان يقول هذه العبارات كي يشد من عزمه .

واضاف : ثم الارتباك والنفقات .. آه . لا .. لا .. ألف مرة .. لا .. والا كانت حماقة كبرى .

* * *

لم يكد رودولف يصل الى بيته حتى جلس فجأة الى مكتبه تحت رأس الوعل المعلق في الحائط بين غنائم الصيد، ولكنه عندما اخذ القلم بين انامله لم يجد ما يكتبه فاتكأ بمرفقيه على المكتب وأخذ يفكر . ولاحت

له ايما وقد اوغلت في الماضي البعيد وكأن القرار الذي اتخذه قد وضع بينهما فجأة فترة شاسعة من الزمن .

ولكي يستعيد شيئاً منها نهض الى صوان بجوار فراشه واستخرج منه صندوقاً قديماً من صناديق بسكوت رانس حيث اعتاد ان يضع الخطابات التي تأتيه من النساء، فانبعثت منه رائحة تراب وورود ذابلة ووقع نظره اولاً على منديل صغير مغطى ببقع شاحبة وكان منديلها الذي نزفت فيه يوماً من انفها اثناء نزهة . لم يعد يذكر شيئاً من ذلك والى جواره صورة لها تتخبط في اركان الصندوق . ولاحت له زينتها مسرفة ونظرتها الفضولية سيئة الوقوع. وبطول التأمل في هذه الصورة واستحضار ذكرى صاحبتها اختلطت ملامح ايما شيئاً فشيئاً في ذاكرته ، وكأن الوجه الحي والوجه المصور قد احتك احدهما بالآخر حتى انمحى الاثنان . واخيراً قرأ بعض خطاباتها المليئة بالاستفسارات الخاصة برحلتها (وهي خطابات قصيرة عملية ملحة كالمكاتبات التجارية) واراد ان يلقي نظرة على الخطابات الطويلة القديمة العهد فانتزع كافة الخطابات الاخرى لكي يعثر عليها في قاع الصندوق، وأخذ يقلب آلياً في كومة من الاوراق والاشياء حيث اختلطت الباقات واربطة الساق ، وقناع اسود ودبابيس وخصلات من الشعر -خصلات من الشعر الاسود ومن الشعر الاشقر بل تعلق بحلقة الصندوق الحديدية فتقطع عند فتحه .

وهكذا أخذ يفحص وهو يتسكع بين الذكريات - الخطوط واسلوب الخطابات المتنوعة تنوع تلك الخطوط - لقد كانت عاطفية او مرحة عابثة او حزينة . وكان من بينها يتذكر وجوهاً وبعض حركات ونغمات صوت واحياناً كان لا يتذكر شيئاً .

والواقع ان اولئك النساء اللاتي تزاحمن في ذاكرته كن يتدافعن بعضهن ضد بعض فيصغرن ويهبطن الى مستوى واحد من الحب يسوى بينهن . وأخذ يتناول حفنات من هذه الخطابات المختلطة ويلهو لبعض دقائق بأن

يتركها تتساقط كالشلال من يده اليمنى الى يده اليسرى . واخيراً مل واخذ يغفو فانصرف حاملاً الصندوق الى الصوان وهو يقول : يا لها من كومة من المضحكات !

وكانت هذه العبارة خلاصة رأيه وذلك لان اللذات كان قد طال وطؤها على قلبه، كاطفال المدارس في فناء المدرسة، حتى انه لم يعد ينمو في ذلك القلب شيء اخضر. واولئك اللائي مررن به كن أقل وعياً من الاطفال انفسهم حتى انهن لم يحرصن كالاطفال على ان ينقشن اسماءهن على الحائط.

وقال لنفسه : هيا فلنبدأ .

واخذ يكتب « الشجاعة يا ايما الشجاعة! فلست اريد ان اكون سبباً في تعاسة حياتك .. » .

وحدث رودولف نفسه : والواقع ان هذا حق، فانا اعمل لمصلحتها كرجل شريف .

« هل قدرت جيداً عاقبة ما اعتزمت ؟ هل تدركين مدى الهاوية التي اسوقك اليها يا ملاكي المسكين ؟ لا – أليس كذلك ؟ انك تسيرين واثقة مجنونة مؤمنة بالسعادة في المستقبل ... آه . يا لنا من تعساء . حمقى . »

وهنا توقف رودولف لكي يجد عذراً مقبولاً .

وقال لنفسه : وماذا لو قلت لها انني قد فقدت ثروتي ؟ .. آه لا، هذا لن يمنع شيئاً وسأضطر الى العودة الى الموضوع نفسه . وهل من الممكن ان نرد الى الصواب مثل اولئك النسوة ؟

وفكر ثم اضاف: انني لن انساك، كوني واثقة من ذلك . وسأحتفظ لك دائماً باخلاص عميق، لكن هذا الهيام سيضعف ان عاجلاً او آجلاً . فهذا هو مصير المشاعر البشرية وقد يتسرب الينا الملل بل ربما يصيبني ذلك الالم الممض الذي سأستشعره عندما تأخذين في الندم الذي قد اشاركك فيه لانني سأكون سببه .. ومجرد التفكير في الاحزان التي قد تصيبك

يعذبني . فلتنسي يا ايما . لماذا قدر على ان اعرفك ؟ ولماذا انت جميلة هكذا ؟ هل انا المخطىء ؟ يا إلهي. لا ، لا ، لا لوم الا على القدر.

وقال لنفسه : هذه هي الكلمة التي تحدث دائماً الأثر المطلوب .

« آه . لو انك كنت احدى اولئك النسوة ذوات القلب العابث على نحو ما نرى، اذن لاستطعت ان اقوم بمحاولة لاشباع ا ثرتي ، دون خطر عليك . ولكن هيامك الممتع الذي هو سر سحرك وعذابك على السواء قد منعك من ان تدركي – بالرغم مما انت أهل له من حب وتقديس – ما سوف يكون في وضعنا من شذوذ في المستقبل . وانا ايضاً لم افكر في الموضوع اول الامر ، بل استرخيت في ظل السعادة المثالية التي تشبه شجرة التفاح الاسطورية ذات العصارة السامة الكاوية دون ان افطن الى العواقب .

وقال لنفسه : انها قد تظن انني عدلت بسبب البخل .. آه فليكن . فليكن، يجب ان انتهي !

«العالم قاسٍ يا ايما، وهو سوف يلاحقنا اينما نكون . ولقد تضطرين الى التعرض للاسئلة المحرجة والنميمة والاحتقار وربما للاهانة .. اهانتك.. اوه وأنا الذي أريد ان لو اجلستك على عرش . انا الذي احمل ذكراك كتميمة، وذلك لانني سأعاقب نفسي بالنفي جزاء ما سببت لك من ألم . انني راحل ، أين أين ؟ لست ادري لقد اصبت بالجنون . وداعاً! كوني دائماً طيبة . احتفظي بذكرى الشقي الذي فقدك ، علّمي اسمي لطفلتك لكي تردده مع صلواتها . »

وأخذت ذبالة الشمعتين ترتجف ، فنهض رودولف لكي يغلق النافذة . وقال عندما عاد الى الجلوس : اظن ان هذا هو كل شيء . آه . ولكن هذا ايضاً لكي لا تعود الى مطاردتي . « وسأكون بعيداً عندما تطالعين هذه الاسطر الحزينة وذلك لانني اردت ان اهرب باسرع مـــا استطيع لكي اتجنب اغراء العودة الى رؤيتك . فلنتجنب الضعف . سوف اعود .

وربما تحدثنا سوياً فيما بعد ببرود عن غرامياتنا القديمة؛ وداعاً. »

وقال لنفسه: والآن كيف اوقع ؟ المخلص .. لا . صديقك ؟ .. نعم هو هذا .

« صديقك »

وأعاد قراءة الخطاب فلاح له جيداً .

وحدث نفسه في حنان قائلاً : يا لها من امرأة مسكينة ! انها ستظنني أقل احساساً من الصخر . لقد كان من الواجب ان اسفح فوقه بعض العبرات . ولكنني لا استطيع ان ابكي، وليس هذا ذنبي . وعندئذ سكب رودولف بعضاً من الماء في كوب وغمس فيه اصبعه ثم اسقط منه نقطة غليظة احدثت بقعة شاحبة فوق المداد . ثم اراد ان يغلق الخطاب فاخذ الختم المنقوشة فوقه عبارة « حب القلب » .

ولكنه قال : ان هذا لا يطابق مقتضى الحال .. آه ولكن لا بأس..

وبعد ذلك دخن ثلاثة غلايين ثم ذهب لينام .

وفي اليوم التالي – عندما استيقظ حوالي الساعة الثانيـة، اذ كان قد نام متأخراً، أمر بأن تجنى سلة من المشمش وضع الخطاب في قاعها تحت قليل من ورق العنب ثم أمر جيرار عامل محراثه بأن يحمل السلة برفق الى مدام بوفاري. وكان يستخدم هذه الطريقة لمراسلتها فيرسل اليها تبعاً للمواسم الفواكه او طيور الصيد .

وقال للخادم : اذا سألتك عن اخباري فاجبها بانني قد سافرت في رحلة، ويجب ان تسلم السلة اليها هي، وان تضعها بين يديها شخصياً . اذهب وخذ حذرك .

وارتدى جيرار مريلة جديدة ولف منديله حول المشمش، وسار بخطوات كبيرة ثقيلة في حذائه الضخم المنعول بالحديد ، واتخذ في هدوء الطريق الى ايونفيل .

وكانت مدام بوفاري عندما وصل الى منزلها ترتب مع فيليستين على

مائدة في المطبخ – كومة من الملابس المغسولة .

فقال الخادم : سيدي يرسل لك هذا .

فتملكها ارهاص بالخوف . وجعلت تبحث في جيبها عن قطعة من النقود وهي تنظر الى الفلاح بعين شاردة . بينما كان ينظر هو في دهشة لانه لم يفهم كيف يمكن لمثل هذه الهدية ان تثير عند انسان كل هذا الانفعال ، واخيراً خرج وبقيت فيليستيه ولم تعد ايما قادرة على الاحتمال ، فاسرعت الى الصالة كانما لتحمل اليها المشمش وقلبت السلة وانتزعت الاوراق ووجدت الخطاب وفتحته ثم هرولت مذعورة الى غرفتها وكأن حريقاً مروعاً يلاحقها من الخلف .

وكان شارل في الغرفة فلمحته . وتحدث اليها فلم تسمع شيئاً، واستمرت تصعد الدرج في سرعة لاهثة ذاهلة ثملى ، وفي يدها دائماً تلك الورقة المروعة التي تقرقع بين اصابعها كقطعة من الصاج . وفي الطابق الثاني وقفت امام مخزن الغلال الذي كان مغلقاً .

وارادت عندئذ ان تهدأ ، وتذكرت الخطاب . وكان لا بد ان تتمه فلم تجرؤ فأين وكيف ؟ دون ان يراها احد ؟

وحدثت نفسها قائلة : آه لا .. هنا .. سأكون مطمئنة .

ودفعت ايما الباب ودخلت .

وكانت من خلال اردواز السقف تسقط حرارة ثقيلة ، وتكتمت انفاسها فسحبت نفسها حتى النافذة التي شدت رتاجها فانبثق في وثبة واحدة ضوء يعشي الأبصار .

ومن فوق الاسقف كانت تمتد امامها الحقول على مرمى البصر ، ومن تحتها كان ميدان القرية خالياً وحجارة الرصيف تلمع ودوارة الرياح ساكنة فوق المنازل. وفي ناصية الشارع انبعث من طابق سفلي شيء يشبه الشخير حاد النغمات ، فقد كان بينيه يلف مخرطته .

وكانت متكئة على اطار النافذة وهي تعيد قراءة الخطاب بزمجرات

غضب ولكنها كلما ركزت انتباهها ازدادت افكارها اختلاطاً فكانت تستعيد صورته وتسمع صوته وتطوقه بذراعيها . وضربـات قلبها التي تخفق تحت صدرها – وكأنها ضربات عاتية من قرون كبش – اخذت تتابع سراعاً الواحدة تلو الأخرى في غير انتظام واخذت تلقي من حولها النظرات وبودها لو انهارت الارض . ولماذا لا تنتهي ؟ وما الذي يمسكها عن ذلك ؟ انها حرة . وتقدمت ونظرت الى الشارع – وهي تقول : هيا .. هيا .

وكان شعاع الضوء الصاعد مباشرة من اسفل يجتذب ثقل جسمها نحو الهاوية. وخيل اليها ان ارض الميدان المهتزة ترتفع على طول الجدران، وارض الغرفة تميل عند الحافة كالسفينة التي ترنح وهي تغوص في الرمال الطافية وهي ممسكة بالحافة وكأنها معلقة ومحاطة بفضاء واسع، وزرقة السماء تغزوها والهواء يسبح في رأسها الجوفاء ولم يكن لديها الا ان تستسلم وتترك نفسها . ولم يتوقف صوت المخرطة وكانه نداء صاخب يدعوها .

وصاح شارل : زوجتي .. زوجتي .

فتوقفت .

– اين انت ؟ تعالي .

وأدت بها فكرة نجاتها من الموت الى الاغمـاء من الخوف. فاغلقت عينيها ثم انتفضت عندما أحست بيد على ذراعيها وكـانت يد فيليسيتيه التي قالت : ان سيدي ينتظرك يا سيدتي والحساء على المائدة .

وكان لا بد من النزول . والجلوس على المائدة .

وحاولت ان تأكل فكانت اللقمات تكتم انفاسها وعندئذ نشرت فوطتها وكانها تفحص ما بها من ثقوب وارادت بالفعـل ان تشرع في عد خيوط النسيج. وفجأة تذكرت الخطاب هل فقد منها ؟ وابن تجده ؟ ولكنها لم تعثر قط على مبرر لترك المائدة، ثم انها اصبحت جبانة. فهي تخاف شارل لانه يعلم كل شيء بلا ريب وبالفعل نطق شارل بهذه العبارات العجيبة:

«يلوح اننا لن نرى السيد رودولف قريباً» .
فقالت وهي تنتفض : من قال لك هذا ؟
فأجاب وقد اخذ بهذه النغمة الحادة : من قال لي ؟ انه جيرار الذي قابلته منذ هنيهة عند باب القهوة الفرنسية . انه قد سافر في رحلة او على وشك السفر .
واختنقت بالعبرات .
فقال : وما الذي يدهشك في هذا ؟ انه يتغيب على هذا النحو من وقت الى آخر كي يسري عن نفسه . وفي الحق اني لاوافقه وعندما تكون لدى الانسان ثروة ويكون اعزباً ! ... وفضلاً عن ذلك فصديقنا يلهو كما يحلو له ، وهو مولع بالعبث فقد أخبرني السيد لانجلوا .
وصمت مراعاة للياقة بسبب الخادمة التي دخلت .
وأعادت الخادمة الى السلة المشمش الذي كان منثوراً على الرف ، وأمر شارل بأن يحمل اليه دون ان يلاحظ الحمرة التي علت وجه زوجته.
ثم اخذ منه واحدة وقضمها وهو يقول : اوه !
مدهش ! خذي ! ذوقي !
ومد السلة نحوها فدفعتها برفق .
فقال وهو يضعه تحت انفها عدة مرات :
« شمي اذن . يا لها من رائحة . »
فصاحت وقد نهضت واثبة : « انني اختنق » .
ولكن بمجهود ارادي اختفى هذا الاختناق .
ثم قالت : «لا شيء. لا شيء.. انه طارىء عصبي. اجلس وتناول طعامك » .
وذلك لانها خشيت ان يأخذوا في استجوابها والاهتمام بامرها فلا تُترك لنفسها .
وعاد شارل الى الجلوس اطاعة لامرها ، واخذ يلفظ في يده نوى

المشمش ثم يضعه في طبقه .

وفجأة مرت عربة زرقاء عدواً في الميدان ، فاطلقت ايما صرخة ، وسقطت جامدة على الارض على أم رأسها .

وبالفعل كان رودولف بعد تفكير طويل قد قرر ان يسافر الى روان. ولما لم يكن هناك بين لاهوشيت وبوشي طريق آخر غير الطريق ايرونفيل فقد كان لا مفر من ان يعبر القرية . وكانت ايما قد لمحته على ضوء المصابيح الذي كان يخترق كالبرق ضوء الشفق .

واسرع الصيدلي عندما سمع الضوضاء التي حدثت بالمنزل . وكانت المائدة قد انقلبت بما عليها من اطباق، وكانت الصلصة واللحم والسكاكين والملاحة وزجاجة الزيت منثورة على الارض ، وشارل يستغيث وبرت تصيح رعباً ، وفيليستيه تفك بيديها ملابس السيدة التي كانت التشنجات تمتد على طول جسمها .

وقال الصيدلي : ها انا اعدو لأحضر من معملي قليلاً من الخل المعطر . وقال عندما فتحت عينيها وهي تستنشق القنينة — : « لقد كنت متأكداً ، فانه يوقظ الموتى » .

وقال شارل : « حدثينا . حدثينا . استردي جأشك . انا شارل . حبيبك الذي يحبك . هل تدركين من انا ؟ هيا . ها هي ابنتك الصغيرة. قبليها اذن . »

ومدت الطفلة ذراعيها نحو امها لكي تتعلق بعنقها ، ولكن ايما ادارت رأسها وقالت بصوت متقطع « لا .. لا .. لا اريد احداً . »

وأغمي عليها من جديد فحملوها الى الفراش . وظلت ممددة فاغرة الفم ، مغلقة الجفنين ، باسطة يديها، ساكنة شاحبة كتمثال من الشمع. وخرج من عينيها نهران من الدموع التي انسابت على الوسادة .

وظل شارل واقفاً في اقصى المخدع ، والصيدلي الى جواره صامتاً مفكراً على نحو يليق بالمناسبات الخطيرة في الحياة .

وقال – وهو يغمز ذراع شارل : « اطمئن فاني اعتقد ان الأزمة قد مرت » .

وأجاب شارل : نعم . انها تستريح الآن قليلاً .

قال ذلك وهو يراها تنام ، ثم اضاف : « يا لها من امرأة مسكينة... يا لها من امرأة مسكينة ... ها هي تنتكس » .

وعندئذ سأل هوميه كيف حدثت هذه الحادثة فأجاب شارل بانها قد اصيبت فجاة وهي تأكل المشمش .

فقال الصيدلي : « هذا امر عجيب . ولكن من الجائز مع ذلك ان يكون المشمش هو الذي سبب الاغماء ، فهناك طبائع حساسة من ناحية بعض الروائح ، بل ان هذا الموضوع جدير بالدرس من الناحية الباثولوجية والناحية الفسيولوجية على السواء والقسس يعرفون اهمية هذا الأمر فهم يمتزجون دائماً بالعطور في طقوسهم وهم يستخدمونها لتخدير العقل واثارة النشوة ، وهذا أمر يسهل الحصول عليه في الجنس الآخر لأنهن اكثر حساسية من الآخرين ولقد قيل ان بعضهن يصبن بالاغماء من القرن الذي يحترق او رائحة الخبز الطري . »

وقال بوفاري بصوت خافت : « احذر من ان توقظها . »

واستمر الصيدلي يقول : «ولا يتعرض البشر وحدهم لهذه الاعراض الشاذة . بل تتعرض لها ايضاً الحيوانــات . فانت لا تجهل ذلك التأثير المنشط العجيب الذي يحدثه « النيبيتا كتاريا » الذي يسمى بالعامية عشب القط على القوى الجنسية لفصيلة القطط . ومن جهة اخرى فانني استطيع ان اذكر حالة اؤكد صدقها ، وذلك ان بريدو – وهو زميــل قديم يقيم الآن في شارع مالبالو – يمتلك كلباً يتشنج بمجرد ان يدني الانسان منه كيس الطباق . وكثيراً ما يقوم هذا الزميل بهذه التجربة امام اصدقائه في قصره في غابة جيوم . وهل يتصور الانسان ان سعوطاً بسيطاً كهذا يمكن ان يحدث كل هذه الأحداث في جهاز ذوات الأربع ؟ ان هذا

لأمر عجيب – أليس كذلك ؟ »

فقال شارل الذي لم يكن ينصت : نعم .

واستأنف الآخر وهو يبتسم ابتسامة الرضى عن نفسه قائلاً : « وفي هذا ما يدلنا على مدى الاضطراب في جهازنا العصبي . وأما عن السيدة فانني اعترف انها قد لاحت لي دائماً مصابة بالحساسية . ولذلك لم اوصلك قط ايها الصديق العزيز بأي من تلك العقاقير التي يدعون انها تهاجم المزاج . لا . لا عقـاقير طفيلية بل نظام للحياة . وهذا كل ما في الامر . مسكنات وملينات ومنعشات ثم او ما تظن انه ربما كان من الضروري اثارة خيالها . »

وقال بوفاري : « بماذا ؟ وكيف ؟ . »

فقال الصيدلي ؛ « آه . هذا هو السؤال » .

نعم . هذا هو السؤال . او كما قرأت اخيراً في احدى الصحف – هذه هي المشكلة » .

ولكن ايما صاحت وهي تستيقظ : « والخطاب ؟ والخطاب ؟ »

وظنا انها تهذي – وفعلاً اصيبت بالهذيان ابتداء من نصف الليل ، وظهرت عليها اعراض حمى مخية .

ولم يغادرها شارل خلال ثلاثة وأربعين يوماً فتخلى عن جميع مرضاه ، ولم يعد يرقد بل كان يجس نبضها باستمرار ، ويضع لها اللبخـات ومكمدات الماء البارد ، وكان يرسل جوستان حتى نيوشاتل ليحضر الثلج الذي كان يذوب في الطريق فيرسلوه ثانية . واستدعى السيد كانيفيه ليستشيره ، واستحضر الدكتور لاريفيير استاذه القديم من روان . اذ كان اليأس قد اخذ يساوره . وكان انهيار ايما هو الذي يخيفه بنوع خاص ، وذلك لأنها لم تكن تتكلم او تسمع شيئاً ، بل ولاح انها لا تتألم ، وكأن جسمها وروحها قد استراحا معاً من كل اضطراب .

وحوالي منتصف اكتوبر استطاعت ان تجلس فوق الفراش ومن خلفها

الوسائد . وبكى شارل عندما رآها تأكل اول قطعة من الخبز المغطى بالمربى . وعادت اليها قواها ، فكانت تنهض لبضع ساعات بعد الظهر . وشعرت يوماً بتحسن فحاول ان يحملها علي ان تقوم بنزهة في الحديقة مستندة الى ذراعه . وكان رمل ممرات الحديقة قد اختفى تحت الاوراق الميتة ، فسارت خطوة خطوة وهي تجر خفها وتستند بكتفها الى شارل وهي ما زالت تبتسم .

وسارا على هـذا النحو حتى نهاية الحديقة بالقرب من الشرفة فمدت ببطء قامتها وظلت عينيها بيدها لكي تنظر . ونظرت الى بعد سحيق ولكن لم يكن ثمة شيء حتى الأفق غير نيران كبيرة تشتعل في الاعشاب وترسل الدخان فوق التلال .

فقال شارل : « انك ستتعبين نفسك يا حبيبتي » . ودفعها في رفق لكي تدخل تحت العريشة وقال : « اجلسي على هذا المقعد لكي تستريحي » .

فقالت بصوت متهافت : « أوه . لا . لا أريد ان اجلس هنا . ليس هنا » .

وأصيبت بدوار . ومنذ المساء عاد اليها المرض بأعراض غامضة ، وان تكن في الواقع اكثر تعقيداً . فهي احياناً تشكو القلب ثم الصدر والمخ والاطراف كما كانت تصاب بقيء ، لمح فيه شارل اول اعراض السرطان .

وفوق كل ذلك كان فتانا المسكين يحس بقلق من الناحية المادية .

* * *

وهو اولاً لم يدر ماذا يفعل لكي يعوض السيد هوميه عن كل تلك الادوية التي اخذها من صيدليته ، وانه وان كان يستطيع كطبيب ان لا يدفع ثمنها ، الا انه مع ذلك كان يحمر خجلاً من هذا الدين . ثم ان نفقات المنزل قد اصبحت باهظة بعد ان صارت الطباخة سيدة المنزل .

فالفواتير تتساقط ، والمتعهدون يتمتمون والسيد لبريه بنوع خاص اخذ يلاحقه . والواقع ان هذا الأخير قد انتهز الفرصة عند اشتداد المرض بايما لكي يشحن الفاتورة فأحضر المعطف وحقيبة الليل ، وحقيبتي سفر كبيرتين بدلاً من واحدة ، وعدة اشياء اخرى . وعبثا كان شارل يردد انه لا حاجة به الى كل هذه الاشياء ، فقد رد التاجر – في غطرسة – بأنها قد طلبت منه وانه لن يستردها ، فضلاً عما في ذلك من مضايقة للسيدة اثناء نقاهتها ، فعلى السيد ان يفكر . وبالجملة كان مصمماً على ان يرفع الامر الى القضاء للمحافظـة على حقوقه بدلاً من ان يسترد بضائعه . وبعد ذلك بوقت قصير امر شارل بأن ترد الى دكانه . ولكن فيليسيتيه نسيت اذ كانت لديها مشاغل اخرى ، ولم يفكر احد بعد ذلك في ردها . فعاد السيد لبريه مطالباً وهو يهدد ويئن طوراً بعد طور ، وظل يحاور ويداور حتى اضطر بوفاري ان يضحي بكتابة كمبيالة تستحق بعد ستة اشهر . ولكنه لم يكد يوقع الكمبيالة حتى عنت له فكرة جريئة وهي ان يقترض ألف فرنك من السيد لبريه فسأل في ارتباك عما اذا كان من الممكن الحصول عليها ، مضيفاً انها ستكون لمدة سنة وبالارباح التي يريدها التاجر . فجرى لبريه الى دكانه وعاد معه بالنقود ، وأملى كمبيالة اخرى تعهد بوفاري بمقتضاها ان يدفع لأمره في اول سبتمبر المقبل مبلغ ألف وسبعين فرنكاً ، التي تضاف الى المائة وثمانين فرنكاً المتفق عليها من قبل ، فيصبح المبلغ ألفاً ومائتين وخمسين . وهكذا اقرض بستة في المائة مضافاً اليها الربع مقابل عمولة وذلك فضلاً عن ان البضاعة قد جنى منها ربحاً يساوي الثلث على الاقل بحيث يخرج من الصفقة بربح قدره مائة وثلاثون فرنكاً في اثنى عشر شهراً . بل وكان يأمـل ان لا تقف العملية عند هذا الحد ، فلا يستطاع سداد المبلغ ويجدد الكمبيالة فتتغذى نقوده المسكينة عند الطبيب وكأنها في دار علاج ، فتعود اليه

يوماً وقد اكتنزت وتضخمت حتى ليتمزق منها الكيس .

والواقع انه كان ناجحاً في كل شيء . فقد رسا عليه مزاد توريد السيدر لمستشفى نيوشاتل ، ووعده السيد جيومان بعدد من الاسهم في مناجم تراب النفط في جرومينيل ، وكان يحلم بأن ينظم خط مواصلات بالعربات بين اركي وروان . ولن يطول الزمن عندئذ في شل عربة « الاسد الذهبي » وستكون عرباته الاسرع والإقل اجراً واكبر حمولة كفيلة بأن تضع كل تجارة ايونفيل بين يديه .

وتساءل شارل عدة مرات بأية وسيلة يستطيع في العام المقبل ان يسدد كل هذا الدين .

وأخذ يبحث ويتخيل الوسائل ، كأن يرجع الى والده او ان يبيع شيئاً . ولكن والده سيصم دونه اذنيه ، وهو ليس لديه شيء يبيعه . وعندئذ احس من الحرج والارتباك ما دفعه الى ان ينحى عن تفكيره موضوعاً ممضاً كهذا . ولام نفسه اذ انساه هذا الموضوع ايما . وكأن كل تفكيره رهن تلك المرأة وكأنه يسلبها شيئاً اذا لم يفكر فيها باستمرار .

كان الشتاء قاسياً وطالت بالسيدة النقاهة .

وعندما يصحو الجو كانوا يدفعونها في المقعد الى جوار المدفأة التي تطل على الميدان ، وذلك لانها الآن اصبحت تبغض الحديقة . وظلت النافذة المطلة عليها مغلقة باستمرار . وودت لو باعوا الحصان الذي كانت تحبه فيا مضى والذي اصبحت تبغضه الآن . ولاح بان جميع افكارها قد اقتصرت على العناية بنفسها ، فكانت تظـل في الفراش حيث تتناول وجبات خفيفة وتدق الجرس لكي تسأل الخادمة عن النقيع الذي تعده ، او لكي تتحدث معها .

ومع ذلك اخذ الجليد يعكس من فوق سقف السوق في الغرفة شعاعاً ابيض ساكناً . ثم جاء المطر الذي اخذ يتساقط . وكانت ايما تنتظر في لهفة كل يوم تكرر تلك الاحداث الصغيرة المحتومة التي لم تكن مع ذلك

تهمها في شيء . وكان اهم تلك الاحداث هو وصول « العصفورة » في المساء .

وعندئذ كانت صاحبة الفنــدق تأخذ في الصياح وتجاوبها اصوات اخرى ، بينما يبحث هيبوليت عن الحقائب فوق غطاء العربة وفي يده مصباحه الكبير وكأنه نجمة وسط الظلام . وعند الظهر كان شارل يعود الى المنزل ثم يخرج ثم يتناول طبقاً من الحساء . وحوالي الساعة الخامسة عند الغروب كان الاطفال يعودون من المدارس وهم يجرون احذيتهم فوق الرصيف ويضربون الواحد بعد الآخر مدقات المنازل بمساطرهم .

وتلك كانت الساعة التي يأتي فيها السيد بورفيزيان لرؤيتها . وكان يسأل عن صحتها ويحمل اليها الاخبار ، ويدعوها الى الذين في ثرثرة صغيرة ناعمة لم تكن تخلو من طرافة .

وكان منظر مسوحه نفسه يشد من عزمها .

وفي يوم اشتد بها المرض حتى ظنت انها تحتضر فطلبت ان تتنــاول القربان ، وبينما كانوا يعدون العدة بالغرفة لهذا التناول ويضعون المائدة المزدحمة بأنواع العقاقير لتستخدم كمذبح ، وفيليسيتيه تنثر الارض بأزهار الداليا اذ بإيما تحس بشيء قوي يمر فوقها فيخلصها من آلامهــا ومن ادراكها واحساسها ، وتخفف جسمها من عبء الفكر ، وابتدأت حياة اخرى ولاح لها ان كيانها الصاعد نحو الله سيفنى في ذلك الحب ، كالبخور المشتعل الذي يتبدد بخاراً .

ورشوا الماء المقدس فوق ملاءات السرير واخذ القسيس القربان الابيض من المزود المقدس وانهارت من النشوة الالهية وهي تمر شفتيها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم اليها . وانتفخت ستائر مخدعها حولها في ليونة وكأنها سحب ، والشمعتان تلتهبان فوق المائدة فتلوحان لها هالتي مجد يعشي الابصار . عندئذ تركت رأسها يسقط ، وقد خيل اليها انها تسمع في فضاء السماوات اغنية الملائكة على نغمات الاعواد . وانها ترى في زرقة

السماء الله الأب مشرق العظمة – فوق عرش ذهبي بين القديسين الذين يمسكون اغصاناً خضرا ، وبأشارة منه تهبط الملائكة الى الارض بأجنحة من لهب ليحملوها بين اذرعهم .

وظلت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كأجمل شيء يمكن ان نحلم به حتى انها لتجاهد الآن لكي تسترد الاحساس بها ، ورغم ان الاحساس لا يزال مستمراً ، ولكن على نحو اقل استحواذاً ، وان يكن في نفس العذوبة العميقة . فروحها التي هدتها الكبرياء تستريح اخيراً في خشوع المسيحية ، وتتذوق لذة الاحساس بضعفها . وأخذت ايما تتأمل في ذاتها تحطم ارادتها التي اخذت تفتح الباب واسعاً لفيض من رحمة الله . وهكذا احست بأنه بدلاً من السعادة توجد مسرات اعظم ، كما يوجد حب فوق كل انواع الحب الاخرى – حب لا ينقطع ولا ينتهي بل يزداد على نحو دائم . ولمحت بين رؤى آمالها حالة من الطهارة تسبح فوق الارض وتختلط بالسماء ، هفت اليها روحها ، فودت ان لو اصبحت قديسة ، فاشترت مسابح وحملت تمائم ، وتمنت ان تجد في غرفتها – عند مرقدها ايقونة مرصعة بالزمرد لكي تقبلها كل مساء .

وقد دهش القسيس لهذا الاستعداد الذي ابدته ، وان رأى دين ايما يمكن ان ينتهي بالاقتراب من الانحراف او الاسراف لفرط ما فيه من لهفة . ولكنه لما لم يكن متبحراً في هذه الأمور اذا تجاوزت حداً معيناً ، فانه كتب الى السيد بولار امين مكتبة مونسينيور لكي يرسل اليه كتاباً قيماً لشخص من الجنس اللطيف ، مليء بالذكاء ، فشحن اليه الأمين خليطاً من كل ما كان شائعاً عندئذ في تجارة الكتب المقدسة – شحنها في غير مبالاة ، وكأنه يشحن كمية من الخردوات للزنوج . وكانت كتيبات صغيرة مكونة من اسئلة وأجوبة ، ونشرات ذات نغمة خشنة ، كتلك التي كتبهـــا السيد دميستر وروايات وردية الغلاف ذات اسلوب معسول لفقها قسس متجولون ، او راهبات نادمات من بينها كتيبات « فكر في

هذا جيداً » و « رجل المجتمع عند اقدام مريم » لمؤلفه السيد دي ... الذي يحمل عدة نياشين و « ضلالات فولتير » موضحة للشبان الخ .

ولم يكن ذهن مدام بوفاري قد صفا بعد على نحو تستطيع معه ان تقرأ اي شيء قراءة جدية ، فكانت تقرأ في سرعة مسرفة فثارت ضد طقوس الدين ، كما ان غطرسة الكتب الجدلية نفرتها لما فيها من تكالب على مطاردة اناس لم تكن تعرفهم من قبل والقصص الدنيوية المطعمة بالدين كانت تلوح لها صادرة عن جهل بالحياة ، ينحيها على نحو غير محسوس عن الحقائق التي كانت تنتظر دليلاً يؤيدها . ومع ذلك واظبت على القراءة . وعندما كان يسقط من يدها مجلد كانت تظن نفسها ــ مأخوذة بذلك الأسى الكاثوليكي الرفيق الذي تستطيع ان تحسه روح اثيرية .

وأما ذكرى رودولف فانها كانت قد نزلت بها الى اعماق قلبها ، حيث بقيت في حالة اكثر جموداً وسكوناً من مومياء ملك في تابوت . وكانت تنبعث من هذا الحب الكبير المحنط رائحة تخترق كل شيء ، وتعطر بالحنان جو الطهارة الذي ارادت ان تعيش فيه . وعندما كانت تركع على ركبتيها فوق المصلى الغوطى كانت توجه الى الرب نفس العبارات العذبة التي كانت تهمس بها قديماً لعاشقها وسط ابتهالات الحب المحرم .

وكان ذلك لكي تستنزل الايمان . ولكن لم تنزل من السماوات اية نشوة . فكانت تنهض متعبة الأوصال مستشعرة خيبة امل شاسعة . وظنت ان هــذا البحث عن الايمان ليس الا فضيلة اخرى . ودفعتها كبرياء تعبدها الى ان تقارن نفسها بالسيدات القدامى اللائي كانت تحلم بمجدهن فوق صورة للافاليير ، واللاتي كن يجرجرن في عظمة ذيول اثوابهن الطويلة المبرقشة ، ثم ينسحبن الى الوحدة ، لكن يرقن عند اقدام المسيح كل تلك الدموع الفائضة من قلب جرحته الحياة .

واستسلمت عندئذ لأعمال البر المسرفة ، فكانت تحيك الملابس للفقراء ، وترسل الحطب الى الوالدات . وذات يوم وجد شارل عند عودته الى المنزل

ثلاثة صعاليك يتناولون الحساء على مائدة في المطبخ . لقد استرجعت الى المنزل ابنتها الصغيرة التي كان زوجها قد ارسلها الى المرضعة اثناء مرض زوجته . وأرادت ان تعلمها القراءة . ولم تعد اعصابها تثور مهما بكيت برت .

وقد وطدت نفسها على الاستسلام والتسامح الشامل . واصبحت لغتها ازاء كل شيء مليئة بالعبارات المثالية . فكانت تقول لطفلتها : « هل انتهى مغصك يا ملاكي ؟ »

ولم تجد مدام بوفاري الأم ما تعيبه الا اذا كان الولع المسرف بصنع قمصان للأيتام من التريكو بدلاً من ان تصلح خرق مطبخها . ولكن هذه السيدة الطيبة التي اضنتها الخلافات المنزلية راقها ان تعيش في هذا المنزل الهادىء بل واستمرت فيه حتى الى ما بعد عيد القيامة لكي تتجنب استهتار الأب بوفاري الذي لم يكن يفوته في كل يوم من ايام الجمعة المقدسة ان يشتري سجقاً .

وفضلاً عن صحبة ام زوجها التي كانت تقوي ايمانها قليلاً بفضل استقامة آرائها ووقار حركاتها ، كانت ايما تحظى كل يوم بصحبة أخريات مثل مدام لنجلوا ومدام كارون ومدام ديبوي ومدام تيفاش والسيدة الممتازة مدام هوميه ، التي لم ترد قط ان تصدق شيئاً من الشائعات التي انتشرت عن جارتها فكانت تصاحبها بانتظام بين الساعة الثانية والخامسة . وكان اطفال هوميه يأتون ايضاً لرؤيتها في صحبة جوستان الذي كان يصعد معهم الى الغرفة ، حيث يقف الى جوار الباب ساكناً صامتاً . بل وكثيراً ما كانت مدام بوفاري تغفل عن وجوده فتأخذ في اعداد زينتها وتبدأ بسحب مشطها وهي تهز رأسها بحركة عنيفة . وعندما رأى لأول مرة كل هذا الشعر الذي ينزل حتى ركبتيها في حلقات سوداء كان هذا المنظر بالنسبة للطفل المسكين بمثابة دخول مفاجىء في شيء خارق جديد اخافته روعته .

ولا شك ان ايما لم تلاحظ تلطفاته الصامتة ولا تهيبه ، ولم يخطر ببالها قط ان الحب الذي اختفى من حياتها – ينبض هنا الى جوارها تحت هذا القميص المصنوع من القماش السميك ، وداخل هذا القلب اليافع المتفتح لنداءات جمالها .

فقد اصبحت الآن تغلف كل شيء بغلاف سميك من عدم المبالاة ، فعباراتها مليئة بالعاطفة ، ونظراتها بالترفع ، وحركاتها بالتفاوت ،حتى لم يعد من الممكن تمييز الأثره عن محبة الغير ، والفساد عن الفضيلة. فذات مساء مثلاً غضبت من خادمتها التي طلبت منها ان تسمح لها بالخروج وأخذت تتمتم باحثة عذر .

وفجأة قالت : « انت تحبينه اذن . »

ودون ان تنتظر جواباً من فيليسيتيه التي احمرت خجلاً ، اضافت في نغمة حزينة : « هيا اجري . تمتعي . »

وفي اوائل الربيع قلبت الحديقة رأساً على عقب بالرغم من ملاحظات بوفاري . ومع ذلك فان هذا الأخير قد كان سعيداً بأن يراها تبدي ارادة ما . وأخذت هذه الارادة تزداد كلما تقدمت في استعادة صحتها .

فابتدأت بأن وجدت وسيلة لطرد الأم روليه المرضعة التي كانت قد اعتادت اثناء نقاهتها ان تتردد كثيراً على المطبخ ومعها رضيعيها وربيبها والذي كانت اسنانه أحد من اسنان آكلي لحوم البشر . ثم تخلصت من اسرة هوميه ، كما أخذت تتخلص من جميع الزيارات الاخرى ، بل أخذت تخفف من مواظبتها على الكنيسة ، مما حظي بموافقة الصيدلي المطلقة ، اذ قال لها في نغمة ودية : « انك مخدوعة قليلاً بالمسوح .»

وكان السيد بورنسيان يطوف كل يوم كما كان يفعل في الماضي عند خروجه من الصلاة . وكان يفضل ان يظل في الخارج في الهواء الطلق وسط العريشة التي كان يسميها الخميلة . وكانت تلك هي الساعة التي

يعود فيها شارل . وكانا يشعران بالضجر. ولذلك كـانا يحضران نبيذ التفاح ويشربان سوياً نخب شفاء السيدة الكامل .

ويكون بينيه هناك ، اي الى اسفل قليلاً عند جدار الشرفة حيث يصيد « ابو جلمبو ». وكان بوفاري يدعوه لكي يرطب حلقه، وكان بينيه ماهراً في فتح الزجاجات .

كان يقول وهو يلقي حوله وعلى مرمى البصر نظرة الرضى عن نفسه: « يجب ان توضع الزجاجة رأسيا فوق المائدة ، وبعد ان تقطع الخيوط تدفع الفلينة دفعات صغيرة في رفق مستمر على نحو ما يفعلون مع مياه سلس في المطاعم » .

ولكن نبيذ التفاح كثيراً ما كان يفور في وجههم اثنـاء شرحه . وعند ذلك كان القسيس يضحك ضحكة سميكة ثم لا يفوته قط ان يقذف بهذه النكتة : « ان جودته تقفز الى الاعين » .

والواقع انه كان رجلا طيباً بل انه لم يبد اشمئزازاً من الصيدلي الذي نصح شارل بأن يذهب بأمرأته الى المسرح في روان لكي يرفه عنها بسماع المغني الشهير لاجاردي . واندهش هوميه من صمتـه وأراد ان يعرف رأيه . فأعلن القسيس انه يعتبر الموسيقى أقل خطراً على الأخلاق من الأدب .

ولكن الصيدلي اخذ يدافع عن الأدب وادعى ان المسرح يحطم الآراء الرجعية ويدعو الى الفضيلة تحت ستار اللهو.

وأضاف قائلاً باللغة اللاتينية : « انه يقوم الأخلاق بالضحك يا سيد بورنسيان . فانظر مثلاً الى مسرحيات فولتير تجدها ممزوجة في مهارة بالآراء الفلسفية التي تعتبر بالنسبة للشعب مدرسة حقيقية للأخلاق والدبلوماسية»

وقال بينيه : « اما أنا فقد رأيت قديماً مسرحيـة تسمى « طفل باريس » حيث تظهر شخصية قائد عجوز يلوح انه مختل العقل حقاً ، فهو يردع ابن أحد الأسر لأنه أغوى عاملة وفي النهاية ... » .

فاستمر هوميه قائلاً « لا شك ان هناك ادباً رديئاً ، كما ان هناك صيدلة رديئة ولكن ادانة أهم الفنون الجميلة بالجملة يلوح لي غباوة وتزمتاً لا يليقان الا بتلك الأيام اللعينة التي سجن فيها جاليليو » .

فاعترض القسيس قائلاً : « انني اعلم جيداً ان هناك كتباً جيدة ومؤلفين فضلاء ، ومع ذلك فلو لم يكن هناك غير اجتماع الناس من الجنسين معاً في قاعة ساحرة مزينة بمباهج الدنيا ، ثم تلك الملابس الوثنية ، وتلك المساحيق والمشاعل والاصوات المخنثة لكفى كل ذلك لكي ينتهي بتوليد نوع من الاباحية النفسية ، وغرس الافكار الفاسدة والشهوات الدنسة . وهذا على الأقل هو رأي جميع آباء الكنيسة » وأضاف وقد اتخذ صوته فجأة نغمة صوفية وهو يكور فوق ابهامه عطوساً من الطباق « ومع ذلك فانه اذا كانت الكنيسة قد أدانت المسارح فان لديها من الاسباب ما يبرر هذه الادانة ، ومن واجبنا ان نخضع لأوامرها » .

فسأل الصيدلي : « ولكن لماذا حرمتم الممثلين من الكنيسة مع انهم كانوا فيما مضى يساهمون جهاراً في الاحتفالات الدينية . نعم كانوا يلعبون ويمثلون في داخل الكنائس انواعاً من المهازل التي تسمى بالاسرار وفيها كانت تمتهن قواعد اللياقة . »

واكتفى القسيس بأن تنهد بينما استمر الصيدلي يقول : « كما ان الكتاب المقدس فيه ... فيه كما أعلم ... اكثر من جزئيه ... لاذعة... أشياء ... في الواقع بالغة التحرر . »

وعندما قام السيد برونسيان بحركة تدل على الغضب قال الصيدلي : « آه . لا نشك انك توافق انه ليس كتاباً يوضع بين أيدي الشباب ، وانه ليزعجني اذا كانت اتاليا ... »

فصاح الآخر وقد نفذ صبره : « ولكن البروتستانت لا نحن هم الذين يوصون بقراءة الكتاب المقدس . »

فقال هوميه : « وعلى أية حال فانه لما يدهشني في ايامنا ، وفي

عصر النور ان يصبروا على ادانة ترفيه ذهني لا ضرر فيه ، بل اخلاقي وصحي في بعض الأحيان أليس كذلك يا دكتور ؟ » .

« بلا ريب » – تلك كانت الاجابة التي أجاب بها الدكتور في عدم مبالاة ، اما لأنه كان يعتقـــد في نفس الآراء ولم يرد ان يسيء الى أحد ، واما لأنه لم تكن لديه أية افكار .

ولاح ان المناقشة قد انتهت عندما رأى الصيدلي انه من المناسب ان يضرب آخر ضربة فقال : « لقد عرفت قسساً يرتدون الملابس المدنية لكي يذهبوا لرؤية الراقصات وهن يتبخترن » .

فقال القسيس : « ما هذا الذي تقول ؟ »

فأجاب : « آه لقد عرفت قسساً من هذا النوع . »

وكرر هوميه عبارته الاخيرة وهو يمد في مقاطعها . »

« عرفت قسساً من هذا النوع » .

فقال بورنسيان وقد وطد نفسه على سماع كل شيء : «فليكن . لقد كانوا مخطئين » .

فصاح الصيدلي : « يا لله . وهم يفعلون غير ذلك أيضاً » .

فقال القسيس في نظرة مفترسة أخافت الصيدلي : « سيدي »

فقال الصيدلي في نغمة أقل حدة : « ان كل ما اريد قوله هو ان التسامح خير وسيلة لجذب النفوس نحو الدين » .

فقال الرجل وهو يعتدل في جلسته فوق الكرسي :

« هذا حق . هذا حق . »

ولكنه لم يمكث غير دقيقتين ، وبمجرد ان انصرف قال السيد هوميه للطبيب : هذا هو ما يسمى باشتباك المناقير . لقد طويته طياً كما رأيت، ولكن صدقني ، وخذ السيدة الى المسرح ، ولو لم يكن في ذلك الا اثارتك مرة في حياتك لأحد هؤلاء الغربان . ووالله ، لو استطاع أحد ان يحل محلي ، لصاحبتكما بنفسي . اسرعوا فان لاجاردي لن يغني غير

ليلة واحدة ، وقد ارتبط في انجلترا بأجور ضخمة ، فهو فيا يقولون « نمس » ماهر ! يتقلب فوق الذهب أو هو يصطحب معه ثلاث عشيقات وطاهية ! ان هؤلاء الفنانين الكبار يحرقون الشمعة من طرفيها، وهم في حاجة الى حياة متهتكة لكي يثيروا قليلاً خيالهم . ولكنهم يموتون في المستشفى ، وذلك لأنهم لم يفطنوا في شبابهم الى ان يدخروا شيئاً ! هيا! هنيئاً مريئاً ! والى الغد ! »

ولم تلبث فكرة المسرح ان نمت بسرعة في رأس بوفاري ، فقد بادر فأخبر بها امرأته ، التي رفضت في اول الأمر متعللة بالتعب والمشقة والتكاليف ، ولكن شارل على غير عادته لم يرضخ ، وذلك لشدة ايمانه بأن هذا الترويح سيفيدها كثيراً . ولم يكن هناك اي عـائق ، فقد أرسلت اليهم أمه ثلثمائة فرنك لم يكونوا يتوقعونها ، والديون الجارية لم تكن جسيمة ، وموعد استحقاق كمبيالات لبريه لا يزال بعيداً ، بحيث أنه لم يكن هناك محل للتفكير فيها ! ولما كان شارل يظن ان امرأته غير متحرجة ، فقد اخذ يزداد الحاحاً ، حتى انتهى الامر بأن وافقت تحت تأثير الحاحه . وفي اليوم التالي سافرا في الساعة الثامنة في «العصفورة» .

وتنهد الصيدلي الذي لم يكن هناك ما يستوجب بقاءه في ايونفيل ، ولكنه اعتقد مع ذلك انه مضطر الى عدم مغادرتها ، وقال وهو يراهما مسافرين : « هيا — رحلة سعيدة ! يا لكما من محظوظين ! »

ثم وجه الحديث الى ايما التي كانت تلبس ثوبـاً من الحرير الازرق بمراوح اربع قائلا : « انني اراك جميلة كـآلهة الحب ولسوف « يشرق ضياؤك في روان ! »

وتوقفت العربة عند فندق « الصليب الاحمر » في ميدان بوفوازين، وكان من تلك الفنادق التي توجد في قرى الريف ، وبها حظائر واسعة، وغرف نوم ضيقة . وفي فنائها يشاهد الدجاج وهو يلتقط الشوفان تحت عربات المندوبين التجاريين الملطخة بالاوحال ... اكـواخ عتيقة ذات

شرفات من الخشب الذي ينخر فيه السوس ، والذي يقرقع عندما تهب الريح في ليالي الشتاء ، وهي مليئة دائماً بالناس والضوضاء والمأكولات ، وحيث ترى الموائد السوداء لزجة من أثر ما يتساقط عليها من قهوة او شاي مسكرين ممزوجين بالخمر ،وزجاج النوافذ السميك مصفر من الذباب ، والفوط المبللة ملوثة ببقع من النبيذ الازرق ، والتي تفوح منها دائماً رائحة القرية كعمال المزارع الذين يرتدون ملابس المدينة . ولها مقهى على الشارع ، وحديقة خضروات من ناحية الحقول . وأخذ شارل العمل فوراً .

وكان يخلط بين الصالة والمقاصير ، وبين البناوير واللوجات . وطلب ايضاحات ولكنه لم يفهمها ، فأرسله المراقب الى المدير . وعاد الى الفندق ثم ارتد الى المكتب ، وهكذا جاب المدينة من اقصاها الى ادناها عدة مرات من دار المسرح الى الطريق العام .

واشترت السيدة قبعة وقفازاً وباقة زهر . وأما السيد فقد كان يخشى كثيراً ان يتأخر عن بدء المسرحية ، فلذلك لم يجد الوقت الكافي لكي يزدرد حساءه ، ووصل الاثنـــان امام ابواب المسرح التي كانت لا تزال مغلقة .

* * *

كان الجمهور واقفاً بازاء الحائط ، وقد تجمع في مجموعات متقابلة بين حواجز الشرف ،وعلى ناصية للشوارع المجاورة كانت توجد اعلانات ضخمة كتبت عليها بأحرف كبيرة عبارات « لوسي دولامرمور .... لاجاردي ...... اوبرا ..... الخ »

وكان الجو صحواً حاراً ، والعرق يتصبب في الثنايا . والمناديل المنشورة تجفف الجباه الحمراء واحياناً تهب ريح فاجرة من النهر فتهز في رفق حافة مظلات القماش المعلق فوق ابواب المقاهي ومع ذلك فعلى مسافة قريبة كان يسري تيار منعش من الريح الثلجية تفوح منه رائحة الشحم والجلد والزيت ، وتلك كانت رائحـــة شارع العربات المليء بحوانيت كبيرة يدحرجون فيها البراميل .

وارادت اما ان يتمشيا قليلاً على الميناء للنزهة وتمضية الوقت ، حتى لا يلوحان مضحكين وهمـا ينتظران امام ابواب المسرح التي لا تزال مغلقة . وامسك شارل على سبيل الاحتياط بالتذاكر في يده داخل جيب سرواله الذي ضمه الى بطنه .

وخفق قلبها منذ دلفت الى الردهة ، وابتسمت ابتسامة غير ارادية من الغرور عندما رأت الجمهور يتدافع على اليمين في الممشاة الأخرى ، بينما صعدت هي سلالم الدرجة الاولى . وكانت تجد سروراً كسرور الاطفال عندما تدفع باصبعها الابواب الواسعة المبطنة باللباد وكانت تستنشق بملء رئتيها رائحة المشايات المعبأة بالغبار ، وعندما جلست في مقصورتها شدت جسمها في غطرسة المركيزة .

وابتدأت الصالة تمتلىء واستلت العوينات من جرابها ، واخذ المشتركون يلمح بعضهم البعض عن بعد ويتبادلون التحية ، وقد اتوا ليتلهوا بالفنون الجميلة عن قلق التجـارة ، ولكنهم لم ينسوا الاعمال قط ، فكانوا لا يزالون يتحدثون عن القطن والخمور او النبلة .. وكانت ترى رؤوس العجائز المسالمة الخالية من كل تعبير وكأنها ميداليات من الفضة اطفأ بريقها بخار الرصاص . والشبان المرد يشرقون في الصالة ناشرين من فتحات صداراتهم الرقبة الوردية او التفاحية الخضراء .

وكانت مدام بوفاري تعجب بهم من اعلى ، وهم يقبضون بقفازاتهم الصفراء على كرات عصيهم المذهبة .

واشتعلت مصابيح الاوركسترا ، وتدلت الثريا من السقف فانساب من بلورها نور ، ناشراً بهجة مفاجئة في الصالة . ثم دخل الموسيقيون بعضهم خلف بعض ، وسمعت اولاً ضوضاء من شخير الفيولونسل ، ثم صراخ الكمان وضجة البوق ونوح الناي والمزمار . ولكن لم تلبث ان سمعت ثلاث دقات على المسرح وأخذت الطبول تدق ، وعزفت الآلات النحاسية بعض الانغام ، وعندما ارتفعت الستارة كشفت عن منظر طبيعي .

كان ملتقى طرق في غابة وعلى اليسار نافورة ماء تظللها شجرة بلوط ، وفلاحون ، ونبلاء يحملون معاطفهم فوق اكتافهم ، وقد اخذوا يغنون سوياً احدى اغنيات الصيد . ثم ظهر ضابط وأخذ يبتهل الى ملاك الشر رافعاً ذراعيه الى السماء فظهر شخص آخر ثم اختفيا .واستأنف الصيادون غناءهم .

واحست بنفسها من بين قراءات الشباب وسط قصص وولتر سكوت ، وخيل اليها انها تسمع من خلال الضباب صوت القرب الاسكتلندية ، وهو يتردد بين الاعشاب الملتفة . والواقع ان ذكريات القصة سهلت لها فهم الاوبريت فتابعت القصة عبارة بعد عبارة وذلك بينما كانت الخواطر الخفية التي تعود اليها لا تلبث ان تتبدد تحت امواج الموسيقى؛وأخذت تترنح مع هدهدة الانغام،وأحست بكيانها كله يهتز وكأن قوس الكمان يمر فوق اعصابها ، ولم تكفها عيناها لكي تتأمل الملابس والديكور والاشخاص والاشجار الملونة التي كانت تهتز عندما يسير الممثلون فوق المسرح ، والمعاطف وملابس الممثل والجراب وكل هذه الرؤى التي كانت تتحرك في انسجام الموسيقى وكأنهـــا في جو من عالم آخر . ولكن امرأة شابة تقدمت وهي تقذف ببدرة من النقود الى فارس اخضر الثياب وبقيت وحدها . وعند ذلك سمع ناي يحدث نغماً كأنه خرير نافورة او زقزقة عصفور ، وغنت لوسي مذهباً في نغمة جادة من الصول ماجير ، كانت تشكو الغرام وتتمنى جناحين ، وكذلك اما كانت تود ان تهرب من الحياة لتطير في عناق ، وفجأة ظهر ادجار لاجاردي .

كان في شحوب رائع يوحي بعظمة الرخام التي تبدو على تلك الاجناس المارة من سكان الجنوب . وكان صدره القوي مشدوداً في صدار بني اللون ، وخنجر صغير منقوش يصطك بفخذه الايسر وهو يقلب نظرات ولهانة ويكشف عن اسنانه البيضاء .

ويروون ان اميرة بولندية سمعته ذات مساء وهو يغني على شاطىء

بيارتز حيث كان يعمل في القوارب، فأغرمت به وفقدت ثروتها بسببه ، ثم تخلى عنها بسبب نساء اخريات. وقد ساهمت هذه الشهرة الغرامية في شهرته الفنية .

بل وكان هذا الممثل الخبيث يحرص دائماً على ان يزج في اعلاناته عبارة شفرية عما في شخصه من سحر وفي روحه من حساسية . وبحنجرة قوية وجرأة ثابتة ، وحرارة اكثر من ذكاء ومبالغة اكثر من عاطفة شعرية ، استطاع هذا المهرج ان يرفع من طبيعته التي كان فيها شيء من طبيعة الحلاق ومصارع الثيران .

وقد اثار الحماسة منذ الشهر الاول وهو يضم لوسي بين ذراعيه ويتركها ثم يعود اليها وقد لاح عليه انه بائس . كانت تنطلق منه انفجارات الغضب وحشرجة الانين في حنان لا حد له .

والنغمات تنطلق من عنقه العاري مليئة بالتنهدات والقبلات ، وكانت ايما تنحني لكي تراه وهي تخدش باظافرها مخمل المقصورة،وأخذت تملأ قلبها بالنحيب المنغم الذي استرسل مع صوت الكنترباص ، وكأنه صيحات غرقى في ضجيج العاصفة . ووجدت فيه صدى لكل ذلك الثمل واللهفة اللذين اوشكا ان يقتلاها ، وكان صوت المغنية يلوح لها ترحيباً لمكنون نفسها بل ولاحت لها كل هذه الرؤيا جزءاً اصيلاً من حياتها .

ولكن احداً في الدنيا لم يحبها مثل هذا الحب ،فهو لم يبك كادجار في العشية الاخيرة عندما تبادلا عبارة : الى الغد الى الغد .

واهتزت القاعة بعبارات الاستحسان واستعيدت الخاتمة كلها وتحدث العشيقان عن ازهار قبرهما ، وعن العهد والفراق والقدر والآمال . وعندما نطقا بالوداع الاخير،اطلقت ايما صيحة حادة اختلطت برنين آخر النغمات الموسيقية .

وتساءل بوفاري : لماذا يضطهدها هكذا هذا النبيل ؟

فاجابت ايما : لا ... انه عشيقها .

فقال شارل: « ومع ذلك يقسم بانه سينتقم من اسرتها بينما الآخر الذي ظهر من هنيهة كان يقول ، « اني احب لوسي واظن انها تحبني » كما انه انصرف مع ابيها وكل منهما يتأبط ذراع الآخر ، لانه ابوها ـ أليس كذلك ؟ ذلك الرجل القصير القبيح الذي يلبس ريشة ديك في قبعته ؟ .

وبالرغم من تفسيرات ايما منذ بدء الحوار الذي عرض فيه جيلبير حيلة الائمـــة على سيده اشتون ، فان شارل عندما رأى دبلة الخطوبة الكاذبة التي انخدعت بها لوسي اعتقد انها كانت تذكار حب مرسل من ادجار ، وان يكن قد اعترف بانه لم يفهم القصة بسبب الموسيقى التي اساءت كثيراً الى الحوار .

وقالت ايما : « فليكن : اسكت : »

فقال وهو ينحني فوق كتفها : « انني فقط احب ان افهم كما تعلمين : »

فقالت وقد نفذ صبرها : اسكت : اسكت :

وكانت لوسي تتقدم ونساؤها يسندنها نصف اسناد ، وفي شعرها تاج من اغصان البرتقال ، ووجهها اكثر شحوباً من ساتان ثوبها الابيض ،فأخذت ايما تحلم بيوم زواجها وقد تصورت نفسها هناك وسط حقول الحنطة على الطريق الصغيرة ، عندما كانوا يسيرون نحو الكنيسة . فلماذا اذن لم تقاوم كهذه ولم تتضرع ؟

لقـــد كانت على العكس من ذلك فرحة لا ترى الهاوية التي تتردى فيها . آه يا ليتها وهي في نضرة الجمال وقبل التلوث بالزواج وضلال الخيانة الزوجية قد علقت حياتها بقلب كبير صلب ، وعندئذ كانت الفضيلة والحنان والشهوة والواجب تختلط معاً بحيث لا تسقط قط من قمة تلك السعادة . ولكن هذه السعادة كانت بلا ريب اكذوبة متخيلة لكي تنزل اليأس بكل رغبة . فهي الآن تعرف ضآلة الاحساسات التي يبالغ فيها الفن . وهكذا حاولت ايما ان تصرف تفكيرها لكي لا ترى في تمثيل آلامها على

المسرح إلاّ خيالاً مجسماً يصلح لتسلية العيون ، بل واخذت تبتسم ابتساماً داخلياً في اشفاق مترفع ، وذلك عندما ظهر في اقصى المسرح ، تحت باب من المخمل ، رجل يرتدي عباءة سوداء .

وسقطت قبعته الاسبانية عندما قام بحركة ، وبعد ذلك مباشرة ابتدأت الآلات والمغنون في القطعة السداسية ، وغطى ادجار الهائج الغضب على جميع الآخرين ، بصوته الأكبر صفاء ، وقد اخذ اشتون يوجه اليـــه بنغمات عميقة تحدياته القاتلة ، كما اخذت لوسي تطلق شكواها الحادة بينما اخذ ارتير ينغم جانباً بعض الانغام المتوسطة . والباريتون الاول يدوي كالارغون ، واصوات النساء ترجع عباراته على هيئة جوقة ممتعة . وكانوا يقفون في صف واحد وكان الغضب والانتقام والغيرة والرعب والدهشة تنطلق معاً من افواههم المنفرجة ، فالعاشق المهتـــاج يشهر سيفه المسلول وياقة الدانتيللا ترتفع وتنخفض تبعاً لحركات صدره ، وهو يذهب يمنة ويسرة بخطى واسعة ، ويقعقع على خشبة المسرح بمهازه القرمزي المركب في حذائه الطري الذي ينفرج عند ساقه . وخطر لها انه يحمل بلا ريب حباً لا ينفذ حتى يستطيع ان يصب فيه على الجمهور كل هذا الفيض الكبير ، واختفت كافة نزعات النقد من نفسها تحت تأثير شاعرية الدور التي اخذت تغذوها وانجذبت نحو الرجل بوهم التمثيل فحاولت ان تتصور حياته ، تلك الحياة الصاخبة الفريدة الرائعة ، والتي كانت تستطيع مع ذلك ان تحياها لو سمح الحظ فتعرف احدهما بالآخر واحبه . وكانت تستطيع ان تجوب معـــه اوروبا عاصمة عاصمة ، وان تشاركه متاعبه ومواضع فخاره، وان تلتقط الازهار التي ترمي اليه ، وان تطرز بنفسها ملابسه ، وفي كل مساء تلتقي مشدوهة ، وهي جالسة في احد الالواج خلف الحاجز ذي القضبان الذهبية ، انفجارات عواطف تلك الروح التي لن تغني عندئذ الا لها وحدها ، وهو ينظر اليها من فوق المسرح اثناء قيامه بدوره . ثم استولى عليها الخجل ... ان ينظر اليها لا شك في ذلك

وثارت بها الرغبة في ان تلقي بنفسها بين ذراعيه لكي تحتمي بقوته، وكأنه قد اصبح الحب مجسماً ، وان تقول له بل وتصيح : اخطفني . خذني فلنرحل : فلك ، لك وحدك كل اشواقي وكل احلامي .

ونزلت الستارة .

واختلطت رائحة الغاز بالانفاس ، وزاد هواء المراوح الجو اختناقاً . وأرادت اىما ان تخرج . وكان الجمهور يملأ الممرات فارتمت في مقعدها مختنقة بدقات قلبها . وخشي شارل ان تصاب بالاغماء، فجرى الى البوفيه لكي يحضر لها كوباً من نقيع الشعير .

ووجد مشقة كبيرة في ان يعود الى مقعده ، لانه كان يصطدم بمرفقه عند كل خطوة بسبب الكوب الذي يمسكه بين يديه . بل وانسكب ثلاثة ارباعه على اكتاف سيدة من رواده كانت ترتدي ثوباً قصيراً بلا أكمام : واحست بالشراب البارد ينساب على ظهرها فارسلت صرخات كصرخات الطاووس وكأنها ذبحت . وثار زوجها، وهو صاحب مصنع نسيج ، ضد هذا التصرّف الأخرق .

وبينما كانت السيدة تجفف بمنديلها البقع من فوق ثوبها الجميل المصنوع من التافتاه ذات اللون الكزبري ، كان زوجها يتمتم في نغمة مكظومة عبارات التعويض والنفقـــات والاسترداد . واخيراً وصل شارل الى جوار زوجته وقال وهو يلهث : لقد ظننت انني لن اصل فهناك زحام ... زحام ...

ثم اضاف : « احدسي من قابلت هناك ؟ ... السيد ليون — ليون ! »

— ليون ؟

— هو نفسه : وسيحضر ليقدم اليك احتراماته .

ولم يكد ينتهي من هذه العبارة حتى دخل المقصورة كاتب ايونفيل القديم .

ومد يده في غير تكلف وكأنه من الطبقة العليا المهذبة ومدت مدام

بوفاري يدها آلياً وهي تستجيب بلا ريب الى جاذبية ارادة اقوى . ولم تكن قد مست تلك اليد منذ امسية الربيع التي كان ينهمر فيها المطر فوق الاوراق الخضراء ، عندما ودع احدهما الآخر وهي واقفة عند حافة النافذة . ولكنها تذكرت في سرعة ما يقتضيه الموقف من لباقة، فنفضت في جهد ما في ذكرياتها من خمول ، واخذت تتمتم في عبارات سريعة :

– آه طاب وقتك ... كيف حالك ؟

– انت هنا ؟

وصاح صوت من الصالة اذ كان الفصل الثالث قد ابتدأ « هس ».

– انت اذن في روان ؟

– نعم .

– ومنذ متى ؟

– اخرجوا ، اخرجوا !

والتفتت اليها الانظار فسكتا .

ولكنها منذ تلك اللحظة لم تعد تنصت الى جوقة المدعوين ومشهد اشتون وخادمه، وهو ديالوج غنائي كبير من الرى ماجير ، كل هذا مر بالنسبة اليها قصياً ، وكأن الآلات قد اصبحت اقل رنيناً والشخصيات اكثر بعداً . واخذت تتذكر لعب الورق عند الصيدلي، والنزهة عند المرضعة ، والقراءات تحت العريشة ، والخلوات الى جوار المدفأة . وكل هذا الحب المسكن الهادىء الطويل المتحفظ الحنون ، الذي كانت مع ذلك قد نسيته . فلماذا يعود اذن ؟ كيف تآمرت المصادفات لكي تعود به الى حياتها ؟ وظل واقفاً خلفها مستنداً بكتفه الى حاجز المقصورة ، وبين وقت وآخر كانت تحس برعشة من تأثير الانفاس الدافئة المنبعثة من انفه الى شعرها :

وقال وهو ينحني فوقها عن قرب حتى مس طرف شاربه خدها :
«هل هذا يروقك ؟ »

فاجابت في غير اهتمام : « اوه ! في الحق . لا ! لا يروقني كثيراً »

وعندئذ اقترح ان يخرجوا من المسرح ليتناولوا المثلجات في جهة ما .

فقال بوفاري : لا ليس الآن ؛ فلننتظر ، ان شعرها منفوش ، مما يدل على ان المشهد سيكون عنيفاً .

ولكن مشهد الجنون لم يُثر اهتمام ايما ولاح لها تمثيل المغنية مبالغاً فيه . وقالت انها تصيح بصوت اكثر ارتفاعاً مما يجب .

والتفتت الى شارل وهي تقول هذه العبارة ، بينما كان هو منصتاً .

فأجاب وهو يتأرجح بين حيرته الواضحة والاحترام الذي يحمله لآراء زوجته : « نعم .. ربما .. قليلاً »

وقال ليون وهو يتنهد :

– يا له من جو حار !

– لا يحتمل هذا بالفعل !

وسأل بوفاري : – هل انت متضايقة ؟

فاجابت : – نعم . اني اختنق . فلنخرج .

ووضع السيد ليون في رفق فوق كتفهـــا شالها الطويل المصنوع من الدانتيللا ، وهب الثلاثة لكي يجلسوا عند الميناء في الهواء الطلق امام واجهة احد المقاهي .

وجرى الحديث اولاً عن مرضها وان تكون ايما قد قاطعت شارل من وقت الى آخر ، زاعمة انها تخشى ان يكون في هذا الحديث ما يضايق السيد ليون . واخبرهم هذا الاخير بأنه قد اتى الى روان لكي يمضي سنتين في مكتب كبير لكي يتمرس بالاعمال التي تختلف في نورمانديا عنها في باريس . ثم سأل عن برت واسرة هوميه والأم ليفرانوا . ولما لم يكن لديهما شيء آخر يقولانه في حضور الزوج فان الحديث لم يلبث ان توقف .

وكان الناس الخارجون من المسرح يمرحون على الرصيف وهم يدندنون او ينهقون بملء حناجرهم . « ايها الملاك الجميل » . اي لوسي :

وعندئذ اخذ ليون يتفيقه ويتحدث عن الموسيقى . فهو قد رأى تامبو ربني وروبيني وبرسياني وجريزي فضلاً عن لاجاردي الذي لا يساوي شيئاً رغم صرخاته العالية .

وقاطعه شارل وهو يقضم في جرعات صغيرة شرابه الممزوج « بالروم » ومع ذلك فانهم يقولون انه رائـــع كل الروعة في الفصل الاخير واني لنادم لخروجي قبل النهاية ، وذلك لانه كان قد اخذ يروقني .

فقال الكاتب : « ومع ذلك فانهم سيعرضون عما قريب رواية اخرى » .

ولكن شارل اجاب بانهم سيرحلون في الغد .

واضاف وهو يلتفت نحو زوجته : وذلك ما لم تريدي ان تبقي وحدك يا قطتي الصغيرة ؟

وانتهز الشاب هذه الفرصة غير المتوقعة التي سنحت لأمله فغيّر من مناورته واخذ يمتدح لاجارديه في مقطوعته الختامية قائلاً : لونه شيء ضخم جليل !

وعندئذ ألح شارل قائلاً « ستعودين يوم الأحد . هيا ، قرري : انك مخطئة في ترددك اذا كنت تحسين ان هذا قد يفيدك اقل فائدة » .

وفي اثناء ذلك اخذت الموائد تخلو من حولهم ، وجاء خادم ووقف الى جوارهم في تأدب . وفهم شارل فسحب كيسه ومنعه الكاتب بذراعه ، بل ولم ينس ان يترك فضلاً عن الثمن ، قطعتين من العملة الفضية رنهما على الرخام :

وتمتم بوفاري قائلاً « اني في الواقع غير مرتاح للنقود التي .... » .

وبدت من الآخر حركة حفاوة مترفعة ثم قال وهو يتناول قبعته : اتفقنا : « أليس كذلك .. الى الغد في الساعة السادسة » .

وصاح شارل مرة اخرى بانه لا يستطيع ان يتغيب اكثر من هذا ، ولكن شيئاً لا يمنع ايما :

وتمتمت ايما مع ابتسامة فريدة : « ذلك اني .... ذلك اني لا ادري ...»

فقال شارل : « وعلى اية حال فستفكرين ، وامامنا الليل كله .... »

ثم قال لليون الذي كان يصاحبها : « والآن ما دمت في مقاطعتنا فاني آمل ان تأتي من وقت الى آخر لتتناول معنا الغذاء » .

فأكد الكاتب انه لن يتخلف عن ذلك ، كما ان لديه حاجة للذهاب الى ايونفيل بسبب أمر يتعلق بمكتبه .

وافترقوا امام ممر سان بلان عندما كانت الكاتدرائية تدق الحادية عشرة والنصف .

كان ليون مع دراسته للقانون،يتردد على مقهى الشوميير ، بل واحرز فيها بعض انتصارات مع الغانيات اللاتي كن يجدنه انيق المظهر .

وكان اكثر الطلبة احتشاماً ، فهو لا يرسل شعره مسرف الطول ، ولا يبالغ في قصته قصيراً ، ولا يأكل في اول يوم في الشهر نقود الاشهر الثلاثة القادمة . وهو يحافظ على علاقة طيبة مع اساتذته . وأما عن الافراط فانه كان يتمنع عنه سواءً بدافع ارادته او لرهافة حسه .

وعندما كان يجلس ليقرأ في غرفته او تحت اشجار الزيزفون بحديقة اللكسمبورج في المساء ، كثيراً ما كان يترك مجموعة القوانين تسقط من يده على الارض ، وتعود اليه ذكرى ايما . ولكن هذا الشعور اخذ يضعف شيئاً فشيئاً ، وتجمعت فوقه اطماع اخرى ، وان يكن قد ظل موجوداً خلال هذه الاطماع ، وذلك لأن ليون لم يفقد كل أمل . وكان هناك بالنسبة اليه وعد غامض يتأرجح في المستقبل كالثمرة الذهبية المعلقة بغصن خيالي موهوم .

فلما عاد الى رؤيتها بعد غيبة ثلاث سنوات ، استيقظت عاطفته ، وخيل اليه انه لا بد من ان يقرر في النهاية الاستسلام الى رغبته في تملكها . فان حياءه قد تضاءل بحكم مخالطاته الماجنة ، وقد عاد الى الريف وهو يحتقر كل من لم يحظ بحذاء لامع وهو في اسفلت باريس . ولا شك ان كاتبنا المسكين كان يرتعد بلا ريب كأنه طفل امام باريسية مغطاة بالدنتيلا في صالون طبيب شهير ذي شخصية وألقاب وعربة خاصة .

ولكن هنا في روان ، وعلى الميناء ، وامام هذا الطبيب الصغير ، كان لا يحس بأي حرج ، متأكداً مقدماً من انه سيتألق . والجرأة تتوقف على الاوساط التي يوجد المرء فيها . فالانسان لا يتحدث في الدور الارضي كما يتحدث في الدور الرابع .. والمرأة الغنية تبدو كأنها محاطة بكل هذه الاوراق من البنكنوت لحماية فضيلتها ، وكأنها درع في بطانة صدرها .

وعندما ترك ليون في مساء اليوم السابق السيد والسيدة بوفاري ، اخذ يتبعهما عن بعد في الشارع . وعندما رآهما واقفين عند فندق « الصليب الاحمر » دار على عقبيه . وأمضى الليل بطوله في تدبير خطة . وفي اليوم التالي ، دخل ردهة الفندق حوالي الساعة الخامسة مختنق الانفاس شاحب الوجنتين ، وقد انعقد منه عزم الجبناء الذين لا يقف في سبيلهم شيء .

ورد خادم قائلاً : « ان السيد ليس هنا . » فلاح له هذا الرد فأل خير ، وصعد . ولم تضطرب لمقدمه ، وعلى العكس قدمت اليه الاعتذارات لأنهما نسيا ان يخبراه عن الفندق الذي ينزلان به .

فقال ليون : « اوه لقد حدسته » .

— كيف ؟

فزعم انه قد استسلم لغريزته فقادته نحوه ، واسرع ليون الى اصلاح سخافته ، فقص عليها انه قد انفق صباحه كله في البحث عنها في فنادق المدينة ، الواحد بعد الآخر .

واضاف قائلاً : « لقد قررت اذن ان تبقي » .

فقالت — نعم ، ولقد اخطأت ، فلا يجوز ان يعتاد الانسان مسرات ليس في طوقه ممارستها ، عندما يكون الانسان محاطاً بآلاف من الالتزامات .

— اوه يخيل الي ....

— ايه ، لا ، لانك انت لست امرأة !

— ولكن للرجال ايضاً احزانهم ...

وبدأت المناقشة ببعض الافكار الفلسفية ، وأفاضت ايما في الحديث

عن بؤس العواطف الارضية ، والوحدة الدائمة التي يقبر فيها القلب .

ولكي يعطي نفسه اهميته ، او من باب المحاكاة الساذجة لتلك السوداوية التي اثارت سوداويته ، اعلن الشاب انه قد اصابه سأم شديد طوال مدة دراسته ، فعلم المرافعات يهيج اعصابه ، ومهن اخرى تستميله ، وأمه لا تمسك عن تعذيبه في كل خطاب . ولانهما كانا يحددان شيئاً فشيئاً بواعث ألمهما ، اخذ كل منهما يستعذب هذه الثقة المتزايدة خلال الحديث ، ولكنهما كانا يتوقفان احياناً دون الكشف الكامل لافكارهما ويحاولان عندئذ تصور عبارة يمكن ان تترجم مع ذلك فهي لم تعترف بحبها لشخص آخر ، وهو لم يقل انه كان قد نسيها .

فهو ربما لم يذكر وجبات العشاء التي كان يتناولها بعد الرقص مع الغانيات ، وهي لم تعد تذكر بلا ريب مقابلات العهد الماضي ، عندما كانت تجري في الصباح وسط الاعشاب نحو قصر عشيقها ! وكانت ضوضاء المدينة لا تكاد تصل اليهما ، ولاح ان الغرفة صغيرة عن عمد لكي تزيدهما قرباً في خلوتهما . وكانت اما تسند عقصة شعرها الى ظهر المقعد القديم ، وقد ارتدت معطفاً من القطن المطرز . وكان ورق الحائط الاصفر يتلوّن من خلفها بأرضية مذهبة ، وقد ظهرت في المرآة صورة رأسها ، بالخط الابيض الذي يغرق شعرها ، وطرف اذنيها يبرز من تحت خصلاته .

وقالت : « ولكن معذرة ... اني مخطئة !.... انني اصيبك بالسأم بشكاياتي التي لا تنتهي ! »

— كلا ! ابداً ! ابداً !

فقالت وهي ترفع الى السقف عينيها الجميلتين اللتين تترقرق فيهما دمعة :

« ليتك تعلم كل ما كنت احلم به ! »

— وأنا اذن ؟!.. اوه ! لقد قسيت كثيراً !... وكثيراً ما كنت خرج وأسير وأتسكع على طول شواطىء السين ، وأذهل نفسي بضجيج

الجمهور ، دون ان استطيع التخلص من الخيال الذي يلاحقني . وفي احد الشوارع الكبيرة توجد عند احد تجار اللوحات صورة ايطالية تمثل احدى ربات الفن وهي تلتف بقميص وتنظر الى القمر ، وفوق شعرها المرسل زهرة ، وكان شيء يدفعني دائماً الى هناك حيث اظل ساعات كاملة .....

ثم اضاف بصوت مرتعش : « انها تشبهك قليلاً ! »

وأدارت مدام بوفاري رأسها لكي لا يرى على شفتيها تلك الابتسامة التي شرعت فيها ولم تستطع كبتها .

واستمر يقول : « كثيراً ما كنت اكتب لك خطابات ، ثم أمزقها بعد ذلك ! »

ولم تجب ، واستمر يقول : « لقد كنت اتخيل احياناً ان مصادفة ستأتي بك ، وكنت اعتقد اني اراك عند منعطف الطرق ، وكنت اعدو خلف كل عربة يتطاير من بابها شال او وشاح يشبه وشاحك » .

ولاح انها مصممة على ان تتركه يتكلم دون ان تقاطعه ، وقد ربعت ذراعيها ، وحنت رأسها وأخذت تنظر الى كرات خفها ، ومن وقت الى آخر تحركها حركات صغيرة بأصابع قدمها . ثم تنهدت قائلة : « انه لما يثير اكبر الاسى ان يحيا الانسان حياة كحياتي لا فائدة فيها . ولو انه كان من الممكن ان يستفيد غيرنا من آلامنا ، اذن لوجد الانسان عزاء في فكرة التضحية ! »

واخذ هو يشيد بالفضيلة والواجب والتضحيات الصامتة ، لإنه هو نفسه في حاجة ماسّة — لا يستطيع اشباعها — الى البذل والتفاني .

وقالت « كم اود لو كنت راهبة في مستشفى » ! فأجاب : « واأسفاه ! ان الرجال لا يؤدون مثل هذه الرسالات المقدسة ، ولست ارى في اية جهة اية مهنة ..... الا ان تكون مهنة الطبيب ... »

وبهزة خفيفـــة من كتفيها قاطعته اما لكي تشكو من مرضها الذي

اوشك ان يقتلها ، ويا ليته فعل ! اذن لما عادت الآن الى التألم ! وعلى الفور تمنى ليون هدوء القبر ، بل كان قد كتب وصيته ذات مساء موصياً بأن يكفن بذلك الغطاء المحلى بالقطيفة ، الذي كان يحتفظ به منها . ذلك لأن هذا هو النحو الذي كانا يودان ان يكونا عليه !! وقد حدد كل منهما مثله الاعلى ، الذي يريد ان لو طابق الآن بينـه وبين حياته الماضية ؛ والواقع ان الكلام يشحذ المشاعر دائماً !

وقالت عندما سمعت حكاية الغطاء : « ولكن لماذا ؟ » .

— لماذا ؟

وتردد قليلاً ثم قال : « لانني احببتك حباً مبرحاً ! »

وهنأ ليون نفسه اذ تخطى العقبة ، وأخذ يراقب ملامحها بزاوية عينه !

وكانت كالسماء عندما تطرد منها السحب هبة ريح، فانسحبت من عينيها الزرقاوية لومة الافكار الحزينة التي كانت تنشر عليها الكآبة ، وتهلل بالاشراق وجهها كله .

وانتظر فأجابت في النهاية قائلة : « لقد خيل الي ذلك دائماً » .

وعندئذ اخذا يقصان الاحداث الصغيرة التي دفعتها في تلك الحيـاة البعيدة التي كانا قد لخصا — في كلمة واحدة — لذاتها واحزانها . فتذكر عريشة اللبلاب ، والاثواب التي كانت تلبسها ، واثاث غرفتها ، ومنزلها كله .

فقال : « وصبارنا المسكين أين هو ؟ »

— لقد قتله البرد هذا الشتاء .

— آه . كم فكرت فيه ! هل تعلمين انني كثيراً ما تخيلته على نحو ما كان فيما مضى ، عندما كانت الشمس تلقي بأشعتها صباح كل يوم من ايام الصيف على خشب النافذة .... وألمح ذراعيك العاريتين تمران بين الازهار !

فقالت وهي تمد اليه يدها : « ايها العزيز المسكين ! »

فاسرع ليون الى الصاق شفتيه بها ثم قال :

– بعد ان استنشق جرعة كبيرة من الهواء – :

« لقد كنت بالنسبة الي في ذلك الوقت قوة غامضة لا ادرك كنهها ، تأسر حياتي . ففي ذات مرة مثلاً ، حضرت عندكم – ولكنك لا تتذكرين بلا ريب .... »

فقالت : « اتذكر ، استمر ! »

– لقد كنت في الردهة في الطابق الاسفل على اهبة الخروج ... فوق آخر درجة – بل واذكر انك كنت ترتدين قبعة محلاة بزهور صغيرة زرقاء . وبدون اية دعوة منك ، وبالرغم مني صاحبتك ، ومع ذلك كنت ازداد شعوراً من دقيقة الى اخرى بحماقتي ! وواصلت السير بالقرب منك وأنا لا اجرؤ ان اتبعك كما لا اريد ان اتركك . وعندما دخلت دكاناً بقيت في الشارع انظر اليك من الزجاج ، وانت تخلعــين قفازك وتعدين النقود على المكتب ، ثم دققت بعد ذلك الجرس عند مدام تيفاش ، الثقيل الذي اغلق دونك ! .

وكانت مدام بوفاري تدهش وهي تنصت اليه من انها قد اصبحت عجوزاً على هذا النحو فكل هذه الاشياء التي تستعاد ذكراها الآن بدت انها توسع من حياتها اذ تعطيها آفاقاً عاطفية شاسعة تعود اليها . وكانت تقول من وقت الى آخر في صوت خفيض وقد اسبلت جفنيها : « نعم ! هذا صحيح !... هذا صحيح !»...

وسمع الساعة الثامنة تدقها الساعات المختلفة في حي بوفورازين المليء بدور الضيافة والكنائس والفنادق الكبيرة المهجورة ، ولم يعودا يتحدثان ، ولكنهما كانا يشعران – وهما ينظران احدهما الى الآخر – بحفيظ في رأسيهما ، وكأن شيئاً منغماً قــد انطلق من عيني كل منهما نحو الآخر واشتبكت ايديهما ، واختلط في عذوبة هذه النشوة الماضي والمستقبل والذكريات والاحلام . واخذت ظلمة الليل تتكاثف فوق الجدران ، وأوشكت

ان تختفي في الظلال ألوان لوحات تمثل اربعة مناظر من برج نيل ، كتبت تحتها ايضاحات بالاسبانية والفرنسية . ومن خلال شجرة كانت ترى زاوية من السماء السوداء من بين الاسقف المدببة .

ونهضت لكي تشعل شمعتين فوق الصوان ثم عادت للجلوس .

فقال ليون : ثم ماذا ؟...

واجابت : ثم ماذا ؟

وبينما هو يبحث عن وسيلة يستأنف بها الحوار الذي انقطع اذ قالت له : « كيف حدث ان احداً لم يعبر لي حتى اليوم عن مثل هذه المشاعر ؟ »

صاح الكاتب قائلاً ، ان الطبائع المثالية من الصعب فهمها ، فهو قد احبها من النظرة الاولى . وكان الألم يحز في نفسه عندما يفكر في السعادة التي كان من الممكن ان تغمرهما ، لو ان القضاء ترفق فسمح بلقائهما قبل ذلك وارتبط احدهما بالآخر برباط لا ينفصم .

فقالت : لقد فكرت في ذلك احياناً .

وتمنح ليون قائلاً : يا له من حلم !

واضاف وهو يداعب في رفق الاهداب الزرقاء لحزامها الطويل : وما الذي يمنعنا اذن من ان نبدأ من جديد ؟

فأجابت : لا ، يا عزيزي . انني عجوز وأنت شاب ... انسني !
— تحبك أخريات ... وستحبهن !

فصاح : « لسن مثلك ! »

— يا لك من طفل ! هيا . فلنكن عقلاء ! انني اريد ذلك !

وأوضحت له اسباب استحالة حبهما ، وان من الواجب ان يظلا كما كانا من قبل في حدود الصداقة الاخوية .

فهل كانت جادة في حديثها هذا ؟ لا شك ان ايما نفسها لم تكن تعلم . فقد كانت غارقة في سحر الاغراء وضرورة المقاومة . وكانت — وهي تنظر الى الشاب نظرة حنان — تدفع في رفق المداعبات الحيية التي كانت

تحاولها يداه المرتعشتان .

فقال – وهو يرتد الى الخلف – : آه ! معذرة ! وتولى واخترق ايما فزع غامض من هذا الحياء ، الذي كان اكثر خطراً عليها من جرأة رودولف عندما كان يتقدم نحوها فاتحاً ذراعيه . ولاح لها انها لم تر قط رجلاً في مثل هذا الجمال ، لقد كانت الطهارة الممتعة تنبعث من ملامحه . وأسدل اهدابه الطويلة الدقيقة المقوسة واحمرت بشرة خده النضرة ، فرأت في هذه الحمرة رغبته في شخصها ، وأحست ايما برغبة لا تدفع في ان تحمل الى هذا الخد شفتيها ، ثم قالت :

– وهي تنحني نحو الساعة كأنها تستطلع الوقت : يا الهي لقد مر بنا الوقت حتى تأخرنا ونحن في ثرثرتنا !

ففهم الاشارة وبحث عن قبعته .

– بل لقد نسيت المسرح ! وقد تركني المسكين بوفاري من اجله خاصة ، وكان من المقدر ان يصطحبني اليه مع زوجة السيد لورموه المقيم في شارع الكوبري الكبير .

وكانت الفرصة قد ضاعت لأنه كان من المقدر ان تسافر في اليوم التالي .

فقال ليون : أهذا صحيح ؟

– نعم !.

– ومع ذلك فلا بد ان اراك ثانية ، فان لدي ما اقوله لك ...

– ماذا ؟

– شيئاً ... خطيراً . جدياً . ايه ! لا ثم انك لن تسافري . فهذا مستحيل ! انك لو علمت .... انصتي الي ... انك اذن لم تفهميني ؟ انك اذن لم تحدسي ما بنفسي ؟...

فقالت ايما : « ومع ذلك فانت بالغ الفصاحة ! »

– آه ! هذه النكات ! كفى . كفى ! ارحميني واقبلي ان اراك ثانية .... مرة .... مرة واحدة .

– ثم ماذا ...

وتوقفت ثم استأنفت وكأنها تراجع نفسها : اوه! ليس هنا !

– في اي مكان تريدين .

– هل تريد . . :

– ولاح انها تفكر . . . ثم قالت في نغمة موجزة: « غداً الساعة الحادية عشرة بالكاتدرائية .

فصاح وهو يمسك بيديها اللتين استخلصتها منه : سأكون هناك ! »

وكان الاثنان واقفين ، وهو من خلفها وأحنت رأسها ، فانه لم يلبث ان انحنى فوق رقبتها وقبلها قبلة طويلة فقالت وهي تضحك ضحكات صغيرة رنانة بينما تتكرر القبلات : « آه انك مجنون . . . انك مجنون ! . . .

وعندئذ اخذ يطل من فوق كتفها ، وكأنه يبحث عن موافقة عينيها اللتين سقطتا عليه مليئتين بعظمة باردة !

وارتد ليون ثلاث خطوات الى الخلف لكي يخرج ، ووقف على العتبة ، ثم همس في صوت مرتعد : « الى الغد ! »

فاجابت بايماءة من رأسها ، ثم اختفت كالعصفور في الغرفة المجاورة !

وفي المساء كتبت ايما الى الكاتب خطاباً لاينتهي ، تتحلل فيه من الموعد وتقول ان كل شيء بينهما قد انتهى الان ، وأن سعادته تقتضي ان لا يعود الى الالتقاء . ولكنها عندما أغلقت الخطاب أحست بارتباك شديد، لانها لم تكن تعرف عنوان ليون .

وقالت لنفسها سأعطيه له بنفسي ، فهو سيحضر .

وفي اليوم التالي فتح ليون النافذة ووقف يغني في الشرفة ويلمع حذاءه بنفسه عدة مرات ، وقد لبس بنطلوناً أبيض وحلة خضراء ، وسكب في منديله كل ما لديه من عطور ثم جعد شعره ، وعاد فأسبله وذلك لكي يزيده رشاقة طبيعية !

وقال لنفسه —وهو ينظر الى ساعة الحلاق فيرى انها التاسعة : « ان الوقت لا يزال مبكراً جدا ! »

وقرأ صحيفة قديمة عن الازياء ، وخرج ودخن سيجارا، وقطع ثلاثة شوارع ؛ ثم ظنّ ان الوقت قد حان فاتجه في بطء نحو ساحة نوتردام .

كان ذلك في صبيحة يوم جميل من أيام الصيف ، وكانت الاواني الفضية تلمع في حوانيت الصياغ ، والضوء يسقط جانبيا علي الكتدرائية، فينعكس علي ثنايا الاحجار الرمادية . وسرب من العصافير يحوم في السماء الزرقاء حول الابراج الصغيرة المزركشة والميدان يعج بالصياح وتفوح فيه رائحة الازهار التي تحفّ به : ورد وياسمين وقرنفل ونرجس وزنبق متناثر على مسافات غير متساوية فوق خضرة رطبة من الحشائش التي تقتات بها العصافير . ونافورة المياه تكركر في الوسط . وتحت مظلات كبيرة وقفت البائعات عاريات الروؤس بين أكوام من ثمار الشهد صفت في شكل اهرامات ، وقد اخذت أولئك البائعات يلففن باقاتٍ من البنفسج في الورق .

واشترى الشاب احدى هذه الباقات وكانت هذه اول مرة يشتري فيها زهورا لامرأة ! وعندما كان يستنشق عبيرها كان صدره ينفتح كبرياء وكأن هذه التحية التي أعدها لشخص آخر قد ارتدت فتوجهت اليه !

وخشي ان يراه احد ، فدخل الكنيسة في عزم .

وكان القواس واقفاً عندئذ على العتبة وسط الباب الايسر تحت صورة « مارين ترقص » والريش في رأسه والسيف الى جوار ساقه والعصاة في يده ، وقد بدا اكثر جلالاً من كردينال واكثر بريقاً من اناء مقدس !

وتقدم نحو ليون وعلى شفتيه تلك الابتسامة الوديعة الماكرة التي يصطنعها رجال الكهنوت عندما يستجوبون الاطفال !

— ان السيد بلا ريب ليس من هنا وهو يريد ان يشاهد ما في الكنيسة من نفائس ؟

فقال ليون ، « لا » !

ودار بالكنيسة من المحشانين الجازبيتين ، ثم عاد لكي يلقي نظرة على الميدان ، ولكن أيما لم تكن قد وصلت ،فارتد الى مكان الجوقة .

وكان صحن الكنيسة ينعكس في اوعية الاوعية المليئة بالماء المقدس ، وكذلك جانب من الاقواس الغوطية ، وبعض اجزاء البلاط الملون ، ولكن الصور المنعكسة كانت تنكسر على حافة الرخام ،ثم تسقط ابعد من ذلك بقليل فوق البلاط ، وكأنها سجادة مزركشة .

وكان الضوء الخارجي يمتد داخل الكنيسة في ثلاثة اشعة ضخمة ، من خلال الابواب الثلاثة المفتوحة .ومن وقت الى آخر كان يمر خادم الكنيسة عند قاعها ، ويثني ركبتيه في حركة جانبية سريعة كالمؤمنين العجلى ! وكانت القناديل البلورية تتدلى ساكنة ، وفوق المذبح يشتعل مصباح من الفضة . وكان ينبعث أحيانا من الصوامع الجانبية — ومن الاجزاء المعتمة داخل الكنيسة ما يشبه التنهدات ، مع صوت الحاجز عندما يقفل الباب ، فيتردد صداه في القباب العالية !

وأخذ ليون يتمشى بوقار الى جوار الجدران ، ولم تلح له الحياة قط في مثل هذه العذوبة ، فهي ستحضر بعد قليل ساحرة مضطربة ،ترقب النظرات التي تتابعها من خلف ، وقد ارتدت ثوبها ذا الاجنحة ، وعويناتها الذهبية ، وحذاءها الرفيع ، وكل تلك الاناقات التي لم يسبق له ان تذوقها !

ثم ذلك الاغراء الذي لا يوصف ، المنبعث عن الفضيلة التي تسقط وقد احاطت بها الكنيسة كمخدع ضخم والقباب تنحني كي تتقبل في الظل اعترافاً بالحب ، والزجاج الملون يشع كي يضيء وجهها والمباخر تحترق ، فتظهرها كملاك وسط ابخرة العطور .

ولكنها لم تحضر ! وجلس فوق مقعد ، والتقت عيناه بلوح من الزجاج الازرق رسمت فوقه صورة بحارة يحملون سلالا ؛فنظر الا اللوح

طويلاً في انتباه ، وعدّ قشر السمك ، وازرار اقمصة البحـارة ، بينما اخذت افكاره تحوم باحثة عن ايما .

وأخذ القواس يشمئز داخليا من هذا الشخص الذي سمح لنفسه بان يتأمل في اعجاب الكتدرائية وحده ! ولاح له سلوكه بشعاً ، وكأنـه يسرق منه شيئا ، ويدنس شيئا مقدسا !

ولكن ها هو حفيف من الحرير فوق البلاط ، وحافة،قبعة وحرملة سوداء . . . . انها هي ! ونهض ليون وعدا لكى يلقاها !

كانت ايما شاحبة تسير بسرعة .

وقالت وهي تمد اليه ورقة : «اقرأ ! أو . . . . لا ! »

واستردت يدها فجأة لكي تدخل في هيكل العذراء ، حيث جثت على ركبتيها فوق مقعد وأخذت تصلي ! وثار الشاب من تلك النزوة الدينية . ثم شعر مع ذلك بشيء من اللذة في ان يراهـا وسط موعـد غرامها غارقة على هذا النحو ، في الابتهـال كأنهـا احدى مركيزات الاندلس ! ولكنه لم يلبث ان شعر بالسأم ، لانها لم تنته من عبادتها

كانت ايما تصلي ، او على الاصح تحاول ان تصلي، على امـل ان ان ينزل عليهـا من السماء قرار مفاجيء.وركعت قرب المذبح كى تستجلب العون الالهى وتستنشق عطر الزهور البيضاء المتفتحة في الزهيرات الكبيرة ، وتلقى اذنها لصمت الكنيسة الذي لم يكن له من اثر سوى ان يزيد في صخب قلبها .

ونهضت وهمت بالخروج ، واذا بالقواس يقترب منهـا بسرعة وهو يقول :

ــ ان السيدة ليست من هنـا بلا ريب ، ولكنهـا تريد أن ترى طرائف الكنيسة

فصاح الكاتب قائلا : « لا »

وقالت هي « ولم لا ؟ »

وذلك لانها كانت ــ بفضيلتها المهتزة تتعاق بالعذراء وبالتماثيل

والمقابر في كافة المناسبات . ولكى يسيرا في المشاهدة بنظام عاد بهما القواس الى المدخل بالقرب من الميدان ، حيث اشار بعصاه الى دائرة كبيرة من الارض المرصوفة السوداء ، خالية من النقوش والزخارف ، ثم قال في عظمة :

– هذا هو محيط ناقوس أمبواز الجميل ، الذي كـان يزن أربعين ألف رطل ، ولم يكن له مثيل في أوروبا كلهـا ، وقد مات العامل الذي صبه من الفرح . . .

وقال ليون : فلننصرف !

واستأنف الرجل السير ثم عاد الى هيكل العذراء ، ومدّ ذراعيه في حركة قوية الدلالة . وفي كبرياء يفوق كبرياء ملاّك الريف ، عندمـا يطلعونك على عرائش حدائقهم ، قال :

– ان هذه البلاطة البسيطة تغطي بيير دي بريزيه ، سـيد لا فارين ، وبريزاك مريشال بواتو وحاكم نورمنديا ، الذي مات في معركة مونتيريه في يوليو سنة ١٤٦٥ !

واخذ ليون يتفزز وهو يعض شفتيه .

واستمر القواس يقول : « والى اليمين ، هذا السيد المغطى بالحديد فوق حصان جامح ، هو حفيد لويس دى بريزيه سيد بريفـال دمون شوفيه كونت دى مالافرين بارون دي مونين ، يا ور الملك وحامـل نيشان الفروسية ، وهو أيضا حاكم نورمنديا ، وقد توفي في ٢٣ يوليو سنة ١٥٣٤ في يوم أحـد كما يستدل من الكتابة المنقوشة عليه والى أسفل هذا الرجل المتأهب للنزول في القبر يمثل لك تماماً نفس الرجل ، وما أظن أنه من الممكن أن يرى الانسان تمثيلا أصدق من هذا للغناء !.

واخذت مدام بوفاري نظارتيها ، وليون ينظر اليها ساكناً دون ان يحاول ان يقول حتى كلمة واحدة ، او ان يقوم بحركة واحدة ، وذلك لشدة ما أحس من بأس ازاء هذه المؤامرة المزدوجة من الثرثرة وعدم المبالاة.

واستمر الدليل الخالد يقول :

– وبالقرب منه هذه المرأة الراقدة التي تبكي ... هي زوجته ديان دي بواتييه كونتيس دي بريزيه فالانتنوا ، المولـودة في سنة ١٤٩٩ والمتوفاة سنة ١٥٥٦ . والى اليسار تلك التي تحمل طفلاً ، هي العذراء المقدسة ! والآن فلنتجه الى هذا الجانب فهنا قبرا امبواز ، وقد كان الاثنان كل منهما كردينالا ورئيسا لاساقفة روان ، وهذا كـان وزيراً للملك لويس الثاني عشر ، وقد احسن كثيراً للكتدرائية ، وقد وجدوا في وصيته ثلاثين ألف دينار ذهبي للفقراء !

ودون ان يقف ، ومع استمراره في الكلام ، دفع بهما الى صومعة مكدسة بالحواجز التي أزاح بعضاً منها ، وكشف عن كتلة من الحجر ، ربما كانت فيما مضى تمثالاً سيء الصنع وقال في أنة طويلة : انه كان يزين فيما مضى قبر ريتشارد قلب الاسد ملك انجلترا ودوق نرمانديا . ولكن اتباع كالفن يا سيدي هم الذين أحالوه الى هذه الحـالة ، اذ دفعهم الشر الى ان يدفنوه في الارض تحت مقعد نيافة الاسقف ، وها هو الباب الذي يدخل منه نيافته الى مسكنه . ولنمر لنرى الزجاج الملون في مؤخر الكنيسة !

ولكن ليون أخرج بحركة عصبية قطعة بيضاء من جيبه ، وأمسك ايما من ذراعها ، فأخذت القواس الدهشة ، ولم يفهم قط هذا السخاء المفاجيء بينما ظلت امام الزائر الغريب اشياء كثيرة تستحق ان تـرى ، ولذلك ناداه قائلاً : « اين ! ايها السيد ! السهم ! السهم! ...»

فقال ليون : « شكراً ! »

وقال القواس : « ان السيد مخطيء ! ان طوله اربعمائة واربعون قدماً ، اي تسعة اقدام أقل من هرم مصر الاكبر ، وهو كلهمن الحديد الزهرة وهو ... »

وأخذ ليون في الهرب ، اذ لاح له ان حبه الذي تجمد في الكنيسة

منذ ساعتين كالحجارة ، سيأخذ الآن في التبخر كالدخان ، بواسطة تلك القصبة المثلومة الصاعدة من القفص المستطيل ، وكأنها مدخنة مثقوبة جاثمة بشكل مضحك على الكتدرائية ، وكأن القواس كمحاولة مسرفة لصانع أوان نحاسية متحذلق .

وسألته ايما : الى اين نحن ذاهبون ؟ »

واستمر ليون في السير بخطوة سريعة دون ان يجيب . وكانت مدام بوفاري قد غمست بالفعل اصبعها في الماء المقدس ، عندما سمعا خلفهما نفساً كبيراً لاهثاً يقطعه في انتظام وقع عصا ، فالتفت ليون .

– سيدي !

– ماذا ؟

ورأى أمامه القواس حاملاً تحت ذراعه ، ومسنداً الى بطنه حوالي عشرين مجلداً كبيراً كانت عبارة عن الكتب التي تتحدث عن الكتدرائية!

فتمتم ليون وهو ينطلق خارج الكنيسة :

« يا له من مغفل ! »

ورأى ليون طفلاً يلعب في الساحة فقال له : « اذهب واحضر عربة ! » .

فانطلق الطفل كالقذيفة ، في شارع كاترفان (الرياح الاربع) . وعندئذ بقيا وحيدين لبضع دقائق وجهاً لوجه في شيء من الارتباك .

فقالت في دلال : « آه ! ليون ! ... حقاً ... لست ادري ... اذا كان من الواجب ...

ثم اضافت بنغمة جادة « هذا غير لائق بالمرة ! ... أو ما ترى ذلك ؟ » .

فأجاب الكاتب : « ما وجه عدم لياقته ؟ ... ان هذا يحدث في باريس ! » .

وجعلتها هذه العبارة تبت في الأمر كأنها حجة لا تدفع .

ولكن العربة لم تصل وكـــان ليون يخشى ان تعود الى الدخول في الكنيسة !

ـ واخيراً ظهرت العربة !

وصاح بهما القواس الذي كان لا يزال واقفاً : « اخرجا على الأقل من الباب الشمالي لتشاهدا البعث وبوم الحساب « والجنـة » و « الملك داوود » و « والمعذبين في نار جهنم » .

وسأل الحوذي : « الى اين يذهب السيد ؟ »

فقال ليون وهو يدفع ايما في العربة « الى حيث تشاء ! »

واخذت المركبة الثقيلة في السير .

لقد نزلت الى شارع جران بو ، مارة « بميدان الفنون » وشاطىء نابليون ، والكبري الجديد . ووقفت فجأة امام تمثال بيير كورني .

وقال صوت منبعث من داخلها : « استمر ! « فاستأنفت العربـــة السير . وبمجرد ان غادرت ميـــدان لافاييت انساقت في الانحدار حتى اوشكت ان تدخل وهي تعدو محطة سكة الحديد .

فصاح نفس الصوت : « لا » ! ... استمر ! الى الامام !

وخرجت العربة من السور الحديدي ، وبمجرد ان وصلت الى الساحة اخذت تخب في رفق وسط اشجار الدردار الضخمة . وجفف الحوذي جبينه ، ووضع قبعته الجلدية بين فخذيه ، ودفع العربة خارج الطريق المعبد على حافة الماء ، الى جوار الحشائش .

وسارت العربة في محاذاة النهر على طريـق مرسى السفن المرصوف بالزلط الجـاف الى مسافة طويلة من ناحية اويسيل ، بعد ان جاوزت الجـــزر .

ولكنها اندفعت فجأة عبر طريق كاترمار وسوتفيل وجراند شوسيه، وشارع اليف ووقفت وقفتها الثالثة امام حديقة النباتات .

وصاح الصوت في عنف أشد : « استمر في السير ! » .

واستأنفت الشوط فوراً فمرت بسان سيفير ورصيف كورانديبر، ورصيف الطواحين . وعادت مرة ثانية الى الكوبري عن طريق ميدان سان دي مارس ، ومن خلف حديقة المستشفى حيث كان بعض العجائز يتنزهون في الشمس ، في ستر سوداء ، على طول شرفة مخضرة بأوراق اللبلاب - وصعدت العربة بولفار بوفري ، وسلكت بولفار كوشواز ، ثم مون روبيوديه كله ، حتى وصلت الى هضبة ديفيل .

ثم عادت واخذت تتسكع دون قصد ولا اتجاه معين ، فرؤيت عند سان بول ، ولنسكير . وجبل جارجان ، وبروجيار ، وميدان جياربوا ، وشارع مالادريريه، وشارع ديناندريه امام سان رومان، وسان فيفيان وسان ماكلو، وسان نيكيز امام الجمرك عند البرج القديم المنخفض، وعند الترواببيب والمقبرة التذكارية ! ومن وقت الى آخر كان الحوذي يلقي من فوق مقعده بنظرات يائسة الى الحانات اذ لم يفهم هذا الولع بالحركة الذي يدفع هذين الشخصين الى حد لا يريدان معه الوقوف !! ولقد حـاول ان يقف احياناً ، ولكنه كان يسمع فوراً صيحات الغضب تنطلق من خلفه! وعندئذ كان ينهال بالسوط على الحصانين الهزيلين المتصببين عرقاً، دون ان يلقي بالاً الى اهتزازات العربة وهي تميل هنا وهناك وقد اعتل مزاجه، واوشك ان يبكي من العطش والتعب والحزن !

وعند الميناء وسط عربات النقل والبراميل ، وفي الشوارع ، وعند المنعطفات ، كان الناس يحملقون بعيونهم دهشة من هذا المنظر الفريد في الريف : منظر عربة ذات ستائر مسدلة ، وقد لاحت باستمرار اكثر اغلاقاً من قبر وهي تهتز كالسفينة ؟

وذات مرة في منتصف النهـار ، وفي قلب الحقول ، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الشمس اقوى اشعتها فوق المصابيح العتيقة الفضية اللون ، مرت يد عـارية من تحت الستائر الصغيرة الصفراء ، وألقت

بقصاصات من الورق انتثرت مع الريح ، وتساقطت عن بعد قريب كفراشات بيضاء فوق حقل من البرسيم الاحمر المزدهر !

ثم وقفت العربة حوالي الساعة السادسة في زقاق بجي بوفوازيه ، ونزلت منها امرأة أخذت تسير مسدلة الخمار دون ان تلفت رأسها !

* * *

عندما وصلت مدام بوفاري الى الفندق أدهشها الا ترى عربة السفر، فان هيفير بعد ان انتظرها ثلاثاً وخمسين دقيقة كان قد رحل .

ومع ذلك فان شيئاً لم يكن يضطرها الى الرحيل ، الا انها كانت قد وعدت بأن تعود في نفس المساء . وكان شارل ينتظرها ، كما انها كانت قد اخذت تشعر في قلبها بذلك الخضوع الجبان الذي يعتبر بالنسبة للكثير من النساء بمثابة العقاب ، لتكفر عن الخيانة الزوجية في وقت واحــد .

وفي سرعة أعدت حقيبتها ودفعت الحساب ، وأخذت عربة من الساحة، وحثت الحوذي وشجعته ، وهي تسأل في كل دقيقة عن الساعة ، وعن الكيلومترات التي تقطعها ، حتى تمكنت من اللحاق « بالعصفورة » عند مشارف قرية كوينكانبوا .

وبمجرد ان جلست في مقعدها اغلقت عينيها ولم تفتحهما الا اسفل الهضبة ، حيث لمحت عن بعد فيليستين ، التي كانت تقف في مكان بارز امام منزل البيطار . وشد هيفير عنان الخيل ، واشرأبت الطبــاخة حتى مقبض باب العربة ، ثم قالت في توجس « يجب يا سيدتي ان تذهبي فوراً عند السيد هوميه من اجل شيء لا يحتمل الابطاء » .

كانت القرية صامتة كعادتها ، وفي اركان الشوارع كراس صغيرة وردية يتصاعد منها البخار في الهواء ، وذلك لاننا كنا في موسم المربات، وكان جميع الناس في ايونفيل يعدون خزينهم في نفس اليوم . ولكــن

الناس كانوا يعجبون – أمام دكان الصيدلي – بكومة اكبر كثيراً تفوق الكومات الاخرى بقدر ما يفوق مصنع فرناً منزلياً وبقدر ما تفوق حاجة عامة نزوات فردية !!

ودخلت ، حيث رأت المقعد الكبير مقلوباً ، حتى صحيفة فانال دي روان كانت ملقاة على الارض ممددة بين الهاونين . ودفعت باب الصالة فرأت وسط المطبخ ، بين القدور الداكنة المليئة بعنب الذئب المنفرط والسكر المدقوق ، والسكر القوالب ، والموازين الموضوعة على المائدة ، والاحواض التي على النار . رأت عائلة هوميه كباراً وصغاراً ، وقد ارتدوا مرايل تصعد حتى اذقانهم ، وفي يدهم المغارف ، وجوستان واقف محني الرأس ، والصيدلي يصيح :

– من الذي قال لك ان تذهب لتبحث عنه في المخزن ؟

– ماذا تعني ؟ وما الأمر ؟..

– فأجاب الصيدلي : « ماذا اعني ؟ اننا نصنع مربات ، ولكنها اوشكت وها هي على النار ان تفيض بسبب الغليان الشديد . وقد طلبت حوضاً آخر ، واذا به بسبب الرخاوة والكسل – يذهب ليأخذ مفتاح المخزن من المسمار المعلق في معملي » وهذا هو الاسم الذي كان الصيدلي يطلقه على حجرة تحت السقف مليئة بالأواني والسلع اللازمة لمهنته .

وكثيراً ما كان يقضي فيها وحده ساعات طويلة يلصق فيها البطاقات ، ويسكب السوائل ، ويحزم الادوية . ولم يكن يعتبرها كمخزن بسيط ، بل معملاً حقيقياً تنطلق منه بعد ذلك شتى انواع الحبوب التي يعدها بيديه ، والجرعات ، والمنقوعات ، والغسولات ، والامزجة التي تنشر شهرته على الملأ ! ولم يكن احد في العالم يضع فيها قدمه ، وكان هو يحترمها الى حد انه كان يكنسها بنفسه . واخيراً اذا كانت الصيدلية المفتوحة للجميع هي المكان الذي يعرض مواضع فخاره ، فان المخزن كان الملاذ الذي يتركز فيه هوميه بأنانيته ، حيث يتمتع بمزاولة عمله المحبوب !

ولذلك لاح له لمس جوستان بشعا ، بما يدل عليه من نقص في الاحترام واصبح وجهته اكثر من عنب الذئب !! وهو يردد قائلاً « نعم ! مفتاح المخزن ! المفتاح ، الذي يغلق الباب على الاحماض والقلويات الكاوية ثم يذهب ليأخذ حوضاً احتياطياً ! حوضاً ذا غطاء ، حوضاً ربما لا استخدمه قط . وكل شيء له اهميته في العمليات الدقيقة التي تزاولها في فننــا . ولكن !..... يجب اقامة الحدود بحيث لا نستخدم في مهمات تكاد تكون منزلية ما هو معد لمهمات الصيدلة ، والا كنا كمن يقطع دجاجة بمشرط ، او كقاض .... »

وقالت مدام هوميه : « ألا فلتهدىء من روعك ! »

وشدته اتاليه من ردنجوته وهي تقول : « يابا ! بابا ! » فقال الصيدلي : « لا » . اتركوني !... اتركوني ! يا للخيبة !... انه لمن الافضل اذن ان افتح بقالة .... بشرفي ! هيا .... اذهب !.... لا تحترم شيئاً ! كسر ! حطم ! أطلق العلق ! احرق الاعشاب الملينة ! وخلل الخيار في زجاجات الدواء ، ومزق الضمادات ! »

وقالت ايما « ومع ذلك فان لديك ..... »

– هل تعرف لأي شيء تعرضت منذ هنيهة ؟...

– الم تر شيئاً في الركن الى اليسار على المنضدة الثالثة الصغيرة ؟ تكلم ! اجب ! انطق بشيء !

فتمتم الغلام قائلاً « انني ... لا اعرف »

– آه .... انت لا تعرف ، ولكنني انا اعرف ! لقد رأيت زجاجة زرقاء مغلقة بالشمع الابيض ومحتوية على مسحوق ابيض ، وقد كتبت عليها ... « خطر » ! وهل تعرف ماذا كان بها ؟ « زرنيخ » ! وكنت ستمسه ! وتأخذ حوضاً من جواره !

وقالت مدام هوميه وقد ضمت يديها « زرنيخ » الى جواره !؟ لقد

كان من الممكن ان تصيبنا جميعاً بالتسمم !

واخذ الاطفال يطلقون الصيحات ، وكأنهم قد اخذوا يحسون في امعائهم بآلام مبرحة .

واستمر الصيدلي بقوله : او يصيب مريضاً بالتسمم ! لقد اردت اذن ان اذهب الى مقعد المجرمين في محكمة الجنايات ؟ وان تراني اصعد الى المشنقة ؟.... وهل تجهل الحرص الذي اراعيه في تناول تلك المواد ، بالرغم من خبرتي العاتية ؟! وكثيراً ما يأخذني انا نفسي الفزع عندما افكر في مسئوليتي ، وذلك لأن الحكومة تطاردنا ، والقانون الاحمق الذي نخضع له مسلط على رؤوسنا كأنه سيف « داموكليس » !!

ولم تعد ايما تفكر في ان تسأل عما يراد منها !

واستمر الصيدلي يقول في عبارات لاهثة :

« هكذا تقدر كل الحسنات التي نسديها اليك ! هكذا تكافىء العناية الابوية التي اغمرك بها ! وذلك لأنك بدوني ماذا كنت ستفعل ؟! من الذي يمدك بالغذاء والتربية والكساء وكافة الوسائل التي تمكنك من ان تظهر يوماً في شرف بين صفوف المجتمع ؟ ولكنه لا بد لذلك من ان تتصبب عرقاً فوق المجداف ، وان تكتسب – كما يقولون – خضونة في اليدين ! فبالطرق تصبح حداداً ، ومن الواجب ان تنهض بعملك ! »

كان هوميه يستشهد بالامثال اللاتينية لشدة هياجه بل وكان من الممكن ان يستشهد بالصيني وباقوال سكان جرنيلانو لو انه كان يعرف هاتين اللغتين ! وذلك لأنه كان في احدى تلك الازمان التي تظهر فيها النفس كلها بدون تمييز – كل ما تحتويه كالمحيط الذي ينشق في العاصفة عن طحالب شاطئه كما تنشق عن رمال قاعه !!

ثم استأنف قائلاً : « لقد ابتدأت اندم ندماً شديداً لعنايتي بشخصك ، وقد كان من الافضل ان اتركك في الماضي قابعاً في بؤسك ، وفي القذارة التي ولدت فيها ! فما كنت لتصلح قط لأن تكون حارساً طيباً للماشية

ذات القرون !! وانت خالٍ من كل استعداد للعاوم . وكل ما تستطيع لا يعدو لصق البطاقات ! وها انت تعيش عندي هنا كالقسيس او كديك من معجون ، تلهو وتلعب ! »

ولكن ايما قالت ، وهي تلتفت نحو مدام هوميه : « لقد استدعيتموني .. »

فقاطعتها السيدة الطيبة قائلة في صوت حزين : « آه ! يا الآهي . ماذا اقول لك ؟... انها كارثة ! »

ولم تكمل حديثها فقد انفجر الصيدلي : « افرغه ! نظفه ! ارجعه الى مكانه ! اسرع ! »

وهزّ جوستان من قبة سترته فسقط من جيبه كتاب !

وانحنى الطفل ، ولكن هوميـــه كان اسرع منه ، فالتقط الكتاب واخذ يتأمل فيه ، محدقاً بعينيه ، فاغراً فاه ، وقال – وهو يفصل الكلمتين احداهما من الاخرى في بطء : « الحب .... الزوجي !.... آه ! حسن جداً ! حسن جداً ! شيء جميل ! وصور ! آه ! هذا شيء فظيع ! »

وتقدمت مدام هوميه .

فقال : « لا . لا تمسيه ! »

واراد الاطفال ان يروا الصور ، فقال في عنف : « اخرجوا » .

وخرجوا !

ومشى اولاً طولاً وعرضاً بخطوات واسعة ، محتفظاً بالكتاب مفتوحاً بين اصابعه وعيناه تدوران ، وقد اختنقت انفاسه وتورم وجهه ، كأنما قد اصيب بالصرع ! ثم جاء رأساً الى تلميذه ، حتى انتصب امامه ، وقد ربّع ذراعيه ، ثم قال : « ان لديك اذن ايها الشقي كافة الرذائل ؟ احذر ! انك على المنحدر !... انك لم تفطن الى ان هذا الكتاب الحقير قد يسقط بين يدي اولادي ، وان يضرم النار في عقولهم ، فيلوث طهارة اتالي ، ويفسدنا بليون ، وقد بلغ فعلاً طور الرجولة ! وهل انت متأكد على الاقل من انه لم يقرأه ؟ هل تستطيع ان تدلل لي .... ؟ »

وقالت ايما : « ولكنك يا سيدي تريد ان تقول لي شيئاً .... ؟ »

فقال : « هذا حق يا سيدتي ... ان حماك قد توفي ! »

وبالفعل كان السيد بوفاري الاب قد توفي منذ يومين فجأة نتيجة لذبحة صدرية عند نهوضه من المائدة، وزيادة في الحيطة ومراعاة لحساسية ايمـا كان شارل قد رجا السيد هوميه ان ينقل اليها الخبر المزعج في ترفق .

وكان هوميه قد فكر في العبارة ، وهذب فيها ، وشذب منها ، واحكم ايقاعها ، حتى اصبحت مثلا أعلى في الحيطة والتدرج والترفق والرقة ، ولكن الغضب اطـاح بالبلاغة !

وعدلت إيما عن أن تطلب أية تفصيلات ، ثم تركت الصيدلية لأن السيد هوميه كان قد استأنف هياجه . ولكنه مع ذلك عاد الى الهدوء وأخذ يتمتم في نغمة ابديـة وهو يروح عن نفسه بقلنسوتـه الاغريقية قائلاً : ليس ذلك لأنني اعيب الكتاب كله ، فالمؤلف كان طبيباً ، وفي الكتاب بعض النواحي العلمية التي لا بأس من ان يلم الانسان بها ، بل إنني لأجرؤ على القول بأن من واجب المرء ان يعـلم ، ولكن في وقت متأخر عن هذا — نعم في وقت متأخر ! ولتنتظر على الاقل حتى تصبح انت نفسك رجلاً ، وحتى يتكون مزاجك !

وعندما دقت إيما الباب ، تقدم شارل الذي كان ينتظرها مفتوح الذراعين ، وقال والدموع في صوته : آه يا عزيزتي . . .

وانحنى في رفق لكي يقبلها ، ولكنها عندما أحست بشفتيه لم تلبث ان استعادت ذكرى الآخر ، ومرت بيدها فوق وجهها وهي ترتعش !

وأجابت قائلة : نعم انني اعرف . . . إنني أعرف . . !

وأطلعها على الخطاب الذي تقص فيه امه الحادث دون أية مداراة عاطفية ، وإن تكن قد أبدت اسفها لأن زوجها لم يتلق العون الديني ، لأنه توفي في دورفيل في الشارع على مدخل مقهى ، بعد وجبة شعبية مع جماعة من قدامى الموظفين !

وردت إيما الخطاب ، ثم تصنعت عند العشاء — على سبيل اللياقة — شيئاً من التعفف . ولكنها إزاء إلحاحه اخذت في الاكل بعزم ، بينما ظل شارل جامداً في مواجهتها في وضع مثقل بالأحزان .

ومن وقت الى آخر كـــان يرفع رأسه ، ويرسل اليها نظرة مليئة بالحزن . وتنهد مرة قائلاً : «لقد كنت اود لو اراه مرة اخرى» ! .

ولزمت الصمت ، ولكنها ادركت انه لا بد من الكلام ، فقالت : «في اى سن كان والدك ؟ »

— في الثامنة والخمسين !

— آه !

وكان هذا كل ما قيل .

وبعد ذلك بربع ساعة أضاف : وامي المسكينة ؟ .. .ما مصيرها الآن ؟.

فقامت بحركة تفيد أنها لا تعرف !

وعندما رآها شارل في هذا الصمت ، ظنّ انها حزينة ، واخذ نفسه بأن لا يقول شيئاً لكي يثير هذ الالم الذي يحرك شفقته . ومع ذلك فقد نقض حزنه ليسأل : هل طابت لك التسرية امس ؟

— نعم

وعندما رفع غطاء المائدة لم ينهض السيد بوفاري ، وكذلك إيما . وكلما نظرت في وجهه ، اخذ اطراد المنظر ينحي عن قلبها — شيئـــاً فشيئاً — كل شعور بالرثاء . وقد لاح لها هزيلاً ضعيفاً تافها ، وبالجملة رجلاً مسكيناً من كافة النواحي ! كيف السبيل الى التخلص منه ؟ !

يالها من امسية لاتنتهي ! وقد اخذ شيء مخدر كبخار الافيون يخدر اعصابها.

وسمع في الصالة وقع عصا على البلاط ، واذا به هيبوليت حـــاملاً حقائب السيدة ، التي اضطر لكي يضعها على الارض الى ان يرسم بعكازه ربع دائرة.

وقالت وهي تنظر الى هذا الشقي ، الذي كان شعره الاحمر الكثيف يتصبب عرقاً : انه لم يعد يفكر في مصيبته !

وفتش بوفاري عن دانق في قاع كيسه، ودون ان يلوح عليه انه فهم شيئاً من الاهانة التي يحملها مجرد حضور هذا الرجل الذي يقف امامه كشاهد مجسم على خيبته قال: « خذ » ! . . . ثم مخاطباً زوجته وهو ينظر فوق المدفئة الى بنفسج ليون: «ان لديك باقة جميلة ! »

فقالت إيما في غير اكتراث :

« نعم ! إنها باقة اشتريتها منذ هنيهة من شحاذة »

واخذ شارل البنفسج ، ونضر عينيه المحمرتين من البكاء . واستنشق عبيره في رقة ، لكنها انتزعته من يده وحملته لكي تضعه في كوب ماء .

وفي اليوم التالي ، وصلت مدام بوفاري الأم . وبكت كثيراً هي وابنها بينما اختفت ايما بحجة اصدار اوامر للخدم .

وفي اليوم الذي يليه كان لابد من ان ينظروا معاً في امور الحداد . فذهبت المرأتان ومعهما صناديق الخياطة وجلستا على شاطىء الماء تحت العريشة.

كان شارل يفكر في ابيه ، وتأخذه الدهشة من ان يحس بكل هذا الحب نحو هذا الرجل الذي كان يعتقد من قبل انه لايحبه الا حبا ضئيلا ! وكانت مدام بوفاري الام تفكر في زوجها ، ولاحت لها اتعس الايام القديمة اياما تتلهف اليها ! وقد اختفى كل شيء تحت تأثير ذلك الندم الغريزي الذي شعرت به نحو عادة طال بها كل هذا الزمن ! ومن وقت الى آخر ، واثناء دفعها الابرة ، كانت تسقط دمعة كبيرة على طول انفها، وتظل معلقة لوقت ما وكانت إيما تفكر في انه لم يمض ثمان واربعون ساعة على وجودها مع ليون بعيدين عن العالم في نشوة ، وعيناها لاتكاد تكفيان ليتأمل كل منهما الآخر ! وكانت تحاول ان تستعيد اصغر تفاصيل ذلك اليوم الذي انقضى ، ولكن حضور حماتها وزوجها كان يضايقها . وكانت تود الا تسمع شيئا وألا ترى شيئا ، حتى لا تقلق استجمام حبها الذي كان آخذاً في التلاشي مهما عملت ، تحت تأثير الاحساسات الخارجية !

كانت تحمل بطانة ثوب فتتناثرقطع القماش من حولها ، ومدام بوفاري لأم يصرّ بين يديها المقص دون ان ترفع رأسها وشارل في خفه ذي الشرائط وريدنجوته البني القديم الذي كـان يستخدمه « كروب دي شامبر » صامت هو الآخرلا يقول شيئا وقد وضع يديه في جيبه . والى جوارهم برت في مريلة صغيرة بيضاء تغرف رمل المماشي بمجرفتها .

وفجأة رأوا السيد ليريه تاجر الاقمشة يدخل من سياج الحديقة .

لقد جاء ليعرض خدماته مراعاة لظرف الحداد ، ولكن إيما اجابت بانها تعتقد ان باستطاعتها ان تستغني عن هذه الخدمات ، ولكن التاجر لم يسلم بالهزيمة .

فقال : « الف معذرة ، لقد اردت ان احظى بحديث خاص .»

وفي صوت خفيض قال: «وانه خاص بذلك الموضوع...هل تذكرين؟..»

واحمر شارل حتّى اذنيه ، وقال :«آه ! . . نعم ! ... هذا حق!»

ثم التفت نحو امرأته وهو مضطرب وقال: «هل تستطعين.. ياعزيزتي ؟»

ولاح انها تفهمه ، ذلك لأنها نهضت . وقال شارل لأمه : « ليس هذا بشيء ... انه بلا ريب امر تافه من امور المنزل .. »

انه لم يكن يريد ان تعرف شيئا عن قصه الكمبيالة خوفاً من ملاحظاتها !

وبمجرد ان انفردا معاً اخذ السيد ليريه يهنيء إيما في الفاظ واضحة بالميراث.ثم تحدث في امور تافهة كعرائش الشجر والمحصول وصحتهالتي تتخبط في سيرهـا بين بين لأنه – في الواقع –كان يرهق نفسه في العمل والسعي ، وان لم تتجاوز ثروته – بالرغم من اقاويل الناس – ما يكفي لادام خبزه ! .

وتركته إيما يتكلم ، وكانت قد اخذت تشعر منذ يومين بسأم شديد !

فاستمر يقول : «وهأنت قداستعدت صحتك كاملة ! وفي الحق لقد رأيت زوجك المسكين في حالات مؤلمة . انه رجل طيب ، وان تكن قد قامت بيننا صعوبات ! »

فسألته عن تلك الصعوبات ، لأن شارل كان قد اخفى عنها المنازعة حول التوريدات .

فقـال لبريه : «انك تعرفين الموضوع جيداً ، فقد كان بسبب رغباتك ، أعني صناديق السفر ! »

وكان يبتسم وقـد انزل قبعته فوق عينيه ووضع يديه خلف ظهره وفي صوته صفير واخذ ينظر اليها مواجهة في هيئة لا تحتمل . فهل كان يفترض شيئاً ؟ لقد ظلت ضالة في كافة انواع المخاوف .

ومع ذلك فانه في النهاية استأنف قائلاً : « لقد استأنفنا علاقاتنا ، بل لقد اتيت لكي اعرض عليك تسوية » .

وكانت هذه التسوية عبارة عن تجديدالكمبيالة الموقع عليها من بوفاري . وفضلاً عن ذلك ، فإن السيد بوفاري يستطيع ان يتصرف وفق هواه ، وما ينبغي ان يعني نفسه — وبخاصة الآن — وهو مقبل على الكثير من الارتباكات !

بل ان من الخير له ان يتخلى عن هذا الموضوع الى شخص آخر ، وليكن لك انت مثلاً ، وبتوكيل يسهل الامور ، وعندئذ ستتم بيننا بعض العمليات البسيطة !

ولم تفهم شيئاً ، فسكتت ، ثم انصرف الى دكانه وهو يقول ، ان المدام لا تستطيع ان تستغني عن ان تأخذ منه شيئاً ، وانه سيرسل اليها قطعة من التيل الخفيف الأسود طولها اثنا عشر متراً لتحيك منها ثوباً مردداً : « ان هذا الثوب الذي ترتدينه يصلح للمنزل ، ولكن لا بد لك من ثوب آخر للزيارات ، وقد لمحت انا ذلك لأول نظرة عند دخولي ، فلدي عين امريكية ! »

ولم يرسل القماش ، بل احضره بنفسه ، ثم عاد بسبب المقاس ، كما عاد لتعللات اخرى ، محاولاً كل مرة ان يبدو ودوداً خدوماً متسللاً على نحو ما يقول هوميه ، مسدياً دائماً الى اما نصيحة ما عن التوكيل . ولم يكن يتكلم عن الكمبيالة ، كما انها هي الأخرى لم تكن تفكر فيها .

وكان شارل قد قص عليها شيئاً في بدء نقاهتها ، ولكن رأسها كان قد مر بها من الاضطرابات ما جعلها لا تذكر شيئاً . وفضلاً عن ذلك فانها كانت حريصة على الا تفتح اية مناقشة في المسائل المادية . وقد اندهشت الأم بوفاري لهذه الحالة ، وعزت تغيير مزاجها الى المشاغل الدينية التي استولت عليها اثناء مرضها !

ولكن بمجرد رحيل الأم لم تلبث ايما ان اخذت تدهش بوفاري بحسها العملي ، فكانت تذهب لتحصل على المعلومات ، ولتتحقق من الرهونات ، ولتبحث عما اذا كان هناك محل لتصحيح اجراء او عمل تصفية . وكانت تستعمل عبارات فنية كيفما اتفق متفوهة بألفاظ كبيرة : كالنظام والمستقبل والتبصر ، كما كانت تبالغ دائماً في ارتباكات التركة ، حتى اطلعته يوماً على انموذج لتصريح عام بادارة اعماله بما فيها عقد القروض وتوقيع الكمبيالات وتظهيرها ودفع المبالغ ... الخ . فقد كانت استفادت من دروس ليريه !!

وسألها شارل في سذاجة من اين اتت بهذه الورقة .

فاجابت : « من السيد جيومان » .

وأضافت في اشد برود ممكن : « انني لا اثق به كثيراً ، والموثقون لهم شهرة بالغة السوء ، وربما كان من الواجب ان نستشير ... اننا لا نعرف غير ... أوه ! لا أحد ! »

فأجاب شارل الذي كان يفكر : « وذلك ما لم يكن ليون .... »

ولكن كان من الصعب التفاهم بالمراسلة ، ولذلك عرضت ايما ان تقوم بالسفر ، فشكرها . وألحت فكانت ثورة من الاشفاق ، وأخيراً صاحت في نغمة عناد مصطنعة قائلة : « لا — ارجوك — سأذهب »

فقال وهو يقبلها في جبهتها : « كم انت طيبة ! »

ومنذ اليوم التـالي تربعت في « العصفورة » لكي تذهب الى روان

لتستشير السيد ليون . وهناك بقيت ثلاثة ايام !!

• • •

لقد كانت ثلاثة ايام مليئة لذيذة رائعة ـ كانت شهر عسل حقيقي !
كانت في فندق بولون على الميناء ، وقد عاشا هناك والنوافذ مغلقة ، والابواب موصدة ، وفوق الارض ورود ، والمشروبات السكرية المثلجة تحمل اليهما كل صباح !
وحوالي المساء كانا يأخذان زورقاً مغطى ويذهبان الى احدى الجزر لتناول العشاء !

كانت تلك هي الساعة التي تسمع فيها على حافة الاحواض مطارق العمال وهي تدق جدران السفن ، وفوق النهر كانت ترى بقعاً واسعة من الشحم وهي تتموج تموجاً متفاوتاً تحت لون الشمس القرمزي وكأنها صفائح من البرونز الفلورنسي تطفو فوق الماء .
كانا ينزلان وسط الزوارق الراسية التي تمس حبالها المنحرفة مساً خفيفاً اعلى الزورق .
كانت ضوضاء المدينة تبتعد على نحو غير محسوس ، بما في ذلك ضجيج العربات وضوضاء الاصوات ونباح الكلاب فوق ظهور السفن ، وكانت تحمل عقدة قبعتها وينزلان الى جزيرتهما .
كانا يجلسان في الصالة المنخفضة بإحدى البارات ، التي كنت ترى معلقاً على بابها بعض السباك السوداء ، وكانا يأكلان السمك المقلي والكريمة والكريز ، ويضطجعان فوق العشب ويتبادلان القبل تحت اشجار الحور .
وكانا يودان ان لو عاشا الى الابد في هذا المكان الصغير كروبنسن كروزو وقد لاح لهما هذا المكان وسط سعادتهما اروع مكان في الارض . ولم تكن هذه اول مرة يريان فيها اشجاراً وسماء زرقاء وحشائش ، كما لم تكن اول مرة يسمعان فيها خرير الماء ويحسان هبوب النسيم بين الأغصان ،

ولكنهما لم يكونا قط قد اعجبـا بكل هذا ، وكأن الطبيعة لم تكن موجودة قبل ذلك ، او كأنها لم تبدأ جمالها الا منذ ان اشبعا رغباتهما !

وفي الليل كانا يرحلان والزورق يتابع شواطىء الجزر ، وقد قبعا فيه معاً ، مختفيين في الظلال ، دون ان يتكلما ، والمجاديف المربعة تصطك في حلقاتها الحديدية ، فيشبه اصطكاكها ـ وسط الصمت ـ دقات الساعة . وعند وصولهما كانت اهتزازات الماء لا يقف خريرها العذب .

وذات مرة ظهر القمر فلم يفتها ان يصفاه بعبارات عذبة اذ وجدا الكوكب حزيناً موحياً بالشعر ، بل اخذت ايما تغني !

« ذات مساء ، هل تذكرين ، ونحن نجدف .. الخ »

وكان صوتها المنسجم الضعيف يتلاشى فوق الموج ، وكانت الريح تحمل الترجيعات التي كان ليون يسمعها ، وهي تمر كحفيف اجنحة من حوله !

وكانت تقف في مواجهته مستندة الى حافة الزورق ، حيث كان القمر يدخل من احد المصاريع المفتوحة . وكان ثوبها الأسود الذي ينتفخ قماشه في هيئة مروحة ، يظهرها نحيفة ، واكثر طولاً ، وقد رفعت رأسها وضمت يديها واتجهت بعينيها نحو السماء . واحياناً كان ظل الصفصاف يخفيها كلها ، ثم تعود الى الظهور فجأة كالرؤيا في ضوء القمر .

وعثر ليون تحت يدها وهو الى جوارها على الارض ، بشريط من الحرير المخمل .

وفحصه البحار ثم انتهى بأن قال : « آه ! انه كان لجماعة صحبتهم في نزهة منذ ايام ، وقد اتوا كفريق من المهرجين رجالاً ونساء ، ومعهم فطائر وشمبانيا وآلات عزف ، و « العدة » كلها ! وكان بينهم بنوع خاص رجل طويل جميل بشوارب قصيرة وكان مسلياً على نحو مدهش وكانوا يقولون هكذا : « هيا ! قص علينا شيئاً .. أدولف .. أدولف ... فيما اظن » .

فأخذتها رعشة. وقال ليون وهو يقترب منها : « هل تشعرين بألم ؟ »

فقالت : « أوه ! لا شيء . انها بلا ريب رطوبة الليل . »

واضاف البحار العجوز في رفق — وهو يظن انه يقدم للغريب تحية : « وأظن فوق ذلك ان النساء لا تعوزه . . »

ثم بصق في يديه ، واستأنف الضرب بالمجاديف !

ومع ذلك فلم يكن بد من الافتراق ! وكان الوداع حزيناً ، وقد اتفقا على ان يرسل الخطابات عند الأم روليه . وزودته بتوصيات دقيقة خاصة بالغلاف المزدوج حتى لقد اعجب كثيراً بهذه الحيلة الغرامية .

وقالت مع القبلة الأخيرة : و « هكذا تؤكد لي ان كل شيء على ما يرام . »

فأجاب : « نعم . بكل تأكيد ! »

وأخذ يفكر وهو عائد وحده وسط الشوارع : « ولكن لماذا اذن تحرص كل هذا الحرص على هذا التوكيل ؟

• • •

وبعد قليل اتخذ ليون امام زملائه هيئة استعلاء ، وامتنع عن مصاحبتهم ، وأهمل عمله اهمالاً تاماً !

كان ينتظر خطاباتها ويعيد قراءتها ويكتب اليها . وكان يستحضرها امام خياله بكل ما في رغبته وما في ذكرياته من قوة . وأخذت الرغبة في رؤيتها مرة اخرى تزداد بدلاً من ان تنقص بغيابها ، حتى هرب من مكتبه في صبيحة يوم سبت . وعندما لمح من اعلى الهضبة في الوادي برج الكنيسة وعلمها المرفوع فوق عمود من الحديد الابيض وهو يدور مع الريح — احس بتلك اللذة الممزوجة بالغرور المنتصر ، وبالحنان الاناني الذي كثيراً ما يحس به اصحاب الملايين عندما يعودون لزيارة قريتهم !

ذهب ليحوم حول منزلها ، ولمع ضوء في المطبخ ، واخذ يترقب ظلها

خلف الستائر ، ولكن شيئاً لم يظهر !

وعندما رأته الأم ليفرانسوا اطلقت صيحات تعجب كبيرة ، ووجدت انه قد ازداد طولاً كما ازداد نحافة ، بينما وجدت ارتميس انه على العكس قد ازداد قوة واسمراراً .

وتناول العشاء في الصالة الصغيرة كما كان يفعل في الماضي ، ولكنه تناوله وحيداً بدون المحصل ، وذلك لأن بينيه كان قد تعب من انتظار « العصفورة » فعجّل نهائياً موعد عشائه بمقدار ساعة ، واصبح يتناوله الآن في الساعة الخامسة تماماً ، بل وكثيراً ما كان يدعي ان الساعة القديمة الخربة تؤخر !

ومع ذلك فقد عقد ليون عزمه وذهب ليدق باب الطبيب . وكانت السيدة في غرفتها التي لم تنزل منها الا بعد ربع ساعة . وظهر السيد مبتهجاً لرؤيته من جديد ، ولكنه لم يتحرك طوال المساء ولا اليوم التالي .

لقد رآها وحيدة في المساء في وقت متأخر خلف الحديقة في الزقاق - في الزقاق كما كانت تفعل مع الآخر ! وكان الجو عاصفاً ، وأخذا يتحدثان تحت مظلة على ضوء البرق .

لقد أصبح فراقهما شيئاً لا يطاق !

وقالت ايما : « ان الموت افضل ! »

وكانت تتلوى فوق ذراعه والدموع تتصبب من عينيها .

وقال : « الوداع ! ... الوداع ! ... متى سأراك ثانية ؟ »

وعادا أدراجهما لكي يتبادلا القبلات مرة اخرى . وعندئذ وعدته بأن تجد قريباً بأية وسيلة فرصة تسمح بأن يلتقيا في حرية ، مرة واحدة على الأقل كل اسبوع . ولم تكن ايما تشك في ذلك بل كانت مليئة بالأمل ، وعما قريب سيأتيها المال .

وهكذا اشترت لغرفتها زوجاً من الستائر الصفراء ذات الخطوط

العريضة ، وكان السيد لبريه قد مدح لها رخصها . وحلمت بسجادة ، وأكد لبريه ان ثمنها لن يكون باهظاً ، وتعهد في أدب بأن يأتيها بواحدة ، وقد اصبحت لا تستطيع ان تستغني عن خدمـــاته ! وفي اليوم الواحد كانت ترسل في استدعائه عشرين مرة . فيترك اعماله من غير تململ . كما ان احداً لم يفهم لماذا اخذت الام روليه تتناول عندها الغذاء كل يوم ، بل وأخذت تزورها زيارات خاصة.

وحوالي تلك الفترة ، اي في اوائل الشتاء ، ظهر انها قد اخذت بحماسة كبيرة للموسيقى .

وذات مساء بينما كان شارل ينصت اليها ، ابتدأت أربع مرات متوالية نفس المقطوعة دون أن ترضى قط بعزفها ، وذلك بيـنما اخذ شارل يصيح ، دون ان يلاحظ الفارق قائلاً : « برافو !... حسن جداً !... انك مخطئة في ظنك ! استمري إذن ! »

فردت قائلة : « إيه ! لا ! هذا شيء قبيح . إن اصـــابعي قد اصابها الصدأ ! »

وفي اليوم التـــالي رجاها ان تعزف له شيئاً مرة اخرى فقالت : « فليكن ... مرضاة لك ! » .

واعترف شارل بأنها قد نسيت قليلاً . وكانت قد اخطأت في الجملة الموسيقية ، وتخبطت ثم توقفت وقالت : « آه ! كفى ! يجب ان اتلقى دروساً ، ولكن ... »

وعضت على شفتيها ثم أضافت : « عشرون فرنكـــاً في الدرس . هذا كثير ! »

وقال شارل كاظماً في بله : « نعم . هذا صحيح ... الى حد ما ! ومع ذلك يلوح لي انه ربما كان من الممكـــن تلقي هذه الدروس بأجر أقل ، وذلك لأن هناك فنانون بلا شهرة ، ومع ذلك ، كثيراً ما يتساوون مع ذوي الشهرة العريضة ! »

فقالت ايما : « ابحث عنهم »

وفي اليوم التالي اخذ شارل ينظر اليها عند دخوله بنظرة ناكرة، وفي النهاية لم يستطع ان يمسك عن ان يفوه بهذه العبــارة : « يا لك من عنيدة أحياناً ! لقد كنت في بارفيشير اليوم ، وقد أكدت لي مدام لييجار ان آنساتها الثلاثة الملحقات بالملجأ يأخذن دروساً مقابل خمسين سنتاً لكل جلسة من مدرسة شهيرة ! »

فرفعت كتفيها ، ولم تفتح بعد ذلك قط معزفها !

ولكنها عندما كانت تمر الى جوان ويكون بوفارى حاضراً كانت تتنهد قائلة : « آه . معزفي المسكين » .

وعندما كان أحدٌ يأتي لزيارتها لم تكن تغفل ان تخبره انها قد هجرت الموسيقى ، ولم تعد الآن تستطيع العودة اليها لأسباب قهرية . وعندئذ كانوا يرثون لها ويرون في هذا خسارة ، وذلك بسبب موهبتها الفذة ! بل ولم يكن أحد يتحدث الى بوفاري ، لأن في ذلك ما يخجله ، وبخاصة الصيدلي ، الذي قال له : « انك مخطىء ! فلا ينبغي ان يترك الإنسان الملكات الطبيعية عاطلة ! وفوق ذلك عليك ان تقدر يا عزيزي أنــك عندما تدفع السيدة نحو الدرس ، فإنك تقتصد بالنسبة للمستقبــل فيما يختص بالتربية الموسيقية الواجبة لطفلتك . وفي رأيـي أن الامهات يجب ان يقمن أنفسهن بتعليم اطفالهن ، وهذه فكرة أخذتها من روسو ، وربما كانت لا تزال حديثة ، ولكنني متأكد من أنها سوف تنتصر كما انتصرت فكرة رضاعة الام وفكرة الختان ! »

وعاد شارل إذن مرة ثانية الى موضوع المعزف ، وأجابت ايما في مرارة بأنه من الأفضل بيعه ! ولكن هذا المعزف المسكين الذي طالمــا أرضى غروره كيف يمكن ان يراه خارجاً من بيته – لقد كــان هذا بالنسبة لبوفاري بمثابة انتحار عجيب لجزء من نفسه !

فقال : « اذا اردت ... من وقت الى آخر درساً ، فإن هذا لن

يتسبب في النهاية في خراب شامل ! »

فأجابت قائلة : « ولكن الدروس لا تثمر الا اذا كانت متتابعة !»

وهكذا استطاعت ان تحصل من زوجها على تصريح بأن تذهب الى المدينة مرة كل اسبوع لترى عشيقها ، بل وقد لوحظ بعد شهر انها قد احرزت تقدماً كبيراً !

* * *

كان يوم خميس فاستيقظت وارتدت ملابسها في صمت كي لا توقظ شارل ، خشية ان يبدي ملاحظات حول رحيلها الباكر جداً . ثم اخذت تمشي طولاً وعرضاً ، وتقف امام النوافذ وتنظر الى الميدان .

وأخذ ضوء الفجر يسري بين أعمدة السوق وبين بيت الصيدلي الذى كان مغلق النوافذ . وكانت الحروف الكبيرة بلافتته تظهر بفضل لون الفجر الشاحب .

وعندما دقت الساعة السابعة والربع ، ذهبت الى فندق الأسد الذهبي الذي كانت ارتميس قد فتحت بابه وهي تتثاءب . ونبشت الخادمة – من اجل السيدة – قطع الفحم المدفونة في الرماد ، ثم ظلت ايما وحدها في المطبخ . ومن وقت الى آخر كانت تخرج . وكان هيفير يشد الخيل الى العربة في تراخ ، وهو يستمع في نفس الوقت الى الأم لوفرانسوا التي أخرجت رأسها المغطى بقلنسوة قطنية من كوة ، واخذت تكلفه بمهمات ، وتقدم اليه تفسيرات خليقة بأن تنزل الاضطراب برأس رجل من طراز آخر ! بينما ايما تدق بنعل حذائها على بلاط الفناء .

واخيراً بعد ان تناول حساءه ، وارتدى معطفه ، واوقد غليونه ، وقبض على سوطه ، استقر في هدوء فوق مقعده !

وانطلقت « العصفورة » في خبب بطيء . وخلال ثلاثة ارباع الفرسخ

كانت تقف من مكان الى آخر ، لتلتقط المسافرين ، الذين كانوا يترقبونها وقوفاً علي حافة الطريق امام سياج الأفنية . وكانت تنتظر اولئك الذين اتفقوا معها على موعد . بل وكان بعضهم لا يزال في فراشه بالمنزل . وكان هيفير ينادي ويصيح ويسب ، ثم ينزل من مقعـــده ، ويذهب ليدق على الأبواب دقات قوية . وكانت الريح تهب من شراعات النوافذ المشدوخة !

ومع ذلك امتلأت المقاعد الأربعة ، وانطلقت العربـــة ، وتتابعت اشجار التفاح . وأخذ الطريق المحصور بين خندقين مليئين بالماء الاصفر يضيق باستمرار عند الأفق .

كانت ايما تعرف هذا الطريق من طرف الى طرف ، وتعرف أن بعد الأعشاب عموداً ، ثم شجرة دردار ، ثم مخزناً أو كوخ خفير ، بل واحياناً ، كانت تغلق عينيها لكي تهيء لنفسها المفاجآت ، ولكنها لم تفقد قط إحساسها الدقيق بالمسافة التي لا بد من قطعها .

واخيراً قربت المنازل المبنية من الطوب ، واخذت الارض ترن تحت العجلات ، وانسابت « العصفورة » بين الحدائق التي كانت ترى بداخلها من خلال الفرجات بعض التماثيل ، او عريشة عنب ، او شجر السرو المشذب ، او ارجوحة ، ... ثم ظهرت المدينة في لمحة بصر !

كانت تنحدر كلها في مدرج ، غارقة في الضباب وتتسع بعد الكباري في اختلاط ، ثم اخذت الحقول بعد ذلك ترتفع في حركة مضطربة مملة حتى تمس عن بعد أسفل السماء الشاحبة غير المحددة . وهكذا كـــان المنظر كله عن بعد يلوح كأنه لوحة ثابتة ، والسفن الراسية تتكدس في ركن ، والنهر تستدير انحناءاته عند ساق التـــلال الخضراء . والجزر المستطيلة الشكل تلوح فوق الماء كأنها أسماك كبيرة سوداء واقفة ، ومداخن المصانع ترسل ذيولاً داكنة كبيرة تتطاير عند طرفها . وكان فحيح المسابك يسمع مع صوت الأرغن من الكنائس التي تنهض وسط الضباب .

واشجار الشوارع المجردة من اوراقها تشبه الأحراش البنفسجية وسط البيوت . والسقوف اللامعة بماء المطر تبرق بريقاً غير متساوٍ تبعاً لارتفاع الأحياء . واحياناً كانت هبة ريح تحمل السحب نحو هضبة سانت كاترين، وكأنها موجات هوائية تتحطم في صمت على الهضبة .

كان شيء مذهل ينبعث بالنسبة اليها من هذه الحيوات المتكدسة ، وبهذا الشيء كان ينتفخ قلبها انتفاخاً كبيراً ، وكأن المائة وعشرين ألف نفس التي تنبض هناك قد ارسلوا جميعاً اليها ابخرة الانفعــالات التي افترضتها لديهم . وكان حبها يتسع امام الفضاء ويمتلىء بالصخب ، على صوت الطنين المرتفع الصاعد نحوها والذي كانت تسكبه في الخارج فوق الميادين والمتنزهات والورود ! وامتدت المدينة النورماندية القديمة امام عينيها كعاصمة ضخمة وكأنها تدخل بابل ! وارتكزت بيديها فوق الشراعة وهي تستنشق النسيم ، والخيل الثلاثة تعدو في الوحل ، والعربة تهتز ، وهيفير يصيح بالعربات الصغيرة على الطريق ، بينما أهــل المدينة الذين قضوا الليل في غابة جيوم ، ينزلون عن الهضبة في سكون فوق عرباتهم العائلية الصغيرة ..

ووقفوا عند السياج ، وخلعت ايما الخفين اللذين تلبسهما فوق الحذاء ولبست قفازاً آخر ، واصلحت من وضع شالهــا . وعلى بعد عشرين خطوة من هناك خرجت من « العصفورة » .

كانت المدينة عندئذ آخذة في الاستيقاظ . والخدم في « قلنسواتهم الاغريقية آخذون في مسح واجهات الدكاكين ، والنساء يطلقن من نواحي الشوارع صيحات مجلجلة ، وهن حاملات السلال فوق خصورهن.وسارت ايما منكسة البصر الى جوار الجدران ، مبتسمة من السرور تحت وشاحها الأسود المسدل !

وخوفاً من ان ترى ، لم تكن تسلك عادة أقرب الطرق ، بل كانت تندس في الأزقة المظلمة .. ووصلت وهي تتصبب عرقاً عند نهاية شارع

« الناسيونال » الى جوار النافورة القائمة هناك . وهذا هو حي المسرح والصالات وبنات الهوى . وكثيراً ما كانت تمر الى جوارهـا احدى العربات وهي محملة بمناظر المسرح التي تهتز فوقها ، وغلمان في مرايل يسكبون الرمال على البلاط بين الشجيرات الخضراء . وكانت تفوح رائحة الخمر والسيجار والقواقع !

وانعطفت في شارع ... وعرفته من شعره المجعد المطل من قبعته !

واستمر ليون يسير على الرصيف وهي تتبعه حتى الفندق . ثم صعد وفتح الباب ودخل ... ويا له من عناق !

ثم انهالت العبارات بعد القبلات ! وكانا يتبادلان الحديث عن اشجان الاسبوع ، والمخاوف ، والقلق على الخطابات . ولكن كل شيء قد نسي الآن ، وها هما وجهاً لوجه مع ضحكات اللذة ، ونداءات الحنـان .

كان السرير سريراً كبيراً من الأكاجو في شكل زورق ، وكانت الستائر المصنوعة من الحرير الأحمر تنزل من السقف وتتجمع في اسفل، بالقرب من الوسادة حيث تنفرج . ولم يكن في العالم شيء في جمال رأسها ذات الشعر الأسود ، وجلدها الأبيض يبرز فوق هذا اللـون القرمزي ، عندما كان الحياء يدفعها الى ان تضم ذراعيها العاريتين وهي تخفي وجهها في يديها .

وكان جو الجناح الفاتر ، بسجادته الهادئة اللون ، وزينته الخفيفة ، وضوئه الهـادئ ، يلوح ملائماً كل الملاءمة لخلوات الغرام . وكانت المشاجب النحاسية وكرات المقابض الكبيرة تلمع فجأة عندما تدخل الشمس . وفوق المدفأة كان يوجد بين الشمعدانات قوقعتان ورديتان كبيرتان يسمع فيها صخب البحر عندما تلصقان بالأذن .

كم كانا يحبان هذه الغرفة الطيبة المليئة بالمرح ، بالرغم من فخامتها التي ذبلت قليلاً ! وكانا يجدان دائماً الأثاث في مكانه ، بل ودبابيس

الشعر التي كانت قد نسيتها يوم الخميس الآخر تحت قاعدة الساعة . وكانا يتناولان الغداء الى جوار النار فوق مائدة مستديرة مطعّمة بخشب الأبنوس . وكانت ايما تقطع اللحم وتضع القطع في طبقه وهي تسرد كافة انواع المداعبات . وكانت تضحك ضحكات رنّانة خليعة عندما يفيض زبد الشمبانيا من الكأس الخفيف فوق خواتم اصابعها . وكانا غارقين غرقاً كاملاً في امتلاك ذاتهما حتى لكأنهما يعتقدان انهما في بيتهما الخاص ، وانهما سيعيشان فيه حتى الموت كزوجين خالدين ! وكانا يقولان « غرفتنا » و « سجادتنا » و « كراسينا » ، بل وكانت تقول « خفي » الذي كان هدية من ليون استجابة لاحدى نزواتها ، وكان خفاً من الستان الوردي ، محلاة حافته بالبجع ! وعندما كانت تجلس فوق ركبتيه ، كان ساقها القصير يتدلى في الهواء ، وكان الخف الجميل الذي لا عقب له يمسك فقط بأطراف اصابع قدمها العارية .

لقد تذوق لأول مرة تلك الرقة المرهفة المنبعثة من الأناقة النسائية ، ولم يكن قد صادف قط هذه الرشاقة وهذه اللغة وهذه الألوان من الثياب المشكلة وهذه الاوضاع الشبيهة بأوضاع الحمامة الغافية . وكان يعجب بحرارة روحها ودنتيلا جونلتها ! ولم لا ؟ أليست هي احدى نساء الطبقة الراقية ، وامرأة متزوجة ؟! وبالجملة ، أليست عشيقة حقيقية ؟!

وبتلون مزاجها المتنقل طوراً بعد طور ، من الاحساس الصوفي الى المرح ، ومن الثرثرة الى الصمت ، ومن العنف الى عدم المبالاة — كانت تثير في نفسه مئات الرغبات والغرائز والذكريات — لقد كانت المغرمة التي تتحدث عنها الروايات ، والبطلة التي تتحدث عنها المسرحيات ، و « هي » الغامضة التي تتحدث عنها دواوين الشعر ! وكان يجد على كتفيها اللون العنبري الخاص بـ « الجاربة في الحمام » كما يجد القدّ الطويل الخاص بربات قصور الإقطاع ، كما كانت تشبه ايضاً امرأة برشلونة الشاحبة ، ولكنها فوق كل هذا كانت ملاكاً !

وعندما ينظر اليها ، كثيراً ما كان يخيل اليه ان روحه قد هربت اليها ، وانسابت كموجة فوق حدود رأسها ، ثم انحدرت كالسيل في بياض صدرها !

وكان يلقي بنفسه على الارض امامها ، ويتكيء بمرفقيه فوق ركبتيه ثم يأخذ في تأملها مبتسماً مشدود الجبهة .

وكانت تنحني نحــوه وتتمتم ، وكأنها مختنقة من الثمل وتقول : «أوه ! لا تتحرك ! لا تتكلم ! انظر الي ! ان عينيك ينبعث منهما شيء عذب تستريح اليه نفسي » .

وكانت تسميه طفلاً .

– ايها الطفل ! هل تحبني ؟

ولم تكن تسمع جواباً مع سرعة شفتيه اللتين كانتا تصعدان الى الفم .

وكان فوق الساعة الدقاقة تمثال صغير من البرونز لكوبيدون إله الحب ، مبتسماً وقد حنا ذراعيه تحت باقة مذهبة . وكثيراً ما كانا يضحكان منه . ولكن كل شيء كان يبدو جاداً عندما يحين موعد الفراق .

كان كل منهما يكرر للآخــر وهما واقفين ساكنين : « الى يوم الخميس !... الى يوم الخميس !... »

وفجأة كانت تأخذ رأسه بين يديها وتقبله مسرعة في جبهته وهي تصيح : « الوداع ! » ثم تنطلق من السلم .

كانت تسير الى شارع الكوميديا حيث تصلح خصلات شعرها عند حلاق ، وعند قدوم الليل كان الحلاق يضيء حانوته بالغاز .

وكانت تسمع جرس المسرح وهو ينادي المتسكعين للدخول ، وترى في مواجهتها الرجال يمرون بأوجههم البيضاء ، والنساء بزينتهن الذابلة والجميع يدخلون من باب الكواليس .

كان الجو حاراً في ذلك الحانوت الصغير المنخفض ، حيث كان السخان يئز وسط الشعر المستعار والمراهم ، وكانت رائحة الحدائد والايدي

التي تتناول رأسها لا تلبث ان تصيبها بالدوار . وكانت تغفو تحت جلباب الحلاقة ، وكثيراً ما كان الغلام يعرض عليها اثناء الحلاقة تذاكر لحفلة رقص تنكرية .

ثم كانت تنصرف ! وتصعد الشوارع حتى تصل الى فندق « الصليب الاحمر » . وكانت تأخذ خفها الذي اخفته في الصباح تحت المقاعد ، وتجلس صامتة في مكانها بين المسافرين النافدي الصبر . وكان بعضهم ينزل عند اسفل الهضبة فتبقى وحدها بالعربة .

وعنـــد كل منحنى كانت تريد رؤية اضواء المدينة ، التي تتجمع كموجة واسعة من البخار المضيء فوق المنازل المختلطة . فكانت ايما تركع على ركبتيها فوق المساند ، وتضل بعينيها في هذا الوهج المعشى . وكانت تنتحب وتناجي ليون ، وترسل اليه الفاظاً رقيقة ، وقبلات تضل في الهواء .

وكان على الطريق المرتفع متشرد بائس يمسك عصا وسط العربات وعليه كومة من الاسمال تغطي كتفيه ، وقلنسوة مهدمة مستديرة كالطاسة تخبيء وجهه ، ولكنه عندما انتزعها كشف عن محجرين دامين مليئين بالصديد بدلاً من الجفون ، وكان اللحم يتهدل في امشاج حمراء ، وكانت تسيل منها سوائل تتجمد في بثور خضراء حتى الأنف ، الذي كانت خياشيمه تشخر في تشنج . ولكي يتحدث كان يطرح رأسه الى الخلف وهو يضحك ضحكة بلهاء ، وعندئذ كانت حدقتاه الضاربتان الى الزرقة تدوران في حركة مستمرة حتى تصطدمان عند الاصداغ على حافة الجرح الحي .

كان يغني اغنية صغيرة وهو يتبع العربات مطلعها : « كم تدفع حرارة يوم صحو البنت الصغيرة الى ان تحلم بالحب ! »

وكان في بقية الأغنية عصافير وشمس واوراق اغصان !

وأحياناً كان يظهر فجأة خلف ايما عاري الرأس ، فكانت تبتعد وهي

تصبح ، وكان هيفير يداعبه ويدعوه الى ان يتخذ له ركناً في عيد سان رومان ، او يسأله ضاحكاً عن صحة صديقته العزيزة !

وكثيراً ما كانت قبعته تدخل بحركة مفاجئة داخل العربة من خلال نافذة العربة ، بينما يتعلق بذراعه الاخرى على السلم وسط اوحال العجلات. وكان صوته الضعيف المتهافت اول الامر ، يصبح حاداً ، وينساب في الليــل كالنحيب الغامض المنبعث عن حزن خفي ومن خلال دقات اجراس الخيل وحفيف الشجر وفحيح الصندوق الاجوف كان يوحى بشيء بعيد يصيب اما بالاضطراب ، وكان هذا الشيء يغور حتى اعماق روحها كالدوامة في هاوية ، ويحملها وسط آفاق من الحزن الذي لا حدود له . ولكن هيفير الذي كان يحس بثقل الأعمى وهو متعلق بالعربة كان يضربه ضربات قوية بسوطه ، فيصيب جراحه ، ثم يسقط في الوحل وهو يطلق الصيحات.

وكان ركاب « العصفورة » ينتهي بهم الأمر الى النوم ، بعضهم وهو فاغرفاه ، والبعض الآخر وقد حنى ذقنه واستند على كتف جاره ، او ادخل ذراعه في المقبض الجلدي ، وأخذ يهتز هزات منتظمة على وقع العربة . وشعاع المصباح الذي يهتز في الخارج فوق اشجار الليمون يتسلل الى الداخل من خلال الستائر الصفراء الداكنة ، فيلقي ظلالاً قريبة من لون الدماء على كل اولئك الاشخاص الساكنين . وكانت اما الثملة بالحزن ترتعد تحت ملابسها وتزداد احساساً بالبرد في اقدامها ، والموت في روحها .

وفي المنزل كان شارل ينتظرها . وقد اعتادت « العصفورة » ان تصل متأخرة يوم الخميس . واخيراً وصلت السيدة ، فلا تكاد تقبل على تقبيل طفلتها . وكان العشاء لم يعد فلم تهتم بالأمر والتمست العذر للطاهية ، فكل شيء اصبح الآن مسموحاً به لهذه الفتاة !!

وكثيراً ما كان زوجها يلاحظ شحوبها فيسألها عما اذا كانت مريضة .

وكانت ايما تجيب قائلة : « لا ! »

فيقول : « ولكنك غريبة هذا المساء ! »

— « ايه ! ليس هناك شيء ! ليس هناك شيء ! »

بل وفي بعض الايام كانت لا تكاد تدخل حتى تصعد الى غرفتها ، حيث كان جوستان يروح ويجيء بخطى صامتة مبادراً الى افضل من اية وصيفة ، فكان يضع اعواد الثقاب ، والشمعدان ، وكتاباً في متناول يدها ويرتب قميصها ويقلب الملاءات !

وكانت تقول له : « هيا ! هذا حسن ! اذهب ! »

ذلك لأنها كانت تظل واقفة مدلاة اليدين مفتوحة العينين ، وكأنها محزومة بخيوط ساكنة من حلم مفاجيء !

وكان اليوم التالي مزعجاً ، والايام الاخرى اشد ازعاجاً بسبب صبر ايما النافذ في استرجاع سعادتها . فكان الشوق المتأجج المتكالب الملتهب بصور الذكريات ينفجر في اليوم السابع فينطلق في احضان ليون ! اما مشاعره هو فقد كانت تختفي تحت فورات تعجب وعرفان بالجميل ، وكانت ايما تتذوق هذا الحب على نحو خفي مستغرق ، وكانت تتعهده بكافة حيل الحنان ، وترتعد قليلاً خشية ضياعه فيما بعد !

وكثيراً ما كانت تقول له في صوت عذب حزين : آه ! سوف تتركني انت !... سوف تتزوج !... ستكون كالآخرين ! »

وكان يسأل : « من تعنين بالآخرين ؟ »

وكانت تجيب : « اعني الرجال » .

ثم تضيف وهي تدفعه بحركة ولهانة : « انكم جميعاً انذال ! »

وبينما كانا يتحدثان يوماً حديثاً فلسفياً عن اوهام الحياة الدنيا ، انساقت ايما رغبة في اختبار غيرته او بدافع قوي نحو الانطلاق — انساقت الى القول بأنها كانت قد احبت قبله في الماضي رجلاً — ثم اضافت انه لم

يكن يشبهه . وأقسمت برأس ابنتها انه لم يحدث بينهما شيء !

وصدّقهـا الشاب ، ولكنه مع ذلك استجوبها لكي يعرف ماذا كان يفعل .

فقالت : « كان قائد سفينة يا عزيزي ! »

وكان في هذه الاجابة ما يقطع السبيل على كل بحث ، كما كان فيها ايضاً ما يرفع من قدرها بسبب ذلك السحر المدعي ، الذي انصب منها على رجل لا بد انه كان ذا طبيعة مقاتلة ، معتاداً على تلقي الاهتمام .

وأحس الكاتب عندئذ بوضاعة مركزه ، وود ان لو كانت له نجوم وتيجان وألقاب ، فإن كل هذا جدير بأن يروقها ، وقد ظن بها ذلك لما رآه من اعتيادها الاسراف .

ومع ذلك فإن ايما كانت تكبح عدداً من نزواتها المسرفة ، كرغبتها في ان تمتلك عربة فخمة زرقاء يشدها حصان انجليزي ، ويقودها سائس في حذاء طويل مثني لكي تحملها الى روان . وكان جوستان هو الذي اوحى اليهـا بهذه النزوة ، وهو يضرع اليها ان تأخذه عندها كخادم عربة . وهذا الحرمان لم يكن يضعف من سرورها بكل لقاء ؛ وان كان يزيد بلا ريب من مرارة العودة .

وعنـدما كانا يتحدثان عن باريس كثيراً ما كانت تنتهي بان تتمتم قائلة : « آه . كم نكون سعداء لو عشنا هناك ! »

وكان الشاب يجيب في رفق وهو يمر بيده فوق جدائل شعرها : « او لسنا سعداء ؟ »

فتقول : « نعم . هذا حق . انني مجنونة — قبلني ! »

لقد اصبحت بالنسبة لزوجها اكثر سحراً من أي يوم مضى . فهي تصنع له الكريمة بالفستق ، وتعزف الفالس بعد العشاء . وهكذا وجد نفسه أسعد البشر ! وعاشت ايما بدون قلق ، حتى كان مساء قال فيه شارل فجأة : « ان الآنسة لميرور هي التي تعطيك الدروس أليس كذلك ؟ »

– نعم !

فاستأنف شارل قائلاً : « ولكنني قابلتها منذ هنيهـة عند مدام ليبجار . وقد تحدثت اليها عنك ، ولكنها لا تعرفك ! »

وكانت هذه العبارات كالصاعقة ، ولكنها مع ذلك ردت في نغمة طبيعية : « آه ... إنها بلا شك قد نسيت اسمي ؟ »

وقال الطبيب « ولكن ربما كان في روان عدة آنسات يحملن الاسم « لمبرور » ويدرسن البيانو ! »

– هذا ممكن !

ثم قالت في حدة : « ومـع ذلك فإن لدي الإيصالات ! ... انتظـر ! » .

وذهبت الى الصوان حيث اخذت تفتش في الأدراج وتقلب الأوراق، وانتهت بأن اصابها الدوار ، حتى ان شارل دعاها في قوة الى ألاّ تتعب نفسها كل هذا التعب من أجل ايصالات تافهة !

وقالت : « أوه ! .. سوف أجدها ! »

وبالفعل في يوم الجمعة التالي بينما كان شارل يلبس أحد أحذيته في الغرفة المظلمة التي تحوي ملابسه ، أحس بورقة بين الجلد وجوربه ، فأخذها وقرأ : « وصل لدروس ثلاثة أشهر وتوريدات مختلفة بمبلـغ خمس وستين فرنكاً . »

فيليسيه لمبرور

« مدرسة موسيقى »

وقال شارل : « ولكن كيف وصلت هذه الورقة الى حذائي ؟ »

فأجابت « إنها بلا ريب سقطت من ملف الايصالات الموضوع على حافة الرف » .

ومنذ تلك اللحظة لم تعد حياتها غير سلسلة من الأكاذيب التي كانت تلف فيها حبها – وكأنها اوشحة – لكي تخفيه .

واصبح الكذب بالنسبة اليها حاجة وولع ولذة ، الى حد انها اذا قالت انها قد مرت بالأمس من الناحية اليمنى لأحد الشوارع ، كان من الواجب ان نعتقد انها مرت من الناحية اليسرى !

وذات صباح سقط الجليد فجأة بعد ان كانت قد سافرت بملابس خفيفة كعادتها . وبينما كان شارل ينظر الى الجو من النافذة ، رأى السيد بورنسيان في عربة السيد تيفاسن وهو يقودها الى روان . وعندئذ نزل لكي يعطي القس شالاً سميكاً ليحمله الى السيدة بمجرد ان يصل الى فندق « الصليب الاحمر » . وبمجرد ان وصل بورنسيان الى الفندق سأل أين زوجة طبيب ايونفيل . فأجابت صاحبة الفندق بأنها لا تتردد على فندقها الا قليلاً ، ولذلك عندما رأى القس مدام بوفاري في المساء في « العصفورة » قص عليها حيرته وارتباكه دون ان يبدو عليه انه يعلق اهتماماً على الموضوع ، وذلك لأنه ابتدأ الحديث عن موضوع آخر ، وهو ثناؤه على واعظ أخذ يثير الاعجاب في الكتدرائية ، وتتسابق السيدات لسماعه !

ولكن اذا لم يكن قد اهتم بأن يطلب ايضاحات ، فان غيره قد يكونون فيما بعد اكثر فضولاً . ولذلك رأت من المفيد ان تنزل كل مرة في فندق «الصليب الأحمر » بحيث ان أهل قريتها الذين يرونها في السلالم لا يشكون في شيء .

ومع ذلك فقد رآها السيد ليريه وهي تخرج من فندق بولوني متأبطة ذراع ليون . وتملكها الخوف ، متصورة انه قد يأخذ في الثرثرة ، وبخاصة وأنه ليس مغفلاً !

ولكنه بعد ذلك بثلاثة ايام دخل غرفتها واغلق الباب ، وقال : « إنني قد احتاج الى المال ! »

واعلنت انها لا تستطيع ان تعطيه شيئاً . فأخذ ليريه يئن ، ويذكرها بكل ما قدمه لها من خدمات .

والواقع ان ايما لم تكن قد دفعت حتى الآن غير قيمة واحدة من الكمبيالتين اللتين وقعهما شارل . اما الثانية فقد قبل التاجر – بناء على رجائها – ان يستبدلها بكمبيالتين ، بل وجددهما لمواعيد طويلــة . ثم استل من جيبه قائمة بالتوريدات التي لم يحــاسب على ثمنها ؛ وهي الستائر والسجادة وقماش الفوتيات وعدة اثواب وأدوات متنوعة للزينة ، يرتفع ثمنها الى مبلغ ألفي فرنك تقريباً !

وطأطأت رأسها فاستأنف يقول : « ولكن اذا لم تكن لديكم نقود سائلة فلديكم عقارات ! »

وحدد بيتاً حقيراً يقع في بارنفيل الى جوار اومال ، وهو لا يغل دخلاً كبيراً ، وكان فيما مضى ملحقاً بمزرعة صغيرة ابتاعها السيد بوفاري الأب ، وذلك لأن ليريه كان يعرف كل شيء ، حتى مقدار الهكتارات واسم الجيران !

وقال : « لو انني كنت في مكانكم لتخلصت من الدين ، وبقي لي بعد ذلك الفائض . »

واعترضت بصعوبة العثور على مشترٍ . فأعطاها الأمل بأن يجد مشترياً. ولكنها تساءلت عما يلزم لكي تستطيع ان تبيع .

فأجاب : « أليس لديك التوكيل ؟ »

فوصلت اليها هذه العبارة كهبة هواء رطب .

وقالت ايما : « اترك لي القائمة . »

فأجاب ليريه : « أوه ! .. لا داعي لهذا ! »

وعاد في الاسبوع التالي فخوراً بأنه قد استطاع بعد مساع جمة ان يكتشف المدعو لانجلوا ، الذي كان يتطلع الى البيت دون ان يفصح عن الثمن !

فصاحت : « الثمن لا يهم ! »

وكان الواجب – على العكس – الانتظار ، وجس هذا العملاق !

وكان الامر يستحق السفر ، ولكنها لما كانت لا تستطيع هذا السفر فقد عرض ان يذهب هو الى المكان ، لكي يتشافه مع لنجلوا . وبمجرد عودته أعلن ان المشتّري قد اقترح اربعة آلاف .

وتهللت ايما لهذا الخبر .

واضاف : « بصراحة هذا ثمن طيب ! »

وقبضت نصف المبلغ فوراً . وعندما اخذ التاجر يصفي خسابه قال : « بشرفي انه ليؤلمني ان اراك تدفعين مرة واحدة مثل هذا المبلغ المحترم . »

وعندئذ نظرت الى اوراق البنكنوت وهي تحلم بعدد المواعيد التّي لا حصر لها والتّي يمثلها هذان الألفان من الفرنكات .

وتمتمت قائلة : « كيف ؟! ... كيف ؟! ... »

فأجاب وهو يضحك في مظهر وديع : « أوه ... إن الانسان يضع كل شيء على الحساب ... أو لست اعرف المنازل ؟ »

واخذ يحدق فيها وهو يمسك في يده قائمتين طويلتين يتحسسها بين أظافره . واخيراً فتح حافظته ونشر على المائدة اربعة كمبيالات كل منها بألف فرنك .

وقال « وقّعي لي هذه ، واحتفظي بالكل ! »

واستنكرت قوله مشمئزة .

ولكنه اجاب في وقاحة قائلاً : « ولكنني اعطيك الفائض ... أليس في ذلك خدمة لك انت ؟! »

ثم اخذ قلماً وكتب في اسفل قائمة الحساب : « وصل من مدام بوفاري اربعة آلاف فرنك » واضاف قائلاً : « ماذا يقلقك ما دمت ستتسلمين بعد ستة اشهر متأخر ثمن منزلك ، وما دمت قد حددت ميعاد آخر كمبيالة لما بعد الدفع ؟ »

وارتبكت ايما قليلاً في هذه الحسابات ، وأخذت أذناها تطنان ، كأن قطعة

من الذهب قد شقت اكياسها واخذت ترن حولها على الارض . واخيراً اوضح ليريه ان له صديقاً اسمه فانسار صاحب بنك في روان وانه سيخصم هذه الكمبيالات الأربعة ، ثم انه سيدفع بنفسه الى السيدة ما يفيض عن الدين الحقيقي .

ولكن بدلاً من الفي فرنك لم تفز الا بألف وثمانين ، وذلك لأن الصديق فانسار قد اخذ مائتين كمصاريف عمولة واجرة خصم !

ثم طلب فتظاهر بعدم الاكتراث ان تكتب له وهو يقول : « انت تعرفين .... في التجارة ... احياناً .... ومع التاريخ من فضلك – التاريخ .. »

وانفتح عندئذ امام ايما أفق للنزوات الممكنة التحقيق . وكان لديها من الحزم ما دفعها الى ان تضع ألف فرنك من الاحتياطي . وبواسطتها استطاعت ان تدفع الكمبيالات الثلاثة الأولى عندما حل موعدها .ولكن الرابعة سقطت في المنزل مصادفة يوم خميس ، وانتظر شارل مضطرباً في صبر عودة امرأته ليطلب ايضاحات .

واذا كانت لم تخبره بهذه الكمبيالة فانما كان ذلك لكي تجنبه الهموم المنزلية ! وجلست فوق ركبتيه وداعبته وناغته ، واخذت تعدد قائمة طويلة من الأشياء الضرورية التي اخذتها على الحساب .

واضافت قائلة : « ولا شك انك تقدر ان هذا الثمن ليس مرتفعاً بالنسبة لكثرة هذه الأشياء ! »

وعاد شارل الى ليريه الخالد بعد ان استنفد كل افكاره ، وأقسم التاجر ان يهديء الأمور اذا وقع السيد له كمبيالتين ، إحداهما بسبعمائة فرنك تدفع بعد ثلاثة اشهر . ولكي يغطي الموقف كتب الى امه خطاباً مؤثراً ، ولكنها بدلاً من ان ترد ، حضرت بنفسها . وعندما ارادت ايما ان تعرف ما اذا كان قد استخلص منها شيئاً أجاب قائلا : (نعم !) ولكنها طلبت ان تطلع على الحساب .

وفي اليوم التالي اسرعت إيما عند بزوغ الشمس الى السيد ليريه لكى ترجوه ان يعد قائمة حساب اخرى لاتتجاوز الالف فرنك . وذلك لانه لكي تظهر كمبيالة الاربعة آلاف كان لا بد ان تقول انها دفعت الثلثين ، وان تعترف تبعا لذلك ببيع العقار الذي احسن التاجر المساومة عليه ، والذي لم تعلم ببيعه فعلا الا بعد ذلك .

وبالرغم من رخص ثمن كل سلعة فان مدام بوفاري الأم لم يفتها ان تلاحظ المبالغة في المصروف .

واضافت قائلة (او لم يكن من الممكن الاستغناء عن سجادة ؟ وما الداعي الى تجديد قماش الفوتيات ؟ في ايامنا لم يكن في المنزل غير فوتي واحد للمسنين ، او على الاقل كان هذا هو الحال عند امي التي كانت سيدة ممتازة . أؤكد لكم ان كل انسان لا يستطيع ان يكون غنياً ! ان اية ثروة لا تستطيع ان تثبت على الاسراف ! انه ليخجلني ان ادلل نفسي كما تفعلون ! ومع ذلك فانا عجوز وفي حاجة الى العناية . ما هذه (الأنتكة والفخفخة) : حرير للبطانة بفرنكين بينما يوجد قماش بنصف فرنك بل وربع فرنك يؤدي نفس الغرض)

واجابت إيمـا في هدوء مطلق وهي منطرحة على المقعد (ايه يـا سيدتي . . كفى . . . كفى . . .)

واستمرت الأخرى تعظها وتتنبأ بأنهما ستنتهيان الى المستشفى! كما ان الخطأ يعود الى بوفاري . وانه لمن حسن الحظ انـه وعـد بأن يلغي التوكيل .

– كيف ؟

– آه ، لقد اقسم لي بذلك

وفتحت إيما النافذة ونادت شارل . واضطر المسكين الى ان يعترف بالوعد الذي انتزعته امه .

واختفت إيما ثم عادت مسرعة وهي تمد اليه في عظمة ورقة ضخمة.

فقالت السيدة العجوز : « اشكرك » !.

ورمت التوكيل في النار !

واخذت إيما تضحك ضحكا صارخا صاخبا مستمراً . اذ انها قد اصيبت بازمة عصبية . وصاح شارل قائلا : «آه ... يا الهي ... انك انت الاخرى مخطئة . لقد اتيت لتشني عليها معركة !»

وهزت امه كتفها وادعت ان كل هذا ليس الا تمثيلا .

ولكن شارل – الذي ثار لأول مرة – اخذ جانب الدفاع عن امرأته ، حتى ان مدام بوفاري الأم، ارادت ان ترحل . وفي اليوم التالي رحلت بالفعل ،وعندما اراد شارل ان يثنيها عن الرحيل وهي واقفة على العتبة اجابت قائلة « لا لا ...انك تحبها اكثر مني ! سوف ترى ...اتمنى لك العافية . . . وذلك لانني لست مستعدة لان اشن عليها معارك كما تقول ! »ومع ذلك لم يكن شارل اقل ارتباكاً إزاء إيما التي لم تخف الموجدة التي بقيت في نفسها من نقص ثقته فيها . وكان لا بد من عدة ضراعات قبل ان توافق على استرداد توكيلها ، بل واصطحبها عند السيد جيوما لكي يحرر لها توكيلا ثانيا مشابها تماما للأول .

وقال الموثق : انني افهم ذلك ، فرجل العلم لا يستطيع ان يشغل نفسه بتفاصيل الحياة العملية .

واحس شارل بالراحة عندما سمع هذه العبارات الماكرة التي تضفي على الضعف مظاهر خداعة من الاهتمام بامور اكثر سمواً .

اية انفعالات كانت تلك التي شهدتها غرفة الفندق في الخميس التالي مع ليون ! فقد ضحكت وبكت وغنت ورقصت وطلبت مثلجات من عصير الفاكهة الممزوج بالخمر ، وارادت ان تدخن السجاير ، وبدت له مسرفة ولكن ساحرة رائعة . ولم يدر اي تفاعل في شخصها كان ذلك الذي يدفعها – اكثر من ذي قبل – الى التهالك على لذات الحياة . وقد اصبحت عصبية ، نهمة شهوانية . واخذت

تتنزه معه في الشوارع رافعة الرأس ، ودون خوف — فيما تقول — من الفضيحة . ومع ذلك فان إيما كانت ترتعد احيانا عندما تمر برأسهــا فجأة فكرة الالتقاء برودلوف ، وذلك لانه كان يلوح لها انها لم تتحرر تحرر مطلقا من التعلق به ، بالرغم من انهما قد افترقا الى الابد .

وذات مساء لم تعد الى ايونفيــل ، فطار صواب شارل ، ولم ترد الصغيرة برت ان تنام بدون امها ، فأخذت تبكي بكاء كاد يصدع صدرها . وانطلق جوستان على الطريق دون هدف ، وترك السيد هوميه صيدليته بسبب هذا الحادث .

واخيراً في الساعة العاشرة نفد صبر شارل،فأعد عربته وقفز فيهــا وساط الدابة ، ووصــل حوالي الساعة الثانية صباحا الى فندق الصليب الاحمر ؛ ولكنه لم يجدها . وظن ان الكاتب قد رآها،ولكن اين يقيم ؟ ومن حسن الحظ تذكر شارل عنوان رئيسه ، فاسرع الى هناك .

كان النهار قد اخذ يظهر ، ورأى لافتة على باب فندق . وصاح شخص من الداخل دون ان يفتح ، مقدما المعلومات التي طلبها ، وهو يسب اولئك الذين يقلقون الناس في الليل .

وكان المنزل الذي يقطنه الكاتب ليس لهجرس ولا مدقة ولا بواب ، فاخذ شارل يضرب بقبضة يده ضربات قوية على خشب النوافذ . ومر شرطي فتملكه الخوف ، وانصرف وهو يحدث نفسه قائــلا (انني مجنون ... انهم بلا ريب قد استبقوها لتناول العشاء عند السيد لورمو)

ولم تكن اسرة لورمو تقيم بعد في رواق .فحدث نفسه ثانية قائــلا (انها قد تخلفت للعناية بمدام دى بروى ... آه ! ان مــدام دى بروى قد ماتت منذ ستة اشهر . . اين هي اذن ؟)

وجاءته فكرة . فطلب من مقهى دفتر التلفون ، وبحث في سرعةعن مدموازيل لاميرو التي تقيم في شارع وينيل دي ماروكينيه رقم ٧٤ .

وبينما هو يدخل في هذا الشارع اذ بإيما تظهر هي نفسهاعند الطرف

الآخر ، فرمى نفسه عليها في تهالك اكثر من عناق ، وهو يصيح : ما الذي استبقاك امس ؟

– لقد كنت مريضة .

– بأي مرض ؟ ... اين ؟ ... كيف ؟ ...

ومرت بيدها فوق جبهتها ثم اجابت « عند مدموازيل لامبرور »

– لقد كنت متأكدا من هذا ، وكنت ذاهبا الى هناك.

فقالت إما : «اوه! لا داعي لذلك ،فقد خرجت منذ هنيهة. ولكن في المستقبل اطمئن ! فانا –كما تقدر – لن اكون حرة اذا كنت اعلم ان اقل تاخير يزعجك على هذا النحو.»

وكان هذا بمثابة تصريح اعطته لنفسها بألا تخرج في شطحاتها . وعندما كانت تحس برغبة في رؤية ليون كانت تنتحـــل اي سبب ! ولما كان لا ينتظرها في مثل ذلك اليوم ، فانها كانت تذهب لتستحضره من مكتبه . وقد وجد سعادة كبيرة في الأيام الأولى ، ولكن بعد قليل لم يعـــد يخفي الحقيقة ، وهي ان رئيسه قد اخذ يشكو من هـــذا الاضطراب في العمل . وكانت تقول (آه ... ياه.. تعال اذن ..)

وكان يطيع .

وارادت ان يلبس ملابس سوداء ، وان يطلق عثنونا في ذقنه لكي يشبه صور لويس الثالث عشر ! كما ارادت ان تعرف مسكنه ،ووجدته حقيرا ، ولكنه لم يخجل ، ولم تهتم بذلك . ثم نصحته بان يشتري ستائر شبيهة بستائرهـــا . وعندما احتج بالتكاليف قالت وهي تضحك: (آ .. آه ! انك حريص على دريهماتك !)

وكان من الواجب على ليون ان يقص عليها كل مرة سلوكه كله منذ اللقاء الاخير . وكانت تطلب اشعاراً ... إشعاراً من اجلها ... قصيدة غرام تمجدها ! ولكنه لم يصل قط الى ان يقع على قافية البيت الثاني ؛ وانتهى بان نسخ مقطوعة من مجموعة اشعار .

لم يكن هذا ارضاء لغروره فحسب بل كان ايضاً لمجرد ارضائها، فانه لم يكن يناقش آراءها ، وكان يوافق على كل رغباتها ، وقد اصبح عشيقها بدلا من ان تصبح عشيقته ! وكانت لها عبارات حنونة ، وقبلات تطير بروحه. ولكن اين تعلمت هذا الاغراء الذي يكاد لايكون مادياً لفرط عمقه وتنكره ؟

* * *

في الرحلات التي كان يقوم بها ليون لرؤيتها ، كثيراً ما كان يتناول طعامه عند الصيدلي ، ولذلك رأى نفسه مضطراً بحكم اللياقة الى ان يدعوه هو الآخر الى الطعام .

فاجاب السيد هوميه : «بكل ارتياح ! وذلك فضلا عن حاجتي الى التجديد قليلا لأنني قد اخذت اصدأ هنا . وسوف نذهب الى المسرح ، والمطعم،ونأتي ما نشاء من مرح »

وتمتمت مدام هوميه في حنان ، وقد ازعجتها الاخطار الغامضة التي قد يتعرض لها : « آه يا عزيزي ! »

فقال الصيدلي : «ثم ماذا؟هل ترين انني لا ادمر صحتي التدميرالكافي بالحياة وسط هذه الروائح المنبعثة باستمرار من الصيدلية ؟ ولكن هذا هو خلق النساء ! إنهن غيورات من العلم ، ومع ذلك يأبين ان يتمتع الانسان بأية تسرية مشروعة . ولكن ثقي،على اي حال،بانني سوف اسقط يوما على روان ، واننا سنطيح سوياً بالنقود ! »

كان الصيدلي فيما مضى يحذر مثل هذه العبارة ، ولكنه اخذ الآن يظهر بالمظهر الباريسي المستخف الذي رآه ملائماً للذوق الرفيع ، وأخذ يسأل — كجارته مدام بوفاري — الكاتب في نهم عن اخلاق العاصمة ، بل وأخذ يتحدث بلهجتها الخاصة لكي يدهش من حولهمن البرجوازيين فيقول « يسخن الطاسة » و« يسلطن » و « يتجلى » ... الخ

وهكذا دهشت ايما في يوم خميس بأن تلقي في مطبخ « الاسد الذهبي » السيد هوميه في حلة السفر ، اي مغطى بمعطف قديم لم يكن معروفاً انه يمتلكه ، بينما يحمل في احدى يديه حقيبته وفي اليد الاخرى الوجاء الذي يدفىء فيه قدميه وهو في الصيدلية . ولم يخبر احداً بمشروعه خوفاً من ان يقلق الجمهور ا. ابه !

كانت تثيره فكرة رؤية الإماكن التي قضى فيهـــا شبابه من جديد ، ولذلك لم يتوقف عن الكلام طوال الطريق . وبمجرد ان وصل قفز من العربة في سرعة ، واخذ يبحث عن ليون ، الذي حاول عبثاً ان يتخلص منه . فان السيد هوميه قد جره الى مقهى نورمانديا الكبير الذي دخله في عظمة دون ان يخلع قبعته ، مقدراً ان خلعها في مكان عام دليل قوي على الريفية !

وانتظرت ايما ليون ثلاثة ارباع الساعة ، واخيراً اسرعت الى مكتبه ، وقد ضلت في الافتراضات ، فاتهمته بعدم المبالاة ، كما اتهمت نفسها بالضعف ، وأمضت بعد الظهر ملصقة الجبين بزجاج النافذة .

كانا في الساعة الثانية لا يزالان متربعين على المائدة ، أحدهما امام الآخر ؛ وقد اخذت الصالة الكبرى تخلو من الناس ، ومواسير المدفأة تستدير في السقف الابيض في صورة شجرة نخيل ذهبية السعف ، وبالقرب منهما – خلف الزجاج وتحت اشعة الشمس – كانت تخر نافورة ماء صغيرة في حوض من الرخام به الى جوار الجرجير والهليون – ثلاثة من ابو جلمبو متصلبة وممتدة حتى كومة من السمان المضطجع على جنبه !

كان هوميـــه منتشياً ، ولو انه كان ثملاً بالبذخ اكثر منه بجودة الطعام ، وان يكن نبيذ بومار قد اثار قليلاً من ملكاته . وعندما ظهرت العجة بالروم اخذ يعرض عن النساء نظريات لاأخلاقية . كان اهم ما يجذبه هو الاناقة ، فهو يعبد زينة انيقة في جناح حسن الاثاث . وأما عن الصفات الجسمية فانه لم يكن يكره « الكتلة » !

وكان ليون يرقب الساعة الدقاقة في يأس ، بينما الصيدلي يشرب ويأكل ويتكلم !

وقال فجـأة : « لا بد انك محروم في روان ، وان يكن احبابك لا يقيمون بعيداً من هنا ! »

وعندما اخذت الحمرة تعلو وجه الآخر ، اضاف قائلاً : « هيا ! فلنكن صرحاء ! هل تنكر انك في ايونفيل ...؟ »

فتمتم الشاب ، وأضاف الصيدلي : « عند مدام بوفاري أوما تداعب ...؟ »

– من ؟

– الخادمة !.

لم يكن الرجل يمزح ، ولكن الغرور تغلب عند ليون – رغم انفه – على الحذر ، فاستنكر ما سمع ! ثم انه لم يكن يحب غير السمراوات .

وقال الصيدلي : « اني اؤيدك ، فإنهن اكثر حرارة ! »

ومال على أذن صديقه وأخذ يوضح الإمارات التي بواسطتها تعرف المرأة الحارة المزاج ! ثم انطلق في استطراد عن علم الاجناس ، فالالمانية خيالية ، والفرنسية اباحية ، والايطالية انفعالية !

وسأل الكاتب : – والزنجيات ؟

فقال هوميه : – « هذا ذوق الفنان ! »

ثم نادى الجرسون وطلب كأسين .

فقال ليون وقد نفد صبره في النهاية : « هل ننصرف ؟ »

فاجاب الصيدلي بالانجليزية : « نعم ! »

ولكنه اراد قبل ان ينصرف ان يرى صاحب المطعم ، وان يقدم اليه بعض التهاني !

وعندئذ ادعى الشاب ان لديه بعض المهام ، وذلك لكي يخلو بنفسه .

فقال هوميه : « آه ! سأصطحبك ! »

وبينما هو ينحدر معه في الشوارع اخذ يتكلم عن زوجته ، وأولاده ومستقبلهم ، وصيدليته ، ويقص ما كانت عليه من تدهور فيما مضى ، ودرجة الكمال التي وصل بها اليها !

وعندما وصلا الى فندق بولون تركه ليون فجأة ، وتسلق السلم ، ووجد عشيقته في انفعال شديد .

وعندما سمعت اسم الصيدلي اخذها الغضب ، ولكنه اخذ يعدد الأعذار ، فالخطأ لم يكن خطأه ، وهل هي تجهل السيد هوميه ؟! وهل يمكن ان تعتقد انه يفضل صحبته ؟ ولكنها دارت على عقبيها ، فأمسك بها وجثا على ركبتيه ، ولفّ ذراعيه حول خصرها في وضع مدله مليء بالشهوة والضراعة .

كانت واقفة ، وعيناها الكبيرتان الملتهبتان تنظران اليه في جد بل وفي هيئة تكاد تكون مخيفة ، ثم غامت عيناها بالدموع ، وانسدل جفناها الورديان ، وارتجت يداها فحملها ليون الى فمه ، عندما ظهر خادم يخبر السيد ان هناك احداً يطلبه .

فقالت : « انك ستعود ؟ »

– نعم !

– ولكن ؟

– فوراً !

وقال الصيدلي عندما لمح ليون : « انها حيلة اردت بها ان اقطع هذه الزيارة التي لاح لي انها تضايقك ! هيا ! فلنذهب الى بار بريدو لنتناول كوباً من المغات ! »

فأقسم ليون بأنه مضطر ان يعود الى المكتب ! وعندئذ اخذ الصيدلي يرسل النكات عن الاضابير والاجراءات القضائية !

وقال : « فلتترك قليلاً فقهاءك كيجاس وبيرتول وغيرهما ! ومن الذي يمنعك ؟ كن شجاعاً ! وهيا الى محل بريدو وسوف ترى كلبه .

انه كلب عجيب ! »

وعندما ظل الكاتب مصراً على الامتنـــاع عن الذهاب قال هوميه : « سأذهب الى هناك انا ايضاً، وسوف اقرأ جريدة في انتظارك او اقلب صفحات مجموعة قوانين! »

وظل ليون متردداً ورأسه يدور من غضب ايما وثرثرة السيد هوميه ، بل وربما من ثقل الطعام ! وكان الصيدلي قد أخذ يغريه وهو يردد : « هيا الى محل بريدو ! انه على مسافة خطوتين في شارع ملبالي ! »

وعندئذ استسلم منساقاً الى محل بريدو عن جبن او غفلة ، او عن ذلك الشعور الغامض الذي يسوقنا نحو الاشياء التي نبغضها اشد البغض . ووجدا بريدو في الفناء الصغير ، حيث كان يلاحظ ثلاثة غلمان يلهثون وهم يريدون عجلة كبيرة لآلة ضخمة تصنع المياه الغازية ، فاعطـــاهم هوميه بعض النصائح ، وقبل بريدو ، وشربا المغات. وأراد ليونُ عشرين مرة ان ينصرف ، ولكن الآخر كان يمسكه من ذراعه قائلاً « بعد هنيهة ! سأخرج وسنذهب الى جريدة فنال دي روان لنرى اولئك السادة ، وسوف اقدمك الى توماسان ! »

ومع ذلك تخلص منه وجرى وثباً حتى الفندق ، ولكن ايما كانت قد غادرته !

كانت قد رحلت ثائرة وقد اصبحت الآن تبغضه ، ولاح لها اخلاله بالموعد اهانة ، كما بحثت عن اسباب اخرى لتنفصل عنه فهو غير قادر على البطولة ، ضعيف مبتذل ، اكثر رخاوة من امرأة ، فضلاً عن انه بخيل منعدم النخوة ! »

ثم أخذت تكتشف ،عندما هدأت ،انها بلا ريب قد اغتابته ، ولكن انتقاصنا لمن نحب لا بد ان يقصينا عنهم قليلاً ، فالأصنام المعبودة لا يجب ان تمس ، والا فقدت طلاءها الذهبي الذي يلتصق عندئذ بأيدينا .

ثم اصبحا يتحدثان عن اشياء بعيدة عن حبهما ، وفي الخطابات التي

كانت ترسلها اليه ايما كان يجري الحديث عن الزهور والاشعار والقمر والنجوم ، وكلها رسائل بدائية لغرام اصابه الضعف ، وأخذ يحاول ان ينتعش بالمساعدات الخارجية ! وكانت تعد نفسها بسعادة عميقة في كل رحلة مقبلة ، ثم كانت تعترف بأنها لم تحس بشيء خارق للعادة . ولكن هذه الخيبـــة كانت تمحي تحت تأثير امل جديد ، فتعود ايما اليه اكثر اشتعالاً ونهماً ، فكانت تتعرى في عنف ، وتنتزع شريط صدارها الرفيع الذي يدور حول ردفيها كما يتسلل الثعبان . وكانت تذهب على اطراف اصابعها العارية لكي تتأكد مرة اخرى من ان الباب مغلق ، ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة ، وتتهالك على صدره في رعشة طويلة ، شاحبة صامتة جادة !

ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفوق شفتيها المتمتمتين ، وفي حدقتيها الضالتين ، وفي ضمة ذراعيها إسراف غامض مقبض ، يلوح لليون انه ينساب بينهما في تسلل وكأنه يود ان يفصل بينهما !

لم يجرؤ ان يلقي عليها اسئلة . ولكنه لما كان يدرك انها ذات خبرة ، فقد قال لنفسه انها لا بد قد مرت بكافة تجارب الألم واللذة . وما كان يسحره فيما مضى اصبح الآن يخيفه قليلاً . وفوق ذلك فانه اخذ يثور على امتصاصها لشخصيته امتصاصاً يتزايد يوماً بعد يوم ، حتى لقد أخذ يحقد على ايما هذا الانتصار الابدي ! بل وحاول ان لا يهتم بها ، ولكنه بمجرد سماعه وقع اقدامها كان يحس نفسه جباناً ، كمدمني الخمر عندما يرون شراباً قوياً !

ومع ذلك فانها في الحق لم تتخل عن ان تحيطه بأنواع من الرعاية ، فمن طيبات المائدة الى اناقة الملبس ، الى هيام النظرة . وكانت تستحضر من ايونفيل الورد في صدرها لكي تلقيه في وجهه ، كما كانت تظهر القلق على صحته وتقدم له النصائح عن سلوكه . ولكي تستبقيه مرة أطول

ــ وقد رجت ان تساعدها العناية الإلهية على ذلك ــ طوقت عنقه بنوط للعذراء . وكانت تسأله ــ كأم فاضلة ــ عن رفاقه ، وتقول له : « لا ترهم ، ... لا تخرج ... لا تفكر الا فينا ... احبني ! »

وكانت تود ان لو راقبت حياته ! وطرأت عليها فكرة تكليف بعض الاشخاص بمتابعته في الشوارع ! وكان هناك دائماً الى جوار الفندق متسول شريد كان يقطع الطريق على المسافرين ولم يكن ليرفض ...... ولكن كبرياءها ثارت ، فقالت : « ايه ..! فليكن !.. وليخنّي ... ان هذا لا يعنيني ! هل انا متمسكة به ؟ »

وفي احد الايام افترقا في وقت مبكر ، وعادت وحدها عن طريق البولفار ، فلمحت جدران ديرها . وعندئذ جلست على مقعد في ظل اشجار الدردار . ايّ هدوء كان في ذلك الزمن ! وكم تتمنى تلك المشاعر الغرامية الغامضة التي كانت تحاول ان تتصورها كما توحي بها الكتب !

والاشهر الاولى لزواجها ، والنزهات على صهوة الجواد في الغابة ، والفيكونت الذي كان يرقص الفالس ، ولاجارديه وهو يغني ــ كل هذا مر امام عينيها . ولاح لها ليون فجأة على نفس البعد الذي يفصلها عن الآخرين !

وقالت لنفسها : « ومع ذلك فإني احبه ! »

وعلى اية حال، فانها لم تكن سعيدة ، ولا كانت سعيدة قط ! ومن اين يأتي اذن هذا النقص في الحياة ، وهذا التعفن السريع الذي يصيب كل ما تتكيء عليه ؟... ولكن اذا كان في مكان ما شخص قوي جميل ذو طبيعة ممتازة ، مليء بالحماسة والرهافة معاً . قلب شاعر في مظهر ملاك ، عود ذو اوتار من نحاس ترتفع للسماء نغماته وهو يعزف اناشيد الزفاف العاطفيـــة ، فلماذا لا تلقاه مصادفة ؟ أوه ! يا له من مستحيل !! وفوق ذلك فلا شيء يستحق عناء البحث ، وكل شيء خادع !... كل ابتسامة تخفي تثاؤب ملل ، وكل نشوة لعنة ، وكل لذة تقززاً ، وأحلى

القبلات لا تترك فوق الشفة الا رغبة مستحيلة في لذة أقوى !

انسابت حشرجة معدنية في الهواء ، وسمعت اربع دقات من جرس الدير . الساعة الرابعة !؟ ... ولاح لها انها كانت هنـاك فوق هذا المقعد منذ الأبد . ولكن عدداً لا نهاية له من الانفعالات ، يمكن ان ينحصر في دقيقة واحدة ، كجمهور من الناس في مكان صغير !

كانت ايما تعيش مشغولة بنزواتها انشغالاً تاماً ، دون ان تعنّي نفسها بمسألة المال ، اكثر مما تعني بها نفسها ارشيدوقة !

ومع ذلك حدث ذات مرة ان دخل عندها رجل هزيـل المظهر ، ضارب الى الحمرة ، اصلع ، معلناً انه مرسل من السيد فانسار المقيم في روان . وانتزع الدبابيس التي كانت تغلق الجيب الجانبي لردنجوته الطويل الاخضر ، وغرسها في كمه ، ثم مد يده في تأدب ورقة!

كانت كمبيالة بسبعمائة فرنك مقيدة عليها ، وكان ليريه قد حولهـا لأمر فانسار بالرغم من معارضتها القوية .

وأرسلت خادمتها الى منزله ، ولكنه لم يستطع ان يحضر .

وعندئذ اخذ الرجل المجهول الذي ظل واقفاً يتطلـع يمنة ويسرة بنظرات مستطلعة ، يخفيها حاجباه الشقراوان السميكان – أخذ يسأل في مظهر ساذج : « اي جواب احمل للسيد فانسار ؟ »

وأجابت ايما « حسن ، قل له ... انـه ليس عندي ... وسيكون عندي في الاسبوع المقبل ... فلينتظر ... نعم ! الاسبوع المقبل !»

وانصرف الرجل دون ان ينبس بكلمة .

ولكنها تسلمت في اليوم التالي عند الظهر إنذاراً . وقد افزعها فزعاً شديداً منظر ورقة الدفعة ، وقد انتشر فوقها في عدة مواضع ، وبأحرف كبيرة « الاستاذ هاران – محضر بوشيه » حتى انها انطلقت عادية الى منزل بائع القماش !

وجدته في دكانه مشغولاً بحزم لفة .

فقال : « خادمك ! انا تحت الأمر ! »

ومع ذلك استمر لبريه في عمله، تعاونه بنت صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها تقريباً ، محدودبة الظهر قليلاً ، وهو يستخدمها كساع وطاهية في الوقت نفسه .

ثم دقّ بحذائه فوق خشب ارضية الدكان ، وصعد امام السيدة الى الدور الأول ، وأدخلها في غرفة مكتب ضيقة حيث كان مكتب سميك من خشب الأنقاض ، فوق بعض السجلات ، التي يضمها ضماً افقياً عمود من الحديد مثبت بقفل . والى جوار الحائط تحت قصاصات من القماش كانت تُلمح خزانة ، ولكنها في حجم يدل على انها كانت تحتوي شيئاً آخر غير الكمبيالات والنقود . والواقع ان السيد لبريه كان يقرض على رهونات ! وفي هذه الخزانة كان قد وضع سلسلة مدام بوفاري الذهبية ، مع اقراط الأب تيلييه المسكين الذي اضطر الى ان يبيعها ، واشترى من كوانكانيوا بقالة هزيلة مات فيها من الربو ، وسط شمعداناته التي كانت أقل اصفراراً من وجهه !

وجلس لبريه في فوتيه الضخم المصنوع من القش وهو يقول : « ماذا جد ؟ » .

فأطلعته على الورقة وهي تقول : « خذ ! »

ـ ولكن ماذا استطيع ؟!

فثارت غاضبة وهي تذكره بوعده بأن لا يدفع كمبيالاتها الى التداول ـ فأمّن على هذا القول ، ولكنه اضاف : « ولكنني كنت مضطراً انا نفسي اذ كانت السكين مسلطة على عنقي ! »

فقالت : « وما الذي سيحدث الآن ؟ »

قال : « اوه ! الحكاية بسيطة : حكم من المحكمة ثم حجز ... أمر تافه ! »

وكبحت ايما نفسها حتى لا تضربه ! وسألته في رفق عما اذا كانت

هناك وسيلة لتهدئة السيد فانسار .

فقال : « حسن ! ... نعم ! .. تهدئة فانسار ! انك لا تعرفينه ! انه اكثر وحشية من وحش كاسر ! »

ومع ذلك كان لا بد من ان يتدخل السيد لبريه في الأمر .

فقال « انصتي الي اذن ! يلوح لي انني حتى الآن كنت طيباً معك الى حد بعيد ! »

ثم فتح احد سجلاته وقال : « انظري ! »

واخذ يصعد في الصفحة بأصبعه وهو يقول : « انظري ... انظري ... في ٣ أغسطس : مائتا فرنك ... و ١٧ يونية مائة وخمسون .. ٢٣ مارس ستة واربعون ... وفي ابريل ... »

وتوقف كأنما يخشى ان يرتكب حماقة !

ثم اضاف : « وانا لا اقول شيئاً عن الكمبيالات المقيدة على حساب السيد : واحدة بسبعمائة فرنك ، واخرى بثلاثمائة . واما عن قروضك الصغيرة ، وعن الفوائد فهذا امر لا ينتهي ، وان الانسان ليضل فيه ! ولن أتدخل فيه بعد الآن ! »

وأخذت تبكي ، بل ونادته بقولها : « يا سيدي الطيب لبريه ! »

ولكنه كان يلقي التبعة دائماً على هذا الكلب فانسار ! وفوق ذلك فانه ليس لديه سنتيم واحد ! ولا احد يدفع له الآن ! بل انهم ليأكلون الصوف من فوق ظهره ! وصاحب دكـــان فقير مثله لا يستطيع ان يقرض !

وصمتت ايما ، فأخذ القلق يساور لبريه الذي اخذ يعض ريشة الكتابة. فقد استأنف قائلاً : « لو انه اصبح لي يوماً شيء من الدخل ... اذن لاستطعت ... »

وقالت : « وعلى أية حال فتأخر بارنفيل عندما ... »

– كيف ؟ ...

وعندما علم ان لانجلوا لم يكن قد دفع بعد ، لاحت عليه الدهشة ، ثم قال بصوت معسول :

– ونتفق كما تقولين ... ؟

– اوه ... نتفق كما تشاء !

وعندئذ اغلق عينيه لكي يفكر ، وكتب بعض ارقام ، واعلن ان في الأمر مشقة كبيرة وانه امر شائك ، وانه يتزف ماله ، وأملى اربع كمبيالات كل منها بمائتين وخمسين فرنكاً بتواريخ استحقاق متدرجة بين كل تاريخ وآخر فترة شهر .

واضاف قائلاً : «كل هذا على ان يستمع لي فانسار. وفضلاً عن ذلك فأنا لا اماطل . وقد اتفقنا ! وانا رجل مستقيم كحد السيف ! »

ثم اطلعها في غير اكتراث على عدة سلع جديـــدة وان لم تكن اي منها في نظره جديرة بالسيدة !

واضاف قائلاً « عندما ارى ثوباً كهذا بثلث فرنك المتر ومضمون الصبغة ! ... ومع ذلك يصدقون هذا ! والواقع انهم لا يذكرون لهم الحقيقة . »

وقد اراد بهذا التصريح الماكر عن الآخرين ، ان يقنعها اقناعاً تاماً بنزاهته !

ثم دعاها لكي يطلعها على ثلاثة أذرع من الحرير كان قد عثر عليها اخيراً في احدى التصفيات .

وقال ليريه : « او ليس جميلاً ؟ ... انه يستخدم الآن كثيراً ، لتغطية ظهور الفوتيات . وهذه هي « الموضة » .

وفي خفة اسرع من خفة الحاوي ، لف الحريـــر في ورق ازرق ووضعه بين يدي ايما !

فقالت : « دعني على الأقل اعلم ... »

فقال وقد ادار لها ظهره : « آه !.. فيما بعد ! »

ومنذ المساء اخذت تستحث بوفاري ليكتب الى امه كي ترسل اليهم بسرعة متأخر التركة .

وردت حماتها بأنه لم يعد لديها شيء ، فالتصفية قد انتهت ، وقد بقي لهم – فضلاً عن بارنفيل – سمائة فرنك كدخل سنوي سوف ترسلها لهم كاملة بانتظام .

وعندئذ ارسلت ايما قوائم الحساب لعميلين او ثلاثة من المرضى ، ثم توسعت في استخدام هذه الوسيلة التي نجحت فيها . وكانت تحرص دائماً على ان تضيف في ذيل كل قائمة عبارة « لا تخبروا زوجي بشيء ، فأنتم تعلمون مبلغ كبريائه ... معذرة ... خادمتكم ... » وكانت هناك بعض مطالبات فأوقفتها .

ولكي تحصل على نقود اخذت تبيع قفازاتها وقبعاتها القديمة ، وكثيراً من الأشياء المهملة . وكانت تساوم في شدة . وكان دمها الريفي يدفعها الى الكسب . وفي اثناء رحلاتها الى المدينة كانت تتسوق بعض التوافه التي لا شك ان لبريه سيأخذها منها اذا لم تجد غيره . فكانت تشتري ريش نعام ، وخزفاً صينياً ، واصونة صغيرة . وكانت تقترض من فيليسيته ومن مدام لوفرانسوا ، ومن صاحبة فندق « الصليب الاحمر » ومن جميع الناس في أي مكان . واخيراً دفعت بالنقود التي استلمتها من بارنفيل قيمة كمبيالتين، وبددت الألف وخمسمائة فرنك الأخرى. ووقعت كمبيالات من جديد ، واستمرت هكذا على الدوام .

ومع ذلك فانها حاولت احياناً ان تدون حسابات ، ولكنها اكتشفت اشياء مرهقة الى درجة لم تستطع تصديقها . وعندئذ ابتدأت ترتبك بسرعة فتخلت عن كل شيء ، ولم تعد تفكر في شيء !

واصبح البيت الآن بالغ الكآبة . وكان الباعة يشاهدون وهم خارجون منه بأوجه مكفهرة . وكانت المناديل مطروحة فوق المدفأة ، وبرت الصغيرة تلبس جوارب مثقوبة مما يثير اشمئزاز مدام هوميه . وتجرأ شارل

في جبن على تقديم ملاحظة، فردت في عنف بأنها ليست هي المخطئة !

ولكن لماذا كل هذه الثورات العصبية ؟! لقد اخذ يفسر كل شيء بمرضها العصبي القديم . كما اخذ يلوم نفسه انه يحاسبها على امراضهـا كنقائص . واخــذ يتهم نفسه بالأنانية ، ويشعر بالرغبة في ان يجري ليقبلهـا .

ثم قال لنفسه : « اوه ! لا ... اني ... » وبقي في مكانه .

وبعد العشاء اخذ يتنزه وحيداً في الحديقــة ، واجلس برت فوق ركبتيه ، ثم فتح صحيفته الطبية ، وحاول ان يعلمها القراءة ، ولما كانت الطفلة لم تدرس قط ، فانها لم تلبث ان فتحت عينين كبيرتين حزينتين واخذت تبكي . وعندئذ اخذ يعزيها ، وذهب لكي يستحضر لها ماء من رشاشة الحديقة لكي تصنع انهاراً فوق الرمــل ، او يقطع اغصاناً لكي تزرع اشجاراً في الأحواض ، مما كان يفسد قليلاً الحديقة المكتظة بالحشائش الطويلة . وكانوا مدينين بأجر عدة ايام لليستيبودوا ! ثم شعرت الطفلة بالبرد وطلبت امها .

فقال شارل : « نادي خادمتك فأنت تعرفين جيداً يا صغيرتي ان امك لا تريد ان نقلقها . »

وابتدأ الخريف واخذت الأوراق تسقط على نحو ما حدث منذ عامين عندما كانت مريضة ! فمتى ينتهي اذن كل هذا ؟ ... واستمر يسير ويداه خلف ظهره .

كانت السيدة في غرفتها ، ولم يكن احد يصعد اليها . كانت تظل هناك طول النهار ، متصلبة شبه عارية ، ومن وقت الى آخر كانت تحرق بعض البخور الذي اشترته من روان من دكان رجل جزائري . ولكي لا تحس في الليل ملاصقاً لحمها بذلك الرجل الذي ينام متمدداً الى جوارها، اخذت تتجهم حتى انتهت بــأن نفته الى الطابق الثاني . وكانت تقرأ حتى الصباح كتباً مثيرة مليئة باللوحات الداعرة والحوادث

الدامية . وكثيراً ما كان يأخذها الرعب فتطلق صيحة ، ويهرول شارل فتقول :

– « آه ... اذهب عني ! »

واحياناً اخرى كانت تحترق في شدة ، بذلك اللهب الداخلي الذي يضرمه الفجور ، وتنفعل وتلهث ، وتستيقظ رغبتها ، فتفتح النافذة وتستنشق الهواء البارد ، وتنثر في الرياح شعرها الثقيل ، وتنظر الى النجوم ، وتتمنى غراميات امير !!

وكانت تفكر فيه : في ليون . وكانت مستعدة لأن تعطي كل شيء مقابل موعد من تلك المواعيد التي كانت تشبع نهمها !

كانت تلك المواعيد هي ايام بهجتها . وكانت تود ان تكون اياماً فخمة. وعندما كان لا يستطيع ان يتحمل وحده النفقات، كانت تكمل العجز في سخاء. وكأن هذا يحدث كل مرة تقريباً ، وحاول ان يقنعها بأنهما سيجدان المتعة نفسها في مكان آخر – في فندق اكثر تواضعاً ، ولكنه كان يلقى اعتراضات . وفي احد الايام اخرجت من حقيبتها ست ملاعق من العقيق كانت هدية الزواج التي قدمها لها الأب روو . ورجت ليون ان يذهب بها فوراً – من اجلها – الى بنك الرهونات . فأطاع ، بالرغم من ان هذا الإجراء لم يرقه ، وكان يخشى ان يتورط !

ثم هداه التفكير الى ان يلاحظ ان عشيقته تتصرف تصرفات غريبة، وانهم ليسوا مخطئين عندما يحاولون فصله عنها .

والواقع ان شخصاً كان قد ارسل الى امه خطاباً طويلاً غفلاً من الإمضاء يخبرها فيه بأنه قد ضاع مع امرأة متزوجة . فلمحت السيدة الطيبة فوراً ذلك الشبح الخالد الذي يخيف الأسر ، اي ذلك الكائن الخبيث الغامض : « الجنيّة » او الوحش الذي يسكن – على نحو جهنمي – في اعماق الحب ، فكتبت الى الاستاذ ديفوكاج الذي يعمل عند ابنها . وكان هذا الاستاذ اميناً في هذا الموضوع ، اذ انه اوقف

ليون امامه ثلاثة ارباع الساعة ، محاولاً ان يفتح عينيه وان يحذره من الهاوية وأن مثل هذه المغامرة لا بد ان تضر فيما بعد بكل محاولة يقوم بها للزواج والاستقرار ، ورجاه ان يقطع العلاقة . واذا لم يكن يريد ان يقوم بهذه التضحية في سبيل مصلحته الخاصة ، فلا اقل من ان يقوم بها من اجله هو ، اي من اجل الاستاذ ديفولاج .

وأخيراً اقسم ليون الا يعود الى رؤية ايما . ولام نفسه بأنه لم يحترم هذا القسم ، مقدراً كل ما يمكن ان تسببه له هذه المرأة من ارتباك واقاويل ، فضلاً عن نكات زملائه التي كانوا يرسلونها في الصباح حول المدفأة . وفضلاً عن ذلك فانه كان على وشك ان يصبح كاتباً اول ، وهذه هي اللحظة التي يجب ان يكون فيها مستقيماً . ولذلك تخلى عن موسيقاه وعن المشاعر المتقدة ، وعن الخيال . وذلك لأن كل بورجوازي في وقدة شبابه لا بد انه اعتقد نفسه قادراً – ولو ليوم او دقيقة – على الانفعالات الشاسعة ، والمغامرات العنيفة . وأحقر اباحي قد حلم بالسلطانات ، وكل كاتب يحمل في نفسه انقاض شاعر .

لقد اصبح الآن يشعر بالضجر كلما انتحبت ايما فجأة فوق صدره . وأصبح قلبه – كأولئك الناس الذين لا يستطيعون ان يحتملوا غير قدر محدود من الموسيقى – أصبح يغفو من عدم المبالاة ، بضجة حب لم يعد يميز لطائفه .

. لقد طالت معرفة احدهما بالآخر حتى اصبح لا يحس بنشوة التملك التي كانت تضاعف من اللذة ، وأصبحت تشمئز منه بقدر ما اصبح متعباً منها . وقد اخذت ايما تجد في الزنا كل ما في الحياة الزوجية من رتابة مملة .

ولكن كيف الخلاص ؟.. ثم انها بالرغم من احساسها بوضاعة مثل هذه السعادة ، فانها كانت متعلقة بها بحكم العادة ، او بحكم الانحلال . وفي كل يوم كانت تزداد تكالباً ، واصلةً كل سعادة برغبتها في ان

تكون سعادة اكبر ! وكانت تتهم ليون بخيبة آمالها وكأنه قد خانها ، بل وتمنت ان لو وقعت كارثة تؤدي الى افتراقها ما دامت لا تجد الشجاعة لتقرير ذلك .

ومع ذلك استمرت تكتب له الخطابات الغرامية ، نزولاً على تلك الفكرة التي تقول بان المرأة يجب ان تكتب دائماً الى عشيقها !

ولكنها في اثناء الكتابة كانت تلمح رجلاً آخر – شبحاً مكوناً من ذكرياتها الحارة ، ومن اجمل قراءاتها ، ومن اطماعها الشديدة . وفي النهـاية أصبح هذا الرجل شبه حقيقة يمكن تناولها ، حتى انها لتنتفض له مندهشة ، ولكن دون ان تستطيع ان تتخيله في وضوح ، وذلك لأنه كان ضالاً كإله ، تحت فيض الصفات التي خلعتها عليه . وكان يسكن تلك المقاطعة الزرقاء التي تتأرجح فيها السلالم الحريرية في الشرفات ، تحت انفاس الزهور وضوء القمر !! وكانت تحس به الى جوارها ، وانه سيأتي لكي يختطفها كلها في قبلة !! ثم كانت تسقط محطمة ، وذلك لأن اندفعات هذا الحب الغامض كانت تتعبها اكثر من العربدة العنيفة .

لقد اصبحت الآن تشعر بتكسر دائم في جسمها كله ، بل وكثيراً ما كانت تتسلم انذارات وأوراقاً مدموغة لا تكاد تنظر فيها . وكانت تود ألا تظل حية ، او ان تنام باستمرار !

وفي احد ايام الأعياد لم تعد الى ايونفيل ، وذهبت في المساء الى حفلة رقص تنكرية ، وارتدت بنطلوناً من القطيفة وجوارب حمراء ، وشعراً مستعاراً مربوطاً بشريط ، ومصباحاً صغيراً فوق الأذن . وأخذت تقفز طوال الليل على صوت النفير المهتاج ، فالتف حولها الناس في حلقة . وفي الصباح وجدت نفسها في شرفة المسرح بين خمسة او ستة اقنعة لعاملات وبحارة من رفاق ليون ، وقد اخذوا يتحدثون عن الذهاب لتنـاول وجبة الليل !

كانت المقاهي المحيطة مليئة ، فاتجه تفكيرهم الى مطعم بالغ الحقارة

عند الميناء ، فتح لهم صاحبه غرفة صغيرة في الطابق الرابع .

أخذ الرجال يتهامسون في ركن . وكان تهامسهم بلا ريب حول التكاليف . وكانوا كاتباً وخفيرين وساع . أية صحبة بالنسبة اليها !! وأما النساء فقد ادركت ايما بسرعة ، نغمة في اصواتهن ، تدل على انهن جميعاً من الطبقة الدنيا ! وعندئذ سحبت مقعدها الى الوراء وأسبلت عينيها !

اخذ الآخرون في الأكل ، اما هي فلم تأكل ، وقد التهبت جبهتها . وأحست بحكة في جفنيها وببرد ثلجي في جلدها . وأخذت تحس في رأسها بأرضية المرقص وهي لا تزال تهتز تحت القفزات الموقعة من ألف قدم ترقص . ثم رائحة الخمر ودخان السجاير وهي تنزل برأسها الدوار . وكادت ان يغمى عليها ، فنقلوها في مواجهة النافذة !

اخذ النهار يبزغ ، وأخذت بقعة كبيرة قرمزية اللون تتسع في السماء الشاحبة من ناحية سانت كاترين ، والنهر الخامد يهتز مع الريح ، ولم يعد احد فوق الكباري ، واخذت المصابيح تنتفض .

ومع ذلك انتعشت، وأخذت تفكر في برت التي تنام هناك في غرفة خادمتها . ولكن عربة مليئة بالقضبان الحديدية مرت وهي تلقي على جدار المنازل اهتزازات معدنية تصم الآذان .

وانسحبت فجأة وتخلصت من ملابسها التنكرية ، وقالت لليون انه لا بد لها من العودة . وأخيراً بقيت وحدها في فندق بولون . وكان كل شيء بالنسبة اليها غير محتمل حتى شخصها . وودت ان لو هربت كعصفور الى حيث تسترد شبابها في جهة ما ، في الفضاء الناصع غير الملوث !

وخرجت وعبرت البولفار وميدان كوشواز وضاحية المدينة حتى وصلت الى شارع مكشوف يطل على الحدائق ، وأخذت تسير بسرعة فهدأها الهواء الطلق . وشيئاً فشيئاً اخذت اوجه الجمهور والاقنعة ورباعيات الرقص

والثريات ووجبة الليل واولئك النسوة – اخذ كل هذا يختفي كضباب تبدد .

ثم عادت الى فندق « الصليب الأحمر » وألقت بنفسها فوق السرير في الغرفة الصغيرة بالطابق الثاني ، حيث كانت توجد صور من برج نيل . وفي الساعة الرابعة مساء ايقظها هيفير .

وعند عودتها الى منزلها أطلعتها فيليستيه خلف الساعة الدقاقة على ورقة رمادية قرأت فيها : « بناء على الصيغة التنفيذية لحكم .... »

اي حكم ؟... والواقع انهم كانوا قد حملوا الى منزلها في اليوم السابق ورقة اخرى لم تدر بها ، ولذلك اخذها الذهول من هذه الكلمات : « أمر باسم الملك والقانون والقضاء الى مدام بوفاري .... » ثم قفزت عدة اسطر لكي تقرأ : « في ظرف اربع وعشرين ساعة وهو آخر مهلة » .... ما هذا ؟... « يدفع مبلغ ثمانية آلاف فرنك » . بل وقرأت بعد ذلك بقليل « وسوف ترغم بكافة الطرق القانونية ، وبخاصة بالحجز التنفيذي على اثاثها وممتلكاتها » .

ما العمل ؟.... في ظرف اربع وعشرين ساعة ، اي غداً !.. وظنت ان ليريه قد اراد بلا ريب ان يخيفها مرة اخرى ، فقد حدست لساعتها كافة مناوراته والهدف من مجاملاته . وكانت المبالغة نفسها في المبلغ هي التي طمأنتها .

ومع ذلك فانها لكثرة ما اشترت دون ان تدفع ، ولكثرة ما اقترضت وقيدت الكمبيالات وجددتها فتضخمت عند كل تجديد – كانت قد انتهت بأن اعدت للسيد ليريه رأس مال كان ينتظره بصبر نافد من اجل مضارباته !

ودخلت عنده في هيئة منطلقة وقالت : « هل تعلم ما حدث لي ؟.. انه بلا ريب مزاح ! »

– لا !

– كيف هذا ؟!

فالتفت نحوها في بطء وقال وهو يربع ذراعيه ، « هل تظنين يا سيدتي الصغيرة انني سأستمر حتى فناء الزمن في ان اكون متعهدك ، وبنكك ، حباً في الله ؟!.. يجب ان استرد اموالي ... كوني عادلة !. »

ونازعت في مبلغ الدين فقال : « آه ! فليكن ! لقد اعترفت به المحكمة ! هناك حكم ! لقد اعلناك به ! وفضلاً عن ذلك فهو ليس لي .... انه لفانسار ! »

– أو ما تستطيع .... ؟

– اوه ... لا استطيع شيئاً على الاطلاق !

– ولكن .... مع ذلك .... فلنفكر .

واخذت تبحث عن مخرج قائلة انها لم تكن قد علمت شيئاً .... لقد كانت مفاجأة !

وقال ليريه منحنياً في تهكم : « ومن المخطىء ؟... بينما انا اكدح كالعبد اذا بك تقضين اوقاتاً طيبة » .

– آه ! لا اريد وعظاً !

فأجاب : « انه لا يضر مطلقاً ! »

وكانت جبانة ، فتضرعت اليه ، بل وأسندت يدها الجميلة الطويلة البيضاء فوق ركبتي التاجر .

فقال : « اتركيني اذن ! لكأنك تريدين ان تغويني ! »

فصاحت « انك رجل تعس ! »

فصاح ضاحكاً : « أوه !.. أوه ! ما هذه ؟! »

– سأفضح امرك ! سأقول لزوجي !

– وانا سأطلع زوجك على شيء ما !

وأخرج ليريه من خزانته ايصالاً بألف وثمانمائة فرنك كانت قد اعطته اياها عند الخصم الخاص بفانسار .

وأضاف : « هل تعتقدين انه لا يفهم سرقتك الصغيرة ، هذا الرجل

العزيز المسكين !! »

فانهارت وقد انصدعت اكثر مما لو كانت قد تلقت ضربة مطرقة . واخذ يتمشى من النافذة الى المكتب وهو يردد : « آه ! سأظهر له جيداً ... سأظهر له جيداً .... »

ثم اقترب منها ، وبصوت عذب قال : « انه امر لا يسر ... انا اعلم هذا ! ومع ذلك فانه لم يسبب الموت لأحد . وما دامت هذه هي الوسيلة الوحيدة التي تبقت لك لكي تردي الي نقودي ومالي .... »

وقالت ايما وهي تلوي ذراعيها : « ولكن ابن اجد المال ؟ »

ـ آه ... يا ...! عندما يكون للانسان اصدقاء مثلها لك .

ونظر اليها نظرة نافذة مخيفة ارتعدت منها حتى الاحشاء ، وقالت : « انني اعدك ... سأوقع ! »

ـ لقد شبعت من توقيعاتك !

ـ سأبيع ايضاً .....

فقال وهو يهز كتفيه ، « تبيعين ؟!... انه لم يعد لديك شيء ! » وصاح من الكوة التي تطل من الحانوت « انيت ! لا تنس القصاصات الثلاثة رقم ١٤ ! »

وظهرت الخادمة ، وفهمت ايما ، وسألت عما يلزم من مال لإيقاف كافة الاجراءات .

ـ لقد فات الأوان !

ـ ولكن اذا حملت اليك عدة آلاف من الفرنكات... ربع المبلغ... الثلث .... كله تقريباً ؟

ـ ايه !.. لا ..! لا فائدة !

ودفعها في رفق نحو السلم !

ـ انني اضرع اليك يا سيد لبريه .... بضعة ايام اخرى ..!

وأخذت تنتحب .

– هيا !.. حسن !.. دموع ؟!

– انك تلقي بي الى اليأس !

وقال وهو يغلق الباب « هذا لا يهمني في شيء ! »

• • •

كانت في اليوم التالي هادئة متجلدة عندما تقدم اليها المحضر الاستاذ هاران لكي يحرّر محضراً بالحجز .

لقد ابتدأوا بمكتب بوفاري، ولم يقيدوا الرأس التشريحية التي اعتبرت من ادوات المهنة ، ولكنهم قيدوا في المطبخ الأطباق والقدور والكراسي ، وفي غرفة نومها كل التوافه الموجودة على الرف ، وفحصوا اثوابها وملابسها الداخلية ، وغرفة الزينة ، وكل حياتها ، حتى الأركان الخاصة بأشد الاشياء اتصالاً بذاتها ، وكأنهم يقومون بعملية مساحة لأرض زراعية ! فانتشرت حياتها انتشاراً كاملاً امام انظار هؤلاء الرجال الثلاثة .

كان الاستاذ هاران في حلة سوداء رفيعة مشدودة الأزرار ورباط رقبة بيضاء . وفي قدميه خف تحت حذائه مشدود في عنف ، وقد اخذ يردد من وقت الى آخر : « هل تسمحين يا سيدتي ؟... هل تسمحين ؟ »

وكثيراً ما كان يطلق صيحات اعجاب : « ساحر ! جميل جداً ! »

ثم يعود الى الكتابة ويغمس سنان القلم في المحبرة التي يحملها بيده اليسرى !

وبعد ان انتهوا من المسكن صعدوا الى مخزن الحبوب .

وكانت تحتفظ بخطابات رودولف في درج هناك . وكان لا بد من فتحه .

وقال الاستاذ هاران في ابتسامة حيية : « آه ! مراسلات !... ولكن ... اسمحي لي ! لأنه من الواجب ان اتحقق من ان الصندوق لا يحتوي شيئاً آخر !

وأمال الاوراق قليلاً ، وكأنما يتوقع ان تسقط الجنيهات الذهبية !
وعندئذ اخذها الاشمئزاز من ان ترى هذه اليد الغليظة ذات الاصابع الحمراء الرخوة كالسحالي ، تمس هذه الصفحات التي خفق اليها قلبها !

ولاح لها شارل في العشية مهموماً ، واخذت اما ترقبه بعين مليئة بالقلق ، معتقدة انها ترى اتهامات في تجاعيد وجهه .

وعندما كانت عيناها تتحولان الى المدفأة المغطاة بالخزف ، والى الستائر العريضة والفوتيات ، وبالجملة كل تلك الأشياء التي كانت قد خففت من مرارة حياتها ، كانت تحس بالندم ، أو على الأصح بالأسف الشديد الذي يثير العاطفة ، بدلا من أن يقتلها . وكان شارل يقلب الجمرات في هدوء وقدماه فوق المجمرة .

وحان وقت تململ فيه الحارس بلا ريب في مخبئه ، فأحدث ضوضاء خفيفة .

وعندئذ قال شارل : « هناك وقع أقدام في أسفل » .

فقالت : لا ! انها كوة تُركت مفتوحة فهزتها الريح » .

وسافرت في اليوم التالي – وكان يوم أحد – الى روان ، لكي تذهب عند جميع أصحاب البنوك الذين كانت تعرف أسماءهم . وكانوا في رحلة بالريف ، ولكنها لم تتراجع ، وطلبت نقوداً ممن التقت بهم ، مدّعية أنها في حاجة اليها ، وأنها سترّدها ، فضحك بعضهم في وجهها ، ورفض الجميع !

وفي الساعة الثانية جرت عند ليون ، ودقت على بابه فلم يفتح . وأخيراً ظهر !

– ما الذي أتى بك ؟!

– هل هذا يزعجك ؟

– لا ... ولكن ....

وصارحها بأن صاحب المنزل لا يحب أن تُستقبل النساء في داره .

فقالت : « ان لدي شيئاً أريد أن أقوله لك » .
وعندئذ تناول المفتاح فأوقفته قائلة : « أوه ! لا ... هناك ... عندنا ! » .
وذهبا الى غرفتها في فندق بولـــون . وشربت عند وصولها كوباً كبيراً من الماء ، وكانت شديدة الشحوب وقـــالت له : « ليون ! إنك ستؤدي لي خدمة ! » .
وأضافت وهي تهزه بيديها اللتين شدّت قبضتها : « اسمع ! ... إنني في حاجة إلى ثمانية آلاف فرنك ! »
– أمجنونة أنت ؟!
– لا ... لم أجن بعد !
ولم تلبث أن قصّت عليه حكاية الحجز ، وعرضت عليه مأزقهـــا ، وذلك لأن شارل كان يجهل كل شيء ، وحماتها تبغضها والأب روو لا يستطيع شيئاً ، ولكنه هو ، ليون ، سيجوب الآفاق لكي يعثر على هذا المبلغ الضروري !!
– كيف تريدين ...؟
فصاحت : « يا لك من جبان ! »
وعند ذلك قال مهوناً : « إنك تبالغين في المأساة ، فلربما هدأ هذا الرجل بألف فرنك » .
وكان هناك سبب آخر لمحاولة عمل شيء ما ، فلم يكن من الممكن ألا يعثر الإنسان على ثلاثة آلاف فرنك ، وفضلا عن ذلك فإن ليون يستطيع أن يضمن القرض بدلا منها !
فقالت : « هيا ! حاول ! هـــذا واجب ! اجر ! ... أوه ! حاول ! حاول ! سأحبك جداً !! »
وخرج وعاد بعد ساعة ، وقال بوجه جاد : « لقـــد ذهبت إلى ثلاثة أشخاص ... عبثاً ! »

ثم بقيا جالسين أحدهما في وجه الآخر عند ركني المدفأة جامدين لا يتحدثان . وإيما ترفع كتفيها وهي تزمجر وسمعها تتمتم قائلة : « لو أنني كنت في مكانك ... أنا ، لوجدت النقود ! »

– أين إذن ؟!

– في مكتبك !

ونظرت اليه !

وكانت جرأة جهنمية تنبعث من حدقتيها الملتهبتين . وتدانى جفناها على نحو شهواني مشجع ، حتى ان الشاب احس بالضعف تحت تأثير الإرادة الصامتة لهذه المرأة التي تنصحه بجريمة ! وعندئذ تملكه الخوف ، ولكي يتجنب كل ايضاح ضرب جبهته وهو يصيح قائلاً « ان موريل سيعود هذه الليلة ! وسوف لا يردني خائباً ، فيما آمل . (وكان صديقاً له ، وابناً لتاجر وافر الثراء) وسأحمل اليك هذا غداً ! » .

ولم يظهر على ايما انها قد تلقت هذا الأمل بمثل ما تصور من فرح ، فهل كانت تشك في الكذب ؟!

واستأنف وهو محمرّ الوجه : « ومع ذلك ، فاذا لم تريني في الساعة الثالثة فلا تنتظريني اكثر من ذلك يا عزيزتي !.. لا بد لي من الذهاب !... معذرة !... الوداع ! »

وشدّ على يدها ، ولكنه وجدها مرتخية ، فايما لم تعد قادرة على اي احساس .

ودقت الساعة الرابعة ، ونهضت لكي تعود الى ايونفيل مستجيبة لدفعة العادة ، وكأنها كائن آلي .

كان الجو صحواً اذ كنا في احد ايام شهر مارس الصافية الصباحية التي تلمع فيها الشمس وسط سماء كاملة البياض ، وكان بعض سكان روان يتنزهون في ملابس الأحد وعليهم مظهر السعادة ، ووصلت الى ميدان ساحة الكنيسة حيث كان الناس يخرجون من صلاة المساء

متدفقين من الابواب الثلاثة ، كالنهر المنساب من ثلاثة اقواس بأحد الكباري .

وفي الوسط كان يقف القواس اشد جموداً من صخرة .

وعندئذ تذكرت ذلك اليوم ، حين كانت متلهفة مليئة بالأمل ، وقد دخلت تحت هذا الصحن الكبير الذي بدا لها يومئذ وقد امتد امامها اقل عمقاً من حبها .

واستمرت في السير وهي تبكي تحت وشاحها ، ذاهلة مترنحة على وشك الإغماء .

وسمع صوت خارج من بوابة تفتح : « الحذر ! »

ووقفت لكي تفسح الطريق لحصان اسود ؛ يضرب الارض بحوافره وهو مشدود الى عربة فخمة يقودها احد النبلاء مرتدياً فراء سمور ! فمن يكون هذا الرجل ؟ إنها تعرفه ... وانطلقت العربة واختفت !

لقد كان هو الفيكونت ! والتفتت الى الخلف ، فكان الشارع خالياً ، وقد احست بنفسها مثقلة حزينة ، إلى حد انها استندت الى جدار لكي لا تسقط .

ثم ظنت انها قد اخطأت ، وعلى اية حال فانها لم تكن تعلم عنه شيئاً . وقد اخذ كل شيء في داخلها وخارجها يتخلى عنها . وأخذت تحس انها ضائعة تتسكع على غير هدى في مهاوي لا حد لها ، وقد كادت تشعر بالفرح عندما لمحت — عند وصولها الى فندق الصليب الاحمر — السيد هوميه ، الذي كان يشرف على شحن صندوق كبير من سلع الصيدلية فوق « العصفورة » . وكان يمسك في يده — داخل كوفية — ستة ارغفة من نوع خاص من الخبز لزوجته .

كانت مدام هوميه تحب كثيراً هذا الخبز الصغير الثقيل المصنوع على شكل عمامة ، والذي كانوا يأكلونه في عيد الصوم الكبير مع الزبد المملح ، وهو آخر بقية من الاطعمة القوطية التي ربما ترجع الى عصر الحروب الصليبية ، والتي كان النورمانديون الاقوياء يملأون منها بطونهم

قديما معتقدين أنهم يرون على المائدة ، في ضوء المشاعل الصفراء ، بين كئوس النبيذ وقطع الخنزير الضخمة — رؤوساً شرقية يلتهمونها! وكانت زوجة الصيدلي تقضمه مثلهم في بطولة ، بالرغم من سوء حالة اسنانها! ولذلك ، ففي كل مرة كان يسافر فيهـــا السيد هوميه الى المدينة ، لم يكن ينسى ان يحضر لها بعضا منه، من صانعه الكبير في شارع ماساكر!

وقال وهو يقدم يده الى الأمام لكي يعينها على الصعود الى العصفورة « إني سعيد برؤيتك »

ثم علق الأرغفة في حبال الشبكة وبقي عاري الرأس مربع اليدين ، في هيئة مفكرة نابليونية.

ولكن عندما ظهر الأعمى كعادته عند اسفل الهضبة صاح قائلاً: «انني لا افهم كيف لا تزال تبيح السلطات مثل هذه الحرف المجرمة ! ان من الواجب حجز هؤلاء التعساء وحملهم على العمل . وفي الحق ان التقـــدم ليسير بخطى السلحفاة ! ونحن نتخبط في بربرية كاملة .

ومدّ الأعمى قبعته التي اخذت تتأرجح عند حافة الباب ، وكأنهـــا جانب من فرس العربة سقطت مساميره .

وقال الصيدلي : « هذه حالة اصابة درنية وبالرغم !» من انه يعرف هذا المسكين ، فانه تظاهر بانه يراه للمرة الأولى ، وتمتم عبارات : القرنية والقرنية السميكة والملتحق والسياء ، ثم سأل في نغمة مرتفعة : « هل مضى وقت طويل يا صديقي وانت مصاب بهذه العاهة الفظيعة ؟ لقد كان من الخير لك ان تتبع نظاماً خاصاً في الطعام بدلا من ان تسكر في الحانة » .

واستحثه على ان يتناول نبيذاً جيداً ، وبيرة جيدة ، وشواء طيباً . واستمر الأعمى في اغنيته . وكان يلوح فوق ذلك انه ابله ، واخيراً فتح السيد هوميه كيسه وقال « خذ ! فرنك ! رد لي ليريك ، ولا تنس توصياتي ، فانها ستفيدك »

وسمح هيفير لنفسه بان يبدي في صوت مرتفع بعض الشك في جدوى هذه النصائح ، ولكن الصيدلي اكّد أنه هو نفسه سيشفيه بواسطة مرهم مطهر من صنعه ، ثم اعطاه عنوانه : « السيد هوميه الى جوار السوق – معروف المعرفة الكافية »

وقال هيفير : « ومقابل ذلك سترينا شيئا من الكوميديا » وانطرح الأعمى على باطن ركبتيه ، وطرح رأسه الى الخلف وهو يدور بعينيه الضاربتين الى الخضرة ويخرج لسانه . واخذ يحك بطنه بيديه بينما يطلق صيحات صماء كالكلب الجائع ، فاشمأزت ايما ، فألقت اليه من فوق الكتف بقطعة من ذوات الخمس فرنكات ، كانت كل ثروتها . ولاح لها انه من الجمال ان تلقيها على هذا النحو !

وكانت العربة قد انطلقت عندما اطل السيد هوميه فجأة من النافذة وصاح : لا نشويات ولا البان ! البس الصوف على الجلد ، وعرّض الأجزاء المريضة لأبخرة ادغال شجر العرعر.

واخذ منظر الأشياء المعروفة التي تتابع امام عينيها تصرف إيما شيئاً فشيئاً عن ألمها الحاضر . واثقلها تعب لا يحتمل ، حتى وصلت الى بيتها ذاهلة محطمة الروح ، نائمة تقريباً .

وقالت لنفسها : « فليكن ما يكون ! »

ثم من يدري ؟ ولماذا لاينجم من وقت الى آخر حدث خارق ؟ ! فليريه نفسه يمكن ان يموت !

واستيقظت في الساعة التاسعة صباحاً على رنين صوت في الميدان حيث كان الناس متجمعين حول السوق لكي يقرأوا أعلانا كبيرا ملصوقا على احـد الاعمدة. ورأت جوستان وهو يصعد فوق حجر ويمزّق الاعلان. ولكن الخفير امسك بتلابيبه في تلك اللحظة ، وخرج السيد هوميه منه ، وكان يلوح على الأم لوفرنسوا انها تعظ وسط الجمهور .

وصاحت السيدة فيليسيتيه وهي داخلة: « يا سيدتي! انها الكارثة ! »

ومدت الفتاة المسكينةاليها، وهي منفعلة،ورقة صفراء كانت قد انتزعتها من فوق الباب.وقرأت إيما في لمحة البصر ان اثاثها كله معروض للبيع! وعندئذ اخذتـا تنظران احداهمـا الى الأخرى في صمت وذلك لأنهـما – الخادمة والسيدة – لم يكن لاحداهما سر بالنسبة للاخرى . واخيراً تنهدت فيليسيتيه قائلة : « لو اني كنت مكانك يا سيدتي لذهبت الى السيد جيومان »

– هل تظنين ذلك ؟

وكان معنى هذا السؤال هو : « انت التي تعرفين المنزل بواسطة الخادم ، هل يمكن ان يكون السيد قد تحدث عني احياناً ؟ »

– نعم ! اذهبي الى هناك ، فانك تحسنين صنعاً !

وارتدت ثيابها ، فلبست ثوبا اسود ذاطرطورمحلى بحبات من الكهرمان الأسود .ولكي لا يراها احد ، اذ كان الميدان لا يزال مليئا بالناس ، سارت خارج القرية في الطريق المار على حافة الماء .

ووصلت لاهثة امـام منزل موثق العقود ، وكانت السماء داكنة ، وقليل من الجليد يتساقط.

عند سماع الجرس ظهر تيودور عند الشرفة في صدار احمر، وقد اتى لكي يفتح في غير كلفة ، وكأنه يفتح لأحد المعارف ، وأدخلها في غرفة المائدة .

كانت مدفئة كبيرة من الخزف تطن تحت شجرةمنالصبار وتملأ فجوتها. وفي داخل اطارات من الخشب الأسود ، فوق الجدران المغطاة بنسيج ورق البلوط ، كانت توجد « ازمرالدا » لاستيبون مع باتيفار لشوبان. وكانت المائدة معدة . وكان الموقدان المصنوعان من الفضة ، ومقابض الابواب المصنوعة من البلور وارضية الغرفة والاثاث، كل هذا كان يلمع في نظافة دقيقة انجليزية . كما كان زجاج النوافذ مزيناً في كل زاويـة بزجاج ملون .

وفكرت ايما قائلة : «هذه غرفة طعام ؟ ! كم انا في حاجة الى واحدة مثلها ! »

ودخـل موثق العقود وهو يضم الى جسمه – بـذراعه اليسرى – معطفه المنزلي ذي الأوشحة ، بينما يخلع ويلبس في سرعة باليد الأخرى طاقيته المصنوعة من القطيفة البنية ، وقد وضعهـا في زهو فوق الناحية اليمنى ،حيث كانت تنسدل اطراف ثلاثة خصل شقراء،أخذت من مؤخر رأسه ثم دارت حول جمجمته الصلعاء !

وبعد ان قدم مقعدا ، جلس ليتناول الغداء ، وهو يعتذر كثيرا عن سوء ادبه

وقالت : « ياسيدي ! اني اود ان ارجوك ... »

– عن ماذا ؟ هأنا انصت !

واخذت تعرض عليه حالتها .

كان الاستاذ جيومان يعرفها ، بحكم الاتصال سراً بتاجر القماش الذي كان يجد لديه دائما اموالا للرهونات التي كان يطلب اليه ان يعقدها. ولذلك كان يعرف اكثر منها القصة الطويلة الخاصة بهذه الكمبيالات ، التي كانت صغيرة في اول الامر،ثم ظهرتها أسماءمختلفة،وامتدت مواعيد استحقاقها الى فترات طويلة ، وجددت باستمرار، حتى كان يومٌ جمع فيه التاجر كافة انذارات الدفع ، وكلف صديقه فانسار بأن يتخذ باسمه الخاص الاجراءات اللازمة ، وذلك لأنه لم يرد ان يظهر بمظهر النمر بين اهل بلدته !

وكانت تمزج بقصتها ما تأخذه على لبريه من مأخذ – مآخذ كان يرد عليها موثق العقود من وقت الى آخر بعبارة تافهة . وبينما كـان يأكل « الكستلية » ويشرب النبيذ، كان يحني ذقنه فوق ربـاط رقبته الازرق زرقة السماء ، وقد ثبته بدبوس من الماس تصل بينهما سلسلة من الذهب . وكان يبتسم ابتسامة عجيبة فريدة على نحو ناعمغامض. ولكن

عندما لاحظ ان اقدامها مبللة قال : « اقتربي اذن من المدفأة .... الى اعلى ! ... في مواجهة الخزف ! »

وكانت تخشى ان تصيب هـــذا الخزف بالقذارة ، فاستأنف موثق العقود في شهامة قائلاً : « ان الأشياء الجميلة لا تتلف شيئاً ! »

وعندئذ حاولت ان تحرك قلبه وقد جاشت اشجانها وقصت عليه ضيق عيشتها ، ومصاعبها وحاجاتها . وكان يفهم هذا ، فالمرأة الرشيقة...! ودون ان يتوقف عن الأكل،التفت نحوهابكليته حتى مس حذاءها بركبته، وكان نعل الحذاء المبتل قد اخذ ينحني ، والبخار يتصاعد منه وهو في مواجهة المدفأة .

ولكنها عندمـــا طلبت منه الف فرنك،ضخم شفتيه ، ثم اعلن انه شديد الألم ، لأنه لم يتول فيما مضى ادارة ثروته عندما كانت هناك عدة وسائل مريحة للاستثمار حتى بالنسبة للسيدات،اما في المناجم في جرومستيل، او في ارض الهافر حيث تمكن المغامرة المأمونة في مضاربات مثمرة . وتركها تتميز من الغيظ لفكرة الأموال الضخمة التي كان من الممكن ان تكسبها على نحو مؤكد !

واستأنف يقول : « كيف لم تأتي عندي ؟ »

فقالت : « لست ادري »

– لماذا حقاً ؟ هل كنت اخيفك ؟ . انني انا الذى يجوز لي على العكس ان اشكو ! فاننا لايكاد احدنا يعرف الآخر ، ومع ذلك فانني مخلص لك كل الاخلاص وارجو ان لا يكون لديك شك في ذلك.

ومد يده واخذ يدها ، وغطاها بقبلة نهمة ، ثم احتفظ بها فوق ركبته واخذ يلعب في رفق بأصابعها ، وهو يسرد عليها فيضا من المداعبات الناعمة.

كان صوته الفاتر يثرثر كالنهر الذى ينساب ، وانبثقت شرارة من

حدقته خلال زجاج نظارته وامتدت يداه في كمّ ايما لكي يجس ذراعها، وأحست عند خدها هبة أنفاس لاهثة ، وكان هذا الرجل يضايقها مضايقة شديدة !

فنهضت في وثبة وقالت له : « يا سيدي انني انتظر ! ».

وقال موثق العقود الذي علاه الشحوب الشديد فجأة : «ماذا تنتظرين ؟».

– هذه النقود

– ولكن ...

ثم استسلم لانفجـــار رغبة شديدة العنف وقال : « هـذا حق – نعم ! ... » .

وأخذ يجر نفسه على ركبتيه نحوها دون مراعاة لمعطفه المنزلي .

– من فضلك إبق في مكانك !

– إنني احبك !

وامسكها من خصرها .

وصعد فيض من الحمرة سريعاً الى وجه مدام بوفاري ، وارتدت الى الخلف وهي تصيح : « إنك تستغل يا سيدي حالة ضيقي في غير حيطة ! إنني استحق الرثاء ولكنني لست للبيع ! »

وخرجت !

وبقي موثق العقود مذهولاً منكس العينين فوق خفيه الجميلـــين المطرزين. لقد كانا هدية حب ! وفي النهاية عزاه هذا المنظر ! وفضلاً عن ذلك، فانه قد فكر في ان مغامرة كهذه كانت خليقة بأن تورطه الى حد بعيد !

وأخذت تقول لنفسها وهي هاربة بخطى عصبية تحت اشجار الحور القائمة في الطريق : « يا له من حقير ! يا له من وغد ! » . وقد قوت مضاضة الفشل من ثورتها لعفتها المهانة ، وخيل اليها ان القضاء يتكالب على ملاحقتها ، وانتفخت كبرياء حتى خيل اليها انها لم تشعر

قط بمثل هذا الاحترام لنفسها والإحتقار للآخرين . واحتدمت بها نزعة الى القتال ، فودت ان لو ضربت الرجال وبصقت في وجوههـــم ، وسحقتهم جميعاً. واستمرت تسير مسرعة الى الأمام ، شاحبة ، منتفضة ، هائجة ، ترفق بعين دامعة الأفق الخـــاوي وكأنها تتلذذ بالضغينة التي تخنقها .

وعندما لمحت منزلها أحست بالحذر ، ولم تستطع ان تتقدم ، ومع ذلك فانه لم يكن لها مفر من هذا التقدم ، والا فإلى اين تهرب ؟

وكانت فيليسيتيه تنتظرها على الباب .

– خيراً ؟

فقالت ايما : « لا ! » .

وظلا يستعرضان معاً – لربع ساعة – افراد ايونفيـــل المختلفين ، الذين يمكن ان يكون لديهم استعداد لإنقاذها . ولكن في كل مرة تنطق فيها فيليسيتيه باسم شخص ، كانت ايما تجيب قائلة : « هل هذا ممكن؟ إنهم لن يقبلوا ! »

– وسيدي الذي قرب موعد عودته ؟!

– إنني اعرف ذلك جيداً ... دعيني وحدي.

وكانت قد حاولت كل شيء ولم يبق الآن شيء تفعله ، وفكرت في ان تقول لشارل : « ابتعد . فهذه السجادة التي تمشي فوقها لم تعد لنا ، وفي بيتك كله لم تعد من قطعة أثاث ولا دبوس ولا قشة ، وانا التي خربتك ايها الرجل المسكين ! »

وعندئذ ستكون شهقة كبيرة ثم يبكي في غزارة ، وفي النهاية تمر المفاجأة ويعفو !

وتمتمت وهي تعضّ على اسنانها : « نعم ، سيعفو عني ، وهـــو الذي لن يكفيني مليون من الجنيهات يقدمه الي لكي اغفر له تعرفه بي... أبداً ! أبداً !! »

لقد اهتاجتها فكرة تسامي بوفاري عليها ، ولكنها سواء اعترفت ام لم تعترف، الآن او بعد هنيهة او غداً ، فإنه لا بد ان يعلم بالكارثة. وإذن فلا مفر من أن تنتظر هذا المشهد الفظيع ، وان تتحمل ثقل تفضله بالعفو عنها . وصارت بها رغبة في ان تعود الى ليريه ، ولكن ما جدوى ذلك ؟ او ان تكتب الى ابيها ، ولكن الوقت كان قد فات . بل ومن المحتمل ان تكون قد اخذت تندم لأنها لم تستسلم للرجل الآخر . واذا بها تسمع وقع أرجل حصان في الطريق . لقد كان هو . وفتح باب السياج ، وكان اكثر شحوباً من الحائط الجيري ! ووثبت في السلم لكي تفلت الى الميدان ، ورأتها زوجة العمدة — التي كانت تتحدث امام الكنيسة مع ليستيبودوا — وهي تدخل عند المحصل .

وجرت لكي تخبر مدام كارو ، وصعدت هاتان السيدتان الى مخزن الحبوب ، واختفتا خلف ملابس كانت منشورة على الحبال ، واستقرتا مستريحتين لكي تريا داخل منزل بينيه كله !

كان وحيداً في الغرفة الواقعة تحت السقف المائل ، منهمكاً في ان يقلد بالخشب احدى تلك الحليات العاجية التي لا توصف ، والمكونة من أهلة وكرات مجوفة داخلة بعضها في بعض ، تكون متحداً مستقيماً كالمسلة لا يستخدم في شيء ! وكان يعمل في القطعة الأخيرة ، وأوشك ان ينتهي . وفي ظلام مصنعه الذي يتخلله بعض الضوء ، كان التراب الاشقر يتطاير من الآلة التي يعمل بها ، كسنبلة من الشرر تحت حدوة حصان يعدو ، والعجلتان تدوران وتنخران ، وبينيه يبتسم محني الذقن مفتوح المنخرين ، وقد لاح انه غارق في احدى تلك السعادات الكاملة، التي لا تتوفر الا في المشاغل التافهة ، التي تداعب الذكاء بصعوبات سهلة تشمله حين ينجز شيئاً لم تجاوزه أحلامه .

وقالت مدام تيفاسن : « آه ! ها هي ! » .

ولكنه لم يكن من الممكن ان يسمع ما تقول بسبب دوران الآلة !

واخيراً اعتقدت هاتان السيدتان انهما قد ميزتا كلمة « فرنكات » !
وقالت الأم نيفاسن بصوت خفيض : « انها ترجوه لكي تحصل على مهلة لسداد ضرائبها » .

وقالت الأخرى : « هذا ما يبدو ! » .

ورأياها وهي تسير طولاً وعرضاً ، فاحصة على الجدران حلقات الغوط والشمعدانات ومقابض السلالم ، بينما يداعب بينيه لحيته في رضا !

وقالت مدام تيفاسن : « ربما تكون قد أتت لتوصيه بصنع شي ! »
ولكن جارتها اعترضت قائلة : « ولكنه لا يبيع شيئاً » .

وكان المحصل يلوح عليه أنه ينصت ، وقد ضمّ جفنيه كأنه لا يفهم ، واستمرت تحدثه في هيئة رقيقة متضرعة ، واقتربت وصدرها ينتفض ، ولم يعودا يتحدثان !

وقالت مدام تيفاسن : « هل تحاول اغراءه ؟ » .
وكان بينيه محمراً حتى أذنيه ، وامسكت بيديه !
فقالت السيدتان : « آه ! هذا شيء عجيب ! »
ولا شك انها كانت تعرض عليه امراً إدّاً !

ذلك لأن المحصل – بالرغم من شجاعته ، وبالرغم من أنه قد حارب في بوتزين وليتزن وخاض معركة فرنسا ، فإنه قد ارتد فجأة الى الخلف مسافة طويلة وكأنه قد رأى ثعباناً ، وأخذ يشمئز قائلاً : « يا سيدتي ! اتفكرين حقاً في هذا ؟ »

وقالت مدام تيفاسن : « إن من الواجب جلد مثل هؤلاء النساء ! »
وأضافت مدام كارون : « أين هي اذن ؟ »

وذلك لأنها كانت قد اختفت اثناء هذه الكلمات ، ثم لمحاها وهي تتابع الشارع الكبير وتنحني الى اليمين ، كأنما هي ذاهبة الى المقابر ، فأخذا يضلان في الفروض !

وقالت عندما وصلت عند المرضعة : أيتها الأم روليه ! إنني اختنق !.. فكّي عني الثياب .

وارتمت على السرير وهي تنتحب ، وغطتها الأم روليه بجونلة وبقيت واقفة الى جوارها . ولما لم تجب ابتعدت المرأة واخذت مغزلها وشرعت في غزل الكتان .

وتمتمت – وهي تعتقد انها تسمع آلة بينيه : « أوه ! فلننته ! ».

وتساءلت المرضعة : « ما الذي يضايقك ؟ ولماذا اتيت الى هنا ».

لقد أتت مدفوعة بنوع من الرعب الذي طردها من منزلها .

كانت مطروحة على ظهرها جامدة ثابتة الحدقتين ، لا تميز الاشياء الا في غموض ، بالرغم من تركيز انتباهها في إلحاح أبله . وكانت تتأمل تجعدات الحائط ، وجمرتين تدخنان إحداهما عند طرف الاخرى، وعنكبوتة طويلة تمشي فوق رأسها في شق كتلة الخشب ، واخيراً جمعت افكارها وأخذت تتذكر ... يوماً مع ليون ... أوه ! كم قد اصبح هذا بعيداً ... وكانت الشمس تلمع فوق النهر [والأزهار يفوح أريجها ... وعندئذ حملتها الذكريات وكأنها السيل الذي يغلي ، ولم تلبث ان تذكرت اليوم السابق .

وسألت : كم الساعة ؟

وخرجت الام روليه ورفعت اصابع يدها اليمنى في الناحية التي كانت فيها السماء صافية ، ثم دخلت في بطء وهي تقول : الثالثة عما قريب.

وقالت ايما : آه ! شكراً ! شكراً !

ذلك لأنه كان على وشك الحضور ... بكل تأكيد ! وإنه لقادر على ان يجد نقوداً ، ولكنه قد يذهب الى هناك دون ان يظن انها كانت هنا . وطلبت الى المرضعة ان تعدو الى منزلها لكي تحضره .

وقالت : « اسرعي ! »

وأجـابت المرضعة : « ها انا ذاهبة يا سيدتي العزيزة ! ها انا ذاهبة ! » .

وأخذت الآن تدهش لأنها لم تفكر فيه اولاً . لقد وعد بالأمس ولن يخلف وعده . وتصورت نفسها بالفعل عند لبريــه وهي تنشر فوق مكتبه اوراق البنكنوت الثلاثة . ثم لا بد من اختراع قصة تسرح الأمور لبوفاري . ولكن أية قصة ؟

ومع ذلك غابت المرضعة طويلاً جداً قبـل ان تعود . ولما لم تكن هناك ساعة بالكوخ ، فان ايما قد خشيت من ان تبالغ في طول الزمن، وأخذت تقوم بدورات نزهة في الحديقة خطوة فخطوة ، وسارت في الطريق المحاذي للسياج وعادت منه بسرعة ، آملة ان تكون المرأة قد عادت من طريق آخر . واخيراً انهكها الانتظار وساورتها الظنون التي كانت تطردها ، ولم تعد تدري أهي هنا منذ قرن ام منذ دقيقــة ، فجلست في ركن واغمضت عينيها وسدّت أذنيها . وسمعت صرير باب السياج ، فقفزت ، وقبل ان تتكلم كانت الأم روليه قد قالت لها : « لا أحد في منزلكم ! »

– كيف ؟

– اوه ! لا احد ! والسيد يبكي ويناديك ، وهم يبحثون عنك !

لم تردّ ايما بشيء ، واخذت تلهث وهي تدور بعينيها من حولها ، بينما تراجعت الفلاحة الى الخلف بطريقة غريزية ، وقد اخذها الذعر وظنتها مجنونة . وفجأة ضربت جبهتها واطلقت صيحـة ، وذلك لأن ذكرى رودولف مرت بروحها كبرق خاطف في ليلة مظلمة . لقد كان رجلاً طيباً رقيقاً كريماً، وفضلاً عن ذلك، فانه لو تردد في ان يؤدي لها هذه الخدمة ، لاستطاعت ان ترغمه عليها بأن تذكره بغمــزة عين بحبهما الضائع . وهكذا انطلقت نحو لاهوشيت دون ان تدرك انها تهرول

لكي تقدم نفسها الى من أثار غيظها كل هذه الإثارة منذ وقت قريب ، ودون ان تفكر لحظة واحدة في هذا التبذل .

* * *

كانت تتساءل وهي تسير « ماذا سأقول ؟ وبـأي شيء ابدأ ؟ » وكلما تقدمت في السير ، تعرفت على الأدغال والأشجار والبوص المائي فوق التل والقصر هناك . وعادت الى الإحساس بغرامها الأول ، واخذ قلبها المسكين المكبوت يتفتح للحب ، وهبت ريح فاترة على وجهها ، وأخذ الجليد – وقد ذاب – يتساقط نقطة فنقطة من البراعم فوق العشب .

ودخلت كما كانت تفعل من قبل من باب البستان ، ثم وصلت الى ساحة الشرف ، التي يحدّها صفان من شجر الزيزفون الملتف الذي يهز اغصانه الطويلة وهو يصفر . ونبحت جميع الكلاب في حظيرتها وتردد صوت نباحها دون ان يظهر أحد .

وصعدت السلم العريض ذا « الدرابزين » الخشبي الذي يـؤدي الى الصالة المغطاة ببلاط معفر بالتراب . وعلى هذه الصالة تفتح عدة غرف في صف واحد كما يحدث في الأديرة والفنادق . وكانت حجرته في النهاية عند القاع الى اليسار . وعندما وضعت اصابعها فوق القفل أحست فجأة بقواها تتخلى عنها ، وكانت تخشى ألا يكون هناك ، بل وكادت تتمنى ذلك بالرغم من انه كان املها الوحيد ، وآخر فرصة للخـلاص . واستجمت دقيقة ، وجددت شجاعتها بالشعور بالضرورة الراهنـة ، ودخلت !

كان امام النار ، وقدماه فوق إطار المدفئة ، وهو يدخن غليونه .

وقال وهو ينهض فجأة : أنت !

– نعم أنا ! انني اريد يا رودولف ان اطلب اليك نصيحة .

وبالرغم من كافة مجهوداته ، كان مستحيلاً عليه ان يفتح فمه .

وقال : — انك لم تتغيري — انك دائماً ساحرة !

وقالت في مرارة : اوه ! إنه سحر حزين يا صديقي ، ما دمت قد احتقرته !

وعندئذ حاول ان يلتمس عذراً لسلوكه متعللاً بألفاظ غامضة إذ أنه لم يستطع ان يخترع خيراً منها .

وتركت نفسها تؤخذ بأقواله ، فضلاً عن صورته ومظهر شخصه ، حتى تظاهرت بأنها تصدق . او لعلها صدقت العذر الذي قدمه لافتراقهما، وكان هذا العذر سراً توقف عليه شرف ، بل ربمـــا حياة شخص ثالث !

وقالت : — وهي تنظر اليه في حزن : « فليكـن ! ولكنني قاسيت كثيراً ! » .

واجاب في نغمة فلسفية : « هكذا الحياة ! »

فاستأنفت ايما قائلة : « ولكن هل كانت على الأقل حياة طيبة بالنسبة اليك منذ افتراقنا ؟ »

— اوه ! لا طيبة ... ولا رديئة !

— ربما كان من الأفضل ان لو لم نفترق ابداً .

— نعم ... ربما !

وقالت وهي تقترب : « هل تعتقد ذلك ؟ »

واضافت وهي تتنهد : « أي رودولف ! لو كنت تعلم ! ... لقد أحببتك كل الحب ! » .

وعندئذ اخذت يده وبقيا بعض الوقت مشتبكي الاصابع — على نحو ما حدث في اليوم الأول في المعرض الزراعي . وبحركة كبرياء ، جاهد ضد الحنين ، ولكنه انهار على صدرها . وقـالت له : « كيف كنت تريد ان اعيش بدونك ؟ إن الانسان لا يستطيع ان يتخلص من سعادة اعتادها . لقد كنت يائسة واعتقدت اني سأموت . وسأقص عليك كل

هذا وسوف ترى . اما انت ... فقد هربت مني !... »

وذلك لأنه كان يتجنبها بعناية منذ ثلاث سنوات ، بسبب ذلك الجبن الطبيعي الذي يتميز به الجنس القوي ! واستمرت ايما في حركات لطيفة من رأسها اكثر مداعبة من حركات قطة في شبق : « انك تحب أخريات. إعترف . أوه ! انني افهمهن وأعذرهن ! لقد اغويتهن كما اغويتني ! انك رجل . انت ! ولديك كل ما يلزم لكي تكون موضع حب . ولكننا سنستأنف . أليس كذلك ؟ سيحب احدنا الآخر . انظر . ها انا اضمك . انني سعيدة !... تكلم اذن ! »

وكانت رائعة المنظر بنظراتها التي تهتز فيها دمعة ، كماء العاصفة في كأس ازرق .

وجذبها فوق ركبتيه ، وداعب بظهر يده جدائلها الناعمة التي كانت تلمع في ضوء الشفق كسهم ذهـبي في آخر شعاع للشمس ، وحنت جبهتها ، فانتهى بأن قبلها فوق جفنيها في رفق بطرف شفتيه .

وقال : ولكنك قد بكيت ! لماذا ؟

وانفجرت منتحبة ، وظن رودولف انه انفجار حبها . وعندما صمتت ظن هذا الصمت آخر احساس بالحياة . رعندئذ صاح قائلاً : « آه . اغفري لي ! انك الوحيدة التي تعجبني . ولقد كنت مغفلاً وشريراً . انني احبك وسأحبك دائماً ! ماذا بك ؟ اذن قولي ! »

وركع على ركبتيه .

فقالت : فليكن ... لقد نزل بي الخراب يا رودولف وستقرضني ثلاثة آلاف فرنك !

فقال وهو ينهض قليلاً قليلاً بينما اخذت ملامحه هيئة جادة : ولكن ... ولكن ..

واستمرت في سرعة تقـول : « انك تعرف ان زوجي كان قد وضع ثروته كلها عند موثق عقود وقد هرب . وقد اقترضنا . والعملاء

لا يدفعون وفوق ذلك فان التصفية لم تتم . وسوف ، يأتينا المال فيما بعد . ولكنهم سيحجزون علينا اليوم بسبب ثلاثة آلاف فرنك – انهم سيحجزون الآن في هذه اللحظة . وقد أتيت معتمدة على صداقتك ! »

وفكر رودولف الذي اصابه الشحوب فجأة : آه ! أمن اجل هذا أتيت !

واخيراً قال في نغمة بالغة الهدوء : « انني لا املكها يا سيدتي العزيزة » .

انه لم يكذب ، ولو انها كانت حاضرة لديه لدفعها بلا شك ، وان يكن من غير المستحب عادة اتيان مثل هذه الافعال الجميلة ! وطلب المال يعتبر – من بين الصواعق التي تسقط على الحب – اكثرهـــا برودة وتحطيماً .

وظلت اول الامر تنظر اليه عدة دقائق ثم كررت قولها : « انك لا تملكها ؟ » ولقد كان من الواجب ان اجنب نفسي هذا الخزي الاخير ! انك لم تحبني قط ! انك لا تساوي اكثر من الآخرين ! » . لقد كشفت عما بنفسها وطار صوابها .

وقاطعها رودولف مؤكداً انه هو نفسه في ضيق .

وقالت ايما : « آه . انني ارثي لك . نعم . كثيراً ! »

وثبتت عينيها فوق طبنجة مطعمة بالفضة كانت تلمع وسط مجموعة سلاحه وقالت : « ولكن عندما يكون الانسان فقيراً لا يضع الفضة في دبشك طبنجته ! ولا يشتري ساعة دقاقة مطعمة بالصدف – وأشارت الى ساعة بول الدقاقة – كما لا يشتري صفارات من العقيق لأسواطه – ولمست هذه الصفارات – ولا تحفاً يعلقها بسلسلة ساعة جيبه ! اوه ! لا شيء ينقصك ! حتى حامل الخمور في غرفة نومك – وذلك لأنك تحب نفسك وتعيش عيشة طيبة ، ولك قصر ومزارع وغابات ، وتصيد على الحصان وتقوم بالرحلات الى باريس . » وصاحت وهي تأخذ من

فوق المدفئة ازرار اكمامه : « ولو لم يكن غير هذه كأحقر حماقاتك لما استطاع الانسان ان يجمع مالاً !... أوه ! انني لا احقد عليك ! احتفظ بها ! »

ورمت بعيداً بالزرارين اللذين انفصمت سلسلتهما عندما اصطدما بالحائط .

وقالت : وأما انا فقد كنت اعطيك كل شيء ، وكنت ابيع كل شيء وأعمل بيدي بل وأستجدي على الطرقات من اجل ابتسامة — من اجل نظرة — من اجل ان اسمعك تقول : شكراً ! وها انت متربع في مقعدك وكأنك لم تتسبب لي فيما يكفي من الألم . وانت تعلم جيداً انني كنت استطيع ان اعيش بدونك سعيدة ! ما الذي اضطرك ؟ أكان رهان ؟ ومع ذلك فقد كنت تحبني وقد قلت ذلك .... بل وقلته منذ هنيهة ... آه ! لقد كان من الأفضل ان تطردني ! ان يدي لا تزالان حارتين من قبلاتك . وها هو — فوق السجادة — المكان الذي كنت تقسم فيه على ركبتيك انك ستحبني الى الأبد ! لقد حملتني على التصديق وسحبتني خلال عامين في افخم حلم وأشده عذوبة !.... آه ومشروعات سفرنا . هل تذكرها ؟ أوه ! خطابك خطابك ! لقد مزق قلبي ! ثم عندما ارتد نحوه ، نحوه هو الغني السعيد الحر لكي استجدي عوناً يمكن ان يقدمه اي إنسان ، واتضرع حاملة اليه كل حبي وحناني يردني ، لان هذا سيكلفه ثلاثة آلاف من الفرنكات ! » .

وأجاب رودولف في ذلك الهدوء الكامل الذي يتغطى به الغضب المستسلم وكأنه الدرع : « انني لا املكها ! »

وخرجت . وكانت الجدران تهتز ، والسقف يكاد يسحقها . ومرت بالمشاة الطويلة وهي تتعثر في اكوام الاوراق الميتة التي نثرتها الرياح . واخيراً وصلت الى المعبر امام السياج وكسرت اظافرها في القفل لشدة سرعتها في فتحه . وبعد ذلك بمائة خطوة توقفت لاهثة على وشك السقوط ، وعندئذ استدارت ولمحت القصر الجامد مرة اخرى : ببستانه وحدائقه

وأفنائه الثلاثة وكافة نوافذ واجهته .

واستمرت غارقة في ذهولها لا تحس من نفسها غير ضربات شرايينها التي خيل اليها انها تسمعها كموسيقى صاخبة تملأ الحقول . وكانت الارض تحت اقدامها اكثر زخاوة من موجة . ولاحت لها خطوط الحرث موجات كبيرة داكنة تتتابع ، قد اخذ جميع ما في رأسها من ذكريات وأفكار ينطلق معاً في وثبة واحدة كآلاف الخيوط التي تنبعث من صاروخ . فرأت اباها ومكتب لبريه وغرفتها هناك ، ورأت الطبيعة في مظهر آخر ، وتملكها الجنون ، وأحست بالخوف ، ثم عادت فتمالكت نفسها ، وان يكن بطريقة مختلطة . وذلك لأنها لم تعد تذكر سبب ما هي فيه من فزع ، اي مسألة النقود ، ولم تكن تتألم الا من حبها . وأحسّت بروحها تهرب من جسدها عندما تذكرت هذا الحب كما يحس الجرحى – وهم يحتضرون – بالحياة وهي تتسرب من خلال جروحهم التي تدمى !

اخذ الليل يهبط والغربان تتطاير .

وخيل اليها فجأة ان كرات في لون النار تنفجر في الهواء كطلقات الرصاص الخاطفة ثم تنداح وتدور لكي تنتهي بالذوبان في الجليد بين اغصان الاشجار . وفي وسط كل منها كان يظهر وجه رودولف . وتعددت هذه الكرات وتقارب ظهورها وهزت كيانها ثم اختفى كل شيء . وتعرفت على اضواء المنازل التي كانت تشع في الضباب .

وعندئذ مثلت امامها حالتها كالهاوية ، وأخذت تلهث لهثاً يكاد يصدع صدرها . وفي انتفاضة بطولة – كادت تردها مرحة ، انحدرت فوق الهضبة وهي تعدو ، وعبرت مرعى البقر والطريق الضيق والممشاة والسوق ، ووصلت امام دكان الصيدلي !

لم يكن هناك احد وهمّت بالدخول ، ولكن احداً قد يحضر عند دق الجرس وارتفاع صوته . ولذلك انسابت من خلال السياج وهي كاتمة انفاسها تتحسس الجدران . وتقدمت حتى وصلت الى عتبة المطبخ حيث

كانت تتقد شمعة فوق الفرن ، وجوستان المشمر الساعدين يحمل طبقاً .

– آه ! انهم يتناولون العشاء . فلننظر .

وعاد فدقت على الزجاج . وخرج .

– المفتاح ! مفتاح السطح حيث توجد ...

– ماذا !

ونظر اليها مندهشاً من شحوب وجهها الذي كان يبرز بياضه وسط ظلام الليل ، وقد لاحت له خارقة الجمال والجلال كأنها شبح ، دون ان يفهم ماذا تريد ، وقد اخذ يوجس من شيء مرعب .

واستأنفت في سرعة ، في صوت خفيض رقيق مؤثر : « انني أريده ! اعطني اياه . »

ولما كان الحاجز رقيقاً فان صوت الشوكات على الاطباق كان يسمع في حجرة الطعام .

وادّعت انها في حاجة الى ان تقتل الفيران التي تمنعها من النوم .

– يجب ان اخبر سيدي .

– لا ! ابق في مكانك .

ثم اضافت في عدم مبالاة : « آه ! لا داعي لهذا فسأخبره بكل شيء بعد هنيهة . اضيء لي الطريق ! »

ودخلت في الممشاة التي يفتح عليها باب المعمل حيث كان على الحائط مفتاح علقت به بطاقة باسم المخزن .

وصاح الصيدلي الذي نفد صبره : « جوستان ! »

وقالت ايما : « هيا . فلنصعد . »

وتبعها .

ودار المفتـــاح في القفل ، واتجهت مباشرة نحو المائدة الثالثة بفضل ذاكرتها التي احسنت قيادتها ، وامسكت بالاناء الأزرق ، ونزعت غطاءه ، ودست فيه يدها ، وأخرجتها مليئة ببودرة بيضاء أخذت تبتلعها .

وصاح وهو يلقي بنفسه عليها : « امسكي ! »
ـ اسكت ! والا حضروا !
وتملكه الهلع وود ان يستغيث !
ـ لا تقل شيئاً ! والا وقعت المسئولية كلها على سيدك ! .
ثم عادت وقد هدأت فجأة ، وكأنه هدوء واجب أدته !

وعندما عاد شارل الى المنزل فزعاً من خبر الحجز ، كانت ايما قد خرجت منه ، فصاح وبكى وأغمي عليه ، ولكنها لم تعد . أين يمكن ان تكون ؟ لقد ارسل فيليسيتيه الى منزل هوميه ومنزل السيد تيفاش ومنزل ليريه والى فندق الاسد الذهبي والى كل مكان . وفي لحظات هدوء فزعة كان يتمثل اعتباره وقد تحطم ، وثروته وقد ضاعت ومستقبل برت وقد اظلم ! بأي سبب !؟... لا جواب ! وانتظر حتّى الساعة السادسة مساءً . وأخيراً لم يعد يطيق صبراً ، وخيل اليه انها قد سافرت الى ليون فسار في الطريق العام وقطع نصف فرسخ ولم يقابل احداً . فانتظر وقتاً آخر ثم عاد . ..

وكانت قد عادت :

وتسأل قائلاً : ما الذي حدث ؟... لماذا ؟... افصحي ؟...

وجلست الى مكتبها وكتبت خطاباً أغلقته في بطء وأضافت التاريخ والساعة ثم قالت في نغمة جادة : « ستقرأه غداً . ومنذ الآن حتّى غد ارجوك ان لا توجه اليّ اي سؤال !... نعم اي سؤال ! . »

ـ ولكن !

ـ اوه ! دعني !

وتمددت بطول جسمها فوق سريرها .

واحست بطعم لاذع في فمها فاستيقظت ، ورأت شارل ، وأغلقت عينيها .

كانت تراقب نفسها في اهتمام لكي تدرك ما اذا كانت لا تتألم ، ولكن

لا ! لا شيء حتى الآن وكانت تسمع دقات الساعة وصوت النار وشارل واقفاً الى جوار مخدعها وهو يتنفس .

وفكرت لنفسها قائلة : آه ! الموت . شيء هين ! سأنام وينتهي كل شيء ! .

وشربت جرعة ماء واستدارت نحو الحائط ، واستمر هذا الطعم المزعج الذي يشبه طعم المداد . وتنهدت قائلة : « اني عطشى !... أوه ! عطشى جداً . »

وقال شارل وهو يمد اليها كوباً : ماذا بلك اذن ؟ »

– لا شيء !... افتح النافذة ... انني اختنق !

وأخذها غثيان مفاجيء حتى انها اوشكت ان لا تتمكن من سحب منديلها من تحت الوسادة .

وقالت في سرعة : « ابعده ! اقذف به ! »

واستجوبها فلم تجب ، وظلت جامدة خوفاً من ان يحملها اقل انفعال على الغثيان ، ومع ذلك اخذت تحس ببرد ثلجي يصعد من قدميها الى قلبها !

وتمتمت قائلة : « آه ! ها هو يبتديء ! »

– ماذا تقولين ؟.

كانت تدير رأسها في حركة رقيقة مليئة بالضيق ، وهي تفتح باستمرار فكيها ، وكأنها تحمل فوق لسانها شيئاً بالغ الثقل . وفي الساعة الثانية عاد الغثيان الى الظهور .

ولاحظ شارل انه كان هناك في قاع الوعاء نوع من الحصى الابيض عالقاً بجدران الخزف .

وأخذ يكرر : « هذا شيء غريب ! شيء فريد !

ولكنها قالت في صوت قوي : « لا . انك مخطيء ! »

وعندئذ مرّ بيده فوق بطنها في رقة وكأنه يداعبها ، فأطلقت صيحة

حادة ، فارتدّ الى الخلف مذعوراً !

ثم اخذت تئن في ضعف اول الامر ، وهزت كتفيها رعشة كبيرة ، وأصبحت اشد شحوباً من الملاءة التي تنشب فيها اظافرها المتشنجة . وأصبح نبضها غير المتساوي متهافتاً لا يكاد يسمع .

وأخذت قطرات العرق تنصح فوق وجهها الضارب الى الزرقة ، والذي اخذ يلوح كالمتجمد وسط ابخرة معدنية متصاعدة . وأخذت اسنانهـا تصطك وعيناها اللتان اتسعتا تنظران في غموض حولها . وعلى كافة الاسئلة لم تكن ترد الا بهزة رأس ، بل وابتسمت مرتين او ثلاث مرات. وشيئاً فشيئاً اخذ انينها يزداد قوة ، وانطلقت منها صيحة صمّاء ، فادّعت انها قد اخذت تتحسن وانها ستنهض عما قليل . ولكن التشنجات استولت عليها فصاحت : « آه ! هذا شيء فظيع ! يا الّهي ! »

وارتمى على ركبته الى جوار سريرها !

– تكلمي ! ماذا أكلت ؟ اجيبي ! استحلفك بالله !

ونظر اليها بعينين حانيتين نظرة لم تر منه مثلها قط !

وقالت في صوت متهافت : « آه !... هناك ... هناك ...

ووثب الى درج المكتب وفض الغلاف وقرأ بصوت مرتفع « لا تتهموا احداً ... » وتوقف ومر بيده فوق عينيه ثم عاود القراءة .

– كيف هذا !... الغوث ! اغيثوني !

ولم يستطع الا ان يكرر هذه الكلمة : « مسمومة . مسمومة ! »

وجرت فيليسيتيه الى هوميه الذي استجوبها في الميدان بصوت مرتفع سمعته مدام لفرانسوا في الفندق الذهبي ، ونهض بعض الناس لكي يخبروا جيرانهم ، وظلت القرية كلها ساهرة طوال الليل .

وظل شارل يدور في الغرفة ذاهلاً متلعثماً يكاد يسقط ، وهو يصطدم بالأثاث وينتزع شعره . ولم يكن الصيدلي يعتقد انه من الممكن ان يوجد مثل هذا المشهد المفزع .

وعاد الى منزله لكي يكتب الى السيد كانيفيه والى الدكتور لاريفيير وقد فقد صوابه . فكتب اكثر من خمس عشرة مسودة ، وسافر هيبوليت الى نيوشاتل ، وأخذ جوستان يهمز حصان بوفاري في عنف حتى تركه عند هضبة بواجيوم منهوكاً على وشك ان ينفق .

وأراد شارل ان يقلب صفحات قاموسه الطبي ، ولكنه لم ير شيئاً ، وكانت الأسطر ترقص امام عينيه .

وقال الصيدلي : « الهدوء ! فكل ما يلزم هو ان نعطيها ترياقاً قوياً . ما هو السم ؟ »

وأظهر شارل الخطاب فكان الزرنيخ .

واستأنف هوميه قائلاً : « يجب اذن ان نعمل تحليلاً ! »

وذلك لأنه كان يعرف ان من الواجب عمل تحليل في حالات التسمم !

وأجاب الآخر الذي لم يكن يفهم شيئاً : « آه ! افعل ! افعل ! انقذها ... »

ثم عاد الى جوارها حيث انهار على الارض فوق السجادة ، وظل مسنداً رأسه الى حافة الفراش وهو ينتحب .

وقالت له : « لا تبك ! فعما قليل لن اسبب لك متاعب . »

– لماذا ؟ ما الذي اضطرك الى هذا ؟

وأجابت : لقد كان امراً ضرورياً يا صديقي !

– الم تكوني سعيدة ؟ أكان الخطأ خطئي ؟ ومع ذلك فقد فعلت كل ما استطعت !

– نعم ... هذا حق ... انك طيب ... أنت !

ومرت بيدها في شعره في بطء . وزادت عذوبة هذا الاحساس من حزنه ، فأحس بكيانه كله ينهار يأساً من فكرة انه لا بد ان يفقدها في الوقت الذي تعترف له فيه على العكس بحب لم تعترف بمثله قط . ولم يجد شيئاً . ولم يعرف شيئاً . ولم يجرؤ . وضرورة الاسراع الى حل عاجل

قد انتهت بأن بلغت باضطرابه الى اقصاه !

واخذت تفكر في انها بالموت ستضع حداً لكافة الخيانات والحقارات والاطماع العديدة التي كانت تضنيها . وهي الآن لا تكره احداً ، وقد هبط على تفكيرها ظلام اختلطت فيه الناس والاشياء . ومن كافة اضواء الارض لم تعد انما تسمع غير الأنين المتقطع العذب المختلط ، المنبعث عن ذلك القلب المسكين ، كآخر صدى لسمفونية آخذة في الابتعاد .

وقالت – وهي تنهض فوق مرفقها : « احضروا لي الصغيرة ! »

وسأل شارل : « انك لم تعودي تتألمين . أليس كذلك ؟ »

– لا ! لا !

ووصلت الطفلة على ذراع خادمتها ، وهي مرتدية قيص نومها الطويل الذي تبرز منه قدماها العاريتان وعلى وجهها مظهر جاد وكأنها لا تزال تحلم . وأخذت تتأمل مندهشة الغرفة التي اختل نظامها ، وهي تغمض عينيها التي تعشيها المشاعل المتقدة فوق الأثاث . وقد ذكرتها بلا ريب بصباح ايام رأس السنة او عيد الصيام الكبير ، عندما كانوا يوقظونها في الصباح المبكر على ضوء الشموع ، ثم تأتي الى سرير امها لكي تتسلم الهدايا ، لأنها اخذت تقول : « اين اذن ماما ؟ »

وعندما صمت الجميع قالت : « ولكنني لا ارى حذائي الصغير ! »

وانحنت بها فيليسيتيه نحو السرير بينما ظلت هي تنظر ناحية المدفئة وقالت : « هل المرضعة هي التي اخذته ؟ »

وعند سماع هذا الاسم الذي عاد بها الى ذكري اثمها وكوارثها ، ادارت مدام بوفاري رأسها وكأنها تشمئز من سم آخر اكثر قوة اخذ يصعد الى فمها ! ومع ذلك بقيت برت قابعة فوق السرير .

وقالت : « أوه ! ما اكبر عينيك يا أماه ! كم انت شاحبة ! ما اغزر عرقك !... »

وأخذت الأم تنظر اليها . فارتدت الطفلة الى الخلف وهي تقول :

« اني خائفة »

وأمسكت ايما بيدها لكي تقبلها ولكنها اخذت تتملّص منها .

وصاح شارل الذي كان ينتحب في احد الأركان : « كفى ! خذوها ! »

ثم توقفت الأعراض لحظة فلاحت أقل هياجاً . وعند كل كلمة تافهة او نفس من صدرها أكثر سكوناً ، كان يعاوده الألم ، وأخيراً عندما دخل كانيفيه ارتمى بين ذراعيه !

وقال : آه ! انه انت ! شكراً ! انك طيب ! لقد أخذت تتحسن : هيا . أنظر اليها ...

لم يكن الزميل من هذا الرأي قط . ولما لم يكن يعرف المواراة – كما قال هو نفسه – فقد أوصى بمقيء لكي يخلي المعدة اخلاءً كاملاً .

ولم تلبث ان قاءت دماً ، وازدادت شفتاهـــا التصاقاً ، وتصلّبت أعضاؤها ، وتغطى جسمها ببقع داكنة ، وأخذ نبضها يهرب تحت الاصابع كالخيط المشدود ، او كوتر العود الموشك على الانقطاع .

ثم أخذت تصيح صياحاً فظيعاً وتلعن السم وتسب ، وتضرع اليه كي يسرع ، وتدفع بذراعيها المتصلبتين كلما حـــاول شارل ، الاكثر احتضاراً منها ، ان يحملها على شربه . وكان شارل واقفاً ومنديله فوق شفتيه وهو ينتحب ويبكي ويختنق بالشهقات التي تهزه حتى عقبيه ، وفيليسيتيه تجري في الغرفة هنا وهناك ، وهوميه جامد في مكانه يرسل التنهدات الكبيرة ، والسيد كانيفيه قد أخذ يشعر بالاضطراب بالرغم من احتفاظه المستمر برباطة الجأش .

وقال كانيفيه : « امر غريب ، ومع ذلك .. فقد تطهّرت معدتها وما دام السبب قد توقف .... »

فقال هوميه : « يجب ان يتوقف الأثر . هذا واضح ! »

وصاح بوفاري : « ولكن انقذوها ! »

وبالرغم من ان الصيدلي قد جازف ايضاً بفرض هو قوله : « قد تكون قمة الازمة التي تأتي بعدها النجاة » فإن كانيفيه لم ينصت اليه ، وأسرع الى اعطائها ترياقاً . ثم سمعت قرقعة سوط اهتزت له كافة ألواح الزجاج ، ودلفت في قفزة الى ركن السوق عربة اجرة فخمة ، تخب بها ثلاثة خيول ملطخة بالوحل حتى آذانها . وكان بالعربة الدكتور لاريفيير .

ولو ان إلهاً ظهر لما سبب انفعالاً أكبر ، فبوفاري يرفع يديه ، وكانيفيه يتوقف فجأة ، وهوميه يخلع طاقيته الأغريقية قبل ان يدخل الدكتور بوقت طويل .

كان ينتمي الى المدرسة الجراحية الكبيرة المتخرجة على الاستاذ ريشيه ، الى ذلك الجيل الذي اختفى الآن ، والذي كان مكوناً من الأطبـاء الفلاسفة ، الذين كانوا يحبون فنهم حبّ تعصب ، ويزاولونه في حماسة ومهارة حكيمة . وكان كل ما في مستشفاه يرتعد عندما يغضب . وكان تلاميذه يجلّونه الى حد انهم كانوا يحاولون بمجرد ان يستقروا ، ان يقلدوه الى أبعد حد ، حتى كانوا يرون في المدن المجاورة وهم مرتدون مسوحه الصوفي الطويل ، ومعطفه الاسود الواسع ، الذي كانت اكمامه المفتوحة الازرار تغطي قليلاً ايديهم الرخصة — اياد بالغة الجمال لم تكن ترتدي قط القفازات لكي تستطيع ان تكون اكثر سرعة في الانغماس في مآسي الناس . وكان في احتقاره للنياشين والالقاب والاكاديميات ، وفي كرمه وسخائه وعطفه على الفقراء ، ومزاولته للفضيلة دون اي رجاء — يكاد يكون قديساً . لولا ان نفاذ روحه ولذعها ، كانا يجعلانه مخوفاً كشيطان ! وكانت نظرته الأشد مضاء من مشرطه تغوص في النفس ، وتشرح كل كذب خـلال الادعاء والحياء . وهكذا سار مليئاً بتلك العظمة البسيطة الخيرة ، التي يمنحها الاحساس بالموهبة العظيمة وبالثروة ، وبأربعين عاماً من حياة مجدّة لا غبار عليها .

وقطّب حاجبيه منذ الباب عندما لمح وجه ايما في شحوب الموت وهي ممددة على ظهرها فاغرة الفم . ثم انه بينما كان يبدو منصتاً لكانيفيه، كان يمر بسبابته تحت انفها وهو يقول : «حسن حسن !»

ولكنه هزّ كتفيه هزة بطيئة ، ولاحظه بوفاري ، وأخذ احدهما ينظر الى الآخر . وبالرغم من تعود هذا الرجل على رؤية الآلام ، الا انه لم يستطع ان يمسك دمعة انحدرت فوق صداره .

وأراد ان يصطحب كانيفيه الى الغرفة المجاورة فتبعه شارل الذي قال : «انها في حالة سيئة . أليس كذلك ؟ ماذا لو وضعنا لها لبخات ؟ لست ادري ماذا ؟ اعثر لها اذن على شيء . انت الذي طالما انقذت !»

وطوقه شارل بذراعيه ، وأخذ يتأمله على نحو فزع ضارع ، وقد اصيب بشبه اغماء فوق صدره .

فقال الدكتور : «هيا ! يا غلامي المسكين ! تشجّع . ليس هناك ما يمكن عمله !»

ودار الدكتور لاريفيير على عقبيه .

ــ أذاهب انت ؟

ــ سأعود !

لقد خرج ، وكأنما ليعطي امراً الى السائس ، ومعه السيد كانيفيه ، الذي لم يكن حريصاً هو الآخر على ان يرى ايما تموت بين يديه .

وانضم اليهما الصيدلي في الميدان حيث انه بطبيعته لم يكن يستطيع ان ينفصل عن الرجال المشهورين ! ولذلك استحلف السيد لاريفيير ان يسبغ عليه شرفاً عظيماً بأن يقبل الغداء معه .

وأرسل في سرعة لكي يحضر ما في فندق الاسد الذهبي من حمام ، وكل ما عند الجزار من « كستليتة » ، والكريمة من عند تيفاش ، والبيض من عند ليستيبودوا . وساهم الصيدلي بنفسه في الاعداد بينما قالت مدام هوميه وهي تشدّ حزام مريلتها : «نسألك المعذرة يا سيدي ، وذلك

لأنه في قريتنا المسكينة ما لم يكن لدى الانسان علم من اليوم السابق ... »
وهمس هوميه قائلاً : « الأكواب ذات الأرجل ! »
وقالت السيدة : « لو اننا كنا في المدينة لاستعنّا على الأقل بالكوارع المحشوة » .
وقال هوميه : « اسكتي ! ... الى المائدة يا دكتور ! »
ورأى بعد تناول القطع الأولى ان يقدم بعض التفاصيل عن الكارثة .
قال : ـ لقد لاحظنا اولاً جفافاً في الحنجرة، ثم آلاماً مبرحة في فم المعدة وإسهالاً شديداً وغيبوبة .
ـ وكيف تسممت إذن ؟
ـ لست ادري يا دكتور ! بل ولا اعلم أين استطاعت ان تجد حامض الزرنيخ !
وعندئذ اخذت جوستان الذي كان يحمل صفاً من الأطباق رعشة .
وقال الصيدلي. : « ماذا بك ؟ »
وعندما سمع الشاب هذا السؤال سقط على الارض كل ما بين يديه في ضجة كبيرة .
فصاح هوميه : « مغفل ! أخرق ! خائب ! حمار ! »
ولكنه تماسك فجأة ليقول : « وقد اردت يا دكتور ان اعمل تحليلاً، وابتدأت بأن ادخلت في رفق داخل انبوبة ... »
وقال الجراح : « لقد كان من الأفضل ان تدخل اصابعك في حلقها ! » .
وكان زميله يلتزم الصمت ، بعد ان سمع ـ على حدة ـ لوماً شديداً فيما يختص بالمقيء الذي قدمه . حتى ان هذا السيد كانيفيه الذي كان متغطرساً وثرثاراً عند حادثة الرجل العرجاء ، اصبح اليوم متواضعاً ، يبتسم بغير انقطاع ابتسام الموافقة !
كان هوميه مزدهراً في زهو كرمه الخارق ، وكانت صورة بوفاري

المحزنة تؤدي في غموض الى سروره ، وذلك عندما يقارن نفسه بشارل! ثم إن حضور « الدكتور » كان ينعشه ، فأخذ يعرض علمه فيتحدث حيثما اتفق عن الذباب الهندي وسم نبات الإيبـــاس ، وشجرة الزقوم والعقرب !

ـ بل لقد قرأت يا دكتور عن اناس تسمموا ـ وكأنهم قد صعقوا ـ بالسجق الذي تعرض لعملية تدخين شديدة ، وقد كان هذا في تقرير فخم ألفه واحد من أعلام الصيدلة عندنا ، أحد اساتذتنا ، وهو العالم المشهور كاديه دي جاسيكور !

ثم عادت مدام هوميه وهي تحمل إحدى تلك العدد الحربـــة ، التي توقد بكحول النبيذ ، وذلك لأن هوميه قد حرص على ان يصنع قهوته على المائدة ! وكان قد حمّص البن وطحنه وتبّله بنفسه !

وقال باللاتينية وهو يقدم السكر : « سكاروم يا دكتور ! »

وأنزل كافة أطفاله ، الذين كانوا حريصـــين على ان يأخذوا رأي الجرّاح في بنيتهم !

واخيراً ، بينما كان السيد لاريفيير يهمّ بالرحيل ، طلبت اليه مدام هوميه استشارة خاصة بزوجها ، عن نومه كل مساء بعد العشاء ، مما يصيب دمه بالغلظ !

ـ اوه ! ولكن عقله لا يشكو من هذا الغلظ !

وفتح « الدكتور » الباب وهو يبتسم قليلاً من هذه النكتة الخفية . ولكن الصيدلية كانت غاصّة بالناس ، ووجد مشقة كبيرة في ان يتخلص من السيد تيفاش ، الذي كان يخشى على زوجته التهاباً رئوياً ، لأنها اعتادت ان تبصق في رماد المدفأة ! ثم السيد بينيه الذي يشكو احياناً من الجوع المؤلم المفاجىء ! ومدام كارون التي تشكو الحكة ، ولبريه الذي يشكو الدوار ، وليستيبودوا الروماتيزم ، ومدام لوفرانسوا الحموضة ! واخيراً انطلقت الخيول الثلاثة . وقد رأوا بوجه عام انه لم يكن مجاملاً !

وتحول الانتباه العام بظهور السيد بورنيسيان ، وهو يمر تحت السوق بزيوته المقدسة .

وقارن هوميه – بحكم مبادئه – القسس بالغربان ، التي تجتذبها رائحة الموتى ! وكانت رؤية احد رجال الكهنوت ممضة لشخصه ، وذلك لأن المسوح كان يجعله يتخيل بالكفن ، وكان يبغض احدهما الى حد ما خوفاً من الآخر !

ومع ذلك ، فإنه لم يكن يتراجع امام ما يسميه رسالته ، ولذلك عاد الى منزل بوفاري في صحبة كانيفيه ، الذي كان السيد لاريفيير قد كلّفه بشدة – قبل ان يرحل – بالعودة الى هناك .

وحتى بدون توصيات زوجته ، كان لا بد من ان يصطحب معه ولديه ، لكي يعتادا الظروف القاسية ، ولكي يكون هذا درساً ومثلاً ولوحة مسجلة تبقى في الرأس بعد ذلك !!

كانت الغرفة عندما دخلوا مليئة بجو جنائزي . وفوق منضدة حياكة مغطاة بفوطة بيضاء، خمسة او ستة كرات صغيرة من القطن ، في طبق من الفضة ، الى جوار صليب كبير ، بين شمعدانين متقدين . وكانت ايما محنية الذقن فوق صدرها ، وقد فتحت جفنيها على نحو أوسع من المألوف ، ويداها المسكينتان تتحسسان الملاءات في حركة مخيفة رقيقة تصدر عن المحتضرين ، الذين يلوح انهم يريدون عندئذ ان يتغطوا بالكفن . وهي شاحبة كالتمثال ، وعيناها محمرّتان كالجمر ، وشارل واقف امامها دون بكاء عند ساق السرير، بينما ركع القسيس على ركبته، وأخذ يتمتم في صوت خفيض بعض العبارات .

وادارت وجهها في بطء ، ولاح انها قد تملكتها النشوة اذ رأت فجأة المسوح البنفسجي . ولا شك انها قد عادت فأحست وسط هذا الهدوء الخارق، بتلك اللذة المفقودة التي كانت تستشعرها في انطلاقاتها الصوفية الأولى مع رؤى من السعادة الخالدة التي اخذت تبتديء .

ونهض القسيس لكي يأخذ الصليب . وعندئذ مدت رقبتها كمن به ظمأ ، وألصقت شفتيها فوق جسم «الرجل الإله » ، ووضعت فوقه، بكل قوتها المولية ، أكبر قبلة حب اعطتها في حياتها . ثم ردّد القسيس « رحمتك يا الله » وصلاة الاستغفار ، وغمس اصبعه الأيمن في الزيت، وابتدأ المسحات الأخيرة : اولاً على عينيها اللتين طالما تطلعتا الى المتع الأرضية ، ثم فوق أنفها المولع بالنسمات الفاترة والروائح الغرامية ، ثم فوق فمها الذي كان مفتوحاً للكذب والذي كان يئن من التكبر ويصيح من الشهوة ، ثم فوق اليدين اللتين كانتا تتلذذان باللمسات العذبة ، واخيراً فوق مسطح قدميها اللتين كانتا – فيما مضى – بالغي السرعة في الجري لإشباع رغباتها ، واللتين لن تعودا تسيران الآن .

وجفّف القسيس اصابعه وألقى الى النار بقطع القطن المبلّلة بالزيت ، وعاد ليجلس الى جوار المحتضرة لكي يخبرها ان من واجبها الآن ان تضم آلامها الى آلام المسيح وان تستسلم للرحمة الإلهية .

وعندما انتهى من وصاياه ، حاول ان يضع في يدها شمعة باركها ، رمزاً لأمجاد السماء التي ستحيط بها بعد قليل ، ولكن ايما البالغة الضعف، لم تستطع ان تغلق اصابعها ، ولولا السيد بورنيسيان لسقطت الشمعة على الأرض .

ومع ذلك، فانها لم تعد شاحبة كما كانت ، وقد انتشر على وجهها مظهر اطمئنان ، وكأن الطقوس الدينية قد شفتها .

ولم يغفل القسيس عن إبداء هذه الملاحظة ، بل وشرح لبوفاري كيف ان الله يمدّ احياناً في حياة الأشخاص عندما يرى ذلك ملائماً لخلاصهم . وتذكر شارل كيف انها تلقت يوماً وهي قريبة من الموت، طعام التناول، وظن انه ربما لم يكن هناك محل لليأس .

وبالفعل، نظرت حولها في بطء كمن يستيقظ من حلم ، ثم طلبت في صوت واضح مرآتها ، وظلت محنية فوقها بعض الوقت حتى تساقطت

من عينيها دموع كبيرة . وعندئذ طرحت رأسها الى الخلف وهي تتنهد، وعادت الى السقوط فوق الوسادة .

أخذ صدرها بعد ذلك مباشرة يلهث في سرعة ، وخرج لسانها كله من فمها ، وشحبت عيناها وهما تدوران ككرتي مصباح تنطفئان ، حتى ظنّ انها قد ماتت ، لولا الانتفاضات المخيفة في اضلاعها التي كانت تهتزّ بنفس عنيف ، وكأن الروح تقوم بوثبات كي تتخلّص من الجسد . وركعت فيليسيتيه امام الصليب ، بل وثنى الصيدلي نفسه ركبتيه قليلاً ، بينما أخذ السيد كانيفيه ينظر الى الميدان في غير هدف . وكان بارناسيان قد أخذ يعود الى عمله كقسيس ، ووجهه محني فوق حافة السرير ، وفوقه مسوحه الطويل الأسود الذي يجره من خلفه في المنزل . وكان شارل راكعاً على ركبتيه من الناحية الأخرى، ماداً ذراعيه نحو ايما وقد أخذ يديها وضمها ، وهو ينتفض لكل ضربة من ضربات قلبها ، وكأنها هزات خرائب تنقض . وكلما اشتدت الحشرجة ، أسرع القسيس في مواعظه التي كانت تختلط بانتحابات بوفاري المكبوتة . واحياناً كان يلوح ان كل شيء يختفي في التمتمة الصامتة للمقاطع اللاتينية ، التي كانت ترن كدقات ناقوس حزين !

وفجأة ، سمعت على الرصيف ضوضاء حذاء خشبي سميك مع حفيف عصا وصوت أجش يرتفع مغنياً : « كثيراً ما تدفع حرارة يوم صحو الصبية الى ان تحلم بالحب » .

ونهضت ايما كالجثة التي ينفخون فيها الحياة ، محلولة الشعر ، جامدة الحدقة مفتوحتها .

واستمرّ الصوت يغني : « لكي تجمع – في خفة – السنابل التي يحصدها المنجل ! ها هي حبيبتي قامت تنحني فوق خط المحراث الذي يعطينا هذه السنابل ! »

وصاحت ايما : « الأعمى ! » ثم أخذت تضحك ضحكاً مؤلماً

مجنوناً يائساً ، معتقدة انها ترى الوجه المخيف لهذا الشقي ، الذي ينهض في الظلمات الأبدية كشبح مرعب .

واستمر الغناء : « وهبت الريح قوية في ذلك اليوم ، وتطـــايرت الجونلة القصيرة »

وألقت بها شهقـــة فوق الحشية ، واقترب الجميع ... كانت قد فارقت الحياة !

* * *

هناك دائماً بعد موت أحد من الناس ، شيء يشبه الذهول الذي يملأ الجو ، وذلك لأنه من الصعب فهم هذا العدم الطـارىء ، والاستسلام لتصديقه . ومع ذلك فإن شارل ، عندما تبين جموده، لم يلبث ان ألقى بنفسه عليها وهو يصيح : « الوداع ! الوداع ! » .

وقاده هوميه وكانيفيه الى خارج الغرفة وهما يقولان : « إهدأ ! »

فقال وهو يتملّص : « نعم ! سأكون معقولاً ، ولن أعمل سوءاً ، ولكن اتركاني ! أريد ان أراها ! انها زوجتي ! » .

وأخذ يبكي !

وقال الصيدلي : « إبكِ . اطلق العنان للطبيعة ، فان هذا سيسري عنـــك ! » .

واصبح شارل اكثر ضعفاً من طفل ، واسلم قياده ، فصحبوه الى الصالة في الطابق الأرضي . وبعد ذلك بقليل عاد هوميه الى منزله .

وفي الميدان، تعرض له الأعمى الذي تحامل حتى وصل الى ايونفيل على أمل ان يحظى بالمرهم المضاد للالتهاب الرئوي ، وكان يسأل كل من يمر أين يقيم الصيدلي .

وقال الصيدلي : « حسن ! هيا . كأنني خلو من المنغصات ! آه !

فليكن . ارجع اليّ فيما بعد » .

ودخل مسرعاً الى الصيدلية .

وكان عليه ان يكتب خطابين ، وان يعد شراباً مهدئاً لبوفـاري ، وان يجد اكذوبـة للتستّر على التسمم ، وان يحررهـا مقالاً لصحيفة « الفنال » . ذلك فضلاً عن الأشخاص الذين كانوا ينتظرونـه لكي يحصلوا على أخبار . وبعدما سمع اهل ايونفيل قصته الخاصـة بالزرنيخ الذي اعتقدته سكّراً وهي تصنع كريمة بالقرفة ، عاد هوميه ثانية الى منزل بوفاري !

لقد وجده وحيداً بعد ان سافر السيد كانيفيه ، وقد جلس في فوتي الى جوار النافذة ، واخذ يتأمل بلاط الصالة في نظرة بلهاء !

وقال الصيدلي : — « يجب ان تحدّد بنفسك ساعة الاحتفال» .

— لماذا ؟ اي احتفال ؟

ثم اضاف بصوت متلعثم فزع : « أوه ! لا . أليس كذلك ؟ لا . إنني اريد ان احتفظ بها ! »

وأخذ هوميه — على سبيل التماسك — دورقـاً من فوق الرف لكي يسقي شجيرات الجيرانيوم .

وقال شارل : — « آه ! شكراً . انك رجل طيب ! »

ولم يستطع ان يتم عباراته لانه اختنق تحت فيض من الذكريات التي اثارتها حركة الصيدلي .

وعندئذ رأى هوميه انه من المناسب ان يتحدّث قليلاً عن فلاحـة البساتين لكي يسري عنه ، فالنباتات في حـاجة الى رطوبة ! وطأطأ شارل رأسه دليلاً على الموافقة .

وقال هوميه : « وفضلاً عن ذلك فإن ايام الجو الجميل على وشك العودة » .

فقال شارل : « آه ! »

وأحسّ الصيدلي بأفكاره تنضب، فأخذ يحرك في رفق الستائرالصغيرة المثبتة على ألواح الزجاج .

ثم قال : «آه! ها هو السيد تيفاش يمر » .

فردُد شارل كالآلة : « السيد تيفاش يمر » .

ولم يجرؤ هوميه على ان يعود ليحدثه عن اجراءات الجنازة ، وانما القسيس هو الذي استطاع ان يحل هذا الإشكال .

وحبس نفسه في مكتبه واخذ قلماً . وبعد ان انتحب بعض الوقت كتب : « اريد ان تدفن في ثوب زفافها وفي حذاء ابيض وتـاج ، وان ينشر شعرها على كتفيها . واريد ثلاثة نعوش : واحد من البلوط وواحد من السفط وواحد من الرصاص ، ولا اريد ان اسمع شيئاً من احد ، فستكون لدي القوة . ويوضع فوق كل هذا قطعة كبيرة من القطيفة الخضراء . هذا ما أريده فافعلوه » .

ودهش هؤلاء السادة كثيراً من أفكار بوفاري الخياليـة . وعندئذ ذهب الصيدلي فوراً ليقول له : « ان هذه القطيفة تلوح بذخاً كمالياً ثم ان التكاليف ... » .

فصاح شارل : « هل هذا يخصك ؟ دعني ! انك لم تكن تحبها ! اخرج ! » .

وتأبط القسيس ذراعه لكي يحمله على ان يقوم بنزهة في الحديقة ، وأخذ يتحدث عن غرور الحياة الدنيا ويوضح كيف ان الله عظيم طيب ، وانه من الواجب ان نخضع لإرادته دون تململ ، بل وأن نشكره .

وانفجر شارل في اللعنات ثم قال : « لقد عفوت عنه، إلهك هذا ! »

وتنهّد القسيس قائلاً : « ان روح الثورة لا تزال كامنة فيك ! »

وكان شارل قد ابتعد وأخذ يسير بخطوات كبيرة في محاذاة الجدار بالقرب من العريشة ، وهو يضغط اسنانه بشدّة ، ويرفـع الى السماء نظرات اللعنة . ولكن ورقة واحدة فوق غصن لم تتحرك لذلك !

وأخذ مطر خفيف يسقط ، وكان شارل عاري الصدر ، فاذا به يرتعد ، فدخل لكي يجلس في المطبخ.

وفي الساعة السادسة سمعت ضوضاء حديدية في الميـــدان ، وكانت « العصفورة » هي التي وصلت. وظل ملصقاً جبهته بزجاج النافذة ليرى المسافرين ينزلون الواحد بعد الآخر. ومدّت له فيليسيتيه حشية في الصالون ألقى بنفسه فوقها ونام.

وبالرغم من ان السيد هوميه كان فيلسوفاً ، الا انه كان يحترم الموتى ! ولذلك لم يضمر ضغناً لشارل المسكين ، وعاد في المساء لكي يسهر الى جوار الجثة حاملاً معه مجلدات ثلاثة ، ومفكرة لكي يدون مذكرات.

كان السيد بورنيسيان موجوداً ، وشمعتان كبيرتان تتقدان عند رأس السرير الذي كانوا قد جرّوه من المخدع.

ولم يلبث الصيدلي، الذي أثقله الصمت، ان تفوّه ببعض الأنّات لتلك « الشابة » المنكودة الحظ. وأجـــاب القسيس بأنه لم يبق الآن الا ان يصلوا من اجلها.

فقال هوميه : « ومع ذلك فنحن بين أمرين. إما انها قد ماتت في مغفرة ورضوان كما تقول الكنيسة ، وهي في هذه الحالة لا تكون في حاجة الى صلواتنا ، واما ان تكون قد ماتت عاصية كما يقول التعبير الكهنوتي وعندئذ ... »

وقاطعه بورنيسيان مجيباً بنغمة خشنة انه في اية حالة لا بد من الصلاة.

فاعترض الصيدلي قائلاً : « ولكن ما دام الله يعلم ... »

فقال القسيس : « كيف ؟ الصلاة ؟ انك اذن لست مسيحياً ! »

وقال هوميه : « عفواً ! انني معجب بالمسيحية التي حرّرت الارقاء وأدخلت الاخلاق في العالم. »

— ليس هذا هو المقصود ! ان كافة النصوص ...

— أوه ! أوه ! أما عن النصوص فافتح التاريخ. لقد زورهـــا

كلها اليسوعيون .

ودخل شارل وتقدم نحو السرير وشدّ الستائر في بطء .

كان رأس ايما منحنياً فوق كتفها الايمن ، وزاوية فمها التي كانت مفتوحة،تشبه حجراً اسود في اسفل وجهها ، وقد ظل ابهاماها مطويين في راحة يديها ، ونوع من التراب الابيض ينتشر فوق اهدابها ، وقد أخذت عيناها تختفيان في شحوب هلامي يشبه غشاء رقيقاً ، وكأنه العنكبوت قد نسج فوقها . وتجوفت الملاءة من ثدييها الى ركبتيها ، ثم ارتفعت بعد ذلك عند اطراف اصابع قدميها ، وقد لاح لشارل ان اثقالاً لا نهاية لها واحمالاً كبيرة تثقلها .

ودقت ساعة الكنيسة الثانية، وكان يسمع خرير النهر الذي ينساب في الظلام عند اسفل الشرفة ، وكان السيد بورنيسيان يتمخّط في ضوضاء من وقت الى آخر ؛ وهوميه يصر قلمه فوق الورق .

وقال : « هيا يا صديقي انسحب، فان هذا المنظر يمزقك ! . »

وبمجرد ان انسحب شارل استأنف الصيدلي والقسيس مناقشتهما .

قال احدهما : « اقرأ فولتير . اقرأ هولسباخ . اقرأ دائرة المعارف ! »

وقال الآخر : « اقرأ رسائل لبعض يهود البرتغال . اقرأ حكمة المسيحية للقاضي القديم نيقولا . »

والتهب واحمرّ وجهاهما ، وتكلّما في وقت واحد دون ان ينصت احدهما للآخر . فبورنيسيان يشمئز من مثل هذه الجرأة ، وهوميه يدهش من مثل هذا التغفيل . ولم يكونا بعيدين عن ان يتسابّا عندما عاد شارل فجأة الى الظهور ، وكأن مغناطيساً يجذبه فيصعد السلّم باستمرار .

ووقف في مواجهتها لكي يحسن رؤيتها ، وضل في مثل هذا التأمل الذي لم يكن مؤلماً لشدة عمقه .

وتذكر قصص التشنج العصبي ومعجزات المغناطيسية ، وقال لنفسه انه بشدة رغبته فيها،ربما استطاع ان يبعثها الى الحياة ، بل وانحنى مرة

فوقها ، وصاح بصوت خفيض : « اما ! اما ! » واهتز لهب الشموع على الحائط من نَفَسه الذي كان يخرجه بقوة .

وعند مطلع الفجر ، وصلت مدام بوفاري الأم . وعندما قبلها شارل سكب فيضاً جديداً من الدموع ، وحاولت كما حاول الصيدلي من قبل، ان تبدي له بعض الملاحظات عن تكاليف الدفن ، وغضب في شدة اسكتتها ، بل وكلّفها بأن تذهب فوراً الى المدينة لكي تشتري ما يلزم .

ظلّ شارل وحيداً بعد الظهر كله . وكانوا قد ذهبوا ببرت الى منزل مدام هوميه ، وظلت فيليسيتيه في أعلى بالغرفة مع مدام ليفرانسوا .

وفي المساء استقبل عدة زائرين ، وكان ينهض ويصافح الايدي دون ان يستطيع الكلام . ثم جلسوا بعضهم الى جوار بعض في شكل نصف دائرة كبيرة امام الغرفـــة ، والوجوه منكّسة ، والافخاذ مثنية،والسيقان تتأرجح ، وهم يرسلون من وقت الى آخر تنهدات كبيرة ، وكل منهم يحس بالملل على نحو مفرط ؛ ومع ذلك كانوا يتنافسون في البقاء اطول فترة ممكنة !

وعندما عاد هوميه في الساعة التاسعة ــ بعد ان ظل بمفرده منذ ساعتين في الميدان ــ كان محملاً بكمية من الكافور واللبان الجاوي والاعشاب العطرية ، كما كان يحمل إناء مليئاً بالكلور لكي يطرد الروائح الكريهة . وفي هذه اللحظة ، كانت الخادمة ومدام ليفرانسوا والأم بوفاري يدرن حول اما ، وقد انتهين من إلباسها ثيابها ، وطرحن فوقها الوشاح اليابس الذي غطاها حتى حذائها المصنوع من الساتان .

وكانت فيليسيتيه تنتحب وهي تقول : « آه يا سيدتي المسكينة ! يا سيدتي المسكينة ! »

وقالت صاحبة الفندق وهي تتنهد : « انظروا اليها . كيف لا تزال جميلة ! ان الانسان ليكاد يقسم انها ستنهض بعد برهة . »

ثم انحنين لكي يلبسنها تاجها .

وكان لا بد من رفع رأسها قليلاً ، وعندئذ انسكب من فمها فيض من السوائل السوداء وكأنه قيء !

فصاحت مدام ليفرانسوا : « آه ! يا آلهي ! الثوب ! خذن حذركن ! »

وقالت للصيدلي : « اعينونا اذن ! اخائفون انتم ؟ »

فأجاب : « انا خائف ؟ هيا . لقد رأيت الكثيرات غيرها في مستشفى اوتيل ديو عندما كنت ادرس الصيدلة . وكنا نشرب الانخاب في صالة التشريح . والعدم لا يخيف فيلسوفاً ؛ بل انني كثيراً ما اقول ان في عزمي ان أوصي بجسمي للمستشفيات لكي انفع العلم فيما بعد ! »

وعندما وصل القسيس سأل عن حالة السيد ، وحينما اجابه الصيدلي استأنف يقول : « انكم تقدرون ان الصدمة لا تزال حديثة جداً ! »

وعندئذ هنأه هوميه بأنه ليس معرضاً كغيره من الناس الى ان يفقد رفيقة عزيزة . وعندئذ تولدت مناقشة عن عزوبة القسس .

وقال الصيدلي : « ذلك لأنه من غير الطبيعي ان يستغني الرجل عن المرأة ! ولقد حدثت جرائم ... »

فصاح القسيس : « ولكن بالله كيف تريد من شخص مشتبك بالزواج ان يستطيع الاحتفاظ مثلاً بأسرار الاعترافات ؟ »

وهاجم هوميه مبدأ الاعتراف ، ودافع عنه بورنيسيان ، وأسهب في الحديث عن الاوضاع التي يعيدها الى نصابها ، وذكر عدة قصص عن لصوص اصبحوا شرفاء فجأة ، ورجال الحرب الذين احسوا بالغشاوة تسقط عن اعينهم بمجرد ان اقتربوا من كرسي النـــدم ، وكان في فرايبورج قسيس .....

وكان رفيقه قد اخذ يغط في النوم ! ثم انه اخذ يحس بالاختناق في جو الغرفة الثقيل ، ففتح النافذة واذا بالصيدلي يستيقظ .

وقال : « هيا ! قليلاً ! السعوط ! اقبل ! انه ينعش ! »

وكان نباح مستمر يتتابع بعيداً في ناحية ما .

وقال الصيدلي : « هل تسمع كلباً ينبح ؟ »

فأجاب القسيس : « انهم يدّعون ان الكلاب تشم الموتى ، وهي كالنحل تنطلق من الخلية عند موت الاشخاص . »

ولم يعلق هوميه على هذا الاعتقاد القديم، اذ انه كان قد عاد الى النوم !

واستمر السيد بورنيسيان الاقوى بنية يحرك شفتيه في صوت خفيض لوقت ما ، ثم حنى ذقنه على نحو غير محسوس ، وتخلى عن كتابه الضخم واخذ يشخر !

كانا وجهاً الى وجه ، والبطن بارزة الى الامام ، والوجه محتقن ، والجبين مقطب بعد كل هذه الخلافات ! وقد التقيا اخيراً في نفس الضعف البشري ولم يعودا يتحركان ، أكثر من الجثة التي الى جوارهما ، والتي تبدو وكأنها نائمة .

وعندما دخل شارل لم يوقظها ، وكانت هذه هي المرة الاخيرة ، وقد جاء لكي يودعها الوداع النهائي .

كانت الاعشاب العطرية لا تزال ترسل الدخان ، ودوّامات من البخار الضارب الى الزرقة تختلط عند حافة النافذة مع الضباب الذي أخذ يدخل . وكانت لا تزال هناك بعض النجوم ؛ وكان الليل عذباً .

كان وهن الشموع يتساقط دموعاً كبيرة فوق ملاءة السرير ، وأخذ شارل ينظر اليها وهي تحترق ، ويضني عينيه بشعاع لهيبها الاصفر !

كان البريق يهتز فوق ثوب الساتان الابيض وكأنه ضوء القمر ، وقد اختفت اعما تحته . وقد خُيل اليه انها قد انسكبت خارج نفسها، وانها قد اختلطت في غموض مع ما يحيطها من اشياء وسط الصمت والليل ، والريح التي تخترق الروائح الرطبة المتصاعدة .

ثم رآها فجأة في حديقة توست على المقعد الى جوار سياج الاشواك، او في روان في الشوارع عند عتبة منزلهم في فناء برتو ، وسمع ثانية ضحك

الغلمان في مرح وهم يرقصون تحت اشجار التفاح . وكانت الغرفة مليئة بعطر شعرها ، وثوبها يُصدر حفيفاً بين ذراعيه مع صوت البرق . وكانت هي هي !

وأمضى وقتـاً طويلاً في تذكر كل هذه السعادات التي اختفت ، وأوضاعها وحركاتها ونبرة صوتها . وبعد يأس كان يطرأ يأس آخر ، وهكذا باستمرار على نحو لا ينتهي ، كأمواج المد الطاغية .

ودفعه حب استطلاع مخيف الى ان يتحسس في بطء بأطراف اصابعه ، ويرفع الوشاح ، ولكنه اطلق صيحة فزع ايقظت الاثنين الآخرين ، فقاداه الى اسفل في الصالة .

ثم انت فيليسيتيه لكي تقول انه يطلب خصلة شعر .

فاجاب الصيدلي : « قصِّي خصلة ! »

ولما لم تجرؤ تقدم بنفسه والمقص في يده ، وكان يرتعش بشدة ، حتى انه اخترم جلد الصدغين في عدة مواضع ، واخيراً شدّ هوميه نفسه ضد الانفعال ، وضرب بالمقص ضربتين او ثلاث ضربات قوية تركت بقعاً بيضاء وسط هذا الشعر الاسود الجميل .

وانغمس الصيدلي والقسيس من جديد في حوارهما دون ان يغفلا عن النوم من وقت الى آخر ! وكان كل منهما يتهم اخاه بهذا النوم عندما يستيقظان من جديد ، وعندئذ رش السيد بورنيسيان الغرفة بالماء المقدس وألقى هوميه قليلاً من الكلور على الإرض .

وكانت فيليسيتيه قد حرصت على ان تضع لهما فوق المائدة زجاجة من الخمر وقطعة من الجبن ورغيفاً كبيراً .

وتنفس الصيدلي الصعداء حوالي الساعة الرابعة صباحاً ، وقد اوشكت قواه ان تنهار وقال : « في الحق انه ليطيب لي ان استلقي قليلاً . »

ولم يحتج القسيس الى من يرجوه ، وخرج لكي يـؤدي الصلاة ، وعاد . ثم اكلا وشربا الكؤوس وهما يتململان قليلاً دون ان يعرفا

السبب . واثارتها تلك الغبطة الغامضة التي تحس بها بعد مشاهد الحزن وعند آخر كأس قال القسيس للصيدلي وهو يضرب على كتفه : « سننتهي بأن نستلقي ! »

والتقيا في اسفل عند مدخل البيت بالعمال الذين وصلوا . وعندئذ ظل شارل لمدة ساعتين يتحمل عذاب المطرقة التي ترن فوق الواح الخشب . ثم انزلوها في نعشها المصنوع من البلوط ووضعوا هذا النعش في النعشين الآخرين . ولكن لما كانت النقالة اعرض مما يجب ، فقد كان من الضروري ان يحشوا الفراغات بصوف حشية ، وأخيراً عندما أقفلت الغطاءات الثلاث سمرت ولحمت ، ثم عرضوها امام الباب وفتحوا الباب على مصراعيه واخذ اهل إيونفيل يتوافدون .

ووصل الأب روو فأغمي عليه في الميدان،عندما رأى القماش الأسود.

* * *

لم يكن قد تسلم خطاب الصيدلي إلا بعد الحادث بست وثلاثين ساعة. ومراعاة لاحساسه كان السيد هوميه قد حرره على نحو يستحيل معه معرفة حقيقة الامر .

لقد سقط الرجل في أول الامر ، وكأنما أصيب بتشنج عصبي . ثم فهم بعد ذلك انهـــا لم تمت ، ولكن من الممكن ان تموت . واخيراً لبس معطفه وأخذ قبعته ووضع مهمازا في حذائه . وسافر في سرعـــة شديدة . وطوال الطريق كان الأب روو يلهث ويفترسه الفزع ، بـــل واضطر مرة ان ينزل . ولم يعد يرى ، وكان يسمع اصواتا من حوله، وأحس بأنه يفقد صوابه .

طلع النهار ورأى ثلاث دجاجات سوداء تنام فوق شجرة ، فاقشعر مرتاعاً من هذا الفأل ! وعندئذ نذر للعذراء المقدسة ثلاث حلل كهنوتية للكنيسة ، كما نذر ان يسير عاري القدمين من مقبرة برتو حتى كنيسة

فاسونفيل !

ودخل ماروم وهو ينادي عمال الفندق ، وفتح الباب في عنف بضربة من كتفه ، وقفز إلى جوال الشوفان ، وسكب في المزود زجاجة من خمر التفاح الخفيف ، وامتطى مهره الذي اخذ يقدح الشرر بحوافره الأربعة .

كان يقول لنفسه انهم سينقذونها بلا ريب ، وان الاطباء سيكشفون علاجا بكل تأكيد . وتذكر كافة معجزات الشفاء التى سمع بها .

ثم ظهرت له ميتة . وها هي أمامه مستلقية على الظهر وسطالطريق . وشدّ العنان فاختفى الهذيان !

وفي كوينكا يبوا شرب ثلاثة اقداح من القهوة الواحدة بعد الأخرى، كي يبث الشجاعة في قلبه .

وظن انهم قد اخطأوا في الاسم عند الكتابة . وبحث عن الخطاب في جيبه ، وأحس به ولكنه لم يجرؤ على ان يفتحه .

بل وظن انها نكاية وانتقام قام به احد من الناس ، او نزوة رجل مخمور . وفضلاً عن ذلك،فانها إذا كانت قد ماتت،فسوف يظهر ذلك. ولكن لا ! فالحقول ليس بها شيء خارج عنالمألوف ، والسماء زرقاء، والاشجار تهتز . ومر قطيع من الغنم ، ولمح القرية،ورؤي وهو يسرع محنياً فوق حصانه الذي اخذ يضربه بالعصا ضرباً شديداً نزف منه الدم.

وعندما علم بالأمر سقط باكيـاً بين ذراعي بوفاري وهو يقول : « ابنتي ! اما ! طفلتي ! اشرحوا لي ! »

وأجاب الآخر وهو ينتحب : « لست اعلم ! انها نقمة ! »

وفرق بينهما الصيدلي وهو يقول : « ان هـذه التفاصيل الفظيعة لا فائدة منها وسأخبر بها السيد . ها هي الناس تأتي ! احتفظوا بوقاركم شيئا من الفلسفة »

وأراد الغلام المسكين ان يبدو قويا ، فردد عدة مرات وصاح :

« نعم . . . . الشجاعة ! »

وصاح الرجل : «بفضل الله ستكون لدي الشجاعة وسأصحبها حتى النهاية . »

وأخذ الناقوس يدق وقد اصبح كل شيء معدّا ، وحان موعد السير .

وجلسوا على الكراسي الموضوعة عند المذبح الواحد الىجوار الآخر، حيث رأوا المنشدين الثلاثة يرددون الصلوات والمزمار يصفر بكل قوته، والسيد بورنسيان في كامل ملابسه يغني بصوت حار ،ويحي بيت الرب ويرفع يديه ، ويمد ذراعيه، وليستيبودوا يروح ويغدو في الكنيسة بعصاه. والى جوار القمطر وضع التابوت بين اربعة صفوف من الشموع ، وكان شارل يود انه لو نهض ليطفئها !

ومع ذلك حاول ان يستثير التقوى في نفسه وان ينطلق في أمل الحياة الأخرى التي سيعود الى رؤيتها فيها . وأخذ يتصور أنها قد رحلت في رحلة بعيدة منذ زمن طويل ، ولكن عندما فكر انها هنا.... تحت...وان كل شيء قد انتهى ، وانهم سيحملونها الى الارض ، اخذه غيظ عنيف اسود يائس ! وكان يعتقد احياناً انه لم يعد يحس شيئاً ، وكان ينعم بهدوء ألمه ، مع اتهام نفسه بأنه شقي يائس .

وسمع على البلاط ما يشبه الرنين الجاف لعصا في نهايتها قطعة من الحديد ، وقد أخذت تضرب الارض على فترات متساوية ، وكان هذا الرنين يأتي من قاع الكنيسة . ثم سكت فجأة عند الممر الجانبي داخل الكنيسة،حيث ركع في مشقة رجل في حلة سميكة بنية . كانهيبوليت خادم «الأسد الذهبي » . وكان قد لبس ساقه الجديدة .

واخذ احد المنشدين يدور في صحن الكنيسة ليجمع «الوهبة » ، واخذت ترن القطع الكبيرة الواحدة بعد الأخرى في طبق الفضة .

وصاح بوفاري وهو يرمي اليه في غضب بقطعة من ذات الخمسة

فرنكات : « اسرع اذن ! انني اتألم ! »

وشكره رجل الكنيسة بانحناءة طويلة .

كانوا يغنون ويركعون وينهضون دون ان ينتهوا! وتذكر انهما حضرا الصلاة معاً ذات مرة في الايام الاولى ، وجلسا في الناحية الأخرى الى اليمين ، الى جوار الحائط . وعاد الناقوس يدق ، فحدثت حركة كبيرة في الكراسي ، ودسّ الحمالون عصيهم الثلاث تحت التابوت وخرجوا من الكنيسة !

وظهر جوستان على عتبة الصيدلية ، ثم دخل فجأة شاحبا متداعيا .

كان الناس يطلون من النوافذ ليروا الموكب اثناء مروره ، وشارل امامه رافعا قامته . وكـان يتصنع مظهراً شجاعا ، ويحيي — بحركة — اولئك الذين يخرجون من الازمة او الابواب ، وينضمون الى الجمهور. وكان الرجال الستة يسيرون لاهثين في خطى بطيئة ، ثلاثة من كل ناحية ، والقسس والمنشدون وطفلا الجوقة يرتلون نشيد الموتى . وكانت اصواتهم تنساب فوق الحقول صاعدة وهابطة في موجات وأحياناً كانوا يختفون عند منعطفات الطريق . ولكن الصليب الفضي الكبير كان ينهض دائما بين الأشجار .

كانت النساء يتبعن الموكب ملتفات في معاطف سوداء ذات قلانس مسدلة . وكن يحملن في ايديهن شمعة كبيرة متقدة ، وقد أخذ شارل يحس بالاغماء من تكرار الصلوات ومنظر المشاعل باستمرار ، ومن رائحة الشمع ومسوح القسس التي تثير الغثيان. واخذ نسيم رطب يهب ، وشجيرات الجودار واللفت تخضر ، ونقط من الندى تسقط عند حافة الطريق فوق اسجية الاشواك ، وكافة انواع الضوضاء المرحة تمـلأ الأفق : فعربة تقعقع بعيداً وهي تتدحرج فوق مسارب الطرق ، وصوت ديك يتردد ، او عدو مهر يهرب تحت اشجار التفاح ، والسماء الصافية مبقعة بسحب وردية ، واعقاب الشمع الضاربة الى الزرقة تتساقط فوق الاكواخ المغطاة

بالسوسن . وكان شارل يتعرف على الافنية وهو يمر ، ويتذكر امثال هذا االصباح ، عندما كان يزور مريضا ثم يخرج من عنده ليعود اليها .

كان الغطاء الأسود المبقع بالدموع البيضاء يرتفع من وقت الى آخر فيكشف التابوت ، وأخـذ الحمالون المتعبون يتباطأون . واخذت الجثة تتقدم في دفعات مستمرة كزورق يعلو ويهبط عند كل موجة .

ووصلوا !

واستمر الرجال حتى وصلوا الى اسفل ، حيث يوجد مكان في الحشائش حفرت فيه الحفرة .

واصطفوا حول الحفرة . وبينما كان القسيس يتكلم كان التراب الاحمر الذي تكوم على الحافـة ينهال من الاركان بـاستمرار في غير ضجيج .

وعندما اعدت الحبال الاربعة ، دفعوا التابوت فوقها . ونظر اليهـا وهى تنزل ، . . .واستمرت في النزول !

واخيرا سمعت صدمة ، وصعدت الحبال وهي تصر ! وعندئذ أخذ بورنيسيان المعول الذي ناوله له ليستيبودوا ، وبيده اليسرى دفع في قوة كمية من التراب ، بينما اخذ ينثر الماء المقدس بيده اليمنى . واصطك الحصى بخشب النعش فاحدث صوتاً مزعجاً يخيل إلينا انه رنين الابدية!

واعطى القسيس مرشة الماء المقدس الى جاره ، وكان السيد هوميه، فهزها في وقار ، ثم اعطاها لشارل الذي ركع على ركبتيه فوق الارض واخذ يرش بملء يديه وهو يصيح: «الوداع» وكان يرسل اليها القبلات ، ويزحف نحو الحفرة كأنما ليدفن معها !

وقادوه بعيداً . ولم يلبث ان هدأ . وربما يكون قد احس كجميع الآخرين بذلك الرضى الغامض من ان كل شيء قد انتهى !

وفي اثناء العودة اخذ الاب روو يدخن غليونه في هدوء ، وهـذا

عمل رأى هوميه – بينه وبين نفسه – انه غير لائق . بل ولاحظ ان السيد بينيه قد امتنع عن الظهور ، وان تيفاش قد تسلل بعد الصلاة، وان تيودور خادم موثق العقود كان يرتدي حلة زرقاء وكأن الانسان لا يستطيع ان يعثر على حلة سوداء مادامت التقاليد تقضي بذلك . ولكي يشبع ملاحظاته،كان ينتقل من جماعة الى اخرى حيث كان الناس يأسفون لوفاة ايما ، وخاصة لبريه الذي لم يفته ان يحضر الدفن .

– هذه السيدة الصغيرة المسكينة ! اى الم اصاب زوجها !

وكان هوميه يستأنف قائلاً : « هل تعلمون انه بدوني ربما قد اقدم على امر جلل ! »

ثم يضيف : « سيدة في هذه الطبيعة ! ... ومع ذلك ،لقد رأيتها يوم السبت الماضي في حانوتى ! »

ثم يقول : « انني لم أجد وقتاً اعد فيه بعض كلمات القيها على قبرها ! »

وعند العودة الى المنزل خلع شارل ملابسه وارتدى الأب روو معطفه الازرق ، وكان معطفا جديدا ، ولكنه لما كان قد جفف عينيه كثيرا اثناء الطريق،فقد خلع لونه على وجهه ، ورسمت الدموع خطوطا في طبقة التراب التي وسخته!

وكانت الام بوفاري معهم . ولزم ثلاثتهم الصمت ، الى ان تنهد الرجل اخيراً وقال : « انك تذكر ياصديقي انني اتيت مرة الى توست عندما فقدت زوجتك الاولى ، وقد عزيتك عندئذ ! وكنت اجد ما اقوله ! . . . اما الآن . . . »

ثم اضاف في أنة انخلع لها صدره كله : «آه ! انها النهاية بالنسبة إلي ! لقد رأيت زوجتي ترحل . . . وبعدها ابني . . . . . وها هي ابنتي اليوم ! »

وأراد ان يعود فوراً الى برتو قائلاً انه لن يستطيع النوم في هذا

البيت ، بل ورفض ان يرى حفيدته الصغيرة قائلاً : «لا ! لا ! ان هذا سيبالغ في آلام حزني فقط !.. قبِّلها لي كثيراً !.. الوداع !.. انك غلام طيب ! » وقال وهو يضرب على فخذه : « ثم انني لن انسى قط هذا ، فلا تخف ! سيصلك دائماً الديك الرومي ! »

ولكن عندما وصل الى أعلى الهضبة ، التفت كما فعل في الماضي ، عندما التفت في طريق سان فيكتور بعد ان ودعها يوم زفافها !

كانت نوافذ القرية تتوهج كالمشتعلة من الاشعة الجانبية المنبعثة من الشمس الآخذة في الأفول فوق المروج . ووضع يده امام عينيه ، ولمح في الأفق مكاناً مسوراً بجدران تقوم بداخله هنا وهناك كتل سوداء من الاشجار بين الحجارة البيض . ثم استمر في طريقه بخطوات وئيدة ، وذلك لأن مهره كان يعرج .

وظل شارل وأمه يتحدثان في المساء وقتاً طويلاً بالرغم من تعبهما ، فتحدثا عن الايام الماضية وعن المستقبل . فن المحتمل ان تأتي الى ايونفيل، وان تشرف على منزله وان لا يفترقا بعد ذلك . وكانت لبقة حامية مغتبطة – بينها وبين نفسها – بانها ستسترد محبة كانت قد افلتت منها منذ سنين عدة . ودقت الساعة نصف الليل. وكانت القرية كعادتها صامتة ، وشارل ساهراً يفكر دائماً فيها .

وكان رودولف ،الذي امضى سحابة يومه في الضرب في الغابة للتسلية ، ينام في هدوء بقصره ، كما كان ليون ينام ايضاً هناك !

وكان هناك شخص آخر لا ينام في هذه الساحة .

ففوق القبر ، وبين اشجار الصنوبر ، كان طفل يبكي راكعاً وصدره يتصدع من النحيب ، ويلهث في الظلام تحت ضغط ندم لا حد له ، ندم أكثر رقة من القمر ، وأكثر عمقاً من الليل ! وفجأة،قرقع السياج فاذا به ليستيبودوا الذي اتى لكي يبحث عن جاروفه الذي كان قد نسيه منذ هنيهة ، فعرف جوستان وهو يتسلق الحائط ، وعندئذ علِم حقيقة

ذلك الشرير الذي كان يسرق بطاطسه .

* * *

وفي اليوم التالي استرجع شارل الطفلة، وطلبت امها فاجيبت بأنها غائبة وانها ستحمل اليها لعباً . وتحدثت عنها برت عدة مرات ثم لم تعد تفكر فيها بعد مضي شيء من الزمن . وكان مرح هذه الطفلة يحزن بوفاري ، الذي كان عليه ان يتحمل تعازي الصيدلي التي لا تنتهي .

وبعد قليل ابتدأت من جديد مسائل المال . فالسيد ليريه يستثير صديقه فانسار ، وشارل يتعهد بمبالغ مبهظة ، وذلك لانه لم يرد ان يوافق على بيع شيء من الأثاث الذي كانت تملكه ، مما احنق أمه ، ولكنه قابل حنقها بحنق أكبر ، وكان قد تغيّر تغيراً تاماً فغادرت امه المنزل !

وعندئذ اخذ كل انسان يستغل الفرصة ، فدموازيل لامبرير تطالب بأجر دروس ستة اشهر ، بالرغم من ان إما لم تأخذ قط درساً واحداً ، بصرف النظر عن تلك المخالفة التي كانت قد اطلعت إما شارل عليها ، فلقد كان الأمر اتفاقاً بينها . وطالب مؤجر الكتب باشتراك ثلاث سنوات ، وطالبت الأم روليه بأجرة نقل عشرين خطاباً . وعندما طلب شارل ايضاحات كانت من اللباقة بحيث ردت قائلة : « آه ! لست اعلم ! انها كانت من اجل المعاملات . »

وعند دفع كل دين كان شارل يعتقد انه قد انتهى . ولكنه كان يجد غيره باستمرار .

وطالب بمؤخر زياراته الطبية فأطلعه العملاء على خطابات ارسلتها زوجته . وعندئذ اضطر الى ان يعتذر .

واصبحت فيليسيتيه ترتدي الآن اثواب السيدة ، وان لم ترتدها كلها ، وذلك لأنه قد احتفظ ببعضها ، وكان يذهب لىراها في غرفة الزينة حيث يحبس نفسه . وكانت فيليسيتيه في قدّها تقريباً ، وكثيراً ما كان

شارل يتملكه الوهم عندما يراها من الخلف فيصيح قائلاً : « اوه ! ابقي ! ابقي ! »

ولكنها في عيد العنصرة رحلت عن ايونفيل، وقد انتزعها تيودور بعد ان سرقت كل ما تبقى من الثياب .

وحوالي نفس التاريخ تشرفت مدام ديبوي الارملة بأن تخبره بزواج السيد ليون ديبوي ابنها وموثق العقود في ايفلو ، من مدموازيل ليكادي ليبيف من قرية بنديفيل . وبين عبارات التهاني التي وجهها اليها كتب هذه العبارة : « كم كانت زوجتي المسكينة ستسر ! »

وبينما كان يتسكع يوماً في المنزل دون هدف صعد الى مخزن الحبوب ، وأحس تحت خفه بكرة صغيرة من الورق الرفيع وفتحها وقرأ : « الشجاعة يا ايما ! الشجاعة ! انني لا اريد ان اتسبب في شقاء حياتك » . وكان هذا خطاب رودولف وقد سقط على الارض بين الصناديق وبقي هناك ، ثم دفعته ريح الكوة نحو الباب . وظل شارل جامداً فاغر الفم في نفس هذا المكان الذي ارادت ان تموت فيه ايما فيما مضى ، عندما وقفت فيه وهي اشد شحوباً منه . واكتشف حرفاً – صغيراً في اسفل الصفحة الثانية ، وتساءل عمن يمكن ان يكون صاحب هذا الامضاء . ثم تذكر ملاحقات رودولف ، واختفاءه فجأة ، ومظهر الحرج الذي لقيه به بعد ذلك مرتين او ثلاثاً . ولكن نغمة الخطاب الوقورة ضللته .

وقال لنفسه ربما يكونان قد تحابا حباً افلاطونياً !

وفضلاً عن ذلك فان شارل لم يكن من اولئك الذين يتعمقون الاشياء ، وتقهقر امام الأدلة ، وغرقت غيرته غير المؤكدة في فيض حزنه .

وأخذ يفكر قائلاً لنفسه : « لا بد انهم كانوا يعبدونها ، ولا شك ان كافة الرجال كانوا يطمعون فيها . » ولاحت له عندئذ اكثر جمالاً ، وأخذ يستشعر نحوها رغبة دائمة عارمة ألهبت يأسه ولم تكن لها حدود ، لأنها قد اصبحت الآن مستحيلة الاشباع .

ولكي يروقها كما لو كانت لا تزال حية،اعتنق افكارها وكل ما كانت تفضله : فاشترى حذاء مصقولاً ، واعتاد اربطة الرقبة البيضاء ، ووضع دهاناً على شاربه ، وحرر مثلها كمبيالات تحت الطلب ، وأخذت تفسده وهي في القبر.

واضطر الى ان يبيع الفضيات قطعة وراء قطعة ، ثم باع اثاث الصالون ، وقد اخذت كافة الغرف تخلو ، ولكن الحجرة - حجرتها ظلت كما كانت من قبل .

وبعد العشاء كان يصعد اليها ويدفع المائدة المستديرة امام النار ، ويشد كرسيها قريباً منه ويجلس في مواجهته ، وشمعدان يتقد في احد المشاعل المذهبة وبرت الى جواره تلون الصور .

وكان الرجل المسكين يتألم اذ يراها سيئة الملابس ، وحذاؤها بغير رباط ، وملابسها ممزقة من تحت الإبط حتى مقعدها ، وذلك لان الخادمة لم تكن تعنى بأمرها . ولكنها كانت بالغة الرقة واللطف، وكانت تنحني في رشاقة ، تاركة شعرها الاشقر الجميل يتهدل فوق خديها الورديتين ، حتى لكانت تغمره متعة لا حد لها — سرور ممزوج بالمرارة كتلك الانبذة السيئة الصنع التي تفوح منها رائحة القطران ! وكان يصلح ألعابها ويصنع لها قباقيب من الكرتون ، او يعيد خياطة بطن عرائسها الممزقة . وعندما كانت تقع عيناه على صندوق الخياطة او شريط مطروح ، او حتى على دبوس بقي في شق بالمائدة ، كان يضل في الاحلام ، ويبدو عليه من الحزن الشديد ما يجعلها حزينة مثله .

ولم يعد أحد يأتي الآن ليراها ، وذلك لأن جوستان قد هرب الى روان حيث اصبح صبي بقال . وأخذ ابناء الصيدلي يقللون شيئاً فشيئاً من زيارة الطفلة . ولم يكن السيد هوميه يحرص على استمرار هـــذه الالفة مراعاة للفارق بين مركزيهما الاجتماعيين !

وكان الأعمى، الذي لم يستطع ان يشفيـــه بمرهمه، قد عاد الى هضبة

بواجيوم ، حيث اخذ يقص على المسافرين المحاولة الفاشلة التي قام بها الصيدلي ، الى حد ان هوميه عندما كان يذهب الى المدينة ، كان يخفي نفسه خلف ستائر « العصفورة » لكي يتجنب لقاءه . وكان يمقته . ومراعاة لسمعته،اراد بكل قوته ان يتخلص منه ، فقام ضده بحملة خفية اظهرت عمق ذكائه وإجرام غروره . فخلال ستة اشهر متتابعة،كان الناس يطالعون في صحيفة فنال دي روان فذلكات مثل « ان جميع من يتوجهون نحو مقاطعات بيكاردي الخصبة،قد لاحظوا،بلا ريب ،في هضبة بواجيوم شخصاً تعساً مصاباً بقرحة بشعة في وجهه ، وهو يضايقك ويلاحقك ، ويجبي ضريبة فعلية من المسافرين ، فهل نحن لا نزال في ايام القرون الوسطى البشعة ، حيث كان يسمح للمتشردين ان يعرضوا في الميادين العــامة البرص والقراع اللذين يجلبونهما معهم من الحرب الصليبية ؟ » أو « بالرغم من القوانين التي صدرت ضد التشرد فان مداخل مدننا الكبيرة لا تزال موبوءة بعصابات من المتسولين،وانك لترى منهم من يتجــول وحيداً ، وهؤلاء قد لا يكونون الاقل خطراً . ففيم يفكر سادتنا الحكام ؟ »

ثم اخترع هوميه قصتين : احداهما هي قوله « بالأمس في هضبة بواجيوم حدث ان حصاناً جامحاً ... » ثم استمر في القصة يسرد حادثة سببها وجود الاعمى .

ونتج عن ذلك ان حبسوه ثم اطلقوا سراحه ، فاستأنف نشاطه كما استأنف هوميه ايضاً حملته ، وكان صراع انتصر فيه الصيدلي ، وذلك لأن عدوه حكم عليه بالحجز الابدي في ملجأ !

وشجعه هذا النجاح . ومنذ ذلك الحين،لم يحدث في المقاطعة ان ديس كلب او احترق مخزن او ضربت امرأة الا احاط الجمهور بها علماً ، ورائده دائماً هو حب التقدم وكره القسيس ! وكان يعقد دائماً مقارنات بين المدارس الاولية،والرهبان الغارقين في الجهل ، متحاملاً على الاخيرين ، مذكراً بمذبحة بارتلمي من اجل منحه مائة فرنك للكنيسة . وكان يفضح

النقائص ويقذف بالتحدي ، وعلى حد تعبيره كان « يقوض » ، حتى لقد اصبح خطراً !

ومع ذلك ، فانه كان يحس بالاختناق داخل الحدود الضيقة للثقافة ، ولم يلبث ان شعر بضرورة تأليف الكتب ! وعندئذ ألف « احصاء عام عن مقاطعة ايونفيل مذيل بملاحظات عن الطقس » ودفعه الاحصاء الى الفلسفة ، فشغل نفسه بالمسائل الكبيرة : مشكلة اجتماعية – تهذيب اخلاق الطبقات الفقيرة – تربية الاسماك – الكاوتشوك – السكك الحديدية .. الخ . وأصبح يخجل من ان يكون برجوازياً ، فتصنّع مظهر الفنانين ، وأخذ يدخن ، واشترى تمثالين صغيرين أنيقين من طراز بمبادور لكي يزين صالونه .

ولم يهمل قط الصيدلة ، بل على العكس ، كان يتابع الاكتشافات ، ويلاحق الحركة العامة التي اثيرت عن الشوكولاتة ! وكان اول من ادخل في مقاطعة السين السفلى « الشوكا » و « الريفالينتيا » . وتحمس لسلاسل الكهربة المائيـــة المسماة « بولفار ماخر » وحمل بنفسه واحدة منها . وفي المساء عندما خلع صداره المصنوع من الفانللا ، ظلت مدام هوميه مبهوتة امام اللولب الذهبي الذي اختفى تحتـــه ، وازدادت حباً وحماسة لهذا الرجل المشدود الوثاق اكثر من رجل متوحش ، والاكثر روعة من مجوسي !!

وكانت لديه افكار طيبة حول قبر اما ، فاقترح اولاً جذع عمود يغطى بالقماش ، ثم هرماً ، ثم معبداً كمعابد فستا ، وشيئاً كالقبو او كومة من الانقاض ! وفي كافة هذه الخطط ، لم يكن هوميه يغفل شجر السيسبان الباكي الذي كان يعتبره الرمز الحتمي للحزن !

وقام هو وشارل معاً برحلة الى روان لكي يريا القبور عند متعهد مقابر ، مصطحبين معهما فناناً مصوراً يدعى فوفريلار كان صديقاً لبريدو . وكان يسرد طوال الوقت النكات . واخيراً بعد ان فحصوا ما يقرب من المائة رسم ، اوصوا على واحد منها ، وقاموا برحلة اخرى الى روان

حيث صمم شارل على ضريح يحمل على وجهتيه الاساسيتين « حورية تمسك مشعلاً منطفئاً » .

وأما عن النقش الكتابي ، فان هوميه لم يجد شيئاً اجمل من عبارة لاتينية ابتدأها بكلمتي : « استريحي ايتها المسافرة » ، باللاتينية، ثم وقف عند هذا،واخذ ينقب في خياله ويردد باستمرار عبارة : « استريحي ايتها المسافرة » . واخيراً اكتشف عبارة : « خففف الوطء انها زوجة محبة » باللاتينية . فاستقر عليها الرأي .

وحدث شيء عجيب ،هو ان بوفاري اخذ ينسى ايما مع تفكيره المستمر فيها ، وأخذ ينتابه اليأس من احساسه بهروب هذه الصورة من ذاكرته وسط ما يبذل من مجهودات لاستبقائها ! ومع ذلك ، فانه كان يحلم بها كل ليلة ، وكان الحلم لا يتغير ، فكان يقترب منها،ولكن عندما يحاول ضمها ، كانت تتساقط تراباً بين ذراعيه !

ولمدة اسبوع كان يذهب الى الكنيسة في المساء . بل وزاره السيد بورنيسيان مرتين او ثلاثاً ثم تخلي عنه ، وفضلاً عن ذلك،فان هوميه أخذ يقول ان الرجل قد انقلب الى التعنت والتعصب ، وأخذ يلعن روح الالحاد المتفشية . ولم يكن يفوته عند حضور الموعظة كل خمسة عشر يوماً ان يقص احتضار فولتير الذي مات،كما يعلم الجميع،وهو يلتهم برازه !

وبالرغم من الاقتصاد الذي كان يعيش فيه بوفاري،فانه كان بعيداً عن ان يستطيع استهلاك ديونه القديمة . ورفض لبريه ان يجدد اية كمبيالة، واصبح الحجز وشيكاً ، وعندئذ التجأ الى امه التي وافقت على ان تتركه يرهن ممتلكاتها ، ولكنها ارسلت اليه توبيخاً كثيراً ضد ايما . وطلبت في مقابل تضحياتها شالاً افلت من سرقة فيليسيتيه ، ولكن شارل رفض ان يعطيها اياه،ففسدت بينهما العلاقات !

وقامت هي بالاجراءات الاولى للصلح ، بأن اقترحت عليه ان تأخذ عندها الطفلة التي ستسري عنها في المنزل . ووافق شارل ، ولكن عند

وقت الفراق،خانته شجاعته كلها ، وعندئذ اصبحت القطيعة نهائية كاملة !

وكلما حُرم من احبابه ازداد حبه لطفلته ، ومع ذلك ، فانها أخذت تقلقه لانها اصبحت تسعل احياناً ، وظهرت على خديها بعض بقع حمراء .

وفي مواجهته ، كانت تقوم مزدهرة مرحة أسرة الصيدلي الذي يعمل جمع من الناس على ارضائه . فنابليون يساعده في العمل ، وأتالي تطرز له طاقية إغريقية ، وايرما تقص حلقات من الورق لتغطية المربى ، وفرنكلين يحفظ عن ظهر قلب جدول فيثاغورس ، وبالجملة كان اسعد الآباء وخير الرجال حظاً !

ولكن هذا وهم خاطيء ، فان طموحاً ملحاً كان يضنيه ، ذلك لأن هوميه كان يريد نوط الصليب ، وكانت المبررات لا تنقصه :

١ – ففي ازمة الكوليرا تميز باخلاص لا حد له .

٢ – نشر على نفقته الخاصة عدة كتب ذات نفع عام ، وباستطاعته ان يذكر تقريره عن نبيذ التفاح وصناعته ونتائجه ، ثم ملاحظته عن برغوث الاغنام ، التي ارسلها الى المجمع العلمي وكتابه عن الاحصاء . واخيراً رسالته في الصيدلة ، فضلاً عن انه عضو في عدة جمعيات علمية فيما يزعم ، وان يكن في الحقيقة عضواً في جمعية واحدة .

وكان يصيح مزهواً : « بل أما يكفي بروز مالي من فضل في حالات الحرائق ! ؟ »

وعندئذ أخذ هوميه يميل نحو السلطات ، فكان يؤدي سراً خدمات كبيرة لمدير المقاطعة في الانتخابات . ثم باع نفسه ، وأخيراً انحدر الى مستوى الرقيق ، بل ورفع عريضة الى الملك يضرع اليه فيها ان ينصفه وسماه « ملكنا الصالح » وقارنه بهنري الرابع !

وفي كل صباح،كان الصيدلي يهرول الى الجريدة لكي يكتشف فيها نبأ الانعام عليه ، ولكن النبأ لم يأت ! واخيراً لم يطق صبراً فرسم في حديقته بواسطة الحشائش،ما يشبه نجمة الشرف مع دائرتين صغيرتين من

الأعشاب تخرجان من القمة لكي تحكا الشريط ! وأخذ يتنزه حولها مربع الذراعين ، وهو يفكر في تراخي الحكومة ونكران الناس للفضل !

ومن باب الاحترام ، او بسبب نوع من الحساسية كان يدفعه الى التباطؤ في التنقيب عما في المنزل — لم يكن شارل قد فتح بعد جزءاً من ادراج المكتب المصنوع من خشب الورد الذي كانت ايما تستخدمه عادة . وأخيراً جلس يوماً امامه وأدار المفتاح ، وشدّ درجاً . واذا به يضم جميع خطابات ليون . وكانت هذه المرة اكثر من دستة ، فالتهمها حتى آخر واحد منها ، وفتش في كافة الاركان ، وكافة الادراج ، وكافة الاثاث ، وخلف الجدران ، وهو ينتحب ويصيح وقد فقد صوابه بل جن . واكتشف صندوقاً حطمه بضربة قدم ، فوثبت في وجهه صورة رودولف وسط خطابات غرام محتدمة !

ودهش الناس من انهياره ، فانه لم يعد يخرج ولم يعد يستقبل احداً ، بل اصبح يرفض الذهاب لرؤية مرضاه . وعندئذ زعموا انه قد اخذ يحبس نفسه لكي يشرب الخمر .

ومع ذلك ، فان احد الفضوليين كان احياناً يتسلق سور الحديقة فيرى في دهشة ، رجلاً طويل اللحية ، مغطى بالاسمال ، جموحاً ، يبكي بصوت مرتفع وهو يسير في الحديقة .

وفي الصيف كان يأخذ في المساء طفلته الصغيرة معه ، ويقودها الى المقابر . وكانا يعودان عندما يطبق الليل ، ولا يصبح في الميدان غير ذلك المنبعث من كوة بينيه .

ومع ذلك ، فان لذة ألمه لم تكن كاملة ، وذلك لأن احداً لم يكن حوله يشاركه اياها . فكان يقوم بزيارات للأم ليفرانسوا لكي يستطيع التحدث عنها . ولكن صاحبة الفندق لم تكن تصغي اليه الا بأذن واحدة ، لأن لديها هي الاخرى اشجانها . وذلك لأن السيد ليريه قد افتتح محلاً باسم « روائع التجارة » ، كما ان هيفير ، الذي كان يتمتع بشهرة كبيرة في

قضاء المهمات ، قد طلب مزيداً من الاجر وهدد بأن يعمل عند المنافسين .
وذات يوم بينما هو ذاهب الى سوق ارجي لكي يبيع آخر ما يملك – وهو حصانه – لقي رودولف !

وشحب لونهما عندما رأى احدهما الآخر . وتمتم رودولف بعض عبارات الاعتذار ، لانه كان قد اكتفى بإرسال بطاقته . ثم تجرأ ، بل وصلت به الجسارة حد دعوته لشارل لكي يتناول معه زجاجة من البيرة في الحانة ، وذلك لاننا كنا في شهر اغسطس ،وكان الجو شديد الحرارة !

واتكأ بمرفقه في مواجهته واخذ يمضغ سيجارة وهو يتحدث ، وقد ضل شارل في الاحلام امام هذا الوجه الذي احبّه . وخيل اليه انه يرى شيئاً منها ، وقد احس بما يشبه السحر ، وود ان لو كان هو هذا الرجل !

واستمر الآخر يتحدث عن الزراعة والحيوانات والسماد ، مغلفاً – بعبارات مبتذلة – كافة الثغرات التي يمكن ان ينساب منها اي تلميح . ولم يكن شارل ينصت اليه ، وأدرك رودولف ذلك – وأخذ يتتبع – على حركات وجهه – مرور الذكريات . فهو يحمرّ شيئاً فشيئاً ، وخياشيمه تنبض في سرعة ، وشفتاه ترتعدان . بل ومرت لحظة امتلأ شارل فيها بغضب قاتل ، وحدد بصره الذي اخذه الفزع ، فقطع الحديث . ولكن نفس الانهيار الحزين لم يلبث ان عاد الى الظهور على وجهه .

وقال : « انني لا اضمر لك سوءاً ! »

وظل رودولف صامتاً ، ووضع شارل رأسه بين يديه ، ثم استأنف بصوت خامد ، ونغمة مستسلمة لآلام لا حد لها قائلاً : « لا . انني لم أعد اضمر لك سوءاً ! »

بل وأضاف كلمة كبيرة كانت الوحيدة التي قالها في حياته حتى الآن وهي : « انه خطأ القدر ! »

ووجدها رودولف – الذي كان قد قاد القدر – كلمة تافهة بالنسبة لرجل في وضع شارل المضحك ، بل حقيرة بعض الشيء !

وفي اليوم التالي ، ذهب شارل لكي يجلس على المقعد الموجود تحت العريشة ، ومرت اشعة على عريشة العنب ،فرسمت اوراق الكرم ظلالها على الرمل ، وكان الياسمين يعطر السماء الزرقاء ، والذباب يطن حول السوسن المزهر . وأخذ شارل يختنق كشاب يافع من اشعاعات الحب الغامضة التي انتفخ بها قلبه الحزين .

وفي الساعة السابعة اتت الطفلة برث التي لم تكن قد رأته بعد الظهر كله لكي تستدعيه لتناول العشاء .

كان طارحاً رأسه على الجدار،مغلق العينين ، فاغر الفم ، ممسكاً بيديه خصلة طويلة من الشعر الاسود .

وقالت : بابا .. هيا اذن .

وظنت انه كان يريد ان يلعب ،فدفعته في رفق،فسقط على الارض ميتاً !

وبعد ذلك بست وثلاثين ساعة ، حضر السيد كانيفيه بناء على طلب الصيدلي وشرّحه فلم يجد شيئاً !

وبعد ان بيع كل شيء ، بقي اثنا عشر فرنكاً وخمسة وسبعون سنتيماً استخدمت في دفع اجرة سفر مدموازيل بوفاري الى جدّتها ، التي ماتت هي الاخرى في السنة التالية . ولما كان الأب روو مصاباً بالشلل ، فقد تعهدتها خالة كانت فقيرة ، فأرسلتها الى مصنع غزل قطن لكي تكسب عيشها !

ومنذ موت بوفاري،تتابع ثلاثة اطباء على ايونفيل دون ان يستطيعوا النجاح ، لأن السيد هوميه كان لا يلبث ان يتغلب عليهم . فزبائنه جهنميون ، والسلطة العامة تجامله ، والرأي العام يحميه .

ولقد حصل اخيراً على صليب الشرف !

مرافعة الاتهام والدفاع والحكم

في

القضية التي رفعت على المؤلف

امام محكمة جنح باريس

الغرفة السادسة

برئاسة السيد دي بارل

جلسة ٣١ يناير و ٧ فبراير سنة ١٨٥٧

النيابة العامة

ضـــد

السيد جوستاف فلوبير

مرافعة اتهام المحامي العام السيد ارنست بينار

ايها السادة

عند مواجهة هذه القضية تجد النيابة العامة نفسها امام صعوبة لا تستطيع ان تخفيها وهي صعوبة ليست من طبيعة الاتهام ذاته ، فالاساءة الى الاخلاق العامة والى الدين ، كل هذه عبارات لا شك غامضة الى حد ما ومطاطة ، بحيث يتحتم تحديدها . ولكنني عندما اوجه الحديث الى نفوس مستقيمة علميـة ، يصبح مـن السهـل التفاهـم في هـذا الصـدد ، وتحديد مـا اذا كانت هـذه الصفحة مـن كتاب تحمل اساءة الى الدين او الى الاخـلاق . والصعوبة ليست في اتهامنـا ، بـل انهـا علـى الاصح وبالاحرى في طـول الكتاب المعروض عليكم للحكـم فيـه ، فهـو قصـة كاملـة . وعندما يعرض عليكـم مقـال في صحيفة يرى الانسان فورا اين تبتدىء الجريمة واين تنتهي ، وتقرا النيابة العامة مادة القانون وتعرضها على تقديركم . واما هنا فاننا لسنا بازاء مقال في صحيفة ، بل بازاء قصة كاملة ، تبتدىء في اول اكتوبر ؛ وتنتهي في ١٥ ديسمبر ، وتستمر علـى ست دفعات في مجلـة ريفـي دي باريس Revue de Paris ١٨٥٦ فما العمل في هذا الوضع ؟ وما دور النيابة العامة ؟ هل تقرا الرواية كلها ؟ هذا مستحيل . ومن ناحية اخرى فان قراءة النص موضوع المؤاخذة وحده يعرضنا للوم له ما يبرره . فمن الممكن ان يقال لنا : انكم اذا لم تعرضوا القضية بكافـة اجزائها ، فانكم تهملون ما يسبق وما يلحق الفقرات المدانة . ومن الواضح انكـم تخنقون القضية بتضييق مجال المناقشة . ولكي نتجنب هـذا الاعتراض المزدوج ليس هناك غير منهج يمكن اتباعه ، وهو ان نقص عليكم اولا القصة كلها دون ان نقرا او ان ندين ايـة فقرة ، ثـم نقرا او ندين مع ذكر النص ، واخيرا ان نجيب على الاعتراضات التي يمكن ان تنهض ضد الخطة العامة للاتهام . ما هو عنوان القصة ؟ مدام بوفاري . انه عنوان لا يفيد شيئا في ذاته ، ولكن هناك عنوانا

آخر بين قوسين (اخلاق الريف) ، وهذا ايضا عنوان لا يفسر فكرة المؤلف ولكنه يشعرنا بها .
فالمؤلف لم يرد أن يساير هذا المذهب الفلسفي او ذاك صحيحا كان او خاطئا ، وانما اراد ان يرسم لوحات خاصة . وسوف ترون أية لوحات هي !!! ولا شك أن الزوج هو الذي يبدا الكتاب وهو الذي يختتمه . ولكن الصورة الاعظم جدية في الكتاب ، والتي تلقي الضوء على اللوحات الاخرى هي بلا ريب صورة مدام بوفاري .

وهنا اقص ولا اورد النص .

لقد اخذ الزوج من المدرسة العامة ، ومن الواجب ان نقول ان الطفل كان ينبىء منذ ذلك الحين عما سيكون الزوج ، فهو بالغ الثقل والانكماش — انه منكمش بحيث انه عندما يصل الى المدرسة ويسال عن اسمه يبتدىء بان يجيب قائلا : شارلبوفري وهو ثقيل بليد بحيث يعمل دون ان يتقدم ، فهو لم يكن قط الاول في فصله كما لم يكن قط الاخير . وهو « هزاة » ان لم يكن انموذجا للفشل في المدرسة . وبعد الدراسة في المدرسة العامة انتقل لدراسة الطب في روان ، في غرفة بالطابق الرابع ، تطل على السين ، استأجرتها له امه عند صاحب مصبغة من معارفها . وهناك تلقى دراساته الطبية ووصل شيئا فشيئا الى ان يحصل — لا على شهادة طبيب — بل على شهادة معاون صحة . وكان يتردد على الحانات ويتخلف عن الدروس ، ولكن لم تكن لـه غواية اخرى غير لعب الدومينو . وهذا هو السيد بوفاري .

وهم بالزواج فوجدت له امه زوجة هي ارملة محضر في دييب ، وهي امراة فاضلة قبيحة الشكل في الخامسة والاربعين من عمرها ولها دخل سنوي مقداره الف ومائتا جنيه ، الا ان موثق العقود الذي كان لديه راس المال الذي يدر هذا الدخل رحل ذات صباح الى امريكا . وتاثرت الزوجة بـهذا الحادث غير المنتظر ، واهتز كيانها كله حتى انها ماتت من التاثر . وهذا هو الزواج الاول وهذا هو المشهد الاول .

وفكر السيد بوفاري بعد ان اصبح ارمل ان يتزوج ثانية واخذ ينقب في ذكرياته ، ولم يكن في حاجة الى ان يذهب بعيدا فقد تذكر فورا بنت احد المزارعين المجاورين . وكانت هذه الفتاة قد اثارت على نحو غريب شكوك مدام بوفاري . والفتاة هي ايما روو ولم يكن للمزارع روو غير بنت واحدة رباها في دير ارسلين بروان ، وكانت قليلة الاهتمام بالمزرعة وكان ابوها يريد ان يزوجها وتقدم اليها معاون الصحة ولم يتشدد في البائنة . وانتم تدركون انه مـع مثل هـذا الاستعداد من الجانبين لا بد ان تسير الامر بسرعة . وتـم الزواج وركع السيد بوفاري على ركبتيـه امام زوجته وهو اسعد الناس واعمى الازواج وهمه كله هو ان يسارع الى تحقيق رغبات امراته .

وهنا يمحى دور السيد بوفاري ويصبح دور مدام بوفاري هو المحور الجدي للكتاب .

ايها السادة

هل احبت مدام بوفاري زوجها او حاولت ان تحبه ؟ لا ! ومنذ البدء حدث ما يمكن ان نسميه بمشهد التدريب . فمنذ تلك اللحظة انفتـح امامها افـق آخر ، ولاحت لها حياة جديدة . فمالك قصر فوبيسار يقيم حفلا كبيرا ، ويدعو معاون الصحة كما يدعو زوجته ، وكانت هـذه الحفلة بالنسبة اليها بمثابة تدريب على كافة انفعالات اللـذة . فرات فيها دوق لافرديير الذي كانت له غزوات في البلاط ، ورقصت الفالس مع فيكونت واحست باضطراب مجهول . ومنـذ تلك اللحظة اخذت تعيش حياة جديدة ، واصبحت لا تحتمل زوجها ولا جميع ما يحيط بها . وبينما كانت تبحث في يوم داخل احدى قطع الاثاث عثرت على سلك من الحديد جرح اصبعها وكان

سلك باقة زواجها . ولكي يخلصها من السام الذي اخذ يضنيها ضحى السيد بوفاري بزبائنه واتى لكي يقيم في ايونفيل . وهنا ياتي مشهد من مشاهد سقوطها . ونحن بذلك نصل في تسلسل النثر الى الجزء الثاني . فمدام بوفاري تصل الى ايونفيل ، واول رجل تلقاه وتتعلق بمنظراتها لم يكن موثق عقود تلك الجهة ، بل كان الكاتب الوحيد الذي يعمل عند هذا الموثق . وهذا الكاتب هو ليون دي بون ، وهو شاب صغير يدرس القانون وسيرحل الى العاصمة . واي انسان آخر غير السيد بوفاري كان لا بد ان يقلق من زيارات هذا الكاتب الشاب ، ولكن السيد بوفاري من السذاجة بحيث يؤمن بطهارة زوجته . كما ان ليون القليل الخبرة يشعر نحوها بنفس الاحساس ويرحل . وتضيع الفرصة . ولكن الفرص تتجدد في سهولة ، ففي احدى الجهات المجاورة لايونفيل يوجد المدعو رودلف بولنجه ، وهنا الفت نظركم الى انني اكتفي بالقصص . وهو رجل في الرابعة والثلاثين من عمره حيواني المزاج ، وكانت له انتصارات مع النسوة السهلة القياد ، وكانت له عندئذ عشيقة من الممثلات ورأى مدام بوفاري وهي امراة شابة ساحرة ، فصمم ان يتخذ منها عشيقة . وكان الامر سهلا تكفيه ثلاث فرص . ففي المرة الاولى اتى ليشاهد المعرض الزراعي ، وفي المرة الثانية اتى ليزورها ، وفي المرة الثالثة صحبها في نزهة على ظهر حصان رآها الزوج ضرورية لصحة زوجته . وعندئذ كان سقوطها من اول زيارة للغابة . وتعددت المقابلات في قصر رودلف وفي حديقة معاون الصحة بنوع خاص ، ووصل العشيقان الى اقصى حدود اللذة . فمدام بوفاري تريد ان يخطفها رودلف ، ورودلف لا يجرؤ ان يقول لها لا . ولكنه يكتب اليها كتابا يحاول ان يدلل فيه باسباب عدة على انه لا يستطيع ان يختطفها . وصعقتها خيبة الامل التي حملها هذا الخطاب فاصيبت بحمى مخية ظهرت في اعقابها حمى تيفودية ، وقتلت الحمى الحب ، ولكن المريضة بقيت ! وهذا هو المشهد الثاني .

واصل الى الثالث . فسقوطها مع رودلف كان قد تبعه رد فعل ديني ، ولكنه كان قصيرا فمدام بوفاري ستسقط من جديد . وكان الزوج قد راى ان المسرح مفيد لنقاهة زوجته ، فصحبها الى روان . وفي اللوج المواجه للوج الذي يحتله السيد والسيدة بوفاري كان يوجد ليون ديبوي كاتب موثق العقود الشاب ، الذي يدرس القانون في باريس ، والذي كان قد عاد من العاصمة واسع الثقافة واسع التجربة . وذهب ليرى مدام بوفاري وليقترح عليها موعدا فاشارت عليه مدام بوفاري بالكاتدرائية . وعند الخروج من الكاتدرائية اقترح ليون ان تصعد في عربة ، فقاومت اول الامر ولكن ليون اخبرها ان هذا يحدث في باريس ! وعندئذ لم يعد لديها اعتراض . وكان السقوط في العربة . وتعددت المقابلات . مع ليون كما كانت مع رودلف عند معاون الصحة ، ثم في غرفة استؤجرت في روان ، واخيرا وصلت الى التعب من هذا الحب الثاني نفسه . وهنا يبدأ مشهد البؤس وهو الاخير من الرواية .

كانت مدام بوفاري قد بذرت ، والقت الهدايا على راس رودلف ، وراس ليون ، وكانت تعيش حياة بذخ . ولكي تواجه كل هذه النفقات كانت قد حررت عدة كمبيالات لاذن حاملها ، وحصلت من زوجها على توكيل عام لكي تدير الثروة المشتركة . وكانت قد التقت بمراب كان يخصم هذه الكمبيالات التي لم تكن تدفع عند حلول موعدها فكانت تجدد باسم زميل له . ثم اتت اول ورقة مدفوعة ، ثم الانذارات والاحكام والحجز ، واخيرا اعلان بيع اثاث السيد بوفاري الذي كان يجهل كل شيء . وضاقت بمدام بوفاري السبل ، فاخذت تطلب النقود من جميع الناس ، ولكنها لم تحصل على شيء من احد . فليون ليس لديه شيء ، وهو يرتد

مذعورا امام جريمة يوحى له بها لكي يحصل على نقود . وانحدرت مدام بوفاري على كافة درجات الذل ، فذهبت الى رودلف ، ولكنها لم تنجح فرودلف ليس لديه ثمانية آلاف فرنك . ولم يبــق لها غير مخرج واحد ، فهل تعتذر الى زوجها ؟ لا وهل تتفاهم معه ؟ ولكن هــذا الزوج سيكون من الكرم بحيث يعفو عنها ، ولكن هذه مذلة لا تستطيع ان تحتملها ، فتتناول السم . وعندئذ تاتي مشاهد مؤلمة فها هو الزوج الى جوار جسم امراته البارد وها هو يامر بان يحضروا ثوب زفافها وان يلفوها فيــه ، وأن توضع جثتهــا في نعوش ثلاثة .

وفي احد الأيام يفتح درجا فيجد صورة رودلف وخطاباته وخطابات ليون . وقد تعتقدون ان الحب سيسقط عندئذ ؟ ولكن لا . لا . انه على العكس يزداد التهابا فهو يتحمس لتلك المراة التي تملكها غيره بسبب ذكريات اللذة التي خلفتها له ، ومنذ تلك اللحظة يهمل زبائنه وأسرته ، ويترك لهب الريح ما تبقى من فتات ثروته . وفي احد الايام يجدونه ميتا في عريشة حديقته وهو ممسك بين يديه بخصلة طويلة من الشعر الاسود !

هذه هي الرواية التي قصصتها كاملة دون ان احذف منها اي مشهد ، وهي تسمــى مدام بوفاري . وفي استطاعتكم أن تعطوها عنوانا آخر وأن تسموها بحق : «قصة زنا امراة بالريف» .

ايهــا السادة :

لقد اديت الجزء الاول من مهمتي : لقد قصصت ، وسآخذ في ايراد بعض المقتطفات ، ثم ياتي بعد ذلك الاتهام الذي ينحصر في جريمتي : اساءة الى الاخلاق العامة واساءة الى الاخلاق الدينية ، في صور شهوانية ممتزجة بالاشياء المقدسة ، واصل الى المقتطفات وساكون مختصرا ، وذلك لانكم ستقراون الرواية كلها ، وسنقتصر على أن أورد لكم اربعة مشاهد . او على الاصح اربع لوحات. الاولى تلك الخاصة بحبها لرودلف وسقوطها معه ، والثانية هي مرحلة الانتقال الدينية بين فترتي الزنا ، والثالثة هي سقوطها مع ليون ، وهي لوحة الزنا الثاني واخيرا تاتي اللوحة الرابعة التي اريد ان اعرضها وهي الخاصة بموت مدام بوفاري .

وقبل أن اتحدث عن هذه الزوايا الاربع للوحة ، اسمحوا لي بان اتساءل عن لون ولمسة ريشة السيد فلوبير ، وذلك لان روايته هي في النهاية لوحة ، ويجب ان اعرف الى اية مدرسة ينتمي . وما هو اللون الذي يستخدمه ، وما هي صورة بطلته .

اسمحوا لي بان اقول ان اللون العام للمؤلف هو اللون الشهواني ، قبل واثناء وبعد حوادث السقوط . فهي طفلة في العاشرة او الثانية عشرة وهي في دير الارسلين وفي هذه السن التي لم تتكون فيها الفتاة ، والتي لا تستطيع فيها المراة ان تحس بالانفعالات الاولى التي تكشف لها عن عالم جديد ، نراها تعترف فتقول كما ورد في الجزء الذي نشر اولا ، وفي صفحة عشرين من عدد أول أكتوبر : « عندما كانت تذهب الى الاعتراف كانت تخترع خطايا صغيرة لكي تظل راكعة فــي الظلال أكبر وقت مضمومة اليدين ، ووجهها فوق الحاجز تحت همس القسيس . وكانت المقارنات التي تتردد في المواعظ بين الخطيب والزوج والعاشق السماوي والزواج الخالد تثيره في اعمــاق نفسها عذوبة غير متوقعة » .

فهل من الطبيعي ان فتاة صغيرة تخترع خطايا صغيرة عندما نعلم ان اصغر الخطايا هــي التي يجد الطفل اكبر المشقة في ان يقولها ؟ ثم اظهار الفتاة وهي في هذه السن وقبل ان تتكون في مظهر من يخترع الخطايا الصغيرة في الظلال وتحت همس القسيس ، وهي تذكر المقارنات بين الخطيب والزوج والعاشق السماوي والزواج الأبدي ــ تلك المقارنات التي كانت تجعلها تشعر

بما يشبه رعشة اللذة ، اليس في كل هذا ما نسميه بالتصوير الشهواني ؟

هل تريدون مدام بوفاري في اهون حركاتها ، وفي حالة الحرية بدون عشيق ولا خطيئة . وانا امر على تلك الكلمة كلمة « اليوم التالي » وعلى عبارة « هذه الزوجة التي لم تترك شيئا ينكشف ولا يمكن ان يحدس بسببه الانسان شيئا » وان يكن في هذا التعبير ما يفوق اللبس . ولكن هل تريدون ان تعلموا كيف كان الزوج ؟

هذا الرجل الذي سيصبح زوجا في اليوم التالي « والذي كان الانسان يحسبه عذراء في اليوم السابق » وهذه الزوجة « التي لم تترك شيئا ينكشف ويمكن ان يحدس بسببه الانسان شيئا » هذا الزوج (ص ٢٩) الذي يستيقظ ويسافر « مليء القلب بسمادات الليل ، والنفس هادئة ، والجسم راض » وهو يسير « مجترا سعادته كاولئك الذين يستمرون بعد العشاء في مضغ طعم عش الغراب الذي يهضمونه » .

انني حريص ايها السادة على ان احدد لكم طابع العمل الادبي للسيد فلوبير ، ولمسات ريشته . ان له احيانا بعض اللمسات التي تحمل الكثير من المعنى ، وهذه اللمسات لا تكلفه شيئا .

ثم في قصر فوبيسار هل تعلمون ما الذي يجذب نظر هذه المراة الشابة وما الذي يؤثر فيها اكبر تاثير ؟ انه دائما نفس الشيء فهو دوق لافرديير الذي كانوا يزعمون انه عشيق ماري انطوانيت ، وهو بين السيدين كويني ولوزون واليه « كانت تعود عينا ايما من تلقاء نفسهما وكانما تعودان الى شيء خارق جليل ، فقد عاش في البلاط ونام في سرير الملكات » !

قد يقال ان هذه ليست الا اشارة تاريخية ولكنها اشارة محزنة لا فائدة فيها . او لقد يجيز التاريخ بعض الظنون ولكنه لا يجيز ان نقدمها كحقائق اكيدة ، ولقد تحدث التاريخ عن العقد في كافة القصص ، كما تحدث التاريخ عن الالاف من الاشياء ، ولكنها ليست الا ظنونا . واكرر باني لا أعلم بأن التاريخ يجيز ان نحول هذه الظنون الى حقائق اكيدة . وعندما ماتت ماري انطوانيت في وقار الملكة واطمئنان المسيحية فان هذا الدم المراق يمكن ان يمحو الخطايا ، ومن باب اولى الظنون ، ولكن السيد فلوبير كان في حاجة الى صورة مثيرة لكي يصور بطلته وقد اختار هذه الصورة لكي يعبر في وقت واحد عن الغرائز الفاسدة لمدام بوفاري وعن طموحها !

ومدام بوفاري يجب ان تحسن رقص الفالس وها هي ترقص « ابتدءا في بطء ثم أخذا يسرعان ويدوران ، وكل شيء يدور حولهما ، من مصابيح واثاث وخشب الجدران والارض وكانهما اسطوانة تدور فوق محور.وعندما مرا الى جوار الابواب التف ثوب ايما من اسفله حول البنطلون ودخل ساقاهما الواحد في الآخر ، وخفض نظراته نحوها ورفعت نظراتها نحوه فاحست بالخدر ، ووقفت ثم استانفا ، وقادها الفيكونت بحركة أسرع ، واختفى معها حتى نهاية الصالة ، حيث أوشكت أن تقع لاهثة ، واسندت راسها على صدره لمدة لحظة ، ثم أخذ يدور بها ولكن في رفق ، وقادها الى مكانها ، فالقت بنفسها الى جوار الحائط ووضعت يدها أمام عينيها » .

وأنا أعلم انهم يرقصون الفالس على نحو قريب من هذا ولكن ذلك لا يمنع من منافاته للأخلاق !

وخذوا مدام بوفاري في أبسط حركاتها تجدون دائما نفس اللمسات ، وهذا واضح في كل الصفحات « فمثلا جوستان خادم الصيدلي المجاور اذا كانت تاخذه دهشة مفاجئة عندما يلم بأسرار غرفة زينة هذه المرأة ، تراه يتابع اعجابه الشهواني حتى المطبخ « حيث يتكيء بمرفقه فوق الخشبة الطويلة التي تكوي فوقها الخادمة فيلسيتيه الملابس ، ويتأمل في نهم كل هذه الملابس النسائية المنشورة امامه من جونيلات حريرية وحراملِ وياقات صغيرة وبنطلونات ذات منفاخ واسعة عند الارداف ثم تأخذ في الضيق الى أسفل » .

ويتساءل الغلام وهو يمر بيده فوق الزينات والمشاجب : « فيم يستخدم هذا ؟ »
وتجيب فيليسيتيه ضاحكة : « او لم تر في حياتك شيئا » ؟

وكذلك يتساءل الزوج في حضرة هذه الزوجة ذات الرائحة النضرة عما اذا كان العطر يفوح من جلدها أم من قميصها حيث يقول المؤلف : « كان يجد في كل ماء اثاثا مرنا وامراة في زينة مرهفة ساحرة ، نضرة الرائحة حتى انه لا يعلم من أين تاتي هذه الرائحة ولا ما اذا كانت المراة هي التي تعطر القميص » .

ولكن كفى اقتباسا للتفاصيل فانتم تعرفون الآن ملامح مدام بوفاري في حالتها العادية ، عندما لا تستثير احدا ولا ترتكب الخطيئة ، وعندما كانت كاملة الطهر ، وعندما لم تكن الى جوار زوج تكرهه عند عودتها من موعد . وانتم تعلمون الآن اللون العام للوحة والملامح العامة لمدام بوفاري ، وقد استخدم المؤلف كل عنايته وسطوة اسلوبه لكي يصور هذه المراة . ولكن هل حاول ان يظهرها من ناحية الذكاء ؟ ابدا . ام من ناحية القلب ؟ ولا هذا ايضا أم من ناحية الروح ؟ لا أم من ناحية الجمال الجسمي ؟ بل ولا هذا . آوه ! انني اعلم ان هناك صورة لمدام بوفاري بعد الزنا رائعة البريق ، ولكن اللوحة شهوانية قبل كل شيء ، والاوضاع شهوانية وجمال مدام بوفاري جمال استثارة .

واصل الآن الى الاقتباسات الاربعة الهامة ، ولن أورد غير أربعة لأني حريص على ان اضيق من اطاري فقد قلت ان الاقتباس الاول سيكون عن غراميات رودولف ، والثاني عن مرحلة الانتقال الدينية ، والثالث عن غراميات ليون والرابع عن الوفاة .

ولننظر في الاقتباس الاول . فمدام بوفاري قريبة من السقوط ومن التردي .

« التفاهة المنزلية كانت تدفعها الى نزوات بذخ ، والحنان الزوجي الى رغبات زنا » ... « وهي تلعن نفسها لانها لم تحب ليون وكان بها ظما لشفتيه »

ما الذي اغرى رودولف وهياه ؟

انه انتفاخ قماش ثوب ايما الذي انفجر من مكان الى آخر تبعا لتثني جسمها « وكان رودولف قد احضر خادمه الى بوفاري ليفصد له واوشك الخادم ان يصاب بالاغماء ومدام بوفاري تحمل الحوض .

« ولكي تضعه تحت المائدة انحنت فانتشر الثوب حولها فوق بلاط الصالة ، وبينما هي تنحني ترنحت قليلا ، وهي تفتح ذراعيها فانفجر انتفاخ القماش من مكان الى آخر تبعا لتثني جسمها » وها هي الخاطرة التي عنت لرودولف : « وراى ايما ثانية في الصالة مرتدية نفس الملابس التي كان قد رآها فيها وعراها منها » .

وفي صفحة ٤١٧ يتحدث المؤلف عن اول يوم تحدثنا فيه فيقول : « كان كل منهما ينظر الى الآخر وشفاههما الجافة ترتعش من رغبة جامحة ، وفي استرخاء وبغير جهد اختلطت اصابعهما » . هذه هي مقدمات السقوط ، ولكن يجب ان نقرأ السقوط نفسه .

« عندما اعدت الحلة كتب شارل الى السيد بولا نجيه يخبره ان امراته تحت تصرفه وانهم يعتمدون على لطفه » !

« وعند ظهر اليوم التالي وصل رودولف امام باب شارل مع حصانين اصيلين ، وكان احدهما مزينا عند اذنيه بكرات وردية ويحمل سرجا نسائيا مصنوعا من جلد الغزال وكان يلبس هذاء طويلا رخوا ، وهو يحدث نفسه بانها لم تر بلا ريب مثله في حياتها . وبالفعل سحرت ايما بمظهره عندما ظهر بسترته الطويلة المصنوعة من المخمل البني وبنطلونه المصنوع من التريكو الابيض .

« وبمجرد ان احس بالارض اخذ حصان ايما يعدو الى جوارها » .

وها هما في الغابـــة !

« وقادها بعيدا حول بركة صغيرة حيث كان العدس المائي يكون خضرة فوق الامواج .

واخذت تقول : « اني مخطئة .. اني مخطئة ... اني مجنونة اذ أصغي اليك ..

ـ لماذا ! ؟ ايما ! ايما !

وقالت المراة الشابة وهي تنحني فوق كتفه :

آه يـــا رودولف ! ...

« واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته وطرحت الى الخلف رقبتها البيضاء التـــي انتفخت بالتنهد ، وانهارت باكية مع رعشة طويلة وأخفت وجهها ، ثم استسلمت ! »

وعندما نهضت وبعد ان طرحت متاعب اللذة عادت الى بيت الزوجية ، الـىذلك البيت الذي ستلقي فيه زوجا يعبدها . وبعد هذه السقطة الاولى ، وبعد هذا الزنا الاول ، وبعد هذه الخطيئة الاولى هل كان الندم ـ الشعور بالندم هو ما تحس به ازاء هذا الزوج المخدوع الذي يعبدها ؟ لا ! فقد دخلت مرفوعة الجبهة وهي تمجد الزنا :

« وعندما رات نفسها في المرآة ادهشها وجهها ، فعيناها لم تكونـــا قط في هذا الاتساع والسواد ، ولا في هذا العمق ، وقد انساب فوق شخصها شيء خفي بدلها .

«وكانت تردد لنفسها قولها : ان لي عاشقا ! عاشقا ! واخذت تتلذذ بهـذه الفكرة وكلمـا تتلذذ بيفاعة اخرى طرات عليها ، فهي اذن ستتمتع اخيرا بلذات الحب ، بحمى السعادة التـي كانت قد يئست منها ، وقد أخذت تدخل في شيء خارق يتحول فيه كل شيء الى انفعال ونشوة وهذيـــان ... »

وهكذا نراها منذ الخطيئة الاولى ، والسقطة الاولى تمجد الزنا ، وتغني نشيد الزنـــا ، وشعره ولذاته . وهذا أيها السادة هو ما أعتبره شيئا بالغ الخطر ، وأكثر اساءة الى الاخلاق من السقوط نفسه .

ايهـــا السادة :

ان كل شيء يبدو شاحبا ازاء هذا التمجيد للزنا ، حتى المواعيد الليلية التي حدثت بعد ذلك ببضعة أيـــام .

« لكي ينبهها رودلف الى حضوره ، كان يقذف خشب النافذة بحفنة من الرمـــل ، فتنهض قافزة . ولكنه كان يضطر احيانا الى الانتظار ، وذلك لان شارل كان مولعا بالثرثرة الـى جوار النار ، وكانت ثرثرته لا تنتهي ، وكانت تتحرق لهفة . ولو ان عينيها استطاعتــا لقفزتا به من النافذة . واخيرا كانت تبدأ في زينة الليل ، ثم تاخذ كتابا وتستمر في القراءة في هدوء وكأن القراءة تسليها . ولكن شارل الذي تمدد في السرير كان يناديها لتنام .

« كان يقول : ايما تعالي اذن لقد حان الوقت ! .

« وكانت تجيب : نعم ! سآتي !

ولكن لما كانت الشموع تعشي بصره ، فانه كـــان ينقلب نحو الحائط وياخذ في النوم . وعندئذ كانت تفلت حابسة انفاسها مبتسمة ، نابضة عارية .

« وكان لرودلف معطف كبير يلفها فيه كلها ثم يلف ذراعه حول خصرها ، ويقودها في صمت الى نهاية الحديقة .

« وكان ذلك تحت العريشة وفوق نفس المقعد المصنوع من عصى عطنة حيث كان ليـــون فيما مضى ينظر اليها نظرات ولهانة أثناء امسيات الصيف ، ولكنها لم تعد الآن تفكر فيه .

« وكان برد الليل يحملهما على ان يشددا الضمات كما يشددان تنهدات شفتيهما . وعيناهما التي لا يكادان يتبيناها تلوح لهما اكثر اتساعا . ووسط الصمت كانت تقال عبارات في صوت خفيض ، فتسقط فوق روحيهما في رنين بللوري ، وتتردد في هزات عديدة . »

هل تعرفون في العالم ايها السادة لغة اكثر تعبيرا ؟ وهل رايتم قط لوحة اكثر شهوانية !

واسمعوا ايضا : « لم تكن مدام بوفاري قط جميلة كما كانت في هذه الفترة . فقد كان لها ذلك الجمال الذي لا يوصف ، والذي ينبعث عن النشوة والسعادة والنجاح ، والانسجام بين المزاج والظروف . فاطماعها واحزانها ومزاولة اللذة واحلامها الفنية دائما ، كل هذه كانت كالازهار التي ينعشها السماد والمطر والرياح والشمس ، فتنمو في تدرج ثم تزدهر في النهاية في طبيعتها الكاملة ، وجفونها يلوح انها قد قدرت خصيصا من اجل تلك النظرات الطويلة الولهانة ، حيث تضل الحدقة ، بينما يفتح نفس قوي فتحتي انفها الرقيقتين ويرفع الزاوية المليئة لشفتيها اللتين يظللهما في الضوء قليل من الزغب الاسود ، وان الانسان ليحسب ان فنانا ماهرا في الغواية ، قد رتب فوق رقبتها من الخلف ـ عقصة شعرها ، الذي كان يلتف في كتلة ثقيلة ، في اهمال ووفقا لمصادفات الزنا ، الذي كان يحله كل يوم.وقد اتخذ صوتها الآن انثناءات اكثر رخاوة، وكذلك قدها ، بل وكان ينبعث من قماش ثوبها وانحناءة قدمها شيء خفي دقيق يخترقك . وكان شارل يجدها كما كانت في اول أيام زواجهما شهية لا تقاوم ! »

حتى الآن كان جمال هذه المراة يتكون من رشاقتها ، ومنظرها وملابسها . وقد عرضت عليكم بغير حجاب . وتستطيعون ان تقولوا ما اذا كان الزنا جملها .

« وصاحت : قبلني ! اختطفني ! اوه ! انني اضرع اليك !

« وتهافتت على فمه ، وكأنما تريد ان تقتنص موافقته غير المتوقعة عندما تبعث في قبلة » .

وهذه ايها السادة لوحة من النوع الذي يستطيع صنعه السيد فلوبير . كيف تتسع عينا هذه المراة ؟ وكيف ينتشر فوقها شيء ساحر منذ سقوطها ! وهل كان جمالها قط مشرقا مثلما كان في اليوم التالي لسقوطها وفي الايام التي تلت ؟ ان الذي يظهره لنا المؤلف هو شعر الزنا ، واني لاسالكم مرة اخرى عما اذا كانت هذه الصفحات الشهوانية ليست عميقة في التحلل من الاخلاق .

واصل الى الحالة الثانية والحالة الثانية هي مرحلة الانتقال الدينية ، فايما كانت شديدة المرض ، وقد أصبحت على أبواب القبر ثم عادت الى الحياة ، وظهر ضميرها في مرحلة انتقال دينية صغيرة .

« كان القسيس السيد بورنسيان قد اتى ليراها وليطمئن على صحتها ويحمل اليها اخبارا ويحثها على الدين ، من ثرثرة صغيرة ناعمة لا تخلو من طرافة ، وكان في منظر مسوحه نفسه ما يريحها » .

فهي تذهب للتناول ، وانا لا احب كثيرا أن أعثر على الاشياء المقدسة في الروايات ، ولكن عندما يتحدثون عنها فلا اقل من الا يمسخوها بهذا الحديث ، فهل في هذه المراة الزانية التي تذهب للتناول شيء من ايمان مدلين النادمة ! لا ! انها باستمرار الولهانة التي تبحث عن الاحلام ، والتي تبحث عنها في اكثر الاشياء قداسة وجمالا . « وذات يوم بينما هي في شدة المرض، حتى لتعتقد انها تحتضر ، طلبت التناول وبينما هم آخذون في الاعداد لهذه الشعيرة الدينية في الغرفة ، فيضمون المائدة المكدسة بالمشروبات السكرية كمذبح ، وفيليسيتيه تنثر فوق الارض ازهار الداليا ، كانت ايما تشعر بشيء قوي يمر فوقها فيخلصها من آلامها ومن كل ادراك وكل احساس، ولم يعد جسدها الذي تخفف يثقل عليها وابتدات حياة جديدة ، وخيل اليها ان كيانها الآخذ في

الارتفاع نحو الله سينتهي بالفناء في ذلك الحب ، كالبخور المشتعل الذي يتبدد بخارا » .

في اي لغة يعبد الناس الله بعبارات توجه للعاشق في حالات الاستسلام للزنا ! ؟ سيتحدثون بلا ريب عن اللون المحلي ، ويلتمسون مبررا ، بقولهم ان امراة هوائية خيالية لا تفعل الاشيـاء حتى الدينية منها كما يفعلها جميع الناس . وليس هناك لون محلي يبرر هذا الخلط : شهوانية يوما ومتدينة في اليوم التالي ! ليس هناك امراة ولا في البلاد الاخرى ، بل ولا تحت سمـاء اسبانيا او ايطاليا ، تتمتم لله تنهدات الزنا التي تصعدها نحو العشيق . انكم ايها السـادة ستقدرون هذه اللغة ، ولن تلتمسوا عذرا لعبارات الزنا التي أدخلت على نحو ما في معبد الله ، وهذه هي الحالة الثانية . واصل الى الثالثة ، وهي سلسلة الزنا .

فبعد مرحلة الانتقال الدينية لا تزال مدام بوفاري مستعدة لأن تسقط . فهي تذهب الـى المسرح في روان حيث كان الممثلون يمثلون « لوس دي لامرمور » ، وقامت ايما برجعة الى نفسها .

« آه ! لو انها في نضرة جمالها ، وقبل دنس الزواج وخيبة الامل في الزنا ـ (هناك من كان يستطيع ان يقول خيبة الامل في الزواج ودنس الزنا،ولكن النص يقول قبل دنس الزواج وخيبة امل الزنا) ـ كانت قد استطاعت أن ترسي حياتها فوق قلب كبير متين ، اذن لاختلطت الفضيلـة والعاطفة والملذات والواجب ، ولما نزلت من هذه السعادة العالية .

وعندما رأت لاجارديه فوق المسرح ، شعرت برغبة في أن تجري الى « ذراعيه لكي تلجا الى قوته كما حدث في اغنية الحب ذاتها ، وأن تقول له وتصيح : اختطفني ! خذنـي ! فلنرحل ! اليك ! اليك كل عواطفي الحارة وكل احلامي ! »

وكـان ليون خلفهـــا ...

« كان واقفا خلفها مستندا بكتفه على الحاجز ، ومن وقت الى آخر كانت تحس برعشة تحت تأثير النفس الفاتر المنبعث من خياشيمه ، والساقط فوق شعرها » .

لقد حدثنا منذ هنيهة عن دنس الزواج . وسيظهر لنا ايضا الزنا بكل ما فيه من شعـر ، وبكل ما فيه من غواية تعز على الوصف . ولقد قلت ان كان من الواجب على الاقل ان تغيير العبارات ، وأن يقال خيبة أمل الزواج ودنس الزنا . وكثيرا عندمـــا يتزوج الناس لا يجدون السعادة الخالية من السحب التي انتظروها ، بل يلقـون التضحيات والمرارة . ومـن الممكن عندئذ تبرير عبارة خيبة الامل ، وأما عبارة الدنس فلا يمكن تبريرها .

لقد تواعد ليون وايما في الكاتدرائية ، وزاراها أو لم يزوراها ، وخرجا :

« كان طفل يعبث في الساحـة

« وقال له ليون : اذهب وأحضر لي عربة ، وانطلق الطفل كالقذيفة ...

آه ! ليون ! .... في الحق ... لست ادري ما اذا كان من الواجب .... !

وأخذت تتدلل ثم قالت في مظهر جاد : هذا غير لائق بالمرة ، أو ما ترى ذلك ؟

« فأجاب الكاتب : ما وجه عدم لياقته ؟ ... ان هذا يحدث في باريس !

« وكانت هذه العبارة كحجة لا تدفع ، فشددت عزمها ! »

ونحن نعلم الآن ايها السادة أن السقوط لم يكن في العربة . فرئيس تحرير المجلة قد دفعه وخز ضمير يشرفه الى ان يحذف فقرة السقوط في العربة ، ولكنه اذا كانت « مجلة باريس » (ريفي دي باريس) قد اسدلت ستائر العربة ، فانها تتركنا ندخل الى الغرفـة التي تتم فيها المقابـــلات .

ارادت ايما الرحيل لانها كانت قد وعدت ان تعود في نفس المساء . وفضلا عن ذلك ، فقد

كان شارل ينتظرها ، كما انها كانت قد اخذت تشعر من قلبها بذلك الاستسلام الجبان ، الــذي يعتبر ، بالنسبة للكثير من النساء ، عقابا وغذيــة من الزنا على السواء ...

« واستمر ليون يسير على الرصيف وهي تتبعه حتــــى الفندق ، ثم صعد وفتــح الباب ودخـــل ... يا لها من ضمة !

« ثم انهالت العبارات بعد القبلات ! وكانا يتبادلان الحديث عـــن اشجان الاسبوع ، والمخاوف والقلق علــى الخطابات . ولكن كل شيء قد نسى الآن ، وهــا هما وجها لوجه مــع ضحكات اللذة ونداءات الحنان

« كان السرير سريرا كبيرا من الاكاجو في شكل زورق ، وكانت الستائر المصنوعة من الحرير الاحمر تنزل من السقف وتتجمع في اسفل بالقرب من الوسادة حيث تنفرج » ولم يكن في العالم شيء في جمال راسها ذي الشعر الاسود ، وجلدها الابيض يبرز فوق هذا اللون القرمزي ، عندمــا كان الحياء يدفعها الى أن تضم ذراعيها العاريتين وهي تخفي وجهها في يديها .

« وكان جو الجناح الفاتر ، بسجادته الهادئة اللون ، وزينته الخفيفة ، وضوئه الهادىء ، يلوح ملائما كل الملاءمة لخلوات الغرام » .

هذا هو ما يحدث في الغرفة وها هي فقرة اخرى بالغة الاهمية ــ كتصوير شهواني .

« كم كانا يحبان هذه الغرفة الطيبة المليئة بالمرح ، بالرغم من فخامتها التي ذبلت قليلا . وكانا يجدان دائما الاثاث في مكانه ، بل ودبابيس الشعر التي كانت قد نسيتها يوم الخميس الآخر تحت قاعدة الساعة . وكانا يتناولان الغداء الى جوار النار فوق مائدة مستديرة مطعمة بخشب الابنوس . وكانت ايما تقطع اللحم ، وتضع القطع في طبقه ، وهي تسرد كافة انواع المداعبات . وكانت تضحك ضحكات رنانة خليعة عندما يفيض زبد الشمبانيا من الكاس الخفيفة فوق خواتم اصابعها . وكانا غارقين غرقا كاملا في تملك ذاتهما ، حتى لكانهما يعتقدان انهما في بيتهما الخاص ، وانهمــا سيعيشان فيــه حتــى المــوت كزوجين خالدين ! وكانــا يقــولان : « غرفتنــا » و « سجادتنــا » و « كراسينــا » ، بــل وكانت تقــول « خفــى » الــذي كــان هديــة مــن ليــون استجابة لاحــدى نزواتهــا . وكــان خفــا مــن الستان الوردي ، محلاة حافته بالبجع ! وعندما كانت تجلس فوق ركبتيه ، كانت ساقها القصيرة تتدلى في الهواء ، وكان الخف الجميل الذي لا عقب له يمسك فقط بأطراف اصابع قدمها العارية .

« لقد تذوق لأول مرة تلك الرقة المرهفة المنبعثة من الاناقة النسائية ، ولم يكن قد صادف قط هذه الرشاقة ، وهذه اللغة ، وهذا التحفظ في الثياب ، وهذه الاوضــاع الشبيهــة بأوضاع الحمامة الغافية . وكان يعجب بحرارة نفسها ، و « دنتيللا » جونلتها . ولم لا ؟ اليست احدى نساء الطبقة الراقية ، وامراة متزوجة ؟ ! وبالجملة أليست عشيقة حقيقية ؟ ! »

هذا أيها السادة وصف ليس بعده من مزيد فيما اعتقد من وجهة نظر الاتهام ؟ وهــا هو وصف آخر او على الأصح تكملة لنفس المشهد .

« وكانت لها عبارات تشعله ، مع قبلات تطير بروحه . ولكن اين تعلمت هذا الاغراء الذي يكاد لا يكون ماديا لشدة عمقه وتنكره ؟ »

أوه ! انني أفهم أيها السادة الاشمئزاز الذي يوحي به اليها هــذا الزوج الذي اراد ان يقبلها بدوره ! وافهم جيدا انه عندما تتم المقابلات التي من هذا النوع ، كانت تحس في الشمئزاز اثناء نوم هذا الرجل المتمدد الذي ينام ملاصقا لجسدها !

وليس هذا كل شيء . ففي صفحة ٧٣١ لوحة اخيرة لا استطيع أن اغفلها ، وكانت قــد

وصلت الى حد التعب من اللذة .

« كانت تعد نفسها بسعادة عميقة في كل رحلة مقبلة . ثم كانت تعترف بانها لم تحس بشيء خارق للعادة . وامحت هذه الخيبة تحت تاثير امل جديد . وعادت ايما اليه اكثر اشتعالا ونهما ، فكانت تتعرى في عنف ، وتنتزع شريط صدارها الرفيع ، الذي يدور حول ردفها كما يتسلل الثعبان . وكانت تذهب على اطراف اصابعها العارية لكي تتاكد مرة اخرى من ان الباب مغلق ، ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة ، وتتهالك على صدره شاحبة صامتة جادة ، في رعشة طويلة ! »

وانا اسجل هنا ايها السادة شيئين :

تصوير رائع من حيث الموهبة ، ولكنه ملعون من حيث الاخلاق . نعم ان السيد فلوبير يعرف كيف يجمل لوحاته بكافة وسائل الفن . ولكن بدون حيل الفن فليس لديه ضباب ولا نقاب ، بل الطبيعة في عريها الكامل وفجاجتها الكاملة !

ثم اقتباس آخر من صفحة ٧٨٢

« لقد طالت معرفة احدهما بالآخر حتى أصبح لا يحس بنشوة التملك التي كانت تضاعف من اللذة . واصبحت تشمئز منه بقدر ما اصبح متعبا منها ، وقد اخذت ايما تعثر في الزنا على كل ما في الحياة الزوجية من رتابة مملة . »

رتابة الزواج المملة ، وشعر الزنا ! فاحيانا دنس الزواج واحيانا رتابته المملة ، ولكن دائما شعر الزنا ! هذه ايها السادة هي الاوضاع التي يحب السيد فلوبير ان يصورها وهو لسوء الحظ يجيد تصويرها اكثر مما يجب !

لقد قصصت مشاهد ثلاثة : مشهدا مع رودولف رايتم فيه السقوط في الغابة وتمجيد الزنا ، وهذه المراة التي يزداد جمالها مع هذا الشعر . ولقد تحدثت عن مرحلة الانتقال الدينية ، ولقد رايتم فيها الصلاة تستعير من الزنا لغته . كما تحدثت عن السقوط الثاني وسردت المشاهد التي تتابع مع ليون ، واطلعتكم على مشهد العربة المحذوف ، كما اطلعتكم على لوحة للغرفة والسرير . والآن وقد اعتقدت ان يقينكم قد تكون فلأصل الى المشهد الرابع : مشهد العذاب .

لقد حذفت منه بواسطة « مجلة باريس » فيما يبدو فقرات عديدة واليكم العبارات التي يشكو بها السيد فلوبير من هذا التصرف :

« لقد دفعت بعض الاعتبارات التي ليس لي أن احكم عليها « مجلة باريس » الى ان تقوم بعملية حذف في عدد اول ديسمبر ، ولما كان نفس التحرج قد تجدد بمناسبة العدد الحالي ، فانها قد رات من الملائم ان تحذف ايضا عدة فقرات ، ولذلك فانني اعلن تنصلي من مسئولية السطور الآتية ، وارجو القارىء الا يرى فيها الا فقرات لا النص الكامل » .

فلنعبر الآن فوق هذه الفقرات ولنصل الى الوفــاة . لقد تناولت السم ـ تناولت السم لماذا ؟ « لقد قالت لنفسها : آه ! ما اهون الموت ! سانام وينتهي كل شيء ! » ثم بدون ندم ولا اعتراف ولا دمعة تكفير على هذا الانتحار الذي يتم ، وزنا الأمس ستتلقى طقوس المحتضرين . ولماذا الطقوس ؟ ما دامت ستذهب الى العدم كما قالت منذ هنيهة ؟

لماذا ؟ ما دامت ليست هناك دمعة ولا زفرة كزفرات مادلين بسبب جريمة عدم ايمانهـا ، ثم انتحارها وزناها ؟

وبعد هذا المشهد ، يأتي مشهد المسحة الاخيرة ، وتلك عبارات مقدسة مبجلة بالنسبة الينـا لاننا قد انمنا بهذه الاقوال اجدادنا وآباءنا واقاربنا ، وبها سينيمنا يوما ابناؤنا . فعندما يراد

ايرادها يجب ان تورد بدقة ، ويجب على الأقل الا تصطحب بصورة شهوانية للحياة السابقة .

انكم تعلمون ان القسيس يقوم بالمسحات المقدسة فوق الجبهة والاذنين والفم والقدمين وهو يتلو هذه العبارات الشعائرية : ان كل ما اقترفت بالقدمين والاذنين والفم ... الخ ... ثم يتبعها دائما بكلمات الرحمة ... وهكذا خطيئة من ناحية ورحمة من ناحية أخرى . ومن الواجب ايراد هذه العبارات المقدسة المبجلة في دقة ، واذا لم تورد في دقة فلا اقل من الا نضع فيها شيئا شهوانيـــا .

« وادارتوجهها في بطء ، ولاح أنها قد تملكتها النشوة اذ رات فجاة المسوح البنفسجي. ولا شك انها قد عادت فاحست وسط هذا الهدوء الخارق بتلك اللذة المفقودة التي كانت تستشعرها في انطلاقاتها الصوفية الاولى مع رؤى من السعادة الخالدة التي اخذت تبتدىء .

« ونهض القسيس لكي ياخذ الصليب . وعندئذ مدت رقبتها كمن به ظما ، والصقت شفتيها فوق جسم « الرجل الاله » ، ووضعت فوقه بكل قوتها المولية اكبر قبلة حب اعطتها في حياتها . ثم ردد « رحمتك يا الله* » وصلاة الاستغفار ، وغمست اصبعهـــا الايمن في الزيت ، وابتدات المسحات الاخيرة ، اولا على عينيها اللتين طالما تطلعتا الى المتع الارضية ، ثم فوق انفها المولع بالنسمات الفاترة والروائح الغرامية ، ثم فوق فمها الذي كان مفتوحا للكذب ، والذي كـــان يئن من التكبر ، ويصيح في الشهوة ، ثم فوق اليدين اللتين كانتا تتلذذان باللمسات العذبة ، واخيرا فوق مسطح قدميها اللتين كانتا فيما مضى بالغتي السرعة في الجري لاشباع رغباتها ، واللتين لن تعودا تسيران الآن »

والآن تاتي صلوات المحتضرين التي يرددها القسيس بصوت خفيض ، والتي عند كل آية منها توجد عبارات « أيتها الروح المسيحية ! ارحلي الى رحاب اعلى » . وهم يتمتمون بهـــا عندما ينساب آخر نفس من شفتي المحتضر . القسيس يرددها الخ ...

« وكلما اشتدت الحشرجة اسرع القسيس في مواعظه ، التي كانت تختلط بانتحابات بوفاري المكبوتة . واحيانا كان يلوح ان كل شيء يختفي في التمتمة الصامتة للمقاطع اللاتينية التي كانت ترن كدقات ناقوس حزين ! .

لقد رأى المؤلف أن من المناسب أن يحور هذه العبارات وان يجعل لها مقابلا فادخل فـــي الموضوع اعمى على الرصيف يردد اغنية تتابع عباراتها الاباحية كنوع من الرد علــــى صلوات المحتضرين .

« وفجاة سمعت على الرصيف ضوضاء حذاء خشبي سميك مع حفيف عصا وصوت اجش يرتفع مغنيا « كثيرا ما تدفع حرارة يوم صحو ـــ الصبية الى ان تحلم بالحب . وهبت الريح قوية في ذلك اليوم ، وتطايرت الجونلة القصيرة » .

وهذه هي اللحظة التي ماتت فيها مدام بوفاري .

وهكذا كانت اللوحة . فمن ناحية القسيس يردد صلوات المحتضرين ، ومن الناحية الاخرى* لاعب الأرغن الذي يثير عند المحتضرة « ضحكا مؤلما مجنونا يائسا ، معتقدة أنها ترى الوجـــه المخيف لذلك الشقي الذي يقف في الظلمات الابدية كشبح مرعب ... والقت بها شهقـــــة فوق الحشية ، واقترب الجميع ... وكانت قد فارقت الحياة ! »

ثم انه عندما يبرد الجسم ، يصبح الشيء الواجب الاحترام قبل كل شيء ، هو الجثة التي فارقتها الروح . وعندما يكون الزوج حاضرا جاثيا يبكي امراته ، وعندما ينشر فوقها الكفن ـــ ، لا بد ان أي كاتب آخر كان سيقف عند هذا الحد . ولكن هذه هي اللحظة التي يقوم فيها السيد

فلوبير بلمسة الريشة الأخيرة .

« وقد تجوفت الملاءة من ثدييها الى ركبتيهـا ، ثم ارتفعت بعد ذلك عند اطراف اصابـع قدميهـا . »

هذا هو مشهد الموت وقد اختصرته ، او جمعته على نحو ما ، ولكم انتم ان تحكموا وتقدروا ما اذا كان فيه مزج بين الاشياء المقدسة والحياة الدنيا ، او على الاصح مزيج بين القداسة والشهوانية .

لقد قصصت الرواية ، وادنتها بعد ذلك واسمحوا لي ان اقول ان الاتجاه الذي يتعهـده السيد فلوبير ، والذي يحققه دون التجاء الى حيل الفن ، بل مع استخدام كافة وسائل الفن ، هو الاتجاه الوصفي والتصوير الواقعي . وانظروا الى اي حد يصل . ولقد وقع في يدي اخـيرا عدد من مجلة « الفنان » وانا هنا لا اتهم هذه المجلة ، وانما أحاول تحديد اتجاه السيد فلوبير ، واطلب منكم ان تسمحوا لي بان اقرا بضعة اسطر من كتاب لا يرتبط في شيء بالكتاب الذي نحاكم من اجله السيد فلوبير ، ولكنني رايت فيه الى اي حد يبرع السيد فلوبير في التصوير ، وهو يحب ان يصور المغريات وبخاصة المغريات التي سقطت فيها مدام بوفاري . وانني لاجد نموذجا لاتجاهه في الاسطر الآتية من مجلة الفنـان الصادرة في يناير بامضاء جوستاف فلوبير عن « غوايـة القديس انطوان » . وهذا — وايم الحق — موضوع يستطيع ان يقول فيه الانسان الكثير . ولكن لا اظن ان من الممكن ان يعطي انسان للصورة حيوية اكثر ، ولا نفاذا اقوى في التصوير الاباحي للقديس انطوان : « اهو العلم ؟ اهو المجد ؟ هل تريد ان تنعش عينيك بالياسمين الرطب ؟ هل تريد ان تحس بجسمك يغوص في اللحم الرقيق للنساء المتفتحات وكانه يغوص في موجة ماء ؟ » .

انه نفس اللون ، ونفس القوة في الريشة ، ونفس الحيوية في العبارة !

ويجب ان الخص فاقول : انني قد حللت الكتاب ، وقصصت دون ان انسى صفحة ، ثم ادنت بعد ذلك وكان هذا هو الجزء الثاني من مهمتي ، وقد حددت بعض الصور ، واظهرت مدام بوفاري ساكنة امام زوجها ، وامام اولئك الذين كان يجب الا تغويهـم . وقد جعلتكم تلمسون الالوان الشهوانيـة ، لهذه الصورة ، ثم حللت بعض المشاهد الكبيرة : السقوط مع رودلف ، ومرحلة الانتقال الدينية ، والغرام مع ليون ، ومشهد المـوت . وفي جميعهـا وجدت الجريمة المزدوجة في اهانة الأخلاق العامة واهانة الدين .

انني لست في حاجة الا لمشهدين : فالاساءة الى الاخلاق هلا ترونهـا في السقوط مـع رودلف ؟ وهلا ترونها في تمجيد الزنا ؟ وهلا ترونها بنوع خاص فيما يحدث مع ليون ؟ ثم الاساءة الى الاخلاق الدينية . وانا اجدها في حديثه عن الاعتراف في صفحة ٣٠ من الجزء الذي نشر اولا في عدد أول اكتوبر . وفي مرحلة الانتقال الدينية صفحة ٥٤٨ و ٥٥٠ من عدد ١٠ نوفمبر . واخيرا في المشهد الاخير الخاص بالموت .

ان امامكم ايها السادة ثلاثة متهمين : السيد فلوبير مؤلف الكتاب ، والسيد بيشا الذي قبله ، والسيد بيلين الذي طبعه . وفي هذا الموضوع ليست هناك جريمة بدون علانية ، وجميع من اشتركوا في هذه العلانية يجب ان ينالهم العقاب . ولكننا نسرع بان نقول بان مدير المجلـة والطابع لا ياتيان الا في المرتبة الثانية ، والمتهم الاساسي هـو المؤلف ، هو السيد فلوبير — السيد فلوبير الذي نبهته ملاحظة التحرير فاحتج ضد الحذف الذي اجري في كتابه ، ثم ياتـي بعده في المرحلة الثانية السيد لوران بيشا الذي ستحاسبونه — لا على الحذف الذي اجراه — بل على ذلك الذي كان يجب ان يجريه ، واخيرا ياتي في المرحلة الاخيرة الطابع الذي يعتبر الديدبـان الامامي ضد الفضيحة . والسيد بيلين بعد ذلك رجل فاضل ليس لدي ما اقوله ضده ، ونحن لا

نطلب اليكم الا شيئا واحدا هو أن تطبقوا عليه القانون ، فالطابعون يجب ان يقراوا . وعندما لا يقراون او يكلفون غيرهم بالقراءة ، فانهم يطبعون تحت مسئوليتهم الخاصة . فالطابعون ليسوا آلات ، ولهم امتياز فهم يقسمون اليمين ، وهم في وضع خاص ، وهم مسئولون . انم كما سبق أن قلت الديدبان الامامي اذا سمحتم لي بهذا التعبير ، وهم عندما يتركون الجريمة تمر يكونون كمن يترك العدو يمر ، ولتخففوا العقوبة كما تشاؤون عن بيليه ، بل وكونوا رحيمين بمدير المجلة ، واما فلوبير المجرم الاساسي فهو الذي يجب أن تحتفظوا له بقسوتكم .

والآن وقد انتهت مهمتي ، يجب ان ننتظر الاعتراضات ، او ان نسبقها . ولسوف يقال لنا كاعتراض عام : ان الرواية في النهاية اخلاقية ما دام الزنا قد عوقب ؟ ولهذا الاعتراض جوابان فلنا افترض افتراضا أن الكتاب اخلاقي ، ولكن الخاتمة لا يمكن أن تغفر للتفاصيل الشهوانية التي يمكن أن توجد فيه . ثم انني اقول ان الكتاب ليس في جوهره اخلاقيا .

انني اقول ان التفاصيل الشهوانية لا يمكن أن تغطى بخاتمة اخلاقية ، والا لأمكن ان تقص كافة القاذورات التي يمكن تصورها ، وأن توصف كافة خلاعات عاهرة مع جعلها تموت فوق حصير قذر بمستشفى . وكان من الجائز دراسة واظهار كافة الأوضاع الشهوانية ! ان في هذا ما يتعارض مع كافة قواعد التفكير السليمة . وان فيه وضعا للسم في متناول الجميع ، وللدواء في متناول عدد قليل اذا كان هناك دواء . ومن الذي يقرا رواية السيد فلوبير : هل هم الرجال الذين يهتمون بالاقتصاد السياسي او الاجتماعي ؟ لا ! ان الصفحات الخفيفة في مدام بوفاري تقع بين ايد اكثر خفة ! في ايد الفتيات واحيانا في ايدي النساء المتزوجات . وعندما يغوي الخيال ، وعندما ينحدر هذا الاغواء حتى القلب ، وعندما يتحدث القلب الى الحواس — هل تعتقدون أن التفكير البارد ستكون لديه القوة الكافية لكي يقهر غواية الحواس والاحساس ؟ ثم انه لا يجب أن يسرف الانسان في التفافه داخل قوته وفضيلته ، فالانسان يحمل الغرائز الدنيا والافكار السامية ، والفضيلة عند الجميع ليست الا نتيجة لمجهود يكون في الغالب شاقا ، والتصوير الشهواني له في الغالب تاثير اقوى من التفكير البارد . وهذه هي اجابتي الاولى على هذه النظرية . هذه هي اجابتي الاولى ، ولكن لدي اجابة اخرى .

انني أؤكد أن رواية مدام بوفاري ليست اخلاقية اذا واجهناها من الناحية الفلسفية . لا شك أن مدام بوفاري قد ماتت بالتسمم ومن الحق انها قد قاست كثيرا ، ولكنها قد ماتت في اليوم والساعة المقدرين لها ، ولكنها لم تمت لانها زانية ، بل لانها ارادت ان تموت ، وقد ماتت في عنفوان شبابها وجمالها . ماتتبعد ان كان لها عشيقان تاركة زوجا يحبها ويعبدها ، وسيعثر علىصورة رودولف وخطاباته وخطابات ليون ، ويقرأ خطابات امراة مزدوجة الزنا . ومع ذلك يزداد لها حبا من وراء القبر ! ومن الذي يستطيع ان يدين هذه المراة في الكتاب ؟ لا احد ! هذه هي الخلاصة ! ليس في الكتاب شخصية واحدة تستطيع أن تدينها . واذا استطعتم ان تجدوا شخصية واحدة حكيمة أو أن تعثروا على مبدأ واحد يمكن ان يدان به الزنا احكموا باني مخطىء . والئن فاذا لم يكن في الكتاب كله شخصية واحدة يمكن أن تحملها على ان تطاطىء الراس ، واذا لم تكن هناك فكرة أو سطر يمكن ان يسفه به الزنا ، فانني اكون على حق ويكون الكتاب ضد الاخلاق !

هل يمكن ان يدان الكتاب باسم شرف الحياة الزوجية ؟ ولكن شرف الحياة الزوجية ممثل في زوج مغفل نراه عندما يلتقي برودلف بعد وفاة زوجته يبحث في وجه العشيق عن ملامح المراة التي يحبها . (الجزء المنشور في ١٥ ديسمبر ص ٢٨٩) وانا اسالكم : هل باسم شرف الحياة الزوجية تستطيعون ان تدينوا هذه المراة عندما لا يكون في الكتاب كلمة واحدة لا ينحني فيها الزوج امام الزنا ؟

هل نستطيع ذلك باسم الرأي العام ؟ ولكن الراي العام ممثل في شخص مضحك ، ممثل في الصيدلي هومين محاطا باشخاص مضحكين تسيطر عليهم هذه المراة .

هل تدينون باسم الاحساس الديني ؟ ولكن هذا الاحساس قد تمثل في القسيس بورنسيان وهو قسيس مضحك كالصيدلي سواء بسواء ، وهـو لا يعتقد الا في الآلام الجسمية دون الآلام المعنوية ، ويكاد يكون ماديا .

هل تدينون باسم ضمير المؤلف ؟ انني لا اعلم ما الذي يفكر فيه ضمير المؤلف ؟ ولكنني في الفصل الفلسفي الوحيد في الكتاب وهو الفصل العاشر (الجزء المنشور في ١٥ ديسمبر) اطالع العبارة الآتيـة :

« ان هناك دائما بعد موت شخص شيئا يشبه الذهول الذي يملأ الجو . وذلك لانه مـن الصعب فهم هذا العدم الطارىء ، والاستسلام لتصديقه » .

واذا لم تكن هذه صيحة عدم ايمان فهي على الاقل صيحة شك . انه بلا ريب من الصعب ان نفهمه وان نصدقه ، ولكن لماذا هذا الذهول الذي يظهر عند الموت ؟ لماذا ! لان هذا الطـارىء احد الاسرار ولأنه من الصعب ان نفهمه وأن نحكم عليه ، ولكنه من الواجب أن نستسلم له . وانا اقول انه اذا كان الموت هو عدم طارىء ، واذا كان الزوج المغفل يحس بحبه يزداد عندمـا يعلم بزنا امراته ، واذا كان الراي العام ممثلا في أشخاص مضحكين ، واذا كان الاحساس الديني ممثلا في قسيس مضحك ، فان شخصا واحدا هو المحق ، وهو الذي يحكم ويتسيطر ، انهـا ايما بوفاري ! وهذا قلب للاوضاع .

هذه هي الخلاصة الفلسفية للكتاب ، لم يستخلصها المؤلف ، انما استخلصها رجل مفكر يتعمق الاشياء ــ رجل بحث في الكتاب عن شخصية يمكن ان تسيطر على هذه المرأة فلم يجد . والشخصية الوحيدة المسيطرة هي مدام بوفاري ولذلك يجب ان نبحث في غير هذا الكتاب ، يجب أن نبحث في الاخلاق المسيحية التي هي أساس الحضارات الحديثة . وفي ضوء هذه الاخـلاق يتضح كل شيء ويستبين .

فباسمه يسفه الزنا ويدان ، لا لانه حماقة تعرض لخيبة الامل وللندم ، بل لانه جريمة ضد الاسرة . انكم تسفهون وتدينون الانتحار لا لانه جنون ، فالمجنون غير مسئول ، ولا لأنـه جبن فانه يتطلب أحيانا شيئا من الشجاعة الجسمية ، بل لانه احتقار للواجب نحو الحياة التي تنتهي ، وصيحة عدم ايمان بالحياة التي تبتدىء .

وهذه الاخلاق تدين الادب الواقعي لا لانه يصور الشهوات : البغض والانتقام والحـب ، فالعالم لا يحيا الا بها ، ومن واجب الفن أن يصورها ، ولكن لانه يصورها بلا ضابط ولا حدود .

والفن بغير قاعدة لا يعود فنا ، وهو كالمراة التي تتخلى عن كافة ثيابها ، واخضاع الفن للوقار العام ليس استعبادا له بل تشريفا . والانسان لا يكبر الا بقاعدة . وهذه ايها السادة هي المبادىء التي ندين بها ، وهذا هو المذهب الذي ستحمونه استجابة لضميركم .

مرافعة الدفاع

السيد سينار

ايهـــا السادة :

ان السيد جوستاف فلوبير متهم امامكم بانه قد وضع كتابا رديئا ، وبانه قد اساء في هـــذا الكتاب الى الاخلاق العامة والى الدين . والسيد فلوبير موجود الى جواري ، وهو يؤكد امامكم انه قد وضع كتابا شريفا ، ويؤكد امامكم ان فكرة كتابه منذ السطر الاول حتى الاخير فكرة أخلاقية دينية ، وانها اذا لم تحور (ولقد راينا خلال لحظات ماذا تستطيعه الموهبة الكبيرة لكي تحـــور فكرة) فانها ستكون ، وستعود فتكون ، بعد لحظات ، بالنسبة اليكم ، كما كانت بالنسبة لقراء الكتاب ـ فكرة اخلاقية ودينية قبل كل شيء . ومن الممكن التعبير عنها بهذه الكلمات : الدعوة الى الفضيلة ببشاعة الرذائل . انني احمل اليكم هنا ما يؤكده السيد جوستاف فلوبير واضعه فــي جسارة اتهام النيابة العامة ، لان ما يؤكده شيء خطير . وهو صادر عن الشخص الذي الف الكتاب ، كما انه مؤيد بالظروف التي احاطت بتاليف الكتاب ، والتي ساحدثكم عنها .

هذا الراي خطير لصدوره عن الشخص الذي الف الكتاب ، واسمحوا لي بان اقول لكم ان السيد جوستاف فلوبير لم يكن مجهولا لي ، وانني لم اكن في حاجة الى توصيات او الى معلومات استقيها منه ـ لا اقول عن اخلاقه ـ بل وعن كرامته . وقد حضرت الى هذه الساحة لاؤدي واجبا يمليه الضمير ، بعد ان قرات الكتاب ، وبعد ان احسست بهذه القراءة تثير في نفسي كل مــا هو شريف ، وكل ما هو ديني عميق . ولكنني في نفس الوقت الذي اؤدي فيه واجبا يمليه الضمير ـ اؤدي ايضا واجبا تمليه الصداقة ، فانا اذكر ـ ولا يمكن ان انسى ـ ان اباه كان بالنسبة الي صديقا حقيقيا ، وابوه الذي تشرفت بصداقته زمنا طويلا وحتى اللحظة الاخيرة ، بل واسمحوا لي أن اقول : أبوه العظيم كان خلال أكثر من ثلاثين عاما رئيسا للجراحين بمستشفى أوتيل ديو دى روان ، وكان مساعدا لديبيترين ، في تزويد العلم بحقائق كبيرة واسماء ضخمة ، اكتفي بان اذكر من بينها واحدا هو كلوكين . وهو لم يخلف في العلم اسما كبيرا فحسب ، بل خلف ايضا ذكريات كبيرة ، بسبب الخدمات الشاسعة التي اداها للانسانية . وفي نفس الوقت الذي اتذكر فيه علاقتي به ـ اقول لكم ان ابنه المقدم الى المحكمة كمتهم بالاساءة الى الاخلاق والى الدين ـ

ابنه هذا صديق لابنائي ، كما كنت صديقا لأبيه . وانا اعرف فكرته وأعرف مقاصده . والمحامي هنا له الحق في ان يتقدم كضامن شخصي لموكله .

ايها السادة ان اسما كبيرا وذكريات كبيرة لهما مقتضياتهما . وابناء السيد فلوبير لم يخونوه ، وقد كانوا ثلاثة : ولدين ، وبنتا ماتت في الواحدة والعشرين ، وكان الابن الاكبر قاضيا جديرا بان يخلف اباه ، وهو الذي يقوم الآن — ومنذ عدة سنوات — بالدور الذي كان ابوه يقوم به خلال ثلاثين سنة . واصغرهما هو هذا الماثل أمامكم . وعندما ترك لهما ابوهما ثروة كبيرة واسما كبيرا ، ترك لهما الحاجة لأن يكونا رجلي ادراك واحساس ... رجلين نافعين . فاخو موكلي قد سار في مهنة يؤدي فيها الخدمات كل يوم . واما هذا فقد خصص حياته للدرس وللادب . والكتاب المطارد امامكم في هذه اللحظة هو اول عمل له . وهذا العمل الاول الذي يثير — ايها السادة — الشهوات ، كما يزعم السيد محامي الامبراطورية ، هو نتيجة دراسات طويلة وتفكير طويل . والسيد جوستاف فلوبير رجل ذو خلق جاد ، محمول بطبيعته نحو الاشياء الجادة الحزينة . وهو ليس بالرجل الذي تستطيع النيابة بخمسة عشر أو عشرين سطرا منتزعة من هنا وهناك ، ان تقدمه اليكم كصانع للوحات شهوانية . لا ! انني اكرر ان في طبيعته كل ما يمكن تصوره من جد ووقار ، ولكن — في نفس الوقت — كل ما يمكن تصوره من حزن . وكتابه — بمجرد أن نقوم عباراته وان نضع الى جوار الفقرات التي ذكرت الاسطر التي تسبقها والتي تليها — لا يلبث ان يتخذ لونه الحقيقي ، كما لا يلبث ان يظهر مقاصد المؤلف . ومن الكلام الجميل الذي سمعتموه، لن يبقى في ذاكرتكم الا احساس بالاعجاب الجميل بموهبة تستطيع ان تحور كل شيء !!

لقد قلت لكم ان السيد جوستاف فلوبير رجل جاد وقور . وكانت دراساته التي تلائم طبيعته النفسية دراسات جادة واسعة ، فهي لم تشمل فقط كافة فروع الادب ، بل شملت ايضا القانون . فالسيد فلوبير ليس بالرجل الذي يقنع بالملاحظات التي يستطيع ان يقدمها له الوسط الذي يعيش فيه ، بل اخذ يسأل الاوساط الاخرى — انه من اولئك الذين يصفهم الشاعر اللاتيني بانهم قد رأوا اخلاق الكثير من الناس ومدنهم .

فبعد وفاة ابيه وانتهاء دراسته في المدرسة العامة زار ايطاليا ، ومن سنة ١٨٤٨ الى ١٨٥٢ جاب بلاد الشرق : مصر وفلسطين وآسيا الصغرى ، التي اذا ارتادها رجل واسع الذكاء، يستطيع ان يعود بشيء سام شعري ، وبهذه الألوان ، وبسطوة الاسلوب ، التي اظهرتها النيابة العامة منذ لحظات ، لكي تؤيد الجريمة التي تنسبها الينا . وسطوة الأسلوب والملكات الادبية سو فتبقى وتبرز في وضوح من هذه المناقشات ، ولكنها لا يمكن ان تؤيد الاتهام على اي نحو .

ومنذ عودته في سنة ١٨٥٢ اخذ السيد جوستاف فلوبير يكتب ويحاول أن ينتج في اطار كبير ، نتيجة دراسات دقيقة جدية — نتيجة ما استخلصه في رحلاته .

ما هو الاطار الذي اختاره ، والموضوع الذي انتقاه ، وكيف عالجه ، ان موكلي من اولئك الذين لا ينتمون الى اية مدرسة ادبية من التي وجدت اسمها منذ هنيهة في مرافعة الاتهام . وفي الحق انه ينتمي الى المدرسة الواقعية من حيث انه يتمسك بواقع الاشياء . وهو ينتمي الى المدرسة النفسية من حيث ان مادية الاشياء ليست هي التي تحركه ، بل الاحساس الانساني ، ونمو العواطف في الوسط الذي يوجد فيه ، وهو ينتمي الى المدرسة الرومانتيكية اقل من انتمائه الى اية مدرسة اخرى ، وذلك لانه اذا كانت الرومانسية تظهر في كتابه ، كما أنه اذا كانت الواقعية تظهر فيه ، فان هذا لا يكفي ان يكون ببعض تعبيرات مقتضبة منثورة هنا وهناك ، اخذتها النيابة العامة ماخذ الجد . والذي اراده السيد فلوبير بنوع خاص انما هو ان يتناول بالدرس

موضوعا من الحياة الواقعية ، انما هو أن يخلق وأن يبني نماذج حقه من الطبقة الوسطى ، وان يصل الى نتيجة مفيدة .

نعم ! ان ما كان يشغل موكلي في الدراسة التي قام بها انما هو هذا الهدف النافع ، بأن يتابع على مسرح الحياة ثلاثة أو أربعة أشخاص من المجتمع الحاضر ، يعيشون في ظروف الحياة الواقعية ، وتمثل أمام عيني القارىء لوحة حقيقية لما نلقاه غالبا في العالم .

لقد قالت النيابة العامة عند تلخيص رأيها في « مدام بوفاري » أن العنوان الثاني لهذا الكتاب هو : « تاريخ زنا امرأة بالريف » . وانا احتج بشدة ضد هذا العنوان . وهو يدلني في ذاته ــ فضلا عما أحسست به خلال مرافعتك من أولها الى نهايتها ــ على الفكرة التي كانت تسيطر عليك باستمرار . لا ! ان العنوان الثاني لهذا الكتاب ليس « تاريخ زنا امرأة بالريف » وانما هو ــ اذا كنت في حاجة ماسة الى عنوان آخر ، تاريخ التربية التي كثيرا ما تقدم في الريف ... تاريخ الاخطار التي يمكن أن تؤدي اليها ... تاريخ الانحطاط والختل والانتحار كنتيجة لخطيئة اولى ... خطيئة تسببت هي نفسها عن اخطاء اولى خطيئة كثيرا ما تنساق اليها امرأة شابة ... تاريخ في التربية ... تاريخ لحياة سيئة كثيرا ما تكون التربية مقدمة لها . هذا هو ما اراد السيد فلوبير ان يصوره ، لا زنا امرأة بالريف ، وسوف تتبينون هذا عندما نمر خلال الكتاب موضع الاتهام .

لقد تبينت النيابة العامة من كل هذا وقبل كل شيء اللون الشهواني . ولو انني استطعت ان آخذ اسطر الكتاب التي اقتطعتها النيابة العامة ، وان اضعها في مقابل الاسطر الاخرى التي تركتها جانبا ، لحصلنا على نسبة عامة ، هي واحد الى خمسمائة ، وسوف ترون أن نسبة واحد الى خمسمائة ليست لونا شهوانيا ، هذا اللون الذي لا يوجد من أي مكان في الكتاب ، ولا يمكن أن يوجد الا بشرط الاقتطاع والتعليقات .

والآن ماذا أراد السيد فلوبير أن يصور ؟ أولا تربية أعطيت لامرأة فوق المستوى الذي ولدت فيه ، على نحو ما يجب أن نعترف بأنه كثير الحدوث عندنا . ثم ذلك الخليط من العناصر المتنافرة التي تتولد على هذا النحو في راس المرأة ، ثم عندما يأتي الزواج ولا يتناسب مع التربية ، بل مع الظروف التي ولدت فيها المرأة ، فان المؤلف قد أوضح كل الوقائع التي نحدث في الوضع الذي أصبحت فيه .

وما الذي يظهره أيضا ؟ انه يظهر امرأة تسير الى الرذيلة بسبب سوء المصاهرة . ومن الرذيلة الى آخر درجات الانحطاط والتعاسة ، وبعد هنيهة عندما أصل الى تعريفكم بالكتاب في مجموعه بقراءة فقرات مختلفة ، سأترك الى المحكمة السماح لي بأن نلخص المشكلة في العبارات الآتية : هل اذا وضع هذا الكتاب بين يدي شاب يمكن أن يدفعه نحو اللذات السهلة ، نحو الزنا ، أو على العكس يظهر له الخطر منذ الخطوات الاولى ، ويجعله يرتعد اشمئزازا ؟ واذا وضعت المشكلة على هذا النحو فان ضميره هو الذي سيحلها .

وانا أقول في هذه اللحظة ما يأتي : ان السيد فلوبير قد أراد أن يصور المرأة التي بدلا من أن تحاول أن تتلاءم مع الوضع الذي أصبحت فيه ومع حالتها ومولدها ، وبدلا من ان تحاول الانسجام مع الحياة التي تمت اليها بسبب ــ تظل مشغولة بألف رغبة غريبة استقتها من تربية مفرطة العلو بالنسبة اليها ، وبدلا من أن تنزل عند واجبات وضعها ، وهي أن تكون زوجة هادئة لطبيب بالريف تقضي معه أيامها ، وبدلا من أن تبحث عن السعادة في منزلها وفي زواجها ــ تبحث عنها في اضغاث احلام لا تنتهي ، ثم انها لا تلبث ان تلقى في الطريق شابا يغازلها ويلعب معها

نفس اللعبة ، وهما معا لا خبرة لهما . وكل منهما يثير نفسه على نحو ما بالتدرج ، وتفزع عندما تعود الى دين سنواتها الاولى فلا تجد فيه القوة الكافية ، وسوف نرى عما قليل لماذا لم تجد فيه هذه القوة . ومع ذلك فان جهل الشاب وجهلها الخاص قد حفظاها من اول خطر ، ولكنها عندما تلتقي برجل من ذلك الصنف الشائع الوفير العدد في العالم — يمسك بها — وهي المراة المسكينة التي قد انحرفت فعلا — ويجرها . هذا هو الشيء الاساسي ، وهو ما يجب ان نراه لانه هو الكتاب نفسه .

ان النيابة العامة تثور ، واعتقد انها مخطئة في هذه الثورة من ناحية الضمير والقلب الانساني ، لان مدام بوفاري في المشهد الاول تجد نوعا من اللذة والنشوة ، وانها حطمت سجنها ، وعادت الى بيتها وهي تقول : « ان لى عشيقا ! » وانتم تعتقدون أن هذه ليست أول صيحة للقلب البشري ، والدليل بيني وبينكم ، ولكن كان من الواجب ان ننظر الى ابعد من ذلك ، وعندئذ كنتم سترون انه اذا كانت اللحظة الاولى لهذا السقوط تثير عند هذه المراة نوعا من حماسة النشوة والهذيان ، فان خيبة الامل لا تلبث ان تحدث بعد ذلك بعدة اسطر ، وكما يقول المؤلف ، انها لاحت امام نفسها ذليلة .

نعم ! خيبة الامل والالم والندم تنزل بها في نفس اللحظة . فالرجل الذي منحته نفسها واستسلمت له لم ياخذها الا لكي يستخدمها لحظة كاللعبة ، فالندم والغيظ يمزقها . وكان الذي اثاركم هو ان تسمعوا كل هذا يسمى بخيبة امل الزنا ، وكنتم تفضلون عبارة دنس الزنا ، عند كاتب يسجل اوضاع هذه المراة التي لم تفهم الزواج ، واحست بالدنس من ملامسة زوج ، وحاولت ان تجد بعيدا عنه مثلها الاعلى ، فوجدت خيبة الامل من الزنا . لقد اثارتكم هذه الكلمة ، وبدلا من خيبة الامل كنتم تفضلون عبارة « دنس الزنا » . وسوف تفصل المحكمة ، واما عن نفسي ، فانني لو كنت اسجل اوضاع نفس المراة لقلت لها : ايتها المراة المسكينة ، اذا كنت تعتقدين ان قبلات زوجك شيء ممل مضجر ، واذا كنت لا تجدين في الحياة معه غير رتابة الزواج المملة — وهذا هو التعبير الذي اشار اليه الاتهام — واذا كان يلوح لك انك ترين دنسا في هذه الرابطة التي لم يسيطر عليها الحب ، فاحذري ، لان احلامك وهم ، وسوف تخيب تلك الاحلام يوما في قسوة . وان من يصيح — ايها السادة — باعلى صوته ، ويستخدم كلمة دنس للتعبير عن ما سميناه خيبة امل — من يفعل ذلك يقول كلمة حق ، ولكن غامضة ، لا تضيف شيئا الى الفهم . وانا افضل من لا يصيح عاليا ولا يتفوه بكلمة دنس ، ولكنه ينبه المراة الى خيبة الامل وتبذل الاحلام ، ويقو لها انك حيث تبحثين عن الحب لن تجدي غير الانحلال ، وحيث تعتقدين انك ستجدين السعادة لن تجدي غير المرارة . والزوج الذي يذهب في هدوء الى اعماله ، والذي يقبلك ويخلع طاقيته ويتناول الحساء معك ، هو زوج تافه يثيرك ، وانت تتطلعين الى رجل يحبك ويعبدك . ايتها الطفلة المسكينة ، ان هذا الرجل سيكون اباحيا ياخذك دقيقة لكي يلهو معك ، وسوف تاتي خيبة الامل من اللقاء الاول وربما من الثاني . وقد تعودين الى منزلك نشوى ترتلين اغنية الزنا : « ان لي عشيقا ! » وفي المرة الثالثة لن تكوني في حاجة الى ان تصلي اليه ، فخيبة الامل ستكون قد حلت . وهذا الرجل الذي حلمت به سيكون قد فقد كل جاذبيته ، وستكونين قد وجدت في الحب رتابة الزواج المملة ، وستجدينه عندئذ مع الاحتقار والاشمئزاز والندم القاتل .

هذا ايها السادة هو ما خاله السيد فلوبير وما صوره ، وما نجده في كل سطر من كتابه ، وهذا هو ما يميز كتابه عن جميع الكتب الاخرى التي من نفس النوع . وذلك لان عيوب المجتمع

الكبيرة تظهر عنده في كل صفحة . والزنا يسير عنده مليئــا بالاشمئزاز والقرف . وقد اخذ من العلاقات العادية في الحياة أقوى درس يمكن ان يعطى لامراة شابة . بل لجميع ذلك النفر مــن النساء الشابات اللاتي لا يجدن في المبادىء الشريفة السامية في دين صارم مــا يلبثهن في اداء واجباتهن كاملهات ، واللاتي لا يجدنه بنــوع خــاص في ذلــك الرضــا وتلــك المعرفة العملية بالحيــاة ــ المعرفة ألتــي تقول ان مــن الواجب ان نقنــع بمــا نحن فيــه ، ولكــن يحملن احلامهن الى الخارج ، اولئك النسوة الشريفات الطاهرات اللآلىء قد يضنيهن ــ وهن غارقــات في تفاصيل حياتهن الزوجية المملــة ــ ما يدور حولهن . وثقــوا ان كتابا كهــذا سيدعو اكثر من واحدة منهن الى التفكير . هذا هو ما فعله السيد فلوبير .

ولتحذروا شيئا هاما ، فالسيد فلوبير ليس بالرجل الذي يصور زنا ساحرا ، لكي يلجأ بعد ذلك الى حيلة مسرحية . لا ! لقد تقزت في سرعة مسرفة من الصفحة التي قراتها الى الصفحــة الاخيرة . فالزنا عنده ليس الا سلسلة من العذاب والاسف والندم . ثم يصل الى تكفير نهائــي مخيف وهو تكفير مسرف . واذا كان السيد فلوبير مخطئا فهو مخطىء بالاسراف . وسأوضح لكم عما قليل معنى هذه العبارة . فالتكفير لا يطول انتظاره . وهذا هو ما يجعل الكتاب اخلاقيــــا ونافعا الى اقصى حد ، وذلك لانه لا يعد المراة الشابة ببعض من تلك السنوات الطيبــة التي تستطيع في نهايتها ان تقول انها تستطيع أن تموت بعد ذلك . لا ! فالمرارة تاتي منذ اليوم الثاني ، وكذلك خيبة الأمل . والحل الاخلاقي موجود في كل سطر من الكتاب .

ان هذا الكتاب قد كتب بقدرة على الملاحظة شهد بها السيد محامي الامبراطورية . وهذا هو ما الفت اليه نظركم . وذلك لانه اذا لم يكن هناك سبب للاتهام ، فان من الواجب ان يسقط . ان بهذا الكتاب قدرة رائعة حقا على ملاحظة ادق التفاصيل . ولقداستند الإتهام ايضا الــى مقال منشور في مجلة « الفنان » بتوقيع فلوبير . وليتفضل السيد محامي الامبراطورية بان يلاحظ اولا ان هذا المقال غريب عن موضوع الاتهام ، وليتفضل بان يلاحظ ثانيا بأننا نعتبره مقـــالا بريئا واخلاقيا جدا في نظر المجتمع . وذلك بشرط ان يتفضل محامي الامبراطورية بان يقراه كاملا بدلا من أن يمزقه . ان الذي يثير في كتاب السيد فلوبير هو ما سمته بعض المقالات النقدية التــي كتبت عنه بالدقة الفوتوغرافية في تصوير نماذج الاشياء ، وفي استبطان الفكرة والقلب الانساني ، وهذا التصوير يزداد اثارة بسحر الاسلوب ، ولتلاحظوا جيدا أنه اذا كان لم يستخدم هــذه الدقة الا في تصوير مشاهد الانحطـــاط ، لاستطعتم ان تقولوا بحق أن المؤلف قد استطاب وصف الانحطاط بتلك القوة التي اختص بها . وهو من اول صفحة الى آخر صفحة في كتابه قد تنــاول ــ دون اي تحفظ ــ جميع احداث حياة ايما في طفولتها بمنزل ابيها ، وفي تربيتها بالدير لا نراه يعفو عن شيء . واولئك الذين قراوا مثلي من البدء الى النهاية سيقولون ــ وهذا امر خطــير ستحمدونه له ولن يؤدي الى براءته فحسب ، بل كان من الواجب ان يجنبه كل اتهام ــ سيقولون انه عندما يصل الى الاجزاء الصعبة وهي مواضع الانحطاط ــ انه لم يفعل كبعض الكتاب الذين تعرفهم النيابة العامة جيدا ، ولكنها نسيتهم وهي تكتب اتهامهــا ، وهم اولئك الكتاب الذين اتيت الى هنا ببعض فقرات منهم ــ لالكي اقراها ــ بل لكي تستعرضوها في غرفة المداولة ، وان كنت سأتلو بعد هنيهة بعض اسطر منها . انه بدلا من ان يفعل ككبار كتابنا الكلاسيكيين وكبـــار اساتذتنا ــ الذين عندما يلتقون بمشاهد تجتمع فيها حواس الرجل والمراة لم يمسكوا عــن ان يقولوا كل شيء ــ بدلا من أن يفعل مثلهم ، نرى السيد فلوبير يكتفي بكلمة . وعندئذ تختفــي قدرته على الوصف ، لأن تفكيره عفيف ، ولأنه عندما يستطيـــع أن يكتب بطريقته الخاصة ،

وبالسحر الكامل لاسلوبه ، يحس ان هناك اشياء لا يستطيع ان يقربها وان يصفها . ومع ذلك ترى النيابة العامة انه قد أسرف في القول ! وعندما اعرض رجالا ، هلا لهم من مؤلفات فلسفية كبيرة ان يصفوا هذه الاشياء ، وفي مقابل ذلك ادع الرجل الذي يمتلك فن الوصف الى اعلى درجة ، ولكن ابدلا من ان يستخدمه يقف ويحجم ــ عندما افعل هذا اكون على حق في ان اطلب الانصاف من الاتهام الذي وجه .

ومع ذلك ايها السادة فانه كما يحلو له ان يصف المهد الضاحك الذي تلهو فيه ايما وهي طفلة ، باوراقه وازهاره الصغيرة الوردية او البيضاء عندما تتفتح ، والطرقات المطـرة ــ فانه ايضا عندما يراها تخرج من هذا المهد ، وتسير في طرق اخرى ، طرق تجد فيها الوحل ، وعندما توسخ فيها اقداما ، بل وتتناثر الاوساخ الى اعلى منا ، هل يجب عليه الا يقول هـذا ؟ ! اننا عندئذ نكون كمن يحذف الكتاب كله ، بل واذهب الى ابعد من ذلك فاقول : انكم عندئذ تحذفون العنصر الاخلاقي بدعوى المحافظة عليه ! وذلك لانه اذا لم يكن اظهار الخطا ممكنا ، واذا لم يكن ممكنا ان يدل المؤلف عليه ، واذا كنا في لوحة ماخوذة من الحياة الواقعية ، هدفها ان تظهر امام الفكر الخطر والسقوط والتكفير ــ اذا كنتم تريدون ان تمنعوا وصف كل هذا ــ فانكم تجردون عندئذ الكتاب من مغزاه .

ان هذا الكتاب لم يكن بالنسبة لموكلي موضوع تسلية لبضع ساعات ، بل هو يمثل دراسة سنتين او ثلاث متواصلة . وساقول لكم الآن شيئا آخر . فالسيد فلوبير الذي ــ بعد سنـوات من العمل والدرس ، وبعد كل هذه الرحلات والمذكرات التي جمعها من الكتاب الذين قراهم ــ هذا السيد سترون من اين يستقي ، لان هذا شيء عجيب سوف ينهض بتبرير عمله . سترون انه هو ذا الالوان الشهوانية ــ مشبع ببوسويه وماسيون (الواعظين الدينيين الكبيرين) ، وسوف نجده بعد هنيهة من دراستنا لهذين المؤلفين . وهو لم يحاول ان يسرق منهما ، بل ان يصدر في اوصافه عن الافكار والالوان التي استخدماها . وبعد كل هذا الجهد الذي بذله بشغف ، وبعد ان حدد لكتابه هدفه ــ هل تعتقدون انه قد امتلا ثقة بنفسه ، واطمان الى ما استخلص مـن دراساته وتاملاته لكي ينطلق فورا الى الحلبة ؟ ! لقد كان بلا ريب يستطيع ذلك لو انه كـان رجلا مجهولا في العالم ، وكان اسمه ملكا خالصا له ، وباستطاعته ان يتصرف فيه وان يفعل به ما يحلو له ، ولكنني اكرر انه من اولئك الذين يلتزمون بمقتضيات النبالة . فاسمه فلوبير ، وهـو الابن الثاني للسيد فلوبير ، وقد اراد ان يخط طريقه في الادب مع احترامه العميق للاخـلاق والدين ، لا توجسا من النيابة العامة ، فمثل هذا التوجس لا يمكن ان يمر بخاطره ، ولكن بدافع من الكرامة الشخصية ، لانه لا يريد ان يضع اسمه على راس كتاب اذا لاح هذا الكتاب لبعض الاشخاص الذين يؤمن بهم غير جدير بان ينشر . فالسيد فلوبير قد قرا ــ لا فقرات بل الكتاب كله امام بعض الاصدقاء المرتفعي المقام في الادب ، وذلك قبل ان يقدم شيئا الى المطبعة . وانـي اؤكد ان احدا منهم لم يتاذ مما يثير في هذه اللحظة كل هذه الاثارة ــ قسوة السيـد محامـي الامبراطورية ، بل ولم يفكر احد منهم في مثل هذا ، وانما فحصوا فقط ، ودرسوا القيمة الادبية للكتاب . واما عن الهدف الاخلاقي ، فانه من الوضوح وعدم اللبس في كل سطر ، حتى انه لـم تلح ضرورة لان يوضع موضع المناقشة . وعندما اطمان الى قيمة الكتاب واحس تشجيع انبـه رجال الصحافة ذكرا ــ لم يفكر السيد فلوبير الا في ان يدفع الى المطبعة والى النشر بكتابه . واكرر القول بان الجميع قد اجمعوا على الاشادة بالموهبة الادبية وبالاسلوب ، وفي نفس الوقت بالفكرة الممتازة التي تسيطر على الكتاب منذ اوله الى آخر سطر فيه . وعندما جاءت المحاكمة لم

يكن هو الوحيد الذي دهش وحزن حزنا عميقا ، بل اسمحوا لي بان اقول اننا نحن الذين لا نفهم هذا الاتهام ، وانا اول اولئك الذين قراوا الكتاب باهتمام بالغ بمجرد نشر اجزائه . ولقد يقال ان هؤلاء اصدقاء شخصيون ، ولقد يجوز ان تفلت منا بعض الامور الدقيقة مما اعتدناه في الحياة ، ولكنها لا يمكن أن تفلت من نساء نابهات الذكاء كاملات الطهر بالغات العفاف . وليس من الممكن ان أنطق بأسماء في هذه الجلسة ، ولكن ، لو انني أخبرتكم بما قيل للسيد فلوبير ، وما قيل لي أنا نفسي من ربات الاسر اللاتي قرأن هذا الكتاب ، ولو انني اخبرتكم بدهشتهن بعد أن تركت في نفوسهن هذه القراءة من الاثر الطيب ، ما رأين معه أن من واجبهن شكر المؤلف عليه . ولو أنني أخبرتكم بدهشتهن وألمهن عندما علمن أن هذا الكتاب يجب أن يعتبر منافيا للاخلاق العامة، ولايمانهن الديني — ايمان حياتهن كلها — نعم ! نعم ! لو أنني فعلت ذلك اذن لتجمع لدي من الاحكام الطيبة ما يقويني — اذا كنت في حاجة الى تقوية عندما اكافح اتهامات النيابة العامة .

ومع ذلك وسط كل هذه الاحكام الطيبة الصادرة من الادباء المعاصرين ، هناك حكم أود أن أقوله لكم — هناك حكم لا نحترمه فقط بسبب الخلق الجميل العظيم الذي يكافح في شجاعة كل يوم حتى وسط ضراوة الآلام — بل ايضا بسبب العظمة التي يستمدها من ذكرى كل تلك الاعمال النافعة التي نشيد بها هنا ، ثم العظمة المستمدة من المؤلفات الادبية التي يجب أن نذكرها ، لانها هي التي تجعله مختصا وأخيرا وبنوع خاص العظمة المستمدة من الطهارة الموجودة في كل مؤلفاته ، والعفة المنتشرة في كافة كتاباته ، وذلك الرجل هو لامارتين .

لامارتين لم يكن يعرف موكلي ، ولم يكن يعلم انه موجود ، وقد قرأ لامارتين في بيته بالريف في كل عدد من أعداد « مجلة باريس » ، الجزء الذي نشر من مدام بوفاري . وقد تركت القراءة في نفس لامارتين من الآثار ما ظهر في كافة المرات التي ساحدثكم عنها الآن .

فمنذ أيام عاد لامارتين الى باريس ، وفي اليوم التالي سأل عن محل اقامة السيد جوستاف فلوبير ، فارسل الى المجلة يسال عن محل اقامة المدعو السيد جوستاف فلوبير الذي نشر في المجلة فصولا تحت عنوان مدام بوفاري . وكلف سكرتيره بان يذهب ليبلغ السيد فلوبير اعجابه ، وليعبر له عما احس من رضى عند قراءة كتابه ، كما يبلغه رغبته في ان يرى المؤلف الجديد الذي برز بفضل هذا الكتاب . ولقد ذهب موكلي الى لامارتين ، ولم يجد فيه فقط الرجل الذي شجعه، بل رجلا قال له « لقد قدمت الي خير كتاب قرأته منذ عشرين عاما . » وبالجملة كان ثناؤه من القوة بحيث أن موكلي كاد تواضعه أن يمنعه عن أن يخبرني به . وقد برهن له لامارتين على انه قد قرأ الاجزاء المنشورة ، وكان هذا البرهان على الطف نحو ، اذ اخذ يسمعه صفحات كاملة . وكل ما هناك ان لامارتين أضاف « وكما اني قد قرأت بدون تحفظ حتى الصفحة الاخيرة ، فانني قد لمتك في الصفحات الاخيرة ، ولذلك لانك قد آلمتني وحملتني على أن أحس بالألم فعلا ، فالتكفير غير متناسب مع الجريمة ، وقد خلقت موتا بشعا مخيفا ، ولا شك أن المراة التي تدنس سرير الزوجية يجب أن تنتظر تكفيرا ، ولكن هذا التكفير بشع ، فهو عذاب لم ير مثله . ولقد سر تبعيدا وانزلت الالم باعصابي ، وهذه القوة في الوصف التي استخدمتها في اللحظات الاخيرة للموت قد تركت في نفسي ألما لا يوصف . وعندما ساله جوستاف فلوبير قائلا : « ولكن هل تفهم يا سيد دى لامارتين ان أحاكم — لانني الفت كتابا كهذا — أمام محكمة البوليس الجزائي ، للاساءة الى الاخلاق العامة والى الدين ؟ » — أجابه لامارتين « انني اعتقد يا ولدي العزيز انني كنت طوال حياتي الرجل الذي فهم فهما صحيحا في مؤلفاته الادبية ومؤلفاته الاخرى ما هي الاخلاق العامة والاخلاق الدينية ، وليس من الممكن ان توجد في فرنسا محكمة تدينه ، وانه لمما

يوجب بالغ الأسف أن يساء على هذا النحو فهم طبيعة مؤلفة ، وأن يؤمر بمحاكمتك ، ولكنه من غير الممكن — مراعاة لشرف وطننا وشرف عصرنا — ان توجد محكمة تدينك » .

هذا هو ما حدث بالامس بين لامارتين وفلوبير ، وان من حقي أن أقول لكم أن هذا الحكم من الاحكام التي تستحق ان توزن .

هذا أمر لا شك فيه ولننظر كيف يستطيع ضميري أنا أن يقول أن « مدام بوفاري » كتاب طيب وعمل طيب ؟ وأرجو أن تسمحوا لي بأن أضيف أنني لست سهلا فيما يختص بمثل هذه الامور . وليس التساهل من عاداتي ، وبين يدي مؤلفات ادبية ، الا أنها — وان تكن صادرة عن كبار كتابنا — الا أنها لم تستوقف نظري ، وسوف أعرض عليكم في غرفة المداولة بعض اسطر لم يحل لي قط ان اقرأها . وسوف اطلب منكم السماح لي بأن اقول انني عندما وصلت الى نهاية كتاب السيد فلوبير تاكدت أن اي فقرة مما حذفته مجلة باريس لم تجمع كل هذ ا، وسأطلب اليكم فوق ذلك أن تضموا حكمي الى الحكم الأكثر سموا واستنارة ، الذي ذكرته منذ هنيهة .

هذه أيها السادة حقيبة مملوءة بآراء رجال الادب المعاصرين — ومن بينهم أكثرهم امتيازا — عن الكتاب الذي تنظرون فيه ، وعن الاعجاب الذي أحسوا به عند قراءتهم ، لهذا الكتاب الجديد الذي هو في نفس الوقت كتاب اخلاقي مفيد .

والآن كيف أمكن أن يصبح مثل هذا الكتاب موضوع محاكمة ؟ هل تسمحون لي بأن أخبركم بذلك ؟ ان لجنة القراءة الخاصة بمجلة باريس كانت قد قرأت الكتاب كله ، وذلك لأن المخطوط كان قد أرسل الى المجلة قبل النشر بزمن طويل . ولم تجد اللجنة في الكتاب ما يعاب . وعندما وصلوا الى طبع الجزء الخاص بعدد أول ديسمبر سنة ١٨٥٦ ، نفر أحد مديري المجلة من المشهد الخاص بالعربة وقال « ان هذا غير لائق وسنحذفه . ورأى فلوبير في هذا الحذف اهانة ، ولم يشأ أن يحدث دون أن يدون ملاحظة بأسفل الصفحة ، وهو الذي تمسك بهذه الملاحظة ، وهو الذي دفعته كرامة المؤلف الى ان يرفض مسخ كتابه ، كما انه لم يشأ من جهة أخرى أن يتسبب في شيء يقلق المجلة ، فقال : « احذفوا ما تريدون ولكن اعلنوا انكم قد حذفتم » . وعندئذ اتفقوا على نشر الملاحظة الآتية : « لقد رأت الادارة نفسها مضطرة الى أن تحذف هنا فقرة لا يمكن أن تليق بتحرير مجلة باريس ، فنحن نحيط هنا المؤلف علما بذلك » .

وها هي الفقرة المحذوفة سأقرأها عليكم ، فلدينا منها مسودة بذلنا جهدا كبيرا في الحصول عليها . وها هي الجزء الاول الذي لم يتغير منه حرف ، وأما الجزء الثاني فقد أصلحت فيه كلمة .

« — الى أين نحن ذاهبون ؟ فقال ليون وهو يدفع ايما في العربة : الى حيث تريدين ! ونزلت الستائر ، وتحركت في الطريق الآلة الثقيلة ! »

« وانحدرت في شارع الكوبرى الكبير ، وعبرت ميدان الفنون ورصيف نابليون والكوبرى الجديد ، ووقفت فجاة أمام تمثال بيير كورني . « فصوت صوت منبعثه من الداخل : استمر ! « واستأنفت العربة سيرها ، وقد أخذت منذ ناصية لافاييت تسرع بسبب الانحدار حتى دخلت عدوا محطة السكة الحديد .

« فصاح نفس الصوت : لا ! استمر ! الى الامام !

« وخرجت العربة من السياج ، ووصلت بعد هنيهة الى الساحة ، وأخذت تخب في رفق وسط أشجار الدردار الضخمة . وجفف الحوذي جبهته ، ووضع قبعته الجلدية السوداء فوق فخذيه ، ودفع العربة خارج الطرقات الى حافة النفق بجوار الحشائش .

« وسارت وقتا طويلا على طول النهر ، فوق طريق ارساء السفن المرصوف بالزلط الجاف ، من ناحية اويسيل خلف الجزر .

« ولكنها اندفعت فجاة عبر طريق كاترمار وسوزفيل وجراندشوسيه ، وشارع اليف ، ووقفت وقفتها الثالثة أمام حديقة النباتات .

« وصاح الصوت في عنف اشد : استمر في السير !

واستانفت الشوط فورا فمرت بسان سيفير ورصيف كوراندير ، ورصيف الطواحين . وعادت مرة ثانية الى الكوبرى عن طريق ميدان شان دى مارس ، ومن خلف حديقة المستشفى حيث كـان بعض العجائز يتنزهون في الشمس في ستر سوداء ، على طول شرفة مخضرة بلوراق اللبلاب . وصعدت العربة بولفار بوفري وسلكت بولفار كوشواز ، ثم مونريفوديه كله ، حتى وصلت الـى هضبـة ديفيل !

« ثم عادت واخذت تتسكع دون قصد ولا اتجاه معين ، فرؤيت عند سابول ، ولسكير ، وجبل جارجان ، ورجمار ، وميدان جياربوا ، وشارع مالاديريه ، وشارع دينانديريه وامام سان رومان ، وسان فيفيان ، وسان ماكلو ، وسان نيكيز امام الجمرك عند البرج القديم المنخفض ، وعند الترواييب ، والمقبرة ذات التماثيل . ومن وقت الى آخر كان الحوذي يلقى من فوق مقعده ـ بنظرات ولهانة ـ الى البارات ، ولم يفهم هذا الولع بالحركة الذي يدفع هذين الشخصين الى حد لا يريدان معه الوقوف ! ولقد حاول أن يقف احيانا ، ولكنه كان يسمع فورا صيحـات الغضب تنطلق من خلفه . وعندئذ كان ينهال بالسوط على حصانيه الهزيلين المتصببين عرقا ، ولكن دون ان يلقى بالا الى اهتزاز العجلة . وهي تحتك هنا وهناك ، وقد اعتل مزاجه ، واوشك ان يبكي من العطش والتعب والحزن !!

« وعند الميناء وسط عربات النقـــل والبراميل ، وفي الشوارع ، وعند المنعطفات ، كان البرجوازيون يفتحون اعينا كبيرة مندهشة من هذا المنظر الخارق في الريف : منظر عربـة ذات ستائر مسدلة ، وقد لاحت باستمرار اكثر اغلاقا من قبر ، وهي تهتز كالسفينة !

وذات مرة في وسط النهار ، وفي قلب الحقول ، وفي الوقت الذي كانت ترسل فيه الشمس اقوى اشعتها فوق المصابيح العتيقة الفضية اللون ، مرت يد عارية من تحـت الستائر الصغيرة الصفراء ، والقت قصاصات من الورق انتثرت مع الريح ، وتساقطت عن بعد قريب كالفراشات البيضاء فوق حقل من البرسيم الاحمر المزهر !

« ثم وقفت العربة حوالي الساعة السادسة في زقاق بحي بوفوازيه ، ونزلت منهـا امراة أخذت تسير مسدلة الخمار دون ان تلفت راسها !

« عندما وصلت مدام بوفاري الى الفندق ادهشها الا ترى عربة السفر ، وذلك لان هيفير ـ الذي انتظرها ثلاثا وخمسين دقيقة ـ كان قد رحل !

ومع ذلك فان شيئا لم يكن يضطرها الى الرحيل ، ولكنها كانت قد وعدت بأن تعود في نفس المساء ، وكان شارل ينتظرها ، كما انها كانتقد أخذت تشعر في قلبها بذلك الاستسلام الجبـان الذي يعتبر بالنسبة للكثير من النساء بمثابة العقاب ، والفدية عن الزنا على السواء . »

لقد لفت السيد فلوبير نظري الى ان النيابة العامة تاخذ عليه هذه العبارة الاخيرة .

السيد محامي الامبراطورية : لا ! لقد اشرت اليها .

السيد سينار : ان الشيء المؤكد هو انه اذا كان هناك ماخذ فانه يسقط ازاء عبارات : « العقاب والفدية عن الزنا على السواء » . وفضلا عن ذلك ، فان هذا يمكن ان يكون موضوع

مؤاخذة يستند الى نفس الاساس الذي تستند اليه المؤاخذات الاخرى . وذلك لان كل ما آخذتم به موكلي ليس فيه شيء يمكن التدليل عليه تدليلا جديا .

واذن ايها السادة فانه لما كانت هذه النزهة الغريبة لم ترق لادارة تحرير المجلة ، فان الحذف قد اجري ، وكان في هذا الحذف افراط في التحفظ من جانب المجلة ، ومن المؤكد أن هذا الاسراف في التحفظ لم يكن من الممكن أن يفسح المجال لمحاكمته . ومع ذلك فانكم سترون كيف أنه قد أفسح المجال لهذه المحاكمة !! والشيء الذي لا نراه ، والذي قد حذف — يلوح بالغ الغرابة . فقد افترض الناس اشياء كثيرة لم يكن لها وجود ، كما رايتم من قراءة الفقرة الاصلية . وفي الحق هل تعلمون ماذا افترضوا ؟ لقد رجحوا أن الفقرة المحذوفة كان فيها شيء يشبه ما سوف تتفضلون بقراءته في رواية من أعظم الروايات التي خرجت من قلم عضو مبجل من اعضاء المجمع الفرنسي وهو السيد « ميريميه » .

فالسيد ميريميه في رواية عنوانها « خطأ مزدوج » يقص مشهدا يحدث في عربة بريد . وليس المهم هو المكان من حيث انه عربة ، وانما المهم هنا هو تفصيل ما يجري بداخلها . ولست اريد ان اسيء استخدام حق الدفاع ، وانما سأقوم بتقديم هذا الكتاب الى النيابة العامة والى المحكمة . ولو اننا كتبنا نصف او ربع ما كتبه السيد ميريميه ، اذن لوجدت بعض الحرج في اداء المهمة التي كلفت بها ، أو لاضطررت الى تحويرها . فبدلا من ان اقول ما قلت ، وان أؤكد ان السيد فلوبير قد كتب كتابا طيبا شريفا نافعا اخلاقيا ، كنت اقول ان للادب حقوقه ، والسيد ميريميه قد كتب كتابا ادبيا رائعا ، ولا يجوز أن نتزمت بسبب بعض التفاصيل عندما يكون الكتاب في مجموعه لا غبار عليه . وكنت اقف عند هذا الحد فابرئه وتبرئونه ، وفي الحق ان المؤلف لا يمكن ان يؤاخذ في مثل هذه الامور للاغفال ، ولسوف ترون تفصيل ما حدث في العربة ، ولكن لما كان موكلي قد اكتفى بأن يتحدث عن نزهة ، ولم يظهر ما في الداخل الا بعبارة « مرت يد عارية من تحت الستائر الصغيرة الصفراء ، والقت بقصاصات من الورق انتثرت مع الريح ، وتساقطت عن بعد قريب كفراشات بيضاء فوق حقل من البرسيم الاحمر المزهر » . ولما كان موكلي قد اكتفى بهذا ، فان أحدا لم يعلم شيئا ، واخذ الجميع يفترضون — بحكم الحذف نفسه — أنه قد قال ، على الاقل، قدر ما قال عضو المجمع الفرنسي وها انتم ترون انه لم يحدث من ذلك شيء .

وفي الحق ان هذا الحذف غير الموفق هو القضية ، وذلك لان المكاتب المكلفة — بحق — بأن تراقب كافة المطبوعات التي يمكن أن تسيء الى الاخلاق العامة ، عندما رأت هذا الحذف تنبهت ، وانا مضطر ان اعترف — بعد استئذان السادة مديري تحرير « مجلة باريس » — بأن هؤلاء السادة قد اعملوا مقصهم بعد المكان الذي كان من الواجب ان يعملوه فيه بكلمتين ، وذلك لانه كان من الواجب ان يعملوه قبل الصعود في العربة ، واما الحذف بعد هذه الكلمات فلم يكن له داع ، وكان الحذف غير موفق . ولكنهم ايها السادة ، المديرون لتحرير المجلة ، اذا كنتم قد ارتكبتم هذا الخطأ الصغير ، فانكم تكفرون عنه اليوم .

لقد قالوا في مكاتب المراقبة : فلنتنبه الى ما سيلي ! وعندما ظهر العدد التالي شنوا الحرب على الكلمات . ولم يحمل موظفو هذه المكاتب انفسهم على قراءة الكل ، وعندما راوا ان المؤلف قد كتب ان امراة قد خلعت كافة ملابسها ، شعروا بالنفور ، دون ان يستمروا في القراءة . والسيد فلوبير في الحق يختلف عن كبار كتابنا في انه لم يعن بوصف مرمر ذراعيها العاريتين ، وصدرها ... الخ ... ولم يقل كما قال شاعر نحبه :

« رأيت في صدرها الجميل المرمر الحار النقي ، والزنبق والبلوط والعقيق ، والورد ،

والعروق الزرقاء زرقة السماء ، كما أريتنيه في الماضي . وما تجمل ولا تزين الا بعريه ، عندما تطايرت لياليها ، وراتها الوسادة المرخوة تنام وتستيقظ تحت القبلات ! »

انه لم يقل شيئا مماثلا لما قاله أندريه شينيه ، ولكنه قال « استسلمت ... وسقطت ملابسها ! »

استسلمت ! ماذا ؟ هل كل وصف محظور الذن ! ولكن عندما نتهم يجب أن نقرأ كل شيء . والسيد محامي الامبراطورية لم يقرأ كل شيء ، فالفقرة التي يدينها لا تقف عندما وقف ، وفيها المعادل الآتي « ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، وفوق شفتيها المتمتمين ، وفي حدقتيها الضالتين وفي ضمة ذراعيها شيء مسرف غامض مقيض ، يلوح للعيون انه ينساب بينهما في تسلل ، وكأنه يود ان يفصل بينهما ! »

انهم لم يقرأوا هذا في المكاتب ، والسيد محامي الامبراطورية لم يلتفت اليه منذ لحظة ، ولم ير الا « ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة » ، ثم صاح : اساءة للاخلاق العامة ! وفي الحق انه لأمر مسرف السهولة ان نتهم بمثل هذه الطريقة ، والله يحفظ مؤلفي المعاجم من ان يقعوا في قبضة السيد محامي الامبراطورية ! ومن الذي يستطيع أن يفلت من الاتهام اذا كنا بحذف الكلمات ــ لا العبارات ــ نعد قائمة بكافة الكلمات التي يمكن أن تسيء الى الاخلاق أوالدين؟

لقد كانت الفكرة الاولى عند موكلي ــ وهي الفكرة التي لقيت مقاومة ــ هي هذه : « ليس هناك غير شيء واحد يجب عمله ، وهو ان يطبع الكتاب كما خرج من بين يديه فورا ودون حذف ، بل كاملا ، مع اكمال المشهد الخاص بالعربة » ولقد كنت من رأيه ، لان هذا هو أحسن دفاع عن موكلي ، أعني الطبع الكامل للكتاب ، مع ابراز بعض نقاط نرجو المحكمة أن توجه اليها بنوع خاص انتباهها ، ولقد اخترت انا نفسي عنوانا لهذا الكتيب وهو « مذكرة من السيد جوستاف فلوبير ضد الاتهام الموجه اليه بالاساءة الى الاخلاق الدينية » كما كتبت بيدي : « محكمة البوليس الجنائي ــ الغرفة السادسة مع ذكر اسم الرئيس والنيابة العامة ، وكانت هناك مقدمة ورد فيها « لقد اتهمت بسبب عبارات اخذت هنا وهناك من كتابي ولا أستطيع ان أدافع عن نفسي الا بكتابي . » ومطالبة القضاة بان يقرأوا رواية باكملها مطالبة بالكثير ، ولكننا أمام قضاة يحبون الحقيقة ، ويريدونها ولا يحجمون عن أي تعب في سبيل معرفتها . اننا امام قضاة يريدون العدل ، ويريدونه بعزم ، وسيقرأون دون أي تردد كل ما نرجوهم أن يقرأوه . ولقد قلت للسيد فلوبير : أرسل هذا الى المطبعة فورا ، وضع في أسفله اسمي الى جوار اسمك : سينار المحامي. وكان الطبع قد ابتدأ ، وأعلن انه ستظهر من الكتاب مائة نسخة ، وسار الطبع بسرعة كبيرة ، وكان العمل يجري ليلا ونهارا ، ولكن جاء الامر بحظر الاستمرار في الطبع ــ لا طبع كتاب ، بل طبع مذكرة تحتوي على الكتاب المدان مع مذكرات تفسيرية ! ولقد شكونا الى السيد النائب العام للامبراطورية فاخبرنا بان الحظ مطلق ، وانه لا يمكن رفعه .

فليكن ! فاننا لم نكن لننشر الكتاب مع مذكراتنا وملاحظاتنا ، ولكنه اذا كانت قراءتكم الاولى أيها السادة قد تركت لديكم شكا ، فانني اتقدم اليكم راجيا ان تتفضلوا بقراءة الكتاب مرة اخرى . فانتم تحبون الحقيقة وتريدونها ، وأنتم لا يمكن ان تكونوا اولئك الذين عندما يقدم اليهم سطران من كتابة رجل ، لا بد أن يلمروا بشنقه على أية حال ! وانتم لا تريدون أن يحكم على رجل بفقرات اختيرت بمهارة كبيرة أو صغيرة . انكم لا تريدون هذا ، ولا تريدون أن تحرمونا من وسائل الدفاع العادية . وها هو الكتاب امامكم ، وهو ــ وان لم يكن مريحا كالذي كنا نريد ان نعمله ــ الا انكم ستقومون بانفسكم بعمل التقسيمات والملاحظات والتجميعات ، لانكم تريدون الحقيقة ، ومن

الواجب ان تكون الحقيقة هي اساس حكمكم . والحقيقة ستبرز من فحص جاد للكتاب .

ومع ذلك فانا لا استطيع ان اكتفي بهذا ، فالنيابة العامة تهاجم الكتاب ، ويجب أن أتناول الكتاب نفسه لكي ادافع عنه ، وان اكمل الاقتباسات التي اقتبستها ، كما أظهر بطــلان الاتهام المنصب على كل فقرة ، وسيكون هذا كل دفاعي .

انني لن احاول قطعا ان اجابه الاحكام السامية الحية المؤثرة ـ التي احاطت بها النيابـة العامة في كل ما قالته ـ باحكام مثلها ! فالدفاع ليس من حقه ان يستخدم نفس اللهجة ، ولكنه سيكتفي بايراد النصوص كما هي .

وانا اعلن بادىء ذي بدء انه ليس هناك ما هو أكثر بطلانا مما قيل منذ هنيهة عــن اللون الشهواني . اللون الشهواني ؟ ! اين اذن وجدتم هذا ؟ ما هي المراة التي وصفها موكلي فــي مدام بوفاري ؟ آه ! انه وايم الحق لأمر محزن أن نقول ـ وان يكن قولنا الحق ـ أنها فتاة ولدت شريفة كما تولد جميع الفتيات تقريبا ، او على الاقل اكثرهن عددا ، ولكنهن ضعيفات عندما تصيبهن التربية بالرخاوة ، او تدفع بهن في طريق فاسد بدلا من ان تقويهن . لقد اختار فتاة ، ولكن هــل اختارها فاسدة بطبيعتها ؟ ! لا ! ولكنها ذات طبيعة سريعة التأثر عرضة لاتقاد العاطفة .

لقد قال السيد محامي الامبراطورية ان المؤلف يقدم هذه الفتاة دائما باعتبارها شهوانيــة ، ولكن لا ! ان يقدمها مولودة في الريف ـــ مولودة في المزرعة حيث تعنى بكافة اعمال ابيها . وحيث لا يمكن ان يكون أي نوع من الشهوانية قد مر بنفسها او بقلبها ، ثم يقدمها بعد ذلك وقد انصرفت عن المصير الذي كان مقدرا لها بحكم الطبيعة ، وهو ان تربى من اجل المزرعة التي ستحيا او في وسط مشابه ـــ نعم ! يقدمها وهي مسيرة بالمشيئة غير المتبصرة لاب يخطر له ان يربي في الدير هذه البنت المولودة في المزرعة ، والتي كان من المقدر ان تتزوج مزارعا ورجلا من الريف . فهــا هي تقاد الى دير خارج عن محيطها . ولما كان كل ما قالته النيابة العامة كلاما خطيرا ، فانه يتحتم الا نترك شيئا بدون رد . آه ! لقد تحدثت يا سيدي عن خطاياها الصغيرة ، واوردت بضعــــة اسطر مما نشر في الدفعة الاولى ، وقلت « عندما كانت تذهب لتعترف ، كانت تخترع خطايــا صغيرة كي تظل اطول وقت ممكن جاثية في الظل ... تحت همس القسيس » . ولقد اخطات خطا جسيما في حكمك على موكلي ، فهو لم يرتكب الخطا الذي آخذته به ، وانما أنت الذي اخطات . اولا : فيما يختص بسن الفتاة ، فانها لما كانت قد دخلت الدير في الثالثة عشرة ، فانه من الواضح انها كانت في الرابعة عشرة عندما أخذت تذهب الى كرسي الاعتراف ، وهي اذن لم تكن طفلة في العاشرة كما حلا لك ان تقول ، وقد اخطات في هذا خطا ماديا . ولكنني لا أريد ان اتمهل عند مــا هو غير معقول من ان طفلة في العاشرة تحب ان تبقى عند كرسي الاعتراف تحت همس القسيس . وأما ما اريده فهو ان تقرا الاسطر السابقة ، وان كنت أعترف بما في هذا من صعوبة . وهنــا يظهر ما نشكو من نقص ناتج عن عدم اعادتنا المذكرة ، وذلك لان هذه المذكرة كانت تغنينا عــن البحث في ستة مجلدات .

لقد لفت نظركم الى هذه الفقرة لكي اعيد الى مدام بوفاري شخصيتها الحقيقية . وهــل تسمحون لي بان اقول لكم ما يبدو لي بالغ الخطورة ، وهو ما فهمه السيد فلوبير وأبرزه ؟ ان هناك نوعا من الدين هو ذلك الذي يتحدثون عنه غالبا الى الفتيات ، وهو اردأ الديانات . ولقد يختلف تقدير الناس في هذا الصدد ، ولكنني اعلن عاليا عن نفسي ما ياتي : وهو انني لا اعرف شيئــا جميلا مفيدا ضروريا كي يحفظ ، لا النساء وحدهن في طريق الحيـــاة المستقيمة ، بل والرجال أنفسهم ، الذين يتعرضون احيانا لمحن مؤلمة لا بد من اجتيازهـــا ـ اقول انني لا اعرف شيئــا

اكثر نفعا وضرورة من الاحساس الديني ، ولكنني اعني الاحساس الديني الجاد ، بل واسمحوا لي بان اقول القاسي .

انني اريد أن يدرك اطفالي آلها ، ولكنني لا اريده فكرة مجردة من افكار الحلول ، بل كائنا ساميا يتصلون به ، ويرتفعون نحوه لكي يتضرعوا ، وفي نفس الوقت يقويهم ويحصنهم . وهذه الفكرة التي هي فكرتي وفكرتكم ، هي القوة التي نستند اليها في ايام الشدة ، وهي القوة فيما نسميه في هذا العالم ، بل وفي السماوات الاخرى بالملجأ ، وهي قوة الضعفاء . وهذه الفكرة هي التي تعطى المرأة ذلك الجلد الذي يجعلها تتقبل راضية صغائر الحياة ، والذي يجعلها ترد الى الله ما تعانيه ، وتسأله العون على اداء واجبها . وهذه الديانة ايها السادة هي المسيحية ، وهي الديانة التي تقيم علاقات بين الله والانسان . والمسيحية عندما تدخل بيننا وبين الاله قوة وسيطة تجعل الله اكثر قربا ، والاتصال به اكثر سهولة . ولنتقبل ام ذلك الذي كان انسانا الها — صلوات المرأة ، فانني لا ارى في هذا ما يمس النقاء او القداسة الدينية ، بل ولا الشعور نفسه . ولكن ها هي النقطة التي يبدا عندها المساس ، فانهم لكي يلائموا بين الدين وكافة الطبائع ، نراهم يلجأون الى انواع مختلفة من الاشياء الصغيرة الهزيلة البائسة الحقيرة . ففخامة الطقوس بدلا من ان تكون تلك الفخامة التي تاسر أرواحنا — هذه الفخامة نراها تنحدر فتصبح تجارة صغيرة في المخلفات الدينية والانواط وتماثيل « الآلهة » الصغيرة ، وتماثيل « العذارى » الطيبات ! فبماذا تتعلق ايها السادة نفوس الاطفال المتطلعة الحارة العاطفية ، ونفوس الفتيات بنوع خاص ؟ انها تتعلق بهذه الصور ، انها تتعلق بتلك الصور الضعيفة الهزيلة الحقيرة التي تمثل الروح الدينية . وعندئذ يصنعن لانفسهن ديانات صغيرة للعبادة ، ومحبات صغيرة لاشباع عواطفهن وحبهن . وبدلا من ان يستقر في ارواحهن الشعور بالله والشعور بالواجب ، نراهن يستسلمن الى اضغاث احلام ، والى عبادات صغيرة ، ومحبات صغيرة ، ثم ياتي الشعر ، بل ويجب أن نعترف بالحقيقة فنقول : ثم تاتي عدة افكار عن محبة الغير ، وعن الحنان ، والحب الصوفي ، وآلاف من هذه الصور التي تنخدع بها الفتيات ، والتي تجعل الدين دينا حسيا . واذا بهؤلاء الاطفال المساكين الضعفاء والميالين بطبيعتهم الى سرعة التصديق يقعون في حبائل كل هذا : في حبائل الشعر ، واضغاث الاحلام ، بدلا من ان يتعلقوا بشيء معقول جدي . ومن هنا تعثرون على كثير من النساء الفاتنات دون ان يكن متدينات على الاطلاق . وعندما تدفعهن الريح خارج الطريق الذي يجب أن يسرن فيه ، لا يجدن القوة ، بل يجدن أنواعا من المشاعر الحسية التي تثيرهن . أوه ! لقد دفعتموني الى ان اخلط في لوحة المجتمع الحديث بين العنصر الديني والعنصر الحسي . ولتتهموا اذن المجتمع الذي نعيش فيه ، ولكن لا تتهموا رجلا يصيح كما صاح بوسوية : أستيقظوا ! واحذروا الخطر ! ولكن من يتقدم ليقول للآباء : احذروا ، فان هذه ليست عادات طيبة تقدمونها لبناتكم ، وان كل هذا الخليط من الصوفية شيئا يطبع الدين بالحسية — ان من يتقدم ليقول هذا ، انما يقول الحق ، وبسبب هذا تتهمون فلوبير ، وبسبب هذا أيضا اشيد بمسلكه . نعم ! لقد احسن بان ينبه الاسر على هذا النحو الى اخطار اشمال العواطف عند الفتيات ، اللاتي يتعلقن بعبادات صغيرة ، بدلا من ان يتمسكن بدين قوي صارم يسندهن في أيام الضعف . والآن سترون من اين يأتي اختراع الخطايا الصغيرة « تحت همس القسيس » .

ولنقرأ ص ٣٠

« كانت قد قرأت بول وفرجيني واخذت تحلم بالمنزل الصغير المصنوع من البوص ، وبالعبد دومنجو والكلب فيديل ، كما اخذت تحلم بنوع خاص بالصداقة الرقيقة لاخ صغير طيب يذهب

ليبحث لك عن الفاكهة الحمراء في اشجار كبيرة أعلى من ابراج النواقيس ، او الذي يجري عاري القدمين على الرمال لكي يحمل اليك عش طائر » .

فهل هذا شهواني أيها السادة ؟ ولنستمر ...

محامي الامبراطورية : انني لم اقل ان هذه الفترة شهوانية .

السيد سينار : انني اسالك العفو ، فهذه الفقرة هي بالذات التي انتزعت منها عبارة شهوانية ولم تستطع أن تجدها شهوانية الا بعد أن عزلتها عما يسبقها ويلحقها :

« بدلا من ان تتابع الصلاة ، اخذت تنظر في كتابها الى الصور الدينية المحاطة باطار في زرقة السماء ، والتي تستخدم لتعيين مواضع القراءة . وكانت تحب النعجة المريضة ، والقلب المقدس الذي يخترقه سهم حاد ، أو المسيح المسكين الذي يتعثر في خطواته وهو يسير تحت ثقل الصليب . وحاولت على سبيل قهر الشهوات ان تظل بدون طعام يوما باكمله ، واخذت تبحث في راسها عن نذر توفيه » .

هذا ما لا يجب ان ننساه ، فهي عندما تخترع خطايا صغيرة اثناء الاعتراف ، نجد في السطر السابق أنها كانت تبحث في راسها عن نذر توفيه ، ومن الواضح أن الافكار قد شوهت في مكان آخر . وأنا اسألك الآن : هل ناقشت فقرتك ؟ ولكنني استمر » .

« وفي المساء كن يقرأن بعض النصوص الدينية قبل الصلاة ، وكانت هذه النصوص خلال الاسبوع عبارة عن ملخص للتاريخ المقدس ، او محاضرات القس فرايسينو . وفي يوم الاحد فقرات من عبقرية المسيحية كن يقرانها على سبيل الترويح . وبأية لهفة كانت تنصت في المرات الاولى الى النحيب الرنان للاحزان الرومانتيكية ، وهي تتردد مع كافة اصداء الارض والابدية .

ولو انها كانت قد قضت طفولتها في المخزن الخلفي المظلم في حانوت بحي تجاري ، لربما كانت نفسها قد تفتحت اذن للنشوة الشعرية تنبعث عن الطبيعة ، تلك النشوة التي لا تصل الينا عادة الا عن طريق حديث الكتاب عنها . ولكنها كانت شديدة المعرفة بالحقول ، وكانت تعرف ثغاء القطعان وحلب اللبن والمحاريث . ولما كانت قد الفت المناظر الهادئة ، فانها قد اخذت على العكس تتجه نحو المناظر المثيرة . ولم تكن تحب البحر الا بسبب عواصفه ، ولا الخضرة الا اذا كانت منتثرة بين الانقاض ، وكان لا بد لها ان تستطيع انتزاع ما يشبه المنفعة الشخصية من الاشياء ، وكانت تطرح جانبا — كشيء غير نافع — كل ما لا يستطيع قلبها ان يستخدمه من الاستهلاك المباشر ، وذلك بحكم مزاجها الذي كان مزاجا عاطفيا اكثر منه مزاج فنان ، يبحث عن الانفعالات لا عن المناظر » .

ولسوف ترون تلك الاحتياطات الدقيقة التي ادخل بها المؤلف تلك العانس الورعة ، وكيف انساب في تعليم الدين داخل الدير عنصر جديد ، هو عنصر الرواية التي حملتها هذه الاجنبية . ومن الواجب ألا ننسى قط هذا عندما نعرض للحكم على الاخلاق الدينية .

« كانت في الدير عانس تاتي كل شهر ثمانية أيام لتعمل في « البياضات » . وكانت في حماية المطرانية باعتبار انها تنتمي الى أسرة قديمة من النبلاء الذين قوضتهم الثورة ، وكانت تاكل في المطعم على مائدة الراهبات . وبعد الطعام كانت تتبادل معهن طرفا من الحديث قبل أن تصعد الى عملها . وكثيرا ما كانت طالبات الداخلية يهربن من صالة المذاكرة لكي يذهبن لرؤيتها . وكانت تحفظ عن ظهر قلب اغاني غرامية من القرن الماضي ، وتغنيها بصوت خافت ، وهي تدفع ابرتها . وكانت تقص حكايات وتروي اخبارا ، وتؤدي المهمات في المدينة ، وتعير الكبيرات سرا رواية كانت

تحتفظ بها دائما في جيوب مريلتها ، وكانت هي نفسها تلتهم منا فصولا طويلة في فترات الراحة التي تتخلل عملها ! » .

ان هذا ليس رائعا روعة حقيقية فحسب ، بل ان الانسان لا يستطيع ان يحبس اعجابه عن الرجل الذي يكتب هذه الفقرات الرائعة لكي ينبه الجميع الى اخطار تربية من هذا النوع . ولكي يدل الفتاة على عثرات الحياة التي ستدلف اليها .

ولنستمر :

« ولم يكن فيها الا حب وعشاق وعاشقات ، وسيدات مضطهدات يغمى عليهن في بيوت منعزلة ، وسواس يقتلون عند كل مرحلة ، وخيول تنفق في كل الصفحات ، وغابات مظلمة ، واضطرابات في القلب ، وايمان مغلظة ، وتنهدات ودموع وقبلات ، وزوارق في ضوء القمر ، وكروانات في الادواح ، وسادة في شجاعة الاسود ووداعة الحملان ، فضلاء على نحو لا مثيل له ، حسنو الهندام دائما ، يبكون كالقرب ! وخلال ستة اشهر في الخامسة عشرة من عمرها ظلت ايما اذن تغمس يديها في اتربة تلك الصالات القديمة للقراءة . ومع والتر سكوت اخذت تحب فيما بعد الاشياء التاريخية ، وتحلم بالاثاث القديم ، وصالات الحرس او الشعراء المتجولين . وكانت تود لو عاشت في قصر قديم ، كاولئك النبيلات ذوات الصدار الطويل ، اللاتي كن ينفقن ايامهن تحت عقود الاقواس القوطية ، متكئات بمرفقهن فوق الاحجار ، وذقنهن في ايديهن ، وهن ينتظرن فارسا مقبلا من اقصى الحقول ، على راسه ريشة بيضاء ، وهو يعدو فوق حصان اسود ! وكانت في ذلك الوقت مغرمة بماري ستيوارت ، كما كانت تتحمس في اجلال للنساء الشهيرات او السيئات الحظ مثل جان دارك وهلويز وانييس سوريل ، وفيرونيير الحسناء وكليمانس ايسير ، اللاتي كن يبرزن بالنسبة اليها كالكواكب فوق ظلام التاريخ الشاسع ، كما كانت تبرز ايضا هنا وهناك ، وان تكن اكثر انغماسا في الظل ، ودون ان يكون بينها اي ارتباط ــ صور القديس بطرس مع شجرة بلوطة ، وبيار وهو يحتضر ، وبعض الاعمال الوحشية للويس الحادي عشر ، وقليل من سانت بارتلمي ، وعظمة فتى بيارن ، ثم دائما ذكرى الاطباق المحصورة التي كانت تشيد بلويس الرابع عشر .

« وفي درس الموسيقى لم يكن في الاغاني التي تغنيها حديث الا عن الملائكة الصغار ذوي الاجنحة الذهبية ، والعذارى ، وقنوات فينيسيا ، والجندول . وهي مؤلفات رخوة كانت تشق ــ من خلال تفاهة الاسلوب وتحرر النغم ــ عن التهاويل المغرية المنبعثة عن العواطف » .

كيف لم تتذكر هذا عندما عادت هذه الفتاة الريفية المسكينة الى المزرعة ، ووجدت طبيب قرية يتزوج منها ، ودعيت الى سهرة في قصر ، حاولت ان تلفت اليها نظر المحكمة لكي تظهر شيئا شهوانيا في فالس رقصته ! لم تتذكر هذه التربية عندما انتزعت هذه المراة المسكينة ، من بين زوجها العادي ، دعوة قادتها الى ذلك القصر ، حيث رات اولئك الرجال الرائعين والسيدات الجميلات ، وذلك الدوق العجوز الذي قالوا انه كانت له غزوات في البلاط ! .... لقد كانت للسيد محامي الامبراطورية حركات جميلة بالنسبة للملكة انطوانيت !! وليس هناك بكل تاكيد من بيننا احد لا تشارك فكرته فكرتك ! فنحن مثلك قد ارتعشنا لذكر اسم تلك التي راحت ضحية الثورة ! ولكننا لسنا هنا بصدد ماري انطوانيت ، بل بصدد قصر فوبيسار .

لقد كان فيه دوق عجوز يقولون انه كانت له علاقات بالملكة ، واليه اتجهت كافة الانظار . وعندما رات تلك المراة الشابة كافة احلام شبابها المسرفة تتحقق ، ووجدت نفسها تنتقل على هذا النحو الى وسط هذه الطبقة ، تاخذك الدهشة من الثمل الذي احست به ، وتتهمها بانها كانت

شهوانية ! ولكنه اتهم الفالس نفسه — تلك الرقصة الشائعة في حفلات رقصنا الكبرى الحديثة ، التي يقول احد المؤلفين عند وصفه لها ان المراة « تسند راسها على كتف مراقصها الذي يعانقها بساق » وانت ترى في وصف فلوبير ان مدام بوفاري شهوانية ! ولكنه ليس هناك رجل — وانا لا استثنيك من هذا القول — حضر حفلة رقص ، ورأى هذا النوع من الفالس ، ولم يود في داخل نفسه لو ان امراته أو ابنته امتنعت عن هذه المتعة التي فيها شيء من الجموح . واذا كنا نعتمد على العفة التي تغلف الفتاة العذراء عندما نتركها احيانا تنعم بهذه المتعة التي جرى بها العرف ، فانه من الواجب ان يكون اعتمادنا قويا على هذا الغلاف من العفة . وبالرغم من اعتمادنـــا هذا ، فانه ليس من المستحيل أن نعبر عن الاحساسات التي عبر عنها السيد فلوبير ، باسم الاخـــلاق والعفـــــة !

ها هي في قصر فوبيسار ، وها هي تنظر الى ذلك الدوق العجوز . وها هي تتامل كـــل شيء في حماسة ، وانت تصيح قائلا : اية تفاصيل ! فمـــــا معنى ذا ؟ ان التفاصيل في كـــل موضع ، عندما لا نقتبس غير فقرة واحدة .

« لقد لاحظت مدام بوفاري أن عددا من النساء لم يضعن قفازاتهن في اكوابهن .

« ومع ذلك فعند الطرف القصي للمائدة ، وحيدا بين اولئك النساء ، محنيا فوق طبقه المليء ، والفوطة معقودة عند ظهره كالطفل — كان ياكل شيخ ، تتساقط من فمه نقط من الصلصة ، زائغ العينين ، يلبس ذيلا قصيرا ملفوفا في شريط اسود . وكان هذا الشيـــــخ حما المركيز ، الدوق العجوز دي لا فرديير ، احد خلفاء الكونت دارتوا ايام نزهـــات الصيد في فودري عند الماركيز لو كونفيلان ، كما انه قد كان — فيما يقولون — عشيق الملكة ماري انطوانيت ، بين السيدين دي كولن ودي لوزان » .

فلتدافع عن الملكة ، ولتدافع عنها بنوع خاص امام المقصلة ، ولتقل انه لها بموجب مركزها الحق في ان تحترم ! ولكن احذف اتهاماتك عندما نكتفي بان نقول انه كان — فيما يقولـــون — عشيق الملكة . وهل انت جاد في ابهامك لنا باهانة ذكرى هذه المراة التعسة الحظ ؟ !

« كان قد عاش حياة صاخبة بالانحلال ، مليئة بالمبارزة والمراهنة ، والنساء المغتصبات ، وكان قد مزق ثروته وازعج اسرته كلها ، ومن خلف الكرسي وقف خادم ليخبره في اذنه بصوت عال من نوع الاطباق التي كان يشير اليها باصبعه وهو يتلعثم . وكانت عينا ايما تعودان آليا الى هذا الرجل العجوز المرتخي الشفتين ، وكانما تعودان الى شيء خارق جليل . لقد عاش في البلاط ونام في سرير الملكات !!

« وسكبوا الشمبانيا المثلجة ، واقشعرت ايما بجلدها كله عندما احست بهذا البرد فـــي فمها . ولم تكن قد رات في حياتها الرمان ولا اكلت الاناناس »

وانتم ترون بدون اي شك ان هذه الاوصاف ساحرة ، ولكنه من غير الممكن أن ناخذ من هنا وهناك سطرا ، لكي نخلق نوعا من اللون يأباه ضميري . انه ليس اللون الشهواني ، بل هـــو لون الكتاب — انه العنصر الادبي ، وفي نفس الوقت العنصر الاخلاقي .

وها هي تلك الفتاة — التي تابعت تربيتها تصبح امراة ، ولقد قال السيد محامي الامبراطورية: هل تحاول مجرد محاولة ان تحب زوجها ؟ انك لم تقرا الكتاب ، ولو انك قراته لما ابديت هـــذا الاعتـــــراض .

ها هي ايها السادة هذه المراة المسكينة . انها ستحلم اول الامر . وفي صفحة ٣٤ سترون احلامهـــــا .

وهناك فوق ذلك شيء لم يتحدث عنه السيد محامي الامبراطورية ، ومن الضروري أن احدثكم انا عنه . وهذا الشيء هو احساساتها عندما ماتت أمها . وسوف ترون ما اذا كان هذا شهوانيا ! ولتتفضلوا بفتح صفحة ٣٨ ومتابعتي :

« عندما ماتت أمها بكت كثيرا في الايام الاولى ، وأوصت بصنع لوحة حداد بشعر الميتة . وفي خطاب ارسلته الى برتو ــ مليئا بالافكار الحزينة عن الحياة ــ طلبت أن تدفن فيما بعد فــي نفس القبر . وظنها الرجل مريضة فأتى الى رؤيتها ، وأخذت ايما تشعر بالرضا في داخلها ، وأنها وصلت منذ الدفعة الاولى الى ذلك المثل الاعلى النادر من الحيوات الشاحبة ، التي لا تصل اليه قط القلوب التافهة . وهكذا تركت نفسها تنزلق في مسارب لامارتين ، فهي تنصت للقيثارة فــوق البحيرات ولكافة اغاني البجـــع المحتضر ، ولسقوط جميع الاوراق ، والعذارى الطاهــرات اللائي يصعدن الى السماء ، وصوت الله الخالد وهو يتردد في الوديان ، وشعرت بالسأم دون ان تريد أن تسأم . واستمرت بحكم العادة أولا ، ثم بدافع الغرور ثانيا ، وفي النهاية ، فوجئت بأن احست بالهدوء دون أن يبقى حزن في قلبها ولا غضون في جبينها ! »

وأريد ان أرد على السيد محامي الامبراطورية في اللوم الذي وجهه بانها لم تبذل أي مجهود لكي تحب زوجها

السيد محامي الامبراطورية : انني لم ألمها لهذا . ولكنني قلت انها لم تنجح فيه .

السيد سينار : اذا كنت قد أسأت الفهم ، واذا كنت لم توجّه لوما ، فان هذا يعتبر خير رد يمكن ابداؤه . لقد اعتقدت انني قد سمعتك توجهه ، ولكن لنفترض انني اخطأت ، وعلى اية حال فها هو ما ورد من آخر صفحة ٣٦ :

« ومع ذلك فانها طبقا لما رأته صالحا من النظريات ، قد رات أن تحصل لنفسها على الحب . وفي ضوء القمر بالحديقة ، أخذت تنشد كل ما كانت تحفظ عن ظهر قلب من الاشعار العاطفيـــة ، وتغني له وهي تتنهد اغاني حزينة . ولكنها كانت تجد نفسها بعد ذلك هادئة، كما كانت من قبل ، كما أن شارل لم يكن يلوح أكثر غراما ، ولا أكثر تأثرا !

« وهكذا عندما كانت تقدح الزناد قليلا فوق كلبها دون أن تنقدح منه شرارة ، ولما كانت فوق ذلك عاجزة عن أن تفهم ما لا تحس به ، وان تؤمن بكل ما لا يظهر في صور مألوفة ، فانها اقنعت نفسها من غير مشقة بأن عاطفة شارل لم يعد فيها شيء مرهق ، وقد أصبحت انفعالاته منتظمة ، فهو يقبلها في بعض الساعات ، فتلك عادة كغيرها من العادات ، وكأنها الحلوى المتوقعة من قبــل بعد العشاء الممل ! »

في ص ٣٧ ستجدون فيضا من الاشياء المشابهة ، والآن ها هو الخطر الذي أخذ يبدأ ، وأنتم تعلمون كيف تربت ، وهذا أمر أرجوكم ألا تنسوه لحظة واحدة .

ليس هناك رجل واحد قرأ الكتاب ولم يقل ــ وهذا الكتاب في يده ــ أن السيد فلوبير ليس فنانا كبيرا فحسب بل رجلا خيرا ، وذلك لان في الست صفحات الاخيرة قد سكب كل البشاعــة والاحتقار على الزوجة ، ووجه كل الاهتمام الى الزوج . وهو فنان كبير ايضا كما قيل ، لانه لــم يغير الزوج ، بل تركه حتى النهاية ، كما كان : رجلا طيبا مبتذلا تافها ، يؤدي واجبات مهنتــه ويحب امرأته ، ولكنه محروم من التربية ، محروم من سمو التفكير . وهو هو عند فراش مــوت زوجته . ومع ذلك ليس هناك فرد تحظى ذكراه باهمية كبرى . لماذا ؟ لانه قد احتفظ حتى النهاية بالبساطة واستقامة القلب ، ولانه قد ادى حتى النهاية الواجب الذي كانت امراته قد حادت عنه. لقد كان موته جميلا مؤثرا بقدر ، ما كان موت زوجته قبيحا . وقد اظهر المؤلف فــوق جثــة

الزوجة البقع التي خلفها قيء السم ، وقد وسخت الكفن الابيض الذي ستدفن فيه ، وقد اراد ان يجعل منها موضع اشمئزاز . ولكن هناك رجل جليل هو الزوج على حافة تلك الحفرة . هناك رجل عظيم جليل ، موته رائع ، هو الزوج الذي ــ بعد ان راى كل ما بقي له من اوهام القلب يتحطم تباعا بموت زوجته ــ نــراه يحتضن بالخيال زوجته تحت قبرها . واني لارجوكم ان تحتفظوا به في ذاكرتكم . ولقد ذهب المؤلف ــ كما قال له لامارتين ــ الى ابعد مما ينبغي ، لكي يجعل موت الزوجة اكثر شناعة ، والتكفير أكثر هولا . فالمؤلف قد عرف كيف يركز الاهتمام في الرجل الذي لم ينحرف عن طريق الواجب ، والذي ظل بشخصيته التافهة . والمؤلف لم يكن يستطيع ــ بلا ريب ــ ان يغير شخصيته ، ولكنه احتفظ له بسماحــة قلبه كلهــا ، وكــدس الفظائع فوق موت الزوجــة التي خانتــه وخربت بيتــه ، وأسلمت نفسها للمرابين ، ودفعت الى التداول كمبيالات مزورة ، وانتهت اخيرا الى الانتحــار . وسوف نرى ما اذا كان طبيعيا موت هذه المراة التي ــ لو انها لم تجد السم لكي تقضي على حياتها ــ لتحطمت تلك الحياة من هول الكارثة التي نزلت بها . هذا هو ما فعله المؤلف . ولو انه فعل غير هذا لما قرىء كتابــه ، وانما حرص على ان يظهر ما يمكن ان تؤدي اليه تربية فاسدة غير ملائمة ، كالتربية التي تلقتهــا مدام بوفاري ، هو الذي دفعه الى ان يكثر من هذه الصور الساحرة واللوحات القوية التي يؤاخذ عليها .

ان السيد فلوبير يظهر دائما تفوق الزوج على الزوجة . وارجوكم ان توجهوا اهتمامكم الى طبيعة هذا التفوق . انه تفوق اداء الواجب ، بينما تنحرف ايما عن هذا الواجب ! ثم ها هــي موضوعة فوق منحدر هذه التربية السيئة ــ هاهي تنساب ــ بعد مشهد الرقص ــ مع غلام صغير هو ليون القليل الخبرة مثلها . وسيتغازلان ، ولكنها لن تجرؤ على ان تذهب الى ابعد من هذا ، ولن يحدث بينهما شيء . ثم ياتي بعد ذلك رودولف ، الذي سياخذ هو هذه المراة . وبعد ان نظر اليها لحظة قال لنفسه : انها جيدة هذه المراة ! وستكون لي ، وذلك لانها طائشة وبدون خبرة . واما عن السقوط فستقراون صفحات ٤٢ ، ٥٣ ، ٤٤ . وليس لدي غــير كلمة واحدة اقولها عن هذا المشهد هي انه خلو من التفاصيل ومن الوصف ومن الصور التــي تصور اضطراب الحواس . فكلمة واحدة تدلنا على السقوط وهي : « واستسلمت » . واني لارجوكم مرة اخرى ان تتفضلوا فتعيدوا قراءة تفاصيل سقوط كلاريس هارلوفا التي لا اظــن انها قد وصفت في كتاب سيء . وقد أحل السيد فلوبير رودلف محل لوفلاس وايما محل كلاريس ، وستقارنون بين المؤلفين وبين الكتابين وستحكمون .

ولكنني التقي هنا باشمئزاز السيد محامي الامبراطورية ، الذي يثيره ان الندم لم يتبــع السقوط عن قرب ، وانها بدلا من ان تعبر عن المرارة تقول في رضى :« ان لي عشيقا ! » ولكن المؤلف لم يكن في الحق ليصيب كبد الحقيقة لو انه جعلها تحس بمرارة الشراب المثمل فــي الوقت الذي لا تزال فيه الكاس بين الشفاه ، ومن يكتب كما يريد السيد محامي الامبراطورــة قد يعتبر اخلاقيا ، ولكنه سيقول عندئذ مــا ليس في الطبيعة . لا ان الاحساس بالخطيئة لا يستيقظ وقت حدوث الخطيئة الاولى ، والا لما ارتكبت . لا ان اللحظة التي تكون فيها المراة غارقــة في الحلم الذي يثملها ليست هي اللحظة التي ينبهها فيها هذا الثمل نفسه الى الخطيئة الكبرى التي ارتكبتها ، فهذه اللحظة لا تحمل لها غير الثمل ، وهي تعود الى منزلها سعيدة مشرقة ، وقلبها يغني قائلا : « واخيرا اصبح لي عشيق !» ولكن هل يدوم هذا وقتا طويلا ؟ لقد قراتم الصفحتين ٤٢٤ و ٤٢٥ . وبعد ذلك بصفحتين ارجوكم ان تلاحظوا في ص ٤٢٨ انــه

وان لم يظهر بعد احساسها بالاشمئزاز من العشيق ، الا انها اصبحت تحس بالخوف والقلق ، فهي تفحص وتنظر ، ولا تريد ان تتخلى ابدا عن رودلف .

« لقد كان يدفعها نحوه شيء اقوى منها حتى انه عندما رآها تاتي فجاة في احد الايـــام قطب وجهه كمن يمتعض .

« فقالت : ما بك اذن ؟ هل تشكو من شيء ؟ قل لي !

« واخيرا صرح لها في لهجة جادة انها اصبحت غير حذرة في زياراتها ، وانها قد تتورط !

« ومع ذلك فان مخاوف رودلف اخذت تعديها ، شيئا فشيئـــا .

« وفي اول الامـــر كان الحب يشملها ولم تكن تفكر في شيء غيره . ولكن لما كان قد اصبح الان شيئا لا تستطيع الاستغناء عنه في حياتها ، فانها اخذت تخشى ان يضطرب او تفقد شيئا منه . وعندمـــا كانت تعـــود من عنده كانت تلقي على ما حولها نظرات قلقة ، وترقب كـــل شبح يمر في الافق ، وكل كوة في القريـــة يمكن ان يلمحها احد من خلالها . وكانت تتسمع كل خطوة وكل صيحة ، وضجة المحاريث . وكانت تتوقف وهي اكثر شحوبا ورعشة مـــن اوراق الحـــور التي تترنح فوق رأسها » .

وانكم لترون جيدا انها لم تكن مخدوعة ! فهي تحس احساسا قويا بان في الامـــر شيئا غير ما كـــانت تحلم به . ولناخذ صفحتي ٤٣٣ ، ٤٣٤ فانهما سيزيدانكم اقتناعا

« قالت : ان شخصا قـــادم !

« فاطفا النـــــور .

« وهل معـــك مسدسك ؟

« ــ لمـــــاذا ؟

« فقالت ايما : لمـــاذا ؟ ... لكي تدافع عن نفسك !

« ــ ضد زوجك ؟! آه ! هذا الغلام المسكين !

« وختم رودلف عبارته بحركة تفيد انه يستطيع ان يسحقه بنفضة ظفر .

« فاخذت بشجاعته ، وان تكن قد احست فيها بنوع من الغلظة والسماجة الساذجـــة اثـــارت النفور في نفسها .

« وفكر رودلف كثـــيرا في مسالة المسدس ، فانها لو كانت جادة في قولهـــا ، لكـــــان الامر مضحكا للغايـــة ، بل ولرآه امرا بغيضا ، وذلك لانه لم يكن لديه هو اي سبب لكـــي يكره هذا المغفل شارل ! كمـــا انه لم يكن من اولئك الذين يوصفون بان الغيرة تاكل قلوبهم . وبهذه المناسبة كانت ايما قد اقسمت له قسما مغلظا لم يجد فيه هو ايضا شيئا من سلامة الذوق !

« ثم انها قد اصبحت مسرفة في العاطفيـــة .

فكـــان من الضروري تبادل الصور الصغيرة ، وخصل الشعر ، كمـــا اخذت تطلب الان خاتما ــ خاتم زواج حقيقي كرمز لارتباط ابدي . وكثيرا ما كانت تحدثه عن نواقيس المساء او اصوات الطبيعة . ثم اخذت تحدثه عن امها وعن امه »

واخيرا اخذت تصيبه بالسأم .

ثم في صفحة ٤٥٣ :

« ولم تعد تجد عند رودلف كمـــا كانت تجد في الماضي ــ تلك الكلمات العذبـــة التـــي كـــانت تجعلها تبكي ، ولا تلك اللمسات الحـــارة التي كانت تجن بها ، حتى ان حبهما الكبير الذي كانت تعيش غارقـــة فيه ، لاح لها آخذا في التناقص من تحتها ، كماء النهر الذي يغوص فـــي مجـــراه ، واخذت تلمح الطين ! ولم تشا ان تصدق ذلك ، وضاعفت من حنانها ، بينما

اخذ رودلف يظهر شيئا فشيئا عدم مبالاته .

« ولم تعد تعلم هل تندم لانها استسلمت له ، ام انها على العكس كاد تتود ان لو احبته فوق ذلك . ولكن مذلة احساسها بانها ضعيفة لم تنقلب الى حقد ، لان اللذات كانت تخفف من هذا الحقــد . ولم تصبح علاقتها به حبا ، بل غواية مستمرة ، فهو يسيطر عليها وهي تكــاد تستشعر منــه الخوف »

وانت تخشى ــ يا سيدي المحامي الامبراطوري ــ ان تقرا النساء الشابات هذا ! ولكنني انــا اقل خشيــة ، واقل فرقا منك ! وفي نظري الخاص انني افهم جيدا ان يقول رب الاسرة لابنته : ابنها الشابة ، اذا كان قلبك وكان ضميرك وكان احساسك الديني وكان صوت الواجب ــ اذا كان كل هذا لن يحملك على السير في الطريق المستقيم ، فانظري يا طفلتي ، انظري كم مــن المتاعب والمحن والالام والكروب تنتظر المراة التي تبحث عن السعــادة في غير منزلها . واذا كانت هذه اللغة لا تجرحكم من فم اب ، فان السيد فلوبير لا يقول شيئا غير هذا ! لانــه يرسم اصدق صورة واقواها تاثيرا ، لما تجد المراة فورا اذا حلمت بالسعــادة خارج منزلها .

ولكن ، لنواصل السير الى كافة مغامرات خيبة الامل . انك تجابهني بلمسات ليون في صفحة ٦٠ . واحسرتاه ! انها ستدفع عما قريب فدية الزنا ، وهذه الفدية ستجدونها مروعة . وذلك بعد بضع صفحات من الكتاب الذي تدينون . لقد بحثت هذه التعسة عن السعــادة في الزنا ، فوجدت فيه ــ فضلا عن الاشمئزاز والتعب اللذين تسببهما الحياة الزوجية المملة للمراة التي لا تسير في طريق الواجب ــ وجدت خيبة الامــل ، واحتقــار الرجل الذي اسلمت نفسها اليه . وهل ينقص هذا الاحتقــار شيء ؟ لا ! وانت لا تستطيع ان تنكر ذلك ، فالكتاب تحت ناظريك . فرودلف الذي تكشف عن نذل ، يعطيها دليلا اخيرا على انانيته وجبنه . انها تقول له :

« خذني ! اختطفني ! انني اختنق ! انني لم اعد استطيع ان اتنفس في بيت زوجــي الذي جلبت له العــار والتعاسة » وهو يتردد ، وهي تلح . واخيرا يعد . وفي اليوم التالي تتسلم منه خطابا صاعقا تسقط تحته صريعة محطمة ، وتخر مريضة على حافة القبر . والجزء التالي في النشر يظهرها لك فريسة لكافة تشنجات نفس تصطرع . وربما عادت الى الواجب لفرط ما تعاني من الام ، ولكنها لسوء الحظ لا تلبث ان تلتقي بالطفل الذي كانت تلعب معه عندما كانت غفلا من التجارب . وهذه هي حركة الرواية . ثم ياتي التفكير .

ولكن السيد محامي الامبراطورية يوقفني ويقول لي : وحتى بفرض ان الهدف من الكتاب طيب من اوله الى نهايته ، فهل يمكن ان تسمح لنفسك بتفاصيل خارجة على الاخلاق كتلك التي سمحت لنفسك بها ؟

بكل تاكيد لم اكن لاستطيع ان أسمح لنفسي بمثل هذه التفاصيل . ولكن هل سمحت لها ؟ واين هي ؟ ! واصل هنا الى الفقرات الاكثر ادانة .

لن اعود الى الحديث عن مغامــرة العربة فالمحكمة قد سمعت ما يكفي في هذا الصدد . واصل الى الفقــرات التي رايت فيها مخالفة للاداب العامة ، وهي تشغل عددا من صفحات عدد اول ديسمبر . ولكي امحو هيكل اتهامك ، ليس لدي غير سبيل واحد هو ان اعيد الى مكانها الفقــرات التي تسبق والتي تلحق مقتبساتك ، ومن عبارة واحدة : اضع النص الكامل محــل مقتطفاتــك .

وفي اسفل صفحة ٧٢ بعد ان يتصل ليون بالصيدلي هوميه ، ياتي الى فندق بورجوني ، ثم ياتي الصيدلي لياخذه .

« كانت ايما قد رحلت مهتاجة وقد اصبحت الآن تبغضه ، ولاح لها اخلاله بالوعد اهانة .

« ثم اخذت تكتشف عندما هدأت انها بلا ريب قد اغتابته ، ولكن انتقاصنا لمن نحب لا بد ان يقصينا عنهم قليلا ، فالاصنام المعبودة لا يجب ان تمس ، والا فقدت طلاءها الذهبي ، الذي يلتصق بايدينا .

« واصبحا يتحدثان كثيرا عن اشياء غريبة عن حبهمـــا . . . . . . »

يـــا لله ! امـــن اجل هذه الاسطر التي قراتها لكم نحضر امامكم ؟ والان فلتسمعوا :

« واصبحا يتحدثان كثيرا عن اشياء غريبة عن حبهمـــا وفي الخطابـــات التي كانت ترسلها اليه ايما ، كان يجري الحديث عن الزهور والاشعار والقمر والنجوم ، وكلها وسائل بدائيـــة لغـــرام اصابه الضعف ، واخذ يحـــاول ان ينتعش بالمساعدات الخارجية ! وكانت تعد نفسها بسعـــادة عميقـــة في كل رحلة مقبلة ، ثم كانت تعترف بانها لم تحس بشيء خارق للعـــادة . ولكن هذه الخيبة اخذت تمحي بسرعة تحت تاثير امل جديد ، وعادت ايما اليه اكثر اشتعـــالا ونهمـــا ، فكانت تتعرى في عنف ، وتنتزع شريط صدارها الرفيع الذي يدور حول ردفيها كمـــا يتسلل الثعبـــان . وكانت تذهب على اطراف اصابعها العارية لكي تتاكد مرة اخرى من ان البـــاب مغلق ، ثم تسقط ملابسها كلها بحركة واحدة ، وتتهالك على صدره شاحبة صامتة جادة في رعشـــة طويلة . »

« ولقـــد وقفت هنا ايهـــا السيد محامي الامبراطورية ، ولكـــن اسمح لي بان استمر :

« ومع ذلك فقد كان فوق جبينها المغطى بقطـــرات العرق البـــاردة ، وفوق شفتيهـــا المتمتمتين ، وفي حدقتيها الضالتـــين ، وفي ضمة ذراعيها ، شيء مسرف غامض ، مقبض ، يلوح للبـــون انه ينساب بينهما في تسلل ، وكانه يود ان يفصل بينهما ! »

انك تسمـــي هذا لونـــا شهوانيا ، وتقول انه يغر بالزنا ، وتقول ها هي صفحات يمكن ان تثير وتحرك الحواس .... صفحات شهوانية ! ولكن الموت في هذه الصفحات ! وانت لا تفكر في هذا يا سيدي محامي الامبراطورية ، وانـــــت تنفر من ان تجد فيها عبارات الصدار والملابس التي تسقط ، وانت تتعلق بهذه الكلمـــات الثلاث أو الاربـــع عن الصدار والملابس التي تسقـــط ! هل تريد ان اظهر كيف ان كلمة صدار يمكن ان تظهر في كتاب كلاسيكـــي ، وكلاسيكي جدا ؟ هذا هو ما يطيب لي ان افعلـــه بعد هنيهـــة :

« وخلعت ملابسها ! .... آه » يا سيدي محامي الامبراطورية ! كم اسأت فهم هذه الفقـــرة ! لقد خلعت ملابسها في عنف — يا لها من بائسة ! وهي تنزع شريط صدارها الرفيع الذي يصفر حول ردفيها كالثعبان الذي ينساب ! وتهالكت على صدره في رعشة طويلة شاحبة صامتة جادة . . . . وكان فوق جبينها المغطى بقطرات العرق الباردة ، .... وفي ضمـــة ذراعيها شيء غامض مقبض .... »

وهنا يجب ان نتساءل اين اللون الشهواني ؟ واين اللون الصارم ؟ وهل حواس الفتاة التي يقع بين يديها هذا الكتاب ، يمكن ان تنفعل وان تثور كمـــا يحدث عند قراءة كتاب كلاسيكي من بين كافـــة الكتب الكلاسيكية التي سأذكرها بعد هنيهة ، والتي اعيد طبعها الف مرة دون ان يفكر نائب عام امبراطوري او ملكي في محاكمته ؟ وهل فيما قرأته عليكم شيء مشابه ؟ وهلا يعتبر على العكس شيئا مثيرا للنفور من الرذيلة « ذلك الشيء المقبض الذي ينساب بينهما وكانما ليفرق بينهمـــا » ؟ وارجوكم ان نستمر .

« لم يجرؤ ان يلقي عليها اسئلة . ولكنه لما كان يدرك انها ذات خبرة ، فقد قال لنفسه

انها لا بد قد مرت بكافــة تجارب الالم واللذة . وما كان يسحره فيمــا مضى اصبح الآن يخيفه قليلا ، وفوق ذلك فانه اخذ يثور على امتصاصها لشخصيته امتصاصا يتزايد يوما بعد يوم ، حتى لقد اخذ يحقد على ايما هذا الانتصار الابدي ! بل وحاول الا يهيم بها ، ولكنــه بمجـرد سماعه وقع اقدامها كان يحس نفسه جبانا كمدمني الخمــر عندما يرون شرابا ! »

فهل هذا شهواني ؟ ثم لناخذ الفصل الاخير :

« وفي احد الايام افترقا في وقت مبكر ، وعــادت وحدها عن طريق البولفار ، فلمحت جدران ديرها . وعندئذ جلست على مقعد في ظل اشجار الدردار .... اي هدوء كان في ذلك الــزمن ! وكم تتمنى تلك المشاعر الغراميــة الغامضة التي كانت تحاول ان تتصورها كمــا توحي بها الكتب !

« والاشهر الاولى لزواجها ، والنزهات على صهوة الجواد في الغابــة ، والفيكونت الذي كان يرقص الفالس ، ولاجارديه وهو يغني ــ كل هذا مر امام عينيها . »

لا تنس اذن هذا ايها السيد محامي الامبراطوريــة عندما تريد ان تحكم على فكرة المؤلف . وعندمــا تريد ان تجد حتمــا اللون الشهواني حيث لا استطيع ان اجد الا كتابا ممتازا .

« ولاح لها ليون فجأة على نفس البعد الذي يفصلها عن الاخرين ! »

« وقالت لنفسها : ومع ذلك فانني احبه ! وعلى اية حال فانها لم تكن سعيدة ، ولا كانت سعيــدة قط ! ومن اين ياتي اذن هذا النقص في الحيــاة ، وهذا التعفن السريع الذي يصيب كل ما تتكيء عليــه ؟ »

فهل هــذا شهواني ؟

« ولكن اذا كان في مكان ما شخص قوي جميل ذو طبيعة ممتازة ، مليء بالحماســـة والرهافــة معــا ، قلب شاعر في مظهر مــلاك ، عود ذو اوتــار من نحاس ، ترتفع للسماء نغماته وهو يعزف اناشيد الزفــاف العاطفية ــ فلماذا لا تلقاه مصادفة ؟ ... اوه ! يا له من مستحيل !! ... وفوق ذلك فلا شيء يستحق عناء البحث ، وكل شيء خادع ! كل ابتسامة تخفي تثاؤب ملل ، وكل نشوة لعنة ، وكل لــذة تقززا ، واحلى القبلات لا تترك فوق الشفة الا رغبــة مستحيلة في لــذة اقوى !

« انسابت حشرجة معدنية في الهــواء ، وسمعت اربع دقات من جرس الدير . الساعة الرابعــة ؟ ! ... ولاح لها انها كانت هناك فوق المقعد منذ الابد ! »

انه لا يجــوز ان نبحث في طرف كتاب عن شيء يفسر به ما في طرف كتاب اخر . ولقد قرأت الفقــرة المدانة دون ان اضيف اليها كلمة ، لكي ادافع عن كتاب يدافع هو عن نفســه ، ولنواصل قــراءة هذه الفكرة المدانة من وجهــة النظر الاخلاقيــة :

« كانت السيدة في غرفتها ، ولم يكن أحد يصعد اليها . كانت تظل هناك طول النهــار ، متصلبة شبه عارية . ومن وقت الى آخر كانت تحرق بعض البخور الذي اشترته من روان من دكان رجل جزائري . ولكي لا تحس في الليل ــ ملاصقا للحمها ــ بذلك الرجل الذي ينــام متمددا الى جوارها ، أخذت تتجهم له ، حتـــى انتهت بأن نفته الــى الطابق الثاني . وكانت تقرأ حتى الصباح كتبا مثيرة مليئة باللوحات الداعرة والحوادث الدامية . »

وهــذا يغر بالزنا ، أليس كذلــك ؟

« وكثيرا ما كان ياخذها الرعب فتطلق صيحة ، ويهرول شارل فتقول : آه ... اذهب عني ! واحيانا اخرى كانت تحترق في شدة بذلك اللهب الداخلي الذي يضرمه الزنا ، وتنفعــل

وتلهث ، وتستيقظ رغبتها ، فتفتح النافذة ، وتستنشق الهوا ءالبارد ، وتنثر في الرياح شعرها الثقيـل وتنظر الى النجـوم ، وتتمنى غراميات امير ! وكانت تفكر فيه ــ في ليـون ــ وكانت مستعدة لان تعطي كل شيء مقابل موعد من تلك المواعيد التي كانت تشبع نهمها .

« كانت تلك المواعيد هي ايام بهجتها . وكانت تود ان تكون اياما فخمة . وعندما كان لا يستطيع دفع كافة النفقات كانت تكمل العجز في سخاء . وكان هذا يحدث كل مرة تقريبا . وحاول ان يقنعها بانهما سيجدان نفس المتعة في مكان اخر ــ في فندق اكثر تواضعا ، ولكن كان يلقى اعتراضات . »

انكم ترون كيف ان كل هذا بسيط عندما نقرا الكل ، ولكن في مقتطفات السيد محامـي الامبراطوريـة تصبح اصغر كلمة جبـلا .

السيد محامـي الامبراطورية : انني لم اذكر ايا من هذه العبارات ، وما دمت تريد ان تذكر ما لم اذنه فانه لا ينبغي ان تقفز مربوط القدمين فوق صفحة ٥٦ .

السيد سينار : انني لا اسقط شيئا ، وانما اتمهل عند العبارات المدانـة فـي الفقرة المقتبسة ، ونحن متهمون بالصفحات ٧٧ ، ٧٨

السيد محامي الامبراطورية : انني اتحدث عن المقتطفات التي ذكرت في الجلسة ، ولقد اعتقدت انك تنسب الي قـراءة السطور التي قراتها منذ هنيهـة .

السيـد سينار : ايها السيد محامي الامبراطورية انني قد قرأت جميع الفقرات التي تريد ان تكون منها الجريمة التي تحطمت الان . ولقد نميت في الجلسة ما اردت تنميته ، وكانت مهمتك سهلة ومن حسن الحظ انه كان لدينا الكتاب ، والدفاع كان يعرف هذا الكتاب ، ولو انه لم يعرفه لاصبح وضعه غريبا . فلتسمحوا لي بان اقول ذلك . وقد كنت مطالبا بان ابرر هذه الفقرة او تلك وفي الجلسة احللتم محلها فقـرات اخرى . ولو انني لم اكن متمكنا من الكتاب على هذا النحو لاصبح الدفاع امرا شاقا . والان اظهر لكم بتحليل امين للرواية انها بعيدة عن ان تقدم للمحاكم كعمل شهواني . وانها علـى العكس يجب ان تعتبر عمـلا اخلاقيا رائعا .

وبعد ذلك اتنـاول الفقرات التي استند اليها في التقديم الى المحاكمة . وبعد ان اتبـع مختاراتكم بما يسبق وما يتلو يصبح الاتهام من الضعف بحيث يثيركم انتم انفسكم عندمـا اقرا هـذه الفقـرات . ونفس الفقـرات التي اشرتم اليها كفقـرات واجبة الادانة منذ لحظة ، لي الحق في ان اذكرها انا ايضا لكي اظهر لكم بطـلان اتهامكم .

واستانف اقتباسي من الموضع الذي تركته باسفل ص ٧٨ .

« لقد اصبـح (ليون) الان يشعر بالضجر كلمـا انتحبت ايما فجاة فوق صدره . واصبح قلبه ــ كاولئك الناس الذين لا يستطيعون ان يحتملوا غير قدر محدود من الموسيقى ــ اصبـح يغفو من عدم المبالاة ، بضجة حب لم يعد يميز لطائفـه .

« لقد طالت معرفة احدهمـا بالاخر ، حتى اصبح لا يحس بنشوة التملك التي كـانت تضاعف من اللذة . واصبحت تشمئز منه بقدر مـا اصبح متعبا منها ، وقد اخذت ايما تجد فـي الزنـا كل ما في الحياة الزوجيـة من رتابة مملة »

رتابة الزواج المملة ! ان من اقتبس هذه العبارة قد قال : كيف ؟ ها هو رجل يقول ان في الزواج رتابة مملة ! هذا هجوم على الزواج ، واساءة الى الاخلاق ، ولتوافقني ايها السيد محـامي الامبراطورية على اننا في اقتباسات ننتزعها على نحو فني نستطيع ان نذهب بعيدا في الاتهام . وما الذي يسميه المؤلف رتابـة الزواج المملة ؟ انها تلك الرتابة التي كانت تخشاها

ايما والتي ارادت ان تهرب منها ، والتي وجدتها باستمرار في الزنا ، وكان هذا على وجه التحقيق هو خيبة الامل . وهكذا يظهر لك أننا عندما نقرا ما يسبق وما يتلو بدلا من ان نقتطع كلمات واجزاء من العبارات — لا يبقى شيء في الاتهام . كما تدرك تمام الادراك كيف ان موكلي الذي هذه هي فكرته ، لا بد ان يثور عندما يراها تتحور على هذا النحو , ولتستمر :

« لقد كانت تشمئز منه بقدر ما اصبح متعبا منها . وقد اخذت ايما تجد في الزنا كل ما في الحياة الزوجية من رتابة مملة .

« ولكن كيف الخلاص ؟ ثم انها بالرغم من احساسها بوضاعة مثل هذه السعادة ، فانها كانت متعلقة بها بحكم العادة ، او بحكم الانحلال . وفي كل يوم كانت تزداد تكالبا ، منضبة كل سعادة برغبتها في أن تكون سعادة اكبر . وكانت تتهم ليون بخيبة امالها وكانه قد خانها . بل وتمنت ان لو وقعت كارثة تؤدي الى افتراقهما ، ما دامت لا تجد الشجاعة لتقرير ذلك .

ومع ذلك استمرت تكتب له الخطابات الغرامية ، نزولا على تلك الفكرة التي تقول بان المراة يجب أن تكتب دائما الى عشيقها .

« ولكنها في اثناء الكتابة ، كانت تلمح رجلا اخر — شبحا مكونا من ذكرياتها الحارة »

وهذا ليس موضع محاكمة :

« ثم كانت تسقط محطمة ، وذلك لان اندفاعات هذا الحب الغامضة كانت تتعبها اكثر من العربدة العنيفة »

« لقد اصبحت الان تشعر بتكسر دائم في جسمها كله ، وكثيرا ما كانت تتسلم انذارات واوراقا مدموغة لا تكاد تنظر فيها . وكانت تود الا تظل حية ، او ان تنام باستمرار . »

وانا اسمي هذا دعوة الى الفضيلة بتصوير شناعة الرذيلة . وهذا هو ما يعلنه المؤلف نفسه ، وما لا يستطيع اكثر القراء شرودا الا ان يراه ، ما لم يكن لديه قليل من القصد السيء .

والان اقدم شيئا اخر لكي اجعلكم تدركون اي صنف من الرجال هذا الذي تحاكمون . وليس ذلك لكي اطلعكم على اي نوع من التبرير استطيع ان اعتمد عليه ، بل لترى ما اذا كان السيد فلوبير له لون شهواني ومن اين يستمد وحيه . واتسمحوا لي بان اضع فوق مكتبكم الكتاب الذي استخدمه والذي استمد من فقراته الوحي في وصفه لهذه الشهوانية ، ولاندفاعات تلك المراة التي تبحث عن السعادة في اللذات غير المشروعة ، التي لا تجدها فيها ، فتبحث ثانية ، وتستمر تبحث دون ان تعثر عليها قط . فمن اين ايها السادة استمد فلوبير وحيه ؟ !

لقد استمده من هذا الكتاب ، فلتنصتوا :

« خداع الحواس .

« ان اي انسان يتعلق بالحسيات لا بد ان يضل بالضرورة من شيء الى شيء ، وان يخطىء — اذا صح التعبير — عندما ينتقل من مكان الى مكان ، وهكذا نرى ان الشهوانية ، اي حب اللذات متقلبة دائما ، وذلك لان حرارتها تخبو وتموت بالاستمرار فيها ، والتغيير هو الذي يبعثها . وما هي حياة الحواس ان لم تكن هذا ، اي ذلك التنقل الدوري من الشهية الى الاشمئزاز ، ومن الاشمئزاز الى الشهية ، والروح طافية باستمرار ، مترددة بين الحرارة التي لا تهدا ، والحرارة التي تجدد ، الشهوانية متقلبة ، كما تقول العبارة اللاتينية . وهذه هي حياة الحواس ، ومع ذلك فان الانسان وسط هذا التقلب الدائم لا يعدم التسلية ، بفضل هذه الصورة من الحرية الضالة . »

هذه هي حياة الحواس . ومن الذي قال ذلك ؟ من الذي كتب العبارات التي سمعتموها عن هذا الهياج ، وهذه الوقدة المستمرة ؟ وما هو الكتاب الذي يتصفحه السيد فلوبير ليـــلا ونهـــارا ، والذي استوحى منه الفقــرات التي يدينها السيد محامي الامبراطورية ؟ ... انه بوسويـــه !

ان ما قرأته عليكم هو فقرة من خطبة لبوسويه عن اللذات غير المشروعة . وساظهر لكـــم ان الفقــرات المدانة ليست سرقات ، والرجل الذي يتمثل فكرة ليس سارقا ، وانمـــا هـــي محاكاة لبوسوية .

وهـــل تريدون مثـــلا اخر ؟ ها هـــو :

« عن الخطيئـــة .

« ولا تسائلوني ايها المسيحيون على اي نحو ستتحول لذاتنا الى عذاب . فالامر موضح في الكتب المقدسة . والله الحق هو الذي يقوله والله القادر على كل شيء هو الذي يفعله . ومع ذلك لو تأملتم طبيعة الشهوات التي تسلمون اليها قلوبكم ، لفهمتم في سهولة انها قد تتحول الى عذاب لا يحتمل . فهي كلها في ذاتها الام قاسيـــة ، واشمئزاز ومرارة . وهي كلهـــا سحيقـــة الغور يغضبها ان يستحيل اشباعها ، مما يخرج بها كافة الانفعالات ، التـــي تستحيل الى ضرب من الهوس ، لا يقل ما يثيره من الم عما فيه من خـــروج على العقل . فالحب اذا جاز ان نذكره من فوق هذا المنبر له شكوكه واضطراباته العنيفة ، ومطالبه التـــي لا تنال ، وجحيـــم غيرتـــه » .

وبعـــد ذلك بقليـــل

« آه ! هل هناك اذن ما هو اسهل من ان نجعل من شهواتنا الما لا يحتمل لخطايانا ، بأن نجردها كما هو حق من العذوبـــة القليلة ، التي تعزينا بهـــا ، بحيث لا يتبقـــى فيهـــا غـــير القلق القاتل والمرارة التي تفيض منها ؟

ان خطايانا ضدنا ، وخطايانا فوقنا ، وخطايانا بيننا . انها سهم ينفذ الى صدورنا ، وعبء لا يحتمل فوق رؤوسنا ، وسم ناقع في احشائنا » .

أليس في كل ما سمعتموه ما يوضح لكم مرارة الشهوات ؟ انني اترك لكم هذا الكتاب ، الذي يحمل بصمات ابهام هذا الرجل المجد الذي استقى منه افكاره ، كما يحمل امـــارات كثيرة
الذي يحمل بصمات ابهام هذا الرجل المجد الذي استقى من افكاره ، كما يحمل امارات كثرة
استخدامه له . وهذا الرجل الذي استوحى مثل هذا المنظر — هذا الرجل الذي وصف الزنـــا بالعبـــارات التي سمعتموها — هذا الرجل يحاكم للاساءة الى الاخلاق العامة والاخلاق الدينية!

واليكم بعض اسطر اخرى عن المرأة الخاطئـــة ، وسوف ترون كيف ان السيد فلوبـــير قـــد عرف كيف يستوحي نموذجه عندما اراد ان يصف هذه الانفعالات :

« ولكننا نجازى عن خطئنا دون ان نقلع عنه ، ونبحث في التغيير عن دواء لخطئنا . ونتنقل من شيء الى شيء . واذا كان هناك اخيرا احد يثبتنا ، فليس ذلك لرضائنا عما اخترنا ، وانما يكـــون ذلك لما يلقاه عدم ثباتنا من مديح »

« كل شيء في المخلوقات يلوح له خاويا خادعا مثيرا للاشمئزاز ، وهو بدلا من ان يجد فيها سحرها الاول الذي كان قلبه يجد مشقـــــة كبيرة في التحصن ضده — لا يعود يرى الا الطيش والخطـــر والغـــرور »

«وناهيكم برابطة الهيام ! فأي خوف عندئذ من ان ينفضح السر ! واي احتياطات يجب اتخاذها مراعاة للياقة والسمعة ! وكم من عين ينبغي تجنبها ! وكم من رقيب يجب ان نضلله !

وانة مزالق يجب ان نخشاها على امانة من نختاره نصيرا وكاتم سر لعواطفنا ! وكم من اهانات قد تصيبنا ممن ضحينا في سبيلهم بسعادتنا وحريتنا ثم لا نجرؤ ان نشكو منهم ! واضيفوا الى كل هذا تلك اللحظات القاسية التي تخف فيها وقدة العاطفة فتترك لنا فرصة العودة الى انفسنا ، والاحساس بكل ما في حالتنا من مهانة ـ تلك اللحظات التي يمل فيها القلب ـ المخلوق لمسرات أعظم ـ أصنامه ، ويجد العذاب في اشمئزازه ، وعدم ثباته . ايها العالم الفاني ، اذا كانت هذه هي تلك السعادة التي تغرينا بها كل هذا الاغراء ، فلتخص بها عبادك ، وعاقبهم وانت تمنحهم مثل هذه السعادة ـ عن الايمان ، الذي استشعروه في استخفاف ، نحو وعودك . »

دعوني اقول لكم ما يأتي : ان الانسان عندما يفكر خلال صمت الليل في الاسباب التي تدعو الى انزلاق المرأة ، وعندما يجد تلك الاسباب في التربية ، ثم لا يطمئن الى ملاحظاته الشخصية عندما يريد التعبير عنا ، فينضج نفسه في تلك المصادر التي ذكرتها لكم ، وعندما نراه لا يسمح لنفسه بأن يتناول القلم الا بعد ان يستوحي افكار بوسويه وماسيون ـ في مثل هذه الحال ، اسمحوا لي ان اتساءل عما اذا كانت هناك كلمة يمكن ان تعبر لكم عن دهشتي وألمي عندما أرى هذا الرجل يقدم لمحكمة البوليس الجزائي من اجل بعض فقرات في كتابه ، وعلى وجه التحديد من اجل الافكار والمشاعر الاكثر صدقا وسموا من بين كل ما استطاع ان يجمع . وهذا هو ما ارجوكم الا تنسوه فيما يختص بتهمة الاساءة الى الاخلاق الدينية . ، ثم انني ـ اذا سمحتم ـ ساضع في مقابل كل هذا تحت ابصاركم ما اسميه انا اساءات الى الاخلاق ، اي اشباع الحواس في غير مرارة ، اي بدون تلك القطرات الكبيرة من العرق الثلجي الذي يسقط من جباه من يستسلمون لها . وانا لن استشهد امامكم بكتب اباحية حاول مؤلفوها ان يستثيروا الحواس ، بل سأستشهد بكتاب يقدم كجائزة في المدارس . ولكنني أرجو أن تسمحوا لي بالا اذكر اسم المؤلف الا بعد أن أقرأ لكم فقرة منه . وها هي هذه الفقرة ، وساقدم لكم الكتاب : اقدم النسخة التي قدمت كمكافاة لتلميذ بمدرسة ، وانا افضل أن أقدم لكم هذه النسخة على ان اقدم نسخة السيد فلوبير .

« في اليوم التالي ذهبت الى مسكنها حيث احسست بكل ما يغري باللذة ، فقد نثروا العطر العطور بالغرفة ، وكانت هي في سرير لا تزينه غير باقات من الزهور ، وقد لاحت نائمة فوقه في استرخاء ، ومدت الي يدها واجلستني الى جوارها . وكان كل شيء حتى الوشاح الذي يغطي وجهها يبدو شيقا . والملاءة البسيطة التي تغطيها ، كانت تمكنني من ان ارى او افقد رؤية مفاتنها الساحرة طورا بعد طور » . ان الملاءة البسيطة التي كانت تغطي جثة قد لاحت لكم صورة شهوانية ، ولكنها هنا تغطي امرأة حية ، « ولاحظت أن عيني كانتا مشغولتين ، وعندما رأتهما تلتهبان ، لاح ان الملاءة قد اخذت تنشق من تلقاء نفسها ، فرأيت جميع كنوز هذا الجمال السماوي ! وفي هذه اللحظة ضغطت على يدي فزاغت عيناي في كل سبيل . وصحت لنفسي قائلا : ليس هناك في هذا الجمال غير عزيزتي اردازير ، ولكنني اشهد الالهة ان اخلاصي .... وارتمت على رقبتي واحتضنتني في ذراعيها ، وفجاة اظلمت الغرفة ، وانشق وشاحها واعطتني قبلة . وطار صوابي ، وجرى لهب مفاجيء في عروقي الهب حواسي كلها . وابتعدت عني صورة اردازير ، ولم يبق منها غير بقية من الذكرى لاحت لي كحلم ، وهممت بأن افضلها على نفسها ، وكنت قد حملت يدي الى صدرها ، ولكن يدي جرتا بسرعة في كل مكان . والحب لم يكن يظهر الا بسبب عنفه ، وقد اخذ يهرول نحو الانتصار ، وبعد لحظة اخرى لم تعد

اردازير تستطيع المقاومة . »

مـن الذي كتب هذا ؟ انه ليس حتى مؤلف « هوليز الجديدة » ـ انه الرئيس دي مونتسكيو . ونحن لا نجد هنا مرارة ولا اشمئزازا ، بل كل شيء قد ضحى به في سبيل الجمال الادبي ، وهم يعطون هذا جائزة لتلاميذ البلاغة . وذلك بلا ريب لكي يستخدموه في تنميـة الموضوعات او الاوصاف التي يطلب اليهم عملها ! ومونتسكيو يصف في « الخطابات الفارسية » مشهدا لا يمكن ان يقرأ ، وهو مشهد امراة يضعهـا المؤلف بين رجلين يتنازعانها ، وهـــذه المراة الموضوعة هذا الوضع بين رجلين ، تحلم احلاما تلوح لها باللغة العذوبة !

هل وصلنا ايها السيد محامي الامبراطورية الى مثل هذا ، ثم هل من الضروري ان اقتبس ايضا من جان جاك روسو في « الاعترافات » وغيرها ؟ لا ! ولكنني اقول فقط للمحاكمة انه لو أن السيد ميريمه حوكم بسبب وصفه للعربـة في « الخطأ المزدوج » لبرىء في الحال ، لان المحكمة لم تر في كتابه غير عمل فني وجمـال ادبي عظيم . وهو لن يدان اكثر مما يـدان المصورون والمثالون الذين لا يكتفون بالتعبير عن جمال الجسم، بل يعبرون ايضا عن كافـة الرغبات المشتعلة والانفعالات الحادة . وانا لا اكتفي بهذا بل اطلب اليكم ان تعترفوا بأن السيد فلوبير لم يثقل لوحاته . وانه لم يفعل غير شيء واحد ، هو أن يمس بيده القويـة مشهد السقوط . وفي كل سطر من كتابه نراه يظهر خيبة الامل . وبدلا من ان يختتم المشهد بشيء لطيف ، نـراه يحرص على ان يظهر لنا هذه المراة وقد وصلت ـ بعد الاحتقـار والهجر وخراب بيتهـا ـ الى اشنع انواع الموت . وبعبارة موجزة لا استطيع الا ان اكرر ما بدات به مرافعتي وهي ان السيد فلوبير مؤلف لكتاب جيد ـ كتاب يدعو الى الفضيلة باظهار بشاعة الرذيلة .

فعلي الآن ان افحص الكتاب من الناحية الدينية ، والاساءة الى الدين التي ارتكبها السيد فلوبير ! وعلى اي نحو كانت هذه الاساءة ؟ لقد اعتقد السيد محامي الامبراطورية انه يجد فيه رجلا متشككا .وباستطاعتي ان ارد على السيد محامي الامبراطورية قائلا انه مخطىء . وليس علي هنا ان اعلن ايماني بالدين وانما علي ان ادافع عن الكتاب ، وهذا هو ما يدفعني الى ان اكتفي بهذه الكلمة البسيطة . واما عن الكتاب فاني اتحدى السيد محامي الامبراطورية ان يجد فيه اي شيء يمكن ان يلوح انه اساءة الى الدين . ولقد رايتم كيف ان الدين قد دخل في تربية ايما ، وكيف ان هـذا الدين ـ الذي افسد بعدة رسائل ـ لم يستطـع أن يمسك ايما على المنحدر الذي انساقت اليه . وهل تريدون ان تعرفوا باية لغة يتحدث السيد فلوبير عن الدين ؟ فلتنصتوا الى بضعة اسطر آخذها من الدفعة الاولى في صفحات ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ .

« وفي ذات يوم بينمـا كانت النافذة مفتوحة وهي جالسة الى حافتها ، رأت لسنيبودوا خادم الكنيسة ،وهو يشذب شجر البقس ، وفجاة سمعت الناقوس يدق للصـلاة .

« وكنا في مستهل ابريل عندما تتفتح الازهـار المبكرة ، وريح فاترة اللهب تهب على الاحواض المحروثـة ، والحدائق كالنساء يلوح انها قد اخذت تتخذ زينتها لاعياد الصيف . ومن خلال قضبان العريشة ، ومن خلفها ، كان النهر يرى في كل مكان وسط المروج حيث يرسم وسط الحشائش تعرجات غير منتظمة . وبخار المساء يمر بين اشجار الحور العارية من الورق ، وهو يتدرج بحوافيها من لون قرمزي اكثر شحوبا وشفافية من غاز خفيف معلق باغصانها . وعد بعد تسير المواشي دون ان يسمع وقع اقدامها ولا خوارها . والناقوس يدق دائما فيستمر فـي الهواء نحيبه الهادىء .

« وعلى وقع هذا الرنين المتكرر ضل فكر ايما في الذكريات القديمة عن حداثتها واقامتها في الدير . فتذكرت الشمعدانات الكبيرة التي كانت تبرز من المذابح ، والزهريات المليئة بالزهور، وبيت الرب ذا الاعمدة ، وودت ان لو بقيت — كما كانت في الماضي — مختلطة في ذلك الصف الطويل من الاوشحة البيضاء ، التي كان يتخللها هنا وهناك سواد طراطير الراهبات الصلبة ، وهن منحنيات فوق المصلى »

هذه هي اللغة التي يعبر بها عن الاحساس الديني ، ومع ذلك فان من يسمع اقوال السيد المحامي العام يخيل اليه ان التشكك يسيطر على كتاب السيد فلوبير من اوله الى اخره . واني لارجوكم ان تدلوني اين يوجد التشكك في هذه الفقرات .

السيد محامي الامبراطورية : اني لم اقل ان التشكك هنا .

السيد سينار : واذا لم يكن التشكك هنا فاين اذن يكون ؟ في مقتطفاتك طبعا ! ولكن ها هو الكتاب كله ، ولتحكم عليه المحكمة ، وسوف ترى ان الشعور الديني يغمرها بقوة ، بحيث ان الاتهام بالتشكك ليس الا تشنيعا حقيقيا . والان هل يسمح لي السيد محامي الامبراطورية بان اقول له انه لم يكن هناك ما يدعو الى ان يتهم المؤلف بالتشكك هذا الاتهام الصاخب ؟ ! ولنواصل القراءة :

« وفي اثناء الصلاة يوم الاحد عندما رفعت راسها رات وجه العذراء السمح بين ما يتصاعد من دوامات البخور الضاربة الى الزرقة . وعندئذ تملكها الحنان ، واحست بالاسترخاء والهجران كزغب العصفور الذي يدور مع العاصفة . وحدث هذا دون ان تدرك انها تتجه نحو الكنيسة مستعدة لاية عبادة ، بشرط ان تمتص هذه العبادة روحها وان يختفي الوجود كله » .

هذا ايها السادة هو أول دعوة الى الدين لكي يمسك ايما على منحدر الشهوات . ولكن المراة المسكينة سقطت ثم ركلها بقدمه الرجل الذي استسلمت له . واوشكت ان تموت ، ثم نهضت وانتعشت ، وسوف ترون الان ما كتب في عدد ١٥ نوفمبر سنة ١٨٥٦ ص ٥٤٨ :

« وفي يوم اشتد بها المرض حتى ظنت انها تحتضر ، وطلبت ان تتناول القربان . وبينما كانوا يعدون العدة بالغرفة لهذا التناول ، ويضعون المائدة المزدحمة بانواع من الشراب السكري لتستخدم كمذبح — وفيليسيتيه تنثر الارض بازهار الداليا ، اذ بايما تحس بشيء قوي يمر فوقها فيخلصها من آلامها ومن ادراكها واحساسها . وتخفف جسمها فلم يعد يثقلها ! وابتدات حياة اخرى . ولاح لها ان شخصها الصاعد نحو الله . . . . (انظروا باية لغة يتحدث السيد فلوبير عن المسائل الدينية) ولاح لها ان شخصها الصاعد نحو الله سيفنى في ذلك الحب ، كالبخور المشتعل الذي يتبدد بخارا . ورشوا الماء المقدس فوق ملاءات السرير ، واستل القسيس القربان الابيض من المزود المقدس ، وانهارت من النشوة الالهية وهي تمد شفتيها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم اليها »

وانا اطلب العفو من السيد محامي الامبراطورية ، واطلب العفو من المحكمة واقطع القراءة ، ولكنني في حاجة الى ان اقول ان المؤلف هو الذي يتحدث وان الفت نظركم الى العبارات التي يستخدمها في التعبير عن اسرار التناول . وانا في حاجة — قبل ان استانف القراءة — الى ان تدرك المحكمة القيمة الادبية المستمدة من هذه اللوحة . وانا في حاجة الى ان ابرز هذه العبارات التي اوردها المؤلف :

« وانهارت من النشوة الالهية وهي تمد شفتيها لكي تتناول اسم المسيح الذي تقدم اليها ، وانتفخت ستائر مخدعها حولها في ليونة وكانها سحب ، والشمعتان تلتهبان فوق المائدة

فلوحان لها هالي مجد يعشى الابصار . وعندئذ تركت رأسها يسقط ، وقد خيل اليها انها تسمع في فضـــاء السمـــاوات اغنية الملائكة على نغمـــات العيدان . وانها ترى في زرقة السمـــاء ـــ فوق عرش ذهبي وبين القديسين الذين يمسكون أغصانـــا خضرا ــ الله الاب ، مشرق العظمة . وباشـــارة منه تهبط الملائكة الى الارض باجنحة من لهب لكي تحملها بين اذرعها »

وبستمـــــر :

« وظلت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كأجمل شيء يمكن ان تحلم به ، حتى انهـــا لتجاهد الان لكي تسترد الاحساس بها ، رغم ان هذا الاحساس لا يزال مستمرا ، ولكن على نحو أقل استحواذا ، وان يكن في نفس العذوبة العميقة . فروحها التي هدتها الكبرياء تستريح اخيرا في خشوع المسيحية ، وتتذوق لذة الاحساس بضعفها . واخذت ايما تتأمل في ذاتها تحطم ارادتها ، التي اخذت تفتح الباب واسعا لفيض من رحمة الله . وهكذا أحست بأنه بدلا مـــن السعادة توجد مسرات أعظم ، كما يوجد حب فوق كل انواع الحب الاخرى ــ حب لا ينقطع ولا ينتهي ، بل ويزداد على نحو دائم . ولمحت بين رؤى آمالها حالة من الطهارة تسبح فوق الارض وتختلط بالسماء ، هفت اليها روحها ، فودت أن لو أصبحت قديسة . واشترت مسابح وحمالت تمائم ، وتمنت أن تجد في غرفتها ــ عند مرقدها ــ صندوقا به بعض مخلفات القديسين وقد رصع بالزمرد ، لكي تقبله كل مساء ! » .

ها هي المشاعر الدينية ! واذا اردتم أن تتوقفوا قليلا عند فكرة المؤلف الاساسية ، فانـــي اطلب اليكم ان تقلبوا الصفحة ، وأن تقرأوا الاسطر الثلاثة التالية من الفقرة الثانية :

« .. فثارت ضد أوامر الدين ، كما أن غطرسة الكتب الجدلية نفرتها ، لما فيها من تكالب على مطاردة أناس لم نكن تعرفهم . والقصص الدنيوية المطعمة بالدين كانت تلوح لها صادرة عن جهل بالحياة ينحيها ــ على نحو غير محسوس ــ عن الحقائق التي كانت تنتظر دليلا يؤيدها » .

هذه هي لغة السيد فلوبير . والآن ارجوكم أن نصل الى مشهد آخر هو مشهد المسحـــة الاخـــيرة .. أيها السيد محامي الامبراطورية ، كم كنت علـــى خطأ عندما وقفت عند الكلمـــات الاولى واخذت تتهم موكلي بخلط العنصر المقدس بالعنصر الدنيوي ــ عندمـــا اكتفـــى بأن يورد الاصطلاحات الجميلة الخاصة بالمسحة الاخيرة ، عندمـــا ياخذ القسيس في مسح كافة أعضاء حواسنا ، وفي اللحظة التي يقول فيها باللاتينية طبقا لاصطلاحات الطقوس ، : « بهذه المسحة الاخيرة وبفضل رحمته الواسعة يغفر لك الرب كل خطاياك . »

لقد قلت انه لا يجب المساس بالاشياء المقدسة ، ولكن بأي حق تحور هـــذه العبـــارات المقدسة : « وليغفر لك الرب برحمته المقدسة كل ما ارتكبت من خطايـــا بالبصر أو الذوق أو السمـــع الخ ... ؟ »

وهأنا أقرأ لكم الفقرة المدانة ، وسيكون في قراءتها كل انتقامي ، وانا أجرؤ أن أقـــول انتقامي ، لان المؤلف في حاجة الى من ينتقم له : نعم ! ان السيد فلوبير يجب أن يخرج من هنا ــ لا مبرءا فحسب ــ بل ومنتقما له ! وسوف ترون بأية قراءات تغذى . والفقرة المدانة فـــي ص ٢٧ من عدد ١٥ ديسمبر ، واليكم نصها :

« ... وهي شاحبة كالتمثال ، وعيناها محمرتان كالجمر وشارل واقف أمامها دون بكـــاء عند ساق السرير ، بينما ركع القسيس على ركبته واخذ يتمتم في صوت خفيض ... »

كل هذه اللوحة رائعة . ولذة قراءتها لا تقاوم . ولكن اطمئنوا فلن اطيل القراءة اكثر مما ينبغي . فها هو الآن موضع الاتهام :

« وادارت وجهها في بطء ، ولاح انها قد تملكتها النشوة ، اذ رات فجاة المسوح البنفسجي . ولا شك انها قد عادت فلمست وسط هذا الهدوء الخارق بتلك اللذة المفقودة التي كانت تستشعرها في انطلاقاتها الصوفية الاولى ، مع رؤى من السعادة الخالدة التي اخذت تبتدىء . »

« ونهض القسيس لكي ياخذ الصليب . وعندئذ مدت رقبتها كمن به ظمأ ، والصقت شفتيهـا فوق جسم « الرجل الاله » ، ووضعت فوقه ـ بكل قوتها المولية ـ اكبر قبلة حب اعطتها فـي حياتهـــا » .

لم تبدا المسحة الاخيرة بعد ، ولكننا نلام بسبب هذه القبلة . ولن اذهب لابحث في سانت تريز التي ربما تكونون عارفين بها ، ولكن ذكراها اصبحت موغلة في القدم ، بل ولن اذهب لابحث عند فنليون عن تصوف مدام جيون ، بل ولن ابحث عن حالات حديثة من التصوف اجد فيها اسبابـا اخرى كثيرة ، ولن اطلب الى المدارس التي تصفونها بالمسيحية الرسمية تفسيرا لهذه القبلـة ، ولكنني ساطلب هذا التفسير الى بوسويه ـ نعم الى بوسويه نفسه :

« اطيعوا ، وحاولوا أن تصلوا الى المشاعر المسيحية وانتم تتناولون القربان ، وهـــي مشاعر اتحاد ومتعة وحب . فالانجيل كله يدعو لذلك ، والمسيح يود أن نكون معـــه ، ويود ان يستمتع وان نستمتع معه ، ولحمه المقدس هو سبيل هذا الاتحاد وسبيل هذه المتعـة الطاهرة . انه يقدم نفسه .. الخ ».

واستانف قراءة الفقرة المدانة :

« ثم ردد « رحمتك يا الله » وصلاة الاستغفار وغمس اصبعـــه الايمن في الزيت ، وابتدا المسحات الاخيرة : اولا على عينيها اللتين طالما تطلعتا الى المتع الارضية ، ثم فوق انفها المولع بالنسمات الفاترة والروائح الغرامية ، ثم فوق فمها الذي كان مفتوحا للكذب ، والذي كان يئن من التكبر ويصيح من الشهوة ، ثم فوق اليدين اللتين كانتا تتلذذان باللمسات العذبة ، واخيرا فوق مسطح قدميها اللتين كانتا فيما مضى بالغتي السرعة في الجري لاشباع رغباتها ، واللتين لن تعودا تسيران الآن . »

« وجفف القسيس اصابعه والقى الى النار بقطع القطن المبللة بالزيت ، وعاد ليجلس الـى جوار المحتضرة لكي يخبرها ان من واجبها الآن ان تضم آلامهـــــا الى آلام المسيح وان تستسلم للرحمة الإلهيـــة .

« وعندما انتهى من وصاياه حاول ان يضع في يدها شمعة باركها ، رمزا لامجاد السماء التي ستحيط بها بعد قليل . ولكن ايما البالغة الضعف لم تستطع ان تغلق اصابعها ، ولولا السيد بورنيسيان لسقطت الشمعة على الارض .

« ومع ذلك فانها لم تعد شاحبة كما كانت ، وقد انتشر على وجهها مظهر الاطمئنان ، وكأن الطقوس الدينية قد شفتها ..

« ولم يغفل القسيس ابداء هذه الملاحظة ، بل وشرح لبوفاري أن الله يمد احيانا في حياة الاشخاص عندما يرى ذلك ملائما لخلاصهم ، وتذكر شارل كيف انها تلقت يوما وهي قريبة مـن الموت طعام التناول وظن انه ربما لم يكن هناك محل للياس » .

والآن عندما تموت امراة ويعطيها القسيس المسحـــة الاخيرة ، وعندما نصنـــع من هـــذا مشهدا صوفيا ونورده في امانة صارمة العبارات المقدسة ، يقال اننا قد مسسنا بالاشياء المقدسة . لقد مددنا الى الاشياء المقدسة يدا جريئة ، لاننا قد اضفنا الى عبارات الاعين والفم والاذنـين والرجلين المخطئة اسم الخطيئة التي ارتكبها كل من هذه الاعضاء ، ولسنا نحن اول من سار

في هذا الطريق ، فسانت بيف قد وضع في كتاب تعرفونه مشهدا للمسحة الاخيرة وها هي طريقة عرضه لـه :

« آه ! نعم . فوق العينين اولا باعتبارهما انبل واحط حواسنا — فوق هاتين العينين بسبب ما رانا وتاملنا من مشاهد رقيقة او خبيثة او عيون اخرى فانية ، وبسبب ما قرانا واجادنا قراءته من صفحات جذابة أو حبيبة وبسبب ما سكبنا من دموع مهدرة فوق اعراض فانية واشخاص خائنين ومن اجل ذلك النوم الذي طالما نسيا في المساء اثناء التفكير في اولئك الاشخاص .

« ثم فوق السمع ايضا بسبب ما سمع او قبل ان يسمع من الفاظ مفرطة العذوبة والملق والتمل ، وبسبب ذلك الصوت الذي تسرقه الاذن في بطء من الاقوال الخادعة ، وبسبب ما تعبه من عسل خفي !

« ثم فوق حاسة الشم بسبب العطور النافذة المثيرة في امسيات الربيع وسط الغابات ، وبسبب الزهور التي تصل في الصباح وتستنشق طوال النهار في استمتاع !

« وفوق الشفاه بسبب ما تفوهت به من الفاظ غامضة او مفضوحة ، وبسبب الردود التي لم تقم بها في بعض اللحظات والتي لم تفصح عنها لبعض الاشخاص ، وبسبب ما تغنت به في الوحدة من انغام منسجمة ومليئة بالدموع ، وبسبب ما تمتمت به من عبارات غير متميزة المقاطع واخيرا بسبب صمتها !

« وفوق الصدر بسبب اشتعال الرغبة كما يقول التعبير التقليدي . نعم بسبب آلام الحب والغيرة . بسبب اللهفة المفرطة التي تنتج عن المحبات البشرية — بسبب الدموع التي تخنق الحلق وتكتم الصوت — بسبب كل ما يحمل القلب على الخفقان او ينهشه !

« وفوق اليدين ايضا بسبب ضمهما ليد لم ترتبط بهما رباطا مقدسا — بسبب تلقيهما دموعا مفرطة الحرارة ، واخيرا ربما كان بسبب البدء في كتابة رد غير مسموح به دون انجازه !

« وفوق القدمين لانهما لم يهربان لانهما طقوسي ديني للعبادات مع رد على الاعتراضات المستمدة من العلوم ضد الدين ، لمؤلفه الاب امبرواز جالوا راعي نوتردام دى باري في مالن — الطبعة السادسة .. الخ » وهو كتاب اجازه قداسة الكاردينال جومه ومجلس قساوسة ومطارنة مالن وتور وبوردو وكولون .. الخ . المجلد الثامن المطبوع في مالن بواسطة شارل مونوابيه سنة ١٨٥١ . وسوف ترون في هذا الكتاب — كما رأيتم منذ هنيهة عند بوسويه — المبادىء — بل وعلى نحو ما نص — الفقرات التي يدينها السيد محامي الامبراطورية . وأنا الآن لا اورد نصا للسيد سأنت بيف الفنان هاوي الادب ، بل ادعوكم الى ان تنصتوا للكنيسة نفسها :

« ان المسحة الاخيرة يمكن ان ترد الصحة للجسم اذا كانت نافعة لمجد الله ... »
والقسيس يقول ان هذا كثيرا ما يحدث . والآن ها هي المسحة الاخيرة .

« يوجه القسيس للمريض موعظة قصيرة اذا كان في حالة تمكنه من سماعها ، وذلك لكي يهيئه لتلقي الطقوس التي ستقدم اليه في وقار .

« ثم يقوم القسيس بالمسحات فوق المريض بالخنجر او بطرف الابهام الايمن الذي يغمسه كل مرة في زيت المعجزة . وهذه المسحات يجب ان تعمل بنوع خاص فوق الاجزاء الخمسة من الجسم التي اعطتها الطبيعة للانسان كاعضاء للحواس وهي العينان والاذنان والانف والفم واليدان .

« وكلما قام القسيس بالمسحات (لقد تابعنا الطقوس نقطة فنقطة ونسخناها) ينطق بالعبارات المتعلقة بها .

« على الاعين فوق الجفن المغلق يقول :

ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الالهية فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بالبصر . وفي هذه اللحظة يجب على المريض ان يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبها بواسطة البصر سواء اكانت نظرات جريئة أو تطلعا او قراءة ولدت فيها جملة من الافكار المنافية للايمان وللاخلاق » .

وماذا فعل السيد فلوبير ؟ لقد وضع في فم القسيس ما يجب أن يكون في عقله وفي عقل المريض معا ، وقد جمع الجزئين سويا وقد نسخ المؤلف ما قراه في دقة وبساطة .

« وفوق الاذنين يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الالهية فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة السمع . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جدبد كل الخطايا التي ارتكبها عندما استمع في لذة الى اقوال السوء والنميمة والالفاظ النابية والاغاني غير العفيفة .

« وفوق الفم يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة الشم . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبها بالشم عند بحثه عن العطور الرهيفة المثيرة ، وعن المتع الحسية ، وكل ما استنشقه من روائح باغية .. وفوق الفم والشفتين يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة الذوق وبالكلام . وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كل الخطايا التي ارتكبها عندما تفوه باقسام أو لعنات ... وعندما أفرط في الاكل والشرب ... وفوق اليدين يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحاسة اللمس ، وفي هذه اللحظة يجب على المريض ان يكره من جديد كل السرقات وكل عدوان يمكن أن يكون قد ارتكبه وكل الاباحات الاجرامية التي سمح لنفسه بها ... والقسس يتناولون المسحة خارج ايديهم وذلك لانهم قد تلقوها داخلها . عند رسامتهم ، بينما يتناولها المرضى الاخرون داخل ايديهم — وفوق الأرجل يقول : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بسميك ، وفي هذه اللحظة يجب على المريض أن يكره من جديد كافة الخطوات التي قام بها في طرق البغى سواء في النزهات الفاضحة أو في المقابلات الاثمة ... ومسحة الارجل توضع فوق أعلى القدمين أو تحت مسطحهما وفق راحة المريض وتبعا للعرف الجاري في الابرشية ، والعادة الجارية يلوح أنها على مسطح القدمين .

« وأخيرا فوق الصدر (لقد نسخ السيد سانت بيف النص حرفيا واما نحن فلم نفعل هذا لاننا كنا بصدد صدر امراة) بسبب الرغبة الملتهبة .. الخ .

« وفوق الصدر : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بالتهاب الرغبات ، ويجب على المريض في هذه اللحظة ان يكره من جديد كافة الافكار السيئة والرغبات الاثمة التي استسلم اليها وجميع احاسيس البغضاء والانتقام التي نماها في قلبه » .

ولقد كنا نستطيع تبعا للطقوس ان نتحدث عن اشياء اخرى غير الصدر ولكن الله يعلم أي غضب مقدس كنا سنثيره عندئذ لدى النيابة العامة لو اننا تحدثنا عن الحواس .

« وفوق الكليتين : ببركة هذه المسحة المقدسة وبرحمتها الكبيرة فليغفر لك الله كافة الخطايا التي ارتكبتها بحركات الجسم غير المتظمة » .

لو اننا قلنا هذا لكنتم قذفتمونا بلية صاعقة ! أيها السيد محامي الامبراطورية ! ومــع ذلك تضيف الطقوس :

« ويجب على المريض في هذه اللحظة ان يكره من جديد كافة اللذات غير المشروعة وكافة المتع الجسميـــة ... »

هذه هي الطقوس وقد رايتم فيها مادة الاتهام ، وليس فيها مزح بل كلها جد مؤثر . واكرر ان الذي اعطى موكلي هذا الكتاب وراى موكلي يستخدمه على نحو ما فعل قد صافح يده وهو يبكي . وهكذا ترى ايها السيد محامي الامبراطورية الى اي حد كانت الجراة ـــ وانا استخدم هذا اللفظ لكي لا استخدم لفظة اخرى قد تكون اكثر دقة ولكنها اشد قسوة ـــ في الاتهام ، باننا قد مسسنا بالاشياء المقدسة ، وانتم ترون الآن اننا لم نمزج بين العنصر الدينوي والعنصر المقدس عندمـــا اضفنا الى كل حاسة الخطيئة التي ترتكبها ما دامت هذه هي لغة الكنيسة ذاتها .

هل اتمهل الآن عند التفاصيل الاخرى المتعلقة بجريمة الاساءة الى الدين ؟ وها هي النيابة العامة تقول لي : « انكم لم تسيئوا الى الدين ، وانما اسأتم الى الاخلاق السائدة في كافــة الازمنة ، وقد وجهتم السباب الى الموت » وكيف وجهنا السباب الى الموت ؟ لاننا وقت احتضار هذه المراة قلنا انه قد مر بالشارع رجل كانت قد قابلته اكثر من مرة ، وسالها احسانا الى جوار العربة التي كانت تعود فيها من مواعيدها الفاسقة ، وهو الاعمى الذي اعتادت رؤيته ـــ الأعمى الذي كان يغني اغنية بينما كانت العربة تصعد الهضبة ، والتي كانت تلقي اليه بقطعة مـــن النقود ، وكان مظهره يثير فيها القشعريرة . وهذا الرجل يمر في الشارع . وفي اللحظة التي تغفر فيها رحمة الله او تعد بالغفران لهذه المراة البائسة التي كفرت بموت بشع عن خطايا حياتها ـــ تابى سخرية البشر الا أن تظهر لها في صورة الاغنية التي تمر تحت نافذتها . يالله ! انك ترى ان في هذا اساءة ، ولكن السيد فلوبير لا يفعل ما فعله شكسبير وجيته اللذين لا يفوتهما عند اللحظـــة الحاسمة للموت أن يسمعانا اغنية اما للشكوى واما للسخرية ، لكي تذكر من هو في طريقـــــه الى الابدية بلذة لن يستمتع بها بعد ذلك ، أو بخطيئة تتطلب التكفير عنها .

ولنقـــرأ :

« وبالفعل نظرت حولها في بطء كمن يستيقظ من حلم ، ثم طلبت في صوت واضح مرآتهـــا ، وظلت منحنية فوقها بعض الوقت حتى انسكبت من عينيها دموع غليظة ، وعندئذ طرحت رأسها الى الخلف وهي تتنهد وعادت الى السقوط فوق الوسادة .

« اخذ صدرها بعد ذلك مباشرة يلهث في سرعة »

لا استطيع ان اقرا لانني كلامارتين ارى « ان التكفير يذهب الى أبعد من الحقيقة ... » ومع ذلك فانني يا سيدي محامي الامبراطورية لم اعتقد انني اسيء صنعا بقراءة هذه الصفحات لبناتي المتزوجات ، وهن بنات فضليات تلقين امثلة ودروسا صالحة ، ولم يحدث قط أن انحرفن عن الطريق المستقيم لاي تطفل ، ولا تطلعن الى سماع اشياء لا يمكن ولا يجوز ان تسمع . وانه ليستحيـــل علي أن استمر في القراءة ، وساكتفي في دقة بالفقرات موضع المؤاخذة :

« مادا ذراعيه ، وكلما اشتدت الحشرجة (كان شارل في الناحية الاخرى ـــ هذا الرجـــل الذي لا ترون ابدا ، وهو رجل رائع) وكلما اشتدت الحشرجة ، أسرع القسيس في مواعظـــه التي كانت تختلط بانتخابات بوفاري المكبوتة . واحيانا كان يلوح ان كل شيء يختفي في التمتمــة الصامتة للمقاطع اللاتينية ، التي كانت ترن كدقات ناقوس حزين .

« وفجاة سمعت على الرصيف ضوضاء حذاء خشبي سميك مع حفيف عصا ، وصوت أجش

يرتفع مغنيا : كثيرا ما تدفع حرارة يوم صحو الصبية الى ان تحلم بالحب !

« ونهضت ايما كالجثة التي ينفخون فيها الحياة ، محلولة الشعر ، جامدة الحدقة مفتوحتهـا » .

« واستمر الصوت يغني : لكي تجمع في خفة السنابل التي يحصدها المنجل ! ها هي حبيبتي نانت تنحني فوق خط المحراث الذي يعطينا هذه السنابل ! .

« وصاحت ايما : الاعمى ! ثم اخذت تضحك ضحكا مؤلما مجنونا يائسا ، معتقدة انها ترى الوجه المخيف لهذا الشقي ، الذي ينهض في الظلمات الابدية كشبح مرعب . »

واستمر الغناء : وهبت الريح قوية في ذلك اليوم ، وتطايرت الجونلة القصيرة !

« والقت بها شهقة فوق الحشية ، واقترب الجميع ... وكانت قد فارقت الحياة ! »

انظروا ايها السادة ، ففي اللحظة الحاسمة تعود الذكرى والندم ، بكل ما فيه من الم كاو ونظاعة بالغة . انها ليست نزوة فنان يريد فقط ان يجمع الاضداد بدون جدوى ، وليست مجرد عظة اخلاقية ، بل ان الاعمى الذي تسمعه ، وهو يغني في الشارع هذه الاغنية المفجعة ، التي كان يغنيها وهي عائدة غارقة في عرقها ، بشمعة من مواعيد الزنا — ان الاعمى الذي كانت تـراه عند كل موعد من مواعيدها ، انه الاعمى الذي كان يلاحقها باغنيته والحاحه ، انه هو الـذي ياتي في لحظة الرحمة الالهية لكي يمثل الصراع البشري الذي يلاحقها في لحظة الموت الحاسمة !

وهذا هو ما يسمونه اساءة للاخلاق العامة ! ولكنني استطيع ان اقول على العكس ان فيـه اجلالا للاخلاق العامة ، وانه ليس هناك ما هو امعن من هذا في الاخلاق . وباستطاعتي أن اقول ان عيب التربية قد جسم في هذا الكتاب ، وانه قد اخذ من الواقع ، واقع حياتنا الاجتماعية النابضة، حتى ليلقي المؤلف عند كل مقطع السؤال الاتي : « هل قمت بما يجب لتربية بناتك ، وهل الدين الذي قدمته لهن هو ذلك الدين الذي يستطيع ان يسندهن وسط اعاصير الحيـاة ، أم انه ليس الا كومة من الخرافات الحسية تتركهن بغير سند عندما تزمجر العاصفة ؟ هل علمتهن ان الحياة ليست تحقيقا لاحلام وهمية بل هي شيء عادي يجب أن نتلاءم معه ؟ هل علمتهن هذا ؟ انت ؟ هل فعلت ما يجب لضمان سعادتهن ؟ هل قلت لهن : يا طفلاتي المسكينات ، انكن لن تجدن في بحثكن عن المسرات خارج الطريق الذي أدلكن عليه غير الاشمئزاز الذي ينتظركن ، ثم هجران بيوتكن ، والاضطراب والفوضى ، وتبديد المال ، والصدمات والحجز .... » وباستطاعتكم ان تنظـروا فيما اذا كانت اللوحة ينقصها شيء . فهناك المحضر ، وهناك ايضا اليهودي الذي باع لكي يشبع نزوات هذه المراة ، والاثاث قد حجز عليه ، وسيتم البيع ، والزوج يجهل كل شيء حتى الآن ، ولم يبق للمسكينة الا ان تموت .

ولكن النيابة العامة تقول ان موتها ارادي ، وهذه المراة قد ماتت في حينها .

فهل كانت تستطيع أن تعيش ؟ الم يكن مقضيا عليها بالموت ، وهل لم تستنفذ آخر درجـة في الخزي والحقـارة ؟

نعم ! انهم يظهرون على مسارحنا النساء اللاتي انحرفن رشيقات باسمات سعيدات ، ولا اريد ان اقول ما فعلنه ... ومـا صنعن باجسامهن ، ولكننـي اكتفي بأن اقول بانهم عندمـا يظهرونهن سعيدات ساحرات ملفوفات في الحرير ، وهن يمددن يدا رشيقة الى الكونتات والمراكيز والادواق ، وانهن يحملن — هن انفسهن — القاب المركيزات والدوقات — اقول ان هذا هو ما ما تسمونه احترام الاخلاق العامة . واما من يقدم لكم امراة زانية وهي تحتضر في خزي ، فانه يقترف اساءة الى الاخلاق العامه !

هذا ، وانني لا أريد أن أقول أن الرأي الذي عبرت عنه ليس رأيك ، ما دمت قد عبرت عنه . ولكنك قد استسلمت لشاغل هام . لا ! انه ليس أنت الزوج ورب الاسرة والرجل الماثل بيننا ، ... انه ليس انت ، فهذا ليس بالممكن ! لست أنت الذي يدفعك شاغل الانهام ، رأى سلفي ، الى أن تأتي لتقول أن السيد فلوبير مؤلف لكتاب رديء ! نعم ! فانك لو تركت لوحي نفسك لكان تقديرك كتقديري تماما ! وأنا لا اعني الناحية الادبية ، فاننا لا يمكن ان نختلف أنا وأنت من هذه الناحية ، ولكنني أعني ناحية الاخلاق ، والمشاعر الدينية ، التي نفهمها على نحو ما أفهمها .

لقد قيل لنا ايضا اننا قد عرضنا في الرواية قسيسا ماديا . ولكننا قد أخذنا القسيس كما أخذنا الزوج . فهو ليس من رجال الدين البارزين ، بل هو رجل عادي ، قسيس ريف . وكما اننا لم نسيء الى احد ، ولم نعبر عن أي احساس أو رأي يمكن أن يسيء الى الزوج ، فاننا كذلك لم نسيء الى القسيس الذي كان موجودا هناك . وليس لدي ما أقوله في هذا غير كلمة موجزة .

هل تريدون كتبا يلعب فيها رجال الدين دورا معيبا ؟ خذوا « جيل بلاس » و « كاهن » بلزاك ، و « ونوتردام دي باري » لفيكتور هيجو ، واذا أردتم أن تعثروا على قسس يعتبرون مسبة لرجال الدين فابحثوا عنهم في مكان آخر ، لانكم لن تجدوهم في مدام بوفاري » . وما الذي اظهرته انا ؟ انه قسيس ريف ، يعتبر في مزاولة وظائفه ــ كقسيس ريف ــ في نفس الوضع الذي وضعنا فيه السيد بوفاري ، أعني وضع الرجل العادي . هل صورته اباحيا ؟ ... نهما ؟ ... سكيرا ؟ ... انني لم أقل كلمة واحدة من كل هذا . لقد مثلته ناهضا بمهمته ، لا بذكاء رفيع ــ ولكن على نحو ما اقتضت طبيعته أن ينهض بها . وقد جعلته يحتل ويناقش مناقشة مستمرة مع شخصية ستحيا ، كما عاشت شخصية السيد « برودوم » ، وكما ستعيش بعض الشخصيات الاخرى التي خلقها عصرنا ، وهي شخصيات درست بدقة والتقطت من واقع الحياة بحيث لا يمكن أن تنسى ، وهو صيدلي الريف الفولتيري المتشكك المنكر للايمان ، الرجل الدائم الصراع مع القسيس . ولكنه ــ في صراعه مع القسيس ــ من الذي ينهزم دائما ويستخف به ويسخر منه ؟ انه هوميه ، فهو الذي أعطى الدور الأكثر اثارة للضحك ، لانه الاكثر صدقا ، وهو الذي يصور أصدق تصوير عصرنا المتشكك ــ رجل مصروع ، ذلك الذي نسميه كاره القسس ! ولتسمحوا لي مرة أخرى أن أقرأ لكم ص ٢٠٦ :

« قالت صاحبة الفندق وهي تتناول من فوق المدفاة أحد تلك المشاعل النحاسية التي كانت مرصوصة هناك بشمعداناتها : بماذا تأمر يا سيدي القسيس ؟ هل تريد أن نتناول شيئا ؟ ... قليلا من الخمر ، أم كاسا من النبيذ ؟

« ورفض القسيس في أدب جم ، لأنه انما حضر لكي يأخذ مظلته التي كان قد نسيها منذ أيام في دير ارنمون . وبعد أن رجا مدام لوفرنسوا ان ترسلها في المساء الى محل سكنه في الكنيسة ، خرج لكي يذهب الى الكنيسة حيث كان ناقوس الصلاة يدق .

« وبعد أن لم يعد الصيدلي يسمع في الميدان صوت حذائه ، وجد ان سلوكه قد كان غير لائق عندما رفض منذ هنيهة أن يتناول مرطبا ، ولاح له هذا الرفض نفاقا من أبغض نوع ، فالقسس يعربدون جميعا دون أن يراهم أحد ، ويعملون على أن يعود عصر « الأتاوة العشرية » !

« ودافعت صاحبة الفندق عن قسيسها :

« ــ وفضلا عن ذلك فانه يستطيع ان يكسر اربعة مثلك فوق ركبته ، وقد عاونه في العام الماضي رجالنا في تخزين القش ، وكان يحمل ست حزمات في وقت واحد لشدة قوته !

وقال الصيدلي : «برافو ! ارسلي اذن بناتك للاعتراف عند هؤلاء العمالقة اصحاب مثل هذا المزاج ! اما عن نفسي فلو انني كنت الحكومة لأمرت بأن يقصد هؤلاء القسس مرة كل شهر ! نعم ! يا مدام لوفرنسوا ! .. كل شهر ! قصدة كبيرة ، لمصلحة الامن والاخلاق !

« اخرس ! يا سيد هوميه .. انك رجل كافر ، ليس لك دين !

« وأجاب الصيدلي : انه لي دينا — ديني — بل ولدي من الدين أكثر منهم » بمساخرهم وبهلوانياتهم ! وأنا على العكس أعبد الله ، وأؤمن بالكائن الاسمى ، بخالقه أيا كان ، فهذا لا أهمية له — بذلك الذي وضعنا فوق هذه الارض لكي نؤدي واجباتنا كمواطنين ، وكآباء أسر ، ولكنني لست في حاجة الى أن أذهب الى كنيسة لكي اقبل أطباقا من الفضة ، ولكي أسمن من جيبي كومة من المهرجين الذين يتغذون خيرا منا ! وذلك لاننا نستطيع ان نبجله نفس التبجيل في غابة او حقل ، بل وبتأمل قبة الاثير كما كان يفعل القدماء . انه الهي أنا هو اله سقراط وفرانكلين وفولتير ودي بيرانجيه ! انني من أنصار « الاعتراف بالايمان لقسيس السافوا » والمبادىء الخالدة لثورة ٨٩ ! ولذلك فانني لا أسلم بهذا « الرجل الممثل للاله » وهو يتجول في أرضه ، وعصاه في يده ، ويسكن أصدقاءه في بطن الحيتان ، ويموت وهو يصيح ، ويبعث بعد ثلاثة أيام ! فهذه في ذاتها أشياء سخيفة كما أنها تتعارض تمام التعارض مع كافة قوانين علم الطبيعة ، مما يظهر لنا عرضا كيف أن القسس قد عاشوا دائما قابعين في جهل متحجر ، يحاولون ان يغرقوا فيه معهم كافة سكان الارض !

« وسكت ، باحثا بعينيه عن جمهور حوله ، وذلك لان الصيدلي عند فورته قد اعتقد لحظة أنه في خضم المجلس البلدي ! ولكن ربة الفندق لم تعد تنصت اليه ! »

أي شيء في هذا ؟ حوار ... معركة كما كان يحدث كل مرة تسنح فيها الفرصة لكي يتحدث عن القسس .

ولكن هناك ما هو خير من هذا في الفقرة الاخيرة ص ٢٧١ .

« ولكن الانتباه العام تحول بظهور السيد بورنسيان الذي كان يمر تحت السوق ومعه الزيوت المقدسة .

« وقارن هومين كعادته القسس ، بالغربان التي تجذبها رائحة الموتى . وكان يبغض شخصيا منظر القسس لان المسوح كان يحمله على أن يحلم بالكفن ، وكان الى حد ما يكره أحدهما خوفا من الآخر » .

لقد سعد كثيرا صديقنا القديم الذي قدم الينا القربان بهذه الفقرة وقال لنا : « ان هذه حقيقة عاتية ، فهي حقا صورة لكاره القسس الذي « يحمله المسوح على أن يحلم بالكفن ، والذي يكره أحدهما خوفا من الآخر ! » انه كافر ، وانه يبغض المسوح ، وربما كان ذلك الى حد ما بسبب كفره ، ولكنه يكرهه أكثر من ذلك لان يجمله يحلم بالكفن !

ولتسمحوا لي بأن ألخص كل هذا .

انني أدافع عن رجل لو انه لقى نقدا أدبيا بصورة كتابه ، أو لبعض التعبيرات ، أو لكثرة التفاصيل ، أو لنقطة أو لأخرى — لقبل هذا النقد الادبي بأرحب صدر ، ولكنه عندما يرى نفسه متهما بالإساءة الى الاخلاق والى الدين ، فان السيد فلوبير لا يكاد يصدق هذا . وهو يحتج هنا أمامكم بكل الدهشة وكل القوة التي يستطيعها — ضد مثل هذا الاتهام .

انكم لستم ممن يدينون الكتب لبضعة أسطر . بل أنتم من أولئك الذين يحكمون قبل كل شيء على الفكرة والوسائل المستعملة . والذين سيطرحون على أنفسهم ذلك السؤال الذي ابتدأت

به مرافعتي ، والذي أنهيها به : هل قراءة مثل هذا الكتاب توحي بحب الرذيلة أم توحي ببشاعة الرذيلة ؟ وهل هذا التكفير البشع عن الخطيئة لا يدفع ولا يستثير نحو الفضيلة ؟ ان قراءة هـذا الكتاب لا يمكن أن تولد فيه اثرا غير الذي ولدته ، وهو ان هذا الكتاب ممتاز في مجموعـه ، وان تفاصيله لا غبار عليها . وجميع الادب الكلاسيكي يبيح لنا صورا ومشاهد تغاير مـا سمحنا لانفسنا به . ولقد كنا نستطيع أن ناخذها كنماذج من هذه الناحية ، ولكننا لم نفعل ، بل الزمنـا انفسنا باعتدال سيكون محل تقديركم . ولو جاز أن السيد فلوبير ، قد جاوز الحد الذي التزمه ، بكلمة أو باخرى ، لما كان لي أن اذكركم بان هذا هو اول مؤلف له فحسب ، بل كنت اقول لكم ايضا انه ــ بفرض انه قد اخطأ ــ فان خطاه لا خطر منه على الاخلاق العامة .

وان في تقديمه لمحكمة البوليس الجزائي ــ وهو الرجل الذي تعرفونه الآن بعض المعرفـة بفضل كتابه ، والذي اخذتم تحبونه بعض الحب ، والذي اؤكد انكم ستحبونه اكثر من ذلك عندما تزدادون به معرفة ــ اقول ان تقديمه للمحاكمة فيه ما يكفي ، ولقد عوقب بذلك اقصى العقاب . والآن لكم أن تحكموا . ولقد حكمتم على الكتاب في جملتـه وتفاصيلـه ، ولم يعد من الممكن أن تتـرددوا .

الحكم

لقد خصصت المحكمة جزءا من جلسات الايام الثمانية الاخيرة ، لنظر الدعوى المقامة ضد السيد ليون لوران بيشا واوجيست الكسيس بيليه : الاول كمدير ، والثاني كطابع للصحيفـــة الدورية « مجلة باريس » ، والسيد جوستاف فلوبير الاديب ، وثلاثتهم متهمون :

أولا : لوران بيشيه بانه في ١٨٥٦ بنشره في عددي ١ ، ١٥ ديسمبر من مجلة باريس جزءا من رواية عنوانها « مدام بوفاري » ، وبخاصة فقرات مختلفة من صفحـــات ٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ قد ارتكب جرائم الاساءة الى الاخلاق العامة والدينية والمواضعات الحميدة .

ثانيا : بيليه وفلوبير لانهما : بيليه : بطبعه من اجل النشر ، وفلوبير بكتابته وتسليمه الـــى لوران بيشيه لكي تنشر فقرات من رواية عنوانها مدام بوفاري السالفة الذكر ، وساعد وعـــاون مع علمه بما يفعل لوران بيشيه في الاعمال التي مهدت وسهلت وانجزت الجرائم السالفة الذكر ، وبذلك أصبح شريكا في هذه الجرائم المعاقب عليها بالمواد ١ ، ٨ من قانون ١٧ مايو سنة ١٨١٩ ، والمواد ٥٩ ، و ٦٠ من قانون العقوبات .

وقد أيد الاتهام السيد بينار وكيل النائب العام .

وبعد أن سمعت المحكمة الدفاع المقدم من السيد بينار عـــن السيد فلوبير ، ومن السيد ديماريه عن السيد بيشه ، والسيد فافوريه عن الطابع قد أجلت الـــى هذه الجلسة (٢ فبراير) موعد النطق بالحكم الذي صدر على النحو الآتي :

« بما أن لوران بيشه ، وجوستاف فلوبير ، وبيليه متهمون بارتكاب جرائم الاساءة الـــى الاخلاق العامة والدينية والمواضعات الحميدة : الاول كمؤلف بنشره في الصحيفة الدورية المسماة « مجلة باريس » التي يعمل كمدير لها ، وفي أعداد ١ ، ١٥ أكتوبر و ١ ، ١٥ نوفمبر و ١ ، ١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٦ رواية بعنوان مدام بوفاري . وجوستاف فلوبير وبيليه كشريكين : الاول بتقديم المخطوط ، والثاني بطبعه الرواية المذكورة .

« وبما أن الفقرات المقصودة بنوع خاص من الرواية المذكورة التي تحتوي على ما يقرب من ٣٠٠ صفحة ، هي الفقرات الواردة كما جاء في قرار الاحالة الى المحكمة الجزائية في الصفحات

٧٣ ، ٧٧ ، ٧٨ (من عدد أول ديسمبر) و ٢٧١ ، ٢٧٢ ، ٢٧٣ (من عدد ١٥ ديسمبر سنة ١٨٥٦) :

« وبما أن الفقرات موضع الاتهام ، اذا ما ووجهت مجردة ومنفصلة تعتبر بالفعل ، سواء أكانت عبارات ، أم صورا ، ام لوحات — منافية للذوق السليم ، ومن طبيعتها أن تسيء الى اعتبارات حساسة مشروعة وواجبة الاحترام ،

« وبما أن نفس الملاحظات يمكن أن تنطبق بحق على فقرات أخرى لم تحدد في قرار الاتهام ، ويمكن عند النظرة الاولى أن تلوح ممثلة لنظريات لا تعتبر أقل منافاة للمواضعات الحميدة ، والنظم التي تعتبر اساسا للحياة الاجتماعية ، كما تنافي الاحترام الواجب لاكثر الطقوس الدينية جلالا ،

« ولما كان الكتاب المحال على المحكمة يستحق — لعدة اعتبارات — لوما قاسيا ، لان مهمة الادب يجب أن تكون تزيين النفس ، والترويح عنها لرفع الذكاء ، وتطهير الاخلاق ، اكثر من اثارة الاشمئزاز من الرذيلة في تقديم لوحات للفوضى التي يمكن ان توجد في المجتمع ،

« ولما كان المتهمون — وبخاصة جوستاف فلوبير — يدفعون في قوة الاتهام الموجه اليهم ، بمقولة أن الرواية المعروضة للمحاكمة لها هدف اخلاقي بارز ، وان المؤلف قد وضع نصب عينه قبل كل شيء أن يعرض الاخطار التي تنجم عن تربية لا تتلاءم مع الوسط المقدر للانسان أن يعيش فيه ، وانه مجاراة لهذه الفكرة قد اظهر المرأة التي هي الشخصية الاساسية في رواية متطلعة الى عالم ومجتمع لم تخلق لهما ، وشقية بالمركز المتواضع الذي وضعها فيه القضاء ، مهملة اولا واجباتها كأم ، ثم مهملة واجباتها كزوجة ، مدخلة في بيتها تباعا الزنا والخراب ، ومنتهية بالانتحار نهاية تعسة ، بعد أن مرت بكافة درجات الانحطاط الكامل ، منحدرة الى حد السرقة .

« وبما ان هذا الهدف الاخلاقي الموجود بلا ريب من حيث المبدأ ، كان من الواجب أن يكمل في التفاصيل بنوع من القسوة في التعبير ، وبتحفظ مستمر ، فيما يتعلق خاصة بعرض اللوحات والاوضاع التي اقتضت خطة المؤلف ان يعرضها امام أعين الجمهور ،

وبما أنه من غير الجائز — بدعوى تصوير الشخصيات أو اللون المحلي — ان يسجل الكاتب المنحرف من الوقائع والاقوال ، وحركات الشخصيات التي جعل من همه تصويرها ، ومثل هذا المذهب اذا طبق على الانتاج الفكري ، كما لو طبق على انتاج الفنون الجميلة ، خليق بان يؤدي الى واقعية تتنكر للجمال والخير — وتنتج مؤلفات تسيء الى النظر ، كما تسيء الى الروح ، وترتكب اساءات مستمرة الى الاخلاق العامة والمواضعات الحميدة ،

« وبما أن هناك حدودا لا ينبغي للأدب مهما كان خفيفا أن يتخطاها ، والسيد فلوبير وزملاؤه في الاتهام لا يلوح أنهم قد راعوا هذه الحدود الرعاية الكافية ،

« ولكن بما أن الكتاب الذي ألفه فلوبير كتاب يلوح أنه قد عمل فيه بجد ، ولزمن طويل من الناحية الادبية ، ومن ناحية دراسة الشخصيات ، حتى ان الفقرات التي انتقاها قرار الاحالة مهما تكن معيبة — الا أنها قليلة العدد اذا قورنت بطول الكتاب ، وهذه الفقرات — سواء من ناحية الافكار التي تعرضها ، أو الاوضاع التي تصورها ، تدخل في مجموع الشخصيات التي أراد المؤلف تصويرها ، مع المبالغة ومع صبغها بواقعية مبتذلة منفرة في كثير من الاحيان .

« ولما كان جوستاف فلوبير يعلن احترامه للمواضعات الحميدة وبكل ما يتصل بالاخلاق العامة ، وكان لا يلوح أن كتابه قد كتب كبعض الكتب الاخرى ، لهدف واحد هو اشباع الشهوات الحسية وروح الاباحية والعربدة او تسفيه الاشياء التي يجب أن تحاط باحترام الجميع .

« وكان خطاه هو فقط اغفاله احيانا للقواعد التي لا يجوز ان يتخطاها قط اي كاتب يحترم نفسه ، وانه نسي ان الادب كالفن ، لكي يحقق الخير الذي ينتظر منه ، لا يكفي ان يكون فقط عفيفا طاهرا في صورته وفي عبارته .

« وفي هذه الظروف بما أنه لم يثبت الثبوت الكافي ان بيشه وجوستاف فلوبير وبيليـــه قد ارتكبوا الجرائم المنسوبة اليهـــم .

« فان المحكمة تبرئهم من الاتهام وتسرحهم بدون مصاريف » ..

مدام بوفاري، من أروع الروايات التي عرفها الأدب العالمي في القرن الماضي، إن لم تكن أروعها على الإطلاق!... وقد كرّس بها غوستاف فلوبير، أكبر روائيّ فرنسيّ مع بلزاك في القرن التاسع عشر، انتصار المذهب الواقعيّ على المذهب الرومانتيكيّ؛ ومن هنا تأثيرها العميق في مجرى الرواية العالميّة المعاصرة.

و عند صدور مدام بوفاري، أقامت النيابة العامة الفرنسيّة الدعوى على فلوبير بتهمة اللاأخلاقيّة. ولكن محامي الكاتب ألقى مرافعة رائعة دافع فيها عن الرواية دفاعا بليغا لم تجد المحكمة معه إلاّ أن تبرّئ الرواية وتعتبرها عملا فنيّا ممتازا.

وهذه هي الترجمة الدقيقة الوافية للرواية، وقد قام بها الأديب الدكتور محمد مندور، ويليها نصّ الدعوى المقامة على المؤلّف ودفاع المحامي وقرار المحكمة، وكلّها يثير التشّويق والمتعة.

دار الآداب

هاتف ٨٠٣٧٧٨-٨٦١٦٣٣
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف رسم الجندي